مجموعة مؤلفين

التداعيات الجيوستراتيجية للثورات العربية



المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

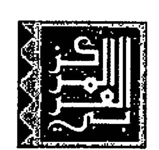
التداعيات الجيوستراتيجية

للثورات العربية



التداعيات الجيوستراتيجية للثورات العربية

أحمد سعيد نوفل | طارق عبد الجليل | محمد صالح صدقيان
أسامة أبو إرشيد | طلال عتريسي | محمد فايز فرحات
بشارة خضر | الطيب محمد | محمود محارب
حسن أبو هنية | عبد الوهاب القصاب | مروان بشارة
خطّار أبو دياب | محجوب الزويري | مروان قبلان
رشيد يلوح | محسن صالح | نورهان الشيخ
سليمان سينسُويْ | محمد جواد علي | هاني المصري
سمير صالحة | محمد السيد سليم | وليد عبد الحي



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
ARAB CENTER FOR RESEARCH & POLICY STUDIES

الفهرسة أثناء النشر إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

التداعيات الجيوستراتيجية للثورات العربية / أحمد سعيد نوفل ... [وآخ.].

655 ص. :ايض. ، خرائط ، جداول ؛ 24 سم.

يشتمل على إرجاعات ببليوغرافية وفهرس عام.

ISBN 978-9953-0-2932-0

1. الثورات - التأثير الجيوستراتيجي - البلدان العربية - مؤتمرات وندوات. 2. النظام الإقليمي العربي - مؤتمرات وندوات. 3. البلدان العربية - أحوال سياسية - مؤتمرات وندوات. أ. المؤتمر السنوي لمراكز الدراسات السياسية والاستراتيجية في الوطن العربي : «تحولات جيوستراتيجية في سياق الثورات العربية» (1: 2012: الدوحة).

320.9174927

العنوان بالإنكليزية

The Geostrategic Implications of Arab Revolutions

by Multiple Authors

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن
اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشـر




شارع رقم: 826 منطقة 66
المنطقة الدبلوماسية الدفنة، ص. ب: 10277 الدوحة قطر
هاتف: 44199777 00974 فاكس: 44831651 00974
جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان
هاتف: 8 991837 1 00961 فاكس: 1991839 00961
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

الطبعة الأولى

بيروت، شباط/ فبراير 2014

المحتويات

القسم الثاني: القوى الدولية والتغيرات الجيوستراتيجية
في الوطن العربي

قائمة الجداول والأشكال والخرائط

الجداول

الأشكال

الخرائط

المساهمون

أحمد سعيد نوفل

يعمل أستاذًا جامعيًا في قسم العلوم السياسية في جامعة اليرموك/ الأردن. وهو أيضًا باحث في قسم دراسات الشرق الأوسط في جامعة تورنتو - كندا. حاصل على درجة الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة السوربون في فرنسا. له كثير من الكتب والدراسات السياسية المنشورة.

أسامة أبو إرشيد

مؤسس صحيفة الميزان الصادرة باللغة العربية في الولايات المتحدة الأميركية، ومحرر فيها. حاصل على شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة لفبرة في المملكة المتحدة. له كثير من الدراسات والأبحاث الأكاديمية والمقالات المنشورة باللغتين العربية والإنكليزية عن السياسات الداخلية والخارجية الأميركية.

بشارة خضر

يشغل موقع مدير مركز أبحاث ودراسات العالم العربي في جامعة لوفان - بلجيكا. يعمل أيضًا مستشارًا للسياسات الخارجية والأمنية في المفوضية الأوروبية. حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة لوفان - بلجيكا. له كثير من المنشورات الأكاديمية والصحافية عن الشراكة الأورو - متوسطية.

حسن أبو هنية

باحث أردني متخصص بشــؤون الحركات الإســلامية، له مجموعة من الكتب باللغتيــن الإنكليزيــة والعربية، إضافــة إلى مجموعة من الدراســات والمقالات في مجال الحركات الإسلامية.

خطّار أبو دياب

أســتاذ محاضر في العلاقات الدولية في جامعة باريــس. يعمل باحثًا في «المعهد الدولــي للجيوبوليتك» في باريس، ومستشــارًا ومحللًا سياســيًا في الشــؤون الفرنســية والدولية. له كثير مــن المؤلفات والدراســات والأبحاث المنشورة عن نزاعات الشرق الأوسط والجيوبوليتك والعولمة.

رشيد يلوح

باحث في «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات»، يهتم بالعلاقات العربية - الإيرانية والسياســة الداخلية الإيرانية. عمل قبل انضمامه إلى المركز صحافيًا متخصّصًا بالشــؤون الإيرانية، له أبحاث وترجمــات عدة بين اللغتين الفارسية والعربية، ودراسات في الثقافة والإعلام والدراسات الإيرانية.

سليمان سينسُويْ

مؤسس المركز التركي- الآســيوي للدراسات الاســتراتيجية» (تاسام)، إضافة إلى دار النشر ومجلة الدراسات الاستشرافية العلمية التابعة لهذا المركز.

سمير صالحة

كاتب ومحلل سياســي تركي. أســتاذ القانون الدولي العــام والعلاقات الدولية في جامعــة دجلة ديار بكر - تركيا (1990 - 1999). كاتب مشــارك في أكثر من صفحة رأي عربية وتركية، ومشــارك فــي كثير من مراكز الأبحاث

والدراسات التركية والإقليمية. حاز درجة الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة باريس العاشرة في عام 1985.

طارق عبد الجليل

مؤسس ومدير مركز القاهرة للدراسات التركية. أكاديمي متخصص بالشؤون التركية في جامعة عين شمس، ومحاضر في عدد من الجامعات والمراكز البحثية التركية. أصدر عددًا من الكتب باللغتين العربية والتركية، وترجم عددًا من الكتب من التركية إلى العربية.

طلال عتريسي

أستاذ علم الاجتماع التربوي وعلم النفس الاجتماعي في الجامعة اللبنانية. مدير مركز الدراسات الاجتماعية والتربوية في بيروت. رئيس تحرير مجلة الملف التربوي. حاز درجة الدكتوراه في علم الاجتماع التربوي من جامعة السوربون في باريس.

الطيب زين العابدين محمد

أستاذ العلوم السياسية في معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية في جامعة الخرطوم. الأمين العام لمجلس التعايش الديني السوداني، كاتب صحافي وناشط في منظمات المجتمع المدني.

عبد الوهاب القصاب

باحث مشارك في «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات»، عمل سابقا مستشارًا للشؤون البحرية لرئيس الأركان العامة العراقي، ومستشارًا للأبحاث والتّطوير لرئيس الأركان العامة للقوّات المسلّحة العراقية. وفي المجال الأكاديمي، عمل باحثًا في مركز دراسات الوطن العربي في الجامعة المستنصرية، وباحثًا في مركز الدراسات الدولية في جامعة بغداد.

محجوب الزويري

يعمل أستاذًا محاضرًا في جامعة قطر. شــغل سابقًا مدير مركز الدراسات الإيرانية في جامعة دارم - المملكة المتحدة. أصدر عددًا من الكتب عن إيران، وله الكثير من الدراســات والمقالات الصحافية. حاصل على درجة الدكتوراه في التاريخ من جامعة طهران.

محسن صالح

المدير العام لــمركز الزيتونة للدراسات والاستشــارات منذ عام 2004 في بيروت. أستاذ مشارك في الدراسات الفلســطينية، صدر له كثير من الكتب والدراســات المحكّمة والمقالات. حاصل على شــهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر في عام 1993.

محمد جواد علي

يعمل أســتاذًا جامعيًا في جامعة الحصن في الإمــارات العربية المتحدة. وكان قد عمل أستاذًا جامعيًا في جامعة بغداد، ورئيسًا لــمركز الدراسات الدولية فيها. لديه عدد من الإصدارات والأبحاث المنشورة.

محمد السيد سليم

أستاذ العلوم السياسية في جامعة الكويت، ومدير مركز الدراسات الآسيوية في كلّية العلوم الاجتماعيــة في الجامعة ذاتها. له عدد مــن الكتب والأبحاث الأكاديمية باللغتين العربية والإنكليزية. حاصل على درجة الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة كارلتون في كندا.

محمد صالح صدقيان

مؤســس المركز العربي للدراســات الإيرانية في طهران في عام 2005. متخصص بالشؤون الإيرانية. عمل في عدد من الصحف العربية وفي المجلّات

العالميــة منذ عام 1980. كتــب عددًا من المقالات والدراســات السياســية والاقتصادية عن إيران.

محمد فايز فرحات

يعمل خبيرًا في مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، ورئيس برنامج الدراســات الآســيوية في المركز ذاته، ورئيس تحرير سلسلة **كراسات استراتيجية**. حاصل على درجة الماجستير في العلوم السياسية.

محمود محارب

باحث في «المركز العربي للأبحاث ودراســة السياســات»، وهو أســتاذ جامعي فلســطيني. له عدد كبير من الكتب والأبحاث عن الصهيونية وإسرائيل. شــغل مواقع أكاديمية عديدة، آخرها مدير معهد الدراسات الإقليمية في جامعة القدس. حصل على شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة ريدينغ في المملكة المتحدة.

مروان بشارة

أكاديمي ومحلل فلسطيني. يعمل محررًا ومقدمًا لبرنامج «إمباير» في قناة الجزيرة الإنكليزية. عمل أســتاذًا للعلاقات الدولية فــي الجامعة الأميركية في باريس ســابقًا. كتب ونشــر أبحاثًا ومقالات عدة باللغتين العربية والإنكليزية، وشارك في عدد من المؤتمرات الأكاديمية.

مروان قبلان

شغل سابقًا موقع مدير مركز شام للبحوث، وعميد كلّية العلاقات الدولية في جامعــة القلمون. له الكثيــر من الأبحاث فــي قضايا السياســة الخارجية والعلاقات الدوليــة. حاصل على شــهادة الدكتوراه في العلوم السياســية من المملكة المتحدة، وعمل ودرّس في جامعاتها.

نورهان الشيخ

أستاذة العلوم السياســية في جامعة القاهرة. تعمل مديرة لوحدة دراسات الشباب في جامعة القاهرة، ورئيسة لوحدة التدريب المتقدم في المركز الدولي للدراسات المستقبلية والاستراتيجية في القاهرة. صدر لها عدد كبير من الكتب والدراسات والمقالات الأكاديمية في مجال الدراسات الروسية.

هاني المصري

كاتب صحافي ومحلل سياســي. يعمــل مديرًا عامًا للمركز الفلســطيني لأبحاث السياسات والدراسات الاســتراتيجية (مسارات). شغل سابقًا منصب المدير العام للإدارة العامة للمطبوعات والنشــر فــي وزارة الإعلام (1995-2005).

وليد عبد الحي

أستاذ العلوم السياسية في جامعة اليرموك - الأردن. متخصص بالدراسات المســتقبلية في العلاقــات الدولية، لــه العديد من الكتب والأبحــاث العلمية المنشورة، كما ترجم عددًا من الكتب والدراسات من اللغة الإنكليزية إلى اللغة العربية. حائز درجة الدكتوراه في العلوم السياسية.

مقدمة

قد تبدأ الثورات العربية تحقيبًا جديدًا لتاريخ المنطقة العربية، إذا ما نجحت في تحقيق تحـــوّل ديمقراطي. ويصحّ منذ الآن أن ننظـــر إليها كثورات يتداخل فيها السياسي والاجتماعي إلى درجة يصعب معها فصلهما. لكن لا يمكن النظر إلى موجة التغيير والثورات العربية في إطارها الاحتجاجي الداخلي فحســـب، على الرغم من مركزية هذا البُعد في انطلاقتها كثورات اجتماعية اجتاحت – في نمطها العام – الجمهوريات العربية، إذ دقّت في مناسبات عديدة أجراس التغيير والإصلاح في ملَكيات مثل البحرين والأردن والمغرب.

إن لهذه الثورات بُعدًا جيوســـتراتجيا مهمًّا أيضًا؛ يتمثل أساسًا في تأثيرها في الخريطة الجيوسياسية في المنطقة، وما يرتبط بها على مستوى العالم. وتبيّن في بعض الحالات أن للبعد الجيوســـتراتيجي تأثيره المباشر أيضًا في الثورات، وهذا يتفاوت من ثورة إلى أخرى.

لم يُنظَر إلى الثورات من هـــذه الزاوية في بداية انطلاقتها في تونس. وكان من الطبيعي أن يُنظر إلى تأثير الثورة المصرية الجيوســـتراتيجي، بســـبب وزن مصر الإقليمي. لكن بوصول الثورات إلى محاور جيوسياسية تشهد تباينات في توجهات الفاعلين الجيوستراتيجيين والإقليميين، مثل البحرين واليمن وسورية، بدت حركات الاحتجاج كما لو أنها تعكس نسقًا من التفاعلات داخل النظامين الدولي والإقليمي، نظرًا إلى تقاطع المصالـــح واختلافها، وانعكاس ذلك على مواقع الفاعليـــن الجيوســـتراتيجيين وأدوارهم في منطقة تُعـــد «بؤرة الأزمات عالميًا» لأهمية موقعها جيوسياسيًا وجيواقتصاديًا.

كما هي حال المنطقة العربية كحد جغرافي متأثر بأدوار الفاعلين الإقليميين والدوليين ومواقعهم، انطلقت الثورات العربية في ظلّ تغيرات جيوستراتيجية، وأحدثت تغيرات يبدو - إذا ما نُظر إليها نظرة استشـرافية - أنها ستكون بالغة التأثير في تحديد الخريطة الجيوسـتراتيجية من ناحيتَي أوزان القوى وأدوارها والمحـاور الجديدة المحتملة؛ بكيفية تتلاءم طردًا مـع مقدرات الدول المعنية وطموحاتها وأهمية المنطقة العربية.

أوّلًا: توصيف المشهد الجيوستراتيجي قبل الثورات العربية

كانت السّمة العامة للتغيرات الجيوستراتيجية في الوطن العربي بعد نهاية الحرب البـاردة تتمثل في ثبات مصالـح القوى العظمى فـي الوطن العربي، وغياب الفعل العربي الرسـمي على السـاحة الدوليـة؛ إذ كان الوطن العربي بالنسـبة إلى تلك المصالح سـاحة جيوسياسـية، ولم يكن فاعلًا استراتيجيًا. وتنافست الدول العربية في التقرب من الولايات المتحدة، كلٌّ واحدة منها على حدة، وفي إثبات أهميتها للحفاظ علـى مصالحها ونيل حظوتها. وإن إضعاف العـراق بعد حرب الخليـج الثانية، وتلاشـي أي دور قائـد لأي دولة عربية، ولا سيما بعد تنازل مصر عن دورها المركزي في الصراع العربي - الإسرائيلي في إثر السـلام المنفرد الذي عقدته مع إسـرائيل، هما عاملان ساهما في دفع القوى العظمى والـدول الإقليمية إلى بلورة توجهاتها الاسـتراتيجية، وتوطيد مواقعها على حسـاب التخطيط الاسـتراتيجي العربي المشـترك. واستفادت إسرائيل من هذا الواقع؛ إذ إن تحالفها مع الغرب وغياب الدور العربي حصّناها من أي تهديد أمني حقيقي من شأنه أن يغيّر معادلات الصراع القائمة. وتكرس هذا الواقع بعد احتلال العراق.

أشـار احتلال العراق في نيسـان/ أبريل2003 إلى دخول الوطن العربي مرحلة جديدة، حاولت فيها الولايات المتحدة الأميركية تثبيت مواقعها الجديدة وتعزيزها في قيادتها النظام الدولي. وكان ذلك سعيًا منها إلى خلق فضاء الشرق الأوسـط الجديد، الذي مثّل أحد أهم أهداف احتلال العراق. وواجه المشروع

الأميركي نمطيـــن من ردّات الفعـــل، أحدهما مثّلته المقاومـــة التي عبّرت عن نفســـها بالمقاومة الوطنية العراقية، والتي أردفها رفـــضٌ عربي جماهيري يمانع مساعي الولايات المتحدة الأميركية وأهدافها، في حين تماهى كثير من الأنظمة السلطوية مع المشروع الأميركي وتوازناته الجديدة من الناحية الجيوستراتيجية. وبدا كما لو أن معادلة عكســـية الاتجاه بصدد النشـــأة في المنطقة العربية، أحد طرفيها مقاوم والآخر رسمي متخاذل، سلّم أدواته للهيمنة الخارجية (الولايات المتحدة الأميركية).

على المســـتوى الإقليمي، حقّقـــت المقاومة اللبنانية إنجـــازًا غيّر صورة الانتصـــارات الأميركية الإســـرائيلية المتتالية بردع العدوان الإســـرائيلي على لبنان في عام 2006، فثبّتت بذلـــك صورتها كمقاومة ناجعة، نجحت في طرد الاحتلال الإســـرائيلي من لبنان في عام 2000، من دون توقيع اتفاق ســـلام. وتعود أهمّية إنجاز عام 2006 إلى أنه جاء بعد حرب العراق الذي تكرســـت فيه الهيمنة الأميركية. لكـــن المقاومة توقفت من الحـــدود اللبنانية عمليًا بعد هذه الحرب، وحاولت نقل شـــيء من نشـــاطها إلى غزّة لتجنّب الحرب على لبنان، مثلما فعلت ســـورية حين كانت تنقل صراعاتها إلى الســـاحة اللبنانية، واســـتفادت من فاعلية المقاومتين اللبنانية والعراقيـــة؛ ففي رفضها الإملاءات الأميركية بعد حرب 2003 على العراق، راهنت على إمكان تشويش المشروع الأميركي في بعض دول الجوار. وقطفـــت ثمار هذا الرهان عند حفاظها على نظامها من الضغط الخارجـــي، وفكّ عزلتها دوليًا بعـــد اغتيال رئيس الوزراء اللبناني رفيـــق الحريري، وعودتها إلى ممارســـة التأثير في السياســـة اللبنانية الداخلية.

لم تتحـــوّل المقاومتان العراقية واللبنانية إلى محـــور فعلي؛ إذ التقتا بفعل تناقضهما مع الخصم ذاته، وجرى لقاؤهما مع ســـورية في مراحل محددة. غير أن المنطلقات ظلّت شبه متناقضة؛ فكانت المقاومة اللبنانية متماهية مع السياسة الإيرانية، في حين كانت المقاومة العراقية متناقضة معها.

في هذه المرحلة، اكتسب دور المقاومة المواجه للولايات المتحدة أهمية كبيرة بسبب تفرّد الولايات المتحدة الأميركية بقيادة النظام الدولي، وغياب قوى دولية يمكن أن توازن هذا الدور. فروسيا كانت تشكو اختلالات بنيوية تعود إلى مرحلة ما بعد انهيار الاتحاد السوفياتي. أمّا الصين فكانت دولة إقليمية كبيرة من ناحية الفاعلية دوليًا، ولها مقدرات اقتصادية وعسكرية تمكّنها من القيام بدور فاعل، لكنها كانت تعمل على مراكمة قوّتها الاقتصادية والمالية من دون التورط في صراعات في مناطق بعيدة. وحرصت على التوازن الاستراتيجي في المناطق المحيطة بها كدولة إقليمية عظمى (في تايوان وكوريا وبورما واليابان وباكستان والهند بالدرجة الأولى وفي جمهوريات وسط آسيا بالدرجة الثانية). كما تبنّت نهجًا براغماتيًا من وراء ذلك لا يعبّر عن نفسه إلّا من خلال مصالح اقتصادية وجدت لها مجالًا واسعًا في أفريقيا جنوب الصحراء وبعيدًا عن الوطن العربي.

مثّل التورط العسكري الأميركي المباشر في أفغانستان والعراق عبئًا على فاعلية دورها جيوستراتيجيًا، وبدت الإدارة الأميركية كما لو أنها غارقة في تفصيلات مشهد سياسي لا يمكن ضبطه. وهذا ما فرض تغييرًا في التخطيط الاستراتيجي بدأت معالمه تتضح في نهاية عهد الرئيس الأميركي السابق جورج بوش في عام 2007.

أدركت الدول العظمى حقيقة التورط الأميركي ونتائجه السلبية على العراق، فاستغلّت روسيا ذلك لاستعادة أنفاسها كفاعل دولي يستطيع أن يوازن الدور الأميركي في محاور جغرافية عديدة. لكنها ليست الاتحاد السوفياتي، ولا تمثّل أيديولوجيا بديلة للغرب، بل هي قوة ذات مصالح إمبريالية مثل غيرها. وبدت قوة عائدة تطمح قادتها السياسية (بوتين) إلى استعادة أمجاد الانتشار السوفياتي جيوستراتيجيًا. وتجلّى هذا الطموح في أثناء التدخل العسكري في جورجيا في عام 2008؛ إذ بدا كمحاولة لوضع حدود لتوسّع حلف شمال الأطلسي في منطقة تعدّها مجالًا حيويًا مرتبطًا بمفردات تعريف الأمن القومي لها. أمّا الصين فتعاظمت قوتها الاقتصادية

واستمرت في تحقيق معدلات نموٍّ مرتفعة، وغدت عنوانًا لكثير من الدراسات الجيوستراتيجية، بصعودها كقطب ينهي حالة الأحادية القطبية الهشة في النظام الدولي، ولا سيما بعد تبلور اعتمادية اقتصادية بين الولايات المتحدة وأوروبا من جهة، والصين من جهة أخرى. واستثمرت الصين بشكل كبير في سندات الخزانة الأميركية، مستفيدةً من حالة الوهن التي خلّفتها الأزمة المالية العالمية، الأمر الذي أهّلها لتتخطّى اليابان في عام 2009، وتصبح المستثمر الأكبر في سندات الخزانة الأميركية.

أدى التحدي الكبير الذي واجهته الولايات المتحدة الأميركية في العراق (وفي أفغانستان)، وانشغال الدول العربية بقضاياها الداخلية، وغياب أي دور عربي فاعل، إلى استغلال الفاعلين الجيوستراتيجيين الإقليميين الفراغ القائم كفرصة لبلورة النفوذ، وينسحب ذلك على حالة إيران بصورة خاصة؛ حيث ساهم التورط الأميركي في العراق وغياب الحضور العربي في أن تصبح إيران أبرز الفاعلين في هذا البلد بالاستفادة من وشائجَ فرعية (طائفية) ربطت تحالفاتها مع القيادات العراقية الجديدة. لذلك عمدت إلى تعزيز مصالحها القومية لا في الخليج العربي فحسب، بل وفي المشرق العربي أيضًا من خلال تعزيز الحلف الإيراني - السوري، وتطويره إلى مرحلة الالتصاق الاستراتيجي، وإنشاء محور اصطُلح على تسميته «محور المقاومة» بعد حرب تموز/ يوليو في لبنان عام 2006. وسار هذا المحور في اتجاه عكسي مع المخطّطات الأميركية، وقدم نفسه على مستوى الرأي العام كمحور «ممانع» أيضًا؛ أي رافض للانصياع لإملاءات السياسة الأميركية والوضع القائم، ومتناقض مع «محور الاعتدال» الذي ضمّ الدول المماثلة للسياسة الأميركية. ونتيجة لذلك، نشأ جسر استراتيجي، يبدأ من أفغانستان ويمر عبر العراق الذي هيمنت إيران على أوضاعه الداخلية على الرغم من الوجود الأميركي العسكري فيه، وينتهي على الساحل الشرقي للبحر المتوسط. وتحتل إيران على هذا الجسر موقعًا مسيطرًا باعتبارها أكفأ الفاعلين من ناحية القوة العسكرية والمقدرات القومية.

أمّا تركيا، فكانت أبرز الفاعلين جيوستراتيجيًا في المنطقة العربية بعد وصول حزب العدالة والتنمية إلى السلطة في عام 2002؛ إذ راحت تتبنّى مقاربة مختلفة في سياساتها الخارجية، تقوم على مبدأ «محاور متعددة». وتعزّز هذا التوجّه بعد تيقّن الحزب - في إثر اكتمال دورته الأولى في الحكم - من فشل مساعيه للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي. وساهم في ذلك أيضًا احتلال العراق في عام 2003؛ إذ وجدت تركيا في سقوط نظام صدام حسين معضلة أمنية تهدد أمنها القومي. وعمدت إلى تقليص تداعياته من خلال دورها في مؤتمرات «دول جوار العراق»؛ من دون أن تنجح في مواجهة التغلغل الإيراني الحاصل، وتحكّم طهران في مفاصل الحياة السياسية الداخلية العراقية. لذلك لجأت إلى الانفتاح على سورية آنذاك، لتطوير علاقاتها معها، وإبعادها عن الاعتماد الكلّي على التحالف مع إيران، مستفيدة من واقع القيادة السورية المتأزّم على خلفية اغتيال رئيس وزراء لبنان السابق رفيق الحريري.

في عام 2005 تعطّلت مفاوضات انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي بسبب المعارضة التي أنتجتها دول رئيسة، ولا سيما فرنسا (وظلّ الموقف الفرنسي هذا عامل توتر في العلاقة بين الدولتين). وبدأت تركيا تميل في توجهاتها نحو الشرق، مع المحافظة على البُعد الأمني المتعلّق بوجودها كقوة عسكرية رئيسة في حلف شمال الأطلسي. وأمام واقع التقاطعات التاريخية والثقافية، لم تعارض الشرائح الشعبية العربية تصاعد الدور التركي في المنطقة العربية وتعاظمه؛ خصوصًا بعد التراجع الذي شهدته العلاقات التركية - الإسرائيلية، على خلفية العدوان الإسرائيلي على غزّة في عام 2009، والاعتداء على أسطول الحرية في عام 2010. ومثّل نظام الحكم في تركيا نموذجًا جاذبًا لهذه الشّرائح، خصوصًا أن تركيا كانت متحالفة مع الأنظمة الاستبدادية. وبالتالي، صار في الإمكان التعبير بحرّية عن الإعجاب بتركيا كدولة مسلمة وديمقراطية.

أمّا إسرائيل فكانت من أكبر المستفيدين من التغيّرات الجيوستراتيجية التي نجمت عن احتلال العراق بالنظر إلى تلاشي قوّة عسكرية عربية كانت تمثّل

تهديـدًا أمنيًا لها (على الرغم مـن ضربها في حرب الخليـج الثانية)، ودخول سـورية بعد اتهامها فـي قضية اغتيال الحريـري في أزمة دولية سـاهمت في صدور القرار رقم 1559 الذي أخرجها من لبنان عسـكريًا، ووضعها في عزلة دولية وعربية. كما حاولت إسرائيل الاسـتفادة من التفويض الأميركي لطمس القضية الفلسـطينية، وفرض حلول بدأت بالانسـحاب الأحـادي من غزّة في عام 2005، وانتهت بإضعاف السـلطة الفلسطينية وإجبارها على قبول الحلول الإسـرائيلية. وجرى ذلك في ظلّ تراجع الاهتمام العربي بالقضية الفلسـطينية نتيجة العوامل المذكورة سـابقًا، وانشـغال الدول العربية بمشكلاتها الداخلية، وزيادة الاسـتقطاب بين محور «المقاومة» ومحور «الاعتدال». كما أن التنسيق المصري - الإسـرائيلي تطوّر في هذه المرحلة إلى درجة التحالف، ولا سيما بعد فوز حركة حماس في انتخابات عام 2006 في غزّة.

بيد أن سـوء التقدير كان أحد أبرز الأخطاء الاسـتراتيجية الإسـرائيلية، لأنه جلب لها ورطات واهتزازات أمنية، أبرزها الفشـل العسـكري في حرب تموز/يوليو 2006 في لبنان، والعـدوان على غزّة في عامي 2008 - 2009، وتنامي الدور الإيرانـي والإنجازات النووية التي حقّقتهـا، إضافة إلى التدهور في العلاقات التركيـة - الإسـرائيلية. وتمخّضت حربـا 2006 و2009 عن توقّف المقاومة، وهو ما يمكن اعتباره نجاحًا إسـرائيليًا، لكنهما أدتا أيضًا إلى اسـتقرارها كـ «قوى دفاعية» (بحسـب تعريف حزب الله لها) تحاول تجنّب الحرب مع إسرائيل، وتشكّل جزءًا من محور. ومثّل هذا نجاحًا إيرانيًا - سوريًا.

بعد توقّف المقاومة من لبنان وغزّة، وابتعاد التهديد الأمني عن إسـرائيل، وتعمّق الانقسام الفلسطيني، اتجه المجتمع الإسرائيلي إلى دعم خيارات القوة والاسـتيطان. وكان ذلك من خلال نجاح اليمين المتطـرف، وإقصاء «حزب كاديما» (يمين الوسط)، وتأليف حكومة إسرائيلية بالتحالف مع حزب «إسرائيل بيتنا»، ما شكّل أغلبية يمينية متطرفة أنتجت حكومة من أكثر الحكومات اليمينية اسـتقرارًا منذ إعلان الكيان الإسـرائيلي دولـةً في عـام 1948. لقد تفجّرت الثورات العربية في مرحلة ارتياح إسـرائيلي غير مسـبوق مـن تهميش قضية

فلسطين - دوليًا وإقليميًا - بسبب الانقسام وهدوء جبهات المقاومة. وعُدّت حرب غزّة - على مستوى الرأي العام - تصحيحًا عسكريًا نسبيًا لحرب لبنان، لقلّة عدد الضحايا الإسرائيليين فيها.

نجم عن هذه التغيرات غياب المواجهة العربية - الإسرائيلية عسكريًا، بعد أن بردت جبهات التوتر في غزّة وجنوب لبنان؛ إذ فرضت إسرائيل قواعد لعبة جديدة شبيهة بالقواعد التي كانت سائدة على جبهة الجولان، وهي أن ثمن المقاومة هو الحرب. وفي ما عدا الاختلاف الأيديولوجي المهمّ في ما يتعلّق بالموقف من إسرائيل، أصبحت القيمة العملية للمقاومة والاعتدال، إعلاميًا وسياسيًا، فاعلة في الخلافات العربية - العربية.

ومثّل وصول الرئيس الأميركي باراك أوباما إلى السلطة - في نهاية عام 2008- توصيفًا استراتيجيًا لجميع الوقائع السابقة. وفتحت - بذلك - تغيرات جيوستراتيجية تجلّت في النظام الدولي من خلال بروز دور صيني عالمي، وتنامي الحضور الروسي، وتراجع الولايات المتحدة رياديًا في موقعها القائد للنظام الدولي. إذ تراجعت الولايات المتحدة عن سياسات التدخّل العسكري المباشر، مثلما تراجعت عن الضغط على حلفائها، بما في ذلك مصر والسعودية، لإجراء إصلاحات سياسية. واعتمدت على تفويض حلفائها الإقليميين في المناطق التي تعتبرها حيوية. ومالت إلى احتواء الدول المتناقضة مع توجّهاتها عن طريق الاستفادة من نزوع قيادات هذه الدول إلى ترتيب العلاقة بها، فأرسلت أكثر من إشارة تنمّ عن قبولها بالأنظمة السياسية القائمة في إيران وسورية وليبيا، من دون القبول بسياستها الخارجية.

سار الاتحاد الأوروبي في فلك السياسة الأميركية، فحصل انفتاح على الدول التي كانت تُعدّ «مارقة» أو مصنَّفة في «محور الشر»، وذلك بالاستفادة من الرغبة الجامحة لقيادة هذه الدول في التعاون مع الغرب. ووجدنا نمطًا أميركيًا جديدًا في التعاطي مع سورية، خصوصًا بعد تعيين روبرت فورد سفيرًا أميركيًا في دمشق عام 2010. وقابله من الجانب الأوروبي انفتاح اقتصادي، من خلال تفعيل مفاوضات الشراكة الاقتصادية، وتبنٍّ سياسي برز أول مؤشراته في دعوة

الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي الرئيس بشّار الأسد إلى حضور الاحتفال العالمي باليوم الوطني لفرنسا، والمشاركة في اجتماعات مشروع الاتحاد من أجل المتوسط، وهو مشروع رأى فيه ساركوزي مدخلًا فرنسيًا لتحقيق حضور جيوستراتيجي، ويمنح فرنسا دورًا خاصًا في عملية السلام والتطبيع بين العرب وإسرائيل، وهي عناوين عبّرت عن رغبة فرنسا في موازنة نموّ الدور التركي في المنطقة العربية.

أضحى العقيد معمّر القذافي حليفًا معترفًا به أوروبيًا وأميركيًا، بعد أن حُسم موضوع الطائرة المدنية التي أُسقطت في لوكربي، والمشاريع التسليحية الليبية غير التقليدية بانصياع القذافي لإملاءات الغرب. وأصبح رئيس حكومة بريطانيا السابق مستشارًا لليبيا. وتوقّفت هذه الأخيرة تمامًا عن دعم المقاومة، ونصحت بالبدء في دعم قوى الاعتدال. وهكذا بدئ في ليبيا إعداد نجل القذّافي للرئاسة. وكان هناك أكثر من مؤشر إلى أن سيف الإسلام ينتمي إلى معسكر الاعتدال عربيًا، بما يتضمّنه من علاقة بمعسكر السلام مع إسرائيل.

من التغيرات الجيوستراتيجية أيضًا تدخّل الغرب وأفريقيا مرة أخرى لتمزيق وحدة السودان من خلال اتفاقية نيفاشا التي رعتها الولايات المتحدة الأميركية، والتي مهّدت لفصل جزء عضوي من الوطن العربي وافقت عليه القيادة السودانية. وأسرعت تلك القيادة إلى فتح صفحة جديدة في علاقاتها بالغرب، وتثبيط قرار المحكمة الجنائية الدولية الذي فعّلته الدول الغربية وظيفيًا ضدها. وكانت من وراء ذلك تتناسى أن سياسات المواجهة العسكرية والتفرد والإقصاء مهّدت الطريق لانفصال جنوب السودان بمؤامرة غربية – إسرائيلية، وأن تداعيات ذلك الانفصال ستترك تأثيرًا بيّنًا في قضايا عربية خطِرة مثل الأمن المائي العربي. وكانت تتجاهل أيضًا النفوذ الإسرائيلي المؤثر سلبًا في الوضع الجيوستراتيجي العربي، خصوصًا من جهة احتمال صنع فضاء جيوستراتيجي جديد في الجوار الأفريقي للوطن العربي، أقطابه الدولة الجديدة (جنوب السودان) وإريتريا وإثيوبيا وأوغندا وكينيا، ولا سيما أن الوضع المتفجّر في الصومال غدا عاملًا ذا تأثير سلبي من ناحية انتشار حالة القرصنة، وتحوّل

الصومال إلى بؤرة للتصارع والتوتر ستصبّ تأثيراتها السلبية في الوطن العربي.

من السـمات المهمة في هذه المرحلة، دور المنظمـات العابرة للحدود، ومنها القاعـدة، ومحاولتها التموضع في اليمن والعـراق. وقد اضطلعت بدور سـلبي في تفتيت لحمة المجتمع، وإضعاف روح المواطنة، وتوسـيع التفتيت الذي ينعكس سلبًا على الوضع الاستراتيجي العام للوطن العربي. ومن المفيد هنا الإشـارة إلى بروز حالة من تماهي خطابات بعض الحركات الإسلامية مع أهداف براغماتية، وهو ما سنجد انعكاسًا له في مرحلة ما بعد الثورات.

لمّا اشـتعلت الثورات العربية، لم تكن الأنظمة الممانعة - هي الأخرى - في حالة صدام مع الغرب. لذلك، فاجأت الثورات الولايات المتحدة وأوروبا في تورطها مع أنظمة الاسـتبداد. ففي وقت أعربت فيه إدارة أوباما عن رضاها عن «الأمر الواقع»، وتخلّيها عن التدخّل في شـؤون الـدول الأجنبية، بحجج واهية مثل نشـر الديمقراطية، انطلقت الشـعوب العربية فـي ثوراتها من أجل الديمقراطية. ولم تأت هذه الثورات خارج سياق السياسات الأميركية فحسب، بل كانت مناقضة لها، ولا سـيما بعد أن صارت تلك السياسات مع الاستقرار وبقاء الأنظمة القائمة.

عندما نشـبت الثورات، لم تكن مقاومة إسـرائيل هي القاعدة، بل كانت المقاومة قد اسـتقرت على حالة دفاعية فـي بلدانها. وعاد جهـد التطبيع مع إسرائيل وتجديد سورية المفاوضات معها بوساطة تركيا ليكون سيد الموقف.

ثانيًا: التغيرات الجيوستراتيجية في أثناء الثورات العربية

جاءت الثـورات العربية إذًا متناقضة مع التغيرات السـابقة، وفتحت باب التغييـر والإصلاح، خصوصًا فـي الجمهوريات الدكتاتوريـة وبعض الأنظمة الملكيـة. وعلى الرغم من أن واقـع التغيير غير قابل للتوصيـف بدقّة في هذا الوقت، نتيجة الاختلالات الناجمة عن المرحلـة الانتقالية في كثير من الدول العربية، فإن الثورات العربية أوجدت متغيرًا مهمًا سـاهم في إحداث جملة من التغيرات مرحليًا، وسـيكون له الدور الأكبر في تحديد التغيرات الاستراتيجية

على المديين المتوسط والطويل في العالم العربي، خصوصًا بعد عبور المراحل الانتقالية، ويتمثّل هذا المتغير في «الرأي العام العربي». وإذا ما استثنينا دوره الفاعل على مستوى النظام السياسي، فإن له انعكاساته الإيجابية على إعادة تعريف الدول العربية لمفهوم أمنها الوطني، بشكل يقترب من الاتجاهات السائدة شعبيًا. والهدف من وراء ذلك هو ردم الهوّة التي وُجدت سابقًا بين النخب السياسية الحاكمة وشعوبها في الدول العربية. وأدى ذلك إلى نشوء بدايات غير مكتملة لكيانية عربية، يمكن تلمّسها بشكل واضح في انتعاش دور الجامعة العربية كمنظمة إقليمية ثقافية جامعة، ومحاولة الأنظمة العربية إنتاج تقاطعات جامعة داخلها. ودافعها الأساس ما زال متمثّلًا في هروب كلّ نظام من مقابلة جمهوره وحيدًا، ولا سيما في ما يتعلّق بقضايا عربية. ومن أجل ذلك، رُصد للجامعة خلال الثورة الليبية نشاط فاعل لكنه محدود، وما لبثت الجامعة أن اضطلعت بالدور الرئيس في طرح الحلول السياسية لقضايا الثورة السورية، مثل وقف إطلاق النار وسحب الجيش من المدن وإطلاق المعتقلين واقتراح خطوات سياسية لنقل السلطة.

تركت الثورات العربية آثارًا في مختلف تفصيلات المشهد الجيوسياسي، أتعلّق ذلك بدول المنطقة أم باللاعبين الدوليين والإقليميين؛ إذ لم تشخّص الثورتان التونسية والمصرية بوضوح معالم التغير الجيوستراتيجي في المنطقة العربية؛ نتيجة قصر مدتهما الزمنية، ومرورهما كالعاصفة. غير أن المدة كانت في الآن ذاته كافية لإثارة قلق إسرائيل - ودول أخرى - من إسقاطات تغيّر النظام المصري.

أزاحت الثورة المصرية الفريدة في عمقها واتساعها الشعبي وسلميتها رأس النظام، وأطاحت عوائقَ الإصلاح الرئيسة، وأهمّها التوريث. وزالت القوى التي تغلق الطريق للبدء في الإصلاح، من دون تدخّل خارجي في مصر. وحالت بسرعتها دون حصول تباينات في المواقف الدولية من التغيير. وحسمت إدارة الرئيس الأميركي باراك أوباما قرارها بالتخلّي عن الرئيس المخلوع حسني مبارك، مع المحافظة على علاقتها المتقدمة بأركان نظامه

الرئيسة، ولا سيما منها المؤسسة العسكرية التي ساهمت في منع التوريث وفي إزاحة مبارك عن سدة الرئاسة. وهكذا وقع تشكيل المجلس العسكري برئاسة المشير حسين طنطاوي، وتولّى من ثمّ قيادة المرحلة الانتقالية.

مع انطلاق الثورة الليبية، حصلت تفاعلات جيوستراتيجية أثّرت في الثورة مباشرة، لكنها قصرت أيضًا عن تشخيص المشهد العام للتفاعلات الاستراتيجية بين القوى الكبرى والدول الإقليمية. وتجلّت هذه التغيرات في اختلاف تعاطي اتجاهات الرأي العام العربي مع قضية التدخّل الخارجي. ففي الوقت الذي كانت فيه مؤشّرات الرأي العام العربي تقف بشدة ضد التدخّل الأميركي في العراق (حتى عندما حملت مفاهيم الديمقراطية وحقوق الإنسان)، لوحِظ تفاوت في الموقف من هذا التدخّل في حالة الثورة الليبية؛ إذ ساهم التعاطف الشعبي عربيًا مع الثورة الليبية في تعديل المواقف من التدخّل الخارجي، وحتى تأييده في بعض الحالات، خصوصًا بعد محاولة نظام القذّافي قمعها عسكريًا. وأمام ضغط الرأي العام العربي، تحركت الجامعة العربية بشكل فاعل، وطالبت باستصدار قرار من مجلس الأمن لـ «حماية المدنيين»، وهو ما كان عاملًا حاسمًا في دحر نظام القذّافي.

انحصرت التغيرات الجيوستراتيجية التي أحدثتها الثورة الليبية في المحدد السابق، بحكم أن الدول الغربية التي شاركت في مهمّة حلف شمال الأطلسي كانت على علاقات سياسية واقتصادية وثيقة بنظام القذافي؛ فهو منحها الاستثمارات النفطية والاقتصادية. وبناءً عليه، كانت عمليات الناتو جزءًا من حماية هذه الامتيازات (أو تحصيلها في حالة فرنسا التي «حُرمت» منها، وراقبت توسّع نفوذ تركيا وبريطانيا والولايات المتحدة في ليبيا)، وتعزيزًا لنفوذ فرنسا التقليدي في أفريقيا بعد أن شكّل القذّافي عائقًا أمام توجّهاتها.

استفادت بعض الدول العربية، خصوصًا قطر، من تعزيز حضورها في تفاعلات المشهد الثوري العربي؛ فقامت بالدور الريادي في المبادرة الدبلوماسية في مجلس التعاون الخليجي، وفي التأثير في فرنسا، وفي الدعم العسكري والتقني للثوّار الليبيين في الشرق والغرب لإنجاز الحسم.

كما ســاهمت الثورة التونســية، ومن بعدها الثورة الليبيــة، في تنبّه دول المغرب العربي إلى المناخ الثوري العربي، فشــرعت الأخيرة في التعاطي مع المطالب الشعبية بطريقة مختلفة عن السابق بحيث تميل إلى فتح باب الإصلاح الجزئي، وهو ما جرى في حزمة الإصلاحات التشريعية والإعلامية التي أعلنها الرئيس الجزائري في منتصف عام 2011، وما جرى في المغرب عندما اضطر الملك محمّد الســادس - تحت تأثير التظاهرات الشعبية التي قادتها حركة 20 فبراير - إلى طرح تعديلات دســتورية أقرّت باستفتاء شعبي (أجري في تموز/ يوليو 2011)، وجــرت بعدها انتخابات تشــريعية تمكّن فيها حــزب العدالة والتنمية من الفوز بأغلبية المقاعد، وتشــكيل حكومة مغربية جديدة برئاسة عبد الإله بن كيران.

على الرغم من الشــكوك التي تدور حول هذه الإجــراءات الإصلاحية، ومدى نجاعتها في فتح بــاب التحوّل الديمقراطي في هذه الــدول، فإنها تُبرز التأثيــر الجديد لـ «الرأي العــام» في تغيير طريقة تعاطــي الحكومات، وهو ما سنتطرق لاحقًا إلى تأثيره جيوستراتيجيًا.

شخّصت الحركة الاحتجاجية في البحرين والثورة في اليمن وسورية تفاعل القوى الدولية والإقليمية جيوستراتيجيًا بشــكل واضح، وذلك لأسباب تتعلّق بأهمية الموقع الجغرافي لهذه الدول، وبتقاطعات وتباينات النفوذ الاستراتيجي للفاعلين الجيوســتراتيجيين وحضورهم؛ حيث بلورت ثورة البحرين انقســامًا واســتقطابًا دغدغ محــددات طائفية حتى ضمــن الإقليم (الخليــج العربي). وتبنّت إيــران بصورة واضحة الاحتجاجات في البحريــن، ليقع توظيفها ضمن المنافسة والمشادة مع دول مجلس التعاون الخليجي، ولا سيما السعودية. وإن حماسة الحكومة العراقية بقيادة نوري المالكي والتيار الصّدري للتحركات في البحرين أكّدت الشكوك بشــأن طبيعة الموقف الإيراني من البحرين، في حين أن دول مجلس التعاون الخليجــي نظرت إلى الحركة الاحتجاجية في البحرين ضمن محددَين: أوّلهما الخشــية من توسّــع النفوذ الإيراني في منطقة الخليج، وبالتحديد بعد تجربة العراق، وثانيهما الخــوف من انتقال العدوى الثورية إلى

أنظمة ملكية، ما يجعل باقي الأنظمة الملكيــة في الخليج عرضة لاحتجاجات مماثلة تقوّض الصورة التي تحاول نشرها عن استقرار هذه الأنظمة.

اتخذت المملكة الســعودية موقفًا مناهضًا للثــورات كافة، بما فيها الثورة ضد نظام خصم كالنظام الليبي؛ إذ عارضت طريقة التغيير بالاحتجاج الشعبي، وشــجّعت وجود أنظمة حكم ســلطوية. ورأت، مع الملكيــات الخليجية، أن الثــورات العربية ظاهرة تخص «الجمهوريات»، لأن الأنظمة السياســية فيها لا تتمتع بشــرعية تاريخية تجعلها في منأى عن رياح التغيير. وعزّزت هذه الفكرة طروحات قيمية ادّعت أن الأنظمــة الملكية أكثر مرونة من الجمهوريات، وهي قادرة على احتواء المد الثوري بالاختباء وراء هذه الشرعية التاريخية، كما جرى في الأردن والمغرب. بيد أن هذا التفكير يشــوبه الكثير من القصور، لســببين، أوّلهما أن فترة التسعينيات من القرن الماضي فتحت الباب لظهور صراع قيمي في شأن تشخيص اختلاف الأنظمة العربية دستوريًا. ولوحِظ بروز ظاهرة جديدة تحت عنوان «الجمهوريات الملكية»، وغــدت الجمهوريات العربية تُحكم من خلال أســرة حاكمة، محاطة بأجهزة أمنية خرجت عن وظيفتها القمعية لتتدخّل في الحياة السياســية والاقتصادية، بما يضمن مصالحها القائمة على بقاء النظام واســتقراره. وكان من نتيجة ذلك بــروز ظاهرة «التوريــث» التي نجحت في ســورية، في وقت كان يجري الإعداد للتوريث في مصر وليبيا واليمن (وربّما في تونس لغير الابن). ونشــبت الثورة العربية فــي الجمهوريات التي ناقضت منطق الجمهوريات بالأسر الحاكمة والتوريث.

يقود التحليل السوسيوسياســي إلى أن الملكيات تمتلك عناصر قوة نسبية في مقابل الجمهوريات الدكتاتورية، مثل الدِّين والشــرعية الأسرية التي تحافظ على الوحدة الترابية للدولة، وتحصّنها مرحليًا في وجه التغيير. لكنه يقود أيضًا إلى تشخيص قضايا الفقر والفساد وانعدام الحريات التي تعيشها الجمهوريات الدكتاتورية، كما يطرح مســألة الملكية الدســتورية. وتُظهر الرؤيــة التاريخية أن الأنظمة الملكيــة العربية كانت عرضــة لحركات ثوريــة وانقلابية في فترة الخمسينيات والســتينيات من القرن الماضي، كما أن تاريخ الثورات في العالم

يدلّ على أن الجمهوريات القومية - خصوصًا في أوروبا - نجمت عن ثورات ضد أنظمة ملكية.

أنتج التفكير السابق مقاربة خليجية موحّدة، بالوقوف ضد الحركة الاحتجاجية في البحرين، خصوصًا عندما أخذت لبوسًا طائفيًا، لكنها ترجمته جيوستراتيجيًا في مواجهة التوظيف الإيراني؛ حيث نظرت إيران إلى الاحتجاجات في البحرين على أنها فرص لتعزيز نفوذها في دول الخليج العربي، بناءً على تقاطعات مذهبية مع المعارضة البحرينية التي تقود الاحتجاجات سياسيًا. كما رأت أن نجاح الحركة الاحتجاجية في تحقيق أهدافها سيمنحها قاعدة نفوذ جيوستراتيجية في الشريط الساحلي العربي من الخليج. وأمام هذه المخاوف الجيوستراتيجية، بلورت دول مجلس التعاون الخليجي تدخّلًا عسكريًا لقوّات درع الجزيرة، فأفقدت بذلك الحركة الاحتجاجية زخمها المتصاعد، وفتحت صفحة من التوتر والتشابك الجيوستراتيجي مع إيران، امتد إلى ساحات أخرى كما في اليمن وسورية.

لم تكن ثورة اليمن - على الرغم من وضوحها مطلبيًا وسياسيًا - أقلّ تأثيرًا في التغيرات الجيوستراتيجية من الحركة الاحتجاجية في البحرين؛ إذ حاولت المملكة السعودية الحفاظ على نفوذها في اليمن المتصل جغرافيًا بدول مجلس التعاون، ولجم فاعلين إقليميين عن بلورة نفوذهم. فبدا الموقف الخليجي - باستثناء موقف قطر - مع تبايناته موحّدًا ومتقدمًا بعد طرح المبادرة الخليجية؛ تلك المبادرة التي حددت لليمن مسار الانتقال الآمن، مقارنةً بالهزّات والاختلالات التي كانت محتملة في حال فشلها، وذلك بحكم الخصوصية القبلية للمجتمع اليمني. كما انطوت مجريات الثورة بشكل طفيف على تنافس جيوستراتيجي بين المملكة العربية السعودية وإيران التي بدأت تدخل إلى اليمن قبيل الثورة مع التمرد الحوثي. والحقيقة أن أيًا منهما لم تقف مع الثورة في اليمن. لقد حتمت رياح التغير وجود تنسيق خليجي، ونجحت المبادرة الخليجية في تقليص فرص النفوذ الجيوستراتيجي لإيران في خليج عدن والبحر الأحمر، من خلال تحالفها مع الحوثيين (ومؤخّرًا مع الفئات

الأكثر راديكالية فـي الحراك الجنوبي). كما لجمـت دورًا تركيًا حاولت أنقرة إنضاجه في أثناء تأخّر تنفيذ المبادرة الخليجية.

إضافةً إلى دور مجلس التعـاون في دفع الجامعة العربية إلى اتخاذ موقف من نظـام القذافي خلال الثـورة، بلورت هذه المبـادرة دورًا متقدمًـا ورياديًا لمجلس التعاون الخليجي في الدائرة العربية. إذ كانت مصر منشغلة بتفصيلات المرحلة الانتقالية، وغابت سورية بعد اتساع ثورتها وتجذّرها مجتمعيًا، وفشل الحل العسكري للنظام السوري في القضاء عليها.

ثالثًا: الجيوستراتيجيا من خلال الثورة السورية تحديدًا

انطلقت الثورة السـورية فـي ظلّ واقع جيوسـتراتيجي معقّـد؛ فالقيادة السـورية التي وظّفت تقاطعات السياسـة الخارجية السـورية كإحدى أدوات إضفاء الشرعية السياسـية على النظام الحاكم، اتجهت نحو التقرب من الغرب والولايات المتحدة، ضمـن واقع تبريد جبهات التوتـر. والتجأت إلى البحث عن التقاطعات المصلحية في ساحات جيوسياسـية مختلفة، خصوصًا العراق قبيل الانسـحاب الأميركي منه. وحافظ النظام السياسـي السوري على تحالفه الاسـتراتيجي مع إيران، خصوصًا في ما يتعلّق بالبعد الأمني. وعمد إلى إنتاج تحالف آخر مع تركيا (عدّه النظام تحالفًا اسـتراتيجيًا)، تركّز بشكل رئيس في الجوانب الاقتصادية التي اسـتفادت منها تركيا، وأفادت النظام السوري سياسيًا بإخراجه من العزلة الدولية التي فُرضت عليه في عام 2005، واسـتمرت حتى وصول أوباما إلى الحكم في نهاية عام 2008.

ربّما تفاجأ النظام السـوري بانتقال عدوى التغيير الثوري إليه؛ لأنه كان محكومًـا بصورة نمطيـة فرضت عليه سـوء تقدير قابلية المجتمع السـوري للاحتجاج، ولا سيما عندما وضع شـرعية بقائه في سـلّة السياسة الخارجية المقبولة شعبيًا. ولذلك، رأى أن سبب الثورة في مصر هو سياستها الخارجية، وتجنب - بذلك - رؤية الأسباب الاجتماعية السياسيـة والحقوقيـة الداخليـة للثورات.

لم تتوضّح أهداف الثورة السورية في الأسابيع القليلة لانطلاقتها؛ إذ طغت عليها آنـذاك مطالب الإصلاح، والمطالبـة بالتغيير الديمقراطـي بقيادة النظام نفسـه. فغابت المواقف الدولية في الأشـهر الأولى، وتوحّـدت على دعوات «وقف القمع والعنف، والبدء في العملية الإصلاحية». وكان الخوف من مصير المجتمع العراقي الماثل للعيان من أهمّ عناصر تـردد القوى المحلّية والدولية في الاندفاع لدعم هذه الثورة. ويضاف إلى ذلـك ارتباط ملفّات عديدة بموقع سـورية المهمّ جغرافيًا، ودورها عربيّـا وإقليميًا. أمّا الدول الكبرى المنشـغلة بمعطيات التدخّل العسكري في ليبيا فتراجعت حتى عن اللّهجة التصعيدية ضد أسلوب القمع والعنف.

اتسـعت الحركة الاحتجاجية في سـورية أفقيًا، وتصاعد سقف شعاراتها ليصل إلى مطالب «إسـقاط النظام». وفشل النظام سياسـيًا في التعاطي إيجابيًا مع المطالب السياسـية، عندما نزّل الحركة الاحتجاجية فـي خطاب المؤامرة والصهيونية، وفـي التدخّل الخارجي الذي لم يكن قائمًـا (وما زال حتى كتابة هذه السّطور الأقلّ حضورًا في الثورة السورية مقارنةً بالثورات العربية، وقياسًا بطول مدة الثورة وحجم القمع والضحايا الذين سقطوا بين المدنيين).

أمام الحلّ العسـكري الذي تبنّاه النظام، وإصرار الشـعب السوري على الاستمرار في الثورة، بدأت المواقف الدولية تتفاعل، وبدأت تدبّ الانقسامات بين القوى الكبـرى واللّاعبين الإقليميين. إذ دفع تعاطـف الرأي العام العربي مع الثورة الجامعةَ العربية إلى بلورة دور أجملته بداية تحت عنوان «الوسـاطة» والإصلاح. ومع تفاعلِ دور الجامعة العربية في الثورة السـورية مع الشارعيْن السـوري والعربي، علَت نبـرة الخطاب الغربي داعية الأسـد إلـى التنحّي. وتصاعـدت اللّهجة الدبلوماسـية التركية لتنهي فصلًا مـن التحالف بين تركيا وسورية اسـتمر ما يربو على سـتة أعوام. أمام هذا الواقع الجديد جيوسياسيًا، وقفت إيران إلى جانب النظام السـوري سياسيًا ولوجسـتيًا، فاتحة الباب أمام استمرار الاشتباك جيوسـتراتيجيًا مع دول مركزية في مجلس التعاون الخليجي من جهة، واسـتطرادًا مع تركيا، أبرز الفاعلين الجيوستراتيجيين الإقليميين في

المنطقة. وكان لوقـوف نظام نوري المالكي في العراق مع النظام السـوري - وهو المنتمـي إلى عالم آخر، كونه نتاجَ التدخل العسـكري الأجنبي وصاحب صورة سلبية جدًا على مستوى الرأي العام العربي - أثره الكبير في تعميق طابع التحالف المحيط بالنظام السوري.

أمّا روسـيا فقاربت الثورة في سـورية من منظور جيوسـتراتيجي بحت، فهي لا ترى في منطقة الشرق الأوسـط مكانًا لتعظيم مصلحتها وأمنها القومي أكثر مما تراه في محيطها الإقليمي، ولا سـيما بعض دول آسيا الوسطى. لكنها تعتبر سـورية من المناطق ذات الحساسـية بالنسـبة إليها. فهي ترى في موقع سورية الجيوسياسي موطئ قدم على شـواطئ المتوسط، يتيح منفذًا لأسطولها البحري في البحر الأسود في قاعدة سيفاستوبول إلى مياه البحر المتوسط. بيد أن موقفها في سـورية جاء ضمن معطيات تتعدى هذا التفسير المبسّط، ويتعلّق بانكفاء الولايات المتحدة عن التدخل المباشر، ونزوع روسيا إلى استغلال هذا الانكفاء لتمنح نفسها دورًا مقابلًا للاسـتراتيجيا الأميركية. ورأت في ما جرى في ليبيا حدثًا معاكسًـا لنزعة التطوّر هذه، ورفضت أن يحوّله الناتو إلى عملية تمدد مجددًا، بعد أن سبق لها أن أوقفت هذا التمدد في جورجيا. من هنا جاءت محاولة بوتين نفخ الحياة في سياسات الدولة العظمى بتوجّهات ذات بعدٍ دولي خارج محيطها الإقليمي.

ترى روسيا أن بقاء النظام السوري هو نفوذ جيوستراتيجي لها حتى لو كان هذا النظام ضعيفًا، كما أنه في حال تدهورت الأوضاع إلى منزلقات اقتتال أهلي، سـتبقى حاضرّة عبر بدئها بتطوير خطاب أبرزُ عناصره موروث عن الاستعمار، وهو خطاب حماية الأقلّيات، الذي يسـيء إلى الأقلّيات؛ حيث أصبح واضحًا منذ عهد بعيد أن المواطنين العرب من الطّوائف المختلفة لا يقبلون أن يعامَلوا كأقلّيات، ولا يجوز أن تفرض عليهم حماية الاسـتعمار أو الاسـتبداد. قررت روسـيا مناهضة الثورة ومواجهة مـن يؤيدها، بعد أن اسـتخدمت بالتوافق مع الصين حقّ النقـض «الفيتو» مرتين في مجلس الأمـن، وأعاقت بلورة إدانة أو إجراءات دولية رادعة ضد النظام السوري. ورأى المحلّلون الاستراتيجيون في

مواقف روسيا من الثورة الســورية دليلًا على نموّ دورها المتصاعد في مواجهة الولايات المتحدة في النظام الدولي. لكن روســيا البعيدة غير قادرة على لجم إرادة الشعب السوري التي سوف تقرر في النهاية.

موقف روسيا من الثورة السورية وضعها في تضاد مع اتجاهات الرأي العام العربي، ما حتّم عليها إجراء تراجع «تكتيكي» بإنتاج توافقات مع الجامعة العربية والغرب تجلّت في خطّة كوفي أنان، عندما رأت أن التغيير في سورية لا مناصَ منه، وأن انتصار النظام الســوري عسكريًا بقمع الثورة أمر غير واقعي، فنجحت في فرض إيقاع الحلّ السياسي حتى الآن، واستطاعت أن تكون اللّاعب الأبرز جيوستراتيجيًا في الثورة الســورية، في ظلّ عدم رغبة الغرب وتركيا والجامعة العربية في التدخّل حتى الآن، وغيــاب التصميم لديهم على أن يكون لهم دور فاعل حتى الآن. وبقي إصرار الشــعب السّوري على الاســتمرار في ثورته هو عامل الدفع الرئيس. وأخطأت القوى السياسية السورية التي راهنت منذ البداية على التدخل الخارجي وحددت موقفها وخلافاتها على هذا الأساس، وضيّعت وقتًا ثمينًا في مناقشــة هذا الموضوع. وربّما يتمكّن نضال الشعب السوري من تفعيل عناصر دولية لاحقًا، ولكنه يبقى الأســاس فــي المعادلة. لقد دحضت ثورة الشــعب الســوري نظريات المؤامرة دحضًا كاملًا، فهــي لا تمضي على الرغم من التقاعس العالمي فحسب، بل إن الشــعب يقود بها أيضًا نضالًا ضد النظام السوري وحلفائه الذين عدوا الثورة الســورية معادية لهم. ولذلك تبدو تحالفات النظام السوري مع إيران وروسيا والعراق عوامل بقائه الرئيسة، لكنها ســوف تؤدي في النهاية إلى عدم السماح للنظام السوري بالانتصار على الثورة المســتمرة حتى تحقيق أهدافها. فتشــخيص بقاء النظام كانتصار لهذا المحور سوف يساهم في منعه دوليًا.

أمّا على صعيــد التفاعــلات الإقليمية، فأنتجــت الثورة الســورية واقعًا جيوستراتيجيًا معقّدًا في الإقليم يبرز في التنافس بين تركيا وإيران، لأن المرونة السّابقة في النظام الدولي ســاهمت في إعطاء الدول الإقليمية دورًا أكثر فاعلية تعبّر به عن سياساتها وطموحاتها في المناطق الحيوية لمصالحها المباشرة.

ركّزت تركيا في علاقاتها مع الدول العربية في العقد الماضي على ضمان مصالحهـا الاقتصادية وتعظيمها بالطرائق كلها بعد انزيـاح في محور اهتمامها مـن الانضمام إلى الاتحاد الأوروبـي باتجاه تفعيل دورهاً في الدائرة الشـرق الأوسـطية. وواجهت تركيا في مواقفها من الثورات العربية مسـائل حدّت من فاعلية سياسـاتها التي تتعلّق بالمصالـح الاقتصادية وتشـابه تركيبتها العرقية والطائفية مع المجتمعات العربية. كما كانت آلية عمل النظام السياسـي التركي ببنيته البيروقراطية أحد أهمّ محددات السّياسة التركية تجاه الثورات العربية، من خلال معالجة مدخـلات الرأي العام التركي، والانتخابـات، ومواقف الجيش المتحفّظة، ووجود قضية كردية في تركيا وفي الـدول المتاخمة لها. ويأتي في الدرجـة الثانية تأثير معالجة مصالـح تركيا في المنطقة العربيـة، ومركزها في حلف الناتو.

وافقت تركيا خلال الثورات العربيـة على نصب الدرع الأميركية المضادة للصواريـخ على أراضيها، ورفضت المشـاركة في «أسـطول الحرية 2». كما أعادت تنسيقها الأمني والاسـتخباراتي مع إسرائيل، خصوصًا مع تقدم الملف الكردي، وتراجع مستوى التنسيق مع كلٍ من إيران وسورية[1].

أمّا إيـران فتعاملت مع الثـورات العربية بمـا يلائم مصالحهـا الوطنية وتحالفاتهـا الإقليمية، حيث يولـي النظام السياسـي في إيـران اهتمامًا بالغًا بالسياسة الخارجية أساسًا، في غياب سياسة داخلية مركّبة أو ديمقراطية. إيران التي تدعم المقاومة، بما فيها حركتا حماس والجهاد الإسلامي، اتبعت سياسة مذهبية في تعاطيها مع الثورات العربية، إذ حاولت تقديم نفسها على أنها حاملة لواء الدفاع عن الشّـيعة في الوطن العربي[2]، مع أنهم عرب وليسـوا إيرانيين،

---

(1) عقيل محفوض، «سورية وتركيا: «نقطة تحوّل» أم «رهان تاريخي»؟،» المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسـات، 10/ 1/ 2012، ص 32. <http://www.dohainstitute.org/file/pdfViewer/2821b630-b92d-4af2-9981-70ec70cf9da2.pdf>.

(2) فراس أبو هلال، «إيران والثورات العربية: الموقـف والتداعيات،» المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 20/ 7/ 2011، <http://www.dohainstitute.org/file/pdfViewer/dd2ac89c-2c80-45f2-9c3e-bea1c815a6f5.pdf>.

وهي نزعة تراهن على تحويل التنوّع الطائفي العربي إلى ولاءات سياسية على أقلّ تقدير.

بدا الدور الإيراني خلال الثورة العربية في تراجع كبير، خصوصًا بعد الموقف العدائي من الثورة السورية ونزوع طهران إلى إنتاج تحالفات تعتمد على التقاطعات المذهبية فحسب، ولا سيما في العراق، حيث تركّز الحكم في العراق في يد سلطة مدنية دكتاتورية تظهر نهجًا طائفيًا وإقصائيًا في الداخل العراقي، وفي مستويات تفاعلها مع النظام الإقليمي العربي، وساعدها في ذلك الغياب العربي عن الساحة العراقية وتراجع الدور التركي. من هنا يمكن تفسير مواقف نوري المالكي من الثورة السورية والاحتجاجات في البحرين، فهو تجاهل الخلافات السياسية والعداء الشّديد مع نظام الرئيس بشار الأسد في مراحل سابقة، وأنتج مواقف سياسية داعمة له، وإجراءات اقتصادية ساهمت في تلافي تأثير العقوبات الأوروبية، ولا سيما ما تعلّق بالاحتياطي النقدي من العملات الأجنبية.

تباعدت العلاقات الإيرانية - التركية تبعًا للخلافات الحادة في شأن الثورة السورية؛ حيث بدأت الترجمة العملية لتصريح المتحدث باسم الخارجية الإيرانية في 21/ 7/ 2011: «لو خُيّرنا بين تركيا وسورية، فسوف نختار سورية بلا شكّ»[3]، وذلك من خلال ظهور التوتر الإيراني - التركي إلى العلن بعد أن استدعت تركيا السفير الإيراني للاحتجاج على انتقادات إيران لها على خلفية استضافتها مؤتمر «أصدقاء سورية 2»، وترشيح إيران لبغداد لاستضافة محادثاتها مع القوى الدولية في شأن برنامجها النووي بدلًا من أنقرة.

أفرزت الثورة السورية حالة من التنافر بين دولتين إقليميتين مختلفتين مذهبيًا، لكلٍّ منهما مصالحها في الوطن العربي. لكن، لا يمكن أن يسمّى هذا

(3) محفوض، ص 38.

التعارض في المصالح استقطابًا؛ فالاستقطاب كان بين إيران والمملكة العربية السعودية التي اتخذت أوّل موقف مؤيد للثورات[4] مدفوع أساسًا بمنطق الصراع مع إيران، ومحاولة وقف تمدد نفوذها في الخليج ودول المشرق العربي.

- اللاعبون الدوليون والإقليميون

تفرض المتغيرات التي أفرزتها الثورات العربية والمواقف الدولية منها ضرورة تحديد طبيعة النظام الدولي السائد من أجل إتاحة إمكانية فهم حدود سلوك الدول الفاعلة في مجريات الثورات العربية. وتقتضي تركيبة النظام الدولي التمييز بين الدولة الأعظم (الولايات المتحدة) والدول الكبرى (روسيا والصين)، حيث تستطيع الدول الكبرى أن تستقلّ بقرارها وتدافع عن مصالحها الوطنية وتضمن أمنها القومي بمفهومه الواسع، التنموي والعسكري[5]، وتعبّر عن ذلك بعدم السماح للولايات المتحدة بالسيطرة على سياساتها ومقدراتها، ووضع حد لحريتها في فرض إرادتها على الوحدات الدولية الأخرى وتوسّعها الأمني غير المنضبط بالقوانين الدولية[6]. ونستطيع في خلاصة تركيبية أن نصل إلى مجموعة من النتائج توصّف التغيرات الجيوستراتيجية في أثناء الثورات العربية:

• **الولايات المتحدة الأميركية**: أظهرت الثورات العربية حالة الانكفاء الأميركي النسبي كنهج، وفرضت الثورات على الولايات المتحدة - في ظلّ هذه الحالة - أن تعيد النظر في أدوات سياساتها الخارجية في الشرق الأوسط وتغير استراتيجيتها مستخدمة أدوات «القوّة الناعمة» التي تمظهرت في محاولة الإدارة الأميركية تجنّب التصادم مع اتجاهات الرأي العام العربي والتعاطي

(4) وكانت نقطة التحوّل بيان الملك عبد الله في شأن سورية في يوم 7 آب/ أغسطس 2011.

(5) عزمي بشارة، أن تكون عربيًا في أيامنا، ط 2 (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2010)، ص 85.

(6) بشارة، أن تكون عربيًا، ص 88.

معه بإيجابية، خصوصًا في ما يتعلّق بالتقاطعات مع الحركات الإسـلامية التي أوصلتها صناديق الانتخابات إلى الحكـم في عدد من الدول العربية، ومحاولة احتواء نتائج توسّـعها. أمّا دور الولايات المتحدة رياديًا فشهد تراجعًا بناءً على المعطيات السـابقة، لكنها حافظت على حضورها المتقدم في مناطق وجودها التقليدية، ولا سيما في منطقة الخليج العربي ومصر.

• الصين: تأثرت الصين جيوستراتيجيًا بالثورات العربية في ما يتعلّق بالبُعد المرتبط بدور الولايات المتحدة، لذلك ساهم الانكفاء الأميركي في بروز الدور الصيني مرحليًا في حالة تصاعد استراتيجي.

• روسيا: مع الثورة السورية، بدا الدور الروسي دورًا متصاعدًا ورئيسًا في الشرق الأوسط، يستطيع أن يوازن الولايات المتحدة والدول الإقليمية الأخرى في ساحات معيّنة فحسب.

• تركيـا: تراجع الدور التركي اسـتنادًا إلـى موقف تركيا مـن الثورات المتأثـر بتجاذبات داخلية، ومعطيـات حزبية. وبدا الدور التركـي مرتبطًا أمنيًا بالاستراتيجيا الغربية، لذلك سـجّل حضوره العربي تراجعًا في أثناء الثورات، ويبدو الآن متعلّقًا بتطوّر دور تركيا في سـورية. ولا ننسـى أن جزءًا كبيرًا من شعبية القيادة التركية نجم عن ضعف شعبية الأنظمة العربية التي تقوم الشعوب العربية بالتخلّص منها حاليًا، فلا غرابة أن يخبو وهج القيادة التركية.

• إيران:ساهمت الثورات العربية في زيادة الاشـتباك الخليجي الإيراني، وانتقل بعد الثورة السـورية إلى توتّـر عربي - إيراني علـى خلفية دعم إيران المطلق للنظام السوري، وموقفها العدائي من الثورة، بشكل أفقدها جزءًا كبيرًا من شـعبية تمتعت بها سـابقًا ضمن اتجاهات الرأي العـام العربي. إذ انتقلت إيران من الهجوم الاستراتيجي إلى مرحلة الدفاع عن مواقعها، لا ضد أميركا أو إسرائيل، بل ضد ثورات شعبية عربية تهدد مواقعها ونفوذها.

• أنتجت الثورة السـورية اسـتقطابًا تركيًا - إيرانيًـا، وأدى وجود نوري

المالكي في المحور الإيراني - السوري بعد سنوات من العداء مع النظام السوري إلى صبغ هذا المحور بصورة معيّنة. واقتصرت تحالفات إيران على النظام السوري وحكومة المالكي في العراق وحزب الله في لبنان، في حين عمدت تركيا إلى احتضان المعارضة السورية وتعزيز الضغط على نظام الأسد، هادفة إلى إنتاج نظام سياسي يتقاطع معها، من خلال فهم ضمني غير مصرح به للأغلبية الديمقراطية على أنها أغلبية مذهبية. وساهمت الثورة السورية في تَلاقٍ خليجي- تركي على الهدف نفسه. كما ساهم انضمام السعودية إلى داعمي الثورة السورية، وهي التي عارضت الثورات العربية كلها، في تأكيد طابع الانقسام المحوري حول النظام السوري.

• كان للرأي العام العربي دور كبير في تحديد التغيرات الجيوستراتيجية في مواقع اللاعبين الدوليين والإقليميين خلال الثورات، وانعكس بشكل كبير في بروز دور الجامعة العربية على نحو فاعل في ملفّات عربية أساسية، ولا سيما ملف الثورة السورية.

رابعًا: رؤية استشرافية للتغيرات الجيوستراتيجية بعد الثورات العربية

تبين سابقًا أن الثورات العربية وضعت «الرأي العام العربي» في خانة المحددات الأكثر تأثيرًا في التغيرات الجيوستراتيجية في هذه الفترة، وهي التغيرات التي بدأت تبلور «كيانية عربية» غير واضحة المعالم. لا شكّ في أن بروز الشعور بكيانية عربية إلى جانب تعزيز الوطنيات المحلّية سيترك تداعياته على التموضع الجيوبوسياسي في العالم العربي، وسيخلق تغيرًا في المفاهيم الاستراتيجية من جهة، ويحتّم تغيرًا جيوستراتيجيًا مستقبليًا في توجّهات الفاعلين الجيوستراتيجيين الدوليين والإقليميين من جهة أخرى.

من خلال عملية الاستقراء السابقة، يمكن أن نتوصّل إلى بعض النتائج المستنبطة من التفاعلات العربية الحالية التي يمكن الانطلاق منها في ما بعد

لاستشراف مواقع اللاعبين الجيوستراتيجيين وتوجّهاتهم. وأبرز هذه النتائج:

- **الاعتدال والمقاومة بمفاهيم جديدة:** ذكرنا أن الثورات العربية جاءت مع تغيرات جيوستراتيجية في المفاهيم السابقة. والفارق النوعي الذي أحدثته هو قدرة الرأي العام العربي على التأثير في مدخلات عملية صنع القرار، ما يعني تجاوز المفاهيم السابقة، لتصبح «الكيانية العربية» المتمثّلة في الرأي العام العربي هي «محور المقاومة» الحقيقي الذي يمكن البناء عليه في رفض الإملاءات الأميركية والإسرائيلية للأنظمة. وتدلّ النتائج الإحصائية التي أبرزها المؤشّر العربي الصادر عن «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» صواب هذه النتيجة؛ فـ 84 في المئة من الرأي العام العربي يرى في القضية الفلسطينية قضية العرب جميعًا لا قضية الفلسطينيين وحدهم، و51 في المئة من الرأي العام العربي يرى أن إسرائيل هي الأكثر تهديدًا للدول العربية، و22 في المئة يرى في الولايات المتحدة الداعمة لها دولة تهدد الأمن الوطني للدول العربية[7].

لا يعني ذلك من الناحية الاستشرافية أن الحرب هي نتيجة واقعة بين العرب وإسرائيل على المدى المنظور أو المتوسط، لكن توجّهات بعض الأنظمة العربية لن تكون تنازلية ومحابية لإسرائيل والغرب كما كانت سابقًا، والتغير في مفهوم الأمن الوطني للدول العربية سيحتم على الأنظمة العربية التشدد في مواجهة التصرفات العدوانية لإسرائيل، الأمر الذي سيعزل إسرائيل في المنطقة العربية ويحيّد تأثيرها كدولة تستطيع فرض توجّهاتها على محيطها الإقليمي، ولا سيما في الدول العربية المركزية مثل مصر.

- **التموضع الجيوبوليتيكي «كيانيًا»:** سيرسم التغيّر في تعريف الأمن الوطني للدول العربية خريطة جيوسياسية عربية جديدة تتبلور في محاورَ جغرافية متقاربة ثقافيًا. فالثورتان التونسية والليبية، واضطرار الأنظمة في

(7) «المؤشر العربي 2011»، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 1/ 3/ 2012، <http://www.dohainstitute.org/Home/Details?entityID=5d045bf3-2df9-46cf-90a0-d92cbb5dd3e4&resourceId=7b817b45-8186-4979-82a3-76616ef2bc23>.

الجزائر والمغرب إلى الإصغاء لرأيها العام، كل ذلك قدّم مؤشّرات لكسر واقع «اســتدامة الخلافات» بين دول المغرب العربي. ووجدت الأنظمة الجديدة أو القائمة أن المعالجة الاجتماعية لمشكلات الفقر والبطالة والدخل والرفاهية لا تنحصر في إطار المعالجة الداخلية فحســب، وإنما تتطلّب تعاونًا إقليميًا يأخذ بالاعتبــار «المتمّم والمكمل»، والقيمــة المضافة للعنصر البشــري، والموارد الطبيعية والاقتصادية في هذه الدول. لذلــك، وجدنا ميلًا أمام جموح الرغبات الشــعبية[8] إلى إنتاج إجراءات تكاملية ذات طبيعة اتحاديــة بين دول المغرب العربي، متجاوزةً «قطيعة» سياســية ونزاعًا بين عدد من دوله، ولا ســيما النزاع المغربي - الجزائري[9]. ولا شــكّ في أن هذه الإجراءات التكاملية ســتفرض علــى دول أخرى توجّهــات مختلفة، خصوصًا فــي إقليــم وادي النيل؛ فهي ســتفرض مواجهة المعضلات المائية والأمنية والغذائيــة والاقتصادية، وعلى النظام السياسي في مصر البحث عن بدائل تغنيه عن واقع الاستدانة والقروض والمســاعدات الدولية التي تخلق تبعية اقتصادية وسياسية. وسوف تجد مصر نفســها مضطرة إلى البحث عن ســاحات اقتصادية بكر يمكن للعنصر البشري والخبرات المصرية أن تتفاعــل معها إيجابيًا، ولا ســيما أن الموقع الجغرافي لمصر ســيجعل من الســودان وليبيا أبرز الدول التي يمكن للعنصر البشــري المصري الإفادة والاستفادة منها، الأمر الذي سيحتم البحث أيضًا عن إجراءات

---

(8) أظهرت نتائج المؤشــر العربي لعام 2011 أن 67 في المئة من الــرأي العام العربي يرى أن التعاون العربــي - العربي الحالي هو أقلّ ممّا يجــب أن يكون عليه، وأن نحو ثلاثــة أرباع الرأي العام العربي تؤيد إجراءات تكاملية ذات طبيعة اتحادية، انظر: «المؤشر العربي 2011».

(9) طرح الرئيس التونســي منصف المرزوقي في أثنــاء زيارته إلى ليبيا في كانــون الثاني/ يناير 2012 فكرة الاندماج بين تونس وليبيــا، و«إعادة ضخّ الحياة في المغرب العربي»، انظر: ب. ســامية، «المرزوقي يدعو من طرابلس لإعادة بعــث اتحاد المغرب العربي،» الخبــر (الجزائر)، 3/ 1/ 2012، <http://www.elkhabar.com/ar/monde/275929.html>.

والجدير بالذكر أن الجزائر والمغرب وموريتانيا دعمت هذا التوجّه علانية، بل إن هذا الواقع ذلّل العقبات وخفّف الخلافات التي كانت موجودة بين ليبيا والجزائــر، خصوصًا بعد زيارة رئيس المجلس الوطني الانتقالي مصطفى عبد الجليل إلى الجزائر في منتصف نيسان/ أبريل.

تكاملية اقتصادية تسمح في ما بعد بتكامل سياسي على أساس تعظيم المنافع والمصالح المشتركة بين هذه الدول[10].

- بروز التفكير الاستراتيجي: يُقصد بهذا المحدد استعادة أهمية التفكير الاستراتيجي لبعض الدول العربية التي يغيب عنها، نتيجة طبيعة النظام السياسي الذي يحكمها، ولا سيما في منطقة الخليج العربي ودوله المركزية كالمملكة العربية السعودية. إن حالة التحصّن الهشّ في المَلكيات الخليجية من حركات التغيير تعود في أغلبيتها إلى محددات الواقع السياسي الذي يحكم الاختلاف بين الجمهوريات والملَكيات[11]، لكن البُعد القيمي للامتداد الثقافي العربي يجعل هذه الملكيات مهددة برياح التغيير والإصلاح، خصوصًا مع تضافر تأثير الرأي العام في عملية صنع القرار. يفرض هذا الواقع جملة من التغيرات داخل هذه الملَكيات، ولا سيما محاولة حلّ المشكلات الاقتصادية الداخلية،

---

(10) بعد تطوّر النزاع بين السودان وجنوب السودان على الحدود والنفط إلى حرب عسكرية بين الدولتين، خصوصًا بعد احتلال دولة الجنوب لإقليم هجليج النفطي، كثفت مصر حركتها الدبلوماسية لإنضاج وساطة تنهي هذا النزاع من خلال مبادرة قدمها وزير الخارجية المصري محمد عمرو كامل. يلاحظ هنا سرعة التحرك المصري لاحتواء المشكلات والنزاعات في محيطها الجغرافي لارتباطه المباشر بأمنها القومي، في حين غُيب دور مصر عن نزاعات ومشكلات إقليم وادي النيل بسبب توجهات نظام مبارك الذي تغافل عن أهمية هذه المنطقة وارتباطها بالأمن القومي لمصر، ولا سيما في مسألة انفصال جنوب السودان، وقضية تقاسم مياه نهر النيل: انظر: «وزير الخارجية يواصل الوساطة بين الخرطوم وجوبا،» الأهرام، 17/ 4/ 2012، <http://www.ahram.org.eg/Arab%20world/News/143889.aspx>.

(11) يذهب كثير من المحللين إلى أن محددات عدة، أبرزها طبيعة النظام السياسي وشكل القيم والرموز في المجتمع وطبيعة الخطاب السياسي في الجمهوريات، تعزز من فرص الاحتجاج والثورات، في مقابل الشرعية التاريخية التي تكتسيها الملَكيات. وقد يكون هذا الجانب صحيحًا، ويتعلق بنوعية المطالب السياسية وأهداف حركات الاحتجاج، مثل المطالبة بالإصلاح مع المحافظة على شكل نظام الحكم كما في الأردن والبحرين والمغرب، لكن التذرع بهذا الجانب لإغفال الحاجة إلى الإصلاح خاطئ علميًا، على اعتبار أن الجمهوريات العربية التي حصلت فيها الثورات كانت تشبه الملَكيات إلى حد بعيد. وتجلى ذلك ببروز عائلة حاكمة، وميلٍ إلى التوريث، وظهور فئة مستفيدة ونخبة تدعم بقاء النظام الحالي، وتحديد شكل التفاعلات المجتمعية عن طريق الريع، ما يعني أن الاختلاف بين الجمهوريات والملَكيات لا يُعَدّ حصنًا للأخيرة من حركات الاحتجاج والثورات. انظر: عزمي بشارة، الثورة التونسية المجيدة: بنية ثورة وصيرورتها من خلال يومياتها (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012)، ص 16.

وفي الوقت ذاته فرض إعادة التفكير الاستراتيجي بشكل لا يرتكز على التقاطع مصلحيًا مع القــوى العظمى لتجاوز المعضلة الأمنية، ضمــن نهج تخلّي هذه الدول عن بعض «حلفائها» أمام رياح التغيير.

ساهمت المحددات السابقة في تنبّه صانع القرار الخليجي إلى التحديات العربية الجديــدة التي فرضتها الثورات العربية، فانتقــل من التفكير ضمن مبدأ التحصّن المرحلي إلى التفكير في المدى الأبعد في مواجهة هذه التحديات بناءً على فرص داخلية وخارجية، وأبرزها التنسيق ضمن الإقليم سياسيًا واقتصاديًا لإنتاج سياســات تعاونية فــي المجال الاقتصــادي (الوحدة النقديــة، التعرفة الجمركية، السياســات المالية)[12]، إضافة إلى نزوع إلى التشــارك في مواجهة تحديات أمنية وسياسية مســتقبلية للاعبين جيوستراتيجيين إقليميين كإيران[13]، أو أقطاب صاعدة مثل الهند التي تضع منطقة الخليج في صلب مفهومها للأمن القومي الهندي. وما زال العائق الأساس أمام تبلور هذه الخيارات متعلّقًا بعقلية الأنظمة السائدة واهتمامات الحكّام ومخاوفهم.

---

(12) لا شــكّ في أن الثورات العربية فرضت على دول الخليج العربي زيادةً في التقارب ضمن معطى تماثل الأنظمة الخليجية، وساهم هذا التقارب في ظهور دعوات اتحادية من مستويات عليا قادرة في هذه الدول، أبرزهــا كان في اجتماع القمــة الخليجية الـ32 في الرياض في كانون الأول/ ديســمبر 2011، حين دعا الملك السعودي إلى الانتقال بمجلس التعاون الخليجي من مرحلة التعاون إلى مرحلة الاتحاد. انظر: هدى الصالح، محمد القشــيري ونايف الرشيد، «خادم الحرمين الشريفين يطالب بتجاوز مرحلة التعاون والوصــول إلى الاتحاد في كيان واحد،» الشــرق الأوســط، 20/ 11/ 2012، <http://aawsat.com/details.asp?section=4&article=655144&issueno=12075>.

وعلــى الرغم من أن هــذه الدعوات تنحــو منحًى إعلاتيًا أكثــر ممّا هو إجرائــي، فإن تحديات مســتقبلية -خصوصًا إذا كانــت أمنية - ســتدفع في اتجاه إعــادة وضع هذه الدعــوات ضمن الخطط المستقبلية، ما يعني أن بروز التفكير الاستراتيجي كظاهرة ليس مرتبطًا بالجانب الرغبوي الإرادي لصانع القرار الخليجي، وإنما تفرض محددات بقائه أحيانًا هذا التفكير.

(13) برز هذا بصــورة جلية خلال اجتماع وزراء خارجية مجلــس التعاون الخليجي في الدوحة (17 نيسان/ أبريل 2012)، بغية إنتاج مواقف مشتركة مع مستجدات قضية الجزر الإماراتية الثلاث التي تحتلّها إيران، بعد زيارة الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد إلى جزيرة أبو موســى. وقد نتج من هذا الاجتماع لهجة تهديد إعلامية واضحة تجاه الاســتفزازات الإيرانية فــي موضوع الجزر. انظر: «الإعلام القطري: اجتماع الدوحة رســالة واضحة،» البيان (الإمارات)، 19/ 4/ 2012، <http://www.albayan.ae/one-world/arabs/2012-04-19-1.1633710>.

إن الاشتراك في التحديات والتهديدات يحتم الاشتراك في المعالجة بعيدًا عن أدوات سابقة لم تثبت نجاعتها، ما قد يمهّد الطريق لتعاون استراتيجي أوسع وأشمل بين دول مجلس التعاون الخليجي على نحوٍ يسمح بإنضاج تكامل إقليمي مرتبطٍ بتفكير استراتيجي لمواجهة هذه التحديات.

تؤشّر فاعلية هذه التغيرات بشكل آلي إلى تراجع أدوار اللاعبين الجيوستراتيجيين الدوليين والإقليميين ومواقعهم في المنطقة العربية، لكن السمة العامة للتراجع تتباين بحسب قوّة اللاعبين وقدرتهم من جهة، ومدى التقدم والتراجع الذي ستحقّقه القوى العظمى في النظام الدولي من جهة ثانية. وعليه، فإن التغيرات الجيوستراتيجية ضمن سيناريو تقدم الثورات العربية تتجلّى كما يلي:

- الولايات المتحدة الأميركية

طغت حالة الانكفاء الأميركي عن التدخّل المباشر بعد وصول أوباما إلى الحكم في عام 2008 على مسار التفاعلات في النظام الدولي قبيل انطلاق الثورات العربية. وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة فوجئت بانطلاق الثورات، فإنها سرعان ما تخلّت عن مساندة بعض الدكتاتوريات العربية، وأنتجت مواقفَ منفتحة على القوى الجديدة - ولا سيما الإسلامية - نتيجة مرونة سياساتها الخارجية[14] وبراغماتية الحركات الإسلامية التي بدت مُفرَطة في بعض الحالات.

لا شكّ في أن بروز الكيانية العربية كمحدد رئيس يعكس تداعياته على

(14) لا تعود فكرة تقبّل الإسلاميين في الحكم إلى موعد انطلاق الثورات، بل كانت حاضرة في عمل العديد من مراكز الأبحاث في واشنطن، وفي ذهن صانع القرار الأميركي منذ تسعينيات القرن الماضي، مع جان اسبيزيتو مستشار الرئيس الأميركي السابق بيل كليتون في عام 1994؛ حين نظر إلى الحركات الإسلامية بوصفها حركات براغماتية يمكن لأميركا أن تصل معها إلى تقاطعات تضمن مصالحها، لذلك لم نجد قلقًا كبيرًا على المدى القصير والمتوسط من فوز الإسلاميين في مصر أو تونس أو المغرب، في ظلّ ميل هذه الحركات إلى الانفتاح على الولايات المتحدة الأميركية ضمن فهمٍ رغبوي من أجل البقاء في السلطة.

التوجّهات الاستراتيجية للدول العربية، سيحتم تراجعًا في الدور الأميركي «الفاعل والمباشر» في قضايا المنطقة، خصوصًا إذا ما ظلّت مقاربتها لـ «أمن إسرائيل» تقتضي تبنّي سياسات اليمين المتطرف، خصوصًا في قضايا القدس واللاجئين والعملية السلمية.

إن تراجع الدور الأميركي رياديًا في المنطقة العربية لا يعني إطلاقًا غياب الحضور والتأثير، إذ إن القواعد الأميركية ما زالت قائمة، وما زالت تعد القوّة العسكرية- السياسية الرئيسة في المنطقة. لكن المقصود بالانكفاء هو الانكفاء عن المبادرة الريادية. وستمنح براغماتية السياسة الخارجية الأميركية الحضور الأميركي صورًا أخرى ضمن نهج «القوّة الناعمة» والميل إلى «الندب الإقليمي»، وتقاطع المصالح، خصوصًا في محاور جيوسياسية مثل الخليج العربي ومصر، ما يعني أن تراجع الدور الأميركي سيكون طفيفًا في النظام الدولي، لكنه سينعكس بأشكال جديدة في الشرق الأوسط لجهة بروز توجّهات أميركية تحافظ على الأمن القومي الأميركي والتحالفات الاستراتيجية ومصالح إسرائيل، وتأخذ بالاعتبار التحفّظات الشعبية واستجابة الأنظمة العربية لها، خصوصًا في ما يتعلّق بالصراع العربي - الإسرائيلي.

- الصين

تُعنى القيادة الصينية بتعريف نفسها باعتبارها قوّة إقليمية في محيطها الجيوسياسي، ولا تنظر إلى التغيرات في الشرق الأوسط من منظور مفاهيم الديمقراطية وحقوق الإنسان، بل من حساسيتها تجاه مقاييس تقدُّم الولايات المتحدة الأميركية أو تراجعها. وعليه، فإن غياب الإرادة السياسية للقيام بدور فاعلٍ وريادي في هذه المنطقة سيجعل الحضور الصيني محكومًا من الناحية الجيوستراتيجية بالدور الأميركي، مع ميل الصين إلى التصدي لأي احتمالية تقدم أميركي[15].

(15) تسعى الصين إلى انتهاج سياسة انعزالية بالقدر الممكن، مع استثناءات تتمثّل في زيادة الدور الأميركي أو تقلصه. من هنا عمدت أيضًا إلى استغلال حالة الوهن الأميركي المحدود الذي يجعلها تحجم عن التدخل المباشر لموازنة احتمالات انعكاس الربيع العربي إيجابيًا على الحضور الأميركي =

ليس لدى الصين تخوّف جيوستراتيجي من احتمالية ظهور كيانات اتحادية عربية بحكم محددات سياستها الخارجية، لكنها ستسعى إلى منافسة الولايات المتحدة في المبادرة إلى التعاون مع هذه الكيانات، خصوصًا من البوّابة الاقتصادية. وبناءً عليه، فإن الانكفاء الأميركي سيحتم على الصين سياسة أكثر انخراطًا قد تستفيد منه في المدى المتوسط، لكنها ستتحمّل أعباء جديدة لم تدرجها ضمن استراتيجيتها العامة[16]، ما قد يؤثر في دورها في المستقبل البعيد.

- روسيا

تطمح روسيا إلى موقع في النظام الدولي يفوق مقدراتها القومية. ووجدت أن الثورات العربية قد تنتج تغيرات جيوستراتيجية في الإقليم لا تتلاءم وطموحها المتنامي في عهد أوباما، فأبدت تحفّظاتٍ ومواقف مناوئة لحصول التغير في ليبيا، وبفاعلية أكبر في سورية، إلى حد جعلها أبرز اللاعبين المؤثرين في الأزمة السورية.

ترى روسيا دورها في الشرق الأوسط من المنظور الاستراتيجي - الأمني، نظرًا إلى غيابها في المنطقة جيو - اقتصاديًا؛ وبناءً عليه، تستطيع في المدى المنظور - بحكم الانكفاء الأميركي - تعزيز حضورها ودورها من دون أن يتسم هذا الحضور بالقدرة على الاستدامة، بسبب محدودية المقدرات القومية الروسية التي تمكّن روسيا من تحقيق حضورٍ أكبر أمام الولايات المتحدة ولكن في ساحات جغرافية أخرى.

= في المنطقة، فأنتجت تقاطعات مع روسيا في المؤسسات الدولية، من خلال استخدام الفيتو ضد مشروع قرار بشأن سورية، ليس رغبة في إعادة تفعيل نمط الحرب الباردة، وإنما تمسكًا بالعرف الذي حتم التنسيق بين روسيا والصين في مجلس الأمن منذ سبعينيات القرن المنصرم، ولمحاولة تحجيم تأثير قرار كهذا في تحسّن الصورة الأميركية في العالم العربي بعد تراجع سبّبته السياسات الأميركية في ما سبق.

(16) سجّلت الصين في عام 2011 معدلًا للنموّ قدر بـ 8 في المئة، وهو معدل منخفض مقارنة بـ 10.5 في المئة عام 2010، ويعود هذا الانخفاض أساسًا إلى تراجع معدل تجاراتها مع الولايات المتحدة ودول أوروبا بسبب الأزمة الاقتصادية في دول أوروبا، ما يعني أن الصين كانت اقتصاديًا مستفيدة من الاستقرار النسبي في النظام الدولي.

- تركيا

استطاعت تركيا قبيل اندلاع الثورات تحقيق مكانة ودور مهمّين في الشرق الأوسط بسبب توجّهات سياساتها الخارجية منذ وصول حزب العدالة والتنمية إلى الحكومة؛ إذ تحالفت مع الأنظمة الدكتاتورية في المنطقة من باب تفعيل العلاقات الاقتصادية بعد انزياح محور اهتمامها من الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي باتجاه تفعيل دورها في الدائرة الشرق الأوسطية.

شكّلت بعض الثورات العربية، ولا سيما الليبية والسورية، إحراجًا للدور التركي. واستطاعت حسم الموقف في الأولى لجهة ضمان بقاء الاستثمارات التركية في ليبيا على الرغم من زوال نظام القذّافي الذي أدخلها بقوّة إلى شمال أفريقيا. أمّا في الثورة السورية، فحاولت تركيا من خلال تبنّي مؤتمرات المعارضة إنتاج موقفٍ يمكّنها من التوسّط بين المطالب الشعبية وبقاء النظام الحالي لعلاقاتها الجيدة معه بداية، لكنها فشلت، فبدأت تنتج مواقف تصعيدية ضمن مسارٍ هادئ اقتصر على تبنّي قوى المعارضة، بل محاولة احتوائها، والضغط الدبلوماسي أحيانًا والعقوبات أحيانًا أخرى. إذ احتضنت احتضنت تشكيلات المعارضة وتبنّت الدعوة إلى رحيل الأسد، لكن من دون التفكير في إجراءات تدخّل ملموسة[17]. وسوف يبقى لتركيا دور كبير في سورية بسبب موقفها المتبنّي المعارضة وبسبب كونها الدولة الأقوى والأكثر أهمّية وتأثيرًا من بين الدول المجاورة لسورية.

فرضت المواقف التركية ومحددات سياستها الداخلية - التي تخضع لتجاذبات حزبية وانتخابية عديدة - تراجعًا في حضورها بعد الثورات العربية،

---

(17) لا تزال تركيا ترى أن الأزمة السورية لا تؤثر في أمنها القومي بصفة مباشرة، لكن في حال انهيار الوضع في سورية إلى منزلقات فرعية، ستعود إلى مقاربة الوضع ضمن المعطى الأمني والمرتبط بالتحالفات ضمن الدائرة الأطلسية، خصوصًا أنها تُعَدّ القوة الثانية في حلف شمال الأطلسي بعد الولايات المتحدة الأميركية من ناحية تعداد القوّات العسكرية، وأن ملامسة الوضع في سورية للأمن القومي التركي ستخرج الأزمة السورية من كونها قضية رأي عام يخضع للتجاذبات بين الأحزاب داخل تركيا إلى كونها أزمةً تخصّ مجلس الأمن القومي التركي.

خصوصًا في حالتي الثورة الليبية والثورة السورية. وبالطّبع سيساهم التموضع الجيوسياسي المتوقّع في العالم العربي في ملء الفراغ الذي استغلّته تركيا سابقًا كفاعل جيوستراتيجي يحظى بقبول شعبي لإنضاج دور فاعل في المنطقة. ولا يعني هذا أننا سنكون أمام واقع جديد يتدهور فيه الحضور التركي عربيًا[18]، فنجاح الثورات العربية قلّص أدوار الدول التي تعتاش على سياستها الخارجية مثل إيران، ما يعني رجحان كفّة التنافس التركي - الإيراني في المنطقة العربية لمصلحة أنقرة، مع احتفاظ تركيا بقوّة اقتصادية تجعلها قادرة على بلورة تقاطعات لبناء علاقات استراتيجية مع الدول العربية.

- إيران

تُعَدّ إيران الخاسر الأكبر من الثورات العربية بعد الأنظمة العربية على المديين القصير والمتوسط؛ حيث انتشر الموقف السلبي من دورها في الساحة العربية، ولم ينتج التغيير أنظمةً حليفة لها أو للولايات المتحدة في هذه المرحلة كما في مصر وتونس. أمّا سورية فتعيش حالة من عدم الوضوح بسبب مراهنة إيرانية يبيّن مسار الثورة أنها خاسرة، على الأقلّ لجهة بقاء النظام قويًا، لذلك ستحاول تقليص الخسائر بالقدر الأكبر في سورية، وتعظيم المكاسب في لبنان والعراق، بيد أن ذلك قد يفيد مرحليًا نظرًا إلى الحاجة إلى سد الفراغ الناجم عن تراجع دور القوى الدولية، لكن العراق ولبنان يبقيان ساحات غير مستقرة، ولذلك لا يمكن ضمان وجود نفوذ قوي فيها، خصوصًا في ظلّ افتقاد إجماع شعبي يرحّب بهذا الدور.

كما أن عودة مصر وتنامي دور السعودية في ملفّات مثل سورية واليمن، سيكون لهما تأثيرهما السلبي في دور إيران، عدا عن الدور التركي واحتمالاته، خصوصًا بعد نشر الدرع الصاروخية على الحدود الجنوبية من تركيا أواخر عام 2012. وعليه، ستمتلك إيران هامش مناورة، لكنه سيصطدم دائمًا بحضور

(18) يمكن أن يتدهور الحضور التركي في الشرق الأوسط في حالة وحيدة تتمثل في قدرة النظام السوري على الانتصار على الثورة الشعبية.

فاعلين إقليميين ودوليين توجّهاتهم مناهضة لها، ولذلك فإن الدور الإيراني في المنطقة سوف يتعرض لانحسار جزئي.

تشـــعر إيران بأن التغير في سورية يستهدفها جيوســـتراتيجيًا؛ فهو يُكسب اللاعبين الجيوســـتراتيجيين الآخرين نقاط قوّة، في حين تعجز هي - بســـبب طبيعة نظامها، والنظرة السلبية إلى دورها ضمن الرأي العام العربي - عن تجيير هذا التغير لمصلحتها، أو على الأقلّ الحد من الخسائر.

تؤشّر جميع المعطيات الســـابقة إلى أن الدور الإيراني سيتقوقع في حدود مغلقة في المنطقة، وســـيعتاش بفاعليته على حكومات قريبـــة منه مذهبيًا، من دون أن يعني ذلك إمكان اســـتدامة هذا الـــدور، خصوصًا في ظلّ الاختلالات البنيوية التي تعيشها إيران داخليًا، وتأثير انحسارها الخارجي على قوّة النظام في مواجهة المعارضة الداخلية التي نفترض أنها ســـوف تتعزّز نتيجة تأثير الثورات العربية وفشل السياسة الخارجية الإيرانية.

- إسرائيل

تنظر إســـرائيل بعين الريبة والحذر إلى الواقع السياسي الذي تمخّض عن الثورات العربية، خصوصًا في دول كانت أنظمتها حليفة لها. وسيحاول اليمين المتطرف الاســـتفادة من التنافس الجيوســـتراتيجي في المنطقـــة بين اللاعبين الدوليـــن والإقليميين - وانشـــغال الـــدول العربية بترتيـــب أوضاعها لإنجاز ثوراتها، أو إتمـــام المرحلة الانتقاليـــة - من أجل إنجاز توجّهاتـــه الهادفة إلى إنهاء القضية الفلسطينية بحلول جزئية، واستكمال نهجه في توسيع الاستيطان، وفرضـــه كمعيق جغرافي وديموغرافـــي ليكون أحد المحـــددات الثابتة في أي عملية تفاوضية مقبلة. بيد أن استفادة إسرائيل من الوضع الثوري العربي ستكون في المدى المنظور والقصير، فتأثير الرأي العام العربي سيكون أبرز المحددات التي ستفرض محدودية دورها وسياساتها، على نحوٍ يجعلها معزولة في محيط عربي يفرض توجّهاته شعبيًا. وحتى على المدى القصير، ظهر أن للثورات أثرًا إيجابيًا في العلاقة بين المعسكرين الفلســـطينيين المتخاصمين، كما أن لها أثرًا

في تصليب الموقف الفلسطيني الرسمي من المفاوضات، ولا سيما في غياب الضغط المصري على القيادة الفلسطينية للانصياع للإملاءات الأميركية.

إن الأمر الذي سيحسم الموقف من إسرائيل في النهاية هو قدرة الدول العربية التي شهدت ثورات على إقامة أنظمة ديمقراطية دينامية سياسيًا واقتصاديًا، ومتماسكة أمنيًا وعسكريًا، ومؤثرة دوليًا لصدقيتها كدولٍ ديمقراطية. كما سوف تحسمه قدرة هذه الأنظمة على تقديم نموذج ناجح داخليًا، ويعبّر في الوقت ذاته عن ميول الرأي العام العربي ونزعاته الحقيقية ضد الصهيونية وإسرائيل.

وحدة تحليل السياسات

في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات(*)

(*) الأوراق البحثية المتضمنة في هذا الكتاب، قدّمت في الأصل إلى الحلقة النقاشية المعنونة «تحولات جيوستراتيجية في سياق الثورات العربية»، والتي عقدت في سياق أعمال «المؤتمر السنوي الأول لمراكز الدراسات السياسية والإستراتيجية في الوطن العربي»، الدوحة، كانون الأول/ ديسمبر 2012.

القسم الأول

البنية الجيوسياسية في الوطن العربي

الفصل الأول

النظام الإقليمي العربي
استراتيجية الاختراق وإعادة التشكل

وليد عبد الحي

مقدّمة

يمثّل التداخل والتفاعل المطّرد بين وحدات المجتمع الدولي اتّجاهًا تاريخيًا تؤكّده المؤشّرات الكمية في القطاعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وتستدعي منهجية تحليل الظاهرة الدولية في نطاق هذا التفاعل التمييز بين منظورين للنظام الدولي، أوّلهما منظور تجزيئي (Reductionism) يرى المجتمع الدولي وحدات مستقلّة ومتباينة لكنّها تترابط بشبكة من التفاعلات ذات الصبغة التكتيكية العابرة والنفعية، وهو الاتّجاه الذي تبنّته النظرية الواقعية بشقّيها القديم (مورغانثو) والجديد (كينيث والتز)، إذ ينظر هذا الاتّجاه إلى الوجود المتميز المنفرد لكلّ وحدة على أنه هو الأساس الاستراتيجي لفهم حركية الواقع الدولي. أمّا المنظور الثاني فمنظور كلّاني (Holism) يرى المجتمع الدولي بنية واحدة تنطوي في داخلها وحدات تتباين في بعض سماتها لكنّها تتفاعل بكثافة مطّردة كي تصبح هذه التفاعلات بين الوحدات هي الأساس الذي يُبنى عليه تحليل للظاهرة الدولية، بينما تمثّل تباينات الوحدات تنوّعًا داخل بنية النظام الدولي.

يترتّب على ما سبق بناء منهجيتين: إحداهما تتعامل مع الواقع الدولي: كـ«أطراف»، أي تحلّله انطلاقًا من الوحدات القائمة وتصبح هذه الوحدات، مثل الدول والمنظّمات الدولية والإقليمية، وحدة التحليل، وثانيتهما تتعامل مع الواقع الدولي كعمليات أو علاقات وتفاعلات، وتصبح هذه التفاعلات هي ذاتها وحدة التحليل، ما يمكن إيجازه بالتمييز بين منهجية الأطراف أو الوحدات (Actor Approach) ومنهجية العمليات (Process Approach).

تنتمي ظاهرة النظم السياسية المخترَقة إلى منهجية وسيطة بين العمليات والوحدات. بناء على ذلك، سنقيم تحليلنا لهذه الظاهرة في النظام الإقليمي العربي استنادًا إلى هذه المنهجية الوسيطة.

أولًا: الإطار النظري لتحليل النظم المخترَقة

لمّا كان الاعتماد المتبادل والترابط المطّرد بين وحدات المجتمع الدولي يفترضان تداخل أجزاء من الكيان السياسي مع أجزاء من كيان سياسي آخر، فإن ذلك يحيل حدود الكيان السياسي إلى حدود باهتة من ناحية، ويضع بعض الأسس لاحتمالات تقويض أواصر التكامل مع أجزاء الكيان السياسي الأخرى من ناحية أخرى. لذا، فإن سمات الكيان السياسي أضحت في العصر الحالي - نتيجة ترابطه بكيانات أخرى - تتحدّد لا من خلال حدوده التي تنتج من تجميع أجزائه بل من خلال أنماط التفاعل الرئيسة التي تتكرّر في نطاق حدوده الباهتة، وهو ما يحدّد هويته ويميزه من غيره من الكيانات السياسية (دولًا أو نظمًا إقليمية أو خلافهما).

يؤدّي انخراط الكيان السياسي في أنماط تفاعل يومية ومتواصلة مع الكيانات الأخرى إلى خلخلة متّصلة في بناه الأساسية، وتصبح مهمّة هذا الكيان لا منع الخلخلة والتذبذب في أنساقه الفرعية الدائمة التي يتشكّل منها، بل جعل هذه الخلخلة تدور في حدود مقبولة تحول دون انهيار الكيان، ما يدخلنا في دراسة التكيف السياسي وطرح التساؤل التالي: هل قبول الكيان

السياسي بالاختراق يقع ضمن التكيف السياسي مع البيئة المتغيرة من حوله، أم هو مؤشّر إلى وصول الخلخلة في بناه إلى مرحلة تمهيدية للانهيار؟

إن انتقال التحليل السياسي تدريجًا من نموذج «كرة البليـاردو» الذي لا يولي أهمّية للعوامل الداخلية في تحليل التفاعل الدولي إلى نموذج «بيت العنكبوت» حيث تنتقل الحركة من مكان إلى آخر بفعل الترابط بين الوحدات يجعل القدرة على تحديد ما هو متغير داخلي (يدخل في نطاق السيادة) وما هو متغير خارجي (البيئة الدولية) أمرًا غاية في التعقيد. إن تصريحًا معينًا للرئيس الإيراني، على سبيل المثال، يؤدّي إلى التأثير في أسعار النفط خلال دقائق، ما يؤدّي إلى تغيّر في ميزانيات جميع دول العالم؛ فالدول المصدّرة سيزداد دخلها والدول المستوردة سيزداد إنفاقها، الأمر الذي يؤثّر في توزيع مصادر الدخل داخل الدولة، الأمر الذي يؤكّد صعوبة تحديد ما هو داخلي وما هو خارجي، أو ما يسمّى تماهي الحدود (Blurring Boundaries).

تشكّل ظاهرة فيضان البيئة الدوليـة على بنية البيئة المحليـة أمرًا يجعل تحديد معنًى دقيق لمفهوم الاختراق مطلبًا غاية في التعقيد؛ إذ لا بدّ من معيار يستند إليه يمكّنه من تحديد ما هو دولي وما هو داخلي، وتاليًا تحديد متى يمكن الإشارة إلى اختراق ما، الأمر الذي يفترض التمييز بين مفهوم النفوذ (Influence) ومفهوم الاعتماد المتبادل (Interdependence) ومفهوم التغلغل (Entryism) ومفهوم الاختراق (Penetration)، وهي مفاهيم متداولة في العلاقات الدولية لكنّ كلًا منها يشير إلى بُعد معيّن في إطار التفاعل بين وحدات المجتمع الدولي.

النفوذ يعني التأثير «غير المباشر» في سلوك طرف آخر وقراراته من خلال استثمار متغيرات لها أثرها في الطرف الواقع تحت التأثير. أمّا الاعتماد المتبادل فيعني الحاجة المتبادلة بين طرفين، أي ما يقتضي تكييف السلوك لضمان استمرار هذه التبادلية. أمّا التغلغل فيعني الانخراط في الجسد السياسي للطرف الآخر بهدف التأثير فيه من داخله وتوجيه قراراته وتصرفاته باتّجاه معين (وهو النموذج الذي أبدعه تروتسكي بدعوته التروتسكيين الفرنسيين إلى التغلغل في القطاع الفرنسي في الاشتراكية الدولية في عام 1934).

تعدّ مساهمة العالِم الأميركي جيمس روزينو الأكثر رواجًا في معالجة النظم السياسية المخترَقة؛ إذ يرى أن العصر الحالي، بسِمات الترابط والتدويل التي تسِمه، يجعل من اقتصار تحليل النظم السياسية على المتغيرات الداخلية أمرًا غير مُجد، إذ لا بدّ من أن يتخذ متغير البيئة الدولية بعدًا مركزيًا في تفاعل النظام السياسي مع غيره من النظم، وهو ما يكوّن نقطة التلاقي بين دراسات النظم السياسية المقارنة من ناحية، والعلاقات الدولية من ناحية ثانية.

غير أن تعيين الحدود الفاصلة بين ما هو دولي وما هو محلي، أو ما هو داخلي وما هو خارجي، أمر ليس باليسر الذي يبدو للوهلة الأولى. غير أن النقطة الجديرة بالتنبيه هنا هي أن حدود النظام السياسي تتعين بالفعل أو بالنشاط والعمليات لا بالجوانب القانونية (Legalities)، ولعلّ ذلك ما دفعنا إلى التمييز بين النفوذ والتأثير والتغلغل وبين الاختراق[1]؛ فالنظام المخترَق هو «نظام يكون فيه أطراف من خارج المجتمع الوطني تشارك بطريقة مباشرة وسلطوية مع أطراف وطنية في قرارات توزيع القيم أو حشد الدعم لأهداف تتبناها»، وهو أمر تتزايد مظاهره نتيجة التداخل المتواصل بين المتغيرات الخارجية والمتغيرات الداخلية في تشكيل توزيع القيم أو تحديد القرار المتّخذ.

ذلك يعني أن الاحتلال أو وجود القواعد العسكرية هو الشكل الأجلى لظاهرة الاختراق، إذ يشارك الطرف الخارجي بصورة مباشرة في صناعة قرار الطرف الداخلي، ما يُظهر في نماذج مثل العراق أو فلسطين أو ليبيا في مرحلة الصراع على إسقاط حكم القذّافي، إذ يصبح الطرف الخارجي طرفًا من الأطراف المشاركة في صنع القرار واتّخاذه.

يرى روزينو أن ما يحدّد قابلية النظام للاختراق أو عدمه هو ما سمّاه «القدرة التكيفية»، ولعل هذه النقطة هي نقطة الارتكاز للنقد الذي وجّهه روزينو إلى دراسات غابرييل إلموند (G. A. Almond) في شأن التغير في النظم السياسية. فبعد انتهاج تحليل يقوم على ثلاثة مستويات: الوطني وما دون

(1) James N. Rosenau, *The Scientific Study of Foreign Policy*, Rev. and enl. ed. (London; New York: Frances Pinter; Nichols Pub. Co., 1980), pp. 136-152.

الوطني وما فوق الوطني، يحدّد روزينيو كلّ مستوى منها، إذ يتضمّن المستوى الوطني هيئات صنع القرار السياسي في حكومة الدولة، بينما يتمحور المستوى ما دون الوطني حول هيئات وسياسات الإدارات المحلية، أمّا ما فوق الوطني فيشتمل على البيئة الدولية والإقليمية. ويحاول نموذج روزينيو تحديد مدى تدخّل الأطراف «غير الأعضاء» في كلّ مستوى من المستويات الثلاثة في عملية صنع القرار واتّخاذه.

ذلك يعني، من منظور روزينيو، أن الاختراق مرهون بـ«مشاركة أطراف خارجية في صنع القرار» في نظام سياسي معيّن، مع ضرورة التمييز بين المشاركة في «شؤون متعدّدة» أو في «شأن واحد»، أي بين تدخّل في صنع القرار في شأن محدّد ينتهي معه التدخّل بانتهاء هذا الشأن، وبين تدخّل في شؤون مختلفة ومتعددة.

رأى ل. كارل براون، في دراسة قديمة نسبيًا، أن إقليم الشرق الأوسط هو الإقليم الأكثر «اختراقًا» بين النظم الإقليمية الأخرى، إذا اعتمدنا منظور روزينيو للنظم المختَرَقة[2]، غير أنه أضاف إلى نظرية روزينيو اشتراط أن يكون المشاركون الخارجيون في العملية السياسية من «القوى الكبرى ومشاركين في مجالات متعدّدة». كما أضاف أن النظام حتى يُعدّ مختَرَقًا لا بدّ من إدخال الزمن، إذ إن مشاركة طرف خارجي في العملية السياسية مرّة واحدة أو لفترة قصيرة لا تدلّ على اختراق، أيْ إن مفهوم الاختراق لدى براون محدّد في الآتي:

- طرف خارجي يشارك بشكل مباشر في صنع القرار واتّخاذه.

- اقتصار الطرف الخارجي على الدول الكبرى (وهو بعدُ ملتبس نوعًا ما نظرًا إلى صعوبة تحديد الدولة الكبرى، هل هي في إطار النظام الدولي أم في إطار النظام الإقليمي؛ إذ كانت مصر في الحرب اليمنية في فترة الستينيات من

(2) L. Carl Brown, *International Politics and the Middle East: Old Rules, Dangerous Game*, Princeton studies on the Near East (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1984), pp. 3-5.

القرن الماضي تشـــارك في اتّخاذ القرار في اليمن أكثرَ مـــن أي دولة كبرى من دول النظام الدولي).

- ألّا يقتصر الاختراق على بُعد واحد فقط.

- أن يأخذ الاختراق مساحة زمنية ممتدّة.

يوافق ريمون هينبوتش على اعتقاد أن النظام الإقليمي الشـــرق الأوسطي هو النموذج الأكثر وضوحًا للنظم الإقليمية المختَرَقة، مشيرًا إلى استثمار القوى الرأســـمالية الموضوعات الثلاثة لتحقيق هذا الاختـــراق، وهي النفط والصراع العربي - الصهيوني وتفتّت القوى المحلية[3].

من ناحية أخرى، يمكـــن الربط بين الاختراق وانتشـــار جماعات الضغط الخارجية (Lobby)؛ حيث دلّت دراســـة تطبيقية شـــملت 400 مؤسّســـة دولية اقتصادية فـــي 25 دولة على أن هنـــاك علاقة بين عدد المتســـبين إلى جماعة الضغط وحجم الشراكة الأجنبية ومســـتوى التطوّر الاقتصادي في الدولة. كما أن هناك علاقة إيجابية بين نســـبة الاســـتثمار الأجنبي في الشـــركات المحلية وعدد المتحكّمين بالقرار[4]. وتكفي الإشـــارة إلـــى دور البنك الدولي - على ســـبيل المثال - في تكييـــف القرارات الخاصـــة بالتوظيف ودعم الســـلع، بل وأحيانًا في تحديد أعضاء الحكومة الوطنية؛ إذ تؤكّد أغلبية الدراسات الخاصّة بالتصويت في الأمم المتحـــدة (الجمعية العامّة) وجود علاقة بين نمط تصويت الدولة، ولا ســـيما دول العالم النامي، ووجود طلب للدول لدى البنك الدولي أو صندوق النقد الدولي للحصول على قرض. وبيّنت إحدى الدراســـات بشأن تصويت 188 دولـــة، خلال الفترة 1970 - 2002، وجـــود هذه العلاقة، كما

(3) Raymond Hinnebusch, *The International Politics of the Middle East*, Regional international politics series (Manchester: Manchester University Press; New York: Distributed exclusively in the USA by Palgrave, 2003), p. 14.

(4) Nauro F. Campos and Francesco Giovannoni, *Lobbying, Corruption and Political Influence*, IZA Discussion paper; no. 2313 (Kiel: Leibniz Information Centre for Economics in cooperation with institute for the study of labor (IZA), 2006), pp. 21-22.

أكّدت أن التصويت يكون أكثر انسجامًا مع توجهات مجموعة الدول السبع (G7)، خصوصًا التوجّه الأميركي[5].

1 - مؤشّرات الاختراق

يستدعي الإقرار بالمتغير المركزي في مفهوم الاختراق - أي المشاركة المباشرة في صنع القرار واتّخاذه - تحديد فضاءات هذا الاختراق، أي تحديد البنية الفرعية في الجسد السياسي التي يشملها الاختراق:

أ - اختراق السلطة

ربما يكون الاختراق هنا من خلال المستشار الخارجي في أي قطاع من القطاعات، أو خبير السلطة، أو المندوب الدولي في هيئات السلطة. وتشير دراسة أعدّها خبير عسكري أميركي، عمل سنوات عدة في الدول الإسلامية، إلى أن الخبراء يتدخّلون في صنع القرار، ويقول: «في عالم ما بعد 11 أيلول/ سبتمبر، يمكن لمنصب استشاري في المستوى السياسي والاستراتيجي في العالم الإسلامي أنْ تكون له نتائج مهمّة وفورية للمصالح الأميركية، ويجعل من المستشار الأميركي شخصية رئيسة في عملية صنع الزعيم الأجنبي للقرار». وتحدّد الدراسة الشروط التي يتعيّن على المستشار أن يراعيها خلال عمله ليكون أكثرَ تأثيرًا في توجيه سياسة الدولة المضيفة[6].

ب - اختراق المجتمع

ربما يأخذ الاختراق هنا أشكالًا مثل التسميم السياسي الذي سنأتي إليه لاحقًا، أو ارتباط قوى سياسية معيّنة بقوى خارجية تتحكّم بقرارها بنسبة أو أخرى (على غرار ارتباط بعض الأحزاب الشيوعية العربية بالاتحاد السوفياتي

---

(5) Axel Dreher and Jan-Egbert Sturm, «Do IMF and World Bank Influence Voting in The UN General Assembly?» CESifo Working Paper, no. 1724 (April 2006), pp. 6, 32-33.

(6) Michael J. Metrinko, *The American Military Advisor: Dealing with Senior Foreign Officials in the Islamic World* (Carlisle Barracks, Pa: Peacekeeping and Stability Operations Institute and Strategic Studies Institute, U.S. Army War College [2008]), pp. 3, 5 and 52.

في فترة معينة، أو ارتباط هيئات مجتمع مدني عربية بالولايات المتحدة)، وهو ما سنتناوله في الصفحات التالية.

ج - اختراق النخبة

يتمثّل الاختـــراق هنا بما ســـمّته دراســـات التكامل الدولي، ولا ســـيما التيار الوظيفي منهـــا، في تذويـــت (Internalization) النخـــب الداخلية لأهداف نخب خارجية، أي تتبنّى الأهداف ذاتها التي تتبنّاهـــا نخبة الدولة التي تمارس الاختراق.

2 - قياس الاختراق

أشرنا ســـابقًا إلى صعوبة الفصل بين المتغير الداخلي والمتغير الخارجي، أي صعوبة أن نعزو تغيرًا في سياســـة الدولة إلى «اختـــراق» أو القول إنه نتيجة متغيرات داخلية، ويبدو أن أغلب الدراســـات يقيس مؤشّر الاختراق من خلال منهجين: **أولهما** هو تتبّع الإجراءات، ويعني تحديـــد الهدف الأوّلي ثم متابعته خلال مراحل تطوّره، وتحديـــد التغير الذي أصابه عنـــد كلّ إجراء، ثمّ تحديد الأطـــراف التي تقف وراء التغيـــر، وتحديد دور الأطراف «غيـــر الأعضاء» في هذا التغيير. **وثانيهما** هـــو النفوذ المدّعَى، ويكون ذلك من خلال اســـتجواب الجماعات الضاغطة في شـــأن تقويمهـــا تأثيرها أو تأثير جماعـــات غيرها في عملية صنع القرار، إذ يجري قياس الفارق بين ما بدأت السلطة باتّخاذه الهدف الأفضل لها، وبين ما انتهت إليه في قراراتها، وتفســـير الفـــارق على أنه نتيجة تدخّل الجماعة الضاغطة.

استنادًا إلى المناقشة الســـابقة، يمكن تحديد المؤشّرات الدالّة على النظام المخترَق في الآتي:

أ - وجود طرف خارجـــي (دولة، أو منظّمة دولية أو إقليمية، أو شـــركة) يساهم مباشـــرة في أي مرحلة من مراحل صنع القرار. وأشار كارل براون إلى أن من الضروري تحديد عدد الأطراف الخارجيين المشـــاركين في عملية صنع

القرار لتحديد ما إذا كان النظام مخترَقًا أم لا. وقد ربط براون هذه المسألة بمدى وقوع الدولة في سياسات التنافس بين الدول الكبرى، وفي هذه الحالة يكون من مصلحة النظام المخترَق استمرار التنافس بين القوى الكبرى في شأنه[7]، أي إن بعض الدول قد يسمح لقوى خارجية بدور في صنع قراراتها بهدف الحصول على مكاسب أكبر من الأضرار الناتجة من المسّ بـ«مبدأ السيادة». وأُشير كثيرًا إلى الجذب المصري للاتّحاد السوفياتي في الحقبة الناصرية للمشاركة في إدارة حرب الاستنزاف في عام 1969.

ب - أن تكون المشاركة في صنع القرار في «شؤون عديدة» ولفترة غير عابرة، أي إن التأثير في قرار واحد وفي فترة عابرة، قد تقتضيه ظروف طارئة، ليس اختراقًا؛ فلا بدّ من أن يكون للتأثير في القرار طابع استراتيجي من ناحية، ويؤدّي إلى وجود الطرف الأجنبي بصورة شبه متواصلة في هياكل صنع القرار من ناحية أخرى.

وهناك عدد من المؤشّرات التي تجعل الدولة موضع اختراق:

- الضعف الاقتصادي والسعي إلى تلقّي المساعدات؛

- العجز العسكري والسعي إلى حماية خارجية من أي خطر يهدّد بقاء الكيان السياسي، أو أي من مقوّماته الرئيسة.

- افتقاد التماسك الاجتماعي، والاستعانة بالخارج للمساهمة في صوغ البنية المجتمعية بأبعادها المختلفة.

لكن المناقشة السابقة تتجنّب ظاهرة تحتاج إلى بعض التمحيص في مجال الاختراق السياسي، وهي مدى الاختراق العكسي من دولة صغرى لدولة كبرى: فهل يمكن الاعتقاد أن اللوبي اليهودي في الولايات المتحدة - على سبيل المثال - نمط من أنماط الاختراق العكسي؟ ذلك ما يدخلنا في نطاق الفارق بين الاختراق والنفوذ، فالنفوذ يعني التأثير غير المباشر، بينما الاختراق

---

(7) Brown, p. 3.

يعني المشاركة في صنع القرار بصورة مباشرة. كما أن النفوذ قد يؤدّي إلى نتائجَ معيّنة أو يفشـل، بينما الاختراق يشـارك في صنع القرار، ما يعني أن الاختراق يشـتمل على النفوذ بينما العكس غير صحيح. ومن أمثلة ذلك أوروبا الشرقية خلال الحرب الباردة، فيتنام خـلال الحرب الفيتنامية، لبنان خلال فترة الوجود العسـكري السـوري، دول الخليج خلال الحرب على العـراق، اليمن خلال الوجود العسـكري المصري، ألمانيا واليابان بعد الاحتلال في الحرب العالمية الثانية، كوبا في فترة ما قبل عام 1958... إلخ[8].

ثانيًا: نظريات العلاقات الدولية والنظم المختَرَقة

إذا انتقلنـا إلى نظريات العلاقـات الدولية المعاصرة في تفسـيرها النظم المختَرَقة بالمعنى الذي حددناه، نجد ما يلي[9]:

- النظرية الواقعية الجديـدة (Neorealism): ترى هذه النظرية التي يعبّر عنها كينيث والتز (K. Waltz) أن «الفوضى» في النظـام الدولي، نظرًا إلى عدم وجود سـلطة دولية عليا، تجعل من الأمن المتغيِّر الرئيس في اسـتراتيجية الدولة، ما يجعل الاختراق يتم من هذه الناحية، إذ تسعى الدولة إلى مشاركة الآخرين في ضمان أمنها من خلال مساهمتهم في صوغ اسـتراتيجياتها الأمنية، وقد يكون مجلس التعاون الخليجي مثالًا نموذجيًا لحالة الاختراق هذه من منظور المنهج الواقعي الجديد.

- البنيوية (Structuralism) الماركسـية التـي تبني تحليلها علـى أن البنية الرأسمالية للنظام الدولي تجعل التبعية الاقتصادية إحدى ركائز النظام، ويكون الاختراق من خلال هذه التبعية، إذ تحدّد وظيفة الكيان السياسـي في إطار بنية النظام الرأسـمالي الدولي، ويتركـز الاختراق بصورة جلية في مـا يُطلِق عليه

---

(8) James N. Rosenau, *The Study of World Politics*, 2 vols (London; New York: Routledge, 2006), vol. 1: *Theoretical and Methodological Challenges*, pp. 177-186.

(9) Raymond Hinnebusch and Anoushiravan Ehteshami, eds., *The Foreign Policies of Middle East States*, The Middle East in the international system (Boulder, Colo: Lynne Rienner Publishers, 2002), pp. 1-5.

إيمانويل والرشتاين (I. Wallerstein) في نظريته عن النظام العالمي اسم دول المحيط وشبه المحيط، إذ يكون لهذه الدول دور ميكانيزم التكييف لدول المركز الرأسمالي عند مواجهة أزمة ما، ويكون الاختراق هنا بنيويًا يصعب معه الفصل بين مقوّمات بنية المركز وبنية الأطراف.

- **البنائية** (Constructivism)، وتفترض، طبقًا لألكسندر ويندت (A. Wendt)، أن هُوية الدولة تتحدّد بأنماط التفاعل مع الأطراف الأخرى، أي إن التفاعل يؤلّف منظومة القيم والأهداف والاستراتيجيات للدولة، بمعنى آخر أن هوية الدولة ليست سابقةً على التفاعل بل تتحدّد من خلاله. وذلك يعني أن الاختراق كان من خلال صوغ هوية الدولة التي تحدّدت بدورها من خلال التفاعل مع الكيانات أو الأطراف الأخرى في النسق موضوع الدراسة.

قد يكون التفاعل على مستويَين: **أوّلهما** التفاعل السلبي بين الهويات الفرعية وهوية الدولة (هوية الأقلية مع هوية الدولة، أو هوية الشعب مع الهوية القومية، أو الهوية القومية مع الهوية الدينية... إلخ)، **وثانيهما** التفاعل بين الدولة والأطراف الخارجية في النظام الدولي.

ثالثًا: هل النظام الإقليمي العربي نظام مخترَق؟

إن المناقشة النظرية السابقة تفترض البحث **أوّلًا** في مدى مشاركة الأطراف «غير الأعضاء» في بنية النظام الإقليمي العربي وفي صوغ «التوجّهات والقرارات الاستراتيجية العربية». وتفترض **ثانيًا** تحديد أبعاد الاختراق استنادًا إلى المنظور الواقعي الجديد أو المنظور البنيوي، أو المنظور البنائي بالدلالات التي أتينا إليها سابقًا.

1 - مصادر الاختراق

يحتاج الاختراق، بالمفهوم الذي تناولناه، إلى بيئة تمهيدية لولادته، وتتمثّل الملامح الكبرى لهذه البيئة في الظروف التمهيدية التالية:

أ- التهديد العربي - العربي

نقصد به تهديد الدول العربية بعضها لبعض ولو بمستويات تهديد مختلفة، بما يدفـع كلًّا منها إلى البحـث عن «حام» لهـا، وهي الخطـوة الأولى أمام الاختراق. وقد يأخذ التهديد أشكالًا مختلفةً لكنّها متمحورة في مضمونها حول صورتين: تتمثّل الأولى في تهديد السـيادة الإقليمية للدولة، وهو كثيرًا ما كان على المناطق الحدودية، بينما تتمثّل الصورة الثانية في تهديد النظام السياسـي والعمل على تغييره بطريقة قسرية.

تدلّنا البيانات الكميـة المتوافرة على أن بعض الـدول العربية تعرّضت للتهديد الأمني من جانب بعضها الآخر بصورة مباشرة أو غير مباشرة 37 مرة خلال الفتـرة الممتدّة بين عامـي 1947 و2010، أي بمعدّل مرة واحدة كل 1.7 عام، وهو معدّل كافٍ لتأكيد حالة عدم الاسـتقرار في العلاقات العربية البينية، فضلًا عن الصراعات الداخلية في كلّ بلد عربي[10]. وتشير المؤشّرات الكمية إلى أن منطقة الشرق الأوسط شـهدت في مرحلة ما بعد غزو العراق في عـام 2003، وحتى قبل اندلاع موجة الثورات العربية مباشـرة، ما يقرب من 76 حالة صراعية، بينها تسـعة صراعات ذات جوانب دولية، و12 صراعًا إقليميًا، وأكثر من 40 صراعًا داخليًـا. وتراوح تلك الصراعات بين صراعات مكشـوفة، وأزمات عنيفة، وتوتّرات حادّة كامنة قابلة للانفجار في أي وقت، منها 16 حالـة صراعية ترتبط بعوامل قومية تتعلّـق بنزعات انفصال أو حكم ذاتي.

من ناحيـة أخرى، تتّسـم صراعـات المنطقـة العربية بنسـبة عالية من الصراعـات الممتدّة، فهنـاك 30 صراعًا مسـتمرًّا لمدّة تجـاوزت 30 عامًا، وثمانية صراعات مسـتمرّة لأكثر من 20 عامًا، و11 صراعًا مستمرًّا لأكثرَ من عشرة أعوام تقريبًا، ونحو ستّة صراعات تجاوزت خمسة أعوام. والمفاجأة هي أن هناك 26 صراعًا مسـتمرًّا لأكثر من عام، ما يعني تسارع معدّل الصراعات

---

(10) <http://en.wikipedia.org/wiki/List_of_modern_conflicts_in_the_Middle_Easthiswwwtoryguy.com/list_of_wars_middle_east.html>.

القصيــرة المدّة، ويشــير إلى قدرة متدنيــة على التعايش وضبــط النفس على الساحة الإقليمية[11].

نتيجةً لذلك، تزايــدت اتفاقات التعاون الأمني بيــن دول عربية وأحلاف ودول أجنبية، وهو مــا يفتح المجال لتكييف الحاجــات الأمنية للدولة العربية مع حاجات القوى الخارجية. ولعل اتفاقات التعــاون الأمني بين دول الخليج وحلف الناتو منذ عــام 2006 دليل على ذلك[12]. كمــا أن الولايات المتحدة مارست نشاطًا عســكريًا ضد دول عربية مرات عدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية إلى عام 2012 بلغ مجموعها 21 مرة[13]. لكن هذه الممارســات كانت تلقى الموافقة العلنيــة أو الضمنية من دول عربية أخــرى، ولعل مثال التدخّل العسكري لحلف الناتو في عام 2012 في ليبيا يعزّز هذا التوجّه.

ذلك يعني أن التهديد البيني في الوطن العربي يقود الدول الأضعف غالبًا إلى البحث عن ســند دولي عبر الاتفاقات أو التحالفــات مع القوى الخارجية لمواجهة تهديد الــدول العربية الأخــرى، ما يمثّل قاعــدة للاختراق وتكييف القرارات السياسية وغيرها للدولة بما يخدم مصلحة القوى الخارجية.

ب- الدولة الإقليمية المركز

نعني بهــا التنافس بين الدوّل العربية لاحتلال موقــع «الدولة المركز» في المنطقــة، فكثيرًا ما لجأت بعــض الدول إلى القوى الخارجية لمســاندتها في تحقيق هــذا الموقع، ما يُغري الــدول الخارجية باســتثمار التلهّف على موقع الدولة المركــز لانتزاع تنازلات من الدولة العربية فــي موضوعات معيّنة تعني الدولة الخارجية. وتُعدّ كلٌّ من مصر والعراق والســعودية والجزائر والمغرب القوى الأكثر ســعيًا لتحقيق مكانة الدولة «المركــز». وعلى الرغم من مزاحمة

(11) محمد عبد الســلام، «ما بعد الثــورات: إدارة الصراعات الداخلية فــي المنطقة العربية،» السياسة الدولية، العدد 189 (تموز/ يوليو 2012).

(12) R. Chuck Mason, *Status of Forces Agreement (SOFA): What Is It, and How has it Been Utilized?* (Washington: Congressional Research Service, 2012), pp. 27-29.

(13) <http://academic.evergreen.edu/g/grossmaz/interventions.html>.

دول أخرى هذه المجموعة، فإنها كلّها فشلت في سعيها. وإذا استثنينا الحقبة الناصرية، فمن الصعب الحديث عن دولة عربية «مركز». غير أن التنافس بين الدول العربية على هذا الموقع دفعها إلى الاستناد إلى القوى الخارجية، ولعل الثورات العربية خلال عامي 2011 و2012 تعكس بعض ملامح هذا التنافس[14].

ج - الإرث التاريخي والشركات المتعدّدة الجنسية

إن العلاقات الاستعمارية القديمة أبقت شبكة من الروابط بين المستعمر السابق وقطاعاتٍ في الدولة بعد الاستقلال (لاحظ أن أغلب تجارة دول المغرب العربي مع فرنسا، وليبيا مع إيطاليا... إلخ). كما إن مصادر الدخل في الدول العربية تتداخل مكوّناتها مع الخارج من خلال المساعدات (الأردن والولايات المتحدة) أو الاعتماد على الضرائب والجمارك في قطاع التجارة الخارجية (مصر والأردن والمغرب) أو الاعتماد على عوائد النفط طبقًا لمتطلّبات السوق الخارجية، وكلّ ذلك يقود بصورة أو أخرى إلى مستوى من مستويات الاختراق.

تمثّل الشركات المتعدّدة الجنسية إحدى أدوات الاختراق من حيث تأثيرها في صنع القرار، ولا سيما الاقتصادي. وتشير بعض الدراسات إلى تأثير الشركات المتعدّدة الجنسية في عدد من الميادين من هذه الناحية، وهي[15]:

- استعانة الشركات المتعدّدة الجنسية بحكوماتها للضغط على الدولة المضيفة باتّجاه تبنّي مواقف معيّنة.

- الضغط باتّجاه دفع منظمات دولية لتبنّي مناقشة سياسة معيّنة أو إقرارها.

---

(14) Marc Lynch, *The Arab Uprising: The Unfinished Revolutions of the New Middle East* (New York: PublicAffairs, 2012), chap. 4

(15) Evren Koksal, «The Impact of Multinational Corporations on International Relations: of the graduate school of social sciences A Study Of American Multinationals» (Thesis submitted to Middle East technical university, December 2006), pp. 112-113, and John Baylis and Steve Smith, eds., *The Globalization of World Politics: An Introduction to International Relations* (Oxford: Oxford University Press, 1998), p. 292.

- مباشرة الضغط على سـفارة الدولة المضيفة من خلال نفوذ الشركة في الدولة حيث المقرّ الرئيس للشركة.

- التأثيـر في حكومة الدولـة المضيفة من خلال شـبكة علاقات تقيمها الشركة مع وزراء أو شخصيات ذات نفوذ في الدولة المضيفة.

- الضغط المباشـر علـى الدولة المضيفـة من خلال التهديد بسـحب استثمارات الشـركة، أو الانتقال إلى دولة أخرى ما لم تستجب الدولة بالتنازل عن بعض الشروط البيئية أو عن شروط العمل أو النظام الضريبي... إلخ.

أشـار عدد كبير من الدراسـات إلى أنـواع مختلفةٍ لهذه الممارسـات، ولا سيما شركات النفط وشـركات الطيران وشـركات إنتاج الأسلحة. ودلّت دراسـة كمية على وجود علاقة بين حجم أرباح الشـركات المتعدّدة الجنسية ومؤشّر الفساد في الدولة المضيفة؛ أي إنه كلّما كان الفساد أعلى ازدادت أرباح الشركة، ما يعني أن جزءًا من أرباح الشـركات هو نتيجة بيئة الفساد التي تعمل في نطاقها، إذ يوجِد الفساد بيئة ميسّرة للاختراق[16]. وقدّمت صحيفة **الفايننشال تايمز** البريطانية نماذج للعلاقة بين الفسـاد والشـركات المتعدّدة الجنسية في الدول العربية مثل ليبيا والسعودية ومصر وتونس واليمن[17].

تحدّد بعض الدراسات المتخصّصة نماذج للتأثير الذي تمارسه الشركات المتعدّدة الجنسية في الدول العربية؛ إذ تشـير بعض هذه الدراسات إلى الدعم المالي لأصحاب النفوذ ولبعض الأحزاب، والمسـاهمة في الدعاية الانتخابية، بل والتدخّل في موضوعات التوريث السياسـي وتبادل السجناء بين دول عربية ودول أجنبية... إلخ[18]. ولعل من المفيد التذكير بدور شركات النفط في تشكّل

(16) Christos Pantzalis, Jung Chul Park and Ninon Sutton, «Corruption and Valuation of Multinational Corporations,» *Journal of Empirical Finance*, vol. 15, no. 3 (June 2008), pp. 387-417.

(17) <http://www.ft.com/cms/s/2/23fe9960-6712-11e1-9c53-00144feabdc0.html#axzz24lghxy4g>.

(18) لمزيد من التفاصيل، انظر: صفية حمدي، «دور الشـركات متعددة الجنسيات في عملية نقل السلطة في مصر،» **الدستور**، 13/11/2010، ومحمد السيد سـعيد، **الشركات متعددة الجنسية وآثارها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1978)، ص 278 وما بعدها.

بعض الدول العربية أو في تحديد الحدود السياسـية لبعـض الدول، بل وفي صوغ بعض سياسات بعضها الآخر[19].

تمثّل المسـاعدات بأنواعها المختلفة، مثل المساعدات العسكرية والتقنية أو المنح المالية أو القروض، ولا سيما الميسّرة منها، إحدى أدوات الاختراق. وبيّنت إحدى الدراسـات علاقـة وثيقة بيـن الروابط التاريخية الاسـتعمارية وتقديم المسـاعدات من الدول الاسـتعمارية التقليدية إلـى دول دون غيرها، وأن طريقة التصويت في الأمم المتحدة (مع أو ضد مشـاريع الدولة المانحة) تشـكّل عاملًا أكثر أهمية من نمط البنية الاقتصادية أو طبيعة النظام الانتخابي؛ ما يعني أن السلوك السياسي للدولة المتلقية المساعدة يشكّل مدخلًا للاختراق وتكييف القرار السياسـي[20]، وتتعـزّز هذه التصورات بالدراسـات الأمبريقية الخاصة بالعلاقة بين أنماط التصويت في الجمعية العامّة للأمم المتحدة وتلقّي المسـاعدات؛ ودلّلت دراسـة متخصّصة للفترة 1973 - 2002 على الترابط الوثيق بين حجم ومواعيد المسـاعدات التي تقدّمها الولايات المتحدة للدول النامية، وأنماط التصويت في الأمم المتحدة[21]. وتتأكّد هذه النتيجة من خلال دراسة أخرى تتبّعت حجم المسـاعدات للدولة النامية وعضوية مجلس الأمن، إذ وجدت هذه الدراسة أن حجم المساعدات للدولة يتزايد خلال فترة عضويتها في المجلس، ولا سيما في الفترات التي تعرض خلالها على المجلس قرارات ذات طبيعة استراتيجية[22].

غير أن هـذه القاعدة لا تنطبق بصـورة كبيرة على الحالـة العربية؛ فعند مقارنة أنماط التصويت العربي ودرجة اتسـاقه مع المواقف الأميركية تبين أن

---

(19) Giacomo Luciani, «Oil and Political Economy in the International Relations of the Middle East» <http://www.princeton.edu/~gluciani/pdfs/Chapter%20in%20Fawcett.pdf>.

(20) Alberto Alesina and David Dollar, «Who Gives Foreign Aid to Whom and Why?» *Journal of Economic Growth*, vol. 5, no. 1 (March 2000), pp. 33-63.

(21) Axel Dreher, Peter Nunnenkamp and Rainer Thiele, «Does US Aid Buy UN General Assembly Votes? A Disaggregated Analysis,» *Public Choice*, vol. 136, no. 1 (July 2008), pp. 139-164.

(22) Ilyana Kuziemko and Eric Werker, «How Much is a Seat on the Security Council Worth? Foreign Aid and Bribery at the United Nations,» *Journal of Political Economy*, vol. 114, no. 5 (June 2006), pp. 905-930.

هناك تباينًا واضحًا في أغلب الأحيان كما يظهره الجدول (1-1):

الجدول (1 - 1)

درجة التوافق الأميركي - العربي في التصويت في الأمم المتحدة

الدولة	2003 (نسبة التوافق المئوية)	2010 (نسبة التوافق المئوية)	حجم المساعدات في 2010 (مليون دولار أميركي)
الكويت	34	33	0.015
قطر	34	32	0.010
المغرب	30	34	35
الإمارات	30	32	0.240
الأردن	29	33	843
تونس	29	32	19
السعودية	27	32	0.208
اليمن	26	غ.م	67
الجزائر	26	30	3
عمان	6	30	15
السودان	25	31	427
ليبيا	24	31	0.780
مصر	21	31	1555
لبنان	20	32	283
سورية	16	16	0
موريتانيا	13	32	غ.م

المصدر: <http://www.thepowerhour.com/news2/islamics_votes.htm>, <http://www.jewishvirtuallibrary.org/jsource/UN/Arab_freq10.html>, and <http://www.fas.org/sgp/crs/mideast/RL32260.pdf>.

يدل الجدول (1-1) على أن أعلى درجات التوافق في التصويت مع الولايات المتحدة كان من الكويت وقطر والمغرب (وهي الأقل حصولًا على مساعدات مالية)، بينما كان أدناه من سورية وموريتانيا (وهما أيضًا ضمن الدول الأقل حصولًا على المساعدات الأميركية). غير أن استبعاد الموضوعات الخاصة بالقضية الفلسطينية، نظرًا إلى صعوبة تصويت الدولة العربية بصورة توافقية فيها مع الولايات المتحدة، يجعل القاعدة السابقة (التوافق بين التصويت وحجم المساعدات والقروض) أكثر وضوحًا. ويلاحَظ أن مصر التي تحصل على أكبر قدر من المساعدات من الولايات المتحدة ليست هي الأعلى في درجة التوافق مع الولايات المتحدة في التصويت. وفي دراسة أخرى يتبين لنا أن هناك تباينًا بين الدول المانحة في دوافع تقديم المساعدات؛ إذ تدل الدراسة، من خلال مقارنة اتّجاهات المساعدات لعدد من الدول المانحة، على أن دولة مثل الولايات المتحدة تعطي أولوية للأبعاد «الأمنية»، بينما تركّز اليابان على «المنافع التجارية»، في حين تذهب فرنسا نحو «النفوذ الكولونيالي». كما يتبين أنْ لا علاقة ارتباطية بين مستويات الفقر والمساعدات من الدول المانحة، ما يعني أن دوافع الاختراق أكبر من الدوافع الإنسانية[23].

في مجال القروض أو العلاقة بالمؤسّسات الدولية المالية، تشير دراسة للقروض قدّمت من خلال صندوق النقد الدولي على مدى خمسة أعوام إلى أن أكثر المستفيدين من هذه القروض هم «الحكومات والأفراد الذين ساهموا في ترتيب الاتفاق»، من دون أن ينعكس ذلك بجدوى اقتصادية ويصبح هؤلاء ثقوبًا يتسلّل من خلالها نفوذ القوى الخارجية، ولا سيما الدول صاحبة المساهمات الأكبر في الصندوق[24]، ولعل الإعفاءات التي حصلت عليها بعض الدول العربية نتيجة معاهدات السلام مع إسرائيل، أو نتيجة المشاركة في الحرب على العراق، تأكيد لهذه الآراء.

---

(23) Ward Warmerdam with Arjan de Haan, «The Roles of Aid in Politics: Putting China in Perspective, An Annotated Bibliography» (International Institute of Social Studies, February 2011), pp. 14-26.

(24) Robert J. Barro and Jong-Wha Lee, «IMF Programs: Who is Chosen and what are the Effects?» *Journal of Monetary Economics*, vol. 52, no. 7 (October 2005), pp. 1245-1269.

إذا ربطنا هذه المؤشّرات بتبعات ما سمّي بإجماع واشنطن (Washington Consensus) منذ مطلع تسعينيات القرن الماضي (تحرير التجارة وتقليص تدخّل الدولة في النشاط الاقتصادي وحقوق ملْكية أكثر انضباطًا... إلخ)، فإن ذلك يشير إلى تأثير البيئة الدولية في تكييف القرار الاقتصادي للدولة التي تقبل هذه الشروط.

من بين جوانب اختراق الاقتصاد العربي ظاهرة غسيل الأموال التي تتمثّل في العمل على تحويل الأموال ذات المصدر «القذر»، مثل عمولات بيع السلاح، أو تجارة الرقيق الأبيض أو المخدّرات... إلخ إلى أموال يبدو أن لها مصدرًا شرعيًا. وتساهم في عملية الغسيل مؤسّسات عديدة، مثل بعض البنوك (بالإيداع أو إعادة الإقراض، أو شيكات قابلة للتظهير، أو تجزئة الإيداعات «Smurfing») أو البورصات، أو شركات التأمين، أو صناديق الاستثمار، أو عبر التجارة الإلكترونية، أو الوسائط الإلكترونية مثل البطاقات الذكية، والتحويل الإلكتروني للنقود، أو الشيكات الإلكترونية، أو من خلال الفواتير والمستندات المزوّرة، أو من خلال أوراق اليانصيب والجوائز، أو عبر شركات الصرافة والشركات المتعدّدة الجنسية... إلخ.

أخضعت الولايات المتحدة الكثيرَ من المرافق الاقتصادية العربية للرقابة والضبط لضمان عدم تسرّب الأموال عبر هذه القنوات إلى جهات معادية لها[25].

2- النخب العربية

نعني بها وجود نخب مرتبطة بصورة أو بأخرى بقوى خارجية، أكان عبر الرباط اللغوي (الفرانكوفيلي Francophile) لا الفرانكوفوني (Francophone) فحسب، أم عبر الرباط التجاري (فئة الكومبرادور) أم الديني (بعض الشرائح

(25) أكاد يسار الخصاونة، «العلاقة بين العولمة الاقتصادية وعمليات غسيل الأموال عالميًا» (رسالة ماجستير، قسم العلوم السياسية، جامعة اليرموك، الأردن، 2012)، ص 108-86.

المذهبية)... إلخ، إذ تُذَوّت (Internalize) هذه النخب توجّهات الخارج لتصبح جزءًا ممّا عندها.

في مجال اللغة، يشكّل التعليم أحد مظاهر الاختراق، إذ يمثّل أداة تنظيم الإدراك الإنساني للذات والكون والآخر. ويؤدّي الشكل الذي يأخذه هذا الإدراك إلى تحديد أنماط السلوك والتفاعل. ويتكوّن التعليم من ثلاثة أبعاد: اللغة والمنهج والمعلومة، وتشكّل اللغة، لا بصفتها أداة تواصل فحسب، جسد الأفكار كما يقول بعض الفلاسفة، أمّا المنهج فيمثّل الدرب الذي يقود إلى مكان ما، بينما المعلومة هي كلّ ما نكتشفه.

تشير المعطيات الكمية إلى تزايد انتشار اللغات الأجنبية في الوطن العربي (الإنكليزية والفرنسية... إلخ)، وهي أمور كان للظروف التاريخية الدور الأكبر فيها؛ فاللغة الفرنسية على سبيل المثال هي السائدة في الصحافة والمكتبات العامّة والجامعية ولوحات الإعلانات وأسماء المحال التجارية في المغرب العربي، بينما تجد اللغة الإنكليزية هي السائدة في المشرق العربي، بمعنى أن انتشار لغة ما لم يكن نتيجة «إرادة ذاتية وتخطيط متعمّد من الدولة العربية»، بل هي نتيجةَ ظرف تاريخي، لكن بعض المثقّفين العرب اعتقد أن اللغة الأجنبية الموروثة «غنيمة حرب»، على حدّ تعبير الكاتب الجزائري كاتب ياسين.

لا ريب في أن وسائل الإعلام تعزّز سطوة اللغات الأجنبية في الثقافة العربية المتداولة، ما يساهم في تعزيز الخلل في بنية الوجدان الفردي ويعمّق الانفصال بين الفرد وإرثه التاريخي. وتدلّ الأرقام الدولية على أن اللغة الإنكليزية هي السائدة بنسبة 90 في المئة من المواقع على شبكة الإنترنت، و85 في المئة من الاتصالات الدولية عبر الهاتف، و70 في المئة من الأفلام التلفزيونية والسينمائية و65 في المئة من برامج الإذاعات في العالم كله. أمّا في مجال الأعمال، فالإنكليزية شرط أساس للحصول على عمل أو منصب مرموق[26]، فإذا علمنا أن هناك 750 فضائية عربية في عام 2010، و60 في

(26) كمال بشر، «اللغة العربية بين العوربة والعولمة» (ورقة قدمت إلى: مؤتمر مجمع اللغة في دورته الثامنة والستين، 1 نيسان/ أبريل 2002)، <www.arabicademy.org.eg>.

المئة من برامجها مواد مستوردة من الدول الأجنبية، ندرك عمق مؤشّر الاختراق الثقافي[27].

كي نثبت أن التعليم - ولا سيما التعليم الجامعي - أداة سياسية، نشير إلى الدعوات الأميركية وتوصيات مراكز الدراسات الغربية إلى زيادة دور برامج الدراسات الشرق الأوسطية في البرامج الأكاديمية الأميركية من ناحية، ودور الدراسات الأميركية في الجامعات العربية من ناحية أخرى (البرنامج الأول بدأ في عام 2005 في الجامعة الأردنية)[28]. وهي دعوات تعيد إلى الأذهان آليات الاستشراق والتبشير التي عرفتها المنطقة في فترات تاريخية ليست بعيدة.

نشير في المجال نفسه إلى إنشاء المجلس الأعلى للفرانكوفونية في عام 1970، ثم دعوة الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران إلى أول «قمّة فرانكوفونية» في عام 1986، في فرساي. وشارك في القمّة رؤساء الدول الناطقة جزئيًا أو كليًا بالفرنسية (41 رئيسًا)، وتحوّلت القمّة بعد ذلك بإحدى عشرة سنة إلى «المنظّمة الدولية للفرانكوفونية» برئاسة شخصية عربية (بطرس غالي). وعقدت المنظّمة أول مؤتمر قمة في عاصمة بلد عربي هي بيروت في عام 2002، وكان قد جاء في أعقاب حوادث أيلول/ سبتمبر 2001 فاقتصرت أعماله على إدانة الإرهاب.

تشمل عضوية المنظّمة عددًا من الدول العربية: المغرب ولبنان وتونس ومصر وجزر القمر وجيبوتي. واللافت هو غياب الجزائر وسورية، وهما أقرب تاريخيًا إلى اللغة الفرنسية من مصر، ما يعني أن البُعد السياسي حاضر في وظيفة هذه المنظّمة ذات الطابع اللغوي؛ إذ تقاوم حكومة البلدين فكرة تدعيم اللغة الفرنسية على حساب اللغة العربية. وتشير دراسة قامت بها مؤسّسة الفكر العربي إلى أن الهدف المعلن لهذه المنظّمة هو دعم العلاقات الثقافية الفرانكوفونية، لكنّها تحولت إلى أداة للعمل السياسي المباشر، بل إن

---

(27) <http://www.alriyadh.com/Contents/05-04-2004/Mainpage/Thkafa_11132.php>.

(28) Robert Satloff, *Devising a Public Diplomacy Campaign toward the Middle East (Part II): Core Elements* (Washington, DC: The Washington Institute for Near East Policy, 2001).

حركة الترجمة التي تشجّعها تكون وفقًا لمعايير سياسية تعتمد في انتخاب نوع معيّن من ذلك النتاج الفكري والأدبي دون غيره، خدمةً للمصالح الفرنسية في العالم. ففي عام 2007 أُنشئت في المنظمة «خلية تفكير استراتيجية» مهمتها التفكير في القضايا الآتية: الهوية الفرانكوفونية في زمن العولمة، أوروبا والفرانكوفونية، حوار الحضارات، الهجرات في العالم، الصناعات الثقافية والتعليم(29).

لا شكّ في أن الروابط التاريخية تبقي المجال مفتوحًا للاختراق الثقافي وغيره، ولا سيما من خلال نخب معيّنة، ولعل ظاهرة ما يُسمّى «حزب فرنسا» في الجزائر مؤشّر ذلك. وكثيرًا ما جرت الإشارة إلى عبارة ديغول القائلة «سنخرج من الجزائر ونترك فيها من يرعى مصالحنا». وسعت النخبة الفرانكوفيلية إلى بعض السياسات التي تعزز فكرة الاختراق مثل:(30)

- وقف تعميم اللغة العربية والدفاع عن الفرنسية (وهو ما أكّده رئيس الحكومة الجزائرية السابق رضا مالك).

- تعطيل المشاريع التي تساهم في الاستقلال الاقتصادي عن فرنسا (وأكده محمد بوخالفة - رئيس سابق للجنة التخطيط والمالية في البرلمان الجزائري).

- ارتفاع نسبة مساهمة فرنسا في المشاريع الجزائرية (أثبته رئيس الجبهة الوطنية موسى تواتي).

- مقاومة تجريم الاستعمار (أشار إليها خير الدين بوخريصة رئيس جمعية 8 ماي 1945).

- الضغط للانضمام إلى المنظّمة الفرانكوفونية (شرح الجهد في هذا الاتجاه بوجمعة غشير رئيس الرابطة الوطنية للدفاع عن حقوق الإنسان).

---

(29) جيروم شاهين، «هل الفرانكوفونية لغة أم سياسة؟» المستقبل، 13/12/2011، ص 19.
<http://www.almustaqbal.com/storiesv4.aspx?storyid=499129>.

(30) <http://www.algeriatimes.net/algerianews17125.htm>.

3 - الاختراق الخشن

المقصود استخدام القوة والاحتلال في الحالات التي تسعى فيها قوى إقليمية عربية إلى ترتيب المنطقة العربية بصورة قد تؤثّر في المصالح الاستراتيجية للدول الكبرى (عبد الناصر بعد عام 1956، صدّام حسين في فترة التسعينيات من القرن الماضي... إلخ). فإذا كانت الأدوات السابقة تمثّل «اختراقًا ناعمًا»، فإن القوة العسكرية والأمنية تمثّل الوجه الخشن للاختراق.

يوضّح الجدول (1-2) توزيع القوات الأميركية في المنطقة العربية حتى كانون الأول/ ديسمبر 2011. ويتبيّن منه أن منطقة الخليج منطقة تركّز القوات الأميركية، وأن هذه المنطقة هي الأكثر احتواء على المصالح الأميركية، ولا سيما الطاقوية منها.

الجدول (1-2)

عدد أفراد القوات الأميركية في الدول العربية حتى 31 كانون الأول/ ديسمبر 2011

الدولة	مشاة	أساطيل	مارينز	جوية	المجموع
الجزائر	2		6	2	10
البحرين	21	1812	272	30	2135
مصر	167	22	23	26	238
العراق	0	0	0	0	0
الأردن	11	0	16	12	39
الكويت	0	0	0	0	0
لبنان	5	0	0	0	5
ليبيا	0	1	0	0	1
المغرب	2	2	10	5	19
عمان	3	1	10	20	34

يتبع

تابع

قطر	370	4	30	192	596
السعودية	146	20	28	76	270
سورية	2	0	5	0	7
تونس	4	1	9	1	15
الإمارات	6	12	69	88	175
اليمن	7	0	11	0	18
المجموع	751	1879	498	468	3596

المصدر: <http://siadapp.dmdc.osd.mil/personnel/MILITARY/history/hst1112.pdf>.

يوجد حتى منتصف عام 2012 نحو 40 ألف عسكري أميركي في منطقة الخليج، منهم 23 ألفًا في الكويت[31].

غيــر أن الاختراق الخشــن أخــذ مظاهر جديــدة من خلال منــح أدوار للشــركات الأمنية في ضبط إيقاع الحراك في المجتمع المحلي. وتشير الأدلّة كلها إلى انتشــار الشــركات الأمنية الأجنبيــة لحماية الأشــخاص والمصالح النفطية وغيرها في الدول العربية. وســردت التقاريــر الصحافية فيضًا من هذه المعلومات، ولا ســيما في بعــض دول الخليج والأردن[32]. ويتمثّل النشــاط الأبرز للاختراق الذي تمارسه هذه الشركات الأمنية في المظاهر التالية[33]:

- تشــجيع الكفاءات العســكرية على الهــروب من مؤسّســاتها بإغرائها برواتب عالية تصل إلى حدّ الألف دولار يوميًا.

---

(31) <http://www.southasiaanalysis.org/>.

(32) Emily B. Hager and Mark Mazzetti, «United Arab Emirates Confirms Hiring Blackwater Founder's Firm,» *The New York Times*, 15/5/2011. <http://www.nytimes.com/2011/05/16/world/middleeast/16prince.html>.

(33) وليد عبد الحي، انعكاسات العولمة على الوطن العربي، سلسلة أوراق الجزيرة؛ 21 (قطر: مركز الجزيرة للدراسات والدار العربية للعلوم ناشرون، 2011)، ص 67.

- ضغط الشـــركات الأمنيـــة على الحكومـــات لإعادة النظـــر في بعض تشريعاتها، بما يتيح لهذه الشركات حرية العمل الأمني داخل هذه الدول.

- قيام الشـــركات في بعض الأحيان بنقل الأســـلحة عبر الحدود من دون الخضوع لرقابة الســـلطات الحكومية في الدولة حيث تعمل الشـــركة. وتشـــير الدراســـات إلى أن الشركات تنقل الأسلحة في خمســـين دولة في العالم، منها دول عربية. وبلغ عدد الشركات الأمنية التي عملت في العراق حتى عام 2011 نحو 55 شركة.

- تمارس الشـــركات عمليات تجنيد للأفراد عبر الحـــدود، وتنقلهم من دولة إلى أخرى، بل يشير محمد حســـنين هيكل إلى أنه «يعرف أن لشركة بلاك ووتر» ولو باسم جديد للشركة - ســـتة آلاف عنصر يعملون في داخل وخارج سورية»[34].

من الضروري في هذا المجال أيضًا الربط بين ظاهرة «عولمة الســـجون» وظاهرة الاختراق، إذ تشـــير الدراســـات إلـــى أن هناك 66 دولة فيها ســـجون معولمة، منها تســـع دول عربية. وتعني «عولمة السجون» أن تحتجز دولة معيّنة في ســـجونها أفرادًا من دولة أخرى لحســـاب دولة ثالثة. ويكون نقل السجناء لها عبر شركات طيران أو وســـائط نقل تابعة لدولة رابعة[35]. بل إن الأمر امتدّ إلى القضاء، فحتى عام 2007 كان هنـــاك 300 قاضٍ دولي يعملون في قضايا مختلفة، ويحقّقون فيها خارج نطاق عمل السلطات القضائية المحلية، ومن بين الدول العربية التـــي وقعت ضمن دائرة عمل القضاة الدوليين الســـودان ولبنان وليبيا وفلسطين[36].

من زاوية أخرى، يتبين لنا من تقرير منظّمة الشفافية أن من بين 93 ميزانية

---

(34) <http://digital.ahram.org.eg/Policy.aspx?Serial=907290>.

(35) Stephen Lendman, «America's Secret Prisons,» 17/3/2012, <http://dissidentvoice.org\2010\03\amiricas-secret-prisons>.

(36) وليد عبد الحي، «أثر العولمة على حقوق الإنسان والحريات العامة،» مجلة الرسالة، السنة 2، العدد 5 (كانون الثاني/ يناير 2006)، ص 18.

دفاعية جرت دراســتها لدول مختلفة، هناك 13 ميزانية فقــط فيها حدّ معقول من الشــفافية. كما أن قطاع الإنشــاءات حقّق درجة شــفافية - طبقًا لمقياس المنظّمة - بلغت 5.3 من 10، وحقــق الدفاع درجة بلغت 6.6 من 10، وهما من القطاعات الأكثر صلة بالفســاد، ومــن القطاعات التي تعتمــد فيها الدول العربية على الشــركات الأجنبية أكثر من غيرها من القطاعات[37]. بل يتبين من التحقيقات الصحافية الغربية أن 40 في المئة من الفســاد فــي التجارة الدولية حتى عام 2011 يتركّز في تجارة السلاح[38]، غير أن المنطقة الأعلى في حجم شراء الأسلحة هي المنطقة العربية، وأن تقديم الرشى إلى مسؤولين عرب لدفع دولهم إلى عقد صفقات التسلّح هو أمر شائع، وتقدّم الصحف الغربية وبرقيات ويكيليكس كمًّا من التقارير عن هذه الرشى[39].

في جميع الحالات الســابقة، يزداد الاختراق عمقًا كلّما تطابقت مصالح الدولة من منظور سلطتها السياســية مع مصالح القوى الكبرى. أمّا عند تناقض المصالح فإن المقاومة للخارج تزداد ليتقلّص فــي أثر ذلك الاختراق. كما أن الانقســام في بنية النظام الدولي يفرز تباينًا في مستويات الاختراق؛ فكلّما كان النظام الدولي أميلَ إلى التعدد القطبي كان مجال الاختراق أقلّ.

4 - الاختراق الإقليمي

أدّت الثورة الإيرانيــة تحديدًا إلى إثارة مدى الاختــراق الإيراني للنظام الإقليمي العربي. ولعلّ «التماثل» المذهبي بين قطاعات في المجتمع العربي والمذهب الســائد في إيران هو ما وضع هذه المسألة موضع المناقشة. ونظرًا إلى ظــروف تاريخية، وإلى اتّــكاء بعض قوى المعارضــة العربية على إيران في فترة من الفترات، اســتمر بعض التأثير الإيراني في هذه القوى، ولا سيما

(37) <http://www.ft.com/cms/s/2/23fe9960-6712-11e1-9e53-00144feabdc0.html#axzz24lghxy4g>, and <http://bpi.transparency.org/bpi2011/results/>.

(38) <http://www.guardian.co.uk/commentisfree/2012/aug/16/serious-fraud-office-arms-trade>.

(39) <http://bristolagainstarmstrade.wordpress.com/military-sales-to-middle-eastn-africa/>.

في العراق ولبنان، على الرغم من المبالغـات أحيانًا في حجم هذا الاختراق أو التغلغل. ولعل ما وصل إليه تقرير لجنة بسـيوني في البحرين يعزّز وجود المبالغة، حيث انتهى تقرير هذه اللجنة التي تشـكلت بقرار من ملك البحرين إلى عدم وجود أدلّة على دور إيراني في الأزمة البحرينية المعاصرة[40].

غير أن لإيران امتدادات اقتصادية من خلال الأقليات الإيرانية التي تحمل جنسـيات عربية، ولا سـيما في دول الخليج، أو من خـلال بعض الجمعيات الخيرية في العراق ودول الخليج.

أمّا بقية القوى الإقليميـة الأخرى غير العربية، مثل تركيـا، فلا أدلّة على وجود اختراق لها في المنطقة بالمعنى الـذي حدّدناه للاختراق والتغلغل، ولا يتعدّى نشاطها حدود التأثير والنفوذ النسبي.

5 - منظّمات المجتمع المدني وظاهرة التغلغل

تمثّل فكـرة «التغلغل»، بالمعنى الذي أشـرنا إليه سـابقًا، محاولة الدول الكبرى، ولا سـيما الولايات المتحدة، فـي العمل على التشـابك مع القوى السياسـية والاجتماعية والاقتصاديـة، ومحاولة التأثير في النسـيج المجتمعي بكامله، أكان بالانخراط المباشـر في هذه القوى أم بالتغلغل غير المباشـر من خلال الأفراد الذين يتبنّون المنظور الأميركي.

قد تكون إحدى دراسات مؤسّسة راند (RAND) المعنية بمواجهة ما تعتبره تطرفًا إسـلاميًا ومعاديًا للسياسـة الأميركية بصورة خاصـة، والغربية عمومًا، نموذجًا واضحًا لهذا التوجّه. وتسـتند هذه الدراسة الاسـتراتيجية في توجّهها المركزي[41] إلى تصوّر يرى أن أغلبية المسلمين تنتمي إلى الاتّجاه المعتدل في الفكر الإسلامي، لكن المتطرّفين تمكّنوا من بناء شبكات وتنظيمات مكّنتهم من

(40) Mahmoud Cherif Bassiouni [et al.], «Report of the Bahrain Independent Commission of Inquiry,» Presented in Manamah, Bahrain on 23 November 2011 (Final Revision of 10 December 2011), p. 387, paragraph no. 1584.

(41) Angel Rabasa [et al.], *Building Moderate Muslim Networks* (California: RAND Center for Middle East Public Policy, 2007), pp. 63-70, and 113.

السيطرة، وقت يفتقر المعتدلون إلى الإمكانات، الأمر الذي يجعلهم في «حاجة ماسّة إلى الخارج».

اســتنادًا إلى خبرة الولايات المتحدة في فترة الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفياتي، ترى الدراسة إمكان الاســتفادة من هذه الخبرة، ولا سيما في نطاق تطوير المنظّمات والهيئات الليبراليــة، وتكرار ذلك في توظيف هذه الخبرة في بناء شبكات إسلامية في الدول الإسلامية، خصوصًا الدول العربية.

يقوم مشــروع راند على العمل على مستويات ثلاثة: التنظيمات الإسلامية المعتدلة الموجودة فعلًا، والتنظيمات القابلة للتوجّه المعتدل، وأخيرًا خلق بيئة ثقافية تشجّع الاعتدال والتسامح.

وتدعو الدراســة إلى البدء بتنظيمات - حتى لو كانت سرّية على أن تكون موثوقة - والعمل معها، مع التركيز علــى الليبراليين والعلمانيين ورجال الدين الشــبّان والنشــطاء الاجتماعيين والنســاء المنخرطات في دعوات المســاواة والصحافيين والكتّاب المعتدلين. وتتحدّث الدراســة عن التنظيمات والهيئات المختلفة المرشّــحة لأن تكون - ضمن الركائز للانطلاق في هذه الاستراتيجيا في المنطقة العربية - تنظيمات وهيئات استراتيجية.

من ناحية أخــرى، تدل المعطيــات التي قدّمتهــا مجلة نيويــورك تايمز على أن الولايــات المتحدة قامت بتدريب عناصر مــن دول عربية على «تعزيز الديمقراطيــة» فــي دولهم من خــلال برامج موّلتهــا الولايــات المتحدة عبر مؤسّســات، مثل المعهد الجمهوري الدولي (International Republican Institute) والمعهــد الديمقراطــي الوطنــي (National Democratic Institute) وبيت الحرية (Freedom House) والصندوق الوطنــي للديمقراطيــة (National Endowment for Democracy). وهذا الأمر يثير حفيظة الأنظمة السياسية الأكثر تناغمًا في توجّهاتها الاســتراتيجية مع الولايات المتحدة. ولمّا كانت هذه المؤسّسات تتلقّى الدعم المالي من الولايات المتحدة، فمن غير الممكن فصل توجّهاتها عن التوجّهات الاســتراتيجية للحكومة الأميركية؛ فالصندوق الوطني للديمقراطية الذي أُنشئ

في عام 1983 يتلقّى دعمًا من الحكومة الأميركية بقيمة 100 مليون دولار سنويًا. كما أن بيت الحرية يتلقّى القسط الأكبر من ميزانيته من الحكومة الأميركية عبر وزارة الخارجية[42].

تعود تقاليد التغلغل في جسد الهيئات السياسية ومنظّمات المجتمع المدني إلى فترة مبكّرة، ولعل الولايات المتحدة هي الأكثر استخدامًا لهذا النمط من التغلغل. وكشفت الدراسات المختلفة الخاصة بهذا الموضوع، ولا سيما من ممارسيها داخل الجهاز الحكومي الأميركي مثل وكالة الاستخبارات الأميركية، عن نماذج واسعة من التغلغل. ويوجز أحد الكتب المهمّة في هذا المجال هذا النمط من التغلغل في ثلاث صور:[43]

الصورة الأولى: تجنيد أجهزة الاستخبارات الأجنبية بعض أفراد النخب البارزين في البلد موضع التغلغل، حيث يُطلب منهم إنشاء منظّمات أو هيئات معيّنة، ولا سيما منظمات أو هيئات ذات طابع علمي للترويج لأفكار وسياسات معيّنة تعود في محصّلتها النهائية بالنفع إلى الدولة المتغلغلة.

الصورة الثانية: تقديم المساعدات المالية إلى منظمات قائمة فعلًا، بهدف دفعها نحو مساندة سياسات داخلية معيّنة تريدها الدولة المتغلغلة.

الصورة الثالثة: المساندة السياسية والمعنوية لمنظمات معيّنة مثل منظمات حقوق الإنسان، ويكون الدعم بطريقة غير مباشرة من خلال ما يلي:

- الدعوة إلى المشاركة في فاعليات مؤتمرات دولية تكون معنية بموضوعات معيّنة تهمّ الدولة المتغلغلة.

- توظيف بعض أفراد النخب كمستشارين في هيئات معيّنة، أو للعمل في الجامعات بصفتهم أكاديميين، أكان في هيئات تابعة للدولة المتغلغلة أم في هيئات دولية، بهدف تعزيز فرص هؤلاء الأفراد في الترقية في مناصبهم في

(42) Ron Nixon, «U.S. Groups Helped Nurture Arab Uprisings,» *The New York Times*, 14/4/2011, <http://www.nytimes.com/2011/04/15/world/15aid.html?_r=1&pagewanted=all>.

(43) Philip Agee, *Inside The Company: CIA Diary* (England: Penguin Books, 1975), pp. 69-79.

بلادهم ليصبحوا أكثر تأثيرًا في صنع القرارات في مستويات مختلفة في دولهم، أو أكثر تأثيرًا في توجهات الرأي العام المحلي.

ومن الضروري الإشارة إلى أن هذه النخب قد لا تكون متنبّهة إلى أنها تروّج لأفكار وسياسات تريدها الدولة المتغلغلة، بل قد تسير في اتجاه ما تعتقد أنه قناعاتها الذاتية، لكنها متناغمة في النهاية مع توجهات الدولة المتغلغلة.

يشير تقرير حديث ومفصّل في مجلة المستقبل العربي بشأن أشكال الاختراق للجسد السياسي والاجتماعي العربي إلى[44] «مبادرة الشراكة مع الشرق الأوسط» التي أطلقتها الخارجية الأميركية في كانون الأول/ ديسمبر 2002، ويتضمّن برنامجها مساعدة المنظّمات الأهلية في المنطقة. وأعلن مكتبها، مقره في تونس، في شباط/ فبراير 2008 فتح باب الترشيح للحصول على مساعدات موجّهة إلى المنظّمات المهنية والجامعات والهيئات غير الحكومية وجماعات النساء. ووصلت المبالغ المخصّصة لعام 2008 إلى 3 ملايين دولار، أمّا حجم التمويل الممنوح للمشاريع الفردية فيراوح بين 15 ألف دولار و25 ألف دولار للمشروع الواحد. وأفاد المكتب بأن «المبادرة» التي أطلقتها الإدارة الأميركية في كانون الأول/ ديسمبر 2002 منحت مساعدات تجاوزت قيمتها 430 مليون دولار، لتمويل 350 مشروعًا في 17 بلدًا من منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا.

يشير التقرير أيضًا إلى أن المبادرة قامت بإنشاء ثلاثة مكاتب إقليمية: الأول يشمل لبنان وشمال أفريقيا، والثاني في أبو ظبي موجّه إلى بلدان الخليج العربي، والثالث في القاهرة مخصّص لمصر. وأطلقت السفارة الأميركية في تونس برنامج المبادرة المحلي تحت عنوان «المبادرة للتحول في تونس»، وتشمل مسؤولياته إدارة برامج المبادرة في كلٍّ من الجزائر ومصر ولبنان وليبيا والمغرب وتونس وإسرائيل والأراضي الفلسطينية والأردن. وتبلغ قيمة

(44) أحمد النظيف، «أسرار الاختراق الأمريكي لمنظمات المجتمع المدني في تونس،» على الموقع الإلكتروني: <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=303282>.

الاعتمادات المالية المخصّصة لهذه المبادرة أكثر من 50 مليون دولار سنويًا. ويعمل في المكتب الإقليمي في تونس عشرة موظّفين يشملون دبلوماسيين أميركيين وموظّفين من المنطقة ذوي تجارب في مجالات الإصلاح الديمقراطي ونشاط المجتمع المدني وإدارة المنح والمساعدات المالية. ويقوم هؤلاء جميعًا بالتنسيق مع سفارات الولايات المتحدة في المنطقة.

ينظّم المكتب الإقليمي في تونس مؤتمرات إقليمية (مؤتمر نساء الأعمال ومؤتمر القادة الطلاب)، كما يساهم في برامج التبادل (منحة القادة الشبّان وبرنامج تدريب سيدات الأعمال الشابّات). ويمنح المكتب أيضًا العديد من آليات التمويل (المنح الصغرى والمنح المتخصصة)، ويساهم في تنظيم المؤتمرات وتسهيل تبادل الزيارات وإعداد الندوات ودورات التكوين.

موّلت المبادرةُ في عام 2011 منظّمة مغربية تسمّى «منتدى المواطنة» في برنامج شراكة مع نادي اليونسكو يهدف إلى تكوين القيادات الشبابية بمنظور أميركي، ولا سيما في ما يتعلّق بالصراع العربي - الصهيوني. وقالت مسؤولة البرنامج في معرض حديثها عن أهدافه المعلنة: «يعتزم مكتب المبادرة تخصيص 20 مليون دولار لدعم التحوّل في تونس، وهو أمر من شأنه أن يساعد في ترسيخ المكتسبات التي تحقّقت في تونس في حقبة ما بعد الرئيس بن علي، ومساعدة التونسيين وهم يحقّقون تقدّمًا نحو التطور الديمقراطي والرخاء الاقتصادي المستدامين».

ينوي مكتب المبادرة إقامة شراكات مع منظّمات محلية ودولية لدعم مجهود التحوّل الحاصل، وبوجه خاص، فإن مبلغ الـ20 مليون دولار من المساعدات الجديدة المقترحة سيعزّز الجهد الرامي إلى القيام بما يلي:

- تأسيس قطاع إعلامي مستقل ومهني وتعدّدي يقدم المعلومات بصورة شفافة وبنّاءة؛

- تكوين مجتمع أهلي مستقل قادر على أن يكون له دور محوري في دعم التربية المدنية والدفاع الفاعل عن القضايا؛

- تعزيز أحزاب سياسية وتطويرها؛

- تطوير إطار سليم للانتخابات؛

- تشجيع الإصلاحات الاقتصادية.

يشير تقرير مجلة المستقبل العربي المذكور سابقًا إلى نشاط الوكالة الأميركية للتنمية الدولية (USAID) في تونس (وهي منظّمة حكومية تتبع لوزارة الخارجية الأميركية، مديرها ومساعده يعينهما الرئيس الأميركي ويصادق عليهما الكونغرس الأميركي، ما يحول دون تصنيفها منظّمة غير حكومية مستقلّة)؛ إذ إنها رصدت أكثر من 60 مليون دينار تونسي (نحو 41.3 مليون دولار). ومن مشاريع تلك الوكالة تمويلها ما يسمّى «مدارس المواطنة» في كلّ البلاد التونسية، وهي أندية مسيسة يُستَمال فيها الطلاب الأذكياء الذين يرجّح أن يتبوّأ بعضهم مناصب مهمّة في المستقبل.

قامت الوكالة بعد الثورة التونسية ببرنامج إطلاق «شبكات المجتمع المدني الإقليمية»، وهي تهدف إلى جمع مجموعة كبيرة من الجمعيات في إطار شبكات ينسّق بينها أحد العاملين في الوكالة. وتهدف هذه الشبكات إلى إنشاء أكبر قاعدة بيانات تتعلق بالمجتمع المدني. و«نجحت الوكالة في إنشاء الشبكة الإقليمية بالجنوب الشرقي وشبكة الوسط»[45].

6 - أدوات الاختراق المساعدة

إذا كانت الأدوات السابقة التي أتينا إلى عرضها تمثّل المحاور الاستراتيجية للاختراق، فإنها تتكئ أحيانًا على متغيرات مساعدة، وتتمثّل في الآتي:

أ- التسميم السياسي

يعني محاولة نشر أفكار أو قيم معيّنة في مجتمع معيّن، والعمل على نقل مكانة هذه الأفكار والقيم من مستوى القيم التابعة إلى مستوى القيم العليا في

(45) أحمد نظيف، مرجع سبق ذكره.

المجتمع المستهدَف. ويكون إنجاز هذا الهدف بطريقة غير مباشرة من خلال استقطاب نخب فكرية وثقافية مختارة تتبنّى هذه الأفكار والقيم في المرحلة الأولى، لتقوم في ما بعد بترويجها بصورة منظّمة بين صفوف المجتمع من خلال وسائل الإعلام والثقافة والمناهج التعليمية المختلفة[46].

يكون التركيز في التسميم السياسي على تشكيك الفرد والمجتمع في عدالة قضاياه بصورة تدريجية ليصل إلى حدّ خلخلة البنية العقيدية والتماسك النفسي للمجتمع. ولا بدّ من أن تستند عملية التشكيك هذه إلى الفهم الجيد للبنية العقيدية والمركّب السيكولوجي للمجتمع لتحديد نقاط الضعف والتسلل من خلالها. وتتعزّز هذه العملية عبر تقديم المنظومة القيمية للمهاجم بديلًا أكثر نجاعة.

يعدّد رفعت سيد أحمد 16 جهة أميركية تمارس التسميم السياسي في المجتمع المصري من خلال فروعها التي تعمل داخل مصر مع مفكرين ومثقّفين وإعلاميين وهيئات مجتمع مدني، وهو أمر يمكن الاستدلال به على تكرار نموذجه في عدد من الدول العربية[47]. ويمكن الاعتقاد أن كثيرًا من التقارير الخاصة بالحريات في العالم العربي التي تصدرها هيئات أميركية أو غربية هي نماذج في بعض ما تورده للتسميم السياسي، إذ تختلط بعض الحقائق في بنية فكرية توحي بتوجّهات معيّنة تستهدف تحطيم التماسك النفسي للمجتمع المتلقّي[48]. وإذا كان الخطاب الأيديولوجي والدعائي السوفياتي

---

(46) حامد عبد الله ربيع، «احتواء العقل المصري،» الأهرام الاقتصادي، 31/ 1/ 1983.

(47) مثل: الجامعة الأميركية في القاهرة، ومؤسسة راند الأميركية، والمركز الثقافي الأميركي، ومركز البحوث الأميركية في القاهرة، ومؤسسة فورد فاونديشن، وهيئة المعونة الأميركية، ومعهد ماساتشوستس وفرعه في القاهرة معهد «إم أي تي» في مبنى جامعة القاهرة، ومؤسسة روكفلر للأبحاث، ومؤسسة كارنيغي، ومعهد التربية الدولية والمتخصص في منح السلام، ومعهد بروكينغز، ومعهد دراسات الشرق الأوسط الأميركي، ومعهد المشروع الأميركي، والأكاديمية الدولية لبحوث السلام، ومشروع ترابط الجامعات المصرية والأميركية ومقره المجلس الأعلى للجامعات في القاهرة. لمزيد من التفاصيل، انظر: رفعت سيد أحمد، علماء وجواسيس: التغلغل الأميركي - الإسرائيلي في مصر (لندن: دار رياض الريس للكتب والنشر، 1989)، ص 43.

(48) إبراهيم البيومي غانم، «كوميديا تقرير الحريات الدينية،» الأهرام، 26/ 10/ 2011، <http:// www.ahram.org.eg/Issues-Views/News/109102.aspx>.

يتوجّه إلــى الطبقة العاملة، والخطــاب الديني يتوجّه إلــى العامّة في الأغلب، فإن الخطاب الأميركي تحديدًا يركّز على النخب اعتقادًا منه أن تســميم العقل النخبوي يقود إلى تسميم الثقافة الســائدة. ويمكن ملاحظة نماذج التسميم في تغييب قيــم معيّنة مثل المقاومة لمصلحة الســلام، أو تغليب قيم حوار الأديان على حســاب أولوية الحقوق بيــن الأديان، أو إعلاء قيمة النمو على حســاب عدالة التوزيع، أو تغليب تعبير الانتحاري على الاستشهادي، أو الإرهاب على المقاومة، أو القضية الشرق الأوسطية بدلًا من القضية الفلسطينية... إلخ. وعلى الرغم من أن القيم التي يراد ترويجها لتسميم المنظومة القيمية تبدو ذات مدلول إيجابــي ويصعب رفضها أحيانًا، فــإن إعلاء مكانة تلك القيم يســتهدف إعادة تركيب المنظومة بما يستجيب لأهداف معيّنة.

ب - حلف الضواحي

تتمثّل الفكرة المركزية في هذه الاستراتيجيا في تعزيز النزعات الانفصالية للثقافات الفرعية في المجتمع العربي، ومحاولة مدّ جسور العلاقة مع الكيانات السياسية التي ستنبثق من هذه الثقافات الفرعية. ولعل دراسة عوديد ينون بشأن استراتيجية إســرائيل في الثمانينيات[49]، وما كتبه زئيف شيف في الفترة نفسها تقريبًا، ودعا فيه إلى تقســيم العراق إلى ثلاث دول، من المؤشّــرات إلى هذا التوجّه[50].

تعود تقاليد اختــراق المنطقة العربية عبــر قناة الأقليــات إلى المراحل الأخيرة من الدولة العثمانية، وبــروز مصطلح «الرجل المريض»، عندما بدأت فرنســا برعاية الموارنة والأمازيــغ، وبريطانيا برعاية الدروز، وروســيا برعاية الأرثوذكس. وبقيت هــذه التقاليد حتــى الفترة المعاصرة مــن خلال القوى

---

(49) Oded Yinon, «A Strategy for Israel in the Nineteen Eighties,» with a foreword by, and translated by Israel Shahak, *KIVUNIM*, no. 14 (February 1982), <http://cosmos.ucc.ie/cs1064/jabowen/IPSC/articles/article0005345.html>.

(50) Ze'ev Schiff, «The Dissolution of Iraq into a Shiite State, A Sunni State and the Separation of the Kurdish Part,» *Haaretz*, 2/6/1982.

الكبرى والقوى الإقليمية، كما هي الحال في السياسات الإسرائيلية والإيرانية والإثيوبية.

تقبلت بعض الأقليات دور الحليف للقوى الكبـرى بفعل عاملَي ضغط: أوّلهما الخوف من السـلطة المركزية، وثانيهما الخـوف من الأقليات الأخرى المنافسة لها. وتطوّر هذا الدور إلى تحوّل تدريجي من هويات ثقافية إلى كيانات سياسية واقتصادية، بل وعسـكرة هذه الهويات[51]. ولعل العلاقات الإسرائيلية بالأقليات في جنوب السـودان وأكـراد العراق وبعض القوى المسـيحية في لبنان، بل ومحاولات التواصل مع أمازيغ المغرب العربي، مؤشّـرات إلى هذه الاستراتيجيا المساعدة كلها.

ج - الفوضى الخلّاقة

من دون العودة إلى تأصيل مفهوم الفوضى الخلّاقة في التنظير السياسـي ومدى اشـتقاقه من مفاهيـم العلوم الطبيعية، ولا سـيما نظريـات بريغوجين وغيره[52]، فإن طرح المفهوم لمعالجة أوضاع الشـرق الأوسط، ولا سيما بعد أزمة الاحتـلال العراقي للكويت وما ترتب عليه، تبلور بشـكل واضح في عام 2005 مع ما طرحته وزيرة الخارجية الأميركية السابقة كوندوليزا رايس استنادًا إلى بعض أدبيات المحافظين الجدد.

تقوم الفكرة المركزيـة لهذا المفهوم على تدمير بنية قائمة مختلّة لتشـييد أخرى جديدة مـن ركام القديمة. ورأت الوزيرة رايـس - والمحافظون الجدد - أن منطقة الشـرق الأوسـط منطقة مضطربة لأسـباب سياسـية واقتصادية واجتماعية، وأن عدم الاستقرار يحتاج إلى إعادة تشكيل المنطقة بصورة تعالج مواطن الخلل في هذه البنية الشرق الأوسطية.

---

(51) Saad Eddin Ibrahim, «Management and Mismanagement of Diversity: The Case of Ethnic Conflict and State-Building in the Arab World,» Discussion Paper Series; no. 10, Unesco, <http://www.unesco.org/most/ibraeng.htm>.

(52) Joan Pere Plaza, *Chaos Theory and its Application in Political Science* (Spain: UAB, 2006).

رابعًا: استراتيجية إعادة التشكل
نموذج الشرق الأوسط الكبير

عرفت العقود الأربعة الســابقة عددًا من التحوّلات في بنية النظام الدولي من ناحية والنظام الإقليمي الشــرق الأوســطي من ناحية أخرى. ودفعت هذه التحوّلات إلــى التأثير في اســتراتيجيات القوى الدوليــة والإقليمية في نطاق تفاعلها المتبادل. وتمثّلت هذه التحوّلات بأبعادها الرئيسة في الظواهر التالية:

- الثورة الإيرانية في عام 1979 وما نتج منهــا من تغيرات في التوازنات الإقليمية وفي البيئة الجيوسياسية للمنطقة.

- ظهور النزعة التصالحية بين العرب وإسرائيل بمستويات مختلفة، مرخية ظلالها على شــبكة العلاقات الدولية والإقليمية، بل على الثقافة السياســية في المنطقة أيضًا.

- تنامي الحركة الإســلامية ونــزوع بعض أجنحتها إلى العنف المســلّح الذي بلغ ذروته في تنامي ظاهرة العمليات «الاستشــهادية أو الانتحارية» التي اجتاحت المنطقة (فلســطين ولبنان والعــراق والجزائر واليمن، وســورية في المرحلة اللاحقة) وبعض الدول الأخرى.

- انهيار الكتلة الاشــتراكية الذي أدّى إلى تفرّد الولايات المتحدة بالقرار الدولي إلى حدٍّ كبير، ولا سيما خلال الفترة المباشرة للانهيار، وانعكاس ذلك على مكانة القوى اليسارية في الشرق الأوسط، وانتشاء الفكر الليبرالي والديني نتيجة الزهو بالانتصار الأيديولوجي.

- عدم تحقيق اســتراتيجيات وكالة الطاقة الدولية بشأن التحكّم في قطاع الطاقة نجاحًا ذا شــأن، واســتمرار احتلال النفط موضع الصــدارة في مصادر الطاقة، الأمر الذي عزّز التنافس على الشرق الأوسط، ولا سيما في ظلّ احتلاله المركز الأوّل في الاحتياطي المؤكد من النفط والغاز.

- تداعيات حروب الخليج (الحرب العراقيــة الإيرانية واحتلال الكويت واحتلال العــراق) التــي أدّت إلى تنام متســارع في ظاهرتيــن: تزايد الإنفاق الدفاعي (حيث تحتلّ بعض الدول العربية المراكز الخمســة الأولى عالميًا في نســبة الإنفاق الدفاعي إلى إجمالي الناتج المحلي)، وتزايد الوجود العسكري الأجنبي، ولا سيما الأميركي في المنطقة، وحلف الأطلسي.

- تنامي المكانــة الصينية، خصوصًا المكانــة الاقتصادية، وما ترتّب على ذلك من تغيّر في بنية النظام الدولي.

- العودة التدريجية إلى الدور الروســي، ولا سيما في بناء توازنات دولية، مثل مجموعة البريكس ومنظّمة شــنغهاي، ما انعكس على التوازنات الشــرق الأوسطية وعلى دور الأمم المتحدة.

- الأزمــة الاقتصاديــة العالمية وما ترتّــب عليها من توتــرات اجتماعية وسياســية واهتزاز الثقة في بعض مظاهر التكامل الإقليمي، بل والتشكيك في جدوى الليبرالية والنيوليبرالية كمخرج بديل للنمط الاشتراكي الذي أشرنا إلى أزمته.

- تنامي التيار الفكري بين دارســي العلاقات الدوليــة بدخول الولايات المتحدة مرحلة التراجع في المكانة الدولية، وهو أمر يمكن سرد مؤلّفات كثيرة تنبأت به، ولعلّ أبرزها ما كتبه بول كينيدي.

- اســتمرار الضغط المتزايد على الوظيفة التقليديــة للدولة، ما دفع إلى تراخي مفهوم الســيادة بكلّ ما لذلــك من تداعيات علــى التفاعلات الدولية، ولا سيما مفهوم التدخّل الإنساني وحقوق الإنســان... إلخ. وكان ذلك نتيجةً لتنامي ظاهرة العولمــة التي جعلت التدفّــق المالي والســلعي والفكري يؤثّر كثيرًا في مفاهيم المواطَنة التقليدية وفي مكانة الأيديولوجيات ودرجة تماســك الثقافــات الفرعية في ظلّ العلمنة، وفي إيقاعات القــدرة على التكيف مع تغيّر سريع ومتسارع في جميع أنساق المجتمعات، وإذا الهياكل التقليدية عاجزة عن القدرة على البقاء في وجه هذا التغيّر.

من المؤكّد أن المنطقة العربية لم تكن بمنـأى عن تبعات هذه التحوّلات الجذرية، الأمر الذي دفع إلى بروز النقاش في شـأن آليـات المنطقة للتكيف مع هذه التحوّلات كي لا يصل إلى حالة الانهيـار، وبرز تياران في إطار آليات التكيف: الأول هو التكيف الداخلي الذي تكفلت به القوى المحلية في المنطقة، ويمكن اتخاذ ظاهـرة «الربيع العربي» في بعض ملامحها مؤشـرًا إلى محاولة هذه القوى المحلية «إعادة تشكيل» بنية المنطقة من خلال الإرادة الذاتية، وهو ما تجلى في التغيرات التي أصابت بعضًا من النظم السياسـية العربية (وهذا أمر لا يدخل بجوهره في نطاق دراسـتنا هذه). والثاني هو التكيف الخارجي الذي قام على فكرة إعادة بناء الشـرق الأوسـط وتوظيفه في إطار التنافس الدولي. وشـرعت القوى الدولية وبعض القوى الإقليمية في البحث في مسـألتين من هذه الناحية: الأولى ما هي أنسـب الطرائق لإعادة تشكيل بنية المنطقة، والثانية ما هو نمط البنية الجديدة؟ ولعل ذلك هو الذي يفسّـر مشروع الشرق الأوسط ومشروع الشرق الأوسط الكبير، والمشـروع المتوسّطي، ومشروع الاتحاد من أجل المتوسّط، وممرّ السلام الياباني، وغيرها من المشاريع.

قد يرافق ظهورَ هذه المشاريع في فترات مختلفة من العقود الأربعة المشار إليها سـابقًا جهد فكري لبلورة الإجابة عن السـؤالين السـابقين، لكنه يسعى بصورة أو أخرى إلى تقديم تصـوّرات للبنية أو الصورة الجديدة للمنطقة، طبقًا لتوجّهات الدولة الموجّهة إلى هذه المشاريع الفكرية[53].

يمكن الاعتقاد أن مشروع الشرق الأوسـط الكبير هو الأكثر اندفاعًا نحو التحقّق (كما سـنوضّح)، ولا سـيما أن الدولة العظمى هي التي تتبنّاه. كما أن كثيرًا من قسمات المشروع - كما سنوضّح - تعكس آليات الاختراق التي أتينا إلى مناقشتها في الصفحات السابقة.

---

(53) من نماذج هذه الدراسـات الخاصة بإعادة تشـكيل المنطقة العربية أو الشـرق الأوسطية سياسـيًا واقتصاديًـا واجتماعيًـا، انظـر: Carl Conetta, Charles Knight and Lutz Unterseher, «Toward Defensive Restructuring in the Middle East,» Project on Defense Alternatives, Research Monograph #1 (February 1991); Roger Owen, *State, Power and Politics in the Making of the Modern Middle East*, 3rd ed. (London ; New York: Routledge, 2004), pp. 113 and 219-229, and Vicki Preibisch, *The Political Logic of Economic Restructuring in The Middle East*, Seminar Paper (Germany: Grin, 2006), pp. 15-17.

من الضروري بدايةً تحديد «الشرق الأوسط» في المنظور الأميركي؛ حيث نجد معهد الشــرق الأوسط في واشــنطن يطابق بين الشــرق الأوسط والعالم الإســلامي، بينما تحدّده وزارة الخارجية الأميركية بأنــه «المنطقة الممتدّة من شــمال أفريقيا والهلال الخصيب ودول الخليج»، ويستثني التحديد تركيا، بينما تشتمل مسؤوليات القيادة المركزية في تقســيمات وزارة الدفاع الأميركية على دول القــرن الأفريقي ومصر والســودان والأردن وإيران والعراق وأفغانســتان وباكستان، ما يعني أن الشرق الأوسط ليس مفهومًا جيوسياسيًا أو جيوستراتيجيًا محدّدًا، وإنما يضيق ويتّسع تبعًا لنطاق المصالح الاستراتيجية العليا؛ أمر تؤكّده تباينات تعريفات الإقليم في الموســوعة الفرنسية عن تعريفات المعهد الملكي البريطاني أو التعريفات الإسرائيلية. غير أن تقسيم الإقليم إلى مركز (Heartland) وحواف (periphery)، يشير تقريبًا إلى أن المنطقة العربية تقع في معظم التعريفات الغربية في القلب أو في المركز[54].

من دون العودة إلى مقدمات ظهور هذا المشــروع (كمشــروع الشــرق الأوسط الذي طرحه شــمعون بيرس في عام 1993)[55]، فإن أول ذكر لفكرة الشرق الأوســط الكبير جاء في دورية *Joint Force Quarterly* في عام 1995[56] من خلال سلســلة وثائقية وتحليلية للمفهــوم، وتمحورت كلّهــا حول فكرة محدّدة هي توسيع نطاق عمل القيادة العســكرية الأميركية الوسطى لتمتدّ نحو آسيا الوســطى. وتقوم الأفكار الرئيسة على الربط بين الشرق الأوسط التقليدي (الصغير) ودول آسيا الوســطى والدول المحاذية لها في باكستان وأفغانستان، ويتمثل هذا الترابط في ما يلي[57]:

- الثروة النفطية في الخليج العربي وحول بحر قزوين وآسيا الوسطى.

(54) Jed C. Snyder, «Turkey's Role in the Greater Middle East,» *Joint Force Quarterly*, no. 9 (Autumn 1995).

(55) Shimon Peres and Arye Naor, *The New Middle East* (New York: Henry Holt, 1993).

(56) *Joint Force Quarterly*, no. 9 (Autumn 1995), pp. 31-64.

(57) Hans Binnendijk, «Focus on the Middle East,» *Joint Force Quarterly*, no. 9 (Autumn 2005), pp. 4-5, and J. H. Binford Peay, «The Five Pillars of Peace in The Central Region,» *Joint Force Quarterly*, no. 9 (Autumn 1995), pp. 32-35.

- شبكة الأنابيب النفطية العابرة لروسـيا وإيران وتركيا والهند وباكستان وأفغانستان.

- تنشـيط طريق الحرير الجديدة لربط آسـيا بأوروبا من خلال التنسـيق المشترك بين الصين وإيران.

- إن هذه المنطقة فيها أكبر عدد من الدول النووية (روسيا والصين والهند وباكستان وإسرائيل، فضلًا عن هواجس المشروع النووي الإيراني).

- تشكيل تركيا مفصلًا يربط بين المنطقة ومنطقة عمل الحلف الأطلسي.

- طغيان الطابع الإسلامي على هذه المنطقة من الناحية الثقافية، مع تزايد مكانة الإسلام السياسي.

تَعزّز الجهد الفكري الخاص باستراتيجية الشرق الأوسط الكبير بالدراسة التي أنجزها معهد بروكينغز في عام 1997[58]، ثم نشـر معهد أبحاث السياسة الخارجية الأميركي دراسة مستقبلية بعد ذلك بعامين عن الشرق الأوسط الكبير، واشتملت على سيناريوين: أحدهما متشـائم يفترض استمرار النظم السلطوية والحـروب، والآخر متفائل يفترض تطوّرًا سياسـيًا واقتصاديًـا واجتماعيًا في الشرق الأوسـط الكبير[59]. وعادت فكرة الشرق الأوسط الكبير بصورة رسمية في اجتماع مجلس الناتو في براغ عـام 2003، عندما تقدم المندوب الأميركي نيكولاس بيرنز بورقة تحت عنوان «الناتو والشـرق الأوسط الكبير»، وجاء فيها ما نصّه: «إن على الناتو أن يتّجه جنوبًا وشـرقًا ليغطي نشـاطه الشرق الأوسط الكبير»[60]، وجاء النص على النحو التالي:

(58) Geoffrey Kemp and Robert E. Harkavy, *Strategic Geography and the Changing Middle East* (Washington, DC: Carnegie Endowment in Association with Brookings Institution Press, 1997).

(59) Adam Garfinkle, «The Greater Middle East in 2025» (The Foreign Policy Research Institute, December 1999).

(60) Nicholas Burns, «The New Nato and the Greater Middle East,» Paper Presented at: *Nato and The Greater Middle East, Conference Proceedings* (Prague: Prague Security Studies Institute, 2004), p. 189.

NATO's mandate is still to defend Europe and North America. But we don't believe we can do that by sitting in Western Europe, or Central Europe, or North America. We have to deploy our conceptual attention and our military forces east and south. NATO's future, we believe, is east, and is south. It's in the Greater Middle East.

بعد ذلك، توالت التأكيدات الأميركية والأوروبية للمشـــروع على لســـان الرئيس بوش في شـــباط/ فبراير 2004. كمـــا بحـــث وزراء خارجية الاتحاد الأوروبي في آذار/ مارس 2004 موضوع الشرق الأوسط الكبير، وبحثه اجتماع مجموعة الدول الثماني (G 8)... إلخ، وصولًا إلى تصريحات كوندوليزا رايس التي أشرنا إليها سابقًا.

خامسًا: مضمون مشروع الشرق الأوسط الكبير

ينطوي المشروع في أبعاده الرئيسة الواردة في الدراسات التي أشرنا إليها على تصوّرات تقوم في هدفها النهائي على الاختراق بصور مختلفة بنية المنطقة باتّجاه إعادة تشكيلها. ولعل أبرز المحاور تظهر في الآتي:

- البعد السياسي، ويتمثّل في الآتي:

• العمل على تطوير نظم ديمقراطية، مع إيلاء أولوية لـ «القوى الإسلامية» المعتدلة. ولعل جهد مؤسســـة راند الأميركية واضح في هـــذا المجال؛ حيث أشـــرنا في الصفحات الســـابقة إلى تقريرهـــا (انظر الهامـــش 41)، كما كانت المؤسســـة ذاتها قد أنجزت تقريـــرًا آخر في عام 2003 عن التوجّه نفســـه[61]. ويتبيّن لنا من خلال هـــذا الجهد التركيز على «إضعاف الإســـلاميين المعادين للولايات المتحدة، وتشجيع الليبراليين والحداثيين، والعمل نشرًا وتوزيعًا على الإنتاج الفكري للمؤيدين للولايات المتحدة في المنطقة، وتشـــجيع الشـــباب الليبراليين على الكتابة لوســـائل الإعلام، وإدخال الفكـــر الليبرالي في مناهج التعليم الدينـــي، وإيجاد منابر (كالفضائيات) ليعـــرض الليبراليون أفكارهم من خلالها، وتنبيه الشباب للتاريخ العربي قبل الإسلام أو التاريخ العربي المنفصل

(61) Cheryl Benard, *Civil Democratic Islam: Partners, Resources, and Strategies* (Santa Monica, CA: RAND, National Security Research Division, 2003), pp. 25-48.

في تطوره عن التراث الإسلامي، وتشــجيع منظّمات المجتمع المدني، وتعزيز التباينات بين الإســلاميين والقــوى التقليديــة (كالأقليــات والقبائل وزعماء الريف)، والعمل على تشــجيع التعاون بين الليبراليين والتقليديين، وتشــجيع المبادئ الفقهية التي تســاند السلام مع إسرائيل، وتشــجيع الطرائق الصوفية، وربط «المتطرّفين» بحركات غير شرعية، وتأكيد عجز القوى المتطرّفة عن إدارة الدول، وتعزيز مشــاعر الدونية لدى المنتمين إلى الحركات المعادية للولايات المتحدة، وتشــجيع نشــر الفضائح التي قد يقــع فيها الإســلاميون المعادون للولايات المتحدة، وتعزيز الانشــقاقات في صفوف الإسلاميين، وتأكيد فكرة أن فصل الدين عن الدولة يؤدّي إلى تعزيز الدِّين... إلخ.

• العمل على تسوية الصراع العربي - الصهيوني بصورة خاصة من خلال الضغط المستمر على القوى المقاوِمة للسلام مع إسرائيل.

• تطوير التنسيق الأوروبي - الأميركي في معالجة مشكلات المنطقة.

• ينطوي المشــروع على تصوّر يطالب بإعادة رسم الحدود السياسية في المنطقــة للتناغم مع الحدود الاجتماعيــة؛ إذ إن التنوعات الإثنية في الشــرق الأوســط الكبير هي المســؤولة - في رأي بيرنز - عن التوترات في المنطقة، وللجم هــذه التوتّــرات لا بدّ من إعــادة تشــكيل المنطقة لتتطابــق حدودها الاجتماعية (التنوعات اللغوية والطائفية والقومية... إلخ) مع الحدود السياسية، وهو أمر يتّسق مع فكرة الدولة اليهودية التي يطالب بها رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو.

- البعد العسكري، ويتمحور حول ما يلي:

• توســيع نطاق عمل حلف الناتو ليتجه جنوبًا وشــرقًا (ما تعزّز بالهجوم على ليبيا في عام 2012).

• إعادة توزيع القــوات الأميركية فــي المنطقة بما يتلاءم مــع المهمّات الجديدة.

- البعد الاقتصادي والاجتماعي، ويتمثّل في التصوّرات التالية:

• تعزيز الانفتاح الاقتصادي وتنمية القطاع الخاص في دول الشرق الأوسط الكبير؛

• التشديد على إعادة النظر في مناهج التعليم في المنطقة؛

• تأكيد حقوق المرأة؛

• تسهيل دخول دول المنطقة في منظمة التجارة العالمية؛

• أولوية النمو الاقتصادي على عدالة التوزيع.

خلاصة

نظرًا إلى تباين مستويات التطوّر في النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية بين الدول العربية، فإن شبكة تفاعلاتها تتباين من دولة إلى أخرى، ما يترتّب عليه تباين في مستويات الاختراق الأجنبي للدولة أو التغلغل فيها أو النفوذ عليها، طبقًا لما أوضحناه في بداية البحث. غير أن النظر إلى المنطقة العربية باعتبارها بنية مترابطة يكشف عن مستوى عميق من الاختراق العسكري والسياسي والاجتماعي والاقتصادي، الأمر الذي يُفقد المنطقة، كنظام إقليمي، القدرة على التخطيط المستقل، كما يجعلها أسيرة الخلافات البينية بقدرٍ يسهّل على القوى الخارجية الدخول من خلال شقوق البنية الإقليمية للتلاعب بها.

تسعى دول الاختراق والتغلغل إلى ضمان التدفّق الطاقوي لأسواقها، وضمان الأمن الإسرائيلي، وتوظيف قدرات المنطقة في تنافس القوى الدولية المختلفة.

تعقيب

الطيب زين العابدين محمد

يوحي عنوان الدراسة خطأً بأن هناك نظامًا عربيًا منسجمًا ومتماسكًا، مع أن الدراسة تقول غير ذلك، وأن هناك استراتيجيا ثابتة لاختراق النظام العربي وإعادة تشكله وفق خطّة مدروسة ومبرمجة، هي حاليًا قيد التنفيذ، على الأقل منذ انفجارات 11 ايلول/ سبتمبر 2001، وبذلك يكون تنفيذها قد قطع شوطًا يسمح بتقويم نجاحها أو فشلها. والحقيقة أن هناك سياسات وأفكارًا أميركية وإسرائيلية متّفقة في كثير من أجزائها ومختلفة في بعضها الآخر، لا تستحقّ أن يُطلَق عليها مصطلح استراتيجيا، لأن هذه السياسات تتباين من بلد إلى آخر وتخضع للتغيير والتبديل بحسب مردودها العملي في أرض الواقع أو اتّجاهات الرأي العام الأميركي تجاهها، مثل سياسات الرئيس جورج بوش في محاربة الإرهاب وغزو أفغانستان والعراق. وحاول الرئيس أوباما التنصّل منها كلها لما لقيته من فشل، وما تكلّفته الخزينة الأميركية من أموال طائلة. وإذا كان تعريف منطقة الشرق الأوسط نفسه غير متّفق عليه داخل الأجهزة الأميركية المختلفة، وفي مراكز الأبحاث المموّلة من الدولة، فكيف تكون هناك استراتيجيا موحّدة وثابتة تجاه العالم العربي؟

يعرّف الكاتب النظام المخترق بأنه «نظام يكون فيه أطراف من خارج المجتمع الوطني يشاركون بطريقة مباشرة وسلطوية مع أطراف وطنية في قرارات توزيع القيم أو حشد الدعم لأهداف يتبنّونها»، وهو تعريف ملائم على

الرغم من عموميته، لأن كلمتَي «مباشــرة وسلطوية» تحتملان درجات ووسائل مختلفة من التدخّل. واستشــهد الكاتــب بتقويم اثنين من الخبــراء المحلّلين لسياسات الشرق الأوسط يقولان إنه «الإقليم الأكثر اختراقًا بين النظم الإقليمية الأخرى»، وأحســب أنه اســتنتاج صائب تشــهد له دلائل كثيرة. والداعي إلى الاختراق عند الدول الرأســمالية الكبرى، على حدّ قــول أحدهما، هو: النفط، والصراع العربي - الإســرائيلي، وتفتّت القوى المحلّية؛ وهي أســباب منطقية وكافية تدعو إلــى تدخّل الدول الكبرى. وفي حديثه عن مؤشّــرات الاختراق، يتحدّث الكاتب عن اختراق الســلطة من خلال المستشــار الخارجي في قطاع من القطاعات، أو المندوب الدولي في هيئات السلطة، واختراق المجتمع عن طريق ارتباط قوى سياســية معينة بقوى خارجية، واختراق النخبة الداخلية التي تتبنّى أهداف نخب خارجية. وأظن أن الكاتــب تجاهل أكثر أنواع الاختراقات حدوثًا فــي العالم العربي؛ وهي التوجيهات المباشــرة التــي تصدر من رئيس الدولة الكبــرى (غالبًا هي الولايات المتحدة) أو مبعوثه الرفيع المســتوى إلى رئيس الحكومة في العالم العربي، من دون وســيط؛ فالمجتمع والنخبة لا دور لهما يذكر فــي اتّخاذ قرارات الدول العربية، لكنهما ربمــا يؤثّران تدريجًا على المدى البعيد. ويذكــر الكاتب ثلاثة أســباب تجعل الدولة قابلــة للاختراق: الضعف الاقتصادي والعجز العســكري وافتقاد التماسك الاجتماعي والحاجة إلى الاســتعانة بالخارج. وهنا أيضًا يتجاهل الكاتب عاملًا مهمًّا وهو «هشاشة النظام السياســي» الذي يجعل الدولة تطلب تأييدًا خارجيًا يحميها من انتقادات المنظّمــات الحقوقية الدولية ومحاســباتها وربّما من الثــورات والانتفاضات الداخلية، أو يعينها على توريث السلطة لمن يشاء الحاكم.

تحــدّث الكاتب في صفحــات عديــدة (حوالى 20 صفحة) عــن البيئة التمهيدية التي توفّر الظروف الملائمة لعملية الاختراق وهي: التهديد العربي - العربــي، الدولــة الإقليميــة المركــز، الإرث التاريخي والشــركات المتعدّدة الجنسيات، النخب العربية، الاختراق الخشــن، الاختراق الإقليمي. وتتداخل بعض هــذه العوامل مــع ما ذُكر ســابقًا عن مؤشّــرات الاختــراق عن طريق المستشــار الخارجي، أو غيره من القوى المرتبطة بالخارج. وبما أن الحديث

عن الظروف الملائمة للاختـــراق أخذ حيزًا يبلغ نصف البحث، فهو يحتاج إلى توضيح وتحليل.

يقصد الكاتــب بالتهديد العربــي - العربي تهديد الــدول العربية بعضها لبعض، ما يدفع الدولة المهدَّدة إلى البحث عن حليــف دولي يعطيها الحماية حتى ولو تدخّل في شؤونها السيادية. ويستدل الكاتب بأن بعض الدول العربية تعرّض للتهديد الأمني مــن دول عربية أخرى 37 مرّة في الفترة من 1947 إلى 2010، واســتمر ذلك أحيانًا لأعوام طويلة. وعلى ســبيل المثال، أدّى تهديد دولة عربية لدولة عربيــة أخرى إلى عقد اتفاقات وتحالفــات أمنية خاصة بين الدول الخليجية ودول حلف الناتو. ويعني الكاتب بالدولة الإقليمية المركز أن بعض الدول مثل مصر والعراق والسعودية والجزائر تريد أن تقوم بدور مركزي في منطقتها، ما يدفعها إلــى البحث عن حليف يعضد موقفها ويســعى بدوره إلى تحقيق سياســاته في المنطقة. ويبدو أن الــدول الكبيرة في المنطقة زهدت في القيام بــدور مركزي لتكلفته السياســية والاقتصادية. وبما أنها هي نفســها أصبحت تابعة، بدرجة ما للدول الغربية الكبرى، فإنه لم يعد باســتطاعتها قيادة المنطقة والتصدّي لقضاياها الكبيرة. وفتح ذلك الباب لدول صغيرة مثل قطر أن تقوم بدور إقليمي أكبر من الدول التي تفوقهــا مكانة وقدرات. وقصد الكاتب بالإرث التاريخــي، العلاقات القديمة مع الدولة المســتعمرة اقتصاديًا وثقافيًا، وتمثّل شركاتها المتعدّدة الجنســيات إحدى أدوات الاختراق، مستعينة بقوّتها الاقتصادية وبحكوماتها. ولا تمثّل هذه الشــركات بيئة ملائمة للاختراق، بقدر ما هي نفســها أداته الفاعلة، ولا تتورّع في سبيل ذلك عن الرّشوة أو الفساد مع المسؤولين المتنفّذين.

يتحــدّث الكاتــب بعد ذلك عــن النخــب العربية والاختراق الخشــن، والاختــراق الإقليمي، وهي كلّها وســائل للاختراق أكثر منهــا بيئة ممهّدة له. ويعني بالنخب العربية تلك المرتبطــة بقوى خارجية لعوامل ثقافية أو اقتصادية أو دينية؛ إذ تســتبطن هذه المجموعات توجّهات القوى الخارجية لتصبح جزءًا من توجّهاتها الذاتية. ولعل ذلك يفسّر حرص الدول الغربية على نشر مؤسساتها

التعليمية ولغاتها في المجتمعات العربية. واستشــهد الكاتب بعبارة مشــهورة للرئيس ديغول الذي أجبرته حركة التحرير الجزائرية على التخلّي عن الجزائر: «سنخرج من الجزائر ونترك فيها من يرعى مصالحنا». أمّا الاختراق الخشن فهو اســتخدام القوة العســكرية واحتلال الأرض حماية لمصالح الدول الكبرى أو حلفائها في المنطقة، وحدث ذلك ضد مصر وسورية والعراق.

حظيت منطقة الخليج العربي بوجود مكثّف للقوات الأميركية، والشركات الأمنية الأجنبيــة، وذكر الباحث تفاصيل ذلك. وبالطبــع، فإن مثل هذا الوجود العســكري هو الأكثر تأثيرًا في القرار الوطني، بل قد يعنــي إذا لزم الأمر تغيير حاكم بآخر أسلس. ويقصد الكاتب بالاختراق الإقليمي تفعيل الانتماء المذهبي لمصلحة دولة إقليمية، وهي تحديدًا إيران بعد ثورتها الإسلامية في عام 1979. وقلّل الكاتب من هذا التأثير على الرغم من وضوحه في حالات العراق وسورية ولبنان والبحرين، ولا أحسبه «اختراقًا» بقدر ما هو التقاء مصالح دعمها الانتماء المذهبي، مثل معظم الأقلّيات في العالم العربي التي تبحث عن حليف خارجي لأن النظام القائــم لا يحفظ لها حقوقها. ولا يختلف هــذا النوع من الاختراق عمّا ســمّاه الكاتب بارتباط بعض النخب العربية بقــوى خارجية لعوامل ثقافية أو اقتصادية أو دينية. وتطــرّق الكاتب إلى تغلغل منظّمــات المجتمع المدني الأجنبية، خصوصًا الأميركية والأوروبية التي تخدم سياســات بلدانها وثقافاتها في المجتمعات العربية بقصد التأثير فــي مجموعات أو تنظيمات بعينها تحمل الرؤية الأجنبيــة ذاتها، وهي لا تختلــف في هذا عن العلاقة بيــن جهة محلّية ترتبط بأخرى خارجية. استشــهد الكاتب في دعم أطروحته بدراســات قامت بها مؤسّســة راند الأميركية وبرامج «تعزيز الديمقراطية» التي تنفّذها مؤسّسات أميركية مثل المعهــد الجمهوري الدولي والمعهــد الديمقراطي الوطني وبيت الحرّية والصندوق الوطني للديمقراطية. وبما أن نشــر الديمقراطية، والحرّيات العامة، ورعاية حقوق الإنســان، وضمان حقوق المرأة، وغيرها، أصبحت من ســمات العصر الحديث، وتعتمدها الأمم المتحدة في مواثيقها، بل وتستعمل معيارًا في تقديم القروض والمنح والإعفاء من الديون، فإنه ينبغي ألّا ينظر إليها

وكأنها اختراقــات أجنبية ضد المصالح الوطنية، وكأنمــا الوطن العربي يعادي تلك التوجّهــات الديمقراطية. وبما أننــا نعيش في عصر انفجــار المعلومات عبر الفضائيات والشــبكة العنكبوتية ووســائل الاتّصال الأخرى، فإن الحديث عن اختراق الأفكار والمبــادئ والمعلومات لوطن مــا، أصبح غير ذي معنى، لأن الحواجز والســدود التي تخترق قد زالت، وأصبحت المناعة الذاتية للفرد والمجتمــع هي الواقي الحقيقي مــن الأفكار والقيم الهدّامــة. وعلى كلٍّ، فإن التأثير الثقافي الأجنبي للسياسات والبرامج الموجّهة يحتاج إلى دراسة تطبيقية ميدانية فــي المجتمعات العربيــة، حتى نعرف مدى تأثيرهــا الفعلي في خدمة المصالح الأجنبية، وننظر كيف نكيفها لمصلحتنا ونحمي مجتمعاتنا من آثارها الضارّة.

يذكر الكاتــب عند حديثه عــن أدوات الاختراق المســاعدة «التســميم السياسي» الذي يهدف إلى نشر أفكار أو قيم من مســتوى «القيم التابعة»، إلى مستوى القيم العليا في المجتمع المســتهدف، ويتمّ ذلك من خلال استقطاب نخب فكرية وثقافية مختارة تتبنّى هذه الأفكار والقيم وتقوم بترويجها. ويحدّد رفعت ســيد أحمد 16 جهة أميركية تمارس التســميم السياســي في المجتمع المصري، من خلال تعاونها مع مفكّرين ومثقّفيــن وإعلاميين وهيئات مجتمع مدني، وهو أمر يمكن تكراره في عدد من الــدول العربية. وينطبق على مفهوم «التسميم السياسي» ما قلناه سابقًا عن التأثير الثقافي الذي يخدم مصالح أجنبية، ولا يمنع ذلك مــن أن تراقب الدولة المنظّمات الأجنبيــة التي تعمل في بلدها وتتأكّد أنها تمارس نشــاطًا مشــروعًا وبصورة قانونية لا تضرّ بأمن المجتمع. ويدخل في مجال «التســميم السياســي» ما ســمّاه الكاتب حلف الضواحي، وهو محاولة الجهات المخترقة أن تعمــل لتعزيز النزعات الانفصالية للثقافات الفرعية، وهي سياســة اســتعمارية قديمة عُرفت بسياســة «فرّق تسُد»، تحاول كلٌّ من الدولة العبرية وحلفائها فــي أميركا وأوروبا ترويجها في العالم العربي. والحصانة من مثــل هذا الاختــراق هي إعطــاء الأقلّيات حقوقها السياســية والاقتصادية والثقافية. ويمكن أن نضيف إلــى ذلك مفهوم «الفوضى الخلّاقة» التي تهدف إلى تدمير بنية قائمة مختلّة في نظر الدولة الأجنبية، لتشيد بدلًا منها

بنية جديدة تخدم سياساتها في المنطقة، كما عملت لذلك إدارة الرئيس جورج بوش عقب احتلال العراق للكويت.

أخيرًا تحدّث الكاتب عن اســتراتيجية إعادة تشكيل الشرق الأوسط التي طرحها شمعون بيرس في عام 1993 وتبنّتها إدارة الرئيس بيل كلينتون إلى نهاية عهدها في عام 2000، وتمسّــك بها الرئيس جورج بــوش (2000–2008) الذي حاول بدوره تســويقها لحلــف الناتو، وبدأ تنفيذها عســكريًا في العراق وأفغانســتان لكنها باءت بفشــل ذريع ما زالت أميركا تعاني تداعياته السياسية والاقتصادية. وتقوم الفكرة، كما ذكر الكاتب، على الربط بين الشــرق الأوسط التقليدي، ودول آسيا الوسطى التي تضمّ إيران وباكستان وأفغانستان، لأنها كلّها تدخل في نطاق مصالح أميركا الاستراتيجية العليا، المتمثّلة في تدفّق الطاقة إلى أسواقها بأسعار معقولة، وضمان الأمن الإسرائيلي، وتوظيف إمكانات المنطقة في تنافس القوى الدولية الكبيرة.

يهدف المشروع إلى إعادة تشكيل منطقة الشرق الأوسط وفقًا للسياسات التالية: تطوير النظم الديمقراطية مع إضعاف القوى المعادية للولايات المتحدة، والعمل على تسوية الصراع العربي – الإسرائيلي، وتطوير التنسيق الأوروبي – الأميركي لمعالجة مشكلات المنطقة، وتوســيع نطاق عمل حلف الناتو جنوبًا وشــرقًا، وتعزيز الانفتاح والتعاون الاقتصادي، وتأكيد حقوق المرأة. ويخلص الكاتب إلى نتيجــة صحيحة وخطِرة هي أن المنطقة العربية تتعرّض لمســتوى عميق من الاختراق العســكري والسياســي والاجتماعي، الأمــر الذي يُفقدها القدرة على التخطيط المستقل، ويجعلها أسيرة للخلافات البينية.

نبدي الملاحظات الآتية على دراسة الكاتب الجيدة والحافلة بالمعلومات الموثّقة:

– تجاهل الكاتب الفشــل الذريع الذي مُني به مشــروع الشرق الأوسط الكبير، حتــى إنه ما عاد يُذكــر في عهد الرئيــس أوبامــا، وكان يجب تحليل الأسباب التي أدّت إلى فشله.

- انشغال الإدارة الأميركية بمشـــروع الملفّ النووي الإيراني سيضطرّها في المســـتقبل القريب إلى التعاون مع الدول العربية. والسؤال هو: هل ستكون الدول العربية في موقف يجعلها تفرض أجندتها الوطنية، وعلى رأســـها قضية فلســـطين في صفقة التعاون مع أميركا، أم أنها ستُساق إلى مواجهة عسكرية مع إيران ستكون هي أول ضحاياها؟(*)

- لم يتعـــرّض الكاتب لآثار الربيع العربي الذي جاء على غير ما تشـــتهي أميركا وحليفتها إســـرائيل؛ فهو سيؤسّـــس لأنظمة أقل من الأنظمة الاستبدادية السابقة قابلية للاختراق والتبعية؛ لكن أميركا ستجد نفسها مضطرة إلى التعامل مع الأنظمة الديمقراطية الجديدة التي ســـتعطي وزنًا أكبر للرأي العام المحلّي الذي يرفض الاختراق والتبعية والتسليم بالشروط الإسرائيلية من أجل التعايش معها في سلام. كما أن الرئيس أوباما في فترة إدارته الثانية سيكون أقل حماسة لناحية الدخول فـــي مغامرات عســـكرية جديدة في المنطقـــة، وأكثر جرأة في التعامل مع الممارسات الإسرائيلية المخالفة للقوانين الدولية، خصوصًا في ظل أوضاع اقتصادية صعبة بالنسبة إلى أميركا.

- على الرغم مـــن أن الكاتب توصّل إلى نتيجة خطِرة هي تعرّض المنطقة إلى اختراق عميق، بقصد إعادة تشكيلها بواسطة أميركا وحليفتها إسرائيل، فإنه لم يتقدّم بمقترح في كيفيـــة التصدّي لهذا الاختراق العميق وإعادة التشـــكيل. أحســـب أن مثل هذا المقترح كان ينبغي أن يكون زبدة الموضوع الذي يستحق النقاش في مثل هذا المؤتمر، لأن قضية إثبات الاختراق في حدّ ذاتها مشـــاهدة ولا تحتاج إلى بحث متعمّق.

- وبما أن الكاتب ســـلّم بـــأن أســـباب القابلية للاختـــراق هي الضعف العســـكري والاقتصادي، ونزيـــد عليها الضعف السياســـي، فـــإن الوقاية من الاختراق تعتمد على امتلاك القوة السياســـية والاقتصادية والعســـكرية. وأهم

(*) كتب هذا البحث قبل الاتفـــاق الإيراني مع الدول الكبرى في شـــأن حق إيران في تخصيب اليورانيوم، وذلك في 25/ 11/ 2013.

هذه العوامل القوة السياسية التي تستند إلى تماسك الجبهة الداخلية، ما يعني تغييرات جذرية في المنطقة، تقوم على الاختيار الطوعي للحكّام عن طريق التحوّل الديمقراطي، والمساواة التامّة بين المواطنين في الحقوق والواجبات، ورعاية حقوق الإنسان، والتوافق بين القوى السياسية والاجتماعية على الثوابت الوطنية. وتعني القوة السياسية أيضًا تقوية العلاقات الخارجية الاستراتيجية ودعمها على المستويين الإقليمي والدولي، وتفعيل دور الجامعة العربية ودور منظّمة التعاون الإسلامي، وتقوية الصّلة بدول العالم الثالث الناهضة عسكريًا واقتصاديًا، مثل الصين والهند والبرازيل وجنوب أفريقيا. وتعني القوة الاقتصادية تقديم الدولة للخدمات الأساسية، مثل الصحة والتعليم ومياه الشرب، مجانًا، ومحاربة الفقر والبطالة والفساد، والمساواة في فرص العمل من دون محاباة أحد، ودعم القطاعات المنتجة وتشجيع الاستثمار ونقل التقنية الحديثة وغرس روح العمل وروح المسؤولية في أداء الواجب في الناشئة. وتعني القوّة العسكرية تدريب الشباب على مهمات الجندية، والعمل بنظام القوات الاحتياطية، وتأسيس قوات عسكرية قومية محترفة تقوم على الكفاءة والمهنية والالتزام بالقانون، واقتناء المعدّات العسكرية المتطوّرة التي تضاهي ما يمتلكه الخصم المتربّص بالبلاد. إن امتلاك أسباب القوة بالنسبة إلى دول العالم العربي يحتاج إلى وقت ليس بالقصير، لكن لا بدّ من وضوح الرؤية وسلوك الطريق الصحيحة والتكاتف لتحقيق الأهداف القومية.

الفصل الثاني

أهداف الولايات المتحدة واستراتيجياتها في العالم العربي

مروان بشارة

خلاصة تنفيذية

تســعى هذه الدراســة إلى تحديد مصالح الولايات المتحدة وأهدافها في المنطقة العربية من خلال العمل على الإجابة عن ســؤالين رئيسين: **الأوّل**، ما هو الاختلاف بين إدارة باراك أوباما وسابقاتها في ضوء وعودها بالتغيير، وبعد التحوّلات المأســاوية التي تعصــف بالمنطقة العربية؟ **والثانــي**، إلى أي مدى تعكس استراتيجية هذه الإدارة دبلوماسيتها العامّة بشــأن الديمقراطية والحرّية والعدالة في المنطقة؟ (لن تتطرّق الدراســة إلى الموقف السياسي الكامن وراء السياسات، وفيها دور مجموعات الضغط).

باختصــار، تبيّن الدراســة كيف رفع أوباما ســقف التوقّعــات عندما لم تقتصر وعوده على تغيير سياســة الولايات المتحدة الخارجية فحســب، وإنما شــملت وضع حدٍّ للعقلية التي دفعت بواشــنطن إلى الحــرب. إلّا أن وعوده بقيت حبرًا علــى ورق. وعلى الرغم من تعهّد إدارته إبعــاد الولايات المتحدة

عن سياسة إدارة بوش المتهوّرة التي أدّت - إضافة إلى المِحن التي سببّتها - إلى شنّ حرب العراق الغبية وحرب أفغانستان التي افتقرت إلى الإعداد. وعلى الرغم من اختلاف الأسلوب والمنهج لدى إدارة أوباما، فإن الأهداف الكلّية والاستراتيجيات الإقليمية للإدارة الجديدة بقيت منسجمة مع المبادئ الأميركية التقليدية في المنطقة، فعانت سياسة أوباما الخارجية، على غرار سابقاتها، التناقض نفسه بين دبلوماسيتها العامة واستراتيجيتها الفعلية تجاه المنطقة والثورات العربية. صحيح أن أساليب واشنطن في ظل حكم أوباما تغيرت، إلّا أن استراتيجيتها ومصالحها الجوهرية بقيت ثابتة إلى حدٍّ كبير، وتتلخّص في ثلاث مصالح رئيسة: أولوية ضمان حرّية الوصول إلى مصادر الطاقة في المنطقة، والحفاظ على تفوّق الولايات المتحدة على جميع القوى الدولية والعالمية، واحتواء جميع قوى الممانعة العربية لضمان سيطرة أجندة الاستراتيجيا الأميركية في المنطقة العربية. وأصبح ضمان أمن إسرائيل أيضًا أحد ثوابت المصالح الجوهرية.

مقدّمة

في مطلع ولاية أوباما الأولى، تعارضت سياسته مع توجّهات سلفه الجيوستراتيجية بشدّة، ولا سيما تلك المتعلّقة بنشر القوّات البرّية واستخدام القوّة النارية في الشرق الأوسط الكبير لفرض التحوّل في العالم العربي بالإكراه والاحتلال المباشر.

رحّبت شعوب المنطقة وحكوماتها، إضافة إلى العالم قاطبة باستثناء إسرائيل، بوعود التغيير في مجال السياسة الخارجية والقطيعة النهائية مع عقيدة بوش القاضية بتفرّد الولايات المتحدة، بينما تستطيع العمل مع أطراف متعدّدة. ولم يكن العرب استثناءً؛ إذ كان كثيرون منهم توّاقين إلى رؤية نهاية عهد بوش ومعجبًا بمسيرة أوباما، الرجل الأسود الذي ارتقى اجتماعيًا فأصبح رئيسًا للقوة العظمى الوحيدة في العالم، بعد أن كان ناشطًا منظّمًا للمجتمعات المحلّية الفقيرة.

أمّا خطب الرئيس أوباما الثلاث الرئيسة التي وجّهها إلى العالمين العربي والإسلامي خلال سنته الرئاسية الأولى فرأت فيها واشنطن وعواصم أخرى تحوّلًا عن عهد بوش، وتأكيدًا لاستعداد الإدارة الأميركية الجديدة لفتح صفحة جديدة مع العالمين العربي والإسلامي قائمة على الاحترام والمصالح المتبادلة. بيد أن هذه الكلمات البرّاقة لم تترافق مع أي فعل ملموس أو محدّد؛ ففي حين اعترف بوش بحالات التعثّر السياسية الكبرى التي وقع فيها، افتقر الرئيس أوباما عند تسلّمه مهامه إلى أي سياسة محدّدة، ولم يكن يملك الوضوح المطلوب للتعبير عنها.

في نهاية عام 2010، بدا العالم العربي مفتقرًا إلى القيادة، غارقًا أبدًا في الركود والاستقطاب والاضطهاد. وواصل المستبدّون العرب تسابقهم سعيًا إلى استرضاء الولايات المتحدة التي احتوتهم ضمن نظامها الإقليمي الفوضوي. وأغفلت واشنطن تمامًا التغيرات التي هزّت المنطقة، نظرًا إلى تعاملها الطويل مع المنطقة من منظور النفط وإسرائيل و«الحرب على الإرهاب». لكن ذلك لم يمنع إدارة أوباما من أن تدّعي بوقاحة في البداية، أن الفضل في انطلاق الثورات العربية السلمية يعود إليها؛ لا بل سرّبت إلى الجسم الإعلامي في واشنطن لدى اندلاع الانتفاضات أنها منهمكة في وضع اللمسات الأخيرة على الأجندة الرسمية للديمقراطية في شأن العالم العربي. ونسب العديد من الخبراء النافذين نهوض الحركات الديمقراطية الشبابية إلى «استراتيجية أوباما في عدم التدخّل» وخطاباته الملهمة.

أولًا: تأسيس نموذج الاختلاف

1 - الدبلوماسية العامّة للولايات المتحدة واستراتيجيتها في العالم العربي

لطالما شهدت سياسة الولايات المتحدة الأميركية تعارضًا بين استراتيجيتها في العالم العربي ودبلوماسيتها العامة فيه؛ فطوال نصف القرن المنصرم تبنّت الولايات المتحدة مكافحة الشيوعية وروّجت لها علانية (ترومان وأيزنهاور ونيكسون)، ودافعت عن حقوق الإنسان (كارتر)، والتحرّر

(ريغان)، والسلام (كلينتون)، والحرّية (بوش). وفي الوقت نفسه، حرّضت واشنطن على تدبير الانقلابات على قادة وطنيين منتخبين، ودعمت أنظمة قمعية وساندت الاحتلال العسكري، كما شنّت حروبًا وعمليات عسكرية سرّية غير شرعية في المنطقة؛ إذ أقرّت وزيرة الخارجية الأميركية كوندوليزا رايس في كلمتها في القاهرة في عام 2005: «لقد سعت بلادي لمدّة 60 عامًا إلى بسط الاستقرار على حساب الديمقراطية في هذه المنطقة من الشرق الأوسط، ولكنها لم تحقّق أيًا منهما».

منذ أن تبوّأت الولايات المتحدة موقع القوى الاستعمارية الأوروبية منذ أكثر من نصف قرن، دأبت باستمرار على تعزيز تدخّلها الاستراتيجي في المنطقة الذي بلغ ذروته في حربَي الخليج الأولى (1991) والثانية (2003). وحافظت واشنطن على ثبات أهدافها حتى عندما عمدت إلى تغيير خطابها أو استراتيجيتها أو تحالفاتها، فحدّدت أهدافها في عقيدتها المعلنة، وركّزت على النهوض بمصالحها الجيوسياسية. وبغية تنفيذ تلك الأهداف كان عليها أن تُبقي على أسطولها وقواعدها وانتشار قواتها في المنطقة لحماية وجودها الدائم فيها، وإبعاد الاتحاد السوفياتي والقوى الأخرى عنها، وصدّ موجة القومية العربية (والمدّ الإسلامي لاحقًا). وقدّمت واشنطن مصالحها الاقتصادية بصورة ملحوظة، الأمر الذي ضمِن لها امتياز الوصول بحرّية ومن دون عوائق إلى مصادر الطاقة في المنطقة؛ إذ أعلن الرئيس أوباما في كلمته في 19 أيار/مايو 2011: «على مدى عقود من الزمن، انتهجت الولايات المتحدة العمل على مجموعة من المصالح الجوهرية في المنطقة، وهي مكافحة الإرهاب، ووقْف انتشار الأسلحة النووية، وضمان حرّية حركة التجارة، وضمان أمن المنطقة، والذود عن أمن إسرائيل؛ والسعي إلى سلام عربي - إسرائيلي».

غذّت الولايات المتحدة منذ منتصف القرن العشرين معارك لا تعدّ ولا تحصى في العالم العربي، متذرّعة بدايةً بالحرب الباردة ضد الشيوعية، ثمّ بمكافحة القومية العربية لتحمي حلفاءها وعملاءها ولإبعاد القوى العالمية والإقليمية الأخرى عن المنطقة. وكان على العرب أن يختاروا في كلّ عقد

تقريبًا بين واشنطن وأحد «الأشرار» الإقليميين الذين تحدّدهم واشنطن. وانقسموا بالتالي وفقًا لتأييدهم لعبد الناصر في مصر في أوائل الستينيات، ولعرفات في فلسطين في أوائل السبعينيات، وللخميني في إيران في أوائل الثمانينيات، ولصدّام حسين في العراق في التسعينيات، ومن ثمّ لبن لادن في أفغانستان في عام 2001.

للمفارقة، لم تتبنَّ الولايات المتحدة يومًا «سياسة عربية» رسمية قائمة بذاتها، على الرغم من تدخّلها الطويل في المنطقة ووجود من يُعرف بـ«المستعربين» في وزارة الخارجية، بل اعتمدت في الواقع الاستراتيجيا الإمبريالية الكلاسيكية «فرّق تسُد» بالتعاون مع عملاء إقليميين، عربٍ وغير عرب. ونبذت واشنطن تقليديًا الوحدة العربية، إذ رأتها فكرة خيالية تحمل تهديدًا، ورفضت الأيديولوجيا الخطرة للقومية العربية. ونظرت إلى الإسلام السياسي نفسه بصفة أنه تهديد وأرضية خصبة للأفكار المعادية للغرب. صحيح أن الإدارات المتعاقبة للولايات المتحدة أطلقت شعارات عن الديمقراطية والإسلام، إلّا أنها أبدت دومًا عدم مبالاة تجاه شعوب المنطقة وتجاه طغاتها، واستحوذت المصالح الاقتصادية الأميركية و«أمن إسرائيل» على جلّ اهتمامها، تاركة العرب تحت وطأة أنظمتهم.

وعندما كانت الإدارات الأميركية تدعو إلى الديمقراطية، كانت تروّجها كدبلوماسية عامة تعزّز «القوّة الناعمة» للولايات المتحدة. وكانت تسوّقها «سلعة» جاهزة متوافرة لدى وزارة الخارجية الأميركية والوكالة الأميركية للتنمية الدولية والمنظّمات غير الحكومية التابعة لهما، بغية تشييدها على أنقاض السيادة الوطنية.

من ناحية أخرى، سرعان ما أثبت غزو العراق وأفغانستان واحتلالهما أن اللجوء إلى «القوّة الصلبة»، من خلال شنّ الحروب في سبيل تعميم الديمقراطية الأميركية، لم يكن سوى مهزلة؛ إذ أُصيبت الإدارة الأميركية بالإرباك نتيجة الانتخابات في مصر وتونس والمغرب، فاحتارت بين اعتمادها القوة الناعمة والقوة الصلبة، تمامًا كما تجاهلت في الماضي الانتصارات الانتخابية للجبهة

الإسلامية للإنقاذ في الجزائر ولـ «حماس» في فلسطين، إضافة إلى الحكومة الائتلافية التي يشارك فيها «حزب الله» في لبنان. وكانت واشنطن قد استاءت أيضًا من نتائج الانتخابات في العراق وأفغانستان.

حال كلّ ما سبق دون أن يثق العرب بالخطاب الأميركي في شأن الديمقراطية، علمًا أن حكومات نيابية عربية تمثيلية ستكون أقلّ استعدادًا لقبول الإملاءات الأميركية، وأكثر ميلًا إلى معارضة محور الولايات المتحدة – إسرائيل؛ حيث أكّدت استطلاعات الرأي باستمرارعداء العرب لخطط واشنطن في المنطقة، ورأى نحو 80 في المئة ممّن شملهم الاستطلاع أن تدخّل الولايات المتحدة العسكري عزّز الإرهاب وقلّص فرص السلام، بينما شكّك 70 في المئة منهم في صدق نيتها في تعميم الديمقراطية، وأرجعوا دوافعها إلى طموحها لتحقيق السيطرة الإقليمية. ولو أن تحالفًا يضمّ الدول الإسلامية غزا كندا والمكسيك واحتلّهما، لَغضب الأميركيون حتمًا[1].

2 – موجز تاريخي ضروري

قامت الاستراتيجيا الأميركية في المنطقة العربية منذ لحظة تدخّلها الكثيف فيها على دعامتين: احتواء التوسّع السوفياتي وضمان تدفّق النفط الرخيص؛ إذ أقرّ الرئيس ترومان بأهمّية نفط الخليج في خطابه أمام الكونغرس في 24 أيار/ مايو 1951، وأعلن أن الشرق الأوسط «يحتوي على نصف احتياطيات النفط في العالم»، وحذّر أيضًا من الضغط السوفياتي في هذه المنطقة المضطربة.

في النصف الأول من خمسينيات القرن الماضي، راهنت أميركا على ما يسمّى الدول العربية «المعتدلة»، فأوصى ترومان بمستويين من التحالفات العسكرية الإقليمية: قيادة الشرق الأوسط المستوحاة من النموذج البريطاني،

(1) «Iranians Favor Diplomatic Relations With US But Have Little Trust in Obama,» World Public Opinion, 19/9/2009, <http://www.worldpublicopinion.org/pipa/articles/brmiddleeastnafricara/639.php>.

ومنظّمة الدفاع عن الشــرق الأوســط التي عُرفت أيضًا بحلف بغداد. وشــمل هذا التحالف تركيا والعراق الملكية (الخارجة من الصف العربي) وباكســتان، وانضمّت إليه إيران لاحقًا في عام 1955. ورفضت مصر هذا الحلف، في حين تفاقم الوضع في عام 1955 بســبب الغارات الإســرائيلية على غزة التي كانت حينها تحت السيطرة المصرية.

حذا الرئيس أيزنهاور حذو ترومان، ووثّق إلى حدٍّ كبير العلاقات الأميركية بالحلفاء العرب، وخفّف من الاعتماد على بريطانيا من دون المساس بمستوى العداء لمصر القومية العربية، ووسّــع الدور العســكري الأميركي في المنطقة معزّزًا تدخّل بــلاده فيها بغية مواجهة التهديــدات الخارجية العدائية. وتخيلت عقيدة كلٍّ من أيزنهاور وترومان دورًا رئيسًا للحلفاء العرب في حماية المصالح الأميركية وفي مواجهة الاتحاد الســوفياتي في المنطقة، ودورًا صغيرًا غير مهم لإســرائيل. وبالفعل، وفي أعقاب الهجوم الثلاثي الذي شــنّته إسرائيل وفرنسا وبريطانيــا على مصر في عام 1956، ضم أيزنهــاور صوته إلى صوت الاتحاد الســوفياتي للمطالبة بإعادة جميع الأراضي المحتلّة إلى مصر، وإجبار إسرائيل على الانسحاب إلى الحدود الدولية.

استحالت عقيدة أيزنهاور، بما تشــمله من طلب لسلطات استثنائية تسعى إلى الحدّ من تنامي النفوذ الســوفياتي في المنطقة، إلــى قانون أقرّه الكونغرس الأميركي في آذار/ مارس 1957، ما أدّى إلى تعزيز علاقات الولايات المتحدة بالمملكة العربية الســعودية والأردن ولبنان والعراق بغية مواجهة سورية ومصر إلى حدّ تدخّل الأخيــرة في اليمن. وبدأت السياســة الخارجية الأميركية تولي اهتمامًا خاصًا بالبلــدان المعنية من خلال تدخّلها المباشــر في لبنان لمصلحة الرئيس كميل شــمعون ضد مــا وصفه بالدعم الســوري لتمــرّد عام 1958. وســاهمت الولايات المتحدة أيضًا في زعزعة التحالف السوري - المصري، وفي تبديد تقارب البلدين مع الاتحاد الســوفياتي. فتناول بعض التقارير تواطؤ الولايات المتحدة لإطاحة عبد الكريم قاســم، بينما أكّــدت تقارير أخرى علم الولايات المتحدة بانقلابات 1963 من دون أن تحرّك ســاكنًا. لكن منعًا لأي

التباس، لن تتطرّق الدراسة إلى تلك الانقلابات. وقدّمت الولايات المتحدة مساعدات جديدة للأردن وفق عقيدة أيزنهاور، بعد أن أحبط الملك حسين العملية الديمقراطية في مملكته وألغى نتائج انتخابات عام 1957.

ثانيًا: الحروب بالوكالة والصراع العربي - الإسرائيلي

نتيجة المحاولات الفاشلة لاحتواء معسكر القومية العربية في أوائل الستينيات، وفيها فشل التقارب مع مصر الناصرية، اضطرّت واشنطن إلى إنشاء علاقات أوثق مع إسرائيل. تدخّلت الولايات المتحدة في شؤون المنطقة منذ الخمسينيات لبسط نفوذها على المنطقة بدلًا من الدول الأوروبية الحليفة الآفلة، بغية احتواء التأثير المتنامي للقوميين العرب والنفوذ السوفياتي، والتزامًا منها بإسرائيل. واعترفت حكومة إشكول بالولايات المتحدة قوّة عظمى صاعدة، وراعيًا استراتيجيًا محتملًا لها، بديلًا من النفوذ الآفل لراعييْها الاستعماريَيْن بريطانيا وفرنسا. وعبّرت وزارة الخارجية الإسرائيلية عن ذلك أفضل تعبير قبل حرب 1967 بعام واحد، حين حدّدت الأساس الجيوسياسي لما أصبح العلاقة التبعية الأكثر أهمّية في الشرق الأوسط طوال النصف الثاني من القرن العشرين؛ إذ صرّح المتحدّث باسم الخارجية الإسرائيلية لصحيفة نيويورك تايمز الأميركية قائلًا: «توصّلت الولايات المتحدة إلى استنتاج مفاده أنه لم يبق بإمكانها الردّ على جميع الحوادث في العالم، وعليها أن تعتمد على قوّة محلّية تكون بمنزلة قوّة ردع صديقة تشكّل خطّ الدفاع الأول الذي يدرأ مخاطر التدخّل الأميركي المباشر. وتشعر إسرائيل بأن هذا التعريف ينطبق عليها»[2].

منذ ذلك الحين، دعمت العقائد الرئاسية الأميركية عمومًا إسرائيل وإيران والسعودية لاحقًا على حساب العالم العربي، ووسّعت حدودها الجغرافية والاستراتيجية - الاقتصادية. إلّا أن هناك اعتبارَيْن استراتيجيَيْن عجّلا حرصها على بناء علاقة تبعية جديدة مع إسرائيل: أوّلًا، تمتّع إسرائيل بالتفوّق العسكري

(2) *New York Times*, 12/6/1966.

على جميـــع جيرانها قبل عام 1967، وثانيًا، اســـتغلال ما تتيحه قوّة إســـرائيل لعرقلة نفوذ الاتحاد الســـوفياتي في الشرق الأوســـط عن طريق تدمير جيوش حلفائه وعملائه وتجهيزاتهم السوفياتية[3].

فـــي أعقاب حـــرب 1967، أُعجب الرئيس جونســـون بنجاح إســـرائيل في إنزال هزيمة في عميلَيْن ســـوفياتيين - ســـورية ومصر - في غضون ســـتّة أيام فقط، مســـتخدمة أســـلحة أميركية وغير أميركية. بعد تلك الحرب، منحت واشنطن إسرائيل دعمًا سياسيًا واقتصاديًا وعســـكريًا غير مسبوق، وباتت ترى العالم العربي من منظور إسرائيل والصراع العربي - الإسرائيلي. وغدا واضحًا أيضًا أن سياســـتها تجاه العالم العربي ستكون رهينة حسابات واشنطن للحرب الباردة.

لم يبدِ الرئيس الأميركي نيكسون اهتمامًا خاصًّا بالعلاقات الاستراتيجية بإســـرائيل. لا بل إنه، وفقًا لمستشـــار الأمـــن القومي هنري كيســـنجر، رأى في نصر عام 1967 كســـبًا للســـوفيات الذين «أصبحـــوا أصدقاء العرب في حين تحوّلت الولايـــات المتحدة إلى عدوٍّ لهم». وفـــي خطابٍ ألقاه في 27 كانون الثاني/ يناير 1969، شـــبّه نيكســـون الشرق الأوســـط بـ«برميل بارود شـــديد الانفجار» لأنه كان يعتقد «أن الانفجار القادم في الشرق الأوسط قد يتضمّن مواجهة بين القوى النووية». لكن إذا قُدّر لذلك أن يحدث، كان على الولايات المتحدة الأميركية أن تســـتعدّ لمواجهة أي تحدّيات استراتيجية قد تبرز في المنطقة. ولم يدعم كيسنجر، ولا نيكسون لاحقًا، خطّة وليام روجرز الدبلوماســـية من أجل حلّ الصراع العربي - الإســـرائيلي على أســـاس قرار الأمم المتحدة 242، علمًا أن روجـــرز كان وزير خارجية الولايات المتحدة وقتذاك. وأسرّا للقادة الإســـرائيليين ألّا يلقوا بالًا لتلك الخطّة حتى لو وافق عليها عبد الناصر[4].

(3) Stephen Green, *Taking Sides: America's Secret Relations with a Militant Israel* (New York: W. Morrow, 1984), pp. 168-169 and 174.

(4) Henry Kissinger, *White House Years* (Boston: Little Brown, 1979), p. 564, and *Department of State Bulletin* (17 February 1969), pp. 142-143.

ثالثًا: النفوذ الإقليمي

ضمنت واشنطن التفوّق العسكري لإسـرائيل وإيران، وتبنّتْهما «شرطيين إقليميّيْن» أو «نفوذين إقليميين» بغية إضعـاف النظام القومي العربي والتحالف السـوفياتي العربي. ويُعرف ذلك التوجّـه أيضًا بعقيدة نيكسـون التي حَدّدتْ على مدى عقد مـن الزمن (1969-1979) سياسـة الولايـات المتحدة في الشـرق الأوسـط. ووُضعت عقيدة نيكسـون في عـام 1969 نتيجـة تنامي المعارضة الداخلية في الولايات المتحدة بسـبب تدخّلها العسكري في فيتنام، بهدف الحدّ من تدخّل الولايات المتحدة المباشـر في الخارج، من خلال بناء تحالفات إقليمية تتولّـى الدفاع عن المصالح الأميركية الحيوية في جميع أنحاء العالم. وفي الشرق الأوسـط، أدّت هذه العقيدة إلى تفويض دولتين - إسرائيل وإيران - للدفاع عن مصالـح الولايات المتحدة في المنطقـة. أمّا دور إيران، الشـرطي الإقليمي في منطقة الخليج، فتقرّر حين أعلنت بريطانيا نيتها الخروج منها في مطلع السبعينيات، في حين تعزّز الدور المماثل لإسرائيل عندما تعاون الإسـرائيليون لإنقاذ عرش الملك حسـين إبان أزمة عام 1970 حين أوشك مقاتلو منظّمة التحرير الفلسطينية المدعومون من سورية أن يطيحوه[5].

تجاهلت الولايات المتحدة اقتراحات الرئيس المصري أنور السادات في عام 1971 بشأن سلام يقوم على تنفيذ قرار مجلس الأمن 242، وأصرّت على ألّا تقدّم إسرائيل أي ردٍّ إيجابي ما لم تخرج مصر من الفلك السوفياتي. صحيح أن عقيدة نيكسـون - كيسـنجر التي ارتبطـت بفيتنام بصورة رئيسـة، حدّدت اسـتراتيجية «الفتنمة» - أي جعل فيتنام الجنوبية تتولّى مهمّة الحرب مع فيتنام الشـمالية بدلًا من الولايات المتحدة - في تسليح وكلائها الإقليميين ودعمهم بغية تنفيذ سياسـتها وصون مصالحها وشـنّ حروبها، حجرَ الزاوية في سياسة الولايـات المتحدة تجاه المنطقة العربية؛ إذ ادّعى كيسـنجر أن نيكسـون أراد

---

(5) Steven L. Spiegel, *The Other Arab-Israeli Conflict: Making America's Middle East Policy, From Truman to Reagan*, Middle Eastern studies; monograph 1 (Chicago: University of Chicago Press, 1985), pp. 196-203.

تعزيز قوة إسرائيل فحسب «لأنه لم يرغب في أن تضطرّ الولايات المتحدة إلى خوض معارك إسرائيل». وقال كيسنجر إنه عندما أصبح السوفيات أكثر تورّطًا (في «حرب الاستنزاف» المصرية): «كان علينا مواجهة السوفيات والمتطرّفين العرب، وإلّا بدت التنازلات الإسرائيلية أنها نتيجة تدخّل القوات السوفياتية»(6).

يعبّر الردع الإسرائيلي للتدخّل السوري أو للانتصار الفلسطيني في أزمة 1970 في الأردن «عن نموذج للخدمات الاستراتيجية التي يمكن [إسرائيل] تقديمها إلى الولايات المتحدة»، وكان ذلك بمنزلة الدليل الحاسم على قدرة إسرائيل على أداء الدور الإقليمي الذي تطلبه منها الولايات المتحدة. وحاول كيسنجر التخفيف من الأذى المحتمل الناجم عن الأعمال الإسرائيلية، إلّا أنه بدلًا من ذلك، عبّر عن إيمانه بالأهمية الاستراتيجية لإسرائيل من خلال رفعه التوصيات التالية: «ضمان الردع الإسرائيلي، وتزويدها الأسلحة على المدى الطويل، والتعهّد بعدم إجبارها على الخضوع لتسوية لا ترتضيها، وجعل مساعي روجرز المتواصلة ‹عقيمة›، وتقليصها لتقتصر على ترتيبات جزئية»(7).

نجم عن تورّط إسرائيل كوكيل للولايات المتحدة في حرب 1973 آثار مأساوية؛ إذ اقتنع كيسنجر في 9 تشرين الأول/ أكتوبر أن «إسرائيل تعرّضت لهزيمة استراتيجية بغضّ النظر عمّا ستؤول إليه الحوادث»، فباتت أكثر اعتمادًا على حماية واشنطن وعلى مساعدتها المباشرة أكثر من أي وقت مضى، من أجل القيام بالمهمّات التي توكلها إليها الولايات المتحدة. فهزيمة إسرائيل الاستراتيجية تعني هزيمة الولايات المتحدة. ودعا كيسنجر الولايات المتحدة الأميركية وقتئذ إلى «إعادة تقويم جوهرية للاستراتيجيا»، مشيرًا إلى أن «هزيمة إسرائيل بوساطة الأسلحة السوفياتية ستكون بمنزلة كارثة جيوسياسية للولايات المتحدة»(8).

---

(6) Kissinger, *White House Years*, pp. 371 and 570-571.

(7) Camille Mansour, *Beyond Alliance: Israel in U.S. Foreign Policy*, translated from the French by James A. Cohen, The Institute for Palestine Studies Series (New York: Columbia University Press, 1994), pp. 99 and 104-105.

(8) Henry Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston: Little, Brown, 1982), pp. 493-494.

اتّخذت الحكومة الأميركية في أثناء حرب 1973 جميع إجراءات التأهّب النووي الضرورية من أجل دعم إسـرائيل، فزوّدتها بكمّيات كبيرة من الأسلحة الجديدة من خلال جسـر جوّي طارئ ربطها بالولايـات المتحدة، وقت كان القتال دائرًا، وكانت مصر تتقدّم في الجنوب، بينما انشـغلت وحدات كبيرة من القوات الإسرائيلية على الجبهة السورية. تحرّكت إدارة نيكسون - كيسنجر في الأيام الأخيرة للحرب لوضع القوات الأميركية، ولا سيما الفرقة 82 المحمولة جوًّا، في حالة تأهّب، وأرسـلت حاملات طائراتها إلى شرق البحر المتوسط، ما أرعب السـوفيات حتى ظنوا أن القيادة الأميركية أصابهـا مسٌّ من الجنون. لا شـكّ في أن تلك التدابير عبّرت عن التزام أميركا العميق ضمان عدم هزيمة إسرائيل، وإن كان هناك من يعزو ذلك إلى حسابات داخلية لدى نيكسون تتعلّق بأزمة ووترغيت، إلّا أنها في الواقع عزّزت موقع إسـرائيل مقارنةً بوضعها قبل نشوب الحرب؛ إذ بات من المستحيل على العرب إعلان انتصارهم، وضمنت الولايات المتحدة حاجتهم إلى البقاء تحت رحمة الدبلوماسـية الأميركية بعد الحرب[9].

بدت سياسـة «الخطوة خطوة» التي دشّنها كيسـنجر بين إسرائيل ومصر جذّابـة، لأنها، وفقًا لكميل منصـور في كتابه أكثر من تحالـف، «أتاحت إبقاء العرب في موقع التوسّل لأطول فترة ممكنة أمام الولايات المتحدة التي تملك مفتاح التسوية، وأجبرت العرب على دفع أغلى ثمن ممكن لواشنطن في مقابل استعادة مساحات صغيرة من الأراضي، وسمحت لإسـرائيل باستعادة عافيتها تدريجيًا نتيجة صدمة الحـرب، وأتاحت لها تقديرًا دقيقًا للنتائج المحتملة لكلّ خطوة من ‹خطوات› كيسنجر، لتسـتطيع القيام بردٍّ أفضل على الخطوة التالية». وأصبح جليًا منذ منتصف السبعينيات أن حسـابات استراتيجية أساسية تتجاوز الصراع العربي - الإسرائيلي تكمن وراء سياسـة واشنطن ومساعي وساطتها، ولا تتعلّق بالسلام بمقدار ما تتعلّق بالمصالح[10].

---

(9) Janice Gross Stein, «Flawed Strategies and Missed Signals: Crisis Bargaining between the Superpowers, October 1973,» in: David W. Lesch, ed., *The Middle East and The United States: A Historical and Political Reassessment*, 2nd ed. (Boulder, Colo: Westview Press, 1999), pp. 213-216.

(10) Mansour, p. 116.

عزّزت الولايات المتحدة شبكة وكلائها من خلال دعم عملائها العرب غير الديمقراطيين وتسليحهم، في مقابل تأمين خدمات استراتيجية وأمنية واستخباراتية ودبلوماسية واقتصادية. عُرفت تلك الأنظمة بالأنظمة «المعتدلة»، بغضّ النظر عن نظام حكمها الاستبدادي وانتهاكاتها حقوق الإنسان والحقوق السياسية. لكن النفعية بقيت عاملًا ثابتًا في السياسة الخارجية للولايات المتحدة، لأن «الأنظمة الاستبدادية تشكّل محطّة جامعة تقدّم جميع الحاجات، وهو ما يسهّل كثيرًا التعامل معها مقارنةً بالمجالس النيابية ووسائل الإعلام غير القابلة للضبط»[11]. وكان يعدّ إرهابيًا كلٌّ من رفض اقتراحات الولايات المتحدة أو مبادراتها، فهوجم أو قوطع أو أُبعد، بغضّ النظر عن العقيدة أو القاعدة الشعبية. وتبدّلت قائمة المعتدلين والمتطرّفين من حين إلى آخر، بناءً على «إصلاحات» في سياستهم الخارجية، فعُدّت مصر، على سبيل المثال، عدوًّا، بدءًا من الخمسينيات حتى السبعينيات، غير أنها سرعان ما تحوّلت إلى عميل بعد فترة وجيزة من توقيع اتفاقات كامب ديفيد في عام 1979.

رابعًا: منظور الحرب الباردة: دول معتدلة وأخرى متطرّفة

بيّنت جين كيركباتريك – مستشارة الرئيس الأميركي ريغان والسفيرة لدى الأمم المتحدة في ما بعد – أن واشنطن قسّمت العالم العربي في الثمانينيات إلى نوعين من الأنظمة: الأنظمة «الشمولية» والأنظمة الاستبدادية. وأقامت إدارة ريغان علاقات وثيقة بالأنظمة الاستبدادية بغية القضاء على الأنظمة الشمولية.

ارتقت الولايات المتحدة بمكانة إسرائيل، لتغدق عليها قيمة استراتيجية على الرغم من – أو ربّما بسبب – اعتداءاتها المتكرّرة الأحادية الجانب في المنطقة، ومن ذلك قصف المواقع النووية العراقية (1981) واجتياح لبنان (1982) والقمع الرهيب في الأراضي الفلسطينية المحتلّة. وأوضح بول وولفويتز، أحد أقطاب مثقّفي المحافظين الجدد في إدارة الرئيس ريغان، ذلك

(11) James Traub, «The Myth of the Useful Dictator,» *Foreign Policy*, 18 March 2011, <http://www.foreignpolicy.com/articles/2011/03/18>.

حين قال: «لقد استمعت في الأشهر القليلة الماضية إلى هراءٍ كثير يفيد أن هذه الأزمة بيّنت انتفاء حاجتنا إلى التعاون الاستراتيجي مع إسرائيل بانتهاء الحرب الباردة وزوال الاتحاد السوفياتي كتهديد رئيس. فقد اندلعت أزمات إقليمية عدّة في الماضي، ولم يؤدّ فيها الاتحاد السوفياتي أي دور، بينما اضطلعت إسرائيل بدور حاسم في حفظ الاستقرار، وقد تندلع أزمات مشابهة في المستقبل»[12].

أتاحت نهاية الحرب الباردة لواشنطن فرض «سلام أميركي» جديد في المنطقة، فتحرّكت بسرعة لتنشر نحو نصف مليون جندي في منطقة الخليج، وطردت القوات العراقية من الكويت بعد اجتياحها له في عام 1990. ووجد العالم العربي نفسه مرّة أخرى منقسمًا بين العراق والكويت، وانقسمت آراء الدول الأعضاء في الجامعة العربية بشأن قرار المشاركة في العمليات العسكرية في العراق، وتساوى عدد الدول الموافقة وعدد الدول المتحفّظة. وأبرزت الحرب دور الولايات المتحدة بوصفها الشرطي الوحيد في العالم، كما بيّنت بوضوح قدرتها على توجيه صفعة قوية إلى الوحدة والنظام العربيين.

بعد فترة وجيزة، تغيّر تصنيف الأنظمة العربية من دول استبدادية معتدلة وأخرى شمولية متطرّفة، ليراوح في التسعينيات بين دول مؤيدة وأخرى معارضة لـ «عملية السلام» التي ترعاها الولايات المتحدة، وهي مبادرة إقليمية تحوّلت إلى نظام الأمر الواقع للشرق الأوسط في الفترة التي تلت الحرب الباردة. إلّا أن الفشل المتوقّع للولايات المتحدة في إنشاء «شرق أوسط جديد» على مقاس رغباتها ومحسوب على إسرائيل، جعل من عملية السلام الأميركي الدائم موضوعًا خلافيًا؛ إذ حافظت واشنطن على المظهر الخارجي لعملية السلام بالتوازي - ورأت مع إسرائيل في كلّ خطوة عربية مستقلّة تبديدًا لمساعيهما «السلمية». لكن بعد مرور سبع سنوات، وبعد توقيع سبعة اتفاقات موقّتة، غدا واضحًا أن هذا السلام الدبلوماسي كان غير كافٍ لتحقيق السلام، لكنه ملائم

(12) Karen L. Puschel, *US-Israeli Strategic Cooperation in the Post-Cold War Era: An American Perspective*, JCSS Study; no. 20 (Jerusalem: Jerusalem Post; Boulder, Colo: Westview Press, 1992), p. 105.

تمامًا لعملية أدّت إلى شــلّ عملية السلام بعد فشــل قمّة كامب ديفيد في عام 2000 واندلاع الانتفاضة الثانية بعد فترة وجيزة.

في غضــون ذلك، مهّــد انهيار الشــيوعية وهزيمة - أو فشــل - التمثيل السياسي للقومية العربية العلمانية، الطريقَ لصعود الإسلام السياسي في العالم العربي. وتبنّى هذا الإسلام السياسي العديدَ من البرامج القومية العلمانية العربية الشعبية والشــعبوية، ولا ســيما مناهضة الإمبريالية ومعاداة الاحتلال والهيمنة الإســرائيلية في المنطقة. وأفســحت هزيمة المشــروع الناصري بدءًا من عام 1967 المجال للإخوان المســلمين، تمامًا كما مهّد الإذلال الذي تعرّضتْ له حركة «فتح» الطريــق لحركة «حماس»، مثلما ســمح تراجــع الجبهة الوطنية اللبنانية بصعود «حزب الله».

اتّسمت حقبة التســعينيات برعاية إدارة كلينتون لـ«عملية السلام». وعلى الرغم مــن الضجّة المثارة بشــأن آفاق تحوّل المنطقة وعرض ملامح «شــرق أوســط جديد»، فإن العملية فشــلت في تحقيق الســلام. وبفضل رعاية الأمم المتحــدة للمنتدى الإقليمــي، حافظت فكرة عملية الســلام على زخمها حتى في فترات توقّف المفاوضات. أمّا المهزلــة فكمنت في تصنيف مؤيدي عملية السلام الأميركية معتدلين، وعُدّ رافضوها متطرّفين.

خامسًا: «أسرلة» السياسات الأميركية في الشرق الأوسط

بعد هجمات 11 أيلول/ سبتمبر 2001، كان على النظام العربي أن ينقسم مرّة أخرى إلى دول «معنا وأخرى ضدّنا» في «الحرب العالمية على الإرهاب» التي شنّتها الولايات المتحدة. وأوجز بوش عقيدته في خطاب شهير له ادّعى فيه أن الحرّية في أميركا منوطة بقضية الحرّية في الخارج. وقُيض للعقيدة الجديدة أن تطبّق في حربين أساسيتين تميزتا بانتشار عسكري أميركي واسع في المنطقة بلغ ذروة جديدة في عــام 2003. وأدّى تطبيق «برنامج الديمقراطية» على ظهر الدبّابات وحاملات الطائرات إلى تدمير العراق وتمزيق نســيجه الوطني وإذكاء الكراهية وتفاقم المشــاعر المعادية لأميركا في نهاية المطاف. وأدّى في الوقت

نفســـه إلى إضعاف التيار العلماني والليبرالي في المنطقة، والتســبّب بوفاة مئة ألف عراقي على الأقل.

حاولت إدارة بــوش أيضًا أن تفرض على وكلائها فــي المنطقة انتخابات ارتأت أنها قد تؤدّي إلى مزيد من الانفتاح السياسي أو «الحرّية» في بلاد العرب والمسلمين، كما لو أن إجراء الانتخابات فحسب يُتوَّج بالديمقراطية. واستندت الولايات المتحدة إلى مصر لإجراء انتخابات أكثر انفتاحًا، وطلبتْ من إسرائيل أن تسمح لـ «حماس» بخوض الانتخابات الفلسطينية في الأراضي المحتلّة. إلّا أن الأمور ســارت في اتّجاه معاكس، إذ زُوّرتْ الانتخابات المصرية 2005-2006، وانتهى المطاف بسجن أغلبية أعضاء المجلس التشريعي الذين ينتمون إلى حركة «حماس» التي أُطيحت حكومتهــا بالتواطؤ مع إدارة بوش. وبطريقة مماثلة، حثّ بــوش المملكة العربية الســعودية على إجــراء انتخابات، إلّا أن الانتخابات التي أُجريــت كانت بلدية لا علاقة لها بالسياســة أبــدًا. واهتزّت صدقية بوش في شأن الديمقراطية لدى إشادته بضيفه الرئيس زين العابدين بن علي في أثناء زيارته البيت الأبيض في عام 2004، إذ رأى فيه حليفًا في الحرب على الإرهاب، وأثنى على الإصلاحات التي قامت بها تونس والمتعلّقة «بحرّية الصحافة»، كما مدح عملية إجراء «انتخابات حرّة وتنافسية» في تونس.

تبــدّت ازدواجية القادة العــرب في تقديمهــم الــولاء وتوفيرهم الدعم الضمني والصريح لسياســات بوش في العراق وأفغانستان وفلسطين في سياق «حربه العالمية على الإرهاب»، في مقابل تخلّي الولايات المتحدة عن الضغط عليهم من أجل التحوّل إلى النظام الديمقراطي. وأدّى فشــل «برنامج الحرّية» الذي يسعى إلى تحقيق الحرّية بوســاطة الحرب، إلى تعزيز النظام الاستبدادي في المنطقة بسبب اســتغلاله التفويض المطلق الذي منحته إياه حرب الولايات المتحدة لقمع المعارضة السياســية الداخلية. وتســبّبت استراتيجية إدارة بوش التي تلت 11 أيلول/ ســبتمبر، والمتمثّلة في «نقل الحــرب إلى أرض العدو»، بإغراق المنطقة في حمّام دم راعب أو، وفقًا لمصطلحات «المحافظين الجدد»، «فوضى خلّاقة»، كان الديمقراطيون الليبراليون والعلمانيون أول ضحاياها.

تولّت إســرائيل، من جانبها، متذرّعةً بمكافحة الإرهــاب، زمامَ المبادرة لتصبح بطلــة الحملة الصليبية ضدّ ما يُعرف في الغرب بالأصولية الإســلامية. وبطبيعة الحال، يغدو كلّ شــيء منطقيًا عندما يؤخذ في الحســبان إيمان بوش الصادق بأن شــارون كان «رجل ســلام». قــد تكون إدارة بــوش تطرّقت إلى التحوّل إلــى النظام الديمقراطي، لكــن الولايات المتحــدة دعمت في الواقع المستبدّين من الحكام العرب تحت ذريعة «الأمن القومي».

في حلول نهايــة أعوام حربــه الثمانية، عمّــق بــوش وأركان إدارته من المحافظين الجدد[13] الانقســامات الإقليمية في إطار اســتراتيجية الأمر الواقع التي عرّفتها وزيرة الخارجية كوندوليزا رايــس بـ«الفوضى الخلّاقة»، وأنذرتْ بمزيد من التشــظّي فــي العالم العربي، لا على المســتوى الإقليمي فحســب بل على المســتوى الوطني الداخلي أيضًــا، بدءًا بالعراق وانتهاءً بما شــهدناه مؤخّرًا في السودان وفلســطين ولبنان والصومال. وخلال هذه الفترة، أطاحت

---

(13) من اللافت أن بعض الخبراء والمثقفين قدّر «برنامج الديمقراطية» الخاص بالرئيس جورج دبليو بوش، وهو البرنامج الذي ادّعى أنصاره أنه هو من زرع بذور التغيير عندما جعل قضية الديمقراطية في الشــرق الأوســط إحدى أولويات الأمن القومي الأميركي، وتعهّد أن تبذل الولايات المتحدة كلّ ما يلزم من أجل قضية الحرّية. وكتب إليوت أبرامز، مســاعد بوش السابق لشؤون الأمن القومي في الشرق الأوســط، في صحيفة واشنطن بوســت الأميركية: «إن الثورة في تونس وموجة التظاهرات العملاقة في مصر والمسيرات الأخيرة في اليمن تثبت بوضوح أن بوش كان محقًّا». فكتب صاحب العمود الصحافي تشــارلز كراوثمر الذي ينتمي إلى مجموعــة المحافظين الجدد: «اليوم، يدعم الجميع من دون اســتثناء 'برنامج الحرّية'. بالطبع، لم يدعمها بالأمس سوى جورج بوش وتوني بلير وعصبة من المحافظين الجدد الذين يملكون طاقة اســتثنائية خلّاقة، إذ تحدّوا المفهوم الســائد عن الوضع الاستثنائي للعرب»، انظر: Charles Krauthammer, «From Freedom Agenda to Freedom Doctrine,» *Washington Post*, 10/2/2011, <http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2011/02/10/AR2011021005339.html>.

وعقّب على الموضوع نفسه مجموعة معلّقين أمثال فريد زكريا من شبكة CNN، الذي قال: «لكن لا بدّ من إعطاء الرئيس جورج دبليو بوش حقّه. فقد لمس المشكلة، وآمن أنّ العرب ليسوا عاجزين وراثيًا عن تحقيق الديمقراطية. وقد دعم القضية الكبرى للإصلاح العربي بوســاطة القيم الأخلاقية الأميركية»، انظــر: Fareed Zakaria, «Interview with Henry Kissinger; Interview with Zbigniew Brzezinski,» CNN, 23/1/2011, <http://www.cnnstudentnews.cnn.com/TRANSCRIPTS/1101/23/fzgps.01.html>.

بدورها ردّدت مجلة الإيكونوميســت البريطانية الفكرة أعلاه فــي مقالة بعنوان «هل جورج بوش على حقّ؟ مع اندلاع انتفاضة مصر، بدا فجأةً «البرنامج العربي للحرية» أكثر حكمةً قليلًا»: «Was George Bush right? As Egypt Erupts, His Arab «Freedom Agenda» is Suddenly Looking a Little Cleverer,» *The Economist* (3 February 2011).

واشـــنطن أنظمة، وأقامت تحالفات مع أســـوأ منتهكي حقوق الإنســـان بهدف زعزعة الاستقرار، واحتكرت العملية السياسية الإقليمية، وتدخّلت في الشؤون الداخلية للدول التي تنعم بالسيادة، واجتاحت دولًا معادية.

سادسًا: أوباما: التغيير الموعود

منذ مطلع عهد أوبامـــا، بات التناقض جليًا بين الخطاب والاســـتراتيجيا، فالتزامه الانســـحاب من الشـــرق الأوســـط الكبير تعرّض لاختباره الأوّل في أفغانستان؛ إذ بعد طول تمعّنٍ وتردّد، وسّع البيت الأبيض الاستراتيجيا الأفغانية لتشمل أفغانســـتان وباكســـتان، وصعّد الحرب من خلال الزجّ بقوات من 50 ألف جندي ألحقهم باســـتراتيجية عسكرية أكثر عدوانية، لمكافحة التمرّد بقيادة الجنرال ديفيد بترايوس، وشـــملت انتشارًا واسعًا للقوات، إضافةً إلى حزمة من الحوافز والتهديدات لمن رفض التعاون مـــع الاحتلال الأميركي. وأطلق أيضًا حملة جديـــدة للطائرات من دون طيار - وهي غيـــر قانونية في رأي الأغلبية - غطّت جميع أنحاء المناطق الممتدّة من أفغانســـتان وصـــولًا إلى اليمن، مرورًا بالصومال.

تحدّث الرئيس أوباما في الشرق الأوسط عن علاقة تقوم على «المصالح المشـــتركة والاحترام المتبادل»، ولا سيما مع إيران، بيد أنه بحلول عام 2010 شـــرع في توجيه الإنذارات إلى طهران. ودعا أيضًا إلـــى تبنّي نهج أكثر واقعية وأقـــلّ تدخّلًا في المنطقة، وأوضـــح أن الولايات المتحـــدة لن تحاول فرض التغييـــر على الأصدقاء والأعداء على حدٍّ ســـواء، ولن تســـعى إلى ممارســـة التأثير السياسي عليهم بالقوّة. ولكنّه التزم توســـيع العمليات السرّية الأميركية في الشـــرق الأوســـط (كما كشـــفت صحيفة **نيويـــورك تايمز** فـــي أيار/ مايو 2010). وناشد رئيس الوزراء الإســـرائيلي الصلف بنيامين نتنياهو تجميد بناء المســـتوطنات اليهودية ثمّ أنّبه لاحقًا، لكنه اســـتمرّ في توفير الدعم لإسرائيل بطرائق مختلفة، ما جعله في الواقع أحد أصدقاء إســـرائيل الأكثر إخلاصًا في التاريخ الحديث.

1 - البراغماتية الجديدة

تبنّت إدارة أوباما سياسات براغماتية تجاه المستبدين من الحكّام العرب، بهدف تحقيق مزيد من التعاون الإقليمي. ورأت في زيارة أوباما إلى مصر قبل 18 شهرًا من اندلاع الثورة، تأييدًا للرئيس حسني مبارك، الدكتاتور المريض البالغ من العمر 81 عامًا، الذي وصفه أحد المدوّنين المصريين بأنه «يحكم بالأحكام العرفية والشرطة السرّية وغرف التعذيب. ولا تستطيع أي كلمة قد يتفوّه بها الأستاذ أوباما تغيير النظرة السائدة أن الأميركيين يدعمون دكتاتورًا بتوفيرهم مساعدات سنوية له تتجاوز المليار دولار»(14).

أمِل الرئيس البراغماتي خلال جولته الأولى في المنطقة بتحسين العلاقات بالمستبدّين من العرب من دون فرض أي مطالب أو شروط في مجالَي حقوق الإنسان والديمقراطية. فقد زار الرياض قبل القاهرة، ووصف مبارك بأنه «حليف قوي الشكيمة»، وأشاد بـ «حكمة العاهل السعودي وحفاوته اللطيفة». ولم تخفَ دلالة ذلك الثناء عن العالم العربي. وفي الواقع، قرّرت إدارة أوباما تقليص الميزانيات المخصّصة للمنظّمات غير الحكومية في العالم العربي، التي سبقت دعم الديمقراطية في المنطقة. وتزامن انفتاح أوباما على العالم العربي وتوسيع نطاق الحرب في أفغانستان لتصل إلى باكستان، وتكثيف الهجمات بوساطة الطائرات من دون طيار في بلدان مثل اليمن، وفشله في الوقت نفسه في الضّغط على إسرائيل لتجميد زحفها الاستيطاني على الأراضي الفلسطينية المحتلّة. وبحلول الربيع العربي، وصلت شعبية أوباما إلى أدنى مستوياتها بين الجماهير العربية التي سبق أن رأت فيه رجل دولة واعدًا. وعند اندلاع الثورات العربية، بذلت إدارته جهدًا بائسًا كي تظهر مظهر الداعم للجماهير العربية من خلال تسريبها إلى وسائل الإعلام، وبصورة انتقائية، تقارير تفيد بوجود مخطّط أوّلي للتحوّل إلى النظام الديمقراطي في العالم العربي.

(14) Hossam El-Hamalawy, «Right Time, Wrong Place,» *New York Times*, 2/6/2009, <http://www.nytimes.com/2009/06/03/opinion/03alHamalawy.html>.

2- الردّ الأميركي على الثورات العربية

اضطـرّت إدارة أوباما، نتيجة التطورات المأسـاوية في تونس ومصر، إلى إعادة النظر في سياسـاتها وتحالفاتها في المنطقة. فما إن تجاوز البيت الأبيض الصدمة الأولـى والغموض والالتباس، حتى سـعى إلى التمسّـك بشـركائه المستبدّين من خلال الدعوة إلى الإصلاح والانتقال السلمي. وحين افتتن العالم بـ«الثورة» التونسـية التي أطاحـت نظام بن علي التسـلطي، أبقت الحكومات الغربية على لامبالاتها الواضحة، أو أصيبت بالإرباك في أحسن الأحوال.

عندما اجتـاح التغيير مصر، تكرّرت المماطلة نفسـها. وشـكّل موقف الإدارة الأميركية هذا تناقضًا مأسـاويًا جليًا مع موقفهـا الداعم لـ«الانتفاضة» الإيرانية قبل عامين، إذ كان فوريًا وحماسيًا! وعبّرت ملاحظة وزيرة الخارجية هيلاري كلينتون في شـأن عدم انحياز الولايات المتحـدة خلال المواجهات التي عمّت إيران، عن النفاق الغربي المعتاد، مقارنةً بتصريحاتها المتعاطفة مع التظاهرات في إيران عقب الانتخابات التشريعية في عام 2009. فعلى المثال، أعلن أوباما قائلًا: «بالنسـبة إلي، من الخطأ التزام الصمت»[15] تجاه القمع في إيران. صحيح أن ذلك لا يعني أنه اتّخذ موقفًـا من الانتخابات الإيرانية، وأنه كان في استطاعته أن يعبّر بصراحة أكبر، إلّا أن واشنطن كانت متحمّسة للثورة الخضـراء؛ إذ رأت فيها حركة مواليـة للغرب. ولم تبـدأ الولايات المتحدة، ومعها زعماء غربيون آخرون، اتّخاذ مواقف أكثر وضوحًا والإدلاء بتصريحات متماسكة لمصلحة انتقال سلمي منظّم للسلطة، إلّا بعد أن تأكّدوا أن حلفاءهم آيلون إلى السقوط.

غير أنه سـرعان ما ارتبكت الولايـات المتحدة حين اتّضـح لها أن هذه الانتفاضات هي ثورات تبشّـر بقطيعـة تامّة مع الماضـي؛ ورأت فيها مخاطر متعدّدة ولم تلحظ فيها فرصًا يجب اسـتثمارها والدفاع عنها ورعايتها. وتلعثم

(15) «President Obama on Protests in Iran: 'It would be Wrong for me to be Silent',» ABC News, 15/6/2009, <http://abcnews.go.com/blogs/politics/2009/06/president-obama-on-protests-in-iran-it-would-be-wrong-for-me-to-be-silent/>.

الرئيـــس أوباما قائلًا: «لدى الولايات المتحدة شـــراكة وثيقـــة مع مصر. وكان الرئيس مبارك متعاونًا جدًّا. نحن نتعاون في عدد من القضايا، ويضطلع أولئك المنتشرون في الشوارع بمســـؤولية الاحتجاج ســـلميًا». وأكّد نائبه جو بايدن: «مبارك ليس دكتاتـــورًا»[16]، في حين علّق الســـكرتير الصحافي للبيت الأبيض روبرت غيبس: «نحن لســـنا بصدد الاختيار بين من هم في الشـــوارع ومن هم في الحكومة»، وكأنه يســـاوي أخلاقيًـــا بين الطغاة والمحكوميـــن[17]. وعندما اســـتوعبت الحكومة الأميركية أخيرًا كنْه الانتفاضات التي كانت تجتاح الدول العربية، قـــرّرت إدارة أوباما اتّخاذ موقف انتقائي يقضـــي بدعم التغيير في ليبيا وسورية، والتزام الصمت تجاه البحرين واليمن.

3 - الموقف في ضوء النتائج

عندما فهمـــت إدارة أوباما أخيرًا خطـــورة التغيير الذي يجتـــاح المنطقة وأدركت نطاقه، بدءًا بتونس وصولًا إلى اليمن، مـــرورًا بمصر والبحرين وليبيا وســـورية، بدأت تؤكّد خطاب التغيير الديمقراطي اســـتجابةً لمـــا بات يُعرف بـ«الربيع العربي»، وتحدّثت بصورة إيجابية وحماســـية عن دعم الديمقراطية، متخلّيةً بوضوح عن براغماتية مبكرة وتواطؤ أوّلي. إلّا أن دبلوماســـيتها العامة أربكت اســـتراتيجيتها الجديدة المحســـوبة والأكثر تعقيدًا، والمتباينة بحدّة بل المتناقضة مع خطابها؛ إذ حافظت إدارة أوباما على السلوك الإمبريالي الجوهري تجاه العـــرب، على الرغم مـــن الاختلاف الحـــادّ بين الاســـتراتيجيا الجديدة وسابقتها (في أثناء إدارة بوش) من ناحية مقاربتها ووسائلها ونطاقها. وسرعان ما أعادت توجيه اســـتراتيجيتها نحو الأســـس المبدئية القديمة الخاصة بمنطقة الشرق الأوسط من خلال تعزيز نظام المحسوبية لديها المتمحور حول العملاء الإقليميين، القدامـــى منهم والجدد، وهـــو ما يضاعف نفوذها الجيوسياســـي ومصالحها الاقتصادية في غرب آسيا وما وراءها لتبلغ الحدّ الأقصى. وسيكون

(16) «Biden: Mubarak is not a Dictator, But People have a Right to Protest,» PBS Newshour, 27/1/2011, <http://www.pbs.org/newshour/bb/politics/jan-june11/biden_01-27.html>.

(17) Brian Montopoli, «White House: We're not Taking Sides in Egypt,» CBS News, 31/1/2011, <http://www.cbsnews.com/8301-503544_162-20030108-503544.html>.

الحكم على نتائج الثورات تبعًا لموقفها من مصالح الولايات المتحدة، لا وفقًا للمستوى التمثيلي للعملية السياسية وديمقراطيتها.

4 - قاعدة «كلّ حالة على حدة»

قرّر الرئيس أوباما التعامـــل مع كلّ حالة على حـــدة، رافضًا التعامل مع الربيع العربـــي بمجملـــه، ودعمه وفق مقيـــاس واحد. فشـــكّلت مصر الثقل الأهمّ بين دول الربيع العربي، ولم تكن الولايات المتحدة لتســـمح للتغيير أن يمضي فيها من دون رقابة. وكان ثمّة خطر كبير بعد استثمار عشرات مليارات الدولارات في هذا البلد منذ توقيع اتفاقات كامب ديفيد في عام 1979. وتُعدّ مصر، إلى جانب السعودية، أحد أهمّ وكيلين عربيين نظرًا إلى حجمها ودورها الإقليمي.

بناءً عليه، ســـارعت واشنطن، بالشـــراكة مع الجيش المصري، إلى تأمين تغييرٍ بطـــيء ومدروس. وتزامن وجـــود كبار الضبّاط المصريين في واشـــنطن لحضور اجتماعات التنسيق نصف السنوية مع لحظة اندلاع الثورة، فبات جدول الأعمال واضحًا: ســـيطرة العســـكر على وتيرة التغيير في فترة مـــا بعد مبارك. وكيّفت إدارة أوباما دعمها للثورة في كلّ بلد وفقًا لمساندة تلك الثورة لأهداف واشـــنطن في المنطقة. فدعمت الرئيس اليمني الجديد (نائب الرئيس السابق) عبد ربه منصور هادي بعد أن أيد الحكومة الأميركية في الحرب غير الشـــرعية التي تشـــنّها على بلاده بطائرات من دون طيار، معربًا علنًا عن تأييده الولايات المتحدة التي تواصل انتهاكاتها للســـيادة اليمنية بذريعة محاربة تنظيم القاعدة. وفي المقابل، تلقّى هادي تأييدًا مباشرًا من الرئيس أوباما في مناسبات عدّة. أمّا بالنسبة إلى التحالف مع مصر، فشدّد الرئيس الأميركي على أن التحالف يتوقّف على أداء قادتهـــا المنتخبين حديثـــا. وأوضح أنه لن يعدّ الإخوان المســـلمين حلفاء له ما لم يحدّدوا موقفهم. وقدّم الاعتداء الإسرائيلي على غزة في تشرين الثاني/ نوفمبر 2012 فرصـــةً للرئيس المصري الجديد كي يظهر صدقيته؛ فبعد إدانة مقتضبة ومماطلة، مضى مرسي في وساطة ناجحة لوقف إطلاق النار بين

إسرائيل و«حماس» بعد مشاورات وثيقة مع واشنطن وتنسيق مباشر مع الرئيس أوباما.

دعمت واشـــنطن أيضًا قادة ليبيا ما بعد القذافي عندما فتحوا سوق الطاقة وإعادة الإعمار، وتبنّـوا مواقف «صديقة» تجـاه الولايات المتحـدة إقليميًا. وتقرّبت إدارة أوبامـا أيضًا من النظام الجزائري لكسـب دعمه في حربها ضد ما تعدّه مجموعة تابعة للقاعدة في مالي؛ واسـتمرّت في دعم الملكية الأردنية المتعاونة معها في مواجهة الانتفاضة الشعبية على حكومتها.

سابعًا: استرجاع ربيع الناتو: الولايات المتحدة تحاول تطهير خطاياها في العراق

رأت الولايات المتحدة وحلفاؤها الأوروبيون في ليبيا فرصة سانحة، بعد أن أتـت ردّة فعلها على ثورتَي تونس ومصر بطيئـة، وافتضاح علاقاتها الوثيقة مع الطغاة العرب. ومثل وحش هائج، استمات نظام القذافي لوضع حدٍّ للثورة والحؤول دون نجاحها. فليبيا بلد غني نسـبيًا ومنتج للنفط ويقع على الحدود الجنوبيـة لأوروبا، بين مصر وتونس. وكانت شـروط تغييـر النظام قد أينعت فيه. ولـم يكن لديه التعقيدات الإقليمية التي يعيشـها اليمـن، ولم يكن يعاني الفقر كاليمن. باختصار، كان الموقع الأسهل بالنسبة إلى الناتو كي يشقّ طريقه داخل الربيـع العربي. ونجحت الدول الأعضاء في حلـف الناتو في الحصول على عقوبـات من مجلس الأمن الدولـي ضد نظام القذافي وفقًـا للقرار رقم 1970، ثمّ جاء القرار رقم 1973 الأكثر فاعلية، وصيغ بأسلوب فضفاض يتيح التحرّك العسكري مع استبعاد نشر القوات البرّية. وفي غضون ساعات، تدخّلت قوّات الناتو بذريعة حماية المدنيين مـن غضب القذافي «باتّخاذ كل الخطوات الضرورية» لذلك.

وكما هو متوقّع، هلّلت وسائل الإعلام الغربية (الليبرالية منها والمحافظة) لشـجاعة فرنسـا وبريطانيا، وللقيـادة الأميركيـة لحؤولها دون وقـوع «إبادة جماعيـة». ولم يُغـنَ كثيرًا أولئـك الذين روّجـوا للرئيس الفرنسـي نيكولا

ساركوزي ولرئيس الوزراء البريطاني ديفيد كاميرون وللرئيس الأميركي أوباما، بالتضحيات الجسيمة التي قدّمتها المقاومة الليبية. كان هذا هو الغرب «المستعد للقتال دفاعًا عن قيمه في وجـه البربرية»، وفقًا لصحيفة نيويورك تايمز، «الأمل الأكبر أن يكون القرن الحادي والعشـرون أقلّ وحشية من القرن العشرين»[18]. كان مدهشًا مدى قصور ذاكرة وسائل الإعلام، ومدى الاستسهال في الاستشهاد الانتقائي بالتاريخ.

سرعان ما تبين أن معظم الذرائع المعتمدة لشـنّ الحرب كانت إمّا مبالغًا فيها وإمّا مفتعلة لتبرير التدخّل العسـكري الغربي. واستند قرار الأمم المتحدة وقصف الناتو الذي تلاه إلى حالة طارئة مبالغ فيهـا لإنقاذ بنغازي من «الإبادة الجماعية» في أعقاب تهديد القذافي لها؛ إذ لطالما اتّسمت تصريحات القذافي بطابع تهديدي، وعندما اسـتولت قواته على مدن أخـرى، لم تُرتكب فيها مثل هـذه الفظائع. كان ثمّة تضليـل أيضًا بخصوص حـالات الاغتصاب الجمعي واستخدام المرتزقة الأفارقة. وجرى استغلال مبدأ «حقّ الحماية» المثير للجدل والمشاعر لتبرير التدخّل العسـكري الغربي بذرائع إنسانية. بدت ليبيا، بصورة متزايدة، وكأنها العراق، وكان من الصعب تجاهل الإحسـاس بأننا أمام مشهد سبق أن رأيناه[19].

لم تكن عسـكرة الربيع العربي في ليبيا بادرة خير لها أو لدول عربية أخرى كسورية واليمن؛ حيث شوّه استغلال الغرب للتصعيد في ليبيا الثورة العربية أيضًا، متزامنًا مع احتمال وقوع مزيد من أعمال التدخّـل الأجنبية المماثلة التي طالما رفضها العرب بسـبب انتقائيتها ودوافعها الأنانية. صحيـح أن التدخّل في ليبيا كان لمصلحة الشـعب، لكن ذلك لا ينطبق على التدخّل في كلٍّ من البحرين أو سورية. وشجّع هذا التدخّل حلف الناتو الذي استعاد نشاطه على تناول العملية الليبية كنموذج أوّلي لعمليات تالية في أفريقيا ومناطق أخرى من الجنوب.

(18) Roger Cohen, «Score One for Interventionism,» *New York Times*, 29/8/2011, <http://www.nytimes.com/2011/08/30/opinion/30iht-edcohen30.html>.

(19) انظر: Maximilian C. Forte, «A Victory for the Libyan People? The Top Ten Myths in the War against Libya,» *CounterPunch* (31 August 2011).

شهد تدخّل حلف الناتو منعطفًا غربيًا، إذ قد يبدو وكأنه مؤامرة، لكنه ليس كذلك؛ ففي أواخر عام 2010، قرّرت فرنسا وبريطانيا تنظيم مناورات حربية تحت اسم عملية ميسترال الجنوب، بمشاركة آلاف العسكريين والمعدّات من كلا البلدين. ونصّ السيناريو على قيام خصمين عسكريين قديمين بتوحيد قواهما للقيام بقصف دكتاتور جنوبي متخيَّل. وجرى تمرير المناورات بقرار خيالي من مجلس الأمن ورقمه 3003، وتقرّر البدء بها في 21 آذار/ مارس 2011. والواقع أن القصف الفعلي على ليبيا بدأ يوم 19 آذار/ مارس. إنها مصادفة بالتأكيد، لكنها تسلّط الضوء على العقليتين الفرنسية والبريطانية، وتفسّر عدم القيام بمساع دبلوماسية جادّة فعلية. كانت القاذفات رابضة مسبقًا على المدرجات، لكن لم يكن ممكنًا إنجاز مهمّة ليبيا - وفق ما خلص إليه حلف الناتو في ما بعد - من دون الدور العسكري الكبير والمتطوّر للولايات المتحدة.

تبيّن النتائج في ليبيا وسورية حتى الآن بوضوح أن عسكرة الثورة وحماسة الغرب لاستخدام القوّة العسكرية - على الرغم من الدعم من شريحة واسعة من السكّان - تعنيان أن ثمن التغيير باهظ على المجتمع والدولة والمواطنين.

ثامنًا: الأعوام الأربعة المقبلة

1 - إدارة الأزمة

تشير التصريحات الأولى لإدارة أوباما أن ليس ثمّة تغيير جذري في الأعوام الأربعة المقبلة مقارنةً بالأعوام الأربعة الأخيرة. محليًا، لا تزال الإدارة منشغلة بالأزمة والانتعاش الاقتصاديين، بينما تواصل على الصعيد العالمي انشغالها بـ «محورها الآسيوي»، عبر تعزيز التركيز الاستراتيجي على آسيا بدلًا من العالم العربي وأوروبا. كما أنها ستبقي على العقوبات على إيران، وستشدّدها على الأرجح إلى أن تصبح طهران أكثر استجابة لمطالب واشنطن. وستستمرّ في دعمها لإسرائيل على الساحة الدولية وتحافظ على

تفوّقها العسكري على جيرانها العرب، بغضّ النظر عن تجاوزاتها في الأراضي المحتلّة، كما تَبين في تصويت الهيئة العامّة للأمم المتحدة في شــأن فلســطين والردّ الإسرائيلي عليه بتوسيع النشاط الاستيطاني.

2 - القيادة من الخلف: العملاء والحلفاء

لن يتوقّع أحد أن تصبح الولايات المتحدة انعزالية بأي شكل من الأشكال بســبب تورّطها في أفغانســتان وباكســتان، إلّا أنها في المقابل لن تحاول نشر أي قوّات كبيرة على الأرض، وإنما ســتواصل التدخّل من وراء الكواليس في المنطقة العربية وفي بعض الدول العربية عندما ترى ضرورة لذلك. وستواصل أيضًا قيادة الحلفاء والعملاء من الخلف بدلًا من اتّخاذ خطوات أحادية صريحة، ويشــمل ذلك دعم الأنظمة المســتبدّة التي تضع نفســها في خدمة سياســات الولايات المتحدة.

3 - القيادة من الجو

يبدو أن إدارة أوباما شرعت في توســيع تدخّلها العسكري من الجو، من خلال توســيع مراقبة الأقمار الاصطناعية وشــنّ هجمــات الطائرات من دون طيار على الدول العربية والإســلامية كلّما كان ذلك ضروريًا. وبعد أن أنشأت أول مركز قيادة فــي أفريقيا، ووضعت ذراعًا أمنية خاصــة متخصّصة بالحرب الإلكترونية، وعيّنــت لقيادتها جنرالًا بأربع نجوم، ســتعتمد الإدارة أيضًا على أحدث ثورة في الشؤون العســكرية لتعزيز نفوذها إلى الحد الأقصى وتقليص تدخّلها المادي في المنطقة. هذا ما حدث حتى الآن في باكســتان وأفغانستان والصومال واليمن وليبيا.

4 - تشكيل ما بعد الثورة

أمّا في مــا يتعلّق بالثورات العربيــة فمن الواضــح أن الولايات المتحدة ســتحاول أن ترصد عن كثب مســار التغيير في جميع دول الربيع العربي، وفي كلٍّ منها على حدة، وتراقب نطاق التحوّل ومســاره فيها بكلّ الوسائل المتاحة،

ولا سيما الضغط الدبلوماسي والأسلحة والحوافز الاقتصادية. وستضاعف محاولاتها للتأثير في مصر ما بعد مبارك واليمن ما بعد صالح وليبيا ما بعد القذافي، بهدف احتواء أي مقاومة محتملة للإملاءات الغربية، أو لجم أي قواسم مشتركة ناشئة قد تعزّز الوحدة العربية.

5 - العثور على فرصة في الخطر المحدق

ثمّة تصوّر متنام بأن واشنطن قد تستفيد من تصاعد التوتّرات المذهبية في المنطقة، تمامًا كما فعلت في النزاع المذهبي في العراق، بغضّ النظر عن تداعيات ذلك على العالم العربي وعلى استقراره على المدى الطويل. ووفقًا لصحيفة نيويورك تايمز، قد يشكّل صعود المحور السنّي الجديد فرصة للولايات المتحدة وإسرائيل في مواجهة إيران وحلفائها وعملائها الذين يدورون في فلكها. وعلى الرغم من أن النعرات المذهبية العابرة للحدود الإقليمية قد تثبت أنها الخطر الأكبر الذي يواجه المنطقة في العقود المقبلة، يبدو أن إدارة أوباما مستعدّة لفرضها. وهذا يتّفق تمامًا مع استشراف أوباما في خطابه في آذار/ مارس 2011 عن الشرق الأوسط حين قال: «ستأتي أوقات لن تتطابق فيها مصالحنا القريبة المدى تمامًا ورؤيتنا البعيدة المدى للمنطقة». وغني عن القول إن واشنطن دعمت السعودية طويلًا في مواجهة إيران، على الرغم من إدراكها الإيحاءات المذهبية الواضحة لنزاعهما الإقليمي.

قد تكون الولايات المتحدة، وربّما روسيا، راضيتين عن اقتتال يدور بين متطرّفي السنّة والشيعة، ما دامت أسعار النفط تنخفض ومبيعات الأسلحة ترتفع والعرب يزدادون وهنًا. وقد ثبت منذ أمدٍ بعيد أن العنف المذهبي هو الأكثر بشاعة ورعبًا بين أشكال العنف السياسي. وبما أن أغلبية دول الشرق الأوسط هي موطن لمختلف المذاهب الدينية والإثنيات، فلا بدّ من أن تبدّد نذر العاصفة المذهبية المتجمعة أي بارقة للتعايش المشترك. إن واشنطن تعي ذلك تمامًا.

خلاصة

يمكن المرء أن يستنتج أن إدارة أوباما لا تختلف في الواقع كثيرًا عن سابقاتها عندما يتعلّق الأمر بالدفاع عن مصالحها الاستراتيجية الجوهرية في المنطقة العربية. وعلى غرار سابقاتها، فإنها تشكو تناقضًا رئيسًا بين دبلوماسيتها العامّة واستراتيجيتها، أو تناقضًا ناشئًا عن العمل وفقًا لقيمها الجوهرية بدلًا من مصالحها الآنية. وخلافًا لالتزامها المبدئي بـ «إنهاء العقلية» التي دفعت الولايات المتحدة إلى الحرب، عملت إدارة أوباما على توسيع نطاق الحرب في أفغانستان لتشمل باكستان، وبقيت متورّطة عسكريًا على جبهات عدّة.

تعتمد إدارة أوباما في المنطقة العربية سلوك سابقاتها: جمهورية أقل وإمبريالية أكثر، وتثير الشقاق غالبًا عمدًا أو غيابيًا. ولا تزال واشنطن أيضًا تنكر وضعها الإمبراطوري الفعلي، وتفضّل بدلًا من ذلك الاضطلاع بدور أخلاقي مرشد باعتبارها الوصي على الأمن والاستقرار والسلام وحقوق الإنسان.

تصرّفت إدارة أوباما أيضًا بصورة مغايرة لسابقاتها. وبرهنت طوال الأعوام الأربعة المنصرمة عن أن القوة العظمى تدار بطريقة أفضل وأكثر فاعلية عندما تتصرّف ضمنيًا بصورة أقل تبجّحًا وعدوانية وعنفًا، مع الحفاظ على مستوى الردع العسكري والمصالح الجوهرية نفسها. وفي الواقع أثبتت الإمبراطورية الأميركية أيضًا في حقبة ما بعد الحرب الباردة أنها أصبحت أكثر - وليس أقلّ - فاعلية وأكثر تماسكًا عندما قلّصت دورها ومجالها العسكري في المنطقة العربية. لكن ينبغي ألّا تتحمّل واشنطن وحدها مسؤولية تجنّب فوضى إقليمية كبرى تنجم عن توسّع وجودها العسكري في المنطقة أو تتسبّب بانكماشه.

الولايات المتحدة تميل إلى تقليص تدخّلها الخارجي، بسبب توسّعها العسكري المفرط قياسًا بالتحدّيات الاقتصادية التي تواجهها، وتحقيقها الاكتفاء الذاتي في مجال الطاقة بعد اكتشاف مكامن غاز محلّية جديدة. لكن ينبغي ألّا

يُفسّر تبنّي التعددية والنأي عن الأحادية المتهوّرة بأنهما نزعة انعزالية. وبالتالي، فإن انسحاب القوات العسكرية الأميركية من أفغانستان من دون إعادة انتشارها في منطقة الخليج أو في أماكن أخرى في المنطقة، يمثّل التحدّي الأكبر لأوباما في الأعوام الأربعة المقبلة.

على الرغم من جميع أوجه التشـابه بين إدارة أوباما وسـابقاتها في شأن المصالح الأميركيـة الجوهرية في المنطقـة، تتيح تعددية أوبامـا وبراغماتيته مجالًا أوسع من المجالات المتاحة سابقًا للتأثير في سياسة الولايات المتحدة. ويستطيع العرب اغتنام الفرصة، ولا بدّ لهم من أن يفعلوا.

تعقيب

أسامة أبو إرشيد

مثّل غزو العراق واحتلاله في آذار/ مارس 2003، ولا يزال، مفصلًا فارقًا في تاريخ الولايات المتحدة وعملية صنع القرار في السياسة الخارجية الأميركية. إذ إن ارتداداته كانت كارثية أميركيًا بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى، أكان لناحية تداعياته على سمعة الولايات المتحدة ومكانتها دوليًا واستراتيجيًا، أم لناحية مساهمته في استنزاف الاقتصاد الأميركي ودفعه إلى حافّة ركود عميق لمّا يتعافَ منه. وكمحصّلة لذلك، فإنه ليس من قبيل المبالغة القول إن تداعيات الغزو الأميركي للعراق ساهمت إلى حدٍّ كبير في إعادة تعريف أولويات السياسة الخارجية الأميركية وإعادة صوغها.

من ثمّ، خلص كثير من المراقبين والمحلّلين والأكاديميين والسياسيين الأميركيين وغيرهم إلى أن قرار غزو العراق وسياسات إدارة الرئيس جورج بوش الابن في ذلك البلد ما بعد احتلاله مثّلا أكبر كارثة في السياسة الخارجية للولايات المتحدة في الأعوام الثلاثين الأخيرة[20]؛ فقرار إدارة بوش الابن غزو العراق واحتلاله، وكان بلا غطاءٍ قانوني من مجلس الأمن الدولي، في حرب «غير شرعية»، على حدّ وصف الأمين العام للأمم المتحدة حينئذ، كوفي

(20) Peter Beinart, «Why Hagel Matters,» The Daily Beast, 7/1/2013, <http://www.thedailybeast.com/articles/2013/01/07/why-hagel-matters.html>.

أنان،[21] قد ساهم من حيث نتائجه في خسارة الولايات المتحدة القوة والتأثير والمكانة والسمعة عالميًا[22]، كما ساهم في تدهور الاقتصاد الأميركي وارتفاع أسعار النفط وتراجع قيمة الدولار، فضلًا عن أنها استهلكت النتائج القدرات العسكرية والدبلوماسية والمالية الأميركية، ونالت من سمعة الولايات المتحدة، وسمحت بتنامي القوة والتأثير والنفوذ الصيني في فضاء شرق آسيا تحديدًا، في ظل الانشغال الأميركي في حرب عصابات وشوارع لم تعتدها من قبل[23]. وعلى حد تعبير الصحافي الألماني جوزف جوفي، فإن حرب العراق كانت «الحرب الخطأ، ضد العدو الخطأ في الوقت الخطأ»[24]. بل إن بعض المحلّلين السياسيين الأميركيين لا يتردّد في وصف المغامرة الأميركية في العراق بأنها «هزيمة»[25]، ذلك أن الولايات المتحدة خرجت من العراق خائبة بعد فشلها في تأمين وجود عسكري طويل الأجل لها هناك عبر مفاوضات إدارة الرئيس باراك أوباما - وقبلها إدارة بوش - مع حكومة رئيس الوزراء العراقي، نوري المالكي في أواخر عام 2008[26]، كما أنها لم تنجح في تحقيق أي هدف من أهدافها المعلنة لغزو العراق، فلا هي وجدت أسلحة دمار شامل زعمت امتلاك عراق صدّام حسين لها، ولا هي تمكّنت من إثبات أي علاقة ربطت نظام الرئيس الراحل بـ«الإرهاب العالمي» والقاعدة. كما أنها لم تحصل على عقود تفضيلية في سوق النفط العراقية، ولم تتمكّن من ضمّ العراق إلى خانة حلفائها

---

(21) <http://news.bbc.co.uk/2/hi/middle_east/3661134.stm>.

(22) Warren P. Strobel, «Iraq War's Cost: Loss of U.S. Power, Prestige, Influence,» *McClatchy Newspapers*, 15/3/2008, <http://www.mcclatchydc.com/2008/03/15/30413/iraq-wars-cost-loss-of-us-power.html>.

(23) Strobel, «Iraq War's Cost,» and Stephen M. Walt, «Top 10 Lessons of the Iraq War,» *Foreign Policy*, 20 March 2012, <http://www.foreignpolicy.com/articles/2012/03/20/top_ten_lessons_of_the_iraq_war>.

(24) Strobel, «Iraq War's Cost».

(25) Stephen M. Walt, «Lessons of Two Wars: We will Lose in Iraq and Afghanistan,» *Foreign Policy*, 16 August 2011, <http://walt.foreignpolicy.com/posts/2011/08/16/lessons_of_two_wars_we_will_lose_in_iraq_and_afghanistan>.

(26) Lesley Clark, «After War in Iraq, Biden Heralds New Era of US Involvement,» The Christian Science Monitor, 30/11/2011, <http://www.csmonitor.com/World/Middle-East/2011/1130/After-war-in-Iraq-Biden-heralds-new-era-of-US-involvement?nav=408368-csm_article-bottomRelated>.

في المنطقة، ذلك أن عراق اليوم أصبح ســاحة نفوذ إيرانية باعتراف الأميركيين أنفسهم، محطمةً بذلك (أي الولايات المتحدة) توازن القوى في الخليج العربي لمصلحة إيران[27]. أضــف إلى ذلك أن الولايات المتحدة فشــلت في تحقيق هدف آخر زعمته إدارة بوش، ألا وهو جعل العــراق أنموذجًا للديمقراطية في منطقة الشرق الأوســط. فعلى العكس من ذلك، انتهى الأمر بالعراق اليوم إلى أن يكون دولة متشــرذمة طائفيًا وعرقيًا، يســتبدّ فيها المالكي بالحكم من دون شركائه الآخرين من الشــيعة والســنّة والأكراد، على الرغم من إجراء أكثر من انتخابات شعبية هناك... إلخ.[28].

دع عنك أن حرب العراق والسياســات الأميركية الفاشــلة فيه أدّتا - كما يقول أوباما نفســه ومعه كثير من المراقبين السياسيين الأميركيين - إلى صرف التركيز الأميركي عن أفغانســتان، بما ســمح بــأن تقوى حركــة طالبان هناك واســتنزافها القوات الأميركيــة وإضعاف حكومة الحليــف الأميركي، الرئيس الأفغاني، حميد كرزاي، بل وحتى تمدّدها إلى باكستان.

طبعًا، لا يمكن إرجاع كلّ فشل أميركي في السنوات الاثنتي عشرة الماضية (منذ هجمات أيلول/ سبتمبر 2001) إلى غزو العراق، ولكن استغراق الولايات المتحدة في تركيزهــا لأكثر من ثمانيــة أعوام، هي عمر الاحتــلال الأميركي للعراق (آذار/ مارس 2003 - كانون الأول/ ديسمبر2011)، على هدف واحد وإهمال التحديات الأخرى، داخلية أكانت أم خارجية، ســاهم إلى حد كبير في الأزمات الأميركية المتتالية[29]، فاجتياح العراق واحتلاله كانا «استثمارًا أميركيًا فاشلًا»[30]، لم يعد على الولايات المتحدة بما كانت تتوخّاه من ذلك القرار.

---

(27) Walt, «Lessons of Two Wars».

(28) Anthony H. Cordesman [et al.], «The Real Outcome of the Iraq War: US and Iranian Strategic Competition in Iraq» (Center for Strategic and International Studies, 8 March 2012), <http://csis.org/publication/real-outcome-iraq-war-us-and-iranian-strategic-competition-iraq>, and Walt, «Top 10 Lessons».

(29) Howard LaFranchi, «How the Iraq War has Changed America,» The Christian Science Monitor, 10/12/2011, <http://www.csmonitor.com/USA/Foreign-Policy/2011/1210/How-the-Iraq-war-has-changed-America>.

(30) LaFranchi, «How the Iraq War has Changed America».

إن تكلفة الاحتلال كانت باهظة الثمن أميركيًـــا، كما كانت طبعًا، باهظة الثمن مـــرّات ومرّات مضاعفة عراقيًا. لكن العراق وشـــعبه لم يختارا الحرب والغزو والاحتلال، بل هي جرائم فُرضت عليهم (اســـتخدام تعبير جرائم هنا ليس منطلقًا من موقف مبدئي وأخلاقي فحسب، بل أيضًا انطلاقًا من أن قرار الغزو والاحتلال لم يكن بنـــاءً على تفويض من مجلـــس الأمن الدولي «مع التحفـــظ هنا»، كما أن عددًا كبيـــرًا من التحقيقات الأميركيـــة والدولية أدانت أفعال القوات الأميركية في العراق كما في مجزرة الحديثة وسجن أبو غريب واغتصاب النســـاء وقتل المدنيين، وفيهم النساء والأطفال... إلخ). وتاليًا، لم يكن في وســـع العراقيين تجنّب عشـــرات آلاف القتلى والجرحى، واحتلال وتدمير بلدهم وشرذمته عرقيًا وطائفيًا وجهويًا (فحتى خطّة الغزو لم تكن قط مدروسة بصورة صحيحة، وهو ما أدّى إلى شـــرذمة البلد)[31]، فهذا كلّه كان جرّاء القرار الأميركي العدواني الذي كان بلا غطاءٍ شـــرعي أممي، ولا حتى ذريعة قانونية أو سياســـية وحيدة صحيحة، حيث ثبـــت أن المزاعم الأميركية كلها جرى التلاعب بهـــا أو اختلاقها أصلًا. وهذا موضوع آخر ســـنعود إليه لاحقًا.

على الجانب الآخر من المشهد، كانت التكلفة الأميركية الباهظة اختيارية لا مفروضة ولا حتى ضرورية، وهذا ما قاله باراك أوباما نفسه[32]. وهكذا، فإن مقتل قرابة 4500 جندي أميركي، وجرح أكثـــر من 32.000 آخرين، وصرف أكثر من مئتي ألف مليار دولار[33]، واســـتنزاف القوات العسكرية الأميركية في ذلك البلد - حيث خدم في ســـنوات احتلال العراق التـــي فاقت الثماني، أكثر

(31) وزير الخارجيـــة الأميركي حينئذ، كولن باول، حذّر من قـــرار الغزو وقال للرئيس بوش إذا دمرت العراق فإنك ستكون مســـؤولًا عن إعادة بنائه، لكن تحذيرات باول لم يجر الاستماع إليها، انظر: «Chaos in Baghdad. Colin Powell on the Bush Administration's Iraq War Mistakes,» *Newsweek* (13 May 2012), <http://www.thedailybeast.com/newsweek/2012/05/13/colin-powell-on-the-bush-administration-s-iraq-war-mistakes.html>.

(32) خطـــاب باراك أوبامـــا في القاهرة فـــي الرابع مـــن حزيران/ يونيـــو 2009، <http://www.nytimes.com/2009/06/04/us/politics/04obama.text.html?pagewanted=all&_r=0>.

(33) <http://www.reuters.com/article/2013/03/14/us-iraq-war-anniversary-idUSBRE92D0PG20130314>.

من مليون جنـــدي[34] - وعجز الولايات المتحدة عـــن التركيز على التحديات الاستراتيجية الأخرى التي تواجهها، كالتمدّد الصيني في فضاء المحيط الهادئ الآسيوي، واســـتمرار تطوير كوريا الشـــمالية قدراتها النووية، ومقاومة طالبان في أفغانستان وباكســـتان، وتزايد النفوذ الإيراني في المنطقة، وتراجع اقتصادها بصورة كبيرة[35]... إلخ، كانت كلّها جرّاء قرارات أميركية لم تُدْفَعْ لها ولم تكن مرغمة على اتّخاذها، بقدر مـــا أنها كانت مرتبطة بمفهوم الهيمنة الأميركية على العالم وأفـــكار حالمة لما يُعرف بتيار «المحافظين الجـــدد» الذي كانت له اليد الطولى في إدارة بوش الأولى.

لا شـــك إذًا في أن ثمّة توافقًا إلى حدٍّ كبير، يصـــل إلى حدّ الإجماع، بين المحلّلين والمراقبين والأكاديميين والسياسيين الأميركيين، حتى من الجمهوريين الذين ينتمي إليهم جورج بـــوش الابن على أن حرب العـــراق وتداعياتها كانتا كارثيتين بالنســـبة إلى الولايات المتحدة، وأضعفتا موقفها الاستراتيجي في كثير من الجبهات الدولية، فضلًا عـــن آثارهما الكارثية في الاقتصاد الأميركي، الأمر الذي يلخصّه المسؤول السابق في إدارة جورج بوش، ورئيس مجلس العلاقات الخارجية حاليًا، ريتشـــارد هاس بقوله إن الآثار المترتّبة على السياسة الخارجية الأميركية بسبب غزو العراق واحتلاله «سلبية بوضوح»[36].

لكن كيف وصلت الولايات المتحدة إلى المعضلات الاســـتراتيجية التي تجد نفســـها فيها اليوم إنْ داخليًا أو خارجيًا؟ وكيف تورّطت في حرب لم تكن «حكيمةً منذ البدء»[37]، ولم يخطّط لها بصورة ســـليمة - فـــي بلد يباهي العالم بوزنه وكفاءة مراكز الدراســـات فيه - في أفق التنبؤ بالعقبات والتحديات التي

---

(34) Tom Vanden Brook, «U.S. Formally Declares End of Iraq War,» USA Today, 15/12/2011, <http://usatoday30.usatoday.com/news/world/iraq/story/2011-12-15/Iraq-war/51945028/1>.

(35) Mark Landler, «Iraq, A War Obama didn't Want, Shaped his Foreign Policy,» *The New York Times*, 17/12/2011, <http://www.nytimes.com/2011/12/18/us/politics/iraq-war-shaped-obamas-foreign-policy-white-house-memo.html?pagewanted=all&_r=0>.

(36) «Haass: On Balance, Iraq War's Impact on U.S. Foreign Policy 'Clearly Negative',» Council Foreign Relations, 14/3/2006, <http://www.cfr.org/iraq/haass-balance-iraq-wars-impact-us-foreign-policy-clearly-negative/p10132>.

(37) «Haass: On Balance».

قد تترتّب على الاحتلال، على الرغم من أن هناك كثيرين ممّن حذّروا حتى قبل غزو العراق عمليًا[38]؟

من دون الإجابة عن ذينك السؤالين، لن نتمكن من فهم حقيقة الوضع العالمي الذي تجد أميركا نفسها فيه اليوم، دع عنك الإجابة أصلًا عن موضوع هذه الدراسة: تأثير الانسحاب الأميركي من العراق في أولويات الاهتمام الأميركي في العالم.

أولًا: غزو العراق: من الواقعية السياسية إلى أوهام «المحافظين الجدد»

يتفق اليوم المراقبون والأكاديميون والسياسيون الأميركيون على أن غزو العراق واحتلاله في عام 2003 ما كانا لولا نفوذ وتأثير ما يُعرف بـ«تيار المحافظين الجدد» في إدارة جورج بوش الابن الأولى. فعلى حد تعبير الصحافي والكاتب الأميركي المعروف توماس فريدمان في مقابلة له مع صحيفة هآرتس الإسرائيلية في نيسان/ أبريل 2003: فإن «العراق كان الحرب التي أرادها المحافظون الجدد.. الحرب التي سوّقها المحافظون الجدد، أستطيع أنْ أعطيك أسماء 25 شخصًا كلّهم يقيمون ضمن مسافة قريبة جدًّا من هذا المكتب (حيث المقابلة في واشنطن)، لو استبعدوا إلى جزيرة صحراوية قبل عام ونصف عام من الآن لما كانت حرب العراق»[39].

لا أريد أنْ أتورّط هنا في التأريخ لـ«تيار المحافظين الجدد» وخلفياتهم وقناعاتهم الأيديولوجية وحقيقة أن أغلب من دفع لغزو العراق من بينهم هم يهود، أمثال دوغلاس فيث، المسؤول الرفيع في وزارة الدفاع الأميركية (2001- 2005)، وتشارلز كروثمور، الكاتب الصحافي الشهير، وريتشارد بيرل، ووليام كريستول، وبول وولفويتز، وإليوت إبرامز («لم نعرف بالجميع

---

(38) Brian C. Schmidt and Michael C. Williams, «The Bush Doctrine and the Iraq War: Neoconservatives Versus Realists,» The American University Of Paris, Working Paper, no. 61 (November 2007). <http://www.aup.edu/pdf/WPSeries/AUP_wp61-WilliamsSchmidt.pdf>.

(39) <http://www.haaretz.com/news/features/white-man-s-burden-1.14110>.

هنا، لأننا سـنعرّف بهم لاحقًا»)[40]، فهـذا خارج نطاق تركيز هذه الدراسـة. لكني سأسعى إلى تسـليط الضوء بقدر الضرورة لشرح دور ذلك التيار وأفكاره في توريط الولايـات المتحدة في حربٍ جاءت بنتائـجَ كارثية عليها كما يقول خصومهم، وتاليًا الدفع فـي مرحلة تاليةٍ لإعادة تعريـف الأولويات الأميركية وصوغها في السياسة الخارجية.

وكي لا نستغرق في التأريخ لهذا التيار ومعتقداته، ستلجأ هذه الدراسة إلى اعتماد التاريخ الرسـمي المتعارف عليه لبدء علاقة هذا التيار بالملف العراقي ودفعه باتّجاه غزو العراق ضمن رؤية استراتيجية أوسع لدور الولايات المتحدة ومكانتها العالمية. إن مثل هذه المراجعة ستفيدنا أيضًا من زاويتين، الأولى فهم ذلك الجدل الذي دار في أروقة الإدارة ومراكز الدراسـات الأميركية بين «تيار المحافظين الجدد» و«تيار الواقعيين السياسـيين» في شـأن مسألة غزو العراق والقناعات الأيديولوجية والاسـتراتيجية، وبصورة أعمّ مسـألة استخدام القوة العسـكرية الأميركية كآلية من آليات السياسـة الخارجية الأميركية. أمّا الثانية، فإنها سـتعيننا على فهم أثر ذلك النقاش وما ترتّب علـى غزو العراق في إعادة تعريف الأولويـات الأميركية في العالـم آنيًا، في مرحلة ما بعـد غزو العراق والانسحاب الأميركي منه.

ثانيًا: التأسيس الفلسفي للهيمنة الأميركية وغزو العراق

خلال عمليـة «عاصفة الصحراء» التي قادتهـا الولايات المتحدة لإخراج القـوات العراقية من الكويت أواخـر عام 1990 ومطلع عـام 1991، قرّرت إدارة الرئيس الأميركي جـورج بوش الأب، تحت تأثير «الواقعيين» الذين كانوا أصحاب اليـد الطولى فيها، من أمثال وزير خارجيته جيمس بيكر، ومستشـاره للأمن القومي برينت سـكوكروفت، ورئيس هيئة الأركان الأميركية المشـتركة كولن باول بأنْ لا مصلحة للولايات المتحدة في إسـقاط نظام الرئيس العراقي صدّام حسين واحتلال العراق، مكتفية في ذلك بسياسة «الاحتواء».

---

(40) <http://www.haaretz.com/news/features/white-man-s-burden-1.14110>.

هذه الغلبـــة لمصلحة تيار «الواقعيين السياســيين» فـــي إدارة بوش الأب والذين لا يرون مانعًا في استخدام القوّة لحفظ المصالح الأميركية وتعزيزها - غير أنهم يرفضـــون توظيف القوّة لمصلحة مبادئَ عليا، مثل نشـــر الديمقراطية وحقوق الإنســـان[41]... إلخ - لم تعنِ غياب تيار «المحافظين الجدد» من بقايا «الريغانية» (نسبة إلى الرئيس الأميركي الأسبق رونالد ريغان (1981- 1989) عنها. صحيح أن وجود «المحافظين الجـــدد» كان ضئيلًا في إدارة بوش الأب تلك، لكـــن أعدادهم الضئيلة كانـــت متمركزة في مواقع قـــرار نافذة في وزارة الدفاع الأميركية تحديدًا تحت قيادة وزير الدفاع حينئذ، ديك تشيني ذي الانتماء الأيديولوجي الغامض.

في عام 1992 قامت تلك المجموعة، بتوجيه من تشـــيني، بإعداد «وثيقة التخطيط والإرشـــاد الدفاعية» (DPG) الأميركية لمرحلة مـــا بعد الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفياتي. وكانت الشـــخصيات المركزية الثلاث التي عملت على إعداد هذه الوثيقة هي: لويس ليبي الذي ســـيصبح مديرًا لمكتب تشـــيني كنائب للرئيس في إدارة بوش الابن، وبول وولفويتز، ونائب وزير الدفاع دونالد رامسفيلد في إدارة بوش الابن الأولى، وزلماي خليل زاد الذي خدم في إدارتي بوش الابن ســـفيرًا للولايات المتحدة في أفغانســـتان، ثمّ العراق، ثمّ سفيرًا في الأمم المتحدة، بالتعاون مع شخصيات أخرى ســـيكون لها دور أيضًا في إدارة بوش الابن مثل ريتشـــارد بيرل، رئيس الهيئة الاستشارية للتخطيط الدفاعي في إدارة بوش بين عامي 2001 و2003[42].

إن مُعِدّي تلك الوثيقة كانوا مهووســـين بالقوّة الهائلة التي أبانتها القوات المسلّحة الأميركية في حرب العراق، كما أنهم أرادوا أنْ يؤسّسوا لنظام عالمي أميركي جديد في مرحلة ما بعد الحرب الباردة وانهيار الاتحاد الســـوفّياتي في أواخر عام 1991، عنوانها الأبرز عدم الســـماح بنشـــوء وقيام قوى عالمية أو

---

(41) A'Ishah Waheed, «The US Invasion of Iraq: Failings and Consequences» <http://www.e-ir.info/2011/08/01/why-did-the-united-states-invade-iraq-in-2003-and-what-went-wrong-with-the-subsequent-occupation-what-impact-has-the-war-had-on-us-foreign-policy/>.

(42) <http://www.rightweb.irc-online.org/profile/1992_Draft_Defense_Planning_Guidance/>.

إقليمية جديدة قادرة على تحدّي الهيمنة الأميركية. وكان واحدًا من القواسم المشتركة التي جمعت تلك المجموعة، عدا عن انتمائها إلى تيار المحافظين الجدد، استياؤها الكبير من قرار إدارة بوش الأب، تحت تأثير «الواقعيين»، عدم استكمال غزو العراق وإسقاط نظامه، وهو ما رأوا فيه فرصة ضائعة لتعزيز الهيمنة الأميركية عالميًا في مرحلة ما بعد الحرب الباردة.

غير أن هذه الوثيقة سرّبت بطريقة أو بأخرى إلى كلٍّ من صحيفتي **نيويورك تايمز** و **واشنطن بوست**، ما أثار امتعاضًا كبيرًا في صفوف الديمقراطيين وكثير من رموز الإدارة الجمهورية من تيار «الواقعيين»، الأمر الذي أرغم إدارة بوش الأب على المسارعة في الإعلان عن سحبها مباشرة[43].

لكن، ما هي النقاط التي انطوت عليها هذه الوثيقة وأثارت جدلًا كبيرًا ووحّدت كثيرين من الجمهوريين والديمقراطيين في مشهد نادر الحصول في واشنطن، في معارضتهم لها؟

إن أهمّ الخطوط العريضة لتلك الوثيقة هو أنها دعت **أوّلًا** إلى مضاعفة الإنفاق العسكري بصورة كبيرة، في مسعى للحفاظ على مكانة أميركا الجديدة، باعتبارها القطب الأوحد والأقوى عالميًا، بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وتدمير أي قوة تسعى إلى جبهة هذا الواقع الجديد[44]. ثانيًا، تضمّنت تلك الوثيقة دعوة إلى منع بروز أي قوى إقليمية أو عالمية منافسة للولايات المتحدة وهيمنتها؛ فحسبما جاء في الوثيقة: «هدفنا الأول أنْ نمنع بروز أي منافس جديد لنا، أكان في المناطق التابعة للاتّحاد السوفياتي السابق أم في أي مكان آخر، قادر على أن يمثّل تهديدًا للنظام (الدولي) كذلك الذي مثّله الاتحاد السوفياتي السابق... وهذا يتطلّب منّا أنْ نسعى إلى منع أي قوة معادية من السيطرة على منطقة تملك ثروات، بحيث لو تمكّنت قوة من السيطرة عليها، فإن ذلك قد

(43) <http://www.rightweb.irc-online.org/profile/1992_Draft_Defense_Planning_Guidance/>.

(44) <http://www.rightweb.irc-online.org/profile/1992_Draft_Defense_Planning_Guidance/>.

يســمح بولادة قوة عالمية جديدة. هذه المناطق تشــمل غرب أوروبا وشــرق آسيا ومناطق الاتحاد السوفياتي السابق وجنوب غرب آسيا»[45]. ثالثًا، أسّست تلك الوثيقة لمفهوم الهجمات الاســتباقية أو الوقائية. رابعًا، دعت إلى تجاهل التعاون والقانــون الدوليين إذا لم يكونــا متناغمين مع المصالــح الأميركية. خامسًــا، أكّدت ضرورة التدخل الأميركي بصورة انتقائية في أي إشكالات أو صراعات في العالم قد تهدّد مصالح حلفاء أميــركا وأصدقائها أو تهدّد النظام الدولي الجديد، حتى ولو كانت تلك الإشــكالات والصراعــات غير مرتبطة مباشرةً بمصالح الولايات المتحدة[46]. وتخلص الوثيقة إلى أن على الولايات المتحــدة أن «تظهر القيادة الضروريــة واللازمة لإقامة وحمايــة نظام (دولي) جديد يعمل على إقناع المنافسين المحتملين بأن عليهم ألا يسعوا إلى دور أكبر أو أن يسلكوا سياسات عدوانية لحماية مصالحهم المشروعة»[47].

على أي حال، وعلى الرغم من أن إدارة بوش الأب سحبت تلك الوثيقة، فإن توصياتها لم تمت، وسيعاد بعثها في مرحلة ما بعد هجمات أيلول/ سبتمبر 2001، الأمر الذي ســنعود إليه لاحقًا. وكذلك خسارة بوش الأب لانتخابات أواخر عام 1992 أمام الديمقراطي بيــل كلينتون، وخروج هذه المجموعة من الإدارة ومواقع التأثيــر في القرار الأميركي، كل ذلك لم يعــن كليًا غيابهم عن المشــهد خلال ســنوات حكم كلينتون (1993-2001). فتحــرّر المجموعة وتيار المحافظين الجدد من أعباء الالتزامات السياســية أتاح لهما فرصة العمل على تطوير أفكارهما وأجندتهما للسياسة الخارجية الأميركية بحرّية، وسيعمل هذا التيار في ســنوات حكم كلينتون الثماني عبر منظمة أسســوها تحت لافتة: «مشروع للقرن الأميركي الجديد» (PNAC).

من يقرأ إعلان المبادئ المؤسّس لتلك المنظمة في عام 1997 سيجد أنها تدافع وتستلهم مبادئ «وثيقة التخطيط والإرشاد الدفاعية» السالفة الذكر. وبعد

(45) <http://www.rightweb.irc-online.org/profile/1992_Draft_Defense_Planning_Guidance/>.

(46) <http://www.rightweb.irc-online.org/profile/1992_Draft_Defense_Planning_Guidance/>.

(47) <http://www.rightweb.irc-online.org/profile/1992_Draft_Defense_Planning_Guidance/>.

عرضها تلك المبادئ التي ناقشناها أعلاه، فإنها تعلن، وبوضوح: «يقع على عاتق الولايات المتحدة دور حيوي في الحفاظ على السلم والأمن في أوروبا، آسيا، والشرق الأوسط. وإذا تجاهلنا مسؤولياتنا فإن ذلك يعني أننا نستدعي تحديات لمصالحنا المركزية. ينبغي أن نكون قد تعلّمنا من تاريخ القرن العشرين أن من الضروري لنا أن نصوغ الحوادث قبل أن تولد الأزمات، وبأنه يجب علينا أنْ نتصدّى للتحديات قبل أن تصبح أكثرَ خطورة. تاريخ هذا القرن (العشرين) يجب أن يكون قد علّمنا أن نعلي من أهمية القيادة الأميركية»[48].

عبر نظرة سريعة إلى أسماء موقّعي إعلان المبادئ هذا، نجد من بينهم ديك تشيني وبول وولفويتز وليبي وزلماي خليل زاد ودونالد رامسفيلد (ذكرنا من قبل المناصب التي شغلوها في إدارتي جورج بوش الابن) وإليوت إبرامز الذي عمل مسؤولًا رفيعًا في مجلس الأمن القومي لإدارة بوش الابن في دورتيها الرئاسيتين (2001-2009)، وبيتر رودمان الذي عمل مسؤولًا رفيعًا في وزارة الدفاع تحت إدارة بوش الابن في الفترة 2001-2007.

في عام 1998، بعثت المنظّمة ذاتها رسالة إلى الرئيس كلينتون، وقّعها عدد من رموز «المحافظين الجدد»، طالبوه فيها بالتخلي عن سياسة «الاحتواء» نحو العراق، محاجّين بأنها والحصار غير كافيين للتخلّص من نظام صدّام حسين، والتأكّد من عدم سعيه إلى امتلاك أسلحة دمار شامل تهدّد أمن المنطقة واستقرارها وحلفاء أميركا فيها. ودعا أولئك في رسالتهم إلى تطوير استراتيجيا جديدة يكون هدفها التخلّص من نظام صدّام عبر المزاوجة بين الأساليب السياسية والدبلوماسية والعسكرية. ومن بين الأسماء التي وقّعت تلك الرسالة وليام كريستول وروبرت كيغين، وكلاهما من رموز المحافظين الجدد. ووقّعها أيضًا جون بولتون أحد المسؤولين السابقين في وزارة الخارجية والسفير الأميركي الأسبق للأمم المتحدة الذي خدم أيضًا في إدارة بوش بين عامي 2001 و2006، وريتشارد أرميتاج مساعد وزير الخارجية في إدارة بوش الأولى (2001-2005)، وهو غير محسوب على تيار «المحافظين الجدد»،

---

(48) <http://www.newamericancentury.org/statementofprinciples.htm>.

فضلًا عــن كلّ من إليوت إبرامز وزلمــاي خليل زاد وريتشــارد بيرل ودونالد رامسفيلد وبول وولفويتز... إلخ[49].

لم يتوقّف جهد منظّمة «مشروع للقرن الأميركي الجديد» في سياق سعيها إلى تأسيس إطار استراتيجي جديد للسياسة الخارجية الأميركية عند هذا الحد. بل إنها ستخطو خطوة أخرى إلى الأمام في أيلول/ سبتمبر 2000، أي قبل شهرين تقريبًا من الانتخابات الرئاســية فــي ذلك العام، وهي الانتخابــات التي جاءت بجورج بوش الابن. تمثّلت تلــك الخطوة بإصدار المنظّمة تقرير ضخم بعنوان: «إعادة بناء دفاعات أميركا: الاســتراتيجيا، القوات، والمــوارد لقرن جديد»[50]، أعــدّه باحثون من «معهــد أمريكان إنتربرايــز» (وهو أحد معاقــل «المحافظين الجدد» في واشنطن)، وهدف إلى وضع إطار استراتيجي إرشادي جديد للرئيس الأميركي القادم، وهو لم يكن معروفًا حينئذٍ، في مجال السياســة الخارجية[51]. وفي هذا التقرير، نجد معدّيه يعلنون منذ البداية، ومن دون أي مواربة، استلهامهم المبادئ ذاتها الواردة في «وثيقة التخطيط والإرشاد الدفاعية» السالفة الذكر[52].

من المســائل المثيرة في التقرير دعوته إلى غزو العراق كإحدى الوسائل المتوافرة للولايات المتحــدة «ليكون لها دور طويل الأمــد في أمن الخليج». ومرّة أخرى تبرز أســماء كلٍّ من تشــيني ورامســفيلد وولفويتز باعتبارهم أبرز المساهمين في إعداد ذلك التقرير.

ثالثًا: إدارة بوش الابن الأولى غزو العراق كهدف

مع نجاح بوش في الانتخابات الرئاسية أواخر عام 2000، وتسلّمه مقاليد الأمور مطلع عــام 2001، جاء معه كثير من رمــوز «المحافظين الجدد»، كما

---

(49) <http://www.newamericancentury.org/iraqclintonletter.htm>.

(50) «Rebuilding America's Defenses: Strategy, Forces, and Resources for a New Century» (A Report of The Project for the New American Century, September 2000), <http://www.newamericancentury.org/RebuildingAmericasDefenses.pdf>.

(51) <http://www.rightweb.irc-online.org/profile/1992_Draft_Defense_Planning_Guidance/>.

(52) <http://www.rightweb.irc-online.org/profile/1992_Draft_Defense_Planning_Guidance/>.

أوضحنا من قبل، وتقلّدوا مناصب حسّاسة في إدارته. غير أن نفوذ «المحافظين الجدد» في إدارة بوش الأولى لم يكن مطلقًا، بل وازنته رموز أخرى من مدرسة «الواقعيين»، من أمثـال وزير الخارجية كولن باول، ومستشـارة الأمن القومي حينئذ، كوندوليـزا رايس، وريتشـارد أرميتاج، ومسـؤول التخطيط في وزارة الخارجية، ومستشار باول، ريتشارد هاس (2001-2003)... إلخ.

يجادل بعض المراقبين والأكاديميين بأن سياسـات إدارة بوش الخارجية في أشهرها الأولى وقبل هجمات 11 أيلول/ سـبتمبر 2001 كانت تميل أكثر إلى آراء «الواقعيين» بسـبب تأثير رايـس فيه. غير أن هـذه الهجمات أعطت اليد العليـا لرؤى «المحافظين الجدد» وقناعاتهم. وبحسـب أولئك المراقبين، فإنه لولا الهجمات مـا كان لإدارة بوش أن تبرّر للرأي العام الأميركي مسـألة اسـتخدام القوة العسكرية للدفع بالأجندة السياسـية الخارجية الأميركية وغزو العراق، كما كان يريد «المحافظون الجدد»[53].

غير أن ثمّة من يـرى أن هذا التحليل غير دقيق على إطلاقه، ذلك أن إدارة بوش مالت إلـى مواقف أحادية في فترة ما قبل هجمات أيلول/ سـبتمبر؛ ففي فترة زمنية قصيرة منذ تسـلّم بوش منصبه حتى وقوع الهجمات، رفضت إدارة بوش الانضمام إلى عدد من الاتفاقات الدولية، مثـل اتفاق المحكمة الجنائية الدولية، واتفاق كيوتو في شـأن التغير المناخي. كما رفضت التقيد باتفاق منع الأسلحة البيولوجية، وقامت أيضًا بالانسـحاب من اتفاق الحدّ من الصواريخ الباليستية الموقّعة مع روسيا[54].

أمّا في ما يتعلّق بالعـراق فإنه من الضروري هنا أن نشـير إلى أن برنامج الحزب الجمهوري الانتخابي لعام 2000 دعا إلى «التطبيق الكامل» لـ«قانون تحرير العراق» وإزالة نظام حكم صدّام حسـين. هذا القانـون صيغ في أروقة الكونغرس الأميركي كسياسة إرشـادية في عام 1998، عبر دعوته إلى إحداث

(53) Waheed, «The US Invasion of Iraq».

(54) Schmidt and Williams, «The Bush Doctrine».

تغيير في النظام العراقـي. وبتوقيع الرئيس كلينتون في ذلـك العام تحوّل إلى قانون. وكان هذا القانون إحدى الحجج التي تذرّعت بها إدارة بوش في تشرين الأول/ أكتوبر 2002 للقيام بغزو عسكري للعراق[55]. أضف إلى ذلك الحقيقة التي أشـرنا إليها من قبل، وهي أن عددًا ممّن سـاهموا في إعداد تقرير «إعادة بناء دفاعات أميركا: الاسـتراتيجيا، القوات، والموارد لقرن جديد» الذي أعدته منظمة «مشروع للقرن الأميركي الجديد» في عام 2000 شغلوا مناصب مرموقة في إدارة بوش، مثل تشيني ورامسفيلد وولفويتز.

بحسـب وزير المال في إدارة بوش الابن الأولى، بـول أونيل (2001-2003)، تمت مناقشـة «خطط طارئة» لمهاجمة العراق منـذ الاجتماع الأول لمجلس الأمن القومـي الأميركي بعد خطـاب التنصيب للرئيـس في كانون الثاني/ يناير 2001[56].

إذًا، من الواضح من خلال العرض السـابق، أن التفكيـر في غزو العراق كان موجودًا منذ تسـلّم بوش الابن للرئاسة، وأن العديد من شخصيات الإدارة البارزة من المحافظيـن الجدد كانـوا متحفزين للأمـر، وكان كلّ ما يلزم هو الذريعة لإقناع الـرأي العام الأميركي بالذهاب إلـى الحرب. وكانت هجمات أيلول/ سبتمبر بمنزلة هدية من السـماء لأولئك كي يشرعوا في تطبيق مبادئهم الشرسة في السياسـة الخارجية الأميركية، كما أنها ساهمت في إقناع رأي عام متشكّك في التورّط في مغامرات عسكرية خارجية، بعد حرب فيتنام (1955-1975). أضف أن تلك الهجمات أخلّـت بالتوازن القائم في إدارة بوش الابن الأولى بين معسكريْ «الواقعيين السياسيين» و«تيار المحافظين الجدد» لمصلحة الأخير، على الرغم من اعتراضات «الواقعيين» على فكرة غزو العراق، إذ رأوا فيها مغامرة غير محسـوبة النتائج، وأن العراق يمكن «احتواؤه» بما يجعل من الحرب أمرًا غير ضروري[57].

---

(55) <http://thomas.loc.gov/cgi-bin/query/z?c105:H.R.4655.ENR>.

(56) <http://www.cnn.com/2004/ALLPOLITICS/01/13/oneill.bush/>.

(57) Schmidt and Williams, «The Bush Doctrine».

رابعًا: العراق.. «حقل تجربة» لأيديولوجيا المحافظين الجدد

بعد تلك الهجمـــات بدا من الواضـــح جنوح إدارة بوش الابـــن في فترتها الأولى إلى قناعات المحافظين الجدد، وكان أول تعبيرات ذلك ما كشف عنه في «الاســـتراتيجيا الدفاعية الوطنية» في عام 2002، وهي الاستراتيجيا لتي أسّست لما أصبح يُعرف في ما بعـــد بـ«مبدأ بوش»، خصوصًا تبنّـــي الهجمات الوقائية أو الاســـتباقية، حيث لاحظ كثير من المراقبين مدى التشـــابه بينهـــا وبين «وثيقة التخطيط والإرشاد الدفاعية» التي أعدّها بعض رموز «المحافظين الجدد» - ممن شـــغلوا مناصب حساســـة في إدارة بوش الابن - عـــام 1992، زمن إدارة بوش الأب[58].

تكـــوّن «مبدأ بوش» من أربعة عناصر رئيســـة تســـتلهم كلّهـــا روح أفكار «المحافظين الجدد»[59]:

- أميركا هي القوة العالمية الوحيدة المهيمنة، وهي ستسعى إلى الحفاظ على هذا الواقع وترســـيخه. نجد تأكيدًا لهذا المعطى فـــي التقرير الذي قدّمه بوش في أيلول/ ســـبتمبر 2002 بشأن «اســـتراتيجية الأمن القومي للولايات المتحـــدة الأميركية»، حيث جـــاء: «ينبغي أن نبني وأن نحافـــظ على دفاعاتنا إلى الدرجة التي لا يمكن منافســـتها»[60]، مضيفًا: «قوّاتنا ينبغي أن تكون قوية بما فيه الكفاية لردع أي منافســـين محتملين عن الســـعي إلى بناء قوة عسكرية على أمل التجـــاوز، أو حتى معادلة قوة الولايات المتحدة»[61]. إن طرح بوش هذا يتوافق مع منطق «المحافظين الجـــدد» الرافضين مبدأ «توازن القوى» في العلاقـــات الدولية، الذي فيه، بحســـب رأيهم، تهديد لأمن أميركا واســـتقرار النظام الدولي[62].

---

(58) <http://www.rightweb.irc-online.org/profile/1992_Draft_Defense_Planning_Guidance/>.

(59) لمزيد من التفاصيل في هذا الموضوع، انظر: Schmidt and Williams, «The Bush Doctrine».

(60) «U.S. National Security Strategy: Transform America's National Security Institutions to Meet the Challenges and Opportunities of the 21st Century,» US Department of State, 20 September 2001, <http://2001-2009.state.gov/r/pa/ei/wh/15430.htm>.

(61) «U.S. National Security Strategy».

(62) Schmidt and Williams, «The Bush Doctrine».

- حق الولايات المتحدة في استخدام «الضربات الاستباقية» أو «الوقائية» متى اعتقــدت أن ثمّة تهديدًا لأمنهــا أو مصالحها. ويتعزّز هــذا المبدأ بـ«مبدأ الواحد فــي المئة» الذي أسّــس له نائب الرئيس، تشــيني، القائــل إن التركيز ينبغي أن يكون على نية العــدو، لا قدراته الفعلية، في تحديد داع لتوجيه ضربة «اســتباقية» أو «وقائية»[63]. وهكذا، فإن الهجوم على العراق أصبح مبرّرًا لدى إدارة بوش، لمجــرّد وجود احتمال امتلاك نظام صدّام أســلحة دمار شــامل، أو برامج لتطويرهــا، أو أنه قادر حتى على تطويرها يومًا مــا ليهدّد بها مصالح الولايات المتحدة وأمنها[64]، ومن ثمّ فإن عملية التلاعب وتســييس واختلاق «الأدلة» الاســتخباراتية الزاعمة امتلاك العراق أســلحة دمار شامل، أو برامج مستقبلية لذلك، كانت أمرًا مشروعًا في نظر إدارة بوش. بحسب ذلك المنطق: «ينبغي أن نردع ونقاوم أي تهديد قبل أن يصبح واقعًا»[65].

- حقّ الولايات المتحدة في التصرّف أو التحرّك بصورة أحادية، أكان بغطاء شــرعي قانوني أم بغيره في حال رأت الولايات المتحدة أو استشعرت أي تهديد حالي قائم أو مســتقبلي قادم لأمنها ومصالحها كما أوضحنا في النقطة السابقة. هذا المنطق - المنطلق من هوس «المحافظين الجدد» بالقوة العسكرية الأميركية الهائلــة - كان واضحًا في قــرار إدارة بوش غزو العراق مــن دون غطاء قانوني من مجلس الأمن الدولي، وانتهاك أحد قــرارات ذلك المجلس (1441)، وهي جعلت مــن ضمن مبرّراتها لغزو العــراق عدم التزام هــذا الأخير، كما زعمت، بقرارات مجلس الأمن الدولي![66]. ولعل من المفيد هنا أن نشير في هذا السياق إلى أن قرار بوش غزو العراق جاء ضمن القرار الســري ذاته الذي وقّعه في 17 أيلول/ ســبتمبر 2001 - أي بعد أقل من أســبوع واحد مــن هجمات أيلول/ سبتمبر- لغزو أفغانســتان. معنى ذلك، أن بوش لم ينتظر معلومات استخباراتية

---

(63) Michiko Kakutani, «Personality, Ideology and Bush's Terror Wars,» The New York Times, 20/6/2006, <http://www.nytimes.com/2006/06/20/books/20kaku.html?pagewanted=all>.

(64) Waheed, «The US Invasion of Iraq».

(65) Waheed, «The US Invasion of Iraq».

(66) للمزيد عن المزاعــم الأميركية، انظر خطاب الرئيس جورج بوش أمــام الجمعية العمومية للأمم المتحدة في 12/ 9/ 2002، <http://www.un.org/webcast/ga/57/statements/020912usaE.htm>.

مزعومة عن تــورّط العراق فــي تلك الهجمــات، كما كان يصرّ علــى أجهزته الاســتخبارية أن تجد دليلًا مباشــرة بعد الهجمات، فضلًا عن أن القرار لم يكن مرتبطًا أصلًا في ذهن إدارته بأي قرارات أممية أو تفويض من مجلس الأمن[67].

طبعًا، كان منطق إدارة بوش الأولى هذا متوافقًا مع حساســية «المحافظين الجدد» بإزاء أي صيغ للتعاون الدولي المشــترك، وحتى القانون الدولي نفسه والأمم المتحدة، الأمر الذي أشرنا إليه سالفًا.

- نشــر الديمقراطية، هذا العنصــر مرتبط بإحدى قناعــات «المحافظين الجدد» وهي وجوب أن يكون لدى الولايات المتحدة الرغبة في استخدام القوة العسكرية في سياستها الخارجية، في سياق سعيها إلى تحقيق مبادئ «أخلاقية» ومُثُل تؤمن بها، ومن ذلك طبعًا نشــر الديمقراطية، كما يقول هؤلاء[68]. المثير أن إحدى الركائز الأيديولوجيــة لـ «المحافظين الجدد» هي إيمانهم باللزومين «الخير المطلق» و«الشــر المطلق»، وهو التعبير الذي وجد طريقه إلى خطاب بوش في حالــة الاتحاد أمام الكونغــرس في 29 كانــون الثاني/ يناير 2002 عن «محاور الشــر» الثلاثة: العراق وإيران وكوريا الشمالية[69]. دع عنك طبعًا القناعات الدينية المعــزّزة لهذا المعطى في تفكير بوش[70]، وعملية الشــيطنة الممنهجة التي تعرّض لها صدّام حسين ونظامه.

---

(67) يقول ريتشارد كلارك في كتابه *Against All Enemies* وكان مستشارًا خاصًا لدى الرئيس بوش لمكافحة الإرهاب، إن الرئيــس أصر على فريقه للأمن القومي بعد هجمات أيلول/ ســبتمبر بأن يبحثوا عن أي صلة تربط نظام صدام حســين بالهجمات، وبأنه لم يعجبه جواب وكالة الاستخبارات الأميركية المركزية (سي آي إيه) النافي للأمر وتحديد المســؤولية في «القاعدة». يشير كلارك أيضًا، إلى أن وزير الدفاع رامسفيلد ونائبه وولفويتز كانا يصران على مســؤولية العراق على الرغم من نفي كل المعلومات الاستخباراتية المتوافرة لذلك.

لمزيد من التفاصيل، انظر: <http://govinfo.library.unt.edu/911/report/911Report_Ch10.htm>, and <http://www.issues2000.org/Archive/Against_All_Enemies_War_+_Peace.htm>.

(68) Waheed, «The US Invasion of Iraq».

(69) <http://edition.cnn.com/2002/ALLPOLITICS/01/29/bush.speech.txt/>.

(70) لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع، انظــر: Rupert Cornwell, «Bush: God Told Me to Invade Iraq,» *The Independent*, 7/10/2005, <http://www.commondreams.org/headlines05/1007-03.htm>, and Jonathan Turley, «Report: Bush Told French President Jacques Chirac that Iraq War was Biblically Ordained with Story of Gog and Magog,» 25/5/2009, <http://jonathanturley.org/2009/05/25/report-bush-told-french-president-jacques-chirac-that-iraq-war-was-biblically-ordained-with-story-of-gog-and-magog/>.

المحصلة من كلّ ما سبق أن غزو العراق واحتلاله كانا، بحسب المفكّر الأميركي نعوم تشومسكي، تجربة أولى ضرورية لمفهوم «الحرب الوقائية»، مع أمل أن يصبح معيارًا أميركيًا دوليًا مقبولًا. أمّا سبب اختيار العراق ليكون نطاق التجربة الأولى لهذا المفهوم، فإنه عائد، عند تشومسكي، إلى أن العراق كان «هدفًا سهلًا جدًّا وعاجزًا عن الدفاع عن نفسه»(71). وبالتالي، كانت قراءة «المحافظين الجدد» لنتيجة غزو مستقبلي حينئذٍ للعراق، بأن انهيار المجتمع وسقوط النظام سيكونان أمرًا سهلًا(72). أضف أن إدارة بوش أرادت تحويل العراق إلى «وكيل خاضع» للهيمنة الأميركية في إطار استراتيجيا أوسع لتعزيز السيطرة الأميركية على الخليج العربي وإمدادات النفط فيه وتعزيز مصالح أميركية أخرى في المنطقة(73).

هكذا اكتمل الإطار النظري لـ «المحافظين الجدد» في إدارة بوش لغزو العراق وإسقاط نظام الرئيس صدّام حسين، غير أن مساعي «المحافظين الجدد» تلك وجدت مقاومة، وإن كانت ضعيفة جدًّا وفاشلة، من تيار «الواقعيين» المتراجع والمتهالك في الإدارة بسبب هجمات أيلول/ سبتمبر. وكان رمز تيار الواقعيين الأبرز المحذّر من الذهاب إلى غزو العراق من دون تفويض وتعاون دوليين، وزير الخارجية كولن باول الذي استطاع فعلًا أن يقنع بوش بضرورة الذهاب إلى مجلس الأمن الدولي لتقديم «القضية» الأميركية ضد نظام صدام.

كانت حجّة باول ومن معه من تيار الواقعيين في إدارة بوش الابن الأولى، أن ذهاب الولايات المتحدة إلى الحرب منفردةً سيجعل أميركا تبدو دولة إمبريالية، وستكون مصدرًا لتهديدات أكبر للأمن القومي الأميركي(74). غير أن ذهاب باول إلى مجلس الأمن مطلع شباط/ فبراير 2003، وعلى الرغم

---

(71) Waheed, «The US Invasion of Iraq».

(72) Waheed, «The US Invasion of Iraq».

(73) Waheed, «The US Invasion of Iraq».

(74) James Pinkerton, «Powell has Painted Bush into a UN Corner,» *Newsday*, 18/2/2003, <http://newamerica.net/node/6564>.

من أنه قدّم في «مرافعته» ما زعمه من «دلائل» اســتخباراتية من صور تجسّس فضائية ومكالمات مسجّلة مزعومة لمسؤولين عراقيين، وغير ذلك من المزاعم الاســتخبارية[75]- (اتّضح في ما بعد أن تلك «الأدلّة» كانــت كلها مختلقة) - تؤكّد عــدم امتثال العراق لقــرارات مجلس الأمن الصادرة فــي حقّه، لم تقنع مجلس الأمن المتشــكّك في إعطاء تفويض قانوني أممــي للولايات المتحدة لغزو العراق. فكان أن مضت الولايات المتحدة، تماشيًا مع تعاليم «المحافظين الجدد» و«مبدأ بــوش»، إلى الحرب بقرار منفرد - في ســياق مفهوم «الحرب الاستباقية» - مع ما ســمّي «تحالف الراغبين»، ومن دون أدنى اهتمام بالشرعية القانونية الأممية، وكان اجتياح العراق واحتلاله وإسقاط نظام البعث فيه.

إذا كان غزو العراق واحتلاله عملية ســهلة نســبيًا وأشــبعت غرور بوش و«المحافظين الجدد» بالقوة العســكرية الأميركية الهائلة، فــإن ما ترتّب على الغزو والاحتــلال كان ذا آثار وتداعيــات كارثية على الولايــات المتحدة لم يتحسّــب لها هؤلاء، وجَرَّت على الولايات المتحدة قرابة عشرة أعوام عجاف استنزفت القوة والعظمة الأميركيتين بصورة كبيرة.

خامسًا: ما بعد الفشل الأميركي في العراق: العودة إلى الواقعية السياسية

إذًا، ما كانت عســكرة السياســة الخارجية الأميركية في إدارة بوش الابن الأولى وإعطاؤها الأولية في هذا النطاق ليمرّا مــن دون أثمان أميركية باهظة، إن داخليًا أو خارجيًا. وكما أريد للعراق أن يكون «حقل التجربة» الأول لتعاليم «المحافظين الجــدد» و«مبدأ بوش» المؤسّــس عليهــا - خصوصًا في معطى «الهجمات الاســتباقية» - وذلك في أفق فرض الهيمنة الأميركية الأحادية على العالم، فإن العراق أيضًا ســيكون على الرغم من إدارة بوش الأولى موقع فشل طموحات فرض الهيمنــة الأميركية عالميًا، على الأقل في فترتي رئاســة بوش الابن، وفترتي رئاسة أوباما الأولى والثانية حتى اللحظة.

---

(75) <http://www.un.org/apps/news/storyAr.asp?NewsID=6079&Cr=iraq&Cr1=inspect>.

طبعًا، لا يحتاج الفشــل الأميركي فــي العراق إلى كثير تدليــل هنا إذا ما اعتمدنا قراءة عكسية زمنيًا لتسلسل الحوادث، على أنه ضرب من ناحية صدقية تنظيرات «المحافظيــن الجدد» وقيمتهــا وأوهامهم الحالمــة، وأظهر بصورة صارخة حدود القوة والعظمــة الأميركيتين. ومن ناحية أخــرى دفع الولايات المتحدة - راغمةً أم راغبةً، ولا شــكّ راغمة - إلى أن تعود إلى التفكير بصورة أكثر واقعية مذ اســتوعبت أن للقوة العســكرية الهائلة حدودًا من حيث القدرة على الإنجاز لا يمكن تخطّيها.

سادسًا: أيديولوجيا «المحافظين الجدد» وتوريط أميركا: أين الخلل؟

لكن ما هي أوجه الخلل في حســابات «المحافظيــن الجدد» وتنظيراتهم الحالمة كما أبانتها حرب العراق وكانــت ذات تداعيات كارثية على الولايات المتحدة؟

الإجابة لن تكون ســهلة، لا لأن ثمّة صعوبة في تحديد أوجه الخلل هذه، بقدر ما أن الأمر متعلّق بصعوبة حصرها واختصارها هنا ضمن سياق ينبغي ألّا يخرج عن هدف الدراسة الأساس. لذلك، سنسعى إلى الإيجاز في مناقشة أوجه الخلل هذه بما يبقينا ضمن موضوع الدراســة، وبما يخدم فكرتها بحيث تعيننا على تلمّس أولويات السياسة الخارجية الأميركية في مرحلة ما بعد الانسحاب الأميركي من العراق وفهم كيفية تشــكّلها والعودة إلى منطــق «الواقعيين» في ضوء فشل ذلك الغزو.

في تقدير هذه الدراســة أنه ينبغــي أن تنطلق نقطة البداية فــي فهم أوجه الخلل من نقد طغيان سقوف الأيديولوجيا المرتفعة والهائمة في أحيان كثيرة في الطوباوية على حسابات وحقائق في الواقع المعقّد. هذا أمر ينسحب على الفضاء العام للعمل السياسي، كما ينسحب على الإطار التنظيري لـ «المحافظين الجدد».

أشــرنا ســابقًا إلى أن إحدى نقاط الخلاف المركزية بين تيار «الواقعيين السياســيين» و«المحافظين الجدد» ترتبط بمسألة عســكرة السياسة الخارجية الأميركية وربطها بمبادئ وقيم أخلاقية وأيديولوجية عليا، من ذلك مثلًا نشــر

الديمقراطية، أو حشـر العسـكرة في ثنايا جدليتي «الخير» و«الشر» كما فعلت إدارة بوش الأولى في سياق حربها العالمية على ما نعتته بـ«الإرهاب».

كما أسلفنا أعلاه، لا يرى تيار «الواقعيين» مانعًا في توظيف القوة العسكرية الأميركية في السياسة الخارجية، لكن ذلك مرهون بتحقيق مصالح أميركية عليا، وضمن حدود الضرورة[76]. وبالتالي، وبحسب تحليل «الواقعيين السياسيين»، فإن ربط إدارة بوش الأولى للقوة العسكرية بمبادئ وقيم أخلاقية وأيديولوجية قاد إلى تلك الأخطاء الكارثية في السياسـة الخارجية الأميركية[77]. ويسـوق الواقعيون أمثلة كثيرة على هـذا الأمر، منها أن العراق لم يتحوّل إلى ديمقراطية فاعلة، كما أن الغزو الأميركي لم يحوّل منطقة الشـرق الأوسط أيضًا إلى واحة للديمقراطية، بل وجد «الدكتاتوريون» العـرب في فوضى العراق المترتّبة على انهيار السـلطة المركزية ذريعة قوية لتحذير شـعوبهم من خطر الفوضى إذا ما سقط «النظام»[78].

مسـألة أخرى مرتبطة بهيمنـة أوهـام الأيديولوجيا على حقائـق الواقع تتعلّق بنظرية «المحافظين الجدد» أن غزو العراق، الهدف السـهل، «اسـتباقيًا» أو «وقائيًا»، سـيكون باعثًـا للرعب في قلـوب خصوم الولايـات المتحدة، وسيدفعهم إلى التسـليم بالهيمنة الأميركية وعدم التفكير أبدًا في تحدّيها. لكن الغزو الأميركي للعراق جاء بنتائج عكسية، من ذلك، مثلًا، أن «محوري الشر» الآخرين، وفق نظرية بوش الابن، كوريا الشمالية وإيران، لم ترتعدا ولم ترتدعا، بسـبب القوة العسـكرية الأميركية الهائلة التي أبرزتها في العـراق، بقدر ما أن ذلك كان حافزًا أكبرَ لهما لتسريع وتيرة التسلّح والسعي إلى امتلاك أسلحة غير تقليدية لمواجهة أي عدوان أو غزو أميركي محتمل لهما[79].

الأمر نفسه ينطبق على حساسـية «المحافظين الجدد» إزاء الأمم المتحدة

---

(76) Waheed, «The US Invasion of Iraq».

(77) Schmidt and Williams, «The Bush Doctrine».

(78) Strobel, «Iraq War's Cost».

(79) Schmidt and Williams, «The Bush Doctrine».

والقانون الدولي وصيغ التعاون الدولي؛ فكما أن لدى «الواقعيين» الحساسيات ذاتها، إلّا أنهم رفضوا المنطق «الأحادي» الذي نَظَّر له «المحافظون الجدد» واتّبعته إدارة بوش الأولى في غزوها العراق. فالمنطق «الأحادي» الأميركي قاد إلى غزو سهل نسبيًا للعراق وإسقاط نظامه، غير أن مسألة الاحتلال أثبتت أن لها تعقيدات من نوع خاص لم تكن القوات الأميركية مهيأة أو مستعدّة لها، الأمر الذي دفع بالإدارة الأميركية، بعد أن استوعبت أنها تغرق «في الوحل العراقي»[80]، إلى أن تعود إلى الأمم المتحدة - بعد شهرين من الغزو - راغمة طلبًا للعون الأممي في بلد محت سياساتها له هي نفسها جميع مقوّماته في الوحدة الوطنية والتماسك الشعبي والنظام القانوني[81].

ليس ذلك فحسب، بل إن القوة العسكرية الأميركية الهائجة والمنفلتة من أي عقال هزّت الصورة الأميركية عالميًا، وأصبح يُنظر إليها على أنها دولة عدوانية وتشكّل خطرًا على السلم العالمي[82]، خصوصًا مع سقوط الصدقية الأميركية في العراق واتّضاح زيف ذرائع الغزو لذلك البلد. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإنها دفعت خصوم أميركا الآخرين إلى بناء وتعزيز قدراتهم العسكرية وحضورهم الدولي والإقليمي، خصوصًا الصين وروسيا، مستفيدتين في ذلك من التورّط الأميركي في «الوحل العراقي».

أبعد من ذلك، ارتبطت كارثية قرار احتلال العراق وعدوانيته أيضًا بسوء تخطيط قاتل لعملية الاحتلال تلك. فحتى في سياق التخطيط لمرحلة ما بعد الاحتلال، كانت الأيديولوجيا الطوباوية حاضرة. وهاك بعض النماذج: فمثلًا،

---

(80) الغريب أن صاحب توصيف «الوحل العراقي» هو ديك تشيني نفسه في مقابلة أجراها في عام 1994 ودافع فيها عن قرار إدارة بوش الأب بعدم اجتياح العراق في مطلع التسعينيات. وقد كشف عن تسجيل تلك المقابلة في آب/ أغسطس 2007. <http://www.telegraph.co.uk/news/worldnews/1560915/Dick-Cheney-Iraq-quagmire-video-hits-the-web.html>.

(81) لمزيد من التفاصيل، انظر: <https://www.globalpolicy.org/political-issues-in-iraq/un-role-in-iraq.html>.

(82) لمزيد من المعلومات عن تراجع الاحترام للولايات المتحدة عالميًا، انظر: <http://www.nytimes.com/2003/06/04/world/after-the-war-opinion-world-s-view-of-us-sours-after-iraq-war-poll-finds.html>.

افترض «المحافظون الجدد» أن الشعب العراقي سيخرج مهلّلًا ومرحّبًا بالقوات الغازيـــة كـ«محرّرين» لهم من نظـــام عبودية صدّام[83]، فمـــاذا كانت النتيجة؟ أيضًا، افترض أولئك أن الشعب العراقي سيسلّم باحتلال بلده، فهو في قناعتهم حينئذ، شعب منهار معنويًا ووطنيًا، فكانت النتيجة مقاومة شرسة وحرب شوارع (ســـمّتها أميركا تمرّدًا)، استهلك القوة العســـكرية الأميركية الهائلة واستنفدها، وحوّل قواتها العسكرية على الأرض إلى قوات أقرب إلى الشرطة لكنها عاجزة عن كبح جماح ثورة المقاومة المســـلّحة[84]. وهكذا، بدلًا من أن يكون الغزو الأميركي للعراق «نزهة» ســـريعة تنتهي خلال أشـــهر، ولا تتطلّب وجود أكثر من 100.000 جندي أميركي في مرحلة مـــا بعد الغزو، فإنه تحوّل إلى جحيم استلزم بقاء عشرات الآلاف من القوات الأميركية على الأرض، بل مضاعفتهم في ما بعد في ما عُرف بـ«التصعيد» في أواخر عام 2006.

لعل من المفيد هنا أن نشـــير إلى أن قائد أركان الجيش الأميركي الأسبق، الجنرال إريك شينســـكي، أخبر لجنة القوات المســـلّحة في مجلس الشـــيوخ الأميركـــي في شـــباط/ فبراير 2003، أي قبـــل الحرب بنحو شـــهر واحد، أن الأمر ســـيتطلّب «مئات الآلاف من الجنود» لتأمين العـــراق. ولم يمض يومان على تلك التصريحات حتى خرج رامســـفيلد ونائبه وولفويتز يخطّئانه ويصرّان على أن الأعداد المطلوبة ســـتكون أقل من ذلك كثيـــرًا. ولم يمض وقت حتى اضطرّ شينسكي إلى تقديم اســـتقالته، فأشيع حينها أن ذلك كان بسبب امتعاض رامسفيلد من تقديراته تلك[85].

---

(83) في 16/ 3/ 2003، وقبل أيام من غزو العراق، قال تشـــيني في مقابلة تلفزيونية إن الشعب الأميركي سيستقبل الجنود الأميركيين «كمحررين». <https://www.mtholyoke.edu/acad/intrel/bush/cheneymeetthepress.htm>.

(84) انظر: Walt, «Top 10 Lessons».

(85) Eric Schmitt, «Threats and Responses: Military Spending; Pentagon Contradicts General on Iraq Occupation Force's Size,» *The New York Times*, 28/2/2003, <http://www.nytimes.com/2003/02/28/us/threats-responses-military-spending-pentagon-contradicts-general-iraq-occupation.html?src=pm>.

عـــن أســـباب اســـتقالة شينســـكي، انظـــر: <http://www.cnn.com/2004/ALLPOLITICS/10/08/factcheck/>.

معلوم الآن، بسبب تقديرات رامسفيلد الخاطئة ومن ورائها تقديرات «المحافظين الجدد» أن الولايات المتحدة بقيت تغرق أكثر فأكثر في «وحل العراق»، إلى أن اضطر بوش مرغمًا في أواخر عام 2006، أي في إدارته الثانية، إلى الاعتراف بأن الاستراتيجيا الأميركية في العراق لا تعمل بصورة صحيحة، وأصدر قرارًا بزيادة عديد القوات الأميركية العاملة على الأرض بأكثر من 30.000 جندي إضافي، ليصل عدد القوات الأميركية العاملة في العراق إلى 170.000 جندي. وما كان ذلك إلّا بعد استقالة رامسفيلد وبدء بوش رئاسته الثانية في عام 2005[86].

إن أخطاء «المحافظين الجدد» في هذا السياق نجمت في جانب كبير منها عن أنهم تعاملوا مع الحرب في العراق وردّة الفعل المتوقّعة من جانب نظامه وشعبه بمنطق النظريات الفيزيائية أو الرياضية، بمعنى أن ضربة عسكرية أولية هائلة للعراق ستجبر النظام على الاستسلام فورًا. لكن ضربات «الصدمة والترويع» الجوية الخاطفة والمدمّرة لم تدفع النظام إلى الاستسلام بل ضاعفت من جرعات التحدّي والمقاومة. وعندما سقط النظام، ظنّ أولئك أن الشعب سيعاملهم فاتحين محرّرين لا غازين محتلّين. فكان أن اندلعت مقاومة شرسة جعلت أميركا تغرق في ذلك البلد وتستنفد قوتّها فيه. ذلك الغرق الأميركي قاد إلى أمرين: **الأول** أن أميركا لم تتمكّن من تحقيق ما ابتغته من وراء الحرب، فلا هي حظيت بالسيطرة على ثروات العراق النفطية، ولا هي تمكّنت من نقل الرعب إلى خصومها الآخرين، كسورية وإيران وكوريا الشمالية. ذلك أنها لم تعد تملك القدرة على شنّ عدوان عسكري آخر، وهي غارقة في «أوحال» العراق. **الثاني** أن الولايات المتحدة بسبب تورّطها في العراق واتّضاح نظريات «المحافظين الجدد» أنها لم تزد على كونها أوهامًا أو طموحات غير واقعية، عجزت عن متابعة التحديات الأخرى التي تواجهها استراتيجيًا، وبالتالي هَمَدَ مفهوم الهيمنة الأميركية عالميًا من تلقائه. فحربها ضد طالبان والقاعدة في أفغانستان أصبحت ضحية لنقل الجهد والتركيز والإمكانات إلى العراق، في

---

(86) لمزيد من التفاصيل في شأن الوجود الأميركي العسكري في العراق ومراحله، انظر:
<http://www.reuters.com/article/2011/12/15/us-iraq-usa-pullout-idUSTRE7BE0EL20111215>.

حين كانت روسيا والصين وكوريا الشمالية وإيران تضاعف من مدّ نفوذها في فضاءاتها الإقليمية، وتعزّز قدراتها العسكرية في ظلّ غياب، أو عجز، أميركي واضح.

أمّا ثالثة الأثافي فتمثّلت في أن العراق حتى وهو تحت الاحتلال الأميركي المباشر تحوّل إلى ساحة ملحقة بطهران؛ إذ راح النظام الإيراني يصفّي مشكلاته مع أميركا على أرض العراق، فكان هو المستفيد الأول من إسقاط نظام صدّام واحتلال العراق، ذلك أن الولايات المتحدة نابت عنه في ما عجز عنه من قبل، أي إزالة العقبة الكؤود من وجه طموحاتها التوسعية في الإقليم. كما أن العراق تحت الاحتلال الأميركي وما بعد صدّام، أضحى منفذًا لكسر الحصار الغربي على إيران، وساحة حيوية لاقتصادها عبر التهريب والتصدير إليه. وفوق هذا وذاك أن من سيُنتخبون لقيادة العراق حينئذ هم شخصيات وتيارات محسوبة على إيران، والمالكي هو الأنموذج الأبرز[87]. بكلمات أخرى، تحوّل الاحتلال الأميركي للعراق إلى قيد عليها بدلًا من أن يكون قيدًا على إيران كما كان يُرتجى من قبل.

بهذا، وجدت الولايات المتحدة نفسها في ورطة في العراق من أي زاوية نظرت؛ فلا هي وجدت أسلحة الدمار الشامل المزعومة أو برامجه، وهو ما أضعف صدقيتها داخليًا وخارجيًا وهزّ صورتها عالميًا، ولا الشعب العراقي عاملها كمحرّر وفاتح، خصوصًا مع تورّطها في جرائم انتهاكات جسيمة في محاربتها المقاومة المسلحة، كما حدث في أبو غريب... إلخ، ولا العراق أصبح ديمقراطية ناجحة يُتغنّى بها، ولا هي نجحت، أو أوفت بعهودها بإعادة بناء العراق. كل ما جنته أميركا من غزو العراق هو أنها جلبت الفوضى والدمار إلى ذلك البلد، وغرقت هي في أوحاله، واستنزفت قوّتها وتركيزها فيه، وسلّمته على طبق من ذهب إلى إيران التي تقوّت أكثر فأكثر من ذلك الغزو الذي قادته الطوباوية ليكون كارثة أميركية بكلّ ما تحمل

(87) Eric Davis, «U.S. Foreign Policy in Post-SOFA Iraq» (Foreign Policy Research Institute, September 2011), <http://www.fpri.org/enotes/2011/201109.davis.iraq.html>.

الكلمة مـــن معنى. وفوق هذا وذاك، ســـاهم غـــزو العراق، بتكاليفـــه المالية المهولة، في إضعاف الاقتصاد الأميركـــي ودخوله ركودًا عميقًا، ما دفع الرأي العام الأميركي، المُستاء حينئذ من التكلفة البشرية والاقتصادية والاستراتيجية لذلك الاحتـــلال على الولايات المتحدة، إلى معاقبـــة الحزب الجمهوري في انتخابات الكونغرس النصفية في عـــام 2006، فضلًا عن ضغطه على الإدارة لبدء الانســـحاب من العراق، الأمر الذي ستدشّـــنه مفاوضـــات واتفاقية إدارة بوش مع حكومة المالكي أواخر عام 2008، ليكتمل الانســـحاب تحت إدارة أوباما - المدين هو الآخر إلى حدّ كبير بفوزه بالرئاسة في عام 2008 لأخطاء الجمهوريين في العراق - في أواخر عام 2011[88].

سابعًا: إدارة بوش الثانية: الاستيقاظ من الأوهام والعودة إلى واقعية «حدود القوة»

أمام هذه الضربات المتتالية والسقوط المريع لأفكار «المحافظين الجدد» التي كانت تعيش أوهام الســـيطرة الأحادية المطلقة على العالم، لم تجد إدارة بوش الثانية بدًّا من أن تتخفّـــف من أعباء نظريـــات «المحافظين الجدد» ومن العودة إلى المســـار الطبيعي الذي ميّز السياســـة الخارجية الأميركية في أغلب فتراتها في تاريخها المعاصر.

فجأةً أدركت إدارة بوش الثانية، بفعل الفشل المتتالي والأزمات المتراكمة، أن ليس ثمة حل عســـكري لكلّ معضلة. وكما يقول جوزيف ني، مساعد وزير الدفاع الأميركي الأسبق، فإن أصحاب المنطق الأحادي في إدارة بوش الأولى كانوا مثل «الطفل الصغيـــر الذي يحمل بيده مطرقة ويظنّ أن كلّ مشـــكلة هي مسمار»[89]. ويوضح ني أن المســـؤولين في إدارة بوش الثانية بدوا أكثر تفهّمًا لواقع أن توزيع القوة السياســـية في العالم اليوم أشبه ما يكون بـ «رقعة شطرنج

(88) Marc Lynch, «Bush's Finest Moment on Iraq: SOFA, not the Surge,» Foreign Policy, 18/1/2009, <http://lynch.foreignpolicy.com/posts/2009/01/18/sofa_not_the_surge>.

(89) Joseph S. Nye, «American Foreign Policy after Iraq,» Project Syndicate, 12/3/2007, <http://www.project-syndicate.org/commentary/american-foreign-policy-after-iraq>.

ثلاثية الأبعاد»، في القسم العلوي منها، تأتي القوة العسكرية، وهو عمليًا يتميّز بالأحادية، من حيث إن أميركا هي القوة العسكرية الأعظم اليوم ولا يوجد لها منافس في هذا الإطار. أمّا في قسمها المتوسّط فثمّة الوضع الاقتصادي عالميًا، وهو متعدّد الأقطاب، بحيث إن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تفرض ما تريده من دون تعاون من أوروبا واليابان والصين، ودول أخرى. وهناك القسم الأدنى من اللعبة، ويتعلّق بقضايا عالمية خارج سيطرة الحكومات، وتتضمّن كلّ شيء «من التغير المناخي، إلى الأمراض المعدية، إلى الإرهاب العابر للقارّات. وفي هذا القسم تتوزّع القوى بصورة فوضوية، وليس من المنطق زعم الهيمنة الأميركية عليها»[90].

بحسب ني، فإن أغلب مشكلات العالم اليوم هي تلك الموجودة في القسم السفلي من رقعة الشطرنج، والطريقة الوحيدة للتعامل الناجح مع هذه التحديات لن تكون إلّا عبر التحالف مع الآخرين «وهذا يتطلّب القوة الناعمة للجذب، كما القوة القاسية للإرغام. لكن لا يوجد حل عسكري بسيط يحقّق النتائج التي نتوخّاها»[91].

بناءً على التحليل السابق، يرى ني أن إدارة بوش الثانية، وبعد التخفّف من بعض «متطرّفي الأحادية»، بدأت التعامل مع بعض المشكلات العالمية المعقّدة مثل كوريا الشمالية وإيران بمنطق تعدّدي (أي عبر التعاون الدولي). وهكذا وجدنا إدارة بوش الثانية عملت عبر الأمم المتحدة على إرسال قوات حفظ سلام إلى جنوب لبنان بعد العدوان الإسرائيلي صيف 2006[92]. ولا بدّ من التذكير هنا مرّة أخرى بأن إدارة بوش الأولى كانت تكنّ اشمئزازًا خاصًا للأمم المتحدة، لكنّها في دورتها الثانية انعطفت أكثر نحو منهج «الواقعيين» الذين وإن كانوا لا يحملون حبًا ضائعًا للأمم المتحدة، فهُم يرونها وسيلة للتعبير عن القوة الأميركية من خلالها. نجد أيضًا أن إدارة بوش الثانية سعت إلى الحدّ

(90) Nye, «American Foreign Policy».

(91) Nye, «American Foreign Policy».

(92) Nye, «American Foreign Policy».

من انتشار الأسـلحة النووية عالميًا، لكن هذه المرّة من خلال الوكالة الدولية للطاقة الذرية. كما أنها سعت إلى التفاوض مع «محوري الشر» الآخرين كوريا الشـمالية وإيران، بعد أن أصبح استخدام الخيار العسـكري ضدّهما أمرًا غير واقعي في ضوء التجربة الأميركية المريرة في كلّ من العراق وأفغانستان، وهما الدولتان المدمّرتان أصلًا، فما بالك بإيران وكوريا الشـمالية القويتين عسكريًا على الأقـل. وكان من اللافـت هنا تصريحـات رايس، مـذ أصبحت وزيرة للخارجيـة (2005-2009)، من أن الوقت الآن هو للدبلوماسـية[93]. أضف أن الممارسة الأميركية في كلّ من أفغانستان والعراق جعلت من الصعب على أميركا أن تطلب أي دعم أو عـون دولي فيهما، فما بالـك إذا طلبته من أجل حرب جديدة[94].

مرة أخرى نذكّر هنا بأسباب إسهابنا في تفكيك أفكار «المحافظين الجدد» وذرائعهم لغزو العراق، ثمّ بأسباب السقوط الذريع لتلك الأيديولوجيا في إدارة بوش الأولى، والعودة إلـى خط الواقعية في السياسـة الخارجية الأميركية في إدارته الثانية. فمن ناحية، هذا أعاننا على فهم السـياق الـذي غُزِيَ العراق فيه واحتُلّ. ومن ناحية ثانية، أعاننا على فهـم المعضلات البنيوية التي تجد أميركا نفسها فيها اليوم، إن داخليًا أو خارجيًا. ومن ناحية ثالثة، فإن العرض التحليلي السابق أوضح لنا أسـباب العودة إلى الواقعية في السياسة الخارجية الأميركية، وهذه الواقعية هي التي لا تزال إلى اليوم تسـاهم في إعـادة صوغ الأولويات الأميركية في السياسة الخارجية منذ مرحلة مبكّرة في إدارة بوش الثانية.

ثامنًا: إدارة أوباما: ترسيخ الواقعية في السياسة الخارجية

من النقطة الأخيرة بالذات أريد أن أدلف إلى رئاسة باراك أوباما وأولويات السياسـة الخارجية في عهد إدارته الأولى ومطلع إدارتـه الثانية اليوم؛ ذلك أن

---

(93) <http://www.cnn.com/2005/ALLPOLITICS/01/18/rice.confirmation/index.html>.

(94) Anne Applebaum, «The Real Cost of the War in Iraq,» Slate, 30/8/2010, <http://www.slate.com/articles/news_and_politics/foreigners/2010/08/the_real_cost_of_the_war_in_iraq.html>.

هذه الدراســة تجادل بأن التحوّل الذي رأيناه في السياسة الخارجية تحت إدارة أوباما والتخفّف الواضح من عسكرتها وميلها إلى التعاون الدولي والعمل إلى حدٍّ كبير عبر الأطر الدولية والأخرى الحليفة، أمور ليست بالضرورة عائدة إلى رؤية أخلاقية يؤمن بها الرجل، بقدر ما أن الأمر متعلّق بحقيقة أميركا التي ورثها من إدارة سلفه بوش.

إن أميركا التــي ورثها أوباما في عام 2009 مختلفــة عن تلك التي ورثها بوش عن كلينتون في عام 2001، أكان لناحية المكانة الاســتراتيجية والسمعة الدولية، أم لناحية اقتصادها ووحدتها الداخلية. أبعد من ذلك، فإن أوباما ورث أميركا مســتنزفة في معركتين أساسيتين في كلٍّ من العراق وأفغانستان، في حين أن التحديات الاســتراتيجية الحقيقيــة للولايات المتحدة كانــت لا تكاد تجد لها وقتًا لدى صانع القرار الأميركي للتعاطي معهــا. نقطة أخرى مهمّة في هذا الســياق متعلّقة باتّهام بعض الجمهوريين لأوباما بإضعــاف الولايات المتحدة بســبب سياســاته الخارجية المتردّدة والمهزوزة، كما يقولون، والحقيقة، كما أشرنا ســالفًا، أن مقدّمات تراجع القوة الأميركية ارتســمت ملامحها أكثر في ظلّ إدارة بوش الثانية، وهي مرتبطة بتلك المعضلات الاســتراتيجية التي تنوء تحتها الولايات المتحدة وتُســتنزف جرّاءها بسبب سياسات إدارة بوش الأولى بالدرجة الأولى.

هكذا، فــإن تراجع العامل العســكري فــي منظومة السياســة الخارجية الأميركية والحذر من إعطاء دور سياســي للقــوات الأميركية، كما تؤكّده إدارة أوباما اليوم (مع ضرورة تأكيد الاســتثناء في الســياق الأفغاني بسبب تعقيدات الوضع هناك وارتباطه بتركة إدارة بوش الثقيلة)، أمران بدآ في إدارة بوش الثانية. وإن حديث أوباما عن أن لا مزيد من الحروب ولا لإرســال عشــرات الآلاف من القوات الأميركية تحت قيادته إلى مناطق مختلفة من العالم من دون ذريعة مشــروعة، وأن الحرب خيار أخير، وينبغي أن يكون ضمن استراتيجيا مدروسة بصورة صحيحة، وخطّة معدّة بعناية[95]، كل ذلك أمر لا يتعلّق بفلســفة الرجل

(95) انظر خطاب أوباما عن حالــة الاتحاد أمام الكونغرس فــي 12/ 2/ 2013، <http://www.whitehouse.gov/the-press-office/2013/02/12/president-barack-obamas-state-union-address>.

فحسب، بل كذلك بالإمكانات الأميركية المستنزَفة اليوم، فضلًا عن سمعة أميركا الأخلاقية المتضعضعة عالميًا بسبب حروب «الإرهاب» وأفغانستان والعراق. ولعل من المفيد هنا أن نشير إلى أن الرئيس بوش نفسه رفض الخضوع في آخر ولايته الثانية لضغط نائبه تشيني والمحافظين الجدد واللوبي الصهيوني وإسرائيل لشنّ هجوم عسكري على إيران[96]، وذلك - وهو الأمر المثير هنا - أن تقارير الاستخبارات الأميركية والمنظّمات الدولية كانت تؤكّد في ذلك الوقت أن برنامج إيران النووي ليس سلميًا، على عكس الحال في العراق[97]. وبالتأكيد لا يمكن فهم موقف بوش ذاك إلّا بالنظر إلى التكلفة الأميركية الباهظة في العراق وما ترتّب من رفض الرأي العام الأميركي للدخول في مغامرة عسكرية أخرى غير محسوبة النتائج والتكاليف بعد أن رأى الشارع الأميركي فشل حربي أفغانستان والعراق ودفع ثمنهما. والأمر نفسه ينسحب على منطق إدارة أوباما المائل أكثر إلى العمل عبر الأطر الدولية والحليفة، كالناتو مثلًا، فهي نتاج الفشل الذريع لمنطق الأحادية الأميركية استنادًا إلى تنظيرات «المحافظين الجدد» التي حكمت إدارة بوش الأولى. والتحلّل من هذه الأيديولوجيا بدأ في إدارة بوش الثانية لا في إدارة أوباما[98].

هكذا، وفق تعبير دينيس روس- مبعوث السلام الأميركي الأسبق إلى الشرق الأوسط، وأحد أعضاء مجلس الأمن القومي السابقين في إدارة أوباما- فإن الوضع الجديد الذي تجد الولايات المتحدة نفسها فيه اليوم يجعلها بحاجة إلى شرعية دولية لتتحرّك، فضلًا عن مشاركة في التكاليف[99]. ويؤيد المسؤول

---

(96) عن رفض الطلب الإسرائيلي، انظر: Yitzhak Benhorin, «Report: US Refused to Help Israel Attack Iran,» Ynetnews, 11/1/2009, <http://www.ynetnews.com/articles/0,7340,L-3653927,00.html>,

وعن فشل مساعي تشيني، انظر: «Cheney Aide: Bush won't Attack Iran,» UPI, 17/9/2008, <http://www.upi.com/Top_News/2008/09/17/Cheney-aide-Bush-wont-attack-Iran/UPI-84641221678878/>.

(97) LaFranchi, «How the Iraq War has Changed America».

(98) Nicholas Kralev, «Iraq War Defines Foreign Policy,» *The Washington Times*, 15/1/2009, <http://www.washingtontimes.com/news/2009/jan/15/iraq-war-defines-foreign-policy/?page=all>, and Nye, «American Foreign Policy».

(99) Landler, «Iraq, A War Obama didn't Want».

الســابق في إدارة بوش الابن، إليوت إبرامز هذا الرأي، وإن كان من باب النقد لإدارة أوبامــا، بقولــه إن إدارة أوباما تريد اســتخدامًا أقل للقوة في السياســة الخارجية، والســعي للحصول على شــرعية ودعم دوليين، فضلًا عن محاولة التفاوض مع الخصوم[100].

في مــا يلي، أريد أن أســتعير بضع فقــرات بتصرّف محدود من دراســة ســابقة لي بعنوان: «مصالح وأهــداف الولايات المتحدة فــي النظام العربي»، قُدّمت ضمن فاعليات «المؤتمر السّــنوي الأول لمراكز الدراســات السياسية والاســتراتيجية في الوطــن العربي»، الذي عقــده «المركــز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» في كانون الأول/ ديسمبر 2012:

ثمّة خطابان لأوباما يؤكّدان المعطى الذي أشــرنا إليه آنفًا وهو أن أميركا التي ورثها في عامي 2008/ 2009 هي غير أميركا التي ورثها بوش في عامي 2000/ 2001. ومن ثمّ فإن أميركا لم تعد تملــك الإمكانات والقدرات ذاتها عالميًا بصورة عامة.. كما من قبل، كما أنها لم تعد تتمتّع بالنفوذ غير المحدود ذاته، دون أن يعني هذا أن أميركا قد خســرت مكانة اللاعب الأســاس والأبرز عالميًا. لكنها الآن، ليســت اللاعب الوحيد، وهي غير قادرة دائمًا على فرض طبيعة ونوعية النتائج بقدر ما أنها تنافس (مع أفضلية طبعًا) على توجيهها.

الخطاب الأول جاء في شهر كانون الأول/ ديسمبر 2009 أمام الأكاديمية العســكرية الأميركية، ويســت بوينت في نيويورك الذي أعلــن فيه أوباما عن قراره إرســال المزيد من القوات الأميركية إلى أفغانســتان. في ذلك الخطاب قال أوباما: «كرئيــس أرفض أن أضع أهدافًــا تتخطّى مســؤولياتنا وإمكاناتنا ومصالحنــا. ويجب عليّ أن أوازن بين كلّ التحديات التــي تواجه أمّتنا. أنا لا أمتلك تــرف التركيز على تحدٍّ واحــد فقط». وأضاف منتقــدًا بصورة ضمنية سياســات إدارة ســلفه بوش: «على مدى الأعوام العديدة الماضية فقدنا ذلك

---

(100) Landler, «Iraq, A War Obama didn't Want».

التوازن. لقد فشلنا في تقدير العلاقة بين أمننا القومي واقتصادنا»[101]. **الخطاب الثاني** ألقاه أيضًا أمام الأكاديمية نفسها في شهر أيار/ مايو 2010 وقال فيه: «على مرَّ تاريخ البشرية لم تتمكّن أمّة تعاني تراجع حيويتها الاقتصادية، أن تحافظ على تفوّقها العسكري والسياسي». مضيفًا «كما لا يمكن أن تقع (المسؤولية العالمية) على كاهل أميركا وحدها. خصومنا يرغبون في أن يروا أميركا تفرط في استخدام قوّتها. وفي الماضي، كان لدينا دائمًا البصيرة لتفادي العمل بمفردنا»[102].

تعزّز هذا المعطى أيضًا مع إعلان إدارة أوباما في شهر آذار/ مارس 2012 «الاستراتيجية الأميركية الدفاعية الجديدة» التي تجعل مجال تركيزها الجيوستراتيجي منطقة «آسيا – المحيط الهادئ» (Pacific Asia) في مسعى منها لاحتواء تصاعد قوة الصين اقتصاديًا وعسكريًا في ذلك الفضاء الإقليمي، وقت تجد الولايات المتحدة نفسها مضطرة إلى خفض نفقاتها الدفاعية جرّاء الأزمة الاقتصادية[103]. وبناءً على هذه الاستراتيجية الدفاعية الجديدة التي تتطلّب تقليل عديد القوات الأميركية ونفقات وزارة الدفاع، فإن أميركا لم تعد قادرة على خوض حربين متزامنتين في آن، غير أنها ستحتفظ بالقدرة «على منع أي معتد مغامر في إقليم آخر (في حال انشغال الولايات المتحدة بحرب) من تحقيق النتائج التي يتوخّاها عبر فرض كلفة (عسكرية) عليه لن يكون قادرًا على تحمّلها»[104]، بمعنى إبقاء أميركا على قدرة الردع، خصوصًا في بحر الصين الجنوبي وفي مضيق هرمز الذي يشهد تهديدًا إيرانيًا متزايدًا بإغلاقه.

دفعت ثلاث حقائق هذه الاستراتيجية الجديدة: **الأولى**، انتهاء الحرب الأميركية في العراق واستعداد الولايات المتحدة لسحب قوّاتها العسكرية المقاتلة من أفغانستان أواخر عام 2014. **والثانية**، الأزمة الاقتصادية الأميركية

---

(101) <http://www.whitehouse.gov/the-press-office/remarks-president-address-nation-way-forward-afghanistan-and-pakistan>.

(102) <http://www.cbsnews.com/2100-201_162-6509577.html>.

(103) <http://www.reuters.com/article/2012/01/05/us-usa-military-obama-idUSTRE8031Z020120105>.

(104) <http://www.reuters.com/article/2012/01/05/us-usa-military-obama-idUSTRE8031Z020120105>.

الخانقة التي تستوجب إحداث اقتطاعات من ميزانية وزارة الدفاع. والثالثة، تصاعد التهديد الصيني والإيراني للنفوذ الأميركي في منطقة «آسيا - المحيط الهادئ» والشرق الأوسط[105].

هذه الاستراتيجية الأميركية الدفاعية الجديدة التي وإن أبقت على أهمية الشرق الأوسط ضمن سياق المصالح الحيوية الأميركية عبر استمرار استراتيجيتها لمنع بروز أي منافس إقليمي لسيطرتها فيه (تحديدًا إيران الآن)، غير أنها قلّصت عمليًا من الرغبة الأميركية في الانخراط المباشر في حروب المنطقة وهمومها، خصوصًا عملية السلام العربية - الإسرائيلية. فالولايات المتحدة تتعامل الآن مع الملفّات الأخرى، كعملية السلام بمنطق ‹المهدّئات› لا الحلول الجذرية، جرّاء انشغالاتها العديدة دوليًا واستغراقها في همومها الداخلية.

هكذا، وعلى عكس استراتيجية إدارة بوش، فإن إدارة أوباما تخوض حربها الآن مع «القاعدة» وأي خصوم آخرين عبر طائرات من دون طيار، أو مستخدمةً تفوّقها الجوي والتكنولوجي عوضًا عن إرسال قوّات برّية. وكان أوضح تعبير عن هذا التوجه الأميركي الأخير في ليبيا، وذلك في أفق التركيز على مصادر التهديد الحقيقية، كما تراها الولايات المتحدة القادمة من الصين تحديدًا، وبدرجة أقلّ من إيران، في ظلّ تراجع نفقاتها العسكرية جرّاء أزمتها الاقتصادية الطاحنة.

يعيننا ما سبق على فهم بعض الأبعاد والأسباب التي دفعت باتّجاه تغيير عميق في فلسفة السياسة الخارجية الأميركية وأولوياتها جرّاء الأكلاف التي ناء تحتها كاهل الولايات المتحدة، إن داخليًا أو خارجيًا. هذه الأكلاف الثقيلة مرتبطة إلى حدٍّ كبير بقرار غزو العراق الذي اتُّخذ، كما أسلفنا من قبل، على أسس أيديولوجية حالمة بالدرجة الأولى لـ «تيار المحافظين الجدد». ولكن، بدلًا من أن تنجح الولايات المتحدة في إعادة صوغ الشرق الأوسط ورسم

---

(105) <http://www.nytimes.com/2012/01/06/us/obama-at-pentagon-to-outline-cuts-and-strategic-shifts.html?_r=0>.

خريطته ثقافيًا وفكريًا وجغرافيًا، استنادًا إلى مصالحها، فإن تورّطها في الشرق الأوسط (حرب العراق)، إضافة إلى حربي «الإرهاب» وأفغانستان، ساهمت مشتركة، إلى حدٍ بعيد، في ترسيم القوة الأميركة وتحديدها عالميًا عبر استنزافها بصورة كبيرة.

تاسعًا: ما بعد الانسحاب من العراق أولويات الولايات المتحدة عالميًا

سبقت الإشارة إلى أن قرار غزو العراق والتورّط الأميركي في أوحاله استغرقا الاهتمام الأميركي بصورة كبيرة أثّرت في قدرتها على تقصّي مصالح حيوية أخرى لها ومتابعتها، ومن ذلك حربها في أفغانستان. لكن، إذا كانت أميركا قد انسحبت من العراق أواخر عام 2011، مكتفية بحجم الخسائر الاستراتيجية التي تكبّدتها جرّاء ذلك، فإنها لا تزال متورّطة في «وحل» آخر في أفغانستان، في معركة لا تزال تستنزفها عسكريًا واقتصاديًا واستراتيجيًا. ولا يبدو أن ثمّة أملًا في الأفق بأن تكسب الولايات المتحدة الحرب هناك قبل انسحابها المفترض في أواخر عام 2014؛ فلا طالبان انكسرت شوكتها، ولا نظام كرزاي في وضع يؤهّله للحفاظ على الاستقرار والاستمرار بعد انسحاب القوات الأميركية والدولية. أضف أن المعركة مع طالبان وحلفائها امتدّت إلى الجوار الباكستاني، حيث فُتِحَت جبهة جديدة للولايات المتحدة في بلد يمتلك قدرات نووية. وضاعفت تلك الهجمات التي تشنّها طائرات أميركية بلا طيار من الغضب على الولايات المتحدة هناك.

هل هذا كلّ شيء؟ لا؛ فثمّة تحدٍّ قادم من «القاعدة» وشقيقاتها في اليمن وشمال أفريقيا والصومال ومالي... إلخ. إلى التحديات التي فرضها «الربيع العربي» منذ أواخر عام 2010 على السياسة الخارجية الأميركية وحيرتها وارتباكها حينئذٍ في التعامل معه، وموقفها المتردّد والمرتبك والغامض – ولا نبالغ إذا قلنا المتواطئ أيضًا على سورية الدولة والدور – إلى الآن في التعامل مع تداعياته، وتحديدًا في سورية... إلخ. هذا فضلًا عن التحدّي

الإيراني، والفشل في دفع عملية السلام الفلسطينية - الإسرائيلية في الشرق الأوسط... إلخ. فضلًا عن التحدّي الجديد القادم من كوريا الشمالية التي أعلنت في 11 آذار/ مارس 2013 إلغاء الهدنة الموقّعة في عام 1953مع جارتها وعدوّها اللدود كوريا الجنوبية، وتهديدها بـ«ضربة نووية وقائية» ضد حليفتها الولايات المتحدة[106].

ليس هذا فحسب، بل هناك أيضًا التحدّي الاستراتيجي المركزي الذي تواجهه الولايات المتحدة اليوم، وأشرنا إليه من قبل، والمتمثّل في صعود الصين في فضاء المحيط الهادئ الآسيوي، في حين أن الولايات المتحدة تجد نفسها الآن تتصرف هناك من موقع ضعف جرّاء انشغالها في العقد الماضي خارج المنطقة الحيوية لاقتصادها ومكانتها الاستراتيجية[107].

عاشرًا: إعادة صوغ التأسيس الفلسفي للسياسة الخارجية الأميركية

هذه التحديات وغيرها، إذا أضيف إليها الواقع الاقتصادي الأميركي المترهّل، تؤدّي كلها إلى الاستنتاج أن القوة الأميركية في طور التراجع، وهو الاستنتاج الذي يحرص أوباما على إنكاره حين قال في خطاب له في قاعدة عسكرية في ولاية تكساس في 31 آب/ أغسطس 2012، أي في الذكرى الثانية لانتهاء المهمات القتالية للقوات الأميركية في العراق، وردًّا على انتقادات وجّهها المرشح الجمهوري إلى الرئاسة حينئذ، ميت رومني، شاملًا سياسة إدارته الخارجية: «إذا سمعتم أحدًا يحاول القول إن أميركا في طور الأفول وإن تأثيرها يتراجع فلا تصدّقوه»[108].

لكن ما هو تعريف القوة عند أوباما؟ «تحالفاتنا لم تكن أقوى ممّا هي عليه

---

(106) «North Korea Threatens Pre-emptive Nuclear Strike against US, South Begin War Games,» 11/3/2013, <http://newyork.newsday.com/news/world/north-korea-threatens-pre-emptive-nuclear-strike-as-u-s-south-begin-war-games-1.4790711>.

(107) LaFranchi, «How the Iraq War has Changed America».

(108) <http://www.cbsnews.com/8301-503544_162-57504716-503544/marking-end-of-iraq-war-obama-defends-foreign-policy-record/>.

اليوم. نحن نقود باسم الحرية، وفي ذلك الوقوف مع الشعب الليبي الذي تحرر أخيرًا من حكم معمّر القذّافي»[109]. بِمَ يذكّرنا ذلك؟

هذا يعيد إلى أذهاننا ما أشــرنا إليه آنّفا من تصريحات لأوباما في ويست بوينت في خطابين منفصلين من أن أميركا لن تضع أهدافًا تتجاوز مســؤولياتها وإمكاناتها ومصالحهــا. وهي لذلك لن تتورّط في تحمّل المســؤولية العالمية وحدها، بمــا يعنيه ذلك من اســتنزاف لقوّتيها العســكرية والاقتصادية. أيضًا، يذكّرنا أوباما بما أشــرنا إليه من ملاحظات ســابقة في شــأن فلســفة سياسته الخارجية الباحثة عن شرعية دولية ومشاركة في التكاليف. هذا ما رأيناه في ليبيا تحديدًا فــي آذار/ مارس 2011، حيث التدخّل الأميركــي المحدود ضد نظام القذّافي لم يأتِ إلّا بعد قرار مجلس الأمن الدولي رقم 1973، وبغطاء جامعة الدول العربية، وكان عبر المســاعدة في فرض منطقة حظــر جوّي ضد طيران النظام، وهجمات بصواريخ توماهوك، وضمن حلف عســكري أوسع، مشكّل من قوى في حلف الناتو وأطراف عربيةٍ أخرى[110].

عودة إلى تصريحات أوباما الســابقة في القاعدة العســكرية في تكساس وقوله: «حول العالم، هناك انطباع جديد نحو الولايات المتحدة وثقة جديدة في قيادتنا». مضيفًا، عندما يُســأل الناس أي دولة يحترمون أكثر، فإن «دولة واحدة تأتي دائمًا في المقدّمة، وهي الولايات المتحدة الأميركية»[111].

لا يعنينا هنا مناقشــة مزاعم أوباما هذه، لكن يعنينا تلمّــس طبيعة التغيير الحاصل في فلســفة السياســة الخارجية الأميركية التي ترتّبت على كارثة غزو العراق أميركيًا، فضلًا عن حرب أفغانستان والحرب العالمية على «الإرهاب». ومرّةً أخرى، نُذَكّر هنا بأن إرهاصات هذه الفلســفة بدأت بالتشــكّل في إدارة

(109) <http://www.cbsnews.com/8301-503544_162-57504716-503544/marking-end-of-iraq-war-obama-defends-foreign-policy-record/>.

(110) Peter Bergen, «Why Libya 2011 is not Iraq 2003,» CNN National Security Analyst, 21/3/2011, <http://www.cnn.com/2011/OPINION/03/20/bergen.libya.us/index.html>.

(111) <http://www.cbsnews.com/8301-503544_162-57504716-503544/marking-end-of-iraq-war-obama-defends-foreign-policy-record/>.

بوش الثانية جرّاء الأكلاف الاستراتيجية الكارثية التي ترتّبت على تورّطها في العراق وأفغانستان وحرب «الإرهاب».

بسبب فلسفة إدارة أوباما هذه في فضاء السياسة الخارجية، فإن في الولايات المتحدة من السياسيين، وتحديدًا من المنتمين أو القريبين من الحزب الجمهوري، من يتّهم إدارة أوباما بما يصفونه بـ «القيادة من الخلف» أو حتى تبنّي سياسة انعزالية. لكن هل الأمر فعلًا كذلك؟

الجواب السريع، هو لا. لكن في الأمر بعض تفصيل.

بالنسبة إلى تهمة «القيادة من الخلف» التي ارتبطت بالتحرّك الأميركي في ليبيا، هي في حقيقتها إشارة إلى توجّه إدارة أوباما إلى التحرّك عبر الأطر الدولية والتحالفاتية، واستنادًا، بصورة عامّة - ليس بالضرورة دائمًا وتكفي الإشارة هنا إلى ما يسمّى «الحرب على الإرهاب» والانتهاكات القانونية والإنسانية التي تترتّب عليها - إلى شرعية دولية. وفي تقدير هذه الدراسة أن في ما سبق من شرح وتفصيل في الملابسات الاستراتيجية، إن داخليًا أو خارجيًا، وهي قادت إلى صوغ هذا التوجّه، ما يغني عن مزيد من الشرح هنا. ونكتفي بأمرين: **الأول**، التذكير مرّة أخرى بأن إرهاصات هذا التوجه بدأت في إدارة بوش الثانية، وبأنها مرتبطة بالمعضلات الاستراتيجية التي تجد أميركا نفسها فيها اليوم (وفصّلناها من قبل داخليًا وخارجيًا)، والسبب يعود - إلى حدٍّ كبير - إلى سنوات حكم إدارة بوش العجاف أميركيًا وعالميًا. أمّا **الأمر الثاني** فمرتبط بالأزمة الاقتصادية الأميركية الخانقة، وتجاوز سقف المديونية الأميركي حاجز الـ 16 تريليون دولار[112]، وهو ما قاد إلى صراع مرير بين الحزبين الأميركيين الحاكمين، الديمقراطي والجمهوري، وترتّب عليه - بعد فشلهما في الاتفاق على تخفيض مدروس لنفقات الحكومة الفدرالية - اقتطاعات كبيرة تلقائية مفروضة (Sequestration) في النفقات بلغت نحو 1.2 تريليون دولار على مدى السنوات العشر التالية. ووزّعت هذه الاقتطاعات التلقائية - التي بدأت رسميًا في مطلع

(112) <http://www.foxnews.com/politics/2012/09/04/who-do-owe-most-that-16-trillion-to-hint-it-isnt-china/>.

آذار/ مارس 2013- ضمن معادلة تقضي بتقاسم هـذه الاقتطاعات التلقائية المفروضة بنسبة 50- 50 في المئة تقريبًا بين النفقات الدفاعية والاجتماعية الداخلية[113].

بحسب هذه الاقتطاعات، فإن ميزانية وزارة الدفاع الأميركية سيحسم منها لهذا العام (2013) 46 مليار دولار، وستصل إلى 500 مليار دولار على مدى الأعوام العشرة المقبلة. وهذا طبعًا ما سيكون له أثر كبير في جاهزية القوات العسكرية الأميركية وقدرتها[114]. وبهذا، فإن المسألة ليست مرتبطة بفلسفة أوباما وقناعاته فحسب، بقدر ما هي مرتبطة أيضًا بإمكانات أميركا وقدراتها اقتصاديًا اليوم، وكثرة التحديات التي تواجهها سياستها الخارجية.

أمّا تهمة الانعزالية فلا تبتعد كثيرًا عن السياقات السابقة، مع ضرورة التأكيد مرّة أخرى أن إدارة أوباما لا تتبنّى سياسة انعزالية كما يقول خصومها. والواقع أن الحزبين الأميركيين الرئيسين كليهما يتّفق في شأن تحسّسهما من تهمة تبنّي سياسات انعزالية، ذلك أن ثمّة رأيًا في الولايات المتحدة يرى أن سياسات أميركا الانعزالية في حقبتي العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي قادت إلى الكساد الكبير وصعود الزعيم الألماني النازي أدولف هتلر في أوروبا... إلخ. وبحسب هذا الرأي، لولا نهج سياسة الرئيس الأميركي فرانكلين روزفلت (1933-1945) الخارجية الأكثر انخراطًا وفاعلية، والمعبّرة عن القيادة الأميركية عالميًا، لما أمكن مواجهة تلك التحديات وغيرها داخليًا وخارجيًا[115]. وبغضّ النظر عن دقّة هذا الرأي، فإنه ذو أثر كبير في فضاء الحياة السياسة الأميركية؛ فما من نقاش مركزي يجري في شأن السياسة الخارجية الأميركية في مرحلة ما بعد الحرب الباردة إلّا ويتضمّن اتّهامات متبادلة بين

---

(113) <http://www.cnn.com/2013/02/06/politics/cnn-explains-sequestration>.

(114) مثلًا، بسبب هذه التخفيضات في نفقات الدفاع، قرر وزير الدفاع السابق، ليون بانيتا، تأجيل إرسال حاملة الطائرات الأميركية يو أس. أس هاري ترومان إلى الخليج العربي بشكل مطلق في مطلع شباط/ فبراير 2013. <http://abcnews.go.com/blogs/politics/2013/02/pentagon-delays-carrier-deployment-because-of-budget-uncertainty/>.

(115) Gregory Metzger, «Is Obama an Isolationist? Thinking Clearly about a Slogan & a Slur,» *Commonweal* (July 2011), <http://www.readperiodicals.com/201108/2411982281.html>.

مراكز الدراسات والإعلام ونخبة العمل الدبلوماسي، أو حتى السياسيين، بتبنّي سياسات انعزالية[116]. وبغضّ النظر عن الحزب الذي ينتمي إليه الرئيس الأميركي، ما من رئيس في ما بعد الحرب الباردة إلّا اتّهم خصومه السياسيين أيضًا في السياسة الخارجية بتبنّي منهج انعزالي؛ فبوش الأب، الجمهوري، اتّهم خصومه المعارضين لحرب العراق الأولى (آب/ أغسطس 1990 - شباط/ فبراير 1991) بتبنّي خطٍّ انعزالي. وكلينتون الديمقراطي اتّهم خصومه المعارضين لاتفاق التجارة الحرّة لشمال أميركا (NAFTA) في عام 1993، وللتدخل الأميركي في كوسوفو في عام (1998- 1999) بتبنّي وجهات نظر انعزالية. والأمر نفسه فعله بوش الابن، الجمهوري، مع معارضي الغزو الأميركي للعراق في عام 2003[117]؛ فهؤلاء الرؤساء الثلاثة اعتبروا وجهات النظر الانعزالية بمنزلة انسحاب أميركي من العالم وتخلٍّ عن القيادة.

فماذا عن أوباما؟

أنموذج أوباما في هذا السياق هو، مرّة أخرى، ليس لرؤية أخلاقية أو فلسفية مختلفة يتبنّاها بالضرورة - هذه الدراسة لا يعنيها تأكيد ذلك وليس موضوعها فيه - وإنما لأن الملابسات التاريخية والسياسية لصعود نجمه وطنيًا كانت مختلفة. فأوباما ترشّح لمجلس الشيوخ الأميركي في عام 2004 عن ولاية إلينوي التي تميل إلى الحزب الديمقراطي. وجاء في ذروة التورّط الأميركي في العراق وبدء تشكّل رأي عام معارض لذلك التورّط، وأوباما كان معارضًا لتلك الحرب. ثمّ إنه لمّا ترشّح للرئاسة في عام 2008 حافظ على معارضته تلك للتورّط الأميركي في العراق، ما مكّنه من تخطّي منافِسته الرئيسة في الانتخابات التمهيدية للحزب الديمقراطي، هيلاري كلينتون، إذ صوّتت كعضو في مجلس الشيوخ لمصلحة غزو العراق عسكريًا. وفي أيلول/ سبتمبر 2008، وقبل الانتخابات العامة بنحو شهرين، تدهورت حالة الاقتصاد الأميركي بصورة كبيرة، ودخلت أسوأ مراحل الركود الذي لاحت إرهاصاته

(116) Metzger, «Is Obama an Isolationist?».

(117) Metzger, «Is Obama an Isolationist?».

أواخر عام 2007، الأمر الذي رجّح كفّة أوباما في انتخابات الرئاسة في تشرين الثاني/ نوفمبر 2008 ضد منافسه الجمهوري جون ماكين. ومن المعروف أن أحد الأسباب المركزية التي عُزي إليها الركود العميق في الاقتصاد الأميركي حينئذٍ، عائد، كما أشرنا من قبل، إلى الكلفة الهائلة لحربي أفغانستان والعراق وحرب «الإرهاب» عمومًا. لكن إذا كانت حرب أفغانستان مبرّرة في الوعي الجمعي الأميركي بسبب إيوائها تنظيم «القاعدة» الذي شنّ هجمات أيلول/ سبتمبر 2001، فإن حرب العراق لم تكنْ مبرّرة، وهي حرب خيار، كما أشار أوباما، وأوضحنا من قبل.

ضمن هذين المعطيَين، ومعارضة التورّط الأميركي في العراق، وما ترتّب عليه من كلفة اقتصادية هائلة على الولايات المتحدة، تشكّل أحد ملامح فلسفة أوباما في السياسية الخارجية. ومن ثمّ وجدنا أوباما يتحدّى التعريفات التقليدية لجدليتي القيادة الأميركية العالمية في مقابل مفهوم الانعزالية. وكنا قد أشرنا من قبل إلى خطابين لأوباما في أكاديمية ويست بوينت أبدى فيهما معارضته لتدخّل أميركي عالمي ما وراء إمكاناتها ومصالحها. وسيقدّم أوباما بُعدًا آخر لملامح سياسته الخارجية متمثلًا في تكاملية القوة الاقتصادية الأميركية في الداخل والقيادة الأميركية عالميًا، أو ما سيقول هو عنه إنه حان الأوان لـ «البناء هنا» في أميركا.

في أيار/ مايو 2012، وبعد زيارة أوباما إلى أفغانستان وتوقيعه اتفاقًا مع الرئيس الأفغاني، كرزاي، يحدّد ملامح العلاقات الأميركية - الأفغانية لمدّة عشرة أعوام بعد الانسحاب الأميركي المفترض من أفغانستان في أواخر عام 2014، قال أوباما: «كما اتّفق تحالفنا، فإن الأفغان سيكونون مسؤولين عن أمن بلدهم في نهاية عام 2014. لأن بعد أكثر من عقد واحد من الحرب، آن الأوان لبناء الوطن، هنا في أميركا»[118].

هكذا، لئن بدا منطق أوباما كمنطق الانعزاليين، فإنه تبنّى عمليًا إطارًا

---

(118) <http://abcnews.go.com/blogs/politics/2012/05/obamas-weekly-address-time-to-focus-on-nation-building-here-at-home/>.

جديدًا وموقفًا وسطًا بين دعاة الانعزالية ودعاة التدخّل المباشر في كلّ شيء في السياسة الخارجية الأميركية. هذا الإطار قائم على أن أميركا تتدخّل بدرجة ما تتطلّب مصالحها وإمكاناتها وضمن تحالفات وغطاء شرعي دولي، من دون أن تتورّط في الأحادية المكلّفة (التدخّل في ليبيا أنموذجًا)، وبما لا يؤثّر في استقرار الاقتصاد والنموّ الأميركيين، الناظم الأساس والموضوعي لعظمتها وقوّتها العسكرية ونفوذها الدولي.

حادي عشر: هاغل وزير دفاع يدرك حدود القوة الأميركية

سيؤكّد أوباما هذا التوجّه الفلسفي في سياساته الخارجية بتسميته تشاك هاغل لمنصب وزير الدفاع في إدارته الثانية مطلع العام الجاري. وهاغل هذا، كان عضوًا جمهوريًا في مجلس الشيوخ الأميركي عن ولاية نبراسكا (1997-2009)، كما أنه أحد العسكريين الذين قاتلوا من قبل في حرب فيتنام. وعلى الرغم من أنه كان ضمن من صوّتوا في مجلس الشيوخ في عام 2002 لمصلحة الغزو الأميركي للعراق، فإنه أصبح في مرحلة لاحقة معارضًا لهذه الحرب وأسلوب إدارة بوش لها، كما عارض زيادة عديد القوات الأميركية في العراق في أواخر عام 2006[119]. بل إنه كان واحدًا من ثلاثة جمهوريين في مجلس الشيوخ الأميركي ممّن وقعوا مشروع قرار ديمقراطيًا غير ملزم في تموز/ يوليو 2007 يطالب إدارة بوش بسحب القوات الأميركية بصورة أحادية من العراق خلال 120 يومًا[120]، وهي الأمور التي جلبت عليه سخط زملائه في الحزب الجمهوري.

أبعد من ذلك، فإن هاغل الذي عيّنه أوباما في عام 2009 رئيسًا مشاركًا للمجلس الاستشاري لشؤون الاستخبارات، يقدّم نصائحه إلى الرئيس مباشرة، وأبدى كثيرًا من القلق حيال استمرار أي تدخّل أميركي في العراق وأفغانستان، معتقدًا أن كسب المعركة أو خسارتها في ذينك البلدين أمر لا يعني الولايات

---

(119) <http://www.cnn.com/2007/POLITICS/01/11/iraq.congress/index.html>.

(120) <http://news.bbc.co.uk/2/hi/americas/6296397.stm>.

المتحدة بقدر ما يعني البلدين نفسيهما. وصرح بعد استقالته من ذلك المجلس في عام 2011 أن على الرئيس أوباما أن يبدأ التفكير في الانسحاب من أفغانستان[121].

يمكن أن نعزو تسمية أوباما لهاغل وزيرًا للدفاع، وهو ما أُقر في شباط/ فبراير 2002 بعد معركة شرسة مع الجمهوريين في مجلس الشيوخ، إلى التوافق الكبير بين فلسفة الرجلين في مجال السياسية الخارجية الأميركية، الأمر الذي يعزّز الانطباع بأن أوباما يريد أن يجعل من خيار استخدام القوة العسكرية خيارًا أخيرًا في سياسته الخارجية.

هاغل هو أحد المقتنعين بأن للقوة العسكرية الأميركية حدودًا لا تستطيع أن تتجاوزها. وقد تأثر صوغ أفكاره في هذا المجال بمشاركته جنديًا في حرب فيتنام. كما أنه أحد السياسيين المتشكّكين في نجاعة أي تدخّل عسكري في إيران، ويرى، بحسب تصريحات له في عام 2007، أن ثمّة أرضية للتعاون الأميركي - الإيراني، كما يمكن معالجة موضوع ملف إيران النووي بصورة سلمية[122]. وهو يشاطر أوباما الرأي في واحد من أهمّ تصوّراته للسياسة الخارجية الأميركية، ألا وهو ضرورة تحقيق توازن بين البناء العسكري خارجيًا، وبناء الاقتصاد الوطني الأميركي. وتاليًا، يُعَدّ هاغل أحد الأصوات المدافعة عن تخفيف جرعة العسكرة في السياسة الخارجية الأميركية وضرورة البحث عن تحالفات وغطاء دولي، ذلك أن حربًا جديدة قد تضعف الأمن القومي الأميركي وتضاعف من مديونية الدولة[123].

لذلك، ثمّة من يجادل بأن حملة الجمهوريين وبعض أذرع اللوبي الصهيوني على ترشيح أوباما لهاغل لم تكن مرتبطة أساسًا ببعض تصريحات هاغل الناقدة لبعض سياسات إسرائيل، بقدر ما أن الأمر مرتبط بقلق هذه

(121) <http://journalstar.com/news/local/govt-and-politics/chuck-hagel-says-time-to-wind-down-in-afghanistan/article_51442bec-9265-5eaf-a69d-4a84de0a443c.html>.

(122) <http://www.foxnews.com/opinion/2013/02/21/chuck-hagel-is-willfully-blind-about-iran/>.

(123) Beinart, «Why Hagel Matters».

الأطراف من أن وجود هاغل على رأس وزارة الدفاع الأميركية قد يقلّل إمكان شنّ الولايات المتحدة هجومًا عسكريًا على إيران[124].

ثاني عشر: أولويات السياسة الخارجية في المدى المنظور

إن المناقشة التفصيلية السابقة للمعطيات والسياقات التي أوصلت الولايات المتحدة إلى حيث هي اليوم، بعد تورّطها في الوحل العراقي وما ترتّب عليه من تداعيات، فضلًا عن مناقشتنا طبيعة ونوعية التحدّيات التي تواجهها أميركا في هذا المفصل التاريخي، ستعيناننا بصورة كبيرة على محاولة فهم تأثير التورّط الأميركي في العراق، ثمّ الانسحاب منه، في جنوحها نحو الواقعية في رسم أولوياتها في سياستها الخارجية.

تجنّب أوباما في خطابه الأول عن حالة الاتحاد أمام الكونغرس في فترة رئاسته الثانية، في 12 شباط/ فبراير 2013، الخوض كثيرًا في السياسة الخارجية الأميركية، مفضّلًا التركيز على الأجندة المحلية، وعلى رأسها الاقتصاد، لأنها ستكون هي الحكم الحقيقي على رئاسته. لكنّ قلّة تركيز أوباما على السياسة الخارجية تعدّ بحدّ ذاتها مؤشّرًا إلى فلسفة إدارة الرجل في السياسة الخارجية، وهي انعكاس لحقيقة أميركا - المتضعضعة داخليًا وخارجيًا - التي ورثها من إدارة بوش، الأمر الذي مرّ من قبل. وهناك أمور تقتضي الإشارة، منها:

- لعل أولى القضايا التي تثير الانتباه في خطاب أوباما ذاك هو موضعته إلى حدٍّ كبير للسياسة الخارجية الأميركية في إطار اقتصادي، وإعطاء الأولوية لبناء الوطن الأميركي؛ فهو وإن تحدّث عن التحديات الأمنية القادمة من «الجماعات المتطرّفة» والاستراتيجيا القادمة من كوريا الشمالية وإيران بسبب ملفّيهما النوويين، فضلًا عن الوضع في سورية ورياح التغيير في الشرق الأوسط وإعادة تأكيد التزام أميركا أمن إسرائيل والتوصّل إلى سلام دائم في المنطقة... إلخ،

---

(124) Beinart, «Why Hagel Matters».

يعود ليؤكّد أنه ينبغي ألّا تستغرق الولايات المتحدة في التهديدات، بل يجب أن تلتفت أيضًا إلى الفرص.

هذه الفرص كلّها اقتصادية لتقوية الاقتصاد الأميركي: «حتى ونحن نحمي شـعبنا، علينا أن نتذكّر أن عالم اليوم لا يعرض المخاطر فحسـب، بل يعرض الفرص كذلـك. لتعزيز الصادرات الأميركية ودعـم الوظائف الأميركية ولفتح أبواب الأسواق المتنامية في آسيا، فإننا نعتزم اسـتكمال المفاوضات في شأن الشراكة عبر المحيط الهادئ. وهذه الليلة، أعلن أننا سوف نبدأ محادثات شراكة شاملة وتجارية واستثمارية عبر الأطلسـي مع الاتحاد الأوروبي - لأن التجارة الحرّة والنزيهة عبر المحيط الأطلسـي سـوف تدعم الملايـن من الوظائف الأميركية ذات الأجور الجيدة»[125].

يذهب وزير الخارجية، جون كيري، أبعـد من ذلك في توضيح هذا البُعد في خطابه أمام جامعة فرجينيا في العشرين من شباط/ فبراير 2013، عبر تأكيده أن الدبلوماسـية الأميركية تتكامل مـع الاقتصاد الأميركي، وأنهـا تقوم بدور محوري في السهر على خدمة الاستثمار والاقتصاد الأميركي[126]. مرّةً أخرى، الإشارة هنا إلى ضرورة وضع قدرات أميركا الاقتصادية والدبلوماسية كلها في بناء الوطن واقتصاده أولًا.

لا شـكّ في أن حديث أوباما عن تعزيز العلاقـات والتبادل التجاري عبر الهادئ مع القارّة الآسـيوية يتّسـق وتوجّه إدارته - الذي مر من قبل - للتركيز على ذاك الفضاء الجيوسـتراتيجي؛ فتنامـي النفوذ الصيني هناك اسـتراتيجيًا وعسكريًا، مستغلًا التورّط الأميركي في كلٍّ من أفغانستان والعراق من قبل، كما أسلفنا، يثير قلق الولايات المتحدة. ثمّة جانب آخر يقلق الولايات المتحدة من تنامي النفوذ الصيني في المنطقة أيضًا، هو الاقتصاد؛ فـ «آسيا تعدّ قوة المستقبل، ويتوقّع الخبراء أن تستحوذ على نحو 50 في المئة من النمو الاقتصادي الدولي

---

(125) <http://www.whitehouse.gov/the-press-office/2013/02/12/president-barack-obamas-state-union-address>.

(126) <http://www.state.gov/secretary/remarks/2013/02/205021.htm>.

خارج الولايات المتحدة. ولا شـّـك في أن للأزمــة الاقتصادية أثرها في توجّه الولايات المتحدة للتركيز على القارّة الآســيوية. فالصين وبقية النمور الآسيوية حافظتا على معدّلات نمو اقتصادي مهمّة في مرحلة الكســاد العالمي. وتمثّل هذه الدول وغيرها في القارّة فرصًا تصديرية للشــركات الأميركية. كما أن نمو الهند الاقتصادي يثير شهية دوائر المال والأعمال في الولايات المتحدة. فالهند اليوم تحتلّ المرتبة التاســعة في زمرة الاقتصادات العشرة الأضخم في العالم، ومرشّــحة لتخطّي إيطاليا في غضون عامين فقط. هذا النمو المتسارع في ثاني أكبر دول العالم من حيث تعداد الســكان يعني زيادة الطبقة الوسطى بعشرات الملايين، وهي التي قد تمثّل طوق النجاة للشركات الأميركية التي تعاني اشتداد حدّة التنافس داخليًا وخارجيًا. وفي عام 2010 فاق مجموع صادرات الولايات المتحدة إلى آســيا مجمل صادراتهــا إلى أوروبا أول مرّة في التاريخ. وتشــير إحصاءات التجــارة الخارجية الأميركية إلى وجود تســع دول آســيوية ضمن قائمة الدول الخمس والعشرين الأولى من حيث التبادل التجاري مع الولايات المتحدة[127].

– البُعد الآخر الذي يمكن أن نستشفّه في سياق حديث أوباما عن السياسة الخارجية وأولويات بلده عالميًا، هو الســعي ما أمكن إلى تقليل جرعة خطاب العســكرة في السياســة الخارجية، وضرورة العمل من خــلال الأطر الدولية والتحالفية. ولا شكّ في أن هذا المعطى – الذي يندرج هو نفسه ضمن الإطار الاقتصادي – يمثّل أحد تداعيات التورط الأميركي في العراق وأفغانستان، وفي حرب أميركية طويلة وغير مُعَرّفَة، ولا يعرف فيها عدوٌّ محدّد. ففي سياق حديثه عن الانسحاب العســكري الأميركي المنتظر من أفغانستان أواخر عام 2014، والتحدّيات التي تشــكلها «القاعدة» و«التنظيمات المتطرّفــة» المرتبطة بها من الجزيرة العربية إلى أفريقيا، قال: «إننا لن نحتاج إلى إرسال عشرات الآلاف من أبنائنا وبناتنا إلى الخارج لاحتلال دول أخرى. عوضًا عن ذلك، ســوف نحتاج

(127) محمود حمد، «أميركا والتوجه الاستراتيجي شرقًا.. الفرص والتحديات،» مركز الجزيرة للدراسات، 25/ 2/ 2013، <http://studies.aljazeera.net/reports/2013/02/201322411521920549l.htm>.

إلى دعم دول كاليمن وليبيا والصومـــال، لتتولّى أمنها بذاتها، وكذلك إلى دعم الحلفاء الذين يأخذون الحرب إلى الإرهابيين، كما نفعل في مالي»[128].

- إن تركيز السياســة الخارجية الأميركية على الفضاء الآسيوي اقتصاديًا واستراتيجيًا، فضلًا عن محاولة احتواء الصين الصاعدة بسرعة وقوة، لا يعنيان أن الولايات المتحدة ســتتخلّى عن التزاماتها في مناطق أخرى من العالم، ومن ذلك طبعًا الشرق الأوسط. فمجرّد إشارة أوباما إلى قضايا المنطقة في خطابه، يعــدّ اعترافًا أميركيًا بأنــه لا يمكن للولايــات المتحدة أن تغفــل ذلك الجزء الحسّاس من العالم على الرغم من كلّ ما يقال عن تراجع أهمية منطقة الخليج في الحســابات الأميركية، مع تزايد الإنتاج النفطي في الولايات المتحدة[129]. ثم إن هــذا الالتزام لن يكون أولوية أميركية على الأقــل في هذه المرحلة. ولا مؤشّــرات إلى أن جولة وزير الخارجيــة الأميركي، جون كيــري، إلى أوروبا والشرق الأوسط أواخر شــباط/ فبراير وأوائل آذار/ مارس 2013 (على عكس سابقته هيلاري كلينتون التي كانت أول جولة لها في جنوب وشرق آسيا) تمثّل دليلًا على تغيير في المقاربة الأميركية المركّزة أكثر على الفضاء الجيوستراتيجي الآسيوي في شقّيه الجنوبي والشرقي[130].

ما يمكن أن نخلص إليه في هذا الســياق هو أن الاستراتيجيا الأميركية في المنطقة ســتبقى حريصة على عدم دخولها (أي المنطقة) في فوضى، وضمان عدم خروج التطوّرات فيها عن نطاق سيطرتها ونفوذها وقدرتها على الاحتواء، لكن من دون الانخراط الكامل في مشكلاتها، وفي ذلك ملفّ السلام العربي- الإســرائيلي. ولا شــكّ في أن إعادة تشــكيل بنيامين نتنياهو حكومة إسرائيلية يمينية جديدة سيحدّ من رغبة إدارة أوباما في محاولة الاستثمار مجدّدًا في ملف السلام.

---

(128) خطــاب أوباما عن حالــة الاتحاد أمام الكونغــرس فــي 12/ 2/ 2013، <http://www.whitehouse.gov/the-press-office/2013/02/12/president-barack-obamas-state-union-address>.

(129) Kenneth Rapoza, «So Long Middle Eastern Oil, Hello American,» *Forbes* (12 November 2012), <http://www.forbes.com/sites/kenrapoza/2012/11/12/so-long-middle-eastern-oil-hello-american/>.

(130) «هل ثمة من تغيير في أولويات إدارة أوباما الاســتراتيجية؟» مركز الجزيرة للدراســات، 11/ 3/ 2013، <http://studies.aljazeera.net/positionestimate/2013/03/201331195316266879.htm>.

على صعيد الملف السـوري، على الرغم من حديث أوباما في خطابه عن حالة الاتحاد عن «إبقاء الضغط على النظام السـوري الذي يقتل شـعبه، فضلًا عن دعم زعماء المعارضة الذين يحترمون حقوق السـوريين جميعًا»[131]، فإن موقف إدارته إلى الآن لا يزال متردّدًا وغامضًا ومتقلّبًا، وهو يميل أكثر إلى تقليل الانخراط فيه. كما أننا نعرف الآن أن أوباما رفض مطالب - في صيف 2012- وزيري خارجيته ودفاعه السابقين، هيلاري كلينتون وليون بانيتا، ورئيس وكالة الاستخبارات المركزية السابق، ديفيد بترايوس، لتسليح المعارضة السورية[132]. والإشارات التي تأتي من المسؤولين الأميركيين متناقضة؛ ففي «مؤتمر أصدقاء سورية الذي عُقد في روما أواخر شباط/ فبراير 2013، أعلن كيري أن الولايات المتحدة ستقدّم مسـاعدات «غير قاتلة» للمعارضة السـورية[133]، ثمّ ألمح في الدوحـة بعد أيام، في أوائل آذار/ مارس في سـياق وقائـع المؤتمر الصحافي الذي جمعه مع رئيس الوزراء وزير الخارجية القطري، الشيخ حمد بن جاسم، إلى إمكان قبول الولايات المتحدة بتقديم سـلاح إلـى بعض قوى «المعارضة المعتدلة في سـورية»، قبل أن يعود في المؤتمر الصحافـي ذاته إلى القول إن إعلان جنيف يمثّل إطار الحل للمعارضة والحكومة السـوريتين ولا يسـتبعد دورًا مستقبليًا للرئيس بشّار الأسد[134]. ووصل الموقف الأميركي المتقلّب الآن إلى حد إعلان كيري في 12 آذار/ مـارس 2013 في مؤتمر صحافي مع وزير الخارجية النرويجي في واشـنطن: «نريد أن نتمكّن من رؤية الأسد والمعارضة جالسين إلى الطاولة لإنشاء حكومة انتقالية بحسب إطار العمل الذي وضع في جنيف»، مضيفًا أن اتفاق جنيف يتطلّب موافقة متبادلة من كلا الطرفين لتشكيل الحكومة الانتقالية. وقال: «لا بدّ من أن يغير الأسـد حساباته فلا يظنّ أنه قادر على إطلاق النار إلى ما لا نهاية، ولا بدّ أيضًا من معارضة سورية متعاونة تأتي

(131) <http://www.whitehouse.gov/the-press-office/2013/02/12/president-barack-obamas-state-union-address>.

(132) <http://www.rawstory.com/rs/2013/02/07/panetta-the-pentagon-and-clinton-supported-arming-syrian-rebels/>.

(133) <http://www.cnn.com/2013/03/05/politics/kerry-interview>.

(134) <http://www.aljazeera.net/news/pages/d75420da-7504-4c39-ba62-d8a461722125>.

إلى الطاولة»[135]، وهو عكس الموقف الذي يشير إلى ضرورة تخلّي الأسد عن السلطة كما أعلن أوباما في الماضي غير مرّة. ولا يستبعد أن تطوّر الموقف الأميركي هذا يأتي في إطار صفقة مع روسيا في المنطقة، بل وحتى مع إيران في ما يتعلّق بملفّها النووي.

أمّا التعامل مع تداعيات «الربيع العربي»، فمن الواضح أن الولايات المتحدة استوعبت الحوادث التي سبّبت لها إرباكًا في البداية، وهي تعمل الآن على احتواء نتائجه ونطاقه في المنطقة، وضمان ألّا تؤدي آثاره إلى تشكيل صداع جديد لها ولمصالحها الأخرى في المنطقة. ففي خطاب حالة الاتحاد الأخير لم تحظ التغيرات الجارية في المنطقة إلّا بعبارات قليلة من كلام أوباما، على عكس خطابه السابق، حيث قال: «في الشرق الأوسط، سنقف مع المواطنين ما داموا يطالبون بحقوقهم العالمية، كما سندعم التحوّل المستمر نحو الديمقراطية. هذه العملية ستكون فوضوية، ولا نستطيع الافتراض بأننا قادرون على التحكّم بمسار التغيير في بلد مثل مصر، ولكنّنا نستطيع - وسنفعل ذلك - أن نضغط من أجل احترام الحقوق الأساسية لجميع الناس»[136].

- تراجع جرعة العسكرة في السياسة الخارجية الأميركية جرّاء نتائجها الكارثية في حقبة بوش الابن، لا يعني انسحابًا أميركيًا من العالم، بقدر ما يعني أن الولايات المتحدة ستعطي أولوية أعلى للـ«القوّة الناعمة» من دون أن يعني ذلك التخلّي كليًا عن «القوة المتوحشة»، غير أن «القوّة المتوحّشة» ستكون عامل ردع وتهديد، لا مقدّمة لهجمات استباقية أو وقائية، كما كانت عليه الحال زمن بوش الابن.

هكذا نجد أن أوباما يؤكّد في خطابه السابق أن الولايات المتحدة ستساهم في جهد محاربة الفقر في العالم، كما أنها ستدعم المشاريع التعليمية

---

(135) <http://norway.usembassy.gov/kerry_eide.html>.

(136) <http://www.whitehouse.gov/the-press-office/2013/02/12/president-barack-obamas-state-union-address>.

والصحّية... إلخ.[137]، وهو المعنى ذاته الذي أكّده كيري في خطابه أمام جامعة فرجينيا في 20 شباط/ فبراير 2013[138].

هذا في ما يتعلّق بالوجه «الناعم» لسياســة أوبامــا الخارجية، أمّا وجهها «المتوحّش» فإن الولايات المتحدة ماضية بهجماتهــا الصاروخية من طائرات بلا طيار على من تعتقد أنهم «إرهابيون» في اليمن وباكستان وأفغانستان... إلخ. كما أن الخيار العســكري مع إيران يبقى حاضرًا في خطــاب إدارة أوباما، وإن كانت تصرّ على أنه خيار أخير، وأن الأولوية هي للحل الدبلوماسي.

خلاصة

من خلال العــرض المفصّل الســابق لمقدّمات الغــزو الأميركي للعراق وتداعيــات هذا الغزو، ومن ثمّ الانســحاب منــه بعد النتائــج «الكارثية» التي حصدتها الولايات المتحدة فيــه ومنه، يمكن القول إن توجّه الولايات المتحدة في هذه المرحلة نحو الداخل لـ «إعادة بناء الوطن» إنما يجيء في سياق محاولة لترميم الأعطاب الكبيرة التي لحقت بالولايــات المتحدة، وفي ذلك رفاهيتها، جرّاء اتّبــاع إدارة بوش الأولى أيديولوجيا «المحافظيــن الجدد» الحالمة بتفرّد أميركي متجاوز قدرات أميركا وإمكاناتها.

بالتالي، فــإن إعطــاء الأولوية للدبلوماســية على العســكرية في المدى المنظور لا يندرج بالضرورة في ســياق الاتّساق مع فلسفة خاصة بأوباما، بقدر ما أنها نتاج واقع أميركــي صعب ومترهّل في هذا المفصل التاريخي. ولعل في ردّ الحزب الجمهوري على خطاب حالة الاتحاد الأخير الذي ألقاه أوباما أمام الكونغرس، وأشرنا إليه آنفًا، ما ينبئنا بالكثير. ذلك أن الردّ الجمهوري لم يتطرّق قط إلى السياســة الخارجية، ولا حتى إلى نقد ما جاء فــي خطاب أوباما عنها. وتتضاعف أهمية هــذه النقطة إذا علمنا أن الجمهوريين يرون أنفســهم الأقدر

(137) <http://www.whitehouse.gov/the-press-office/2013/02/12/president-barack-obamas-state-union-address>.

(138) <http://www.whitehouse.gov/the-press-office/2013/02/12/president-barack-obamas-state-union-address>, and <http://www.state.gov/secretary/remarks/2013/02/205021.htm>.

تاريخيًا على إدارة السياسة الخارجية وإبراز العظمة والقيادية الأميركيتين.

هذا ينبغي ألّا يدفعنا إلى الاعتقاد جازمين بأن الولايات المتحدة لن تلجأ إلى استخدام القوة وإرسال قوات عسكرية في مهمّات خارجية كبيرة، على الرغم من إشارات أوباما المتكرّرة إلى أن أميركا تحت قيادته لن تذهب إلى حرب إلّا في حالة الضرورة القصوى. فقرار الحرب أو السلم ليس قرارًا أميركيًا فحسب (التطورات الحالية في كوريا مثال واضح)، وأميركا، أكانت في ظل إدارة بوش أم في ظل إدارة أوباما، لن تقبل تحدّي حقيقة كونها القوة العسكرية الأعظم على وجه الأرض، وتاليًا محاولة أي تهديد قد يؤثّر في هذه المكانة ونفوذها ومصالحها الحيوية والمباشرة.

مع ذلك، فإن أي توجّه أميركي إلى حرب جديدة لن يُتّخذ من دون عميق تفكّر ونقاش، فلئن اضطرّت أميركا إلى الذهاب إلى حرب أو اختارتها أو دُفِعَتْ إليها نيابة عن طرف ثالث، كما في حالة إيران بسبب الضغط الإسرائيلي، فإنه لن يكون في مقدورها وإن انتصرت عسكريًا أن تمنع وقوع المزيد من الترهّل في قوتها واقتصادها، فضلًا عن تراجع مكانتها عالميًا. فكما في تجربتيها في حربي العراق وأفغانستان، فإن أميركا تستطيع أن تبدأ حربًا، كما أنها تملك قوة تدميرية هائلة، لكنها لا تملك بالضرورة القدرة على تحقيق نصر استراتيجي حاسم يجنّبها مخاطر استنزاف جديد.

الفصل الثالث

الاتحاد الأوروبي والعرب
من «الحوار» إلى «الربيع العربي»

بشارة خضر

مقدّمة

ينظر كثيرون من الأوروبيين إلى العالم العربي، في أحسن الأحوال، على أنه بئر نفط وسوق ضخمة. ويرَونه، في أسوأ الأحوال، بيئة مضطربة وخطرة. لذلك، فإن الوصول إلى النفط واختراق الأسواق والمصالح الأمنية هما العاملان اللذان أثّرا إلى بعيد في صوغ السياسات الأوروبية تجاه هذه المنطقة.

سعت السياسات الأوروبية خلال خمسة وستّين عامًا مضت - معتمدةً مسمّيات ومشاريع مختلفة - إلى تحقيق الأهداف نفسها: الطاقة والأسواق والأمن. وتبدو تلك المساعي جلية في السياسة المتوسطية الشاملة (1972 - 1992)، والحوار الأوروبي - العربي (1973 - 1989)، والسياسة المتوسطية المتجدّدة (1990- 1996)، والشراكة الأوروبية - المتوسطية (1995 - 2008)، وسياسة الجوار الأوروبية (2004 - 2012)، وأخيرًا، الاتحاد من أجل المتوسط (2008 - 2012). وفي بعض الأحيان، كان يجري انتهاج سياستين أو ثلاث سياسات متداخلة في آن معًا.

أمّا الأهــداف الأخرى، مثل حــلّ النزاعات وحقوق الإنســان والتّرويج للديمقراطيــة، فغالبًا ما كانت تأتي إلــى ذكرها الوثائق الرســمية الصادرة عن الاتحاد الأوروبي (المذكّرات الإعلامية للهيئة الأوروبية، وإعلانات المجالس الأوروبية، وقــرارات البرلمان الأوروبي). لكن الفجــوة بين الأقوال والأفعال هائلة. وكان الدور الأوروبي في حلّ الصراع العربي - الإسرائيلي هامشيًا بيانيًا، وغالبًا كان متردّدًا إن لم يكن مفكّكًا، في حين أُرجئت مســألة حقوق الإنسان والديمقراطية التي يُفترَض أن تكون جوهر السّياسات الأوروبية، لأسباب تتعلّق بـ«السياسة الواقعية»، ولم يؤخذ المجتمع المدني العربي جديًا، بوصفه شريكًا في الحوار.

أخذ الربيع العربي الاتحاد الأوروبي علــى حين غرّة، وأظهر مدى حيوية المجتمع المدني العربي. فتابع الاتحاد التطوّرات المتلاحقة في كثير من البلدان العربية، واضطر إلى الاســتجابة على عجل للتحدّيات الجديــدة. وتمثّل هذه الدراسة محاولة لتســليط بعض الضوء على العلاقات الأوروبية السابقة بالعالم العربي، وتقديم تقويم نقدي للاستجابة الأوروبية الجديدة.

أولًا: السياسات الأوروبية تجاه العالم العربي ومنطقة المتوسّط 1957 - 2012

تنــدرج العلاقات بين الجماعــة الاقتصادية الأوروبية - المســمّاة لاحقًا الاتحاد الأوروبي - تحت أربع فئات:

- الحوار الأوروبي - العربي المتعدّد الأطراف (1974 - 1989)؛

- شــبكة اتفاقات الاتحاد الأوروبي المتعدّدة الأطراف والاتفاقات الثنائية (مع كلّ بلد جنوبي) بموجب السياســة المتوسطية الشاملة (1972 - 1992)، والسياســة المتوســطية المتجدّدة (1992 - 1995)، والشــراكة الأوروبية - المتوسطية (1995 - 2008)، والجوار الأوروبي (2004 - 2012) والاتحاد من أجل المتوسط (2008 - 2012)؛

- **الاتفاقات المتعدّدة الأطراف مع هيئات دون إقليمية**، مثل الاتفاق بين الاتحاد الأوروبي ومجلس التعاون الخليجي (1988)؛

- **علاقات دون إقليمية أخرى**، بين بعض الدول الأوروبية الأعضاء وبعض البلدان العربية أو المتوسطية، مثل فكرة عقد المؤتمر المعني بالأمن والتعاون في منطقة البحر الأبيض المتوسط (1990)، أو مبادرة 5+5[1] (1990)، أو المبادرة الفرنسية - المصرية المعروفة بمنتدى منطقة البحر الأبيض المتوسط (1992).

تثبّت هذه الوفرة من المبادرات حقيقة بسيطة هي أن العالم العربي هو تُخم أوروبا الأول. فالمسافة التي تفصل بين إسبانيا والمغرب هي 14 كلم فقط: بل يمكن للمرء أن يقول، إذا أخذنا الجيبين الإسبانيين في الحسبان (سبتة ومليلة) في المغرب، إن الأراضي الأوروبية محاذية للأراضي العربية. ولا غرابة إذًا في أن علوم التاريخ والاقتصاد والسياسة العربية والأوروبية متشابكة إلى هذه الدرجة. وبناء عليه، فإن الجوار الجغرافي هو أساس العلاقات الأوروبية - العربية.

لكن العالم العربي يُرى في أوروبا «الفارق» الأقرب، في حين ترى أوروبا نفسها «المرجع» الأقرب.

ترك تاريخ أوروبا الاستعماري أثره في دينامية العلاقات عبر حوض المتوسط. وكان الاتحاد الأوروبي - ولا يزال - الشريك التجاري الرئيس للعالم العربي (نحو 50 في المئة من مجموع التجارة العربية و62 في المئة من مجموع التجارة المغاربية). تأتي مثل هذه المبادلات العمودية المفرطة في العلاقات التجارية متباينة مع تجارة بينية عربية ضعيفة. وهنا تكمن الخصوصية

(1) مبادرة «5 +5 دفاع» هي شراكة أُنشئت بين خمس بلدان تقع شمال خمس بلدان من الضفّة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسّط الغربي. أطلقها في 21 كانون الأول/ ديسمبر 2004 وزراء دفاع كلّ من الجزائر وفرنسا وإيطاليا وليبيا ومالطا وموريتانيا والمغرب والبرتغال وإسبانيا وتونس.

الأولى للعلاقــات الأوروبية - العربيــة، إذ هناك طرفــان: الأول، أي الاتحاد الأوروبي، فهو أكثر المناطق تكاملًا في العالم، إذ تبلغ نســبة التجارة الداخلية فيه 72 في المئة تقريبًا، في حين أن الطــرف الثاني، أي العالم العربي، هو أقل مناطق العالم تكاملًا، إذ تراوح تجارته البينية بين 10 و12 في المئة في أحسن الأحوال.

إن العالم العربي شــريك ضروري لأوروبا في قطاع واحد وحيد، هو الطاقة. فأكثر من 50 في المئة مــن واردات الاتحاد الأوروبي النفطية و18 في المئة مــن مجموع وارداته من الغاز[2] تأتي مــن العالم العربي. وتصدّر البلدان العربية غير المنتجة للنفط، بصورة رئيســة، منتجات زراعية وبعض المنتجــات الصناعية ذات القيمة المضافة الضئيلة (المنســوجات) والمواد الخام، لكنّها تصدّر مهاجرين أيضًا. وقدّرتُ في دراســة أجريتها مؤخّرًا أن مجموع عدد العرب الذين يعيشــون في أوروبا بين ســبعة ملايين وثمانية ملايين نســمة (80 في المئة منهم من أصل مغاربي)، آخذًا في الحســبان العــرب المهاجرين والعــرب والمغتربين، المجنّســين وغير المجنّســين، النظاميين وغير النظاميين[3].

نظرًا إلــى هذه الدرجــة العالية مــن التبعيــة، لا غرابة فــي أن الجماعة الاقتصادية الأوروبيــة، وبعدها الاتحاد الأوروبي، ســعيا دائمًا إلى ربط العالم العربي بسوقهما من خلال مروحة واسعة من المبادرات والأطر السياسية. ومن دون الدخول في كثير من التفصيلات، تســعى هذه الدراسة إلى تقويم مساهمة هذه السياســات والمبادرات في جَســر الهوّة بين المنطقتين، وتشــجيع التغير الديمقراطي في العالم العربي.

---

(2) Bichara Khader, «European Interests in the Arab World,» Casa Arabe, European Union and the Arab World, Casa Arabe - CIDOP (Barcelona Centre for International Information and Documentation, Madrid, 2010), pp. 14-29. See also: Michael Sakbani, «Europe 1992 and the Arab Countries, » in: Bichara KHADER (ed.), The EEC and the Arab World, Special issue of: *Journal of Arab Affairs*, vol. 12, no. 1 (Spring 1993), pp. 113-124.

(3) Bichara Khader, coordinateur, *Les Migrations dans les rapports euro-méditerranéens et euro-arabes: études de cas* (Paris: l'Harmattan, CERMAC, UCL Belgique, 2011), p. 229.

1- الحوار الأوروبي - العربي (1973- 1989)

عشـية توقيع معاهدة روما في عام 1957، كانت أوروبا تفقد نفوذها في الشرق الأوسط، في حين كانت فرنسا تسـعى إلى السيطرة على حركة التحرير الجزائرية. وبعد حرب السويس التي شـاركت فيها فرنسا وبريطانيا وإسرائيل، أشـارت القوى العظمى الجديدة (الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي) إلى أن الزمن تغير، وأنها هي التي سـتضع القواعد مـن الآن فصاعدًا وتملأ الفراغ الاسـتراتيجي. بيد أن أوروبا أخـذت، بعد حرب 1967، تعود إلى المشـهد العربي، بفضل الجنرال ديغول والسياسـة المسـمّاة «السياسـة الفرنسية تجاه العرب». إلّا أن حرب تشرين الأول/ أكتوبر 1973 وأزمة النفط الأولى في عام 1973[4] كانتا هما اللتين أطلقتا الحوار الأوروبي - العربي.

أمّا المبادرة التي فعّلـت الحوار بين العرب والأوروبيـن فكانت مبادرة عربية، تجسّـدت في إعلان قمّة الجزائر (28 تشـرين الثاني/ نوفمبر 1973) الذي اقتـرح إجراء حوار مع الجماعـة الاقتصادية الأوروبيـة. وقدّم الاقتراح وقتئذ أربعة وزراء عرب إلى القمّة الأوروبية المنعقدة في كوبنهاغن (10 - 14 كانون الأول/ ديسـمبر 1973) ورحّب به الأوروبيون، خصوصًا من هو معني منهم بإمدادات نفطية مستقرّة «بأسعار معقولة». وفي الواقع كشفت أزمة النفط التي رفعت أسـعار النفط أربعة أضعاف، للأوروبيين مدى تبعيتهم وهشاشتهم. لذلك، لم يتردّدوا في قبول عرض الحوار العربي.

انطلق الحوار الأوروبي - العربي في باريس على المسـتوى الوزاري في 30 حزيران/ يونيو 1974، وتبنّته رسميًا القمّة العربية التي عُقدت في الرباط في 28 تشـرين الأول/ أكتوبر 1974. لكن أهداف كلا الجانبين كانت مختلفة في طبيعتها؛ ففي حين كان العرب معنيين في الدرجة الأولى بتحديد سياسة أوروبية مشتركة ومتماسكة تجاه القضية الفلسطينية، سعى الأوروبيون أساسًا إلى تحقيق

(4) Bichara Khader (sous la direction de), *Coopération euro-arabe: diagnostic et prospective, actes du colloque organisé à Louvain-la-Neuve, 2-4 décembre 1982*, 3 vols (Louvain: CERMAC, 1983), et H. Jawad, *The Euro-Arab Dialogue, A Study in Collective Diplomacy* (Reading: Ithaca Press, 1992).

أرباح اقتصادية ومالية وأخرى في مجـال الطاقة. وبين عامي 1974 و1980، تقدّم الحوار بسلاسة على الرغم من انتقاد إسرائيل والولايات المتحدة لأسباب بينة. وتمّ تحقيق جميـع الأهداف التي أعلن عنهـا الأوروبيون: لم يفرض أي حظر نفطي بعد ذلك، واسـتمرّت إمدادات النفط من دون توقّف، وأعيد تدوير معظم فوائض الأموال العربية إلى السوق المالية الأوروبية[5]، وفتحت الأسواق العربية أبوابها على مصراعيها أمام الصادرات الأوروبية.

تحقّق الهـدف العربي أيضًا، إذ ذكر إعلان البندقيـة الصادر في حزيران/يونيو 1980 الموقف الأوروبي المشترك من القضية الفلسطينية بصورة واضحة لا لبس فيها. ولعل هي أول مرّة التي اختُبِرَت فيها قدرة الأوروبيين على صوغ سياسة خارجية مشـتركة[6]. إلّا أن الحوار العربي - الأوروبي تأجّل مرة أخرى بسـبب عدد من التطوّرات، منها اغتيال أنور السادات (1981)، وما نجم عنها من عزلة مصر عن النظام الإقليمي العربي، والانقسـامات الداخلية في صفوف الدول العربية خـلال الحرب العراقية - الإيرانيـة (1980 - 1989)، والغزو الإسرائيلي للبنان (1982)، إضافة إلى التدهور الأول الذي شهدته أسعار النّفط (1982)، وانتخاب كلٍّ من مارغريت ثاتشـر في المملكة المتحدة وفرانسـوا ميتران في فرنسـا (1981)، والانشـغالات الداخلية الأوروبية (اتفاقية السوق الموحّدة والتوسّـع الثاني وانضمام اليونان (1981) والتوسّع الثالث - انضمام إسبانيا والبرتغال (1986). وشـهد النظام الإقليمي العربي تجزئة لم يسبق لها مثيل، في حين كانـت أوروبا حريصة على تفادي مناهضـة الولايات المتحدة بقيادة الرئيس ريغان.

بعد سقوط جدار برلين في تشرين الأول/ أكتوبر 1989 والتعزيز الملموس

---

(5) كنتُ قد ذكرتُ في تقرير قدّمته إلى الجامعة العربية في عام 1984 أن قيمة الصناديق السيادية لأربع دول خليجية (السـعودية وقطر والإمارات والكويـت) بلغت 400 مليـار دولار أميركي، انظر:
Bichara Khader, «Arab Money in the West» (Report to the Arab League, 1984).

(6) أدّى شـقيقي نعيم خضـر - وكان الممثّل الرسـمي الأول لمنظّمة التحرير الفلسـطينية في بروكسل وقتئذ - دورًا مهمًّا في الحوار الأوروبي - العربي. اغتيل في بروكسل بعد مرور عام على إعلان البندقية (1 حزيران/ يونيو 1981).

لدور ألمانيا في الشـــرق، غيّر فرانســوا ميتران رأيه، فحاول إعادة إحياء الحوار الأوروبي - العربي المحتضـــر، من خلال الدعوة إلى عقـــد المؤتمر الوزاري الأوروبـــي - العربي في باريس (22 كانون الأول/ ديســـمبر 1989). لكن في واقع الأمر، كان ميتران يحاول تعزيز الدور الفرنسي في الجنوب لموازنة الدور الألماني الذي استعاد حيويته في الشرق. هذا المسعى لم يعمّر طويلًا، صحيح أن الحوار استعاد مساره، لكن غزو الكويت بعد ذلك بثمانية أشهر أخرجه عن هذا الخطّ إلى أجل غير مسمّى.

في هذه التمارين الدبلوماســية المتعدّدة الأطراف، تَعامَل الأوروبيون مع أنظمة عربية مفروضة، ما أدّى بصورة غير مباشرة إلى دعم أنظمتها الاستبدادية. وجرى تهميش المنظّمات المدنية العربية تهميشًـــا كامـــلًا، بل جرى تجاهلها. وكانت مسألة الديمقراطية وحقوق الإنسان تُثار أحيانًا، إلّا أنها سرعان ما كانت توضع جانبًا. وفي ذروة ســلطتها، لـــم يكن مزاج الأنظمة العربية يســـمح بأي تدخّل أجنبي، مسلّحة بالذريعة الزائفة القائلة بـ «الخصوصيات الثقافية».

2 - الاتفاقات المتعدّدة الأطراف والاتفاقات الثنائية

يُقصد بهذا التعبير المبادرات السياســية التي اتّخذهـــا الاتحاد الأوروبي خلال الأربعين عامًـــا الأخيرة بهدف تعزيـــز التعاون بين الجماعـــة الأوروبية (المتعدّد الأطراف) وكلّ دولة متوسطية على حدة (الثنائي).

أ - السياسة المتوسطية الشاملة

تعرض هذه «المقاربة» الشـــاملة التي وُضعت في عام 1972، مظلّة عامة لجميع الامتيازات التجارية السابقة، وتضمّ سلسلة ضمن الاتفاقات الثنائية في شـــأن المســـاعدات التنموية والتعاون التجاري المعقودة مع سبع دول ساحلية على حدود أوروبا الجنوبية، وتشـــمل الأردن وتستثني ليبيا وألبانيا. صحيح أن المقاربة الشـــاملة لم تتضمّن الأراضي الفلســـطينية، إلّا أن الجماعة الأوروبية قدّمت إلى الفلسطينيين معونات مالية محدودة (مساهمة في ميزانية وكالة الأمم

المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى المعروفة بالأونروا ومعونة الدول الأعضاء). عُقد اتفاق تفضيلي في عام 1986، قدّم بعض الامتيازات التجارية. وجرى ضمّ دول متوسطية من غير الأعضاء مثل تركيا وقبرص ومالطا في إطار السياسة المتوسطية الشاملة. لكن الجماعة الأوروبية عرضت على هذه الدول «اتفاق ارتباط» يمهّد للعضوية المحتملة في مقابل «اتفاق تعاون» موقّع مع دول المشرق والمغرب.

تتضمّن اتفاقات التعاون كلّها عنصريْن: بروتوكولات مالية (مساعدات وقروض من الصندوق الأوروبي للاستثمار) واتفاقات تجارة تفضيلية. أمّا هدفها العام فهو تعزيز التجارة الأوروبية في منطقة المتوسّط وفتح السوق الأوروبية، من خلال شروط صارمة، أمام المنتجات المتوسطية الصناعية والزراعية. وتشمل أيضًا بندًا اجتماعيًا يتعلّق بإدارة مسألة الهجرة التي غدت همًّا جسيمًا في أوروبا، ولا سيما مع إغلاق الأراضي الأوروبية في وجه موجات هجرة جديدة بعد عام 1973.

بعد ثمانية عشر عامًا من التنفيذ (1972 – 1990)، لم تَفِ السياسة المتوسطية الشاملة بوعودها؛ وظلّت التجارة دافعها، ولم تحفّز استثمارات أوروبية (1 في المئة فقط من الاستثمارات الأوروبية جرى توجيهها إلى منطقة المتوسط الجنوبية)، ولم تساهم في جسر فجوة الرخاء الاقتصادي بين ساحلَي المتوسط (1 إلى 10 من زاوية الناتج المحلّي الإجمالي)، ولم تعزّز التكامل الإقليمي في الجنوب.

في معرض الدفاع عن سياسة الجماعة الأوروبية ضد مثل هذه الملامة، لا بدّ من الاعتراف بأن الدول المتوسطية العربية نفسها لم تظهر أي اهتمام بتأجيل خلافاتها لتشجيع ترتيبات التعاون في ما بينها. وكان ترتيب التعاون الناجح الوحيد هو إنشاء مجلس التعاون الخليجي في عام 1981، لكنه لم يكن معنيًا بالمقاربة المتوسطية الشاملة. وأُنشئت معاهدة مراكش اتحاد المغرب العربي في عام 1989، لكنه لم يكن واعدًا بالكثير.

أثارت جميع اتفاقات التعاون الموقّعة مع الدول المتوسطية العربية مسألة حقوق الإنسان من دون أن توضّح «مشروطية للديمقراطية» محدّدة وفاعلة؛ فغالبًا ما كانت مقاربة الاتحاد الأوروبي الإقليمية المبنية على القيمة «تتعرّض لتشكيك المقاربة المبنية على المصلحة التي تتبنّاها الدول الأعضاء الحريصة على بناء علاقة مميزة في مجالات التجارة والاستثمار والمشتريات العامة والطاقة»[7].

ب - السياسة المتوسطية المتجدّدة (1990- 1996)

كما ذُكر آنفًا، ساهمت المقاربة الشاملة في تعزيز التجارة الأوروبية في الحوض الجنوبي للمتوسط. وتابعت الدول الأعضاء سعيها لتحقيق مصالحها التجارية كالمعتاد، وقت ادّعى الاتحاد الأوروبي الالتزام بضرورة التكامل الإقليمي وبقضايا حقوق الإنسان. وردًّا على منتقديها، خرجت الهيئة الأوروبية بسياسة جديدة تبنّاها المجلس الأوروبي في معاهدة روما الثانية في كانون الأول/ ديسمبر 1990 عُرفت باسم «السياسة المتوسطية المتجدّدة».

في الواقع، لم تكن النتيجة تكرارًا للمضمون ذاته في قالب مختلف؛ إذ جرت زيادة المنح والقروض الأوروبية بصورة كبيرة، فبلغت ذروة مجموع الأموال المتوافرة للمنطقة (وفيها تركيا وقبرص ومالطا) خمسة مليارات من وحدات النقد الأوروبية ECU (السابقة لليورو) خلال الفترة 1991 - 1996. وأول مرّة، رصد الاتحاد الأوروبي مبالغ احتياطية مخصّصة لتمويل مشاريع إقليمية (دراسات جدوى ودورات تدريبية وبعثات لدعم المؤسّسات الإقليمية والتعاون في حماية البيئة). وجرى تعزيز حرّية التجارة مع السوق الأوروبية وتطويرها. كما جرى تشجيع التواصل بين الشعوب من خلال التعاون اللامركزي: الحرم الجامعي المتوسطي والمدن المتوسطية والإعلام المتوسطي وغيرها.

---

(7) Michael Leigh , «European's Response to the Arab Spring, » *GMF Policy Brief* (October 2011), p. 2.

مع ذلك، فإن تقويمًا أعمق لهذه السياسة لا يُبيّن أي جديد يُذكر في المقاربة الجديدة. فالأموال المخصّصة للتعاون الإقليمي لم تمثّل سوى حصّة ضئيلة من مجموع المساعدات، وتأثّر التعاون اللامركزي سلبًا بسبب سوء الإدارة. وبصورة معاكسة، «حقق» التحسّن في حرّية التجارة «أقصى حدٍّ من التقدّم في الدولتين الأكثر تطوّرًا، وهما إسرائيل وتركيا»[8].

كانت مقاربة التواصل بين الشعوب المحاوَلة الحقيقية الأولى لإشراك المجتمع المدني في السياسة الأوروبية المتوسطية، من خلال شبكات تعاون تضمّ الجامعات والمدن والصحافيين والنساء والمهاجرين. لكن، بصورة عامة، كان بُعْد الأمن البشري غائبًا، أكان في تعامل الأوروبيين مع إسرائيل خلال الانتفاضة الأولى (1987 - 1993)، أم في تعاملهم مع الدول العربية المتوسطية.

ج - العلاقات دون الإقليمية المحدّدة

يتناول هذا المبحث من الدراسة بإيجاز مقترح المؤتمر المعني بالأمن والتعاون في منطقة البحر الأبيض المتوسط، وصيغة 5+5، ومنتدى منطقة البحر الأبيض المتوسط، وأخيرًا العلاقات بين الاتحاد الأوروبي والخليج.

(1) المؤتمر المعني بالأمن والتعاون في منطقة البحر الأبيض المتوسط

تقدّمت كلٌّ من إسبانيا وإيطاليا بمقترح في شأن عقد ذلك المؤتمر خلال مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا الذي تناول منطقة البحر الأبيض المتوسط وعُقد في ميورقة في إسبانيا في 24 أيلول/ سبتمبر 1990، شارك فيه الأعضاء الأوروبيون في مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا، إضافةً إلى ثماني دول متوسطية (بما فيها ليبيا، باستثناء الأردن). وأراد مؤيدو المبادرة إنشاء منتدى للنقاش على غرار المنبر الذي أُطلق في هلسنكي في عام 1975 وجمع دولًا من الكتلتين الغربية والشرقية. لكن السياق الجيوسياسي في منطقة البحر

(8) Gary Miller, «An integrated Communities Approach, » in: Khader, The EEC and the Arab World, p. 66.

الأبيض المتوسّــط (التوتّرات التي تزامنت وغزو العــراق للكويت وردّة الفعل الغربية العنيفة ضده، والقمع الإسرائيلي للانتفاضة الأولى، واستمرار الأزمة في قبرص) لم يبــدُ ملائمًا لعقد مثل هذا المؤتمر، فلم يــرَ المؤتمر المعني بالأمن والتعاون في منطقة البحر الأبيض المتوسط النّور قط.

(2) صيغة 5 +5 (المجموعة المتوسطية الغربية)

صحيح أن فكرة إنشاء إطار أصغر للتعاون بين أكبر أربع دول أوروبية متوسطية وخمســة بلدان مغاربية طُرحت منذ عام 1988، إلّا أنها اكتسبت زخمًا بعد إطلاق الاتحــاد المغاربي العربي في عام 1989، والمشــاركة الشخصية لبتينو كراكسي (رئيس الوزراء الإيطالي حينئذ) وفيليب غونزالس (رئيس الوزراء الإســباني). وعُقد اللقاء الوزاري الرسمي الأول في روما في تشــرين الأول/ أكتوبــر 1990. وانضمّت مالطا فــي وقت لاحق إلى المجموعة الأوروبية، بوصفها عضــوًا كامل العضوية، فأصبح لدينا خمس دول من كلّ جانب. وباستثناء النزاع في شأن الصحراء الغربية، لم يكن ثمّة عقبة كأداء أمام هــذه المقاربة التعاونية. وأُنشــئت ثماني مجموعات عمل لتعزيز التعاون الإقليمي ومعالجة قضايا محدّدة كالديون والهجرة والاكتفاء الغذائي الذاتــي والحوار بين الثقافــات والتّقانة والبحــث العلمي والنقل والاتصالات والبيئة ومســاعدة مالية محدّدة. وعُقد اجتمــاع ثانٍ بعد عام (26 و27 تشــرين الأول/ أكتوبر 1991) من أجل مناقشة تداعيات حرب الخليج.

كان يُفترض بمجموعة الـ 5 +5، بســبب إطارها الضيــق، أن تركّز على قضايا محدّدة تنعم بأهمية مشتركة لدى الدول الشاطئية. وكان يفترض أن يبدي طابعها الحكومي الدولي - بعيدًا عن الإطار الرسمي للهيئة الأوروبية وهو أكثر جمودًا - مرونةً أكبر في الاستجابة للتحدّيات المشتركة، إلا أن الدول الأوروبية الشــمالية نظرت إلى هذه المبادرة منذ نشــأتها بارتياب، واعتقدت أنها تقوّض الإجماع الأوروبي. وفي الجنوب، شعرت مصر أنها منبوذة في حين أنها الدولة المتوسطية الأكثر اكتظاظًا بالسكان والأوسع نفوذًا.

أيًا يكن الأمر، فــإن مجموعة 5 + 5 لم تنحنِ لمثل هــذا الضغط، لكنها تلقّت الضربــة من داخلها، حيث اندلعــت الأزمة الجزائرية فــي عام 1992، وفُرض الحظر على ليبيا بعد قضية تفجير طائرة لوكربي، ما فاقم توتّر العلاقات بين الأعضاء الشماليين والأعضاء الجنوبيين، وجمّد تلك المساعي الجمعية.

مع انتهــاء الأزمة الجزائرية ومصالحة ليبيا الغرب، اســتُؤنفت العملية في لشــبونة بداية في كانون الثاني/ يناير 2001، ثمّ في طرابلس الغرب (أيار/ مايو 2002) وفي سانت مكسيم (نيسان/ أبريل 2003) في أعقاب الغزو الأميركي للعــراق (19 آذار/ مــارس 2003)، متزامنًا والدعم الرســمي من ثلاث دول أوروبية أعضاء في مجموعة الـ 5 + 5 (إيطاليا وإسبانيا والبرتغال).

مع ذلك، اجتمع رؤســاء الدول والحكومات في تونس في 5 – 6 كانون الأول/ ديسمبر 2003، أول مرّة. ومنذ ذلك الحين، عُقدت اجتماعات منتظمة لوزراء الخارجية. وكان الاجتماع التاســع في شــباط/ فبراير 2012 في سياق سياسي متحوّل بصورة كاملة.

يلقى منتدى الـ 5 + 5، بطابعه الحكومــي الدولي المعلن، ترحيبًا خاصًا من جانب الــدول العربية المتوســطية، لاعتقادها أن مثل هــذا المنتدى يعزّز سلطتها ويدعم شــرعيتها. لكن تبيّن في عامي 2010-2011 أنه لم يقوَ على إكسابها مناعة في وجه الاستياء الشعبي. وكانت دولتان مشاركتان في مجموعة الـ 5 + 5 (هما تونس وليبيا) مسرحًا لزلزال سياسي.

(3) منتدى منطقة البحر الأبيض المتوسط

جرى اســتثناء مصر من مجموعة الـ 5+5، كما تبيّن آنفًا. وردًا على ذلك، أقنعت مصر فرنســا بالمشــاركة في رعاية منتدى آخر، هو منتدى منطقة البحر الأبيض المتوسّط الذي تمّ إطلاقه في الإسكندرية في 3–4 تموز/ يوليو 1994. ومع أن المشــكلات المطروحة هي نفســها تقريبًا، فإن منتــدى منطقة البحر الأبيض المتوســط يختلف عن مجموعة الـ 5 + 5 بمسألة العضوية؛ فهو يضمّ في الواقع خمس دول أوروبية (فرنســا وإيطاليا وإســبانيا والبرتغال واليونان)

وستّ دول متوسطية (مصر وتركيا ومالطا وتونس والجزائر والمغرب). ولم تُدعَ ليبيا وموريتانيا إلى الانضمام، في حين أن المنتدى ضمّ دولًا متوسطية أخرى مثل تركيا واليونان.

أُنشئ هذا المنتدى بوصفه إطارًا دوليًا آخر غير رسمي للتعاون بين الحكومات. وجرى تأليف ثلاث مجموعات عمل (سياسية واقتصادية وثقافية). لكن الدول الأعضاء الإحدى عشرة ألزمت نفسها، منذ تأسيسه بـ «شراكة حقيقية وشاملة وفاعلة» في المجالات التي تتمتّع بالمصلحة المشتركة (الأمن والازدهار والتفاهم المتبادل... وغيرها) في إطار «تعزيز حكم القانون والديمقراطية القائمة على تعدّد الأحزاب».

كان من شأن عملية إطلاق الشراكة الأوروبية المتوسطية في تشرين الثاني/ نوفمبر 1995 أن تشكّك في فائدة منتدى منطقة البحر المتوسط. لكن الاجتماعات ظلت تُعقد بانتظام في الدول الأعضاء، من دون تأثير ملموس أو قيمة مضافة.

مجدّدًا، جرت الاتصالات على المستوى الرسمي، فتبنّت بعض الدول الجنوبية قضايا إصلاحية لا لشيء سوى أن تراها «عيون أوروبا»، ومن دون أي قناعة.

(4) الحوار بين حلف الناتو ومنطقة البحر المتوسط[9]

من أجل استكمال صورة المبادرات المحدودة الإطار في ما يتعلّق بمنطقة حوض المتوسط، يمكن المرء أن يذكر أيضًا مبادرة حلف الناتو التي تعكس انتقال تركيز الحلف نحو منطقة البحر المتوسط والمنطقة العربية. إذ انطلق الحوار المتوسطي في عام 1994. وينبغي تحليل هذه المبادرة في سياق تحوّل الناتو بعد انهيار الكتلة السوفياتية وازدياد المخاطر والتحدّيات المتنامية الملموسة التي تواجهها دول الناتو انطلاقًا من حوض المتوسط والعالم العربي

(9) انظر: Pierre Razoux, «Comment redynamiser le dialogue Méditerranéen de l'OTAN avec les pays du Maghreb?» Research paper, Nato Defense College, Rome, December 2010, p. 12.

عمومًا. وتذرّع مســؤولو الناتو في ذلك الحين بأن لا مستقبل للحلف ما لم يتمّ توسيع منطقة مسؤوليته الجغرافية باتّجاه الجنوب. وقامت تلك الذريعة على أن للدول الأعضاء في الناتو مصالــح حيوية في المنطقة، وأن على الناتو أن يكون مســتعدًّا للتدخّل حال تعرّضت هذه المصالح للتهديــد، أو للدفاع عن الدول ضد التهديدات الممكنة وفقًا لبديهية «اردعْ إذا وجب عليك ذلك، واسْــعَ إلى التكامل إن وجدتَ إلى ذلك سبيلًا».

من الغريب أن الحوار المتوسطي شمل بداية خمس دول عربية (موريتانيا والمغرب وتونس ومصر والأردن) إضافة إلى إســرائيل. وانضمّت إليه الجزائر فــي وقت لاحق، ما جعلهــا الدولة العربية السادســة. لكن فــي ضوء العلاقة الخاصة التي تربط إســرائيل بالغــرب، وهي لا تحتاج إلى تعزيــز، يتبين أن ما يُسمّى بصورة مغلوطة الحوار المتوســطي ليس في واقع الأمر سوى حوار بين الناتو والعرب.

لماذا قبِل العرب بحوار يديــره الناتو، في وقت يُنظر إلــى الناتو على أنه حليف عسكري لا مؤسّسة ملائمة للتعاطي مع «قضايا أمنية غير مباشرة»، وفي وقت جرى تشــويه صورة الناتو كثيرًا في نظر الشعوب العربية؟ والجواب عن ذلك بسيط: تعزيز الشرعية الدولية للأنظمة العربية الحاكمة التي كانت تتعرّض لهجوم شديد في الداخل ومن منظّمات حقوق إنسان دولية.

تُعقد اللّقاءات المنتظمة منذ عام 1994. ووُضع برنامج للتعاون يشــتمل على طائفة واسعة من ضروب النشاط بين الدبلوماسية العامة وتخطيط حالات الطوارئ المدنية وإدارة الأزمات وأمن الحدود ومراقبة التدريبات العســكرية، وترتيب زيارات تقوم بها قوات الناتو البحرية الدائمة.

بعد هجمات 11 أيلول/ ســبتمبر 2001، قرّر حلف الناتــو في قمّة براغ التي عُقدت في عام 2002 أن يطوّر الحوار المتوسطي بتضمين محتواه المزيد من الأفكار. وعُرضت فكرة الملْكية المشــتركة في قمّة إســطنبول التي عُقدت في عام 2004 ودفعت خلالها أربع دول خليجيــة (الكويت وقطر والإمارات

والبحرين)، في ظل خشـيتها من تداعيات الغزو الأميركـي للعراق، إلى إقامة ارتباط مشابه بالناتو، ما أدّى إلى ولادة مبادرة إسطنبول لعام 2004. لكن خلافًا للحوار المتوسطي الذي يحرّكه الناتو، تبدو مبادرة إسطنبول مطلبًا تحرّكه دول الخليج نفسها.

د - الاتفاق المتعدّد الأطراف مع منظّمات دون إقليمية: العلاقات بين الاتحاد الأوروبي والخليج (1988-2012)

عندما اقتُرح الحوار بين الجماعة الأوروبية المشـتركة ودول الخليج في أوائل الثمانينيات من القرن العشـرين كانت الدول الخليجيـة في ذروة قوّتها الاقتصادية. وكان وزير خارجية ألمانيا هانس ديتريش غنشـر أول من دعا إلى فتح الحوار مع دول الخليج في اجتماع عُقد في بروكسِل في 15 كانون الثاني/ يناير 1980. وفي الخامس من شـباط/ فبراير 1980 صادق المجلس الوزاري الأوروبي على المقترح الألماني، وطلب من الهيئـة الأوروبية أن تجسّ نبض دول الخليج السـتّ، إضافةً إلى العراق «في شـأن إمكانـات متابعة مبادرات الجماعة الأوروبية».

بعد محادثات استكشـافية أجراها ممثّلـو الهيئة فـي دول الخليج، قرّر المجلس الأوروبي وقف الحوار في أيلول/ سـبتمبر 1980. وكان الفرنسيون معارضين لتلك الخطوة، لأنهم كانوا يعتقدون أنه كان هناك في الأسـاس إطار للحوار(متمثّلًا في الحوار الأوروبي - العربـي) ولا حاجة إلى تكراره[10]، في حين أن الدول الخليجية نفسها، إضافة إلى العراق والكويت والعربية السعودية، رأت أن النفـط هو دافع الحـوار بين الجماعـة الاقتصاديـة الأوروبية ودول الخليج، وأنه لم ينجم عن رؤية استراتيجية تشمل مسائل على المدى القصير أو الطويل، ولم تتضمّن جميع الأبعاد الاقتصادية والسياسـية. وأكّدت هذه الدول أنها تفضّل تطوير علاقاتها من خلال الحوار الأوروبي - العربي.

---

(10) Bichara Khader, *L'Europe et les pays arabes du Golfe: des partenaires distants*, Horizons euro-arabes (Paris: Publisud; Ottignies (Belgique): Quorum, 1994).

هكذا، تأجّلت مبادرة الحوار إلى حين. لكن بعد تأسيس مجلس التعاون الخليجي مباشرة، قرّر المجلس الأوروبي في أيلول/ سبتمبر 1981 الشروع في محادثات تمهيدية مع الأمانة العامة لمجلس التعاون الخليجي بغية دراسة التعاون المقترَح. وجرى تبادل الزيارات بين الأمين العام لمجلس التعاون عبد الله يعقوب بشارة الذي زار المقرّ الرئيس الأوروبي، والمندوبين الأوروبيين الذين زاروا السعودية في آذار/ مارس 1983. وبعد الزيارات الاستطلاعية، عُقدت سلسلة من الاجتماعات الأخرى بهدف استكشاف الإمكانات لمفاوضات رسمية في شأن اتفاق للتعاون بين المنطقتين.

عُقد أول اجتماع، على المستوى الوزاري، في لوكسمبورغ في 14 تشرين الأول/ أكتوبر 1985. وعُقد لقاء ثانٍ في بروكسِل في 23 حزيران/ يونيو 1987 بموافقة المجلس الأوروبي، في أعقاب نقاش تقرير يتناول العلاقات الأوروبية - الخليجية في البرلمان الأوروبي في 19 شباط/ فبراير 1987. وبعد عامٍ واحد من ذلك، وقّع في 15 حزيران/ يونيو 1987 عن الجانب الأوروبي كلٌّ من رئيس المجلس الأوروبي غنشر والمفوّض كلود شيسون، ووقّع عن الجانب الخليجي وزير الخارجية السعودي الأمير سعود الفيصل والأمين العام لمجلس التعاون الخليجي عبد الله بشارة.

أرسى الاتفاق علاقة تعاقدية بين الجماعة الاقتصادية الأوروبية ودول مجلس التعاون الخليجي. وشمل طيفًا واسعًا من الموضوعات؛ من التعاون الاقتصادي والزراعة وصيد الأسماك والصناعة والطاقة والعلوم والتّقانة والاستثمار والبيئة والتجارة. لكن الاتفاق لم يحلّ المسألة الرئيسة التي ظلّت موضوع الخلاف في جميع الاتصالات بين الجماعة الأوروبية ومجلس التعاون، وهي الصادرات البتروكيميائية الخليجية.

إن السبب الذي دفع الدول الخليجية إلى التخلّي عن تحفّظاتها تجاه اتفاق محدّد مع الجماعة الاقتصادية الأوروبية لا يزال موضع جدال. وأعتقد أن الدول الخليجية أدركت أن التدهور الهائل في أسعار النفط وتباطؤ اقتصاداتها قدّما لها حوافز جديدة مكّنتها من التوصّل إلى اتفاق دولي مع أوروبا. وعلى

الأرجح أتاح صغر حجم مجلس التعاون الخليجي مقارنةً بجامعة الدول العربية ظهوره بمظهر متماسك، ما يعزّز قوّته التفاوضية. ولسوء الحظّ، كان غزو الكويت (في الثاني من آب/ أغسطس 1990)، والنتائج الكارثية لتحريرها من خلال عمل عسكري شنّه الغرب، إضافةً إلى الصدمة النفطية العكسية الثانية في عام 1998 - كلّها عوامل أدّت إلى تبدّد قدرة مجلس التعاون الخليجي على التفاوض من موقع قوي في شأن اتفاق تعاون مُحسّن مع الاتحاد الأوروبي.

لا يزال الاتحاد الأوروبي والدول الخليجية منذ تسعينيات القرن الماضي يتفاوضون في شأن اتفاق تعاون ثانٍ. ولا يزال تضارب الآراء في شأن مسائل حقوق الإنسان، أو صادرات المنتجات الحسّاسة كالبتروكيميائيات، أو مسألة العضوية في منظّمة التجارة العالمية، يعرقل توقيع اتفاق مُحسّن. ويشكّك العديد من دول الخليج، بحقٍّ، في الرعاية الأوروبية. وبذلك، فإن الاتحاد الأوروبي يهدر فرصة ذهبية لتعزيز حضوره في منطقة[11] يبلغ مجموع تجارتها 128 مليار يورو، وتنعم بفائض اقتصادي يربو على 15 مليار يورو (بلغت واردات الاتحاد الأوروبي من الخليج 56 مليار يورو، في حين بلغت صادرات الاتحاد الأوروبي 72 مليار يورو في عام 2011).

لماذا لا يزال التعاون بين الاتحاد الأوروبي ومجلس التعاون الخليجي يطير على ارتفاع منخفض جدًا بعد أن انطلق، وبعد مرور أكثر من 24 عامًا على المفاوضات؟ عادةً يُشار إلى بعض الأسباب، مثل:

- الاختلاف في طبيعة كلّ من المنظّمتين الإقليميتين. كان الاتحاد الأوروبي مدفوعًا بالأسباب الاقتصادية في حين كان حافز مجلس التعاون الخليجي الأسباب الأمنية.

- ممانعة بعض الدول، مثل فرنسا وبريطانيا، تحويل علاقاتها التقليدية بدول الخليج إلى علاقات أوروبية.

---

(11) Eckart Woertz, «Qatar y el descuido europeo de la región del Golfo Pérsico,» Notes internationals CIDOB, no. 46 (February 2012).

- لا يرغب الاتحاد الأوروبي في معاداة الولايات المتحدة الأميركية في منطقة تعدّ «احتياطيها السياسي» و «منصّة قفزها» الجيوسياسية. ومع أن هذا الفهم قد يكون صحيحًا من وجهة النظر السياسية، فإنه ليس من الصحيح الافتراض أن الخليج هو سوق أسيرة للولايات المتحدة، إذ إن الروابط الاقتصادية بين مجلس التعاون الخليجي وأوروبا تفوق كثيرًا الروابط بينه وبين الولايات المتحدة.

- إن مصلحة الاتحاد الأوروبي الحيوية لدى مجلس التعاون الخليجي هي الوصول إلى الطّاقة والإمدادات الآمنة. لكنها مصلحة يشاطرها إياها المجتمع الدولي. وهكذا، فإن ثمّة شعورًا يعتري الدوائر الأوروبية بأن علاقة متميزّة ببلدان الخليج لن تساهم في تعزيز مصالح أوروبا. فأوروبا ليست الوكيل الحصري للطاقة. وتبعًا لذلك، فإن الشراكة الاستراتيجية مع الخليج ليست حاجة مُلحّة.

- المعارضة الشّرسة التي يبديها قطاع صناعة البتروكيميائيات الأوروبية تجاه توقيع اتفاق استراتيجي يتضمّن منطقة تجارة حرّة.

أيًا تكن الأسباب، فإن العلاقات بين الاتحاد الأوروبي ومجلس التعاون الخليجي كانت طوال الأربعة وعشرين عامًا الأخيرة خجولة وضحلة. لكن، تواصلت الأعمال كالمعتاد على المستوى الثنائي (دولة مع دولة).

بيد أن تطوّرات جديدة تدفع أوروبا إلى تغيير مسارها، وإعطاء مزيد من الزخم لعلاقتها بالخليج. ومن دون مبالغة في ذكر التفصيلات، نذكر ما يلي:

- تدفع التّجارة المزدهرة بين آسيا ومجلس التعاون الخليجي أوروبا إلة إعادة النظر في موقفها، كي لا يجري تجاوزها، وتُستبدل بدول لا ترتبط صورتها بالماضي الاستعماري وبالرّعاية الرّاهنة.

- ثمّة اعتقاد شائع في الدوائر الأوروبية أن احتياطي الطاقة الضخم في

الدول الخليجية لا يمكن أن يضاهى في أي بلد آخر، وأن من مصلحة أوروبا أن تحافظ على علاقة متميزة مع منطقة الخليج.

- إن شهية الصين المفتوحة حديثًا على النفط تنهك صيغة العرض والطلب. فمع أن التأثير المباشر للطّلب العالمي على النفط قد يكون مبالَغًا فيه من دون شكّ، فإن المنافسة التقليدية بين المنتجين ستخلي المجال أمام منافسة جديدة بين المستهلكين. ولا تستطيع أوروبا أن تقف متفرّجة مكتوفة، إذ إن مصلحتها الحيوية لا تقتصر على الوصول إلى النفط - الأمر الذي لا يطرح مشكلة حقيقية في الوقت الراهن - بل يشمل المشاركة في عمليات استخراج النفط وفي الصناعة النفطية نفسها.

- في حال استمرار زيادة الطلب العالمي على النفط، سيكون ثمّة صعوبات في زيادة كمّية الإنتاج بما يلبّي حاجات المستهلكين في المستقبل. فدول مجلس التعاون الخليجي التي تتمتّع بأكبر احتياطي في العالم، تتبوّأ موقعًا يؤهّلها للزيادة في الإنتاج، لكن ذلك ممكن مع مرور الوقت وتوافر الاستثمارات والخبرة التقنية المطلوبة. ولهذا، فإن ثمّة شعورًا متزايدًا بأن أوروبا لا يمكنها أن تغيب عن هذه السوق ذات الطاقات الهائلة، أو أن تغفل عنها.

للأسباب المذكورة أعلاه، يبدو أن العلاقة بين الاتحاد الأوروبي ومجلس التعاون الخليجي باتت تحتاج إلى بداية جديدة، وهي ضرورة وليست تعبيرًا عن رغبةٍ فحسب. إنه أمر تفرضه المصالح والشواغل المشتركة. ومن المتوقّع أن تتعزّز أهمّية مجلس التعاون الخليجي في الأعوام المقبلة. أمّا الذين يعتقدون أن عهد النفط قد ولّى، فهم يبرهنون ببساطة على توقّعات زائفة. صحيح أن استبدال النفط يبدو مستحبًّا من المنظور البيئي، إلّا أنه لا يزال بعيد المنال. وهذا يعني أن على أوروبا أن تُظهر الحزم ووضوح الغرض. فالتوصّل إلى اتفاق تجارة حرّة مع مجلس التعاون الخليجي هو من مصلحتها. وهذا قد يستثير عداء الصناعات البتروكيميائية، لكن الأرباح الجمعية ستفوق بلا شكّ الآلام الفردية.

إن تمسّك أوروبا بقضية حقوق الإنسان أمر مفهوم وضروري. لكنّ المسؤولين الخليجيين يدركون أن وضع حقوق الإنسان يجب أن يتحسّن، وأن هذا الوضع يتحسّن بالفعل. لكنّهم يؤكّدون أن كثيرًا من المشكلات يعود في جزء كبير منه إلى ممارسات اجتماعية وثقافية تقليدية، أكثر ممّا يعود إلى إساءات حكومية منهجية، وأن على الاتحاد الأوروبي أن يدرك جيدًا أن الأمر يتطلّب وقتًا لأن التغير في الممارسات الاجتماعية لا يمكن إملاؤه أو فرضه، بل يجب أن يأتي من الداخل وأن يكون مسلّمًا به على الصعيد الاجتماعي.

هـ- العودة إلى المسار الثنائي - المتعدّد الأطراف في العلاقات الأوروبية - المتوسطية (الشراكة الأوروبية المتوسطية والآلية الأوروبية للشراكة والجوار والاتحاد من أجل المتوسط)

في بداية التسعينيات، انخرط الاتحاد الأوروبي أو بعض الدول الأوروبية، إمّا في سياساتٍ متعدّدة الأطراف (السياسة الأوروبية المتجدّدة) وإمّا في مبادرات تعاون أصغر (مجموعة الـ 5+5، أو منتدى منطقة البحر الأبيض المتوسط) أو حتى في الحوار المتوسّطي. لكن مع انتهاء النظام الثنائي القطبية، أخذ الاتحاد الأوروبي يغيّر مركز نشاطه باتّجاه الفجوة بين الشمال والجنوب؛ حيث شعر أن السياسة الأوروبية المتجدّدة لم تكن طموحة بما يكفي لتفادي زعزعة الاستقرار الناجمة عن التفاوتات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، لذا كان عليه أن يضع سياسة أكثر شمولًا تجاه حوض المتوسّط. وهذا التغير في التركيز على حوض المتوسّط، وقت طرح بعض المفكّرين السياسيين المثيرين للجدل وإن كانوا نافذين، مثل صموئيل هانتنغتون، مسألة البعد الثقافي للأمن بما مفاده أن صراع الحضارات[12] يقع على غرار النضال الذي يستلهم الدِّين في مناهضته القيم الغربية.

نظرًا إلى خوف الاتحاد الأوروبي من المغالطة التي قد تنطوي عليها هذه الأطروحة، شعر بالضرورة الملحّة لتبيان المخاطر التي قد تنشأ عن مثل

(12) Samuel P. Huntington, «The Clash of Civilizations?» *Foreign Affairs*, vol. 72, no. 3 (Summer 1993), pp. 22-49.

هذا التشــخيص التبســيطي الذي يبالغ في تأكيد مفهوم «صراع الحضارات». وكان واضحًا تمامًا للأكثرية الســاحقة من الأوروبيين أن عديدًا من منابع القلق المتّصلة بالأمن جنوبي المتوسّط ليست عسكرية، ولا تقوم على أساس ثقافي، بل هي في معظمها «قضايا أمنية غير مباشــرة»[13]، مثــل التفاوتات الاقتصادية والانقسامات الديموغرافية وموجات الهجرة واستمرار حكم الأنظمة السلطوية. وفي هذا الســياق من الآراء المتضاربة في شــأن أمن حوض المتوسّط، برزت فكرة «الشراكة الجديدة» إلى الواجهة.

و - الشراكة الأوروبية - المتوسطية أو (عملية برشلونة) 1995[14]

في البداية، اقتصرت فكرة الشــراكة المقترحة على الدول المغاربية. وأكّد البيان الصادر في نيسان/ أبريل 1992 بشأن «العلاقات المستقبلية بين الجماعة [الأوروبيــة] والمغرب» ضــرورة المضي قُدُمًــا نحو بناء شــراكة أوروبية - مغاربية[15]. وفي الأثناء، كانت مفاوضات سرّية بين الفلسطينيين والإسرائيليين تُجرى، ووُقّع في أوســلو «الاتفاق الانتقالي» ثم أبرم فــي البيت الأبيض (13 أيلول/ ســبتمبر 1993). وقبل أيام من حفل التوقيع، أصدرت الهيئة الأوروبية بيانًا في شأن «العلاقات المستقبلية والتعاون بين الجماعة [الأوروبية] والشرق الأوســط»[16]، تبعه في نهاية أيلول/ ســبتمبر 1993 بيان آخر في شــأن «دعم الجماعة [الأوروبية] لعملية السلام في الشرق الأوسط»[17].

حثّت التطوّرات الجديدة في الشرق الأوســط (انطلاق العملية السلمية) الاتحاد الأوروبي على تحويل «شــراكته الأوروبية - المغاربية» إلى «شــراكة

(13) Stelios Stavridis and Natividad Fernaìndez Sola (coordinadores), *Factores poliìticos y de seguridad en el aìrea euro-mediterraìnea* (Zaragoza: Prensas Universitarias de Zaragoza, 2009).

(14) Communication de la Commission sur l'Avenir des relations entre la Communauté et le Maghreb, Brussels European Commission (Sec/92/40).

(15) Communication de la Commission sur l'Avenir des relations entre la Communauté et le Maghreb, Brussels European Commission (Sec/92/401).

(16) European Commission (COM 93/375).

(17) European Commission (COM 93/376).

أوروبيــة – متوســطية» (EMP)، فــي بيانــه الصادر فــي 19 تشــرين الأوّل/ أكتوبر 1994. وبعد عام من ذلك، عُقد مؤتمر في برشــلونة (27 – 28 تشرين الثاني/ نوفمبــر 1995) لإطلاق الشــراكة. ووقّعت إعلان برشــلونة في حينه 15 دولة عضوًا فــي الاتحاد الأوروبــي و12 دولة متوســطية (8 دول عربية: المغرب والجزائر وتونس ومصر والأردن والسلطة الفلسطينية ولبنان وسورية، إضافةً إلى إســرائيل ومالطا وقبرص وتركيا). واستُثنيت ليبيا التي تنعم بساحل يبلغ طوله 1300 كلم على البحر المتوسّط، بســبب الحظر المفروض عليها. إن مؤتمر برشــلونة الذي عُقد في أجواء من «الآمــال العريضة»، جمع العرب والإسرائيليين معًا فيما هو يشير بوضوح إلى أن الاتحاد الأوروبي ليس «وسيط سلام» بل هو «طرف يسهّل السلام».

إن الجديد في هذه العملية، المســمّاة عملية برشــلونة، هو إدخال تعاون شــامل قائم على ثلاث «رزم»: الرزمة السياســية والأمنية والرزمة الاقتصادية والمالية والرزمة الاجتماعية والثقافية. والهدف الرّئيس هو تأسيس منطقة تجارة حرّة في حوض المتوســط بحلول عام 2010، من خلال الليبرالية الاقتصادية. لكن الهمّ الحقيقي للاتحــاد الأوروبي كان يتعلّق بانعــدام الأمن على حدوده الجنوبية بسبب الأزمة الجزائرية وتداعياتها على الأراضي الأوروبية، وموجات الهجرة غير الشرعية. وبحســب ما يقوله ريفكِند، وزير الخارجية البريطاني في ذلك الحين، فإن «إحدى أهمّ الوســائل التي تمكّننا من تحقيق الأمن السياسي هي النموّ الاقتصــادي»، وهو ما يحتّم على الاتحاد الأوروبي أن يســاعد دول شمال أفريقيا وشرق المتوسّط على تطوير قدراتها الاقتصادية. ويضيف ريفكند: «إن الاستقرار السياسي سيتدفّق من هناك»[18].

في الفتــرة بيــن عامــي 1996 و2000، تقدّمــت الشــراكة الأوروبية المتوسطية بسلاســة. جرى توقيع بعض اتفاقات الشّــراكة والمصادقة عليها، وتخصيص مليار يورو ســنويًا للدول الجنوبية الشــريكة. كما جرى تشــجيع

---

(18) Malcom Rifkind, «British Initiative in Investments Barriers,» *Foreign Secretary's Brief*, British Foreign Office, 28 November 1995.

منظّمات المجتمع المدني على إنشـاء شـبكات. وأَنشـأت المعاهد البحثية (المنتـدى الأورومتوسّـطي لمعاهد العلـوم الاقتصادية FEMISE والشـبكة الأورومتوسـطية لمراكز الأبحاث التي تُعنى بالسّياسـة والأمن EuroMeSCO) شـبكات خاصّة بها. وعلى الصعيد الاقتصادي، خُفضت التعريفات الجمركية أو أُلغيت، وخُصخص كثير من مؤسّسـات القطاع العامّ. لكنها خطوة لم تثمر فوائدَ تشمل إيجاد الوظائف أو زيادة حصّة الفرد من الناتج المحلّي الإجمالي، إلّا بصورة محدودة.

بعد عام 2000، تدهور المشهد الجيوسياسي الإقليمي؛ ففشَلُ مفاوضات كامب ديفيد بين الفلسـطينيين والإسـرائيليين (تمّوز/ يوليو 2000)، واندلاعُ انتفاضة الأقصى (تشرين الأوّل/ أكتوبر 2000)، وهجماتُ 11 أيلول/ سبتمبر 2001، وغزو أفغانستان (2001) وما تلاها من غزوٍ للعراق (2003) - بدعمٍ من ثلاث دول متوسطية رئيسة هي: إسـبانيا وإيطاليا والبرتغال - كلّها عواملُ سمّمت المناخ العام في حوض المتوسّط، وكشفت عن غموض عملية برشلونة برمّتها.

اتّضح أكثر من أي وقت مضى أن هدف عملية برشـلونة لم يكن تشجيع الإصلاح في حوض المتوسّـط الجنوبي، بل تشـجيع «النظام» و«الاستقرار». وكما كتبت منى يعقوبيان بصراحة: «أطلقت أوروبا عملية برشـلونة بغية إيجاد «محجر صحّي» لتحمي نفسـها من انعدام الأمن المحتمـل»[19]. وبتعبير آخر، لم يكن تحديث الاقتصاد وتحريره «هدفًا بحدّ ذاتهما»، بل أداة لتقليص الرغبة في الهجرة، ولتقليل جاذبية الحركات المتطرّفـة، وإيجاد بيئة أقلّ اضطرابًا في المناطق «الأقرب خارج حدودها».

من الزاوية الثقافية، لم تَخْل مسـاهمة الشـراكة الأوروبية المتوسطية في حوار الحضـارات - من خلال تمويل مئات النّـدوات والتقارير المتعلّقة بهذه المسألة - دون تفشّي رُهاب الإسـلام في أوروبا بصورة متسارعة؛ إذ اشتملت

(19) Mona Yacoubian, «Promoting Middle East Democracy: European Initiatives» (Special Report; 127, United States Institute of Peace, 13 October 2004), p. 7.

هذه الشـــراكة على بعض القواعــد العامّة، لكنّها أخفقت فـــي تطوير مجموعة محدّدة من الأعـــراف المقبولة. وفي هـــذا الصّدد، لم يتـــمّ تحقيق طموحات «الرزمة» الثالثة لهذه الشـــراكة في ما يخصّ العلاقات الاجتماعية والثقافية، ما دفـــع رومانو برودي، رئيس الهيئـــة الأوروبية آنذاك، إلى إنشـــاء «مجموعة من الحكماء من أجل حوار الحضـــارات في حوض المتوسّـــط» في عام 2003، بهدف إدخال بعض الأفكار لتشـــجيع التفاهم المتبادل. وأدّى ذلك إلى تأسيس «مؤسّسة آنا لندت» من أجل الحوار المتوسّطي، ومقرّها الإسكندرية.

في ما يتعلّق برزمـــة الأمن، لم يوقَّع قطّ الميثاق الأوروبي - المتوســـطي للســـلام والأمن المقترح، وهو الميثاق الـــذي كان يُفترَض أن يكـــون «تمرينًا على الدبلوماســـية الاســـتباقية»[20]، بســـبب غياب لغة وتصـــوّرات وأولويات مشـــتركة. ولم يُعالج أو يحلّ أيًا من النزاعات المعلّقة في حوض المتوسّـــط. وعلى العكس، فإن العملية السلمية خرجت تمامًا عن مسارها. ولا تزال الأزمة القبرصية معلّقة. ولا تزال مسألة الصحراء الغربية من دون حلّ. وكان لبنان في عام 1996 مســـرحًا لصراع جديد بين إســـرائيل و«حزب الله»، في حين وقف الاتحـــاد الأوروبي جانبًا. ومن الواضح، أن الاتحـــاد الأوروبي لم يكن يمتلك الشجاعة ولا الوســـائل ولا الإرادة ليقوم بدوره في دبلوماسية حلّ المشكلات. ففي ظـــلّ القيود التي تفرضها سياســـة متـــردّدة في مســـائل الخارجية والأمن المشترك، وتضارب الآراء والأولويات الخاصّة بالدول الأعضاء، ظلّت سياسته حبيسة نموذج «القاسم المشترك الأصغر».

على جبهة الإصلاح السياسي، كانت نتائج الشراكة الأوروبية - المتوسطية هي الأخرى مخيبة، على الرغم من بيان اســـتراتيجية الأمن الأوروبية (ESS) في عام 2003، وكونه أكّد الصّلة بيـــن الأمن الداخلي والأمن الخارجي، لافتًا إلى أن «أفضل حماية لأمننا هي دول ديمقراطية تنعم بحوكمة رشـــيدة»، من خلال عملية نقـــل تجربة الاتحاد الأوروبي نفســـه في مجالات تحقيـــق الديمقراطية

(20) Dimitris Xenakis, *The Politics of Order-Building in Europe and the Mediterranean*, Themata: Policy and Defense; 19 (Athens: Defence Analyses Institute, 2004), p. 123.

والتنمية والتكامل. ويؤكّد روبيرتو أليباني المنطق الذي يعزّز استراتيجية الأمن الأوروبية: «إذا كان من الممكن تشجيع الحوكمة الجيدة في الدول المجاورة - أي إذا كانت ممكنة مساعدتها في أن تصبح ديمقراطية ومزدهرة ومتعاونة على المستوى العالمي - سيكون حلّ الأزمات الإقليمية أسهل، وتمسي معالجة عوامل الاضطراب تحت سيطرة أكثر كفاءة. ومن شأن ذلك أن يسهّل على الاتحاد الأوروبي الحفاظ على استقراره»[21].

للأسف، فإن التطوّرات اللاحقة ستكشف خواء التفكير الرغبي هذا؛ فدول حوض المتوسّط الجنوبي لم تنخرط جديًا في الأمن التعاوني، أو في إصلاحات جدّية ولم تحقّق التماسك الإقليمي. واستمرّ الاتحاد الأوروبي في التعاطي مع أنظمة سلطوية. ولم تطبّق قطّ الشرطية السياسية التي هي جزء لا يتجزّأ من اتفاقات التعاون. والأسوأ أن بعض القادة الأوروبيين ذهب إلى حدّ الثناء على التقدّم الذي حقّقه في هذه المنطقة بعضُ الأنظمة العربية كالنظام التونسي برئاسة بن علي. ومن هنا جاء الانتقاد الذي يوجّهه كثير من منظّمات المجتمع المدني إلى الشراكة الأوروبية - المتوسطية، إذ ترى أنه لم يجرِ الإصغاء إلى صوتها بما فيه الكفاية لأن الاتحاد الأوروبي واصل رعاية علاقات حميمة مع الأنظمة، وأحيانًا مع منظّمات مجتمع مدني نخبوية تفتقر إلى أي قاعدة اجتماعية حقيقية في بلدانها لكنّها «تنسجم مع الأوروبيين»[22].

تنشأ جميع هذه التناقضات من عملية عامّة تقوم على «النزعة الأمنية»: فالخوف من وصول الأحزاب الإسلامية إلى السلطة عبر انتخابات حرّة أدّى إلى تغير عام في أولويات أوروبا من التشجيع على الديمقراطية إلى تأمين

---

(21) Roberto Aliboni and Abdallah Saaf, *Human Security: A New Perspective for Euro-Mediterranean Cooperation*, with an introduction by Atila Eralp, 10 Papers for Barcelona 2010 (Barcelona: The Institute for Security Studies (EUISS) and The European Institute of the Mediterranean (IEMED), 2010), p. 12.

(22) Lorenzo Fioramonti, «Promoting Human Rights and Democracy: A New Paradigm for the European Union, » in: Joel Peter, ed, *The European Union and the Arab Spring: Promoting Democracy and Human Rights in the Middle East* (Lanham, Md: Lexington Books, 2012), p. 28.

«اســتقرار» أنظمتها الصديقة. واعتمــدت هذه الأنظمة على هــذا الخوف من خلال تقديم نفســها على أنها حصن منيع في وجه الإرهاب العالمي، وحارسة لبوّابات الهجرة غير الشرعية، أو مزوّدة للخدمات الأمنية، في حين كانت تقوم بـ «إصلاحات تجميلية» لتمويه قبضتها السلطوية على الحكم.

أصبح واضحًا بعد عام 2000 أن اســتراتيجية «الأمــن التعاوني» الأولى الابتدائية باتت تتحوّل إلى «سياســات للتعاون الأمني». وتبــدّت للعيان أولى علامات هذا التحوّل خلال الأزمة الجزائريــة (1992-1999)، بل إنها بدت أكثر جلاءً بعد هجمات 11 أيلول/ سبتمبر الإرهابية، والغزو الأميركي للعراق (2003)، وبعد الانتخابات المصرية في عام 2005 التي فاز الإخوان المسلمون فيها بـ 88 مقعدًا من مجموع 454 مقعدًا. لكن المظهر الأكثر مشهدية ردّة فعل الاتحاد الأوروبي على انتصار حركة «حماس» في الانتخابات الفلسطينية التي أُجريت فــي عام 2006، حين كان للخوف الدّفين من البديل «الإســلامي» أن يتفوّق ببساطة على الضرورة الديمقراطية.

مع تصاعد الهجرة غير المنتظمة، وظّف الاتحاد الأوروبي مزيدًا من الوقت في التفاوض في شأن اتفاقات إعادة قبول الأعضاء، وفي إدارة تنقّل البشر، وفي عمليات مراقبة الحدود مع شركائه المتوسطيين بوســاطة موارد خارجية، أكثر من الوقت الذي كرّسه للتشجيع على حكم القانون. وباختصار، حلّ بناء الرقابة أو بناء النظام مكان بناء الإقليم في حوض المتوسّــط. وواجه المثال الذي تبنّاه الاتحاد الأوروبي في شأن «شركاء ينعمون بحوكمة رشيدة»، التحدّيات الخاصّة بضرورة وجود شركاء مستقرّين ومسيطر عليهم بصورة جيدة.

ز - سياسة الجوار الأوروبية (2004 - 2012)

في بدايــة عام 2000، جــرت مفاوضات مــن أجل التوسّــع الخامس. وكانت تتعلّق بعشــر دول، تقع ثماني دول منها في أوروبا الوسطى والشرقية، وفي جزيرتين متوســطيتين هما قبرص ومالطا. وكان هذا التوسّع هو الأكبر في نوعه، خصوصًا بعد إضافة الدولتين اللّتين شــملهما التوسّع السادس (رومانيا

وبلغاريا). وبهذه التوسّعات الأخيرة زاد عدد سكّان الاتحاد الأوروبي بأكثر من 103 ملايين نسمة (إذ وصل عدد السكّان بذلك إلى 500 مليون نسمة)، وأضاف إحدى عشرة لغة جديدة إلى اللغات الاثنتَي عشرة القائمة (فوصل إلى ثلاث وعشرين لغة مختلفة)، ووسّع مساحته 40 في المئة، وامتدّت حدوده البرّية إلى ستّة آلاف كلم، وحدوده البحرية إلى خمسة وثمانين ألف كلم. وبذلك تجسّد هاجس الاتحاد الأوروبي في الفترة بين 2003- 2004، في كيفية تأمين حدوده الخارجية من جيرانه الجدد. وكان يُفترَض بسياسة الجوار الأوروبية (ENP) أن تقدّم الجواب.

أوضح رومانو برودي، رئيس الهيئة الأوروبية، في محاضرة ألقاها أمام طلبتي في جامعة لوفان، في كانون الأوّل/ ديسمبر 2002، الفلسفة السياسية التي تقوم عليها المبادرة الجديدة. وأكّد عنصرين مركزيين: «حلقة الأصدقاء» و«كلّ شيء باستثناء المؤسّسات». ولقي هذان العنصران مزيدًا من الإيضاح في بيان الهيئة الصادر في 11 آذار/ مارس 2003، تحت عنوان «أوروبا الأوسع: إطار جديد للعلاقات بجيراننا في الشرق والجنوب»[23] وفي «استراتيجية الأمن الأوروبية» الصادرة في 12 كانون الأوّل/ ديسمبر 2003[24]، وكانت الهيئة تعني بحلقة الأصدقاء سياسة «السياج الجيد» التي تهدف أساسًا إلى تعزيز حسن الجوار بين دول مزدهرة تنعم بحوكمة جيدة. ولهذا الغرض، سيقدّم الاتحاد الأوروبي المساعدات المالية والتقنية والسياسية. وستكافأ الدول التي يكون أداؤها جيدًا بزيادة إمكان وصولها إلى السوق الوحيدة: إنها ستحصل على كلّ شيء باستثناء المشاركة في «عملية اتّخاذ القرار المؤسسية».

تمامًا كما هي الشراكة الأوروبية - المتوسطية، يشكّل العَرْض محفّزًا لسياسة الجوار الأوروبية: إنها الردّ الاستراتيجي للاتّحاد الأوروبي على

---

(23) European Commission (COM/2003/0104 final).

(24) «أوروبا آمنة في عالم أفضل: الاستراتيجية الأمنية الأوروبية،» الهيئة الأوروبية، بروكسل، 2003. انظر أيضًا: Alvaro de Vasconcelos, ed, *The European Security Strategy 2003-2008: Building on Common Interests*, with foreword by Helga Schmid (Paris: Institute for Security Studies, 2009).

التحدّيات التي طرأت على مشهد أوروبا الجيوسياسي. وإنها سياسة أوروبية من أجل الجيران أكثر ممّا هي سياسة مع الجيران: «سياسة مقلوبة» تهدف إلى منع استيراد الاضطرابات والمخاطر الخارجية. يشكّل الالتزام والمِلْكية حجريْ الزاوية في هذه السّياسة الجديدة: «شارِكْ ولا تُكرِهْ»، كما يكتب إيمرسون ونوتشيفا[25].

هل من باب المصادفة أن يُنشَر بيان سياسة الجوار الأوروبي في آذار/ مارس 2003، في الشهر نفسه الذي وقع فيه الغزو الأميركي للعراق؟ ولم يُقصد بالشراكة الأوروبية - المتوسطية أن تكون ردًّا متوسطيًا على «الدبلوماسية الأميركية التي ستعرض عضلاتها»، لكن لا شكّ في أن الاتحاد الأوروبي سعى إلى النّأي بنفسه عن الخطاب الثقافي الخاصّ بهانتنغتون والمفاهيم الخطرة مثل «الحرب الصليبية التي يشنّها الطيبون ضدّ الشرّ»، أو «الحرب على الإرهاب» التي فهمها كثير من البلدان الإسلامية أنها حرب صليبية جديدة يشنّها الغرب على دينهم. وشعر الاتحاد الأوروبي المنقسم على نفسه في مسألة الغزو الأميركي للعراق، أنّه من الأهمية بمكان أن يعرض رؤيته الخاصّة للأمن. لا عجب إذًا من أنّه نشر خلال عامي 2003 - 2004 وثيقتين مهمّتين: «تعزيز علاقات الاتحاد الأوروبي بالعالم العربي» (2003)، و«تقرير انتقالي بشأن شراكة الاتحاد الأوروبي الاستراتيجية مع حوض المتوسّط والشّرق الأوسط» (2004). وتؤكّد هاتان الوثيقتان أهمّية الحفاظ على قوّة الإقناع التي يمارسها الاتحاد الأوروبي (خلافًا لقوّة الإكراه)، وتعزيز التعددية (خلافًا للأحادية الأميركية)، وضرورة وجود استراتيجيا شاملة خاصّة بالسياسة الخارجية، والأهمّ من ذلك، أن الوثيقتين أكّدتا التزام الإصلاح الديمقراطي. في حين تبنّت الولايات المتحدة «مبادرة الشرق الأوسط الكبير» (2004)[26]. وأعلنت

(25) M. Emerson and G. Noutcheva, «From Barcelona Process to Neighborhood Policy: Assessments and Open Issues,» CEPS Working Document, no. 220 (March 2005), p. 20.

(26) للاطلاع على تقويم نقدي للمبادرة الأميركية، انظر: Bichara Khader : «Le Grand moyen orient: télé -évangélisme ou destinée manifeste, » dans: *Le Monde arabe expliqué à l'Europe: histoire, imaginaire, culture, politique, économie, géopolitique* (Paris: l'Harmattan; Louvain-la-Neuve: CERMAC: Academia-Bruylant, 2009).

مجموعـــة البلدان الثمانية G8 «الشـــراكة من أجل التقدّم ومســـتقبل مشـــترك» (حزيران/ يونيو 2004).

عكس هـــذا التكاثر فـــي المبادرات فـــي أعقاب غزو العـــراق (2003)، إضافةً إلى التوسّعين الخامس (أيار/ مايو 2004) والسادس (2007) للاتّحاد الأوروبي، إجماعًا عامًّا - على الرغم من اختلاف المقاربات - على أن الأنظمة الشـــمولية في العالم العربي هي المشكلة لا الحلّ للاضطرابات، ويعني هذا أن من مصلحة الغرب التركيـــز على الإصلاح وعلى منظّمـــات المجتمع المدني بوصفها «عوامل تغيير».

بيد أن الفلســـفة والهندســـة اللّتين تقوم عليهما سياســـة الجوار الأوروبية تتناقضان مع النيات المعلَنة بشأن إصلاح تدريجي من الأسفل إلى الأعلى. وفي واقع الأمر إن هذه السياســـة هي سياســـة بين حكومات تقوم على أساس نمط ثنائي من التوزيع المحوري[27] وركنها الرئيس هو «خطّة العمل» التي تتقدّم بها كلّ دولة جارة وتناقشها مع المسؤولين الأوروبيين. وفي ظلّ مثل هذه الشروط، من الصّعب تصوّر تخلّي الأنظمة السلطوية طواعية عن السلطة، أو حتى القبول بالمشـــاركة فيها، وأن تضمن بجدّية حكم القانون. وبتعبير آخر، فإن الإصلاح الديمقراطي الحقيقي يعني الانتحار السياسي للأنظمة القمعية. ومن هنا مفارقة سياســـة الجوار الأوروبية: كيف يمكن للاتّحاد الأوروبي أن يساهم في إرساء الديمقراطية في دول سلطوية وبموافقة هذه الأنظمة عن طواعية[28]؟

بعد الهجمات الإرهابية في مدريد (2004) ولندن (2005)، ومع ازدياد موجات الهجرة غير الشـــرعية إلى الاتحاد الأوروبي، عـــاد نموذج الأمن إلى الواجهة. وفقد الضّغـــط من أجل الإصلاح زخمه. وطغـــى مفهوم «الحوكمة» على مفهوم «الإصلاح الديمقراطـــي» من أجل تفادي معـــاداة الأنظمة العربية المشاركة في سياســـة الجوار الأوروبية. وبطريقة نبيهة تمامًا، أدخلت الأنظمة

---

(27) Aliboni and Saaf, p. 21.

(28) Richard Youngs, «Europe's Uncertain Pursuit of Middle East Reform?» Carnegie Endowment for International Peace, Carnegie Papers, no. 45 (11 June 2004).

نفسها بعض «الإصلاحات» غير المهمّة استجابةً منها للمطالب الأوروبية بالحدّ الأدنى. فأنشأ بعضها «منظّمة للدفاع عن حقوق الإنسان» خاصّة بها ودعت بعض منظّمات المجتمع المدني التي لم تتحدَّ التوزيع القائم للسلطة، للانضمام إليها - مثل بعض النقابات العمّالية والغرف التجارية - أو تلك التي كانت تعتمد على الحكومة ماليًا مثل منظّمات الخدمات غير الحكومية. وفي تناقض صارخ، تعرّضت للقمع الشديد المنظّمات غير الحكومية التي تدافع عن قضايا وتناصرها، أهي إسلامية أم ليبرالية أم غيرها.

من الواضح أن الاتحاد الأوروبي تابع سياسة «الأعمال المعهودة» مع جيرانه. بل إنه لم يكن سعيدًا بأدائه هو؛ ففي بيانٍ صدر في عام 2005[29]، انتقد الاتحاد الأوروبي تقديم الأمن على الإصلاح. وفي الواقع، كان اختلاف الرؤى يتنازع الاتحاد: فإذا أراد أن يظلّ أمينًا لقيمه، عليه أن يدفع باتّجاه إصلاح ديمقراطي حقيقي، لكن إذا كان يسعى إلى الدفاع عن مصالحه المباشرة، فعليه أن يحافظ على علاقات ودّية بالأنظمة الاستبدادية. وظلّ الاتحاد الأوروبي، حتى الربيع العربي، في هذا المأزق المزعج، واتّسمت سياسته بالافتقار إلى التّماسك. وهكذا ضغط في عام 2005 من أجل إنهاء «الاحتلال السوري للبنان» في حين عزّز علاقاته بإسرائيل التي يعود احتلالها للأراضي العربية إلى عام 1967. وعاقب حركة «حماس» على انتصارها في الانتخابات الفلسطينية في عام 2006 ففرض عليها ثلاثة شروط لم يفرضها قطّ على إسرائيل. كما أنه فشل في الإصغاء إلى أصوات غير مألوفة مثل منظّمات المجتمع المدني الإسلامية[30].

مع هذا الكمّ الهائل من التناقضات، حصدت سياسة الجوار الأوروبية

---

(29) European Commission, «Tenth Anniversary of the Euro-Mediterranean Partnership: A Work Programme to Meet the Challenges of the Next Five Years,» Brussels, 12 April 2005 (COM (2005) 139 final).

(30) Kristina Kausch, «Europe's Engagement with Moderate Islamists,» and Nona Mikheldize and Nathalie Toccli, «How can Europe Engage with Islamist Movements?» in: Michael Emerson, Kristina Kausch and Richard Youngs, eds, *Islamist Radicalisation: The Challenge for Euro-Mediterranean Relations* (Madrid: Center for European Foreign Policy Studies and Fride, 2009), pp.129-150 and 152-169 sqq.

بالأحرى نتائجَ مخيبة، وفشلت في تحقيق أي تغيير جوهري؛ إذ واجهت جاذبية الاتحاد الأوروبي تحدّيًا متمثّلًا في غياب المساواة في معاملة الجيران (الشرق والجنوب) وفي «إبراز صورة أوروبا على أنها حصن»[31].

بحلول عام 2007، كان الاتحاد الأوروبـــي غارقًا في القلق. وتركت ردّة فعله الناعمة على الحرب بين إســرائيل و«حزب الله» فـــي لبنان (تمّوز/ يوليو 2006) تأثيرًا ســلبيًا في صدقيته في المنطقة. ومثّل الدّعم الذي منحه للسلطة الفلسطينية، على حساب حركة «حماس» التي سيطرت على قطاع غزة في عام 2007، تحدّيًا لسياسته الفلســطينية القائمة على الدعم. وغدا الاستياء الشعبي والثقافي العربي ملموسًـــا، وشاع إحســـاس عام بأن الاتحاد الأوروبي لا يزال لاعبًا متردّدًا لا فاعلًا ينعم بصدقية. ومن المســتغرَب حقًّا أن إســرائيل ليست على اقتناع بأنّ الاتحاد الأوروبي «حليف» يمكن الاعتماد عليه.

ح - الاتحاد من أجل المتوسط (2007- 2012)[32]

في حين كان الاتحاد الأوروبي يطبّق سياســتيه التوأم (الشراكة الأوروبية المتوســطية وسياســة الجوار الأوروبية)، وفـــي حين كانت المبـــادرات دون الإقليمية تتّخذ مســارها الخاصّ، قام ساركوزي، المرشّـــح الرئاسي الفرنسي حينئذ، بأخذ الجميع على حين غرّة بإعلانه مبادرة فرنســية، في شـــباط/ فبراير 2007، سُمّيـــت «الاتحاد المتوسّــطي»، وعُرفت في ما بعد باســـم «الاتحاد من أجل المتوسّـــط» (UfM) في أثناء قمّة باريس المنعقـــدة في 13 تمّوز/ يوليو 2008.

ليس المجـــال هنا للغوص في نشـــوء هذه المبـــادرة وردات الفعل عليها وتطوّراتهـــا اللاحقة. ويكفي القـــول إن الفكرة الفرنســية «جُعلـــتْ أوروبية» (المجلس الأوروبي في آذار/ مـــارس 2008)، وأن وزراء الخارجية اتّفقوا في

(31) Eduard Soler and Elina Viilup, «Reviewing the European Neighbourhood Policy: A Weak Response to Fast Changing Realities, » Notes Internationals CIDOB, no. 36 (June 2011), p. 2.

(32) Bichara Khader, *L'Europe pour la Méditerranée: de Barcelone à Barcelone, 1995-2008* (Paris: l'Harmattan; Louvain-la-Neuve: Academia-Bruylant: CERMAC, 2009), pp. 173-232.

مرسيليا، في تشـــرين الثاني/ نوفمبر 2008 على برنامج للعمل، وأن أمانة عامّة أُنشـــئت في برشـــلونة (2008) فبات هناك ثلاثة أمناء عامّيـــن عرب منذ ذلك التاريخ حتى الآن: السفير أحمد مساعدة من الأردن الذي سرعان ما تنحّى عن المنصب، ويوسف عمراني الذي استقال لأنه اختير وزيرًا في الحكومة المغربية الجديدة، والسفير المغربي الحالي فتح الله السجلماسي.

في تناقض صارخ مع الشـــراكة الأوروبية المتوســـطية وسياســـة الجوار الأوروبية، فإن الاتحاد من أجل المتوسّـــط هو اتّحاد مشاريع؛ فهندسته تختلف عن «الرزم الثلاث» في الشـــراكة الأوروبية المتوسطية وعن «خطط العمل» في سياسة الجوار الأوروبية. وهو يهدف إلى تنفيذ ستّة مشاريع ذات أولوية يُفترَض أنها تشجّع التكامل الإقليمي: طرق رئيسة بحرية وبرّية، وإزالة التلوّث، والطاقة المتجدّدة - خصوصًا الطاقة الشمســـية، وحماية المدنيين، والتعاون في مجال الأعمال والأبحاث. لكن الاتحاد من أجل المتوسّط لا يختلف عن الأطر التي سبقته في أنّه يضمّ الدول العربية وإسرائيل في الإطار نفسه.

إن المنطق الذي يقوم عليه الاتحاد من أجل المتوسّـــط أنه لا يمكن تعزيز التكامل الإقليمي إلّا من خلال مشـــاريع إقليمية ظاهرة ومهمّة. وتقوم فلســـفته العامّة على المســـاواة والملْكية والتدرجية والمســـؤولية المشـــتركة والشراكة المتعدّدة الأطراف. وعلى نحوٍ ما، اســـتعاد الاتحاد من أجل المتوسّط التعددية التي كانت شـــبه غائبة في سياســـة الجوار الأوروبية، لكـــن تعدّديته تقوم على أســـاس «علاقات تقليدية بين دول لا على أســـاس نموذج مـــن العلاقات بين المجتمعات»[33].

وافقت الدول العربية على المشـــاركة، بعضها بحماســـة (مصر والمغرب والأردن وتونس)، وبعضها الآخر بتردّد (سورية ولبنان وليبيا). أمّا الجزائر فلم تكن حتى معنية بالمشاركة، لكنّها غيرت رأيها من بعد. واختير الرئيس المصري الأسبق مبارك «رئيسًا مشـــاركًا» يعمل بالارتباط مع ساركوزي (رئيس الاتحاد

(33) Aliboni and Saaf, p. 21.

من أجل المتوسّط). وكان الأردني أحمد مساعدة الأمين العام الأوّل للاتحاد. ووقّعت كلّ من مصر والأردن معاهدة سلام مع إسرائيل. هل هي مصادفة أم هو خيار دبلوماسي؟ هذا أمر يستحقّ المزيد من البحث.

المؤكّد أن إسرائيل كانت أوّل عقبة كأداء أمام هذه السياسة الوليدة. وفي الواقع، كان أوّل اجتماع لوزراء الخارجية لدول الاتحاد من أجل المتوسّط (3-4 تشرين الأوّل/ نوفمبر 2008) على وشك الانهيار بسبب معارضة إسرائيل مشاركة جامعة الدول العربية. أُلغي الاعتراض، لكن إسرائيل حصلت على منصب «نائب الأمانة العامّة». وبعد شهرين من ذلك، شنّت إسرائيل هجومها على قطاع غزّة (كانون الأوّل/ ديسمبر 2008 - كانون الثاني/ يناير 2009)، وأُصيب الاتحاد من أجل المتوسّط بالشّلل طوال ستّة أشهر تقريبًا.

للاتّحاد من أجل المتوسّط حاليًا أمانة عامّة فاعلة في برشلونة، ويجري إعداد دراسات الجدوى لكن الأزمة الاقتصادية تشلّ الاتحاد الأوروبي، في حين لم يبد القطاع الخاصّ أي حماسة للإسراع في المشاركة في المشاريع المحدّدة. وإذا تحسّن الوضع الاقتصادي، يمكن القول إن الاتحاد من أجل المتوسّط سينطلق على الأرجح وفقًا لقاعدة «الهندسة المتغيرة» يشارك فيها الرّاغبون والقادرون.

هنا أيضًا، تغيب مسألة حكم القانون والأمن البشري. وتخضع المشاريع الكبرى للأولويات. ويجري التلميح إلى الإصلاح السياسي لكنّه يظلّ بعيدًا عن أن يكون حجر الأساس في هذه المبادرة.

خلاصة

ظلّت سياسات الترويج للديمقراطية هدفًا دائمًا للاتحاد الأوروبي. والاتحاد نفسه هو «مشروع سلمي عظيم يتحقّق من خلال التكامل والتحرّك التدريجي الذي يتجاوز التكامل الاقتصادي لينجز مجتمعًا للقيم»[34]. هذا

(34) Irene Menendez Gonzalez, *Arab Reform: What Role for the EU*, Egmont Paper, 8 (Brussels : Academia Press, 2005), p. 6.

العرض السريع للسياسات الأوروبية في حوض المتوسّط وفي المنطقة العربية لا يعني أنّ الاتحاد الأوروبي، بوصفه مروّجًا للديمقراطية، يملك سجلًا ممتازًا. بالتأكيد لم يشـأ الاتحاد الأوروبي معاداة الأنظمة الاستبدادية القائمة؛ إذ جرى بالتدريج اسـتبدال الشـروط التي وضعها الاتحاد الأوروبي، مع أنّها لم تُطبّق قطّ، وإحلال مبدأ الملْكية المشتركة محلّها، وهي ملْكية تربط الإصلاح باتفاق الشركاء أنفسهم. ومن الواضح أنّ هؤلاء الشركاء كانوا على قدْرٍ كبير من التردّد يمنعهم من الانخراط في إصلاح حقيقي، لأسباب مفهومة.

لا عجب إذًا، أن بعد مرور خمسـين عامًا على اتفاقـات التعاون والعمل المشترك مع الدول العربية، لم ينبثق أي نظام عربي ديمقراطي. وعلى العكس، فما شـهدناه لم يكن «اقتصادًا ليبراليا للسّـوق» بل «أنظمة حكم استبدادية غير ليبرالية محدّثة» تنتج محسوبية رأسمالية توزّع السلطة والثروة بشكلٍ غير عادل. ولا يكمن هذا الخلل في المناهج والأدوات والوسائل التي يستخدمها الاتحاد الأوروبـي، ولكنّه يعود إلى تفضيل الأمن على حسـاب الإصلاح السياسـي، المعروف بـ «مأزق الديمقراطية والأمن»[35].

هذا ما يفسّر لمَاذا بقيت السياسات الأوروبية في شأن «الإصلاح السياسي» غير متماسـكة إلى حدٍّ بعيد: الفشـل في تطبيق الفقرة الشـرطية والدعم غير المشروط إلى مصر وتونس والأردن والمغرب، والتسامح مع الآخرين. وحتى في المفاوضـات بين الجماعـة الأوروبية - والمجلس العـام، كان الإصلاح السياسي هامشيًا، إن لم يكن غائبًا بوضوح. وينجم هذا الاتّجاه نحو التواطؤ مع أنظمة سـلطوية قائمة «من الخوف الدفين الذي يخشى البديل الإسلامي الذي سـيحلّ مكان القومية العربية العلمانية»[36]. وهذا ما يفسّـر بعض الشيء عجز

(35) Helle Malmvig, *Cooperation or Democratisation: The EU's Conflicting Mediterranean Security Discourses*, DIIS Working Paper, 2004/8 (Copenhagen: Danish Institute for International Studies, 2004).

(36) Alvaro de Vasconcelos, *Listening to Unfamiliar Voices: The Arab Democratic Wave*, with a preface by Pierre Vimont (Paris: Institute for Security Studies, 2012), p. 106.

الاتحاد الأوروبي عن التواصل مع الحركات الإسلامية الإصلاحية الرئيسة[37].

مرّةً أخـــرى، انطلاقًا من هذه الخلفيـــة، جاء الربيع العربـــي بمنزلة دعوة الاتحاد الأوروبي إلـــى اليقظة، وهو ما اضطـــرّه إلى إعادة النظر في سياســـته السابقة، وإلى إعادة تكييف سياساته انســـجامًا مع الواقع الجديد الذي برز في حوض المتوسّط وفي العالم العربي بكامله.

ثانيًا: الاتحاد الأوروبي والربيع العربي

أخذت الثورة الشعبية العربية التي انطلقت من تونس وامتدّت إلى دول عربية أخرى الأغلبية الساحقة من الخبراء الأكاديميين على حين غرّة: إذ لم تكن الثورة متوقّعة، وأتى تأثيرها البيّن مفاجئًا، بل لم يكن يحلم أحدٌ قطّ بنتائجها. وفي أقلّ من عام واحد، سقطت أربعة أنظمة عربية، دامت عقودًا اجتاحت خلالها الأمواج الديمقراطية العالم بأســـره. فالنظام التونســـي الذي كان يعدّ حصنًا للاستقرار، أُســـقط، وفرّ بن علي من بلاده. وفُرض على الرئيس المصري المخلوع مبارك التخلّي عـــن الحكم، وتعرّض في ما بعد للمحاكمة والســـجن. وكان على علي صالح الموافقة على خطّة انتقالية نسّـــقها مجلس التعاون الخليجي. أمّا العقيد الليبي القذافي فأُصيب، ربّما في غارة جوّية شنّها الناتو، ثمّ أُعدم على أيدي أفراد من شعبه.

اندلعت اضطرابات شعبية في بلدان أخرى. ومن أجل استباق الاضطراب الشـــعبي، أدخل ملك المغرب بعض الإصلاحات المتواضعـــة. ووعد الملك الأردني بمحاربة الفساد. أمّا الجزائر فتحدّت العاصفة: وكانت الحرب الأهلية الأخيرة (1992 – 1999)، والاقتصاد المدعوم حكوميًا، والنسيج الاجتماعي المتباين كلّها «عوامل قوية تحول دون التّعبئة» [الشعبية].

في البحرين، دعا الحُكم الملكي السنّي القوّات المسلّحة التابعة لمجلس

---

(37) انظـــر: Roberto Aliboni, *Promoting Democracy in the EMP: Which Political Strategy*, Euromesco Reports (Lisbon: The Euromesco secretariat at the IEEI, 2004).

التعـــاون الخليجي من أجل إعـــادة النظام فـــي البلاد. وفي ســـورية، تحوّلت الاحتجاجات الســـلمية إلى تمرّد مســـلّح، لكن النظام على الرغم من إضعافه يواصل ضرباته العنيفة ضدّ القرى والمدن موقعًا حصيلةً ضخمة من القتلى في صفوف شعبه.

بدّدت الموجة الديمقراطية حتى الآن، ســـلمية كانت أم عنيفة، الكثير من الأوهام المنتشرة في الغرب، خصوصًا في أوروبا. ومن بينها، نجد **الوهم الأول**، ما يسمّى «الاستثناء العربي» الذي يقول إن العرب غير معنيين بالديمقراطية ولا يكترثون بها، وهم غير مســـتعدّين لها. أمّا **الوهم الثاني** الذي تقوّض فهو وهم «دكتاتورنا الجيد» الذي يقول إنّ الدكتاتوريين الموالين للغرب يمثّلون رهانات أفضل ممّا يمثّل البديل الإسلامي. ففي مقالة نُشرت في المجلّة الأميركية فورين أفيرز في عام 2005، حاجج غريغـــوري غوز بأن «الولايات المتحدة ينبغي ألّا تشجّع الديمقراطية في العالم العربي لأن حلفاء واشنطن من العرب السلطويين يمثّلون رهانات مستقرّة من أجل المستقبل». وفي عام 2011 قدّم الكاتب نفسه هذا الاعتراف المذهل: «في ذلك الصدد، كنت على خطأ جسيم»، مضيفًا، «لم أكن وحيدًا في تشكّكي بشأن آفاق تغيير ديمقراطي شامل في ظلّ هذه الأنظمة الاستبدادية التي تبدو وكأنه يستحيل زعزعتها»[38].

هذا في حين يكمـــن **الوهم الثالث** في أن العالم العربي نفســـه وهم، وأن جاذبية الهوية العربية المجتازة للحدود تلاشـــت. وبرهنت الثورات العربية أن هذا الوهم خاطـــئ، فلم يكن من باب المصادفة أن تجتـــاح موجة التغيير عددًا من الدول العربية في آنٍ، بالطريقة نفســـها وبالشّـــعارات نفســـها تقريبًا، تُهتَف باللّغة العربية نفســـها. ويقرّ غريغوري غوز بأن «الأكاديميين ســـيحتاجون إلى تقويم الأهمّية المســـتعادة للهوية العربية كي تفهم مســـتقبل سياســـات الشرق الأوسط»[39].

---

(38) F. Gregory Gause, «Why Middle East Studies Missed the Arab Spring: The Myth of Authoritarian Stability,» *Foreign Affairs* (July-August 2011), p. 82.

(39) Gause, p. 86.

أمّا الوهم الرابع فهو ما يسمّى «الشـــارع العربي» الذي يُفترَض أن يكون غير عقلاني، ومتقلّبًا وصاخبًا وعنيفًا. وقوّضـــت الثورات العربية هذا الوهم؛ فليس ثمّة رأي عربي عام متنوّع وعقلاني فحســـب، بـــل ثمّة دائمًا قوى تعمل من أجل التغيير تمور تحت السطح وفوقه ما دام هناك حضور فاعل لمنظّمات المجتمع المدني، على الرغم من جميع أشكال السيطرة القمعية التي تمارسها الدولة.

الوهم الخامس هو أن الأنظمة السلطوية غير قابلة للزّعزعة. ويبرهن الربيع العربي مدى هشاشة هذه الأنظمة. وفي الواقع، لم يجرؤ المجتمع على زعزعة الأنظمة، لا لأنها مستقرّة، بل لأن المجتمع لم يجرؤ على زعزعتها فبدت ثابتة. ولذلك، كان تحطيم جدار الخوف عاملًا حاسمًا في الثورات الرّاهنة.

كما أن الثـــورات العربية حطّمت أوهامًا أخرى، ولا ســـيما وهم «التدمير الخلاّق» (غزو العراق)، ووهم الديمقراطية المفروضة عســـكريًا، أو حتى وهم «الثورات من خلال موقع التّواصل الاجتماعي الفيســـبوك». إذ انبثقت الثورات العربية من عوامل داخلية، لا من قـــرارات جرى اتّخاذها في الولايات المتحدة أو في أروقـــة الاتحاد الأوروبي. أما الفيســـبوك ومواقـــع التواصل الاجتماعي فخدمت بوصفها أدوات، لكنّها لم تحلّ قط محل الفاعلين الحقيقيين أنفسهم.

أُخذ الاتحاد الأوروبي على حين غرّة بســـبب حجم التطـــوّرات الجارية على الشواطئ الجنوبية للمتوسّـــط. وكان عليه أن يردّ على ما لقّبه أحد الكتّاب بـ «التســـونامي العربي»[40]. وفي هذا الجزء من البحث، ســـأقوم بتحليل الردّ الأوروبي على الربيع العربي، وما إذا هو في مستوى التحدّيات المقبلة.

1 - الاستجابة الأوروبية

بعد فترة قصيرة مـــن التردّد أدرك الاتحـــاد الأوروبي أن مـــا كان يجري في العالم العربي لم يكن «شـــغبًا من أجل الخبز»، بل هو شـــيء يحمل مغزى

(40) Antoine Basbous, *Le Tsunami arabe* (Paris: Fayard, 2011).

استثنائيًا، وشعر بأن عليه أن يجاري الديناميات الجديدة. وصدر بيانان عن الهيئة الأوروبية، نُشر الأول في آذار/ مارس 2011 تحت عنوان «الشراكة من أجل الديمقراطية والازدهار المشترك»[41]، في حين نُشر الثاني في أيار/ مايو 2011 تحت عنوان «استجابة جديدة لجوارٍ متغير»[42]، وجرى إنشاء مرفق للمجتمع المدني جديد (بقيمة 22 مليون يورو لعام 2011) إلى جانب رزمة معونات باسم «تعزيز الشراكة والنموّ الشامل» (SPRING) (بقيمة 65 مليون يورو لعام 2011 و285 مليون يورو لعام 2012)، كما قُدّم اقتراح بإنشاء «صندوق أوروبي للديمقراطية».

أ - الشراكة من أجل الديمقراطية والازدهار المشترك مع حوض المتوسط الجنوبي[43]

يصف بيان الهيئة الأوروبية الصادر في 8 آذار/ مارس 2011 الحوادث الجارية في «جوارنا الجنوبي» بأنها «تحمل أبعادًا تاريخية» سيكون لها عواقب دائمة». ولذلك، ينبغي ألّا يكتفي الاتحاد الأوروبي بأن يكون «مشاهدًا متفرّجًا»، وعليه «أن يدعم رغبة الشعب في جوارنا» من خلال «خطوة نوعية إلى الأمام»، ضمن «التزام مشترك» بـ «القيم المشتركة: الديمقراطية وحقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية والحوكمة الجيدة وحكم القانون».

ستقوم المقاربة المقترحة الجديدة على أساس التفاضل والشروط والمساءلة المتبادلة على ثلاثة عناصر: التحوّل الديمقراطي وبناء المؤسسات، وشراكة أقوى مع الشعب، ونموّ مستدام وشامل.

---

(41) «المفوضية الأوروبية تطلق شراكة طموحة من أجل الديمقراطية والازدهار المشترك مع جنوب المتوسط،» بوابة اليورومبد، 8/ 3/ 2011، <http://www.enpi-info.eu/mainmed.php?id=24445&id_type=1&lang_id=470>.

(42) «استجابة الاتحاد الأوروبي للربيع العربي: مذكرة صادرة عن المفوضية الأوروبية في 16 ديسمبر/ كانون الأول 2011،» بوابة يوروميد، <http://www.enpi-info.eu/main.php?id=297&id_type=3&lang_id=470>.

(43) European Commission, Brussels, 5 March 2011 (COM (2011) 200 Final).

في المدى المباشـــر، قرّر الاتحاد الأوروبي زيادة المعونة الإنسانية لتوفير الغذاء والملجــأ للاجئين المتدفّقين من ليبيا، وتســهيل إجلاء مواطني الاتحاد الأوروبي من خلال آلية حمايــة المدنيين الخاصة بالاتحــاد (MIC)، والتعامل مــع «إمكان حدوث تدفّقــات جديدة مــن اللاجئين والمهاجريــن إلى الدول الأوروبية»[44].

يقترح البيان، بشــكل أكثــر عمومية، مقاربة جديدة على أســاس الحوافز وعلى المزيد من التفاضل. وتســمّى هذه المقاربــة «المزيد في مقابل المزيد»، وهي تكافئ الإصلاح الأســرع بمزيد مــن الدعم في المســاعدات والتجارة والمكانة المتقدّمة.

يعلن الاتحاد الأوروبي ضرورة استعداده لتوفير الدعم للمجتمع المدني، وإنشــاء مرفق جوار خاص بالمجتمع المدني، وأن يبرم «شراكة تنقّل» مستفيدًا الاستفادة كلّها من التحسّن في سياسته بإزاء منح تأشيرات الدخول.

ثمّة اهتمام خاص يوليه البيان لتشــجيع المشــاريع الصغيرة والمتوسّطة، وإيجاد فرص العمــل، وزيــادة القروض التــي يقدّمها الصنــدوق الأوروبي للاستثمار، وتوسيع عمل المصرف الأوروبي للإنشاء والتعمير في دول المنطقة الجنوبية، والتفاوض بشــأن «مناطق حرّة عميقة وشاملة». وجاء البيان إلى ذكر التعاون القطاعــي في مجالات الطاقة وبرنامج الدّعــم الريفي، وتطوير التعليم وتقانات الاتصــال. ويؤكّد «التعاون الإقليمي» أنّ الاتحاد من أجل المتوســط خطوة جيدة في هذا الاتجــاه، مضيفًا في ملاحظة نقديــة أن الاتحاد من أجل المتوســط «لم يحقّق النتيجة المتوخّاة»، وأنه «في حاجــة إلى الإصلاح»، كي يكون «وسيطًا» يجمع الدول والمؤسّسات حول «مشاريع ملموسة»، وفقًا لمبدأ «الهندسة المتغيرة».

أخيرًا، ينوي الاتحاد الأوروبي زيادة المعونات المالية المباشــرة لحوض المتوســط الجنوبي (5.7 مليار يورو تُقدّم بموجب بند أدوات شــراكة الجوار

(44) Frontex Joint Operation Hermes 2011, 20 February 2011.

الأوروبي للفترة 2011-2013)، وقروض الدعم من بنك الاستثمار الأوروبي من خلال مرفق الجوار (NIF).

ب - استجابة جديدة لجوار متغير: مراجعة لسياسة الجوار الأوروبية

جرت مراجعة سياسة الجوار الأوروبية (ENP) قبل الربيع العربي. لكن الحوادث الأخيرة جعلت من قضية هذه المراجعة أكثر إلحاحًا وإلزامية. ويعيد البيان المشترك[45] أن «الشراكة مع جيراننا هي ذات منفعة متبادلة»، لكنها في حاجة إلى تعديل. ويجب أن تقوم المقاربة الجديدة على المساءلة المتبادلة وعلى التزام مشترك للقيم العالمية، ودرجة أعلى من التفاضل، وبناء شامل للمؤسّسات، وعلى ديمقراطية إلزامية وعميقة. لكن البيان يضيف أن «الاتحاد الأوروبي لا يسعى إلى فرض نموذج أو وصفة جاهزة للإصلاح السياسي». ومن أجل تحقيق الأهداف المعلنة، يدعم الاتحاد الأوروبي تأسيس «صندوق أوروبي للديمقراطية» و«مرفق دعم المجتمع المدني» (CSF).

على الجبهة السياسية، يؤكّد البيان نية أوروبا «تعزيز تدخّلها في حلّ النزاعات الطويلة». هذا كلّ ما في الأمر.

من الواضح تمامًا أنّ الشراكة الاقتصادية هي حجر الأساس في البيان الذي يكرّر أهمّية التعاون الصناعي وتنمية الرّيف والتنمية الريفية والنموّ الشامل والاستثمارات المباشرة والعلاقات التجارية وإيجاد فرص العمل. وفي هذا الصدد، فإنّ المقترح الأكثر وضوحًا «منطقة تجارية حرّة عميقة وشاملة» (DCFTA) يتزامن مع تفكيك تدريجي لحواجز التعرفة الجمركية وتحقيق تكامل اقتصادي تدريجي. ويكمّل هذا الهدف التطوير المقترح لـ «حيّز مشترك للمعرفة والابتكار».

في ما عنى القضية الشائكة المتمثّلة في انتقال البشر، سيعمل الاتحاد الأوروبي على «السعي لعملية تسهيل منح تأشيرات السفر، وتطوير شراكة

---

(45) European Commission, Brussels, 25 May 2011 (COM (2011) 383).

الانتقـــال القائمة وتشـــجيع الاتصالات بين الشـــعوب». ولا يعطـــي البيان أي تفصيلات في شأن طريقة إعمال هذا الهدف.

ج - تعليقات نقدية على البيانات

صحيح أن الربيع العربي حفّز اســـتجابة الاتحاد الأوروبي، لكن ثمّة غيابًا في البيانين لأي إشارة واضحة إلى العالم العربي، أو الشباب العربي، أو الهوية العربية. ويشـــير البيانان (الأول مـــن 16 صفحة والثاني مـــن 21 صفحة) إلى «الجوار الجنوبي» أو «حوض المتوسّط الجنوبي»، مع أن اليمن والبحرين ليسا منهما. وبعض الدول فقط مذكور بالاسم (مصر وتونس). وهذا ليس سهوًا غير ذي شأن.

إضافةً إلى ذلك، تشـــمل الأهداف الثلاثة الرئيســـة لهذه السياسات، كما وردت فـــي البيانين، المال والســـوق والتنقّل. هل يمثّل ذلك اســـتجابة جديدة حقيقية؟ يبدو أن المحلّلين يتّفقون على أن الجواب هو بالنّفي.

من بيـــن الأهداف الثلاثة، يبقـــى توفير المال هو الأســـهل، مع أن الأزمة الاقتصادية قد تعرقل توفيره. وفي ما عنى الوصول إلى الأسواق، من الواضح أن بعض الدول الأعضاء ستقاوم إزالة الحواجز الأوروبية أمام المنتجات الزراعية المتوسطية، لتبقى في جميع الأحوال مقيدة بالسياسة الزراعية المشتركة (CAP). وفي ما عنى شـــراكة التنقّل، يواجه الاتحاد الأوروبي معضلة حاجة السوق إلى موجات جديدة من المهاجرين، في حين أن القادة الأوروبيين «غير قادرين على إقناع الرأي العام في بلادهم بهذه الحقيقـــة»[46]، إذ هو يعارض موجات هجرة جديدة.

إن المبدأين اللذين يوجّهان الاستجابة بكاملها: «المزيد في مقابل المزيد»، و«المســـاءلة المتبادلة». فمبـــدأ «المزيد فـــي مقابل المزيد» يربـــط المكافآت

---

(46) Basma Kodmani, «The Logics of European Actors in the Face of Democratic Changes in the Arab World,» in: Euro-Mediterranean Foundation of Support to Human Rights Defenders (EMHRF), *Democratic Change in the Arab Region: State Policy and the Dynamics of Civil Society* (Brussels: EMHRF, 2011), p. 38.

بالإصلاح. إنه سياســة «جزرة» يُفترَض أن تشــكّل دافعًا أو «حافزًا» أفضل من «سياسة العصا» المرتبطة بمشروطية ســلبية. فكلّ دولة تنخرط في «ديمقراطية عميقة ومستدامة» ســتكافأ بـ «رفع مكانتها»، وزيادة المعونات وتعزيز الحوار السياسي. ويتضمّن هذا المبدأ عناصر الامتثال والتفاضل والمكافأة والمشروطية الإيجابية. ومــن الواضح أنه أفضل كثيرًا من مقاربة «الأقــل في مقابل الأقلّ». لكنّه يظلّ مفهومًا يحمل بعــض الالتباس. ففي الواقع، من الذي يحدّد المعايير القياســية «للإصلاح العميق»؟ ومن هــو المُخوّل إجراء تقويــم للأداء؟ وهل الجيران الجنوبيون مستعدّون أو راغبون في قبول الوصفات الخارجية وتطبيقها بصورة كاملة، حتى في مقابل مكافأة؟

من جهة أخرى، ماذا تعني «المساءلة المتبادلة» التي هي مبدأ إرشادي آخر؟ هل يمكن للجيران الجنوبيين مساءلة الاتحاد الأوروبي بشأن تقصيره في مسألة التنقّل وتنامي رهاب الإســلام وغياب الإجماع لديه على مســائل في السياسة الخارجية، مثل عضوية فلســطين في نظام الأمم المتحدة؟ هل يمكن للجيران الجنوبيين التشكيك في المعايير المزدوجة التي يستعملها الاتحاد الأوروبي في تعامله مع حركة «حماس» وإســرائيل؟ هل يمكنهم أن يطلبوا توضيحًا لســبب تجاوز المجلس الأوروبي قــرارات برلمان الاتحاد الأوروبي المتعلّقة بالصراع العربي – الإسرائيلي، كالقرار الذي جرى تبنّيه في 5 تموز/ يوليو 2012، وكان شديد الانتقاد للممارسات الإسرائيلية في الأراضي الفلسطينية المحتلّة. وكيف يمكن ممارسة هذه المساءلة وتنفيذها؟

ثمّة طائفة من الأســئلة المقلقة الأخرى. وكما كرّرنا هنــا، فإن المبدأين الإرشاديين «المزيد في مقابل المزيد» و«المساءلة المتبادلة» أصبحا الأيقونتين الجديدتيــن في القامــوس الأوروبي. لكن هــذه المفاهيم لــم تخضع لنقاش مع الأطراف المعنية نفســها. كيف يمكن أن ترقى اســتجابة أوروبية نموذجية إلى مســتوى التحدّيات التي تفرضها البيئة الجديدة من دون أن تكون مفتوحة للمُدخَــلات الثقافية التي يقدّمها المعنيون بالأمر؟ وهذا ســؤال مشــروع آخر يفسّر، إلى بعيد، ردّة الفعل السلبية من شبكات اجتماعية عربية تجاه الاستجابة

الأوروبية، باعتبارها «استجابة تقوم على غياب الإجماع». ولذلك فإن البيانات الأوروبية الأخيرة تعاني غيابًا للملكية المحلّيــة: أي غياب المدخلات الثقافية العربية. لا عجب إذًا، كما يشــير تقرير منظّمة أوكسفام، أن «التحوّل إلى الجَزَر من العِصي...ليس جديدًا تمامًا»[47].

ماذا عن مفهوم «منطقة تجارية حرّة عميقة وشــاملة»؟ فهو يبدو مفرطًا في التطفّل، وهو بالتأكيد غير مُقنع. لا شكّ في أن للتجارة الحرّة مزايا كثيرة؛ فهي تعزّز الكفاءة عبر زيادة المنافســة، وتحفّز الإنتاجية، وتدعم الاســتثمار الأجنبي المباشــر والتجارة واللوجســتيات التجارية، وتحسّــن المناخ العام للأعمال.

في الدول الليبرالية والديمقراطية، يجري تحريــر الاقتصاد والخصخصة وفقًــا لقواعد ومعاييــر معيّنة. لكنها في الدول الســلطوية غالبًا مــا تؤدّي إلى تمركز القوّة الاقتصادية في أيدي أقلّية تعرقل النموّ لتهميش الأكثرية الســاحقة من الســكّان. وكانت هذه هي الحال منذ قيام الصندوق الدولي بفرض برامج التكيف الهيكلي. فالخصخصة التي فُرضت على عجل أدّت ببساطة إلى تحويل الاقتصادات القائمة على الخطط إلى اقتصادات عشــائرية، في حين أن تحرير الاقتصاد عادةً يفيد الاقتصادات الأكثر تطوّرًا وتنوعًا.

لذلك، وعلى سبيل القاعدة العامّة، ليس من الحكمة من جانب المانحين، كالاتحاد الأوروبي، إرفاق شرط يتعلّق بالسياسة الاقتصادية كتحرير الاقتصاد. وتتبنّــى المنظّمات غير الحكوميــة العربية هذا الرأي، إذ تــرى أن «دعم النموّ الاقتصادي يجب أن يترسّــخ في دعم خيارات الشــعوب في نموذج اقتصادي منقّح»[48]. وبتعبير آخر، يجب أن يقرّر الشــعب نوع النموذج الاقتصادي الذي يريده، وأي نوع من التحريــر الاقتصادي هو الأكثر ملاءمة، وما هي الســرعة

(47) «Power to the People? Reactions to the EU's Response to the Arab Spring» (Report, Oxfam Briefing Note, 15 November 2011), p. 5.

(48) «Power to the People?» p. 3.

والقطاعات التي يختارها. فالتحرير الاقتصادي ليس إكسير الشفاء في ذاته، خصوصًا إذا جرى تطبيقه في دول لا يزال القطاع الخاص فيها مقيَّدًا[49].

علاوة على ذلك، فإن الدول العربية التي تشهد تحوّلًا ديمقراطيًا تواجه تحدّيات اقتصادية هائلة، وأولويتها الأولى إعادة الاقتصاد إلى مساره، وتخفيف الفقر، ومعالجة الاختلالات في الموازنة. وعليه، تبقى منطقة تجارية حرّة عميقة وشاملة هدفًا بعيد المنال، وهي بالتأكيد ليست هدفًا مباشرًا.

على الاتحاد الأوروبي ألّا يتعجّل في هذا الاتّجاه؛ فهو لا يستطيع أن يطبّق في حوض المتوسط والمنطقة العربية «عدّة الأدوات نفسها» التي استعملها في أوروبا الشرقية، وتتوجب عليه المرونة من خلال تكييف مقاربته مع الأوضاع المتغيرة. يجب إيلاء الأهمّية لتخفيف الفقر، وتمكين المرأة، والمساواة بين الجنسين، ومشاركة الشباب، وإيجاد الوظائف، والتنمية المستدامة. ويبدو البحث عن علاقات اقتصادية أكثر عدالة أشد إلحاحًا من سياسات التحرير الاقتصادي نفسها. ولا بدّ في هذا الصدد من أن يوضع برنامج المعونات الذي يطبّق خلال أعوام عدّة، على نحوٍ يستهدف تعزيز التنافسية والابتكار وتقانة المعرفة.

على الاتحاد الأوروبي أن يشجّع الدول العربية على الانخراط في عملية تكامل شامل وعميق في ما بينها، وإلّا ستظلّ «أسواقًا أسيرة» للفاعلين الخارجيين. والواجب أن تكون أولويتها بالضبط إيجاد حقل نشاط على المستوى الاقتصادي من خلال التشجيع على التكامل الإقليمي. وهذا من مصلحة العرب ومن مصلحة الاتحاد الأوروبي نفسه. وقد يتضاعف حجم التجارة بين الاتحاد الأوروبي والدول العربية ثلاث مرّات على الأقل إذا استطاعت الدول العربية الوصول إلى درجة التكامل نفسها التي وصل إليها الاتحاد الأوروبي.

---

(49) «المزيد مقابل المزيد، استجابة الاتحاد الأوروبي للربيع العربي،» رسالة من منظّمات المجتمع المدني العربية موجّهة إلى الاتحاد الأوروبي، 18 تشرين الأول/ أكتوبر 2011.

د - أدوات المقاربة الأوروبية الجديدة

في سياق سعيه إلى إشراك الشعوب، لا الحكومات فحسب، اقترح الاتحاد الأوروبي أداتين رئيستين: مرفق المجتمع المدني (CSF) و«الصندوق الأوروبي للديمقراطية».

- مرفق المجتمع المدني

يهدف الاتحاد الأوروبي من خلال هذه الأداة إلى «دعم منظّمات المجتمع المدني، وصقل قدرتها علـى المدافعة والمناصرة، وتطويـر إمكاناتها لمراقبة الإصلاح وتطبيق وتقويم برامج الاتحاد الأوروبي»[50]. ويُعدّ هذا الدعم أساسيًا لأن من شأنه تمكين منظّمات المجتمع المدني من عرض همومها، والمساهمة في صنع السياسات، ومساءلة الحكومات وضمان توجيه النموّ الاقتصادي نحو التخفيف من الفقر والنموّ الشامل.

هذا المقترح، ولو أنه يستحقّ الإطـراء والثّناء من حيـث نياته، تواجهه منظّمات المجتمع المدني العربية بالتشـكيك؛ إذ لم تترك المقترحات المشابهة فـي الماضي كبير أثر: كان الدعـم المالي المخصّص غيـر كافٍ، والتعقيدات البيروقراطية مخيبة وأقساط الدعم بطيئة للغاية، علاوة على أن اختيار منظّمات المجتمع المدني كان في أكثـر الأحيان لا يقوم على كفاءتهـا، وكان اعتباطيًا أحيانًا: إذ أشرك الاتحاد الأوروبي منظّمات مجتمع مدني تبدو مقبولة وتجاهَل منظّمات أخرى ذات قاعدة اجتماعية حقيقية. وفي كثير من الأحيان، كان يجري تحويل المعونة الأوروبية لدفع الرواتب الخاصّـة بالموظّفين الإداريين، وكان يمكن لكثير من المنظّمات أن يختفي ببساطة من دون المعونة الأوروبية.

فوق ذلـك، تبدو المخصّصـات المالية ضئيلة، قياسًـا بمجموع الأموال المخصّصة للمسـاعدات. وعليه، ينبغي ألّا يتوقّف الأمر عند حدّ زيادة الموارد وجعْل توفيرها سريعًا وسلسًـا، بل على منظّمات المجتمع المدني التي تتلقّى

(50) «Power to the People?» p. 4.

التمويل أن تستهدف في برامجها في الدرجة الأولى تلك المناطق الريفية واتّحادات المزارعين والمنظّمات الشبابية وقضايا التمييز بين الجنسين والتدريب والتشبيك وبناء الائتلافات.

في العالم العربي الذي يمرّ بمرحلة انتقال سياسي على الاتحاد الأوروبي أن يتفادى تولّي موقع القيادة، فينزع بذلك الشرعية عن تحوّلٍ يقوده الشعب. وعليه أن يكون ذكيًا بما يكفي لعدم استعداء الدول التي استعادت كرامتها وتطالب بمزيد من الشفافية في العلاقات بين المانحين الخارجيين والفاعلين المحلّيين.

- الصندوق الأوروبي للديمقراطية

تختلف هذه الأداة عن مرفق المجتمع المدني لأنها تسعى إلى تشجيع إنشاء منظّمات مجتمع مدني، وتوفير المساعدات للنّقابات وسواها من الفاعلين الاجتماعيين، مثل المنظّمات غير الحكومية غير المسجّلة.

لا تزال هذه الأداة قيد النقاش، ولم تحشد بعدُ ما يكفي من التأييد، إذ يشكّك كثير من المحلّلين في قيمتها المضافة قياسًا بالأدوات القائمة مثل الهيئة القديمة المسمّاة «الأداة الأوروبية من أجل الديمقراطية وحقوق الإنسان» (EIDHR) التي أُنشئت في عام 2007 لدعم الترويج للديمقراطية.

وكخلاصة عامّة لهذا الجزء من البحث، اتّخذت مبادرات الاتحاد الأوروبي الجديدة هيئة «مبادرات تدريجية» لا ترقى إلى مستوى الاستراتيجيا الشاملة التي تتطلّبها استجابة جوهرية وكفوءة للتحدّيات الهائلة التي تواجه المنطقة العربية. فليس للاتحاد الأوروبي الكثير ليقدّمه، إذ تكبّله أزمة اقتصادية عميقة، ومناخ عام من التشاؤم حيال مستقبل الربيع العربي. وفي ما يخصّ المساعدات المالية، قامت الدول الخليجية بتعهّدات مالية ضخمة يبلغ مجموعها مليارات الدولارات لمصر وتونس واليمن. وفي حين تتحمّل تونس وزر مئات آلاف اللاجئين من ليبيا، كانت الدول الأوروبية تثير جلبة عظيمة حيال 20 ألف مهاجر يسعون إلى إيجاد ملجأ فيها.

هل يعني ذلك أنّ الاتحـاد الأوروبي يضيّع فرصـة لتعزيز دوره الفاعل؟ من المبكر إعطاء جواب شـافٍ عن هذا السـؤال. وفي الواقع، يسعى الاتحاد الأوروبي، وجعلته جرأة الشّـباب العربي وإحساسـه بالكرامـة متواضعًا، إلى اسـتخلاص الدروس ممّا وقع في العالم العربي، ومن أسباب وقوعه وكيفيته. وأحد هـذه الدروس أن على الاتحـاد الأوروبي أن يركّز أكثر على الشـعوب لا على الحكومات فحسـب. ولهذا السـبب جاء بالأدوات الجديدة المتمثّلة في «مرفـق المجتمع المدني»، و«الصنـدوق الأوروبـي للديمقراطية». لكن، على الاتحاد الأوروبـي أن يخصّص مزيدًا من المـوارد، وأن يضع المزيد من المحتوى في هذه الأدوات بما يجعلها فاعلة. يجب أن يحدث تحوّل من منطق كمّية التّمويل إلى نوعية التمويل وإلى من يجب توجيه الأموال. إنه من المضلّل التفكير أن الفاعلية تقاس بكمّية الأموال التي أُنفقت.

الدرس الآخر أن لدى الاتحاد الأوروبي منافع من تشـجيع الإصلاح أكثر من المانحين الإقليميين الذيـن «قد يرون في التحـوّلات الديمقراطية في أي دولة عربية تحدّيًا لشرعيتهم هم»[51]. وعليه، فإن تشجيع الإصلاح ليس فريضة أخلاقية فحسب، بل هو هدف جيوسياسي أيضًا.

هـ - الاتحاد الأوروبي بوصفه مروّجًا للسّلام

إنها لمصلحة حيوية للاتحاد الأوروبي أن يكون له جوار يعيش في سلام. ولذلك يؤكّد البيان المشـترك الصادر في 25 أيار/ مايو 2011 ضرورة تكثيف الاتحاد الأوروبي لتعاونه السياسي والأمني مع الجيران و«تعزيز تدخّل الاتحاد الأوروبي في حلّ النزاعات المستدامة»... و«تشجيع العمل المشترك مع سياسة الجوار الأوروبية على الساحة الدولية في القضايا الأمنية الرئيسة» والدفع باتّجاه «عمل منسّق بين الاتحاد الأوروبي ودوله الأعضاء».

مع وجود كثير من النزاعات من دون حـلّ على أعتاب الاتحاد الأوروبي

---

(51) Uri Dadush and Michele Dunne, «American and European Responses to the Arab Spring: What's the Big Idea?» *Washington Quarterly* (Fall 2011), p. 135.

في الشـرق (أبخازيا أوسـيتيا ترانزنسـتريا وناغورنو كاراباخ)، وفي الجنوب (قبـرص والصحراء الغربية والصـراع العربي - الإسـرائيلي)، يواجه الاتحاد قضايا أمنية خطرة تتطلّب قيادة حاسـمة. ويعيد البيان المشـترك أن «الأعمال كالمعتاد لم تعد خيارًا إذا ما أردنا جعل جوارنـا أكثر أمنًا وإذا رغبنا في حماية مصالحنا»، ويضيف أن «الاتحاد الأوروبي ناشـط فعلًا في سـعيه لحلّ العديد من النّزاعـات» بوصفه جزءًا من اللجنة الرباعية الخاصة بالشـرق الأوسـط، ورئيسًـا مشـاركًا لمحادثات جنيف بشـأن جورجيا، ومراقبًا فـي محادثات الـ 5+2 حيال نزاع ترانزنِسـتريا في مولدوفا. كما أن الاتحاد الأوروبي منخرط عمليًـا على الأرض (مهمّة الاتحاد الأوروبي الإنسـانية فـي جورجيا، ومهمّة الاتحاد الأوروبي الخاصة بالمسـاعدة على الحدود بيـن مولدوفا وأوكرانيا، ومهمّة الاتحاد الأوروبي الخاصّة بالمسـاعدة على الحدود في رفح)، ويمكننا أن نضيف أيضًا تعيين المبعوثيْن الأوروبييْن الخاصّيْن إلى الشـرق الأوسـط، ميغيل آنخيل موراتينوس ومارك أوتي، ومبعوث خاص إلى حوض المتوسّـط، برناردينو ليون.

توحي هذه الأفعال كلّها بأن الاتحاد الأوروبي يقوم بدور جيوسياسي مهمّ بوصفه مروّجًا للسّـلام في منطقة الجوار. لكن إذا أخذنا الشرق الأوسط بكونه اختبارًا كاشـفًا للتدخّل الأوروبي، نجد سببًا ضئيلًا للابتهاج. ففي الأغلب كان الدور الأوروبي غير متماسك وغير ثابت ويتّسم بالغموض. ومن دون الإحاطة الشاملة بهذا الدور، سنكتفي في ما يلي ببعض الأمثلة.

من الواضح أن الاتحاد الأوروبي كان «المموّل» الرئيس للعملية السلمية. قدّرت المساعدات الأوروبية للأراضي الفلسـطينية بين عامي 1993 و1999 بنحو 1.7 مليار يورو (في هيئة معونات أوروبية مباشرة ومساهمات في موازنة وكالة الغوث ومساعدات ثنائية)[52]. ووفقًا لأرقام أوروبية أحدث، تشمل الفترة

---

(52) Bichara Khader, *L'Europe et la Palestine: des croisades à nos jours*, Comprendre le Moyen-Orient (Paris; Montréal: l'Harmattan; Louvain-la-Neuve: Bruylant-Academia; Genève: Fides et Labor, 2000).

2000 - 2009، قـدّم الاتحاد الأوروبي إلى الفلسـطينيين مسـاعدات بقيمة 3.3 مليارات يورو[53]، وهذا مبلغ مهـمّ من الأموال. ومن الواضح أن الاتحاد الأوروبي كان أكبر مانح منفرد للسـلطة الفلسـطينية، والفلسـطينيون ممتنّون لهذه المعونة المالية، لكنها مسـاعدات حملت على كاهلها، على نحوٍ ما، كما تقول روزماري هوليس صراحة: «تتحمّل تلك المعونة كلفة استمرار الاحتلال واحتواء العنف في غياب حلٍّ للصّراع»[54]. وبتعبير آخر، فإن الاتحاد الأوروبي يقوم بمسـاعدة الفلسـطينيين على البقاء هادئين، لضمان أمن القـوّة المحتلّة والمسـتعمرات الاسـتيطانية، وجعل السلطة الفلسطينية الكسـيحة قادرة على الوقوف على قدميها. ولا يشاطر المسؤولون الأوروبيون هذا الرأي، لكنّه واسع الانتشار في صفوف الرأي العربي.

إنّه لمن الأسـهل، إلى حدٍّ معيـن، أن تكون «دافعًا» للمـال من أن تكون «لاعبًا» سياسـيًا؛ إذ لا يقاس النفوذ السياسـي الصائب الحقيقـي بمبلغ المال المصروف بل بنوعية النتائج المتحقّقة. وتتطلّب القيادة الحقيقية إدراكًا للقصد، وموارد اقتصادية وعسـكرية، وصورة جذّابة، ورؤية طويلة الأمد، وعملية صنع قرار قوية، وموظّفين دبلوماسـيين ينعمـون بالكفاءة، وتتطلّب قبل كلّ شـيء طرفًا فاعلًا موحّدًا. صحيح أن الاتحاد الأوروبي لا يفتقر إلى الأشخاص ذوي الكفاءة ولا إلى الموارد أو الصورة، إلّا أنه ليـس طرفًا فاعلًا موحّدًا؛ إذ عندما يتمّ الاتفاق بين الدول الأعضاء السّبع والعشرين، فهو غالبًا يكون حيال «القاسم المشترك الأصغر». فألمانيا، مثالًا، تظل أسيرة ذكريات الماضي وتشعر بالخجل من انتقاد الممارسات الإسـرائيلية في الأراضي العربية المحتلّة علنًا. في حين أن بريطانيـا تقف في العادة إلـى جانب الولايات المتحدة التـي يظل تحالفها مع إسرائيل غير قابل للاهتزاز. وكانت فرنسا نشـطة على الصعيد الدبلوماسي لكنّها لم تحصد سـوى نتائج ملموسـة ضئيلة. وفي الإجمال، يفتخر الاتحاد

(53) Agnès Bertrand-Sanz, «The Conflict and the EU's Assistance to the Palestinians,» in: Esra Bulut Aymat, ed, *European Involvement in The Arab-Israeli Conflict*, Preface by Alvaro de Vasconcelos, Chaillot Paper; 124, (Paris: Institute for Security Studies, 2010), pp. 43-53.

(54) Rosemary Hollis, «The Basic Stakes and Strategy of the EU and Member States, » in: Aymat, p. 32.

الأوروبي بأنه داعية عنيد لحل الدولتين، «من دون أن يكون لديه أي استراتيجيا لتحقيقه»[55].

إن إسرائيل شريك تجاري مهمّ للاتحاد الأوروبي؛ إذ بلغ مجموع تجارتها معه 26 مليار يورو في عام 2010. ومنذ عام 1994 صرّح المجلس الأوروبي في إيسين بأن «إسرائيل يجب أن تحظى... بمكانة خاصّة لدى الاتحاد الأوروبي على أساس التبادلية والمصالح المشتركة»[56]. في ذلك الحين، كانت إسرائيل تحتل أراضيَ عربية منذ سبعة وعشرين عامًا. هل أوروبا تكافئ الاحتلال بمنحه «مكانة خاصّة»؟

إن سعي أوروبا إلى تحسين علاقاتها بإسرائيل هو مثال آخر على الالتباس لديها[57]؛ فمنذ عام 1996، كانت إسرائيل مشارِكًا كاملًا في برنامج البحث والتطوير الخاص بالاتحاد الأوروبي، ووقّعت «اتفاق مشاركة» في إطار الشراكة الأوروبية - المتوسطية وخطّة عمل مع الاتحاد الأوروبي في إطار سياسة الجوار الأوروبية. وبعد أعوام قليلة، في 16 حزيران/ يونيو 2008، أعلن الاتحاد الأوروبي نيته أن يرتقي بعلاقاته بإسرائيل. وكان من المفترض أن يصبح ذلك رسميًا في 15 حزيران/ يونيو 2009، لكن الهجوم على قطاع غزة (كانون الأوّل/ ديسمبر 2008 وكانون الثاني/ يناير 2009) الذي أسفر عن مقتل 1300 فلسطيني و13 إسرائيليًا، وتدمير الكثير من مشاريع البنية التحتية التي يموّلها الاتحاد الأوروبي، دفعا بالاتحاد الأوروبي إلى تعليق خطّته، في حين أنه كان يكرّر القول «إن القصد لم يكن معاقبة إسرائيل»[58].

بعد ثلاثة أعوام، في عام 2012، ومع تلاشي العملية السلمية واستمرار انتهاج السياسة الاستيطانية من دون توقّف، قرّر الاتحاد الأوروبي في الثاني من

---

(55) Hollis, p. 39.

(56) خلاصات الرئاسة، موجودة على الرابط التالي: <http://www.conciliumeuropa.eu/eudocs/cms>.

(57) انظر: Euro-Mediterranean Human Rights Network (EMHRN), *EU-Israel Relations: Promoting and Ensuring Respect for International Law* (Brussels : EMHRN, 2012).

(58) Nathalie Tocci, «The Conflict and EU-Israeli Relations,» in: Aymat, p. 62.

حزيران/ يونيو 2012 تعميق العلاقات مع إسرائيل وتعزيزها في أكثر من ستّين مجالًا ملموسًا. ومنذ ذلك الحين، اتُّخذت خطوات عملية على الرغم من قرار شديد اللهجة أصدره البرلمان الأوروبي (في 5 تمّوز/ يوليو 2012) شجب فيه بشدّة الممارسات الإسرائيلية في الأراضي المحتلّة.

إذا أضفنا إلى هذه المبادرات غير المتماسكة، وعدم الاعتراف بفوز حركة «حماس» في الانتخابات الفلسطينية التي جرت في عام 2006، وفشل الرباعية في إنجاز أي شيء، فإننا نستطيع إدراك عمق عدم ثقة العرب بقدرة أوروبا على رسم مسار جديد في السياسة الخارجية الخاصة بالشرق الأوسط.

هل يمكن للربيع العربي أن يشكّل صرخة من أجل سياسة خارجية ينتهجها الاتحاد الأوروبي أكثر نشاطًا وأكثر تماسكًا؟ فلننتظرْ ونرَ.

يحاجج بعضهم بأن معاهدة لشبونة تمنح الاتحاد الأوروبي فرصة نادرة ليغدو طرفًا فاعلًا أكثر كفاءة. وأنا لديّ بعض التحفّظ حيال وجهة النظر هذه. فالاتحاد الأوروبي سيظل يعاني افتقارًا إلى الإرادة المشتركة، وتضاربًا في المصالح، وعجزًا متأصّلًا عن العمل بصورة مستقلّة. ففي مسألة الغزو الأميركي للعراق والعمليات التي قادها حلف الناتو في ليبيا لم يظهر الاتحاد الأوروبي جبهة واحدة. وينطبق الأمر نفسه على الجبهة الدبلوماسية، كما رأينا في تصويت اليونسكو الأخير في مسألة عضوية فلسطين.

هل يمكننا إذًا أن نتكلّم على الاتحاد الأوروبي بوصفه مروّجًا للسّلام؟ إن تجربة الخمسين عامًا الأخيرة تجيبنا بالنّفي. أمّا في ما يتعلّق بالمستقبل فإنّني ما زلت متشكّكًا.

خلاصة عامة وتوصيات في السياسة

في الخمسين عامًا الأخيرة (1972– 2012)، تأطّرت العلاقات بين الاتحاد الأوروبي والدول العربية والمتوسطية ضمن مبادرات متعدّدة: السياسة المتوسطية الشاملة، والحوار الأوروبي – العربي، والسياسة المتوسطية

المتجدّدة، والشـراكة الأوروبية - المتوسـطية، وسياسـة الجـوار الأوروبية، والاتحـاد من أجل المتوسّـط. كما أُطلقت بعـض المبـادرات الإقليمية بين مجموعة وأخرى: صيغة الـ 5+5 (عشـر دول)، منبر المتوسّط (إحدى عشرة دولة)، والتعاون بين الاتحاد الأوروبي ومجلس التعاون الخليجي (27+6).

شملت جميع الاتفاقات المبرمة بين الاتحاد الأوروبي والدول المتوسطية والعربية فقرة في حقوق الإنسان تقوم على أساس احترام المبادئ الديمقراطية. ومع ذلك، دأب الاتحاد الأوروبي على التّعامل مع الأنظمة العربية السـلطوية التي كانت غالبًا تلتزم الإصـلاح لفظيًا ولم تنخرط قطّ فـي عملية ديمقراطية حقيقية.

مع وضع الاتحـاد الأوروبي منظّمات المجتمع المدنـي جانبًا، وتفضيل الأمن تدريجًا عليها، كما عبّر أحد الكتّاب، «لم يكن في مسـتوى صورة القوّة المعيارية التي يريدها لنفسه»[59]، ساهم الاتحاد بصورة غير مباشرة في الحفاظ على «الوضع السياسي القائم». ولم تتسبّب علاقاته الحميمة بالحكّام الفرديين بإحراج البرلمان الأوروبي فحسـب، بل قوّضت أيضًا صورة الاتحاد الأوروبي في عيون العرب.

يضع «الربيـع» العربي العلاقات بين الاتحاد الأوروبـي والعرب برمّتها موضع التسـاؤل، ويدفع الاتحاد الأوروبي إلى إعادة التفكير في استراتيجيته وشراكته مع «خارجه الأقرب». قامت هذه الدراسـة بتحليل استجابة الاتحاد الأوروبي للربيع العربي. وشـرح الاتحاد في بيانين نُشـرا فـي آذار/ مارس وأيار/ مايو 2011 «شـراكته الجديدة» القائمة على بعض المبادئ الإرشادية: «المزيد في مقابل المزيد»، «المساءلة المتبادلة»، و«منطقة تجارية حرّة عميقة وشـاملة». كما أعلن إنشـاء «مرفق للمجتمع المدني» و«صنـدوق أوروبي للديمقراطية».

---

(59) Hélène Pfeil, «The EU in the Arab Spring, » Open Democracy, 20/7/2011, <http://www.opendemocracy.net>.

من الواضح أن صيغة «المزيد في مقابل المزيد» يُفترَض أن تكون أساس الشراكة الجديدة، وأن تشكّل خطوة رائدة نحو مزيد من التفاضل في السياسة. بيد أن القراءة المتأنّية للوثائق الرسمية لا توحي بأن النماذج القديمة تغيرت؛ فصيغة «المزيد في مقابل المزيد» شديدة الشّبه بالكلام البلاغي السابق الذي تضمّنته المقاربات الجاهزة الصّنع»[60]، وتمعن في الاعتماد المفرط على وصفات اقتصاد السوق الرأسمالية النيوليبرالية القائمة على أساس «إيمان شبه مقدّس باللّبرلة والخصخصة»[61].

بكلام مبسّط، تعني صيغة «المزيد في مقابل المزيد»: إصلاحات أسرع ومكافآت أحسن. وتلخّص المكافآت في ما يسمّى الـ 3M: Money, Market, Mobility (المال، السوق، التنقّل). ولا شكّ في أن زيادة المساعدات أمر سخي، وأن فتح الأسواق أمر ثمين، وأن تعزيز التنقّل ضروري. لكن الأهمّ من ذلك هو دعم الديمقراطية والترويج للأمن البشري من خلال إسداء المشورة لا إعطاء الدروس، والمساهمة في بناء السلام، وتكوين صورة «الشريك الموثوق»، وتعلّم «الإصغاء إلى الأصوات غير المألوفة»، والحديث مع الفاعلين الحقيقيين في المجتمع المدني العربي وليس مع النّخب التي تروق عيون الأوروبيين فحسب. وعلى الاتحاد الأوروبي ألّا يخلط بين «إرساء الديمقراطية» و«جعل البلدان أوروبية - أَوْرَبَة -»[62]؛ إذ إن مثل هذا الالتباس قد يدفع العرب إلى التفكير أن أوروبا إنّما تصدّر نموذجها المؤسّسي ونسقها القيمي.

على الاتحاد الأوروبي أن يبدي انخراطًا حقيقيًا في حلّ الصراعات، خصوصًا الصراع المركزي المتمثّل في الصراع العربي - الإسرائيلي. فمنذ عام 1967 يكرّر الاتحاد الأوروبي في مناسبات مختلفة إدانته السياسات الإسرائيلية

(60) Soler and Viilup, p. 4.

(61) Thomas Schumacher, «The EU and the Arab Spring: Between Spectatorship and Actorship,» *Insight Turkey*, no. 3 (13 October 2011), p. 110.

(62) Richard Youngs, «Lo que no se debe hacer en Oriente Medio y el Norte de África,» Fride, Policy Brief, 15/3/2011, p. 6.

في الأراضي المحتلّة. ولم ترافق هذه السياسةَ الإعلانية أفعالٌ ملموسة في ما يتعدّى المساعدات المالية الممنوحة للفلسطينيين التي هي في واقع الحال تغطّي كلفة الاحتلال. آن الأوان كي يرسم الاتحاد الأوروبي مسار عمل آخر من أجل أن تتوافق كلماته مع أفعاله.

لا تشير مبادرات الاتحاد الأوروبي الأخيرة إلى أن الاتحاد يسير في الاتجاه الصحيح؛ فهو يعزّز علاقاته بإسرائيل في حين أنّ هذه القوّة المحتلّة تُحكِم قبضتها على المناطق المحتلّة من خلال مصادرة الأراضي، والسياسة الاستيطانية النشطة والعقوبات الجمْعية. وهو لا يتكلّم بصوت واحد، ويظلّ مكبّلًا بصعوبة وضع سياسة خارجية مشتركة. وعلى الرغم من تكراره الدائم، الداعي إلى الغثيان، أن سياساته المتوسطية مثل الشراكة الأوروبية - المتوسطية و«الاتحاد من أجل المتوسط»، كان لها الفضل في وضع العرب والإسرائيليين حول المائدة نفسها، فإن من الأفضل أن يضع الاتحاد الأوروبي العرب والإسرائيليين على قدم المساواة.

يوفّر الربيع العربي فرصة نادرة للاتحاد الأوروبي لتولّي زمام القيادة، ولـ«إجراء عملية إعادة تقويم استراتيجي لسياسته»[63]، ولتأكيد نفسه فاعلًا متماسكًا وثابتًا وموثوقًا؛ فللاتحاد الأوروبي مصالح حيوية في العالم العربي. وتكمل المنطقتان كلٌّ منهما الأخرى. ولا شكّ في أن مستقبل أوروبا يكمن في جنوبها المباشر. وكما يكتب باقتدار رئيس الوزراء الإيطالي السابق، ماسيمو داليما: «إنه تحدٍّ بين الصّنع والقطع يواجه الدور الكوني للاتحاد الأوروبي»[64].

---

(63) Andreas Marchetti, «The EU's Relations with its Mediterranean Neighbours in a Regional Perspective,» in: Stephen Calleya and Monika Wohlfeld, eds, *Change and Opportunities in the Emerging Mediterranean* (Malta: Mediterranean Academy of Diplomatic Studies, University of Malta, 2012), pp. 397-413.

(64) Massimo d'Alema, «A Make or Break Challenge for the EU's Global Role,» *Europe's World*, vol. 19 (Autumn 2011), p. 106.

تعقيب

خطّار أبو دياب

مقدّمة

عبر التاريخ، كان البحر الأبيض المتوسـط البحر الأكثر إنسانية[65] وموئل الحضارات والديانات التوحيدية. وكان قبل سـقوط الأندلس واكتشاف القارة الأميركية مركز العالم السياسي والاقتصادي والثقافي. تتداخل في تاريخه الزاخر الحضارات المصرية واليونانية والإسلامية والعربية والمسيحية والإمبراطوريات والأديان.

طبعًا، امتزج الحوار الحضاري بنزاعات حادة من الفتوحات الإسلامية إلى الحملات الصليبية، وصولًا إلى الاستعمار ونشـأة دولة إسرائيل. وبسبب هذه المعطيات كلها ساد عدم الاستقرار، ولم يعد المتوسط بحيرة سلام.

على ضفاف المتوسـط تلتقي أوروبا وآسـيا وأفريقيا، وتتلاقى الديانات الكبرى أو تتصارع. لـذا، حتى لا يصبح تصادم الحضـارات والثقافات قاعدة في نزاعات القرن الحادي والعشرين المعولمة، يؤدي التلاقي المتوسطي دورًا اسـتباقيًا ضد احتدام الصراعـات وتكريس القطيعة بين الغرب والشـرق. في

(65) فريديريك نيتشه، الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، تعريب سهيل القش، تقديم ميشال فوكو، ط 2 (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1982).

الماضي القريب اعتبر الجنرال شارل ديغول الحوار الأوروبي- العربي في شأن المتوسط وتبادل القيم أنهما الكفيلان بمنع انتصار نمط من الحضارة الصناعية اللاإنسانية[66].

في العالم المتوسطي الذي يفتش عن موقعه في عالم الألفية الثالثة وعن توازن جديد بين مكوناته، يمر تفهم الذات عبر تفهم «الآخر»[67] من أجل بلورة شراكة فاعلة بين ضفتي المتوسط. ففي الحوار بين الشرق والغرب يأتي الحوار المتوسطي في المقدمة، لذلك لم يكن عبثًا أن يختار الرئيس باراك أوباما تركيا ومصر المتوسطيتين، باعتبارهما مكانين رمزيين لإصلاح علاقات أميركا والعالم الإسلامي.

في مواجهة دول أوروبا الـ27 يصعب علينا اعتبار الدول العربية كتلة متجانسة لأسباب عدة، أهمها عدم وجود نظام إقليمي عربي متماسك وفاعل. وتختلف مسارات العلاقات بين المشرق والمغرب ودول الخليج، ويغذي ذلك الانقسامات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بين جهات العالم العربي، إضافة إلى المعطيات السياسية والتاريخية والآنية. على الضفة الأخرى، وعلى الرغم من الآلة البيروقراطية الأوروبية العملاقة، فإنه ليس ثمة سياسة خارجية موحدة حيال العالم العربي، ولا في إمكان الاتفاقات الاقتصادية أن تحجب التضارب في المصالح بين الدول الأوروبية، خصوصًا بين الأمم الاستعمارية سابقًا.

هكذا راوحت صلات أوروبا والعالم العربي بين حسن الجوار والخصومة الشديدة، لكنها بقيت من أهم ثوابت التاريخ المتوسطي، ولا تزال تؤثر في مجمل مسار العلاقات الدولية.

---

(66) Paul Balta, sous la direction de, *La Méditerranée réinventée: réalités et espoirs de la coopération*, Cahiers libres: essais (Paris: la Découverte; Fondation René Seydoux, 1992).

(67) Thierry Hentsch, *L'Orient imaginaire: la vision politique occidentale de l'Est méditerranéen*, Arguments ; 94 (Paris: Éd. de Minuit, 1987), p. 79.

أولًا: تقويم عام لبحث خضر

النقطــة المركزيــة التي تمحــور حولها بحث بشــارة خضر هــي تجربة السياســات الأوروبية حيــال العالم العربــي بين عامــي 1957 و2012، من خلال مفاهيم الاتحاد الأوروبي وآلياته، من دون أن يغفل دخول حلف شــمال الأطلســي على الخط أحيانًا، أو الســعي إلى تبديل الحوار العربي- الأوروبي بالشراكة المتوســطية، وأبرز نماذجها مسار برشلونة في منتصف التسعينيات أو الاتحاد من أجل المتوسط في الحقبة الحديثة.

إن المقاربة العامة غنية وتفصيلية وشــاملة، ولو أنني كنت أود أن يتمّ إبرازٌ أكثر لأهمية العلاقات الأوروبية مع إسرائيل، ومنها مثلًا شؤون البحث العلمي والتعاون التكنولوجي العالي المستوى[68].

في تعقيبي على البحث الدســم والمتكامل والمترابط، أبدأ بالإشارة إلى أهمية التمعن في النظــرات المتقابلة، خصوصًا نظرات العالم العربي الذي نظر إلى أوروبا باعتبارها أنموذجًــا ومثالًا، تارة، وموئلًا للقوة وقلعة مغلقة في وجه المهاجرين أو المفتشين عن الازدهار الأوروبي في سنوات البحبوحة طورًا. إن هذه الثنائية المتناقضة تصطدم بتوجهات الاتحاد الأوروبي الذي لا يُعَد جمعية خيرية بالطبع، ولا يجد في مواجهته تكتلًا له اســتراتيجيته. ومن زاوية أخرى، لا مجــال للمقارنة من الناحية البنيويــة والتنظيمية بين تجربــة البناء الأوروبي المشترك المتدرجة كي تصل في أوج عزها عام 2004، وتجربة العمل العربي المشترك وعثرات جامعة الدول العربية ومسيرتها الشائكة.

إن الإحصــاءات الدقيقة الواردة عــن حجم التجــارة الداخلية الهائل في أوروبــا والحجم المتواضع جدًا عــن التجارة البينية العربية، تبــرز لنا الفوارق الكبيرة في التكامل الاقتصادي. بيد أنني أسمح لنفسي بتصحيح معلومة خضر عن عدد العرب المقيمين في دول أوروبا الـ27، فأقول إنه ليس هناك إحصاءات

---

(68) Khattar Abou Diab, «Coopération scientifique entre l'Union européenne et Israël,» *La Révue Géopolitique* (Juin 2000).

فئوية تتعلق بأصول السكان، لكني أعتقد أن التعداد يقارب الـ15 مليون نسمة لا 8 ملايين فقط.

أمّا التسلسل التاريخي للصلات الأوروبية - العربية فيمكننا القول إن ارتباط الحوار بحاجة أوروبا إلى النفط، بعد الصدمة الأولى في عام 1973، كان أول منعطف جدي في مقاربة يسودها تبادل ممكن للمصالح. واستمر ذلك بشكل متراوح حتى سقوط جدار برلين وتوسيع أوروبا - حينها يلحظ خضر عن حق كيف عاد اهتمام الرئيس الفرنسي الراحل فرنسوا ميتران(69) بالحوار العربي - الأوروبي، ودعوة باريس إلى مؤتمر وزاري أوروبي- عربي في 22 كانون الأول/ ديسمبر 1989، لأنه شعر بأن أوروبا تستدير كثيرًا نحو الشرق والوسط في تلبية لتطلعات ألمانيا نحو إعادة كسب مجالها الجيوسياسي، لذلك كان لا بد من تركيز فرنسا على البعدين العربي والمتوسطي في السياسات الأوروبية، حتى لا تخسر باريس دورها العالمي أمام الدور الألماني المتعاظم. بيد أن خضر لم يتناول بالتفصيل هذا الدور الفرنسي الإيجابي، خصوصًا من خلال ما سمّي «السياسة العربية لفرنسا»(70) التي صاغها الجنرال شارل ديغول بعد حرب 1967، واستمرت حتى الاعتراف بالحق الفلسطيني في نهاية السبعينيات، وصولًا إلى التصويت إلى جانب دولة فلسطين كمراقب في الأمم المتحدة في تشرين الثاني/ نوفمبر 2012.

مع أن الجانب الأوروبي يغلّف سياساته في الاهتمام بحقوق الإنسان والديمقراطية، يستنتج خضر أنه يتبين من خلال المراقبة أن القوى الغربية جميعًا أعطت الأولوية طويلًا لما سمّوه الاستقرار، وتجلى ذلك بدعم الأنظمة الحاكمة من دون التنبه إلى مسارها الاستبدادي غالبًا.

على صعيد العمل المتوسطي أو مع حلف شمال الأطلسي، نجد أن

---

(69) François Mitterrand, *Réflexions sur la politique extérieure de la France: introduction à 25 discours, 1981-1985* (Paris : Fayard, 1986).

(70) خطار أبو دياب «أوروبا في مرآة العالم العربي والسياسة الفرنسية،» الملف (أيلول/ سبتمبر 1993).

القــوى الغربية تتأقلم وتحــاول إيجاد آليات تضمن مصالحهــا، مثل مجموعة 5+5، وهي آلية حوار وتعاون بين دول غرب المتوســط على الضفتين، وأبرز حقولها يتمثل في التعاون الأمني ضد الهجرة غير المشروعة والإرهاب. وبينما تلبّي أوروبــا حاجاتها، نجد النزاعات العربية - العربية، مثل الصراع في شــأن الصحراء الغربية، تمثّل نموذجًا لتعطيل مســاعي الاندمــاج الإقليمي أو إقامة أسواق مشتركة. ونلاحظ مع خضر كيف أن النشاط انطلق بقوة لتركيب شراكة متوسطية يتم فيها إدماج إســرائيل، في انتهاز لفرصة توقيع اتفاقات أوسلو في عام 1993، والســعي إلى تحقيق إنجــازات أوروبية، طلبًــا للحاق بالولايات المتحدة التي ســعت عبر مؤتمر مراكش في عام 1994 إلى التأســيس لمنطقة تعاون شاملة بين شمال أفريقيا والشرق الأوســط، تحت رعايتها، في ما عُرف باسم «منتدى المستقبل».

هناك تنافس وصراع في شأن حاضر العرب ومستقبلهم، من دون أن تكون الدول العربية ذات اســتقلالية بين اللاعبين، ومن دون نظرة استراتيجية لتغليب مصالحها أو تحقيق الحد الأدنى من التكامل بينها.

من الملاحظات المهمة المســتخلصة من سياق بحث خضر، تنبّه الاتحاد الأوروبي إلــى الخصوصيات من خلال الحــوار الثنائي مــع مجلس التعاون الخليجي، بهدف تذليل العقبات أمام طريق أوســع للتبادل الاقتصادي. ويشير خضر إلى غلبة مصالح فرنســا وبريطانيا وألمانيا عند التطرق إلى الصلة بدول الخليج العربي. ومع مشــاركتي له بالرأي، أعتقد أن الآليات المشــتركة تنظم علاقات الاتحاد الأوروبي وفق الالتزامات والمعايير المعهودة. لكن ما نلاحظه مثلًا بالنســبة إلى المغرب العربي هــو التنافس الحاد بين القوى الاســتعمارية الســابقة، وأبرزها فرنســا وإيطاليا وإســبانيا، فيما نلاحظ اهتمامًا بريطانيًا أكبر بمصر والســودان والخليج، وفيما يهتم كبار الأوروبيين كلهم بالمشــرق، نظرًا إلى العامل الإسرائيلي، أو إلى مصالح ونفوذ موروث من حقبة ما بعد الحرب العالمية الأولى.

في ما يتصل بسياســة الجوار الأوروبية، أفاض خضر في شرح أُطرها

وتطورها، لكنني أود أن أضيف أن الاعتراض علـــى ضم تركيا إلى الاتحاد الأوروبي لا يتصل بتصاعد الإسلاموفوبيا فحسب، كما يرى البعض، أو تبعًا للتاريخ المثقل لبلد دق أبواب فيينا في حقبة الســـلطان سليمان القانوني، بل يرتبط أيضًا بالتراجع الاقتصادي لأوروبا نفســـها، وعدم بقاء أوروبا نموذجًا جاذبًا حتى عند شعوبها. والســـبب الآخر الذي يعنينا هو جوار تركيا للعالم العربي، وقد عبّر بعض القادة الأوروبيين عـــن ذلك بقولهم إنهم لا يريدون أن تصبح حدود الاتحـــاد الأوروبي مع دول مثل العراق وســـورية وإيران. واليوم عندما نراقب كيفية نشـــر صواريخ «الباتريوت» مـــن حلف الناتو في تركيا، نستوعب بصورة أفضل طبيعة الحذر الأوروبي من انضمام تركيا إلى الاتحاد.

في الجزء الثاني من بحث خضر بشـــأن الربيع العربي، أراه محيطًا، بشكل جيد، بالكثير من جوانب المؤسســـة الأوروبية، ما يترك الباحث على تعطشـــه بالنســـبة إلى مواقف اللاعبين الكبار فـــي أوروبا، وهي متباينـــة بين الانخراط والحماسة والحذر والتشـــكيك. ولاحظنا مثلًا كيف ابتعدت ألمانيا عن فرنسا وبريطانيا في الشأن الليبي، وتصرف كل طرف بحسب رؤيته الوطنية[71].

ورد في مســـتهل البند ثانيًا أن الأغلبية الســـاحقة من الخبراء الأكاديميين في أوروبا لم تتوقّع الهبّـــة العربية، وربما يعود ذلك إلى أســـباب ثقافية تتصل بالنظرات المســـبقة والجاهزة ســـلفًا، وبعدم الإحاطة بتطور المجتمعات. ومن الاســـتثناءات في مدارس البحث الأوروبي مســـاهمة عالِم الاجتماع الفرنسي إيمانويـــل تود الـــذي تحدث منـــذ عام 2009 عـــن صعود الطبقة الوســـطى، وانخفاض المواليد ونجاح مكافحة الأمية في كلٍّ من تونس ومصر وســـورية، حيث توقّع أن تحصل في هذه البلدان تحوّلات عميقة[72].

---

(71) Patrick Haimzadeh, spécialiste français de la Libye, entretien radiophonique avec RFI, Paris, 11 Octobre 2011.

(72) Emmanuel Todd, «Changements démographiques dans le monde arabe,» *La Croix*, 14/9/2010.

بالنسبة إلى المواكبة الأوروبية للربيع العربي والاستنتاجات أشارك خضر في أغلبيتها، لكـــن لا يمكنني إغفال خلل كبير في مســـار الاتحـــاد الأوروبي نفسه، في سياق إعادة تشكيل النظام العالمي الجديد؛ فعدم النجاح الكبير على صعيد السياســـة الخارجية أو الدفاع المشـــترك، يعزز قناعة كثيرين بأن أوروبا الموحدة هي قبل كل شيء سوق اقتصادية مشتركة، وعامل استقرار، فمع البيت الأوروبي المشترك أصبحت أوروبا عنوانًا للسلام بعد قرون من الحروب. لكن الاتحاد الأوروبي الـــذي زاد تأثيره بعد اعتماد اليورو كأول عملة مشـــتركة في العصر الحديث، شاعت في شأنه مقولة صحيحة إلى حد كبير: «أوروبا عملاق اقتصادي وقزم سياسي»، إذ إن الاتحاد بسكانه الـ500 مليون نسمة ما زال أكبر قطب تجاري في العالم، وقطب دولي وســـيط وقادر علـــى الفعل في أكثر من أزمة ونزاع، لكنه ليس بتلك القوة التي عُقدت عليها الآمال لتفرض نفســـها في المعادلة العالمية.

في مواجهة الإعصار المالي العالمي، عقب انهيار وول ستريت في أيلول/ ســـبتمبر 2008، وبعد عبور العاصفة المالية المحيط الأطلسي بشكل متصاعد منذ خريف 2009، تخوّف الحريصون على البناء الأوروبي من أجوبة مســـتقلّة ترمز إلى الأنانية الوطنية، حصل ذلك بالفعل وسقطت منطقة اليورو في امتحان إنقاذ اليونان، وهو ما كان له فعل الدومينو نحو بلدان جنوب المتوسط (البرتغال وإيطاليا وإســـبانيا). ويزيد الطينَ بلّـــة الخلافُ الحالي في شـــأن اعتماد ميزانية الاتحاد الأوروبي، نظرًا إلى مطالبة المملكة المتحدة باســـتمرار معاملتها بشكل مميز. تعمّق هذه العثرة الاقتصاديـــة أزمة تموضع أوروبا بعد صعود مؤثر للدور الأوروبي، في تركيز أسس نظام عالمي متعدد الأقطاب سياسيًا واقتصاديًا.

بإزاء ذلك، يبقـــى الاتحاد الأوروبي خـــارج صناعة التاريـــخ المعاصر كلاعب أساس. وهناك من يردُّ الحجة، ويعتبر أن تراكم أفعال الأمم الأوروبية الكبرى، وأبرزها ألمانيا وفرنســـا وبريطانيا وإيطاليا وإســـبانيا، وحديثًا بولندا، يصبّ في مصلحة المســـاهمة الأوروبية في مواجهة الأزمات والتحدّيات من البلقان في منتصف التسعينيات، إلى الملفّ الإيراني وأزمات أفريقيا حاليًا.

ثانيًا: الخلفية التاريخية والمقاربة الجيوسياسية والعوامل الأخرى المؤثرة في العلاقات الأوروبية - العربية

منذ قرون، يرتبط الواقع التاريخي لتصدّع الوحدة المتوسطية وتجاذب الكراهية والتعاون، بالحراك الذي كرّس تفوق أوروبا الأطلسية على أوروبا المتوسطية. بالنسبة إلى القارة القديمة، انتقل محور العالم شيئًا فشيئا نحو الغرب، وخسر المشرق امتيازه السابق، حيث الخيرات والطريق نحو الهند. وممّا لا شك فيه أن نزاعات الإمبراطورية العثمانية والتاريخ الاستعماري ونشأة دولة إسرائيل ساهمت في تفاقم الموقف.

منذ قرون عدة، يرتبط تاريخ العالم العربي بتاريخ الغرب الأوروبي. وفي كل بلد عربي نجد لمسة غربية، وسبب ذلك الأثر الثقافي ووزن التاريخ الاستعماري، حيث كان العالم العربي موضوع صراع بين القوى المهيمنة. ومنطق الهيمنة هذا ترك بصماته على صلات أوروبا والعرب منذ البداية. ومع أن حملة نابليون في مصر وفلسطين كانت أولَّ تماسٍّ بين العرب والحداثة، فإنه لم يُنظر حينها إلى فرنسا كنموذج حضاري بل كمركز قوة. وافتتحت الحملة حقبة صدام القوى الأوروبية في الشرق المتوسطي، وكانت أول مشروع استعماري أوروبي منذ الحملات الصليبية. وهذا الشرخ بين الغرب والشرق تفاقم مع سقوط الإمبراطورية العثمانية وتقاسم المشرق من خلال اتفاقية سايكس - بيكو غداة الحرب العالمية الأولى. ومن غرائب الأمور أن القوميين العرب الذين نهلوا مبادئ الثورة الفرنسية لمناهضة التتريك، فوجئوا بفرنسا الاستعمارية. هذا الماضي الاستعماري لبعض أوروبا لا يزال ماثلًا بصورة أقوى في بلدان المغرب العربي؛ إذ إن نزع الاستعمار الذي عمل له ديغول لم يتبعه نزع الاستعمار من الذهنيات والممارسات. وما الجدل في شأن تنقية الذاكرة والتوبة بالنسبة إلى الجزائر، إلّا دليل على هذا التخبط، وكأن ما يصلح لإدانة ما حصل إبان جمهورية فيشي (ممارسات مساعدة النازية والحملات ضد اليهود) لا يسري على حقب أخرى من تاريخ متوعك ومأساوي[73].

---

(73) Benjamin Stora, *La Guerre d'Algérie expliquée à tous* (Paris: Éd. du Seuil, 2012).

على الرغم من أهميــة العوامل التاريخية والثقافيــة والدينية والاقتصادية في الصراعات القائمة في المتوســط وحوله، لا يمكننــا اختصارها بصراعات شمال/ جنوب، أو صراعات مسيحية/ مســلمة، أو صراعات متصلة بإسرائيل. إنهــا صراعات أكثر تعقيــدًا، تتدخل فيهــا القوى العظمى والقــوى الإقليمية المجاورة، تتصل بالدِّين واللغة وعدم التقسيم العادل للثروات. وبحسب عالِم الجغرافيا الفرنســي إيف لاكوســت، تعتبر المقاربة الجيوسياسية لا التاريخية المحض هي المقاربة الأفضل لفهــم موازين القوى وطبيعــة الصراعات بين دول ومجموعات على امتداد 12.000 كلم. وأبعد مــن الرؤية الثنائية للبحر المتوسط بين الشــمال والجنوب، هناك أهمية للتنافس على الأرض والإقليم؛ إذ إن معظــم التوترات الجيوسياســية حول المتوســط تترجــم التنافس على الأرض: الصراع الفلســطيني - الإســرائيلي وصراع الصحراء الغربية وصراع الأتراك والأكراد، أو صراعات الإســبان الكاســتالانيون والباسك والكاتالان، وصراعات البلقان[74].

إن الدراســة الجيوسياســية للبحر الأبيض المتوســط تلزمنا إذًا بأن نأخذ في الحســبان التعدد الكبيــر فــي الإرث التاريخي وعلاقات القــوة المختلفة منذ النزاعــات القديمة إلى الصــراع من أجل النفــط والطاقة. ومــن الناحية الجيوســتراتيجية، يعتبر شــريان البحر الأبيض المتوســط حيويًا بالنســبة إلى استراتيجيات القوى العظمى، كممر للطاقة، ولموقعه بين أوروبا وأفريقيا وآسيا.

زيادة على النظرة إلى الإســلام والصراع العربي - الإســرائيلي، شكلت حرب الجزائــر علامة فارقة فــي تركيب النظــرات المتبادلة بيــن الأوروبيين والعــرب. وغالبًا ما نظر الإنســان العربي في جنوب المتوســط إلــى أوروبا باعتبارها أداة للقوة والسيطرة[75]، فيما نظر الناس في أوروبا إلى العالم العربي عبر منظار الإرهاب أو البترو دولار. ولاحقًا، ومــع تمركز المهاجرين، أصبح

(74) Yves Lacoste, «Conflits autour de la Méditerranée,» *Revue de la Défense nationale* (29 Mars 2011).

(75) Khattar Abou Diab, «L'Europe vue par le monde arabe: «forteresse» ou «modèle»?» *Confluences Méditerranée*, no. 7 (Eté 1993).

هناك شـــرق في الغرب، كما يوجد غرب في الشـــرق. واختلطـــت الأمور مع صعود الحركات الراديكالية الإســـلامية، أو النظرات المعادية للإســـلام، الأمر الذي عقّد الموقف داخل أوروبا وبين الضفتين. لذا تُعتبر الشـــراكة الأوروبية - المتوسطية، أو الاتحاد المتوسطي حاجة سياســـية واقتصادية، ومشاريع جديرة بالمتابعة، شرط أن تتسم بالندية وتحفز الاندماج في الجنوب، وألّا تكون غطاءً لتوسع الأسواق الأوروبية.

لا يمكن اســـتبعاد الهوة الثقافيـــة أو العلاقات بين الأديـــان من أي نظرة شمولية للتطور الاجتماعي والسياســـي للعالم المتوسطي. يقول تييري هانتش في كتابه الشرق الخيالي إن «الشـــرق، خصوصًا الشرق المتوسطي، شكل مرآة ومرجعًا للضمير الغربـــي»[76]. وهذه المقاربة تنطبق علـــى العالم العربي الذي يتطلع عادة نحو الغرب الأوروبي قبل تموضعه.

من المعطيات الأخرى مشكلة العرب مع الحداثة، وهي ناتجة من النظرة إليها كتقليد للغرب، لا نتيجة مسار داخلي محلي. وهناك أيضًا مسائل الأقليات وأساليب الانفتاح التي ينظر إليها كتهديد لهوية المجتمعات.

بيد أن الإشـــكالية الكبرى تكمن في التعايش بين الديانات، خصوصًا بين المســـيحية والإســـلام. ومع نمو الإســـلام داخل أوروبا، لا بد من استحضار نمـــوذج الأندلـــس، وفضله علـــى الحضـــارة الأوروبيـــة التي لهـــا جذورها المتوسطية، والتي لولا حركة النقل عبر العرب لما تمكنت من اكتساب مجمل المعارف وفصل الكنيســـة عن الدولة. نعود إلى توينبـــي الذي حذر من خطر الأصوليات النائمة، وشدد على التواصل الحضاري. والمتوسط زاخر بما قدّمه إلى الإنســـانية، والآن إذا لم تُنقل التكنولوجيا وعناصر التقدم إلى دوله النامية، فإن ذلك يُعَد إخلالًا بقواعد حسن السلوك الإنساني، وإنتاجًا للإحباط وعوامل الصراع.

---

(76) Hentsch, *L'Orient imaginaire.*

خلاصة

طبعًا، المهم أن تقتــرن الأقوال بالأفعال لدى جميــع الأطراف المحيطة بالمتوسط؛ فمن دون حوار متكافئ وتقاسم التنمية، ومن دون الاعتراف بالآخر، لن يحدث التقدم المطلوب. وإذا اعتبرت أوروبا نفسها قلعة محصّنة، واعتبرت جبل طارق والبحر الأبيض المتوســط جدار برلين جديدًا يقف في وجه طالبي الهجرة، فمن سيقتنع في أفريقيا والمشرق حينئذ بالمشروع المتوسطي.

عمليًا، من دون الاعتراف بالحق الفلســطيني وإقامة الدولة الفلسطينية، لا يمكن إطلاق الاتحاد المتوســطي الذي يمثّل جانبًا أساسيًا في سياسة الاتحاد الأوروبــي الخارجيــة، إذا أراد أن يكون موجودًا كقوة تــوازن في عالم متعدد الأقطاب.

حول المتوسط ســيتقرر حيّز كبير من مســتقبل اللعبة الدولية، ومستقبل التنوع الحضاري والثقافــي. ولهذا، إذا لم يجرِ التركيز على البعد المتوســطي في تعزيز حوار الحضارات، ســتكون الكلمة لنظرية هانتنغتون في شأن الصدام الحتمي والمفتوح.

الفصل الرابع

السلوك الصيني - الروسي إزاء موجة الربيع العربي
قراءة في ما وراء المصالح الاقتصادية

محمد فايز فرحات

مقدّمة

أفاض كثير من التحليلات في فهم السلوك الروسي – الصيني تجاه موجة الربيع العربي في التركيز على المحدّدات الاقتصادية والتجارية. وواقع الأمر أنّه لا يمكن إغفال أهمّية المدخل الاقتصادي في فهم المواقف الصينية والروسية من سلسلة الثورات والاحتجاجات العربية، خصوصًا في ضوء تزايد الاعتمادية الصينية على نفط الشرق الأوسط، وتزايد الاستثمارات الصينية في هذا القطاع، ولا سيما في منطقة الخليج العربي وشمال أفريقيا والسودان. لكن هذا المدخل – مع أهميته – لا ينهض منهجًا متكاملًا لفهم السلوك الروسي – الصيني على نحو متكامل، فالمصالح الاقتصادية الصينية مع النظام السوري – على سبيل المثال – تقلّ كثيرًا في أهمّيتها عن مصالحها النفطية مع نظام معمّر القذافي السابق. ومع ذلك، سمحت الصين بتمرير قرار مجلس الأمن رقم 1973 الذي وفّر «غطاءً» دوليًا لضرب ليبيا، بينما ترفض بقوّة السماح بتمرير مثل هذا القرار في الحالة السورية. إنّ إعمال المدخل الاقتصادي بمفرده لا يساعد أيضًا في تقديم فهمٍ

أعمق للأبعاد والتداعيات الاستراتيجية المهمّة للسلوك الروسي - الصيني تجاه موجة الثورات والاحتجاجات العربية على مرحلة «ما بعد الربيع العربي».
سيناقش المبحث الأول من البحث محاولة فهم السلوك الروسي - الصيني ومصالح كلا البلدين من خلال أربعة مداخل غير اقتصادية.

انطلاقًا من الافتراض أن طريقة إدارة القوى الدولية للأزمات الإقليمية التي تطوّرت على خلفية الربيع العربي سوف تترك تداعياتها الاستراتيجية على النظام الإقليمي، من ناحية، والعلاقة بين النظام الدولي والنظام الإقليمي في منطقة الشرق الأوسط من ناحية ثانية، وربّما طبيعة النظام الدولي ذاته من ناحية ثالثة، فإنّ مرحلة ما بعد الربيع العربي ستفرض على العالم العربي ضرورة تطوير خطاب جديد في التعامل مع القوى الدولية، كما ستفرض التحدّي ذاته على هذه القوى. ويحاول البحث في المبحث الثاني منه تقديم بعض المقترحات في هذا الاتّجاه.

أولًا: مداخل لفهم السلوك الروسي - الصيني إزاء موجة الربيع العربي

انطلاقًا ممّا سبق- ومن دون التقليل من أهمّية المدخل الاقتصادي - يطرح هذا البحث أربعة مداخل لفهم السلوك الروسي - الصيني تجاه موجة الربيع العربي: **الأوّل** هو النظر إلى هذا السلوك باعتباره تدشينًا لتحوّلٍ نوعي في طبيعة النظام الدولي، والانتقال من نظام الأحادية القطبية الذي تطوّر منذ نهاية عقد الثمانينيات من القرن الماضي، إلى نظام متعدّد الأقطاب؛ **الثاني** هو النظر إلى السلوك الروسي - الصيني على أنه سعي للحفاظ على المبادئ التقليدية التي أُسس عليها النظام الدولي عقب الحرب العالمية الثانية، وتحديدًا مبدأ السيادة وعدم التدخّل في الشؤون الداخلية. وعلى الرغم من أن هذا المدخل يبدو جزءًا أو امتدادًا للمدخل الأول، فإن فكرته الأساسية تقوم على أن السلوك الروسي - الصيني قد لا ينتهي بالضرورة إلى إعادة هيكلة النظام الدولي الراهن، أكان لأسباب تتعلّق بحقيقة الأهداف الروسية - الصينية، أم لطبيعة الأزمات

الإقليمية التي شُكّلت في سياق تطوّرات الربيع العربي وحدود قدرة روسيا والصين على استغلال هذه الأزمات لتدشين نظام دولي جديد، ما يجعل البديل العملي هو النزول بسقف الطموح الروسي - الصيني في هذه المرحلة؛ **الثالث** هو النظر إلى هذا السلوك باعتباره انعكاسًا لطبيعة الأنظمة السياسية الداخلية في كلا البلدين. وأخيرًا، ينطلق المدخل الرابع في تفسيره المصالح والسلوك الروسي - الصيني من كون موجة الربيع العربي تمثّل تهديدًا فعليًا للاستقرار الداخلي وللنماذج الوطنية في الإصلاح السياسي والاقتصادي في كلا البلدين. ونناقش في ما يلي هذه المداخل الأربعة.

1- الأزمة السورية هي تدشين لنظام دولي جديد

ارتبطت عمليات التحوّل في النظام الدولي بوجود بعض الأزمات الدولية أو الإقليمية الكاشفة أو المقرّرة لحدوث هذا التحوّل، والكاشفة أيضًا حجم التحوّل القائم في توزيع هيكل القدرات النسبية بين الفاعلين الدوليين على قمّة النظام الدولي، وهيكل هذا النظام. على سبيل المثال، كان تنازل بريطانيا وفرنسا عن تشيكوسلوفاكيا لألمانيا في عام 1938 كاشفًا عن انهيار النظام الدولي الذي أسّسته معاهدة فرساي عقب الحرب العالمية الأولى؛ كما كانت أزمة السويس في عام 1956 كاشفة عن أفول القوى الأوروبية وتطوّر نظام القطبية الثنائية الذي تسيطر عليه الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفياتي. وكانت الحرب الأميركية ضدّ العراق في عام 1991 كاشفة عن عمق التغير الذي حدث في هيكل النظام الدولي وتوزيع القدرات النسبية، خصوصًا بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، ومقرّرة لتحوّل النظام الدولي من نظام الثنائية القطبية إلى نظام أحادي القطبية تهيمن عليه الولايات المتحدة. ويمكن القول إن النظام الدولي الراهن يمرّ بمرحلة تحوّل مماثلة، من الأحادية القطبية إلى نظام أقرب إلى التعددية القطبية: الولايات المتحدة وروسيا والصين، في الأساس، إلى جانب الاتحاد الأوروبي. غير أن عملية التحوّل تلك لا تزال بطيئة نسبيًا.

يمكن في هذا الإطار النظر إلى الأزمة السورية الرّاهنة بوصفها إحدى

حلقات تدشـــين هذا التحوّل، بعد حلقة أخرى مهمّة سبقتها تمثّلت في الحرب الروسية - الجورجية في آب/ أغسطس 2008؛ فعلى الرغم من أن هذه الحرب لم تدشّـــن اكتمال عملية التحوّل عن النظام الأحادي القطبية، فهي قامت بدور مهمّ في هذا الاتّجاه من زاويتين: الأولى أنها دشّـــنت حالـــة من القطبية الثنائية على مستوى إقليم أوروبا الشرقية والخروج عن حالة التوافق والقواعد الدولية التي حكمت الإقليم بدءًا من عام 1991، خصوصًا الاعتراف بمبدأي الســـيادة والتكامـــل الإقليمي، وهو ما ضمـــن الاعتراف بالدول المســـتقلّة عن الاتحاد السوفياتي واندماجها في المجتمع الدولي. ومثّلت الحرب الروسية - الجورجية موقفًا صريحًا من جانب روسيا حيال هذا التوافق الدولي، أو بالأحرى التوافق الروسي - الأميركي[1]. من ناحية ثانية، أعلنت روسيا، على خلفية هذه الحرب، عددًا من التوجّهات التي تحكم سياســـاتها الخارجية، حدّدها الرئيس الأســـبق ميدفيديف في خمسة مبادئ أساسية، عُرفت بـ «عقيدة ميدفيديف»، نصَّ المبدأ الثاني منهـــا صراحةً على أنّ «العالـــم يجب أن يكون متعـــدّد الأقطاب، فعالم القطب الواحد لم يعد مقبولًا. لن نســـمح بالهيمنة. ولا يمكـــن أن نقبل بنظام عالمي تصنع فيه دولة واحدة جميع القرارات، حتى ولو كانت دولة مؤثّرة مثل الولايات المتحدة. مثل هذا العالم غير مستقرّ ومهدّد بالصراع». كما نصّ المبدأ الخامس، وهو مبدأ مهمّ ذو دلالة بالنســـبة إلى الأزمة الســـورية، على أنّ هناك «أقاليم لروســـيا فيها مصالح خاصّة. هذه الأقاليم تضـــمّ دولًا لنا معها علاقات تاريخية خاصّة، وتربطنـــا بها علاقات صداقة وعلاقات جيرة جيدة. ســـنعطي اهتمامًا خاصًا للعمل في هذه الأقاليم وبناء علاقات صداقة مع هذه الدول»[2].

على الرغـــم من أن هذه المبادئ صيغت على خلفية الحرب الروســـية - الجورجيـــة، وعُنـــي معظمها بالسياســـات والتفاعـــلات الدولية فـــي أوروبا

(1) Oleksandr Sushko, «The End of 'International Order -1991': Impact of 2008 Russia-Georgia War on Ukraine» (Heinrich Boll Stiftung, Warsaw, November 2008), pp. 2-3. <http://www.pl.boell.org/downloads/georgia_war_from_ua_perspective_by_o.sushko.pdf>.

(2) George Friedman, «The Medvedev Doctrine and American Strategy,» Strat for Global Intelligence, 2 September 2008. <http://www.stratfor.com/weekly/medvedev_doctrine_and_american_strategy>.

الشـرقية، فهي لا تخلو من دلالة مهمّـة لطبيعة التحوّلات التـي بدأت تطرأ على التوجّهات الروسـية تجاه النظام الدولي، كما يمكن سحب هذه المبادئ على إقليم الشـرق الأوسـط حاليًا والأزمة الراهنة الأميركيـة - الأوروبية/ الروسـية - الصينية بشأن سـورية. لا يمكن كذلك إغفال أهمّية هذه الحرب في سـياق عملية التحوّل إلى النظام المتعدّد الأقطاب بالنظر إلى ما مثّله إقليم أوروبا الشرقية من مسرح مهمّ دُشّنت عليه ولادة النظام الدولي الثنائي القطبية بعد الحرب العالميـة الثانية، وكان مسـرحًا مهمًّا أيضًا للحـرب الباردة بين المعسكرين الغربي والشرقي.

على الرغم من أهمّية الحرب الروسـية - الجورجية، تُعدّ الأزمة السورية الراهنة الحلقة الأهمّ في سياق عملية التحوّل تلك، بالنظر إلى عدد من السمات التي رشّحتها كنقطة مرور أساسية من نظام القطبية الأحادية إلى النظام المتعدّد الأقطاب وهو قيد التشكّل. ونشير هنا بالخصوص إلى ثلاث سمات أساسية:

السّمة الأولى تتعلّق بوقوع الأزمة السورية في قلب إقليم الشرق الأوسط، باعتباره إقليمًا مركزيًا يمثّـل نقطة تلاقي/ تقاطع مصالح مختلف القوى الدولية الكبرى الرئيسـة في النظام الدولي الراهن: الولايات المتحدة وروسيا والصين والاتحاد الأوروبي. وبالنظـر أيضًا إلى الدور التاريخـي الذي قامت به بعض أزمات الشرق الأوسـط في الكشـف عن عمليات انتقال النظام الدولي (أزمة السويس (1956)، حرب تحرير الكويت (1991).

السّـمة الثانية تتعلّق بما كشـفت عنه الأزمة من تأكيد المصالح المشتركة أو تقريرها بين قوّتين أساسـيتين: الصين وروسـيا؛ فعلى العكس من الحرب الروسـية - الجورجية التي غاب عنها الحضور الواضح للصيـن، فإنّ الأزمة السورية كشفت بوضوح عن التنسـيق القوي بين هاتين القوّتين، وهما القوّتان الرئيستان المرشّحتان كقطبين جديدين في مواجهة الولايات المتحدة.

السّـمة الثالثة تتعلّق بطبيعة نظام بشّـار الأسـد وموقع سـورية في إطار «التحالفـات» والمحاور الإقليميـة والدولية؛ إذ تحوّلت الأزمة السـورية من

أزمة داخلية إلى أزمة إقليمية - دولية بامتيـاز، وبمعنى أدقّ، مثّلت هذه الأزمة اختبارًا لمدى صلابة المحاور الدوليـة والإقليمية القائمة والتي تطوّرت خلال العقد الأخير، ومدى تمسّك أطرافها بها. ومثّل النظام السوري جزءًا من محورٍ دولي: روسـيا - الصين، بوكلاء إقليميين: إيران - سـورية - «حزب الله»، أو ما عُرف بمحور الممانعة، في مواجهة «محور» دولي مقابل: الولايات المتحدة - الاتحـاد الأوروبي/ الناتو، بـوكلاء إقليميين: دول الخليـج العربي - مصر - تركيا[3]؛ إذ يمكن القول إنّ سـقوط نظام بشّـار الأسـد يعني تكبّد المحور الأول خسائر استراتيجية ضخمة، سـيترتّب عليها إعادة هيكلة نمط التحالفات والمحاور القائمة، وتأكيد الهيمنة الأميركية على النظام الدولي[4].

إنّ سقوط نظام بشّـار الأسد لن يعني بالنسبة إلى روسـيا خسارة حليفها الاسـتراتيجي المهمّ والوحيد داخل العالم العربي فحسـب، بل سيعني أيضًا تهديد وجودها ونفوذها الاستراتيجي في المنطقة من خلال قواعدها العسكرية على موانئ البحر المتوسـط (ميـنـاء طرطوس السـوري)، خصوصًا في ضوء العلاقات السـلبية التي تطوّرت بينها وبين المعارضة السـورية بـكلّ أطيافها منذ اندلاع الأزمة، ما يجعل اسـتمرار هـذه القواعد أمرًا غيـر مؤكّد. ويصبّ في الاتّجاه ذاته خسـارتها المحتملة لحليف اسـتراتيجي آخر في المنطقة وهو إيران، بعد أن تكون قد فقدت هي الأخرى حليفهـا الوحيد في المنطقة (نظام بشّار الأسد). فسقوط نظام بشّار الأسـد سوف يزيد بالتأكيد من انكشاف إيران السياسـي والأمني، خصوصًا في ضوء العلاقات السـلبية التـي تطوّرت أيضًا بين إيران والمعارضة السورية، وهو ما سـيدفع الأخيرة في الأغلب إلى إعادة النظر في مستقبل العلاقة الاسـتراتيجية التي تطوّرت بين نظام بشّار وإيران، بل

(3) في شـأن ما كشـفت عنه الأزمة السـورية من عودة تركيا بقوّة إلى حظيرة التحالف الغربي وفرض تحدٍّ على التحليلات التي كانت ترى السياسـات الإقليمية التركية في الشرق الأوسط بديلًا من توجّهها الغربي، انظر: عبد الحليم المحجوب، «معادلات متشابكة: المسألة السورية والمحاور الإقليمية والدولية المحتملة،» السياسة الدولية، العدد 190 (تشرين الأول/ أكتوبر 2012)، ص 92.

(4) نورهان الشـيخ، «الخوف من التغيير: محددات سـلوك القوى الداعمة للنظام السـوري،» السياسة الدولية، العدد 190 (تشرين الأول/ أكتوبر 2012)، ص 78-79.

وإعادة النظر في مثلّث «إيران - بشّـــار الأســـد - «حزب الله»»، والتوجّه إلى تركيا والمملكة العربية السعودية ومصر ودول الخليج، المنافسين/ أو الخصوم السياسيين الطبيعيين لإيران ولـ «حزب الله» في المنطقة.

يتعزّز هذا التخوّف الروسي - الصيني على خلفية الاتجاه العام لتوجّهات أنظمة ما بعد الثـــورات في العالم العربـــي؛ فعلى الرغم مـــن أن أحد مواضع الانتقاد الأساســـية للأنظمة الســـلطوية قبل الثورة هو انحيازهـــا إلى الولايات المتحدة والغرب أو ارتباطها بهما، فإن أنظمة ما بعد الثورة لم تُجرِ أي تغييرات جوهرية على هذه الارتباطات (تونس ومصر وليبيا واليمن)، تســـتوي في ذلك الحالات التي انتهت بسيطرة قوى إســـلامية، مع تلك التي انتهت بسيطرة قوى غير إســـلامية. هذا الاتّجاه العام مرشّـــح أيضًـــا بقوّة في حالة ســـورية، فحتى لو افترضنا دعم روســـيا للانتفاضة الشعبية الســـورية ضدّ نظام بشّار الأسد منذ البداية، فإنه لم يكن هناك ما يضمن ســـير نظام ما بعد الثورة في اتّجاه مغاير لما انتهت إليه الثورات العربية الســـابقة، خصوصًا في حالة صعود قوى إســـلامية وسيطرتها على السلطة، وفي ضوء ما يدور من حديث بشأن وجود «توافق» بين الولايات المتحدة وبعض القوى الإسلامية في المنطقة، ولا سيما في حالة دول المواجهة مع إسرائيل[5].

يدعم هـــذا التحليـــلَ إدراكُ الفاعلين الدوليـــن والإقليميين الرئيســـيين

(5) هناك كثير من التحليلات العربية والأجنبية التي تناولـــت العلاقة التي تطوّرت بين الولايات المتحدة والإخوان المســـلمين قبل الثورة وفي أثنائها وبعدها، في مصر على سبيل المثال. وتحدّث كثير من هذه الكتابات عن حدوث «صفقة» أو توافق مصالح بين الطرفين بشـــأن العديـــد من القضايا الثنائية والإقليمية، دفعت بالولايات المتحدة إلى دعم الإخوان المســـلمين، أو حتى الضغط من أجل وصولهم إلى السلطة. انظر على ســـبيل المثال: Dina Ezzat, «Road towards US-Brotherhood Friendship Trodden Long before Morsi's Election,» Ahram Online, 17/7/2012, <http://english.ahram.org.eg/News/47897.aspx>, and Ben Birnbaum, «Muslim Brotherhood Seeks U.S. Alliance as it Ascends in Egypt,» *The Washington Times*, 5/4/2012.

هناك أيضًا من يشير إلى احتمال حدوث الســـيناريو ذاته في حالة سورية. انظر على سبيل المثـــال: John Rosenthal, «In Syria, America Allies with the Muslim Brotherhood,» National Review Online, 1/5/2012, <http://www.nationalreview.com/articles/297361/syria-america-allies-muslim-brotherhood-john-rosenthal#>.

وسلوكهم، وهم روسيا والصين وإيران، طبيعة الأزمة السورية وربطها المباشر بالنظام الدولي، وهو ما أكّده سيرغي لافروف، وزير الخارجية الروسي، في مقالة له في جريدة هفنغتون بوست في 15 حزيران/ يونيو 2012، أشار فيها إلى أنه «جنبًا إلى جنب مع مظاهر الأزمة في الاقتصاد العالمي، أثبتت هذه الحوادث (يقصد حوادث الشرق الأوسط) بوضوح أن عملية ستقود إلى ظهور نظام دولي جديد دخلت منطقة من الاضطرابات»، وأن «السعي إلى تغيير النظام في دمشق ليس سوى حلقة ضمن لعبة جيوسياسية إقليمية كبيرة»[6].

كشف السلوك الصيني أيضًا بإزاء التحوّلات الجارية في الشرق الأوسط عن ثلاث ملاحظات مهمّة يجب أخذها في الاعتبار مقارنةً بالسياسة الصينية التقليدية تجاه المنطقة:

الملاحظة الأولى هي أنه تطوّر على خلفية موجة الربيع العربي، بشكل عام، والأزمة السورية بشكل خاص، حضور سياسي واضح للصين في منطقة الشرق الأوسط؛ فعلى العكس من تركيز الصين خلال العقود السابقة على الحضور الاقتصادي والتجاري (سيطرة قضايا النفط والتجارة على السياسة الصينية تجاه المنطقة)، إلى جانب دور سياسي محدود (مثل تعيين مبعوث صيني لعملية السلام في الشرق الأوسط)، شهد العامان الأخيران حضورًا سياسيًا صينيًا متناميًا، وهو تحوّل مهمّ يجب أن يؤخذ بالاعتبار. وأخذ هذا الحضور أشكالًا مختلفة، فإضافة إلى تطوير الصين أدوات جديدة للحركة في المنطقة (إرسال قِطَع حربية إلى مياه البحر المتوسّط، اتّجاهات التصويت داخل مجلس الأمن)، كان واضحًا أيضًا طرح الصين مبادرات سياسية بشأن الأزمة السورية، وفتح قنوات اتصال مع القوى السياسية الداخلية بعيدًا عن الأنظمة السياسية الرسمية؛

---

(6) Sergei Lavrov, «On the Right Side of History,» *Huffington Post*, 15/6/2012.
وأعاد لافروف تأكيد المعنى ذاته في حوار له مع إذاعة صوت روسيا «Accusations against Assad is a Camouflage for a Big Geopolitical Game - Russia's Foreign Minister,» *The Voice of Russia*, 23/10/2012, <http://english.ruvr.ru/2012_10_23/Accusations-against-Assad-is-a-camouflage-for-a-big-geopolitical-game-Russia-s-Foreign-Minister/>.

وهي تحوّلات مهمّة يجب أن تؤخذ بالاعتبار قياسًا بالتوجّهات والسلوكيات السياسية الخارجية الصينية التقليدية تجاه المنطقة.

الملاحظة الثانية، كما أشيرَ في الملاحظة السابقة، هي قيام الصين بإرسال قطع حربية إلى البحر المتوسط خلال تموز/ يوليو - آب/ أغسطس 2012[7]، وهي المرّة الثانية التي ترسل فيها الصين قِطَعًا عسكرية بحرّية إلى البحر المتوسّط خلال عام 2012، كانت المرّة الأولى في أثناء الثورة الليبية، عندما أرسلت سفنًا وطائرات حربية لإجلاء رعاياها من ليبيا، وكان لافتًا أيضًا إرسال قِطَع حربية لا سفن مدنية لإجلاء هؤلاء الرعايا[8]، في مؤشّر مهمّ إلى تحوّل في السياسة الصينية بإزاء مسألة إرسال قِطَع عسكرية خارج مجالها الإقليمي المباشر، وفي مؤشّر أيضًا إلى استعداد الصين لاستخدام الأسلحة العسكرية لحماية رعاياها في الخارج وفي منطقة الشرق الأوسط.

الملاحظة الثالثة هي وجود درجة ملحوظة من التنسيق بين روسيا والصين في الأزمات الإقليمية التي ارتبطت بموجة الربيع العربي، وتشابُه السلوكين الروسي والصيني إلى حدٍّ كبير في هذه الأزمات (الامتناع عن التصويت داخل مجلس الأمن في حالة القرار رقم 1973 الخاصّ بالأزمة الليبية، وتكرار استخدام الفيتو في حالة الأزمة السورية). الأهمّ من ذلك هو وجود درجة كبيرة من التنسيق بين الطّرفين في أقاليم أخرى، خصوصًا في آسيا - المحيط الهادئ، وآسيا الوسطى، عبّر عنه توالي التدريبات العسكرية المشتركة في البحر الأصفر وفي آسيا الوسطى، وهي مسألة يجب أن تؤخذ بالاعتبار مع تزايد الاهتمام الأميركي بالحضور في هذه الأقاليم، وتوسيع شبكة تحالفاتها الأمنية، خصوصًا في شرق آسيا وجنوبها الشرقي.

---

(7) الوفد، 31/ 7/ 2012.

(8) على الرغم من أن هذه السفن كانت موجودة في خليج عدن ضمن إطار نشاط مكافحة القرصنة، فإن هذا لا يقلّل من دلالة توجيه هذه الآليات العسكرية للقيام بإجلاء مدنيين، خصوصًا أنّ عمليات الناتو العسكرية لم تكن قد بدأت بعدُ. Jonas Parello-Plesner and Raffaello Pantucci, «China's Janus-Faced Response to the Arab Revolutions,» *Policy Memo* (June 2011), p. 2.

لكن، يجب التأكيد في الوقت ذاته أنّ قوّة هذا التحليل ستعتمد على شكل التسوية الأخير الذي ستأخذه الأزمة السورية. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ بقاء بشّار الأسد لا يمثّل هدفًا في حدّ ذاته بالنسبة إلى الصين أو روسيا، إذ قد تضطرّان إلى التضحية به تحت الضغط الدولي السياسي والأخلاقي والإنساني، خصوصًا في ظلّ تدهور الأوضاع الإنسانية في سورية. يظلّ المهمّ في هذه الحالة إعادة إنتاج النظام نفسه بشخوص ونخبة سياسية من داخل النّظام، تضمن استمرار نمط الارتباطات والتحالفات الإقليمية والدولية القائمة حتى الآن للنظام. وقد يحدث هذا من خلال صيغة إقليمية – دولية مماثلة للتجربة اليمنية.

من ثمّ، يمكن القول إنّ نجاح الصين وروسيا وإيران في الحفاظ على بقاء نظام بشّار الأسد، أو إعادة إنتاج النظام نفسه بنخبة سياسية جديدة من داخل النظام يصبّ في اتّجاه التحليل السابق: التحوّل من النظام الأحادي القطبية الراهن إلى نظام متعدّد الأقطاب، وهو سيناريو لن يتحقّق إلّا من خلال نجاح القوى الثلاث في منع أي عمل عسكري ضدّ نظام بشّار، أو الدخول في مواجهة عسكرية مع المحور المقابل في حالة التصعيد العسكري.

لكن يظل السؤال المهم: هل لدى الصين وروسيا الاستعداد الحقيقي للدخول في عمل عسكري في حال قرار المحور المقابل استخدام القوة العسكرية ضدّ نظام بشّار الأسد، وهو احتمال لا يمكن استبعاده كليًا؟ واقع الأمر أنّه لا يمكن الجزم بسيناريو محدّد لردّة فعل المحور الصيني – الروسي – الإيراني في حالة التصعيد العسكري ضدّ نظام بشّار الأسد، فالسيناريوان قائمان، وهناك من المؤشّرات والمواقف السابقة ما يدعم كلًّا منهما. فمن ناحية، يمكن الاستناد إلى صلابة الموقفين الروسي والصيني حتى الآن على الرغم من الضغط الذي تمارسه القوى الدولية والإقليمية والمعارضة السورية، أضف إلى ذلك التدريبات العسكرية الروسية – الصينية – السورية المشتركة التي أُجريت في البحر المتوسّط بالقرب من السواحل السورية في آب/ أغسطس 2012، كمؤشّرين مهمّين إلى استعدادهما (روسيا والصين) للدفاع عن النظام السوري إلى آخر مدى ممكن.

لكن في المقابل، لا يمكن أيضًا إغفال المواقف الروسية والصينية في أزمات إقليمية سابقة، خصوصًا الأزمة العراقية - الأميركية التي انتهت بضرب العراق في آذار/ مارس 2003؛ فعلى الرغم من معارضتهما ضرب العراق، اضطرّتا إلى التخلّي عن الحليف العراقي عندما وصلت الأزمة إلى مفترق طرق، وأصبح العمل العسكري ضدّ العراق أمرًا حتميًا. وعلى الرغم من ضرورة فهم السلوكين الروسي والصيني في عام 2003 في سياق الظروف الدولية السائدة آنذاك، وإدراك كلٍّ منهما تعقيدات مواجهة الهيمنة الأميركية في تلك المرحلة، لا يمكن استبعاد حدوث السيناريو ذاته في حالة الأزمة السورية الراهنة في حالة التصعيد العسكري، إذ لا تزال الصين تصرّ حتى الآن، وعلى الرغم من قدراتها الاقتصادية والعسكرية، على تعريف نفسها باعتبارها دولة «نامية» وقوّة إقليمية (شرق آسيوية). وعلى العكس من ارتباط الموقف الروسي من الأزمة السورية بخطاب نقدي لهيكل النظام الدولي الراهن، فإنّ الموقف الصيني لم يرتبط بخطاب واضح في هذا المجال.

هناك من يذهب إلى أن حتى في حالة انهيار نظام بشّار الأسد على يد المعارضة الداخلية المسلّحة، لا يعني هذا بالضرورة استبعاد المواجهة العسكرية بين المحورين السابقين. ويذهب هؤلاء إلى أنّ الاحتمال الأكبر هو نشوب حربٍ «عالمية» ثالثة في المنطقة؛ فسقوط نظام الأسد سوف يدفع إسرائيل - بالتنسيق مع الولايات المتحدة الأميركية - إلى ضرب إيران بحجّة منعها من استكمال مشروع برنامجها النووي العسكري، بعد أن تكون قد فقدت حليفها الرئيس (سورية)، ما سيدفع إيران بدورها إلى اللجوء إلى أوراقٍ مثل إغلاق مضيق هرمز، الأمر الذي سيؤدّي إلى زيادة كبيرة في أسعار النفط وتضرّر الاقتصادين الأميركي والأوروبي، خصوصًا في حال قرار روسيا وقف صادرات الغاز إلى الاقتصاد الأوروبي. يستتبع ذلك قرار الولايات المتحدة - ومعه قرار الحلفاء الأوروبيين - القيام بعمل عسكري واسع ضدّ إيران، ودخول دولٍ أخرى في المنطقة إلى جانبها في هذه الحرب، خصوصًا في منطقة الخليج العربي. ويتحدّث هذا السيناريو أيضًا عن اتّساع نطاق الحرب بدرجات مختلفة، تبدأ من دعم سياسي محدود من دول مثل مصر وخطاب إسلامي (سلفي في

الأساس) مؤيد للحرب ضدّ الشيعة في المنطقة، وانتهاءً باحتمال حدوث قلاقل واضطرابات طائفية داخل العراق ولبنان. كما يطرح هذا السيناريو توجيه «حزب الله» ضربات انتقامية ضد إسرائيل، يستتبعها قرار اجتياح إسرائيل لبنان[9].

يستند هذا السـيناريو إلى أنّ سقوط نظام بشّار الأسـد على يد المعارضة السورية المسلّحة سـوف يقضي على احتمالات شنّ عملٍ عسكري غربي ضدّ نظام بشّار الأسـد، وهو ما تنتفي معه احتمالات التدخّل العسكري الروسي - الصيني في المنطقة. لكن مع أهمّية هذا التحليل، فإنّ النتيجة النهائية لما أطلق عليه هؤلاء «الحرب العالمية الثالثة» ستعتمد هي الأخرى على ما تقرره روسيا والصين والدخول عسكريًا إلى جانب إيران.

لكن، بصرف النظر عن شكل السـيناريو الذي ستأخذه التطوّرات القادمة في المنطقة على خلفية الأزمة السورية، هناك توافق بين كثير من الباحثين على أنّ هناك خطّةً أو تصوّرًا أميركيًا معدًّا سـلفًا للمنطقـة لمرحلة ما بعد الثورات العربية، وأنّ إسقاط النظام السوري يمثّل شـرطًا أساسيًا لانطلاق عملية تطبيق هذا المشـروع. وعلى الرغم من عدم وضوح الملامـح العامّة لهذا المخطّط، فالثابت هـو اسـتهدافه تحجيم/ القضاء على النفوذ الروسـي فـي المنطقة، وإجهاض الصعود الصيني من خلال التحكّم والسـيطرة على مصادر النفط في المنطقة ذات الأهمّية بالنسـبة إلى الصين (نفط ليبيا فـي المرحلة الأولى، ثمّ النفط الإيراني في مرحلة تالية)[10].

2 - السلوك الروسي - الصيني هو سعي للحفاظ على المفهوم التقليدي للسيادة وعدم التدخل في الشؤون الداخلية

تقول الفرضيـة المطروحة هنا إنّ الموقف الصيني - الروسـي من موجة الربيع العربي بشـكلٍ عام، والأزمة السـورية بشـكلٍ خاص، لا يسـعى إلى

(9) Gilbert Mercier, «World War III in the Making: Can Russia and China Stop a Strike on Iran?» *News Junkie Post*, 17/2/2012.

(10) F. William Engdahl, «NATO's War on Libya is Directed against China: AFRICOM and the Threat to China's National Energy Security,» Global Research, 25 September 2011.

إنهاء حالة الهيمنــة الأميركية على النظام الدولي الراهن وتدشــين نظام متعدّد الأقطاب، بقدر ما يسعى إلى هدف محدّد هو تأكيد المبادئ والأسس التقليدية التي قام عليها النظام الدولي بعد الحرب العالمية الثانية، وتحديدًا مبدأ السيادة بمعناهــا التقليدي الجامد الــذي يرفض التدخّل في الشــؤون الداخلية للدول الأعضاء في الأمم المتحدة، على النحو الذي نصّ عليه ميثاقها، ومن ثمّ رفض الأســس والأشــكال الحديثة التي طوّرتها الولايات المتحــدة والدول الغربية للتدخّل، أكان لدوافعَ إنســانية أم بهدف نشــر الديمقراطيــة، خصوصًا عندما يأتي هذا التدخّل من جانب النظــام الدولي أو القوّة الغربية (الولايات المتحدة والناتو). وبمعنى آخر، فإنّ التفســير المطروح هنا للسلوكين الروسي والصيني تجاه الأزمة السورية - بوصفها المحطّة الأبرز في موجة الربيع العربي - يقصر الصراع القائم بين المحورين الروسي/ الصيني - الأميركي/ الأوروبي على مبدأ السيادة وعدم التدخّل في الشــؤون الداخلية، ومن ثمّ - وفقًا لهذا التفسير- قد يكون من المبالغ فيه الحديث عن تدخّل عسكري روسي - صيني ضدّ المحور المقابل في حالة استخدام القوّة ضدّ نظام بشّار الأسد.

تأخذ الصين مدى أبعد من الموقف الروســي في هذا المجال؛ إذ ترى أنّ الانتهاكات الداخلية لحقوق الإنســان، وفي ذلك حالات الإبادة الجماعية، لا تؤسّس لحقّ المجتمع الدولي في انتهاك مفهوم السيادة أو التدخّل في الشؤون الداخلية. وينطبــق التكييف ذاته على فكــرة الدفاع عن النفــس، فبينما باتت الولايات المتحدة تتبنّى مفهومًا موسّعًا لـ «المصلحة الوطنية»، أدّى بدوره إلى توسيع مفهوم حقّ الدفاع عن النفس، لا تزال الصين تؤكّد ضرورة تضييق الحقّ في استخدام القوّة المسلّحة على حالات انتهاك السيادة أو وجود اعتداء مباشر ومحدّد على أراضي الدولة، ما يعني رفض الصين فكرة اســتخدام القوّة خارج الحدود الإقليمية للدولة.

علاوة على ذلك، سعت الصين منذ منتصف خمســينيات القرن الماضي إلى إدخال بعض التعديلات على مفهوم الســيادة بمعنــاه التقليدي الوارد في ميثاق الأمــم المتحدة؛ فبدلًا من مفهــوم «عدم التدخّل في الشــؤون الداخلية

للدول الأخـــرى»، روّجت الصين لمفهوم «عدم التدخّل المتبادل في الشـــؤون الداخلية»، بهدف تأكيد انســـحاب مبدأ عـــدم التدخّل على العلاقـــات الثنائية بيـــن الدول، لا تدخّـــل الأمم المتحدة فحســـب في الشـــؤون الداخلية للدول الأعضاء[11] على نحو ما يشـــير إليـــه نصّ المادّة 2 فقـــرة (7) من ميثاق الأمم المتحدة[12].

يرجع تمسّك الموقفين الروســـي والصيني بمفهوم السيادة وعدم التدخّل في الشؤون الداخلية بمعناهما التقليدي إلى أنّه يوفّر، من ناحية، أساسًا لتضييق حرّية حركة القوى المهيمنة - سياســـيًا وعسكريًا - على النظام الدولي الراهن، وتحديدًا الولايات المتحدة والناتـــو. كما يوفّر، من ناحية ثانيـــة، غطاءً لحرّية حركة النظامين الحاكمين في روسيا والصين لمواجهة أي اضطرابات داخلية قد تعوّق عملية الصعود الجارية في البلدين، وضمان حقّهما في اســـتخدام العنف للتعامل مع مثل هذه التطـــوّرات، ورفض أي تدخّـــلات خارجية تحت ذريعة حماية حقوق الإنسان أو نشر الديمقراطية.

تطوّرت - على خلفية موجة الربيع العربي - أربعة أنماط لتعاطي الولايات المتحدة والغرب مع الثورات العربية: النمط المصري - التونســـي حيث غاب التدخّل الخارجي، والنمط الليبي الذي ارتبط بتدخّلٍ عسكري من جانب الناتو، والنمـــط البحريني الذي ارتبـــط بتدخّل إقليمي محدود، والنمـــط اليمني الذي ارتبط بتسوية سياســـية عبر مبادرة إقليمية. وينطوي الموقفان الروسي والصيني من النمطين اللذين ارتبطا بتدخّل عســـكري خارجي (البحرين وليبيا) على قدر من التناقض مع دفاعهما عن مبدأ الســـيادة وعدم التدخّل في الشؤون الداخلية؛

---

(11) جاء ذلك ضمن «المبادئ الخمســـة للتعايش السلمي» التي طرحتها الصين في عام 1954، بالتعاون مع ميانمار والهند. ولقيت هـــذه المبادئ قبولًا لدى كثير من الـــدول النامية خلال هذه الفترة. انظـــر: An Huihou, «The Principle of Non-Interference Versus Neo-Interventionism,» *Foreign Affairs Journal* (Beijing), no. 104 (Summer 2012), pp. 40- 41.

(12) نصّت الفقرة الســـابعة من المـــادّة الثانية من ميثـــاق الأمم المتحدة علـــى: «ليس في هذا الميثاق ما يسوّغ لـ «الأمم المتحدة» أن تتدخّل في الشؤون التي تكون من صميم السلطان الداخلي لدولة ما، وليس فيه ما يقتضي الأعضاء أن يعرّضوا مثل هذه المسائل لأن تحلّ بحكم هذا الميثاق، على أنّ هذا المبدأ لا يخلّ بتطبيق تدابير القمع الواردة في الفصل السابع».

إذ لم تعارض أي منهما التدخّل الإقليمي في حالة البحرين، بينما سمحتا بتمرير قرار مجلس الأمن رقم 1970 الذي فرض قائمة من العقوبات العسكرية والاقتصادية والدبلوماسية على ليبيا، من خلال التصويت الإيجابي على القرار، كما سمحتا من الناحية العملية أيضًا بتمرير القرار رقم 1973 الذي اقترحته بريطانيا وفرنسا، والذي وفّر الغطاء القانوني الأممي لعمليات الناتو ضدّ النظام الليبي[13]، من خلال امتناعهما عن التصويت.

لكن يمكن تفسير هذا التناقض إلى حدٍّ ما؛ فمن ناحية، يمكن النظر إلى دعم أو عدم تبنّي مواقف معارضة للتدخّل الإقليمي في حالة البحرين باعتباره تدخّلًا سعى في الأساس إلى الحفاظ على الوضع القائم، فضلًا عن أنه لم يرتبط بتدخّل من جانب النظام الدولي (مجلس الأمن أو الولايات المتحدة أو الناتو)، وهو ما جعل روسيا والصين أقلّ حساسية لمصدر التدخل الخارجي وطبيعته في هذه الحالة. أضف إلى ذلك الموقف العربي الداعم - خصوصًا جامعة الدول العربية - لهذا التدخّل. وأخيرًا، إنّ هذا التدخّل جاء تطبيقًا لمعاهدة الدفاع المشترك بين دول مجلس التعاون الخليجي الموقّعة في كانون الأوّل/ ديسمبر 2000. وبمعنى أكثر وضوحًا، فإنّ حدوث التدخّل على أرضيةٍ إقليمية، وبعيدًا عن التدخّل الدولي، وفّر غطاءً للموقفين الروسي والصيني الداعمين ضمنيًا هذا التدخّل، فضلًا عن وجود مصلحة مشتركة - وصينية بشكل خاصّ - لعدم حدوث هزّات كبيرة في منطقة الخليج العربي من شأنها التأثير في تدفّق الواردات النفطية من دول المنطقة.

أمّا في ما يتعلّق بالحالة الليبية فالوضع يعدّ أكثر تعقيدًا. ويمكن هنا طرح عددٍ من العوامل التي تفسّر الموقفين الروسي والصيني اللذيْن يبدوان متناقضيْن مع تمسّكهما بمبدأ السيادة وعدم التدخّل في الشؤون الداخلية.

العامل الأوّل يتعلّق بطبيعة قرار مجلس الأمن رقم 1973 نفسه الذي

---

(13) انظر نصّ قرار مجلس الأمن رقم 1973 الصادر في 17 آذار/ مارس 2011. متاح على الرابط التالي: <http://daccess-dds-ny.un.org/doc/UNDOC/GEN/N11/268/37/PDF/N1126837.pdf?OpenElement>.

تضمّن في الأســاس إقامة منطقة حظــر جوّي داخل ليبيا بهــدف توفير حماية جوّية للمدنيين الليبيين في مواجهة الاســتخدام المفرط للقوّة من جانب نظام القذّافي[14]. ومع ذلك، امتنعت روســيا والصين عن التصويت لمصلحة القرار أو الاعتراض عليه. لكن حــدث أنّ الناتو انحرف عن الالتزام الدقيق بمضمون الصلاحيات المحدّدة في القرار وحدودها، إذ لم يتّجه إلى استهداف قوّات نظام معمّر القذّافي فحسب، بل اتّجه إلى توســيع نطاق عملياته العسكرية وأهدافها لتشــمل المؤسســات الحكومية والعديد من المؤسســات المدنية ومحطّات التلفزيون، إضافةً إلى تســليح المعارضة الليبية. وفي مرحلة تالية، قامت قوّات الناتو بعمليات برّية ووَجّهت المعارضة المسلّحة وساعدتها في الاستيلاء على طرابلس[15].

تكمن خطورة الحالة الليبية في أنّها دشّنت لتطوير «نموذج» متكامل نسبيًا للتدخّل العســكري الغربي بدعوى نشــر الديمقراطية أو حمايــة المدنيين من الأنظمة الدكتاتورية، أو بدعوى «مســؤولية الحمايــة». تضمّن هذا النموذج - وفقًا لعدد من كتابات المحلّلين الصينيين- أربعة عناصر أساســية: أوّلًا، تطوير معارضة داخلية لديها القدرة على شــنّ حربٍ أهلية؛ ثانيًــا، تأمين دعم الدول

(14) قرار مجلس الأمن رقم 1973.

(15) نصّ البند رقــم 4 من قرار مجلس الأمن رقم 1973 علــى أنّ مجلس الأمن «يأذن للدول الأعضاء التي أخطرت الأمين العام، وهي تتصرّف على الصعيد الوطني أو عن طريق منظّمات أو ترتيبات إقليمية، وبالتعاون مــع الأمين العام، باتّخاذ جميع التدابير اللازمة، علــى الرغم من أحكام الفقرة 9 من القرار 1970 (2011)، لحماية المدنيين والمناطق الآهلة بالسكان المدنيين المعرّضين لخطر الهجمات في الجماهيرية الليبية بما فيها بنغازي، مع اســتبعاد أي قوّة احتلال أجنبية أيًا كان شكلها، وعلى أي جزء من الأراضي الليبية، ويطلب من الدول الأعضــاء المعنية أن تبلغ الأمين العام فورًا بالتدابير التي تتّخذها عملًا بالإذن المخوّل بموجب هذه الفقرة والتي ينبغي إخطار مجلس الأمن بها فورًا». هذا، وكما يتّضح من نصّ الفقرة، فإنّ اتّخاذ هذه التدابير (التي تمّ صرفها إلى العمل العسكري) مرهون بشرطين أساسيين؛ الأول هو حماية المدنيين والمناطق الآهلة بالسّكان المعرّضين لخطر الهجمات، والثاني هو عدم تحوّل هذه القوّات إلى أي شــكلٍ من أشــكال الاحتلال الأجنبي، وهو ما لم يحدث من الناحية العملية، إذ تمّ توســيع مهمّة الناتو من حماية المدنيين، بما كان يعنيه ذلك من إقامة منطقــة حظر جوّي توفّر ملاذًا آمنًا للمدنيين، وهي وظيفة ذات طابع دفاعي في جوهرها، إلى القيــام بعمليات هجومية ضدّ قوّات القذافي ومؤسّسات الدولة الليبية.

الإقليمية وتوفير غطاءٍ دولي مـن مجلس الأمن للتدخّل الخارجي بدعوى دعم الديمقراطية وتغيير الأنظمـة الدكتاتورية أو حماية المدنيين؛ ثالثًا، شـنّ عمل عسكري ضدّ النظام بوسـاطة الناتو بالتعاون مع عددٍ من الدول الإقليمية حتى دفْع النظام إلى الانهيار. وأشـار كثير من الكتابات الصينية أيضًا إلى أنّ الدول الغربية تسـعى إلى تعميم هذا النموذج في التعامل مع موجات الربيع العربي، وليس هناك ما يمنع تعميمه خارج العالم العربي، وفي ذلك أقاليم أخرى قريبة من الصين[16].

هذه التجربة الروسـية - الصينية مع الحالة الليبية وطريقة تحريف تطبيق قرار مجلس الأمن دفعتهما إلى الامتناع عن تقديم أي غطاءٍ مباشر أو غير مباشر لتدخّلٍ عسـكري في سـورية، ورفض أي صيغة لمشـروع قرار داخل مجلس الأمن يتضمّن أي عبارات صريحة أو ضمنية تسـمح بأي تدخّلٍ عسكري ضدّ نظام بشّار الأسد، ورفض إصدار أي مشروع قرار تحت أحكام الفصل السابع، وهو ما حدث أكثر من مرّة، كان أبرزها مشـروع القـرار الذي طُرح للتصويت داخل مجلس الأمن في 4 شباط/ فبراير 2012، وتضمّن التهديد باتّخاذ المزيد من الإجراءات (وفي ذلك اسـتخدام القوّة) في حالة رفض بشّـار الأسد ترك السـلطة خلال أسبوعين، لكن روسـيا والصين أجهضتا مشروع القرار. بمعنى آخر، يمكن القول هنـا إنّ امتناعهما عن التصويت على قرار مجلس الأمن رقم 1973 بشـكل سـمح بتمريره داخل المجلس كان راجعًا إلى مضمون القرار وملابسـات صدوره أكثر منه إلى دعمٍ روسـي - صيني صريح لمبدأ التدخّل العسكري في ليبيا.

العامـل الثاني يتعلّق بالدعم العربي الواسـع للتدخّـل الدولي في الحالة الليبية، وهو ما عكسـه قرار مجلس جامعة الدول العربية الصادر في 12 آذار/ مـارس 2011[17] الذي دعا إلى فـرض منطقة لحظر الطيـران على الطائرات

(16) انظـر على سـبيل المثـال: Yao Kuangyi, «The Upheaval in the Middle East and China's Middle East Policy,» *Journal of Middle Eastern and Islamic Studies* (in Asia), vol. 6, no. 3 (September 2012), p. 20, and Huihou, p. 44.

(17) انظر نصّ القرار المنشور في: الشرق الأوسط، 13/ 3/ 2011.

العسكرية الليبية، وإنشاء مناطق آمنة في الأماكن المعرّضة للقصف بهدف حماية الشعب الليبي. لم يتوافر هذا الدعم العربي لفكرة التدخّل الدولي حتى الآن في الحالة السورية. إذ على الرغم من اهتمام جامعة الدول العربية بالأزمة السورية، فهي لم تدعم حتى الآن هذا المستوى من التدخّل الدولي. وبإزاء هذا الموقف العربي الرسمي - معبّرًا عنه بقرار مجلس جامعة الدول العربية - كان من المنطقي توافق الصين وروسيا على الامتناع عن قرار مجلس الأمن 1973، خصوصًا أنه أشار صراحةً إلى قرار مجلس جامعة الدول العربية المشار إليه.

العامل الثالث: يتعلّق بوجود بعض الخلافات الصينية مع العقيد معمّر القذّافي بخصوص التنافس الصيني - الليبي في أفريقيا، إضافة إلى تمسّك نظام القذّافي بعلاقاته بتايوان.

خلاصة القول هنا إنّه يمكن النظر إلى الصّراع القائم بين روسيا - الصين، من ناحية، والولايات المتحدة من ناحيةٍ أخرى على خلفية الأزمة السورية، على أنه - في أحد أبعاده - صراع بين نظامين دوليين، أو بين محور يسعى إلى استغلال الأزمة السورية لتأكيد المبدأ التقليدي للسيادة وعدم التدخّل في الشؤون الداخلية للدول الأعضاء في الأمم المتحدة، وآخر لا يزال يصرّ على إعادة تعريف هذا المفهوم، ويقيّده بمفاهيم مستحدثة مثل «التدخّل الإنساني»، أو «مسؤولية الحماية»[18].

3- السلوك الروسي والصيني تجاه الربيع العربي هو نتيجة طبيعة الأنظمة السياسية في البلدين

بعيدًا عن المصالح الروسية والصينية السابقة، يمكن طرح تفسيرٍ آخرَ مكمّل لهذه المصالح. وينطلق هذا التفسير من فرضية مفادها أنّ النظمَ غير الديمقراطية تميل بشكل عام إلى مقاومة «الثورات» أو «الإصلاحات الثورية»، بينما تميل أكثر إلى القبول بفكرة الإصلاح السياسي المتدرّج. وتجد هذه الفرضية تفسيرها في خبرة هذه الدول مع الإصلاحات الجذرية أو ما يُعرف

---

(18) Huihou, pp. 41-42.

بالإصلاحات الصدمة. والمثال الواضح هنا هو خبرة روسيا مع تجربة الإصلاح المفاجئ التي طبّقها الرئيس السوفياتي السابق غورباتشوف في نهاية عقد الثمانينيات من القرن الماضي، والتي انتهت بانهيار الاتحاد السوفياتي وتفكّكه، ومن قبلها تجربة ثورة البلاشفة في عام 1917[19]. وعلى الرغم من أنّ الصين لم تشهد مثل هذه الخبرة، قامت الخبرة السوفياتية بالدور الأكبر في تطوير «نظرية صينية» مقابلة في الانفتاح السياسي والاقتصادي، قائمة على الإصلاح التدريجي الممنهج، مع أولوية الانفتاح الاقتصادي على مثيله السياسي. وكانت الخبرة السوفياتية تلك شديدة الأهمّية بالنسبة إلى الصين بالنظر إلى الخبرة الشيوعية المشتركة بين البلدين. وعلى الرغم من مرور أكثر من عشرين عامًا على انهيار الاتحاد السوفياتي، لا تزال الصين تتمسّك بنظريتها في الإصلاح السياسي والاقتصادي. الأمر نفسه، في ما يتعلّق بروسيا، فعلى الرغم من تجاوزها خبرة غورباتشوف، أدّى اعتلاء بوتين قمّة السلطة في عام 2000 إلى سيطرة هذا المنهج بقوّة على عملية الانتقال في البلاد، وهو ما عكسته لعبة تبادل الأدوار الأخيرة بين بوتين وميدفيديف، والتركيز على المشروع الوطني في إحياء دور روسيا الدولي.

انطلاقًا من هذه الفرضية يمكن تفسير مضمون الخطابين الروسي والصيني بإزاء الثورات العربية بشكل عام، والثورة السورية بشكل خاص، وهما يؤكّدان النتائج السلبية المتوقّعة للربيع العربي بشكل عام، وللأزمة السورية الراهنة بشكل خاص في حالة سقوط بشار الأسد؛ إذ يشدد الخطابان على أنّ سقوط الأسد سيقود إلى حرب أهلية، وربّما تقسيم سورية، كما سيقود إلى انتشار الإسلاميين الجهاديين، وهو ما يفسّر أيضًا تركيز جميع المبادرات التي طُرحت من جانب روسيا أو الصين على التسوية السياسية للأزمة، وأن يجري رحيل الأسد، في حالة الإصرار على هذا البديل، في سياق توافقات سياسية داخلية، وضرورة استبعاد بديل السقوط المفاجئ للنظام، أكان عبر العمل العسكري - الداخلي أو الخارجي - أم حتى عبر العقوبات الاقتصادية الخانقة. كما يركّز

---

(19) Pavel K. Baev, «Russia's Counter - Revolutionary Stance toward the Arab Spring,» *Insight Turkey*, vol. 13, no. 3 (2011), pp. 11-19.

الخطابان الروسي والصيني على ضرورة تسوية هذه الأزمة عبر الحوار الداخلي وتحديد مستقبل سورية بوساطة السوريين أنفسهم في إطار الحفاظ على استقلال سورية وسيادتها ووحدة أراضيها[20].

4- الثورات العربية تمثّل تهديدًا للاستقرار الداخلي وللنماذج الوطنية في الإصلاح السياسي في روسيا والصين

يصدق ذلك بشكل خاص على حالة الصين التي شهدت بالفعل خلال عامي 2011 و2012 ما يشير إلى محاولة الطبقة العاملة الصينية محاكاة ثورات الربيع العربي، أو محاولة إنتاج «نسخة صينية» من هذه الثورات، بدءًا من استغلال شبكة الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي وأجهزة البلاك بيري، وانتهاءً بالاحتجاجات الفعلية. وبصرف النظر عن إمكان تطوّر «نسخة صينية» من هذه الثورات أو عدمها، فقد عكست ممارسات الحكومة الصينية خلال الفترة نفسها وجود تخوّف حقيقي من هذا الاحتمال، عكسه تشديد الرقابة على مواقع التواصل الاجتماعي وأجهزة البحث على شبكة الإنترنت (حتى أنّ الحكومة الصينية حجبت استخدام كلمة الياسمين - الثورة التونسية - في أدوات البحث على شبكة الإنترنت)، واتّخاذ إجراءات أمنية صارمة في مواجهة هذه الاحتجاجات. كما يعكسه الاهتمام الكبير الذي أولاه المؤتمر الثامن عشر للحزب الشيوعي الصيني الذي عُقد خلال الفترة 7- 14 تشرين الثاني/ نوفمبر 2012، لقضيتي الإصلاح السياسي ومحاربة الفساد داخل أجهزة الدولة، وهو ما عبّرت عنه بقوّة الكلمة الافتتاحية للرئيس هو جنتاو الذي قال، أو بالأحرى حذّر من أنه «إذا فشلنا في أن نتعامل بشكلٍ جيد مع الفساد فإنه قد يوجّه ضربة قاتلة إلى الحزب، وربّما يتسبّب بانهيار الحزب وسقوط الدولة... إصلاح البنيان السياسي جزء مهمّ من الإصلاح الشامل في الصين. علينا أن نواصل القيام بمجهودات نشطة وحذرة في الوقت نفسه لتنفيذ إصلاح البنيان السياسي

---

(20) انظر على سبيل المثال المبادرة التي اقترحتها الحكومة الصينية في 31 تشرين الأول/ أكتوبر 2012: Ministry of Foreign Affairs of the People's Republic of China, «China's Proposals for Promoting the Political Settlement of the Syrian Issue,» <http://www.fmprc.gov.cn/eng/wjb/wjbz/2467/t984552.htm>.

وجعل ديمقراطية الشعب أكثر شمولًا»[21]. أضف إلى ذلك عزل الحزب أحد أعضاء مكتبه السياسي بسبب ما نُسب إليه من إساءة استخدام السلطة وتضخّم ثروته. تعكس هذه العبارات القوية من جانب هو جنتاو عن الفساد والإصلاح السياسي قلقًا حقيقيًا لدى القيادات الصينية بشأن امتداد تأثير موجة الربيع العربي إلى الصين.

تزداد هذه الاحتمالات في ظل ارتباط موجة الثورات العربية بصعود القوى الإسلامية إلى السلطة. وقد يؤدّي هذا الصعود إلى تطوّر إدراك لدى الأقلّية المسلمة في الصين مفاده أنّ وصول الإسلاميين إلى السلطة في الدول العربية عقب أنظمة «علمانية» هو مؤشر صحوة إسلامية في العالم الإسلامي. وتزداد احتمالات تطوّر هذا الإدراك في ظلّ عاملين رئيسين: الأوّل هو عودة مفهوم «الأمّة الإسلامية» بقوّة لدى القوى الإسلامية في الدول العربية التي وصل فيها الإسلاميون إلى السلطة ومحاولة تأكيدها الانتماء الإسلامي لهذه الدول في الدساتير والسياسات الخارجية لدول ما بعد الثورة، وتزايد الانتقادات التي وجّهها الإسلاميون في عدد من الدول العربية - والإخوان المسلمون في الأردن وسورية - للصين (إلى جانب روسيا وإيران) على خلفية موقفها من الأزمة السورية، الذين وصفوا الصين بأنّها - إلى جانب روسيا وإيران - شريك في مذابح الأسد، بل وصفتهم إحدى القيادات الإسلامية المحسوبة على الإخوان المسلمين بأعداء الأمّة الإسلامية، وطالبت الحجّاج بالدعاء عليهم[22]. أمّا العامل الثاني فهو وجود نخبة أو طليعة داخل الأقلّية المسلمة في الصين تلقّت تعليمها في الجامعات الإسلامية في عدد من دول المنطقة، مثل المملكة

---

(21) «الرئيس الصيني يقول إن الفساد يهدّد الدولة.. ويعد بإصلاحات،» الحياة (لندن)، 8/ 11/ 2012، و«قادة الحزب الشيوعي في الصين أمام تحدي الكشف عن مداخيلهم،» الحياة (لندن)، 13/ 11/ 2012.

(22) «القرضاوي: إيران وروسيا والصين أعداء الأمة ويجب الدعاء عليهم في الحج وطهران تقف ضد العرب لإقامة الإمبراطورية الفارسية،» القدس، 13/ 10/ 2012. جاء ذلك في خطبة الجمعة 12 تشرين الأول/ أكتوبر 2012 التي ألقاها الشيخ القرضاوي في أحد مساجد الدوحة. وللاطّلاع على مقطعٍ مسجّل من الخطبة، انظر الرابط التالي: <http://www.youtubc.com/watch?v=9l4hF0RDyng>.

العربية السعودية وإيران ومصر[23]، ما قد يجعلها أكثر ميلًا إلى محاكاة الثورات العربية، باعتبارها جزءًا من الصراع بين الإسلام والعلمانية، على نحو ما يصوّره قطاع كبير من الإسـلاميين في العالم العربي. وعلى الرغم من حدوث انتفاضة داخل الأقلّية المسـلمة في الصين تتركّز في غربيهـا (خصوصًا في مقاطعات شـينغيانغ وغانزو ونينغشـيا)، فإنّ الأمر لن يقتصر على الأقلّية المسلمة، وقد يمتدّ إلى باقي الأقلّيات العرقية والدينية داخل الصين بسبب الأوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية التي تعانيها هذه الأقلّيات.

يرتبط بهذه المسألة التحوّل المتوقّع في موازين القوى الإقليمية في الشرق الأوسـط على خلفية الربيع العربي وتأثيره في الداخل الصيني، خصوصًا بروز الدور التركي في الشرق الأوسـط، وما قد يسـتتبعه من نموّ للمشاعر القومية التركية وامتدادها إلى إقليم «تركستان الشرقية» غرب الصين، وهي التي شهدت ظهور حركة انفصالية ومحاولات عدّة لإعلان دولة مسـتقلّة في الإقليم خلال النصـف الأوّل من القرن العشـرين، كان أبرزها إعلان مولاي الأكبر شـابيتي «جمهورية تركسـتان الشرقية الإسلامية» في مدينة كاشـغار في تشرين الثاني/ نوفمبـر 1933، وإعلان علي خان الجمهورية ذاتها فـي مدينة يي نينغ في عام 1944. وعلى الرغم من الضربات القوية التي تعرّضت لها الحركة عقب الثورة الصينية، فإنها عادت بقوّة مرّةً أخرى خلال عقد التسـعينيات من خلال سلسلة من المؤتمرات خارج الصيـن، كان أهمّها «المؤتمر الوطني لنوّاب تركسـتان الشرقية» الذي عُقد في تركيا في كانون الأوّل/ ديسمبر 1992، وجرى فيه إقرار اسمِ دولة كردستان الشرقية وعلمِها ونشـيدها الوطنيين؛ ومؤتمران آخران في نيسـان/ أبريل 1993، وفي عام 1999 في تركيا أيضًـا؛ وآخر في عام 2004 في ألمانيـا[24]. وتزداد التخوّفـات الصينية من تداعيات التحوّلات السياسـية

(23) Mu Chunshan, «Chinese Muslims and the Arab Spring,» The Diplomat, 24/7/2012, <http://thediplomat.com/china-power/chinese-muslims-and-the-arab-spring/>.

(24) لمزيد من التفاصيل عن هذه الحركة، انظر: هاو يويه، «حركة اسـتقلال تركسـتان الشرقية في شينجيانغ.. تاريخًا وحاضرًا،» سلسـلة أرقام وحقائق (المركز العربي للمعلومات، بكين، 22 تشرين الأول/ أكتوبر 2007)، <http://www.arabsino.com/articles/10-05-26/2556.htm>.

والإقليمية في الشرق الأوسط على الحركة الانفصالية في تركستان الشرقية في ضوء غضّ الحكومة التركية الطرف عن نشـاط «منظّمة تركستان الشرقية» على أراضيها، ونجاح المنظّمة في إدخال تعديلات مهمّـة على خطابها وتكتيكات عملها، خصوصًا طرح قضيتها باعتبارها قضية حقوق إنسـان من أجل كسـب دعم الدول الغربية والإعلام الغربي، وسعيها إلى تدويل القضية.

على الرغم من أنّ هذا التهديد قد يكون أقلّ وضوحًا في حالة روسيا، فهو لا يعـدّ غائبًا تمامًا؛ إذ أثبتت موجة الثـورات والاحتجاجات الراهنة في العالم العربـي أنّنا بإزاء موجة لديها القدرة على الانتشـار من دولـة إلى أخرى، ولا يمكن القطع بحدودها النهائية. فهل سـتتوقّف عند الحدود العربية، أم ستتّسع لتشمل دولًا أخرى إسـلامية غير عربية، بمعنى انتقالها إلى إيران ودول القوقاز وآسـيا الوسـطى؟ خصوصًا في ظلّ وجود بعض القواسـم الدينية والسياسية المشـتركة بين العالم العربي، من ناحية، وإيران ودول آسيا الوسطى من ناحية أخرى (الإسلام والأنظمة السياسية السلطوية).

ثانيًا: العلاقات العربية بروسيا والصين بعد الربيع العربي

على الرغم من الإدراك السلبي للسـلوك والموقف الروسيين - الصينيين لدى كثيرين فـي العالم العربي لأنه بـدا إلى جانب الأنظمة السـلطوية وضد مصالح الشـعوب وطموحاتهـا في بناء أنظمتهـا الديمقراطيـة والتخلّص من الأنظمة السـلطوية القائمة، فسـيظلّ من مصلحة الدول العربيـة تعزيز مواقف القوى الدولية الرافضة التوسّـع فـي مبدأ «التدخّل الخارجـي»، بصرف النظر عن مبرّرات هذا التدخّـل، والحفاظ على أولوية مبدأ السـيادة وعدم التدخّل في الشـؤون الداخلية. لكن تطوير علاقـات جيدة مع «المحور» الروسـي - الصيني الصاعد في المنطقة يتطلّب جهدًا عربيًا وروسيًا وصينيًا مشتركًا لتعظيم المكاسـب المشـتركة من هذه التحوّلات الدولية المهمّـة. ونطرح في ما يلي شرطين أساسيين لتعظيم المكاسـب الروسية - الصينية - العربية المشتركة في مرحلة ما بعد الربيع العربي.

الشــرط الأوّل يتعلّق بضرورة تطوير روســيا والصيــن خطابات واضحة بإزاء قضايا التحوّل الديمقراطي وحقوق الإنســان في المنطقة؛ فبصرف النظر عن الدوافع الحقيقية وراء الســلوك الروســي - الصيني في الأزمة الســورية ومواقفهما المعارضة لنمط التدخّل العسكري في ليبيا، فإنهما بدتا في المشهد الأخير منحازتين إلى الأنظمة السياسية السلطوية في مواجهة الموجات الثورية العربية المطالبة بإزاحــة هذه الأنظمة وإقامة أنظمــة ديمقراطية بديلة. ويرتبط بهذه النقطة ضرورة اســتعداد روســيا والصين للتعامل مع أنظمة أكثر انفتاحًا وديمقراطية في المنطقة مقارنةً بالعقود الســابقة؛ حيث اعتمدت الصين، مثلًا، في تطوير علاقاتها بالعالم العربي خلال العقود السابقة على أنظمة ذات طبيعة ســلطوية (العراق في مرحلة سابقة، نظام بشّار الأســد في سورية، نظام معمّر القذافي في ليبيا، نظام البشير في السودان). وجنّب هذا الواقع السياسي العربي الصين الحاجة إلى تطوير خطاب واضح بإزاء التطورات السياسية الداخلية في الدول العربية، وقضايا حقوق الإنســان، كما جنّبها الحاجة إلى فهم الخريطة السياسية الداخلية لهذه الدول. ومثّلت الأزمة السورية نموذجًا كاشفًا للتحدّي الذي يواجه السياســة الصينية في هذا المجال. وتزداد أهمّية هذا الشــرط في حالة فشــل المعارضة الســورية والقوى الإقليمية والدوليــة الداعمة لها في إسقاط نظام بشّار الأسد، إذ ســيجري عندئذ تحميل روسيا والصين مسؤولية هذا الفشل.

الشرط الثاني يتعلّق بالدول العربية التي عليها أن تطوّر خطابًا واضحًا تجاه القضايا والتفاعلات والتوازنات الدولية الجديدة التي أضحت القوى الآسيوية أطرافًا وفاعلين رئيســيين فيها. وتشــير التوجّهات الأولية لأنظمة ما بعد الثورة إلى احتمال تزايد الاهتمام بسياسة «التوجّه شــرقًا»، على نحو ما عكسته زيارة الرئيس المصري محمد مرسي للصين في آب/ أغسطس 2012. غير أنّ نجاح هذا التوجّه ســيظلّ مرهونًا بعدد من الاســتحقاقات المهمّة على هذه الأنظمة، على رأســها ضرورة فهم المشــهد السياسي والاســتراتيجي الجديد في آسيا. لقد ســاد اعتقاد خلال العقد الأخير بغلبة الاقتصــاد والتجارة على التفاعلات الإقليمية البينية والخارجية للدول الآســيوية، وهو اعتقاد كان صحيحًا استنادًا

إلى طبيعة التجــارب التنموية لاقتصاد هــذه الدول، الأمر الــذي خلق فرصًا لتفاعل دول العالم الخارجــي (ومنها الدول العربية) مع الدول الآســيوية في مجالات التجارة والاستثمار ومحاولة الاســتفادة من إمكاناتها الاقتصادية من دون أن يفرض ذلك الحاجة إلى تطوير خطاب محدّد حيال القضايا السياســية والأمنية الآسيوية. لكن، قد يصعب استمرار هذا التوجّه مستقبلًا في ضوء تغيّر نمط العلاقة بين القوى الآســيوية الصاعدة والنظام الدولــي، واتّجاه الولايات المتحدة إلى تكثيف حضورها السياســي والأمني في آسيا - المحيط الهادئ، وتطوير خطاب أميركي جديد بشــأن الصراعات القائمة في المنطقة، ودخولها في حالة قريبة من ســباق التســلّح. أضف إلى ذلك انتقال حالة الاســتقطاب الأميركي - الصيني - الروسي إلى منطقة الشرق الأوسط، وبشأن قضايا عربية (ســورية). ومن ثمّ، ربما يصبح متوجبًا على الأنظمة العربية حســم خياراتها قريبًا، وما لم يجْرِ تطوير خطاب عربي محدّد ومتّسق بإزاء القضايا والصراعات الأمنية في آسيا، سيكون من الصعب تطوير سياســة حقيقية للتوجّه شرقًا. لقد كان لافتًا أن يعلن الرئيس مرسي من إيران تدخلًا دوليًا فاعلًا في سورية، وذلك بعد ساعات محدودة من مغادرته الصين التي ترفض بشدّة أي شكل من أشكال هذا التدخل. وربما يكون مثل هذا الخطاب غير مقبول مســتقبلًا من مصر في مرحلة ســيتراجع فيها التمييز التقليدي الذي نشأ بين السياسة والاقتصاد خلال العقود السابقة.

تعقيب

محمد السيد سليم

تناول الباحث محمد فايز فرحات في بحثه «السلوك الصيني - الروسي إزاء موجة الربيع العربي: قراءة في ما وراء المصالح الاقتصادية»، موضوعين هما مداخل فهم السلوك الصيني، والعلاقات العربية بروسيا والصين بعد الربيع العربي. في الموضوع الأول، تناول أربعة مداخل لفهم هذا السلوك شملت مدخل أن الأزمة السورية هي تدشين لنظام عالمي جديد، ومدخل السعي للحفاظ على مفهومي السيادة وعدم التدخل في شؤون الدول الذاتية، ومدخل طبيعة النظام السياسي في روسيا والصين، وأخيرًا مدخل الأثر الداخلي في روسيا والصين للأزمة السورية، وأشار في الموضوع الثاني من البحث إلى أهمية تطوير العلاقات العربية مع روسيا والصين.

أتفق مع الباحث في شأن أهمية المداخل التي أشار اليها، وفي ذلك إشارته إلى أنه ركز على المداخل غير الاقتصادية، أو أنّ بحثه تجاوز المدخل الاقتصادي. وأتصور أن هذا الطرح كان بحاجة إلى تفسير، خصوصًا أن العالم يمر بعصر يطلق عليه عصر المصالح الاقتصادية، أو عصر الاقتصاد أولًا. فلماذا لم يأت الاقتصاد كأحد المداخل وهناك لروسيا والصين مصالح اقتصادية مهمة في الوطن العربي، ومعظم تلك المصالح مع دول الخليج العربية.

بالنسبة إلى روسيا، فإن لها مصالح في التنسيق مع الدول العربية المصدِّرة للنفط في مجال كميات الإنتاج النفطي لضبط الأسعار العالمية، وهي من

الدول المصـــدِّرة له؛ ففي إحصـــاءات عام 2011 تنتج روســـيا 10.5 مليون برميل يوميًا من النفط، تمثّـــل 12 في المئة من الإنتـــاج العالمي، تصدّر منها 7.4 مليون برميل، أي حوالى 11 في المئة من الصادرات العالمية، في مقابل 24.2 مليون برميـــل يوميًا تنتجها الدول العربية، وتمثّـــل حوالى 30 في المئة من الإنتاج العالمي، تصدّر منهـــا 21.3 مليون برميل، أي حوالى 33 في المئة من الصادرات العالمية. ومن ثم لروســـيا مصلحة أكيدة في التنسيق مع الدول العربية في مجال تحديد أسعار النفط.. ولكن روسيا ليست عضوًا في الأوبك، وهي تنســـق سياســـاتها النفطية في إطار منظمة ميثاق الطاقـــة. كما أن الدول العربية المصدرة للنفط ليست عضوًا في الميثاق، وهو ما يحد من القدرة على التنسيق بين الطرفين. ودعت روســـيا الدول العربية الخليجية إلى التنسيق في إطار المنظمة. لكنها لم تســـتجب للروس، الأمر الذي دعا روســـيا إلى رفض طلب تلك الدول منها في عام 2001 خفض إنتاج النفط الروسي بعد أن تدنت أسعاره. وللرئيس بوتين وجهة نظر أساســـها «أن روسيا ودول مجلس التعاون الخليجي حلفاء في مجال الطاقة وليســـت متنافســـة في مجـــال تلبية حاجات الأســـواق العالمية للطاقة». كما يضيف باحث روســـي أن من الضروري بناء تعاون استراتيجي عربي - روســـي في مجال النفط، حيث إن روسيا والبلدان العربية محط أطماع «اللاعبين العالميـــن»، وبالذات الولايات المتحدة، إذ إن الطلب علـــى النفط يزداد بمعدل 2.5 في المئة ســـنويًا حتى عام 2050، بينما يـــزداد الإنتاج بمعـــدل 1.5 في المئة. كما أن دول الشـــرق الأوســـط تحتفظ بحوالى 60 في المئة مـــن الاحتياطي العالمي في مقابـــل 15 في المئة لدول كومنولث الدول المســـتقلة. كما أن لروســـيا مصالح في تنويع استثماراتها في الخارج بتوجيه جزء منها إلى دول الخليج العربية. وسبق أن عبّر الرئيس بوتين عن رغبة روســـيا في توجيه جزء من اســـتثماراتها الخارجية إلى دول الخليج العربية. وفـــي 4 حزيران/ يونيو 2009 عبّر نائب رئيس وزراء روســـيا، تيغور شـــوفالوف، في لقاء مع وزراء الاقتصاد العرب في سان بطرسبورغ، أن روسيا ترغب في زيادة الاســـتثمارات العربية في أراضيها. وصرح بدر السعد، العضو المنتدب للهيئة العامة للاســـتثمار في الكويت، فـــي 22 أيار/ مايو 2011 بأن

استثمارات الكويت في روســيا تبلغ 600 مليون دولار. كما أن الدول العربية تُعتبر سوقًا مهمة للصادرات الصناعية الروســية. وبلغ حجم التبادل التجاري مع الدول العربية في عام 2011 حوالى 11 مليــار دولار، وهو رقم يفوق ما كان عليه في الحقبة الســوفياتية. كما تقوم الشركات الروسية بمشاريع متعددة في البلاد العربية. ولخصت وثيقة «مفهوم السياسة الخارجية للاتحاد الروسي» التي وقّعها الرئيس بوتين فــي 28 حزيران/يونيو 2000 مصالح روســيا في الخليج العربي بأنها اقتصادية بصفة أساســية وسياسية في المقام الثاني. قالت الوثيقة: «روسيا ستسعى إلى تحقيق الاستقرار في الشرق الأوسط، وفيه إقليم الخليج العربي وشــمال أفريقيا، آخــذًا بالاعتبار تأثير الموقــف الإقليمي في التطور العالمي ككل. في هذا الســياق فإن المهمة السياســية لروسيا ستكون اســتعادة مصالحها، وبالذات الاقتصادية في هــذا الإقليم الغني الذي هو مهم بالنسبة إلى مصالحنا».

أمّــا الصين فتعتمد على النفط المســتورد من دول الخليــج العربية؛ ففي عام 2010، اســتوردت الصين 20.3 مليون طن من النفط الخام، منها حوالى 7.2 مليون طن مــن الدول العربيــة الخليجية، أي بنســبة 35 فــي المئة من إجمالي الواردات. كما أن لها مصالــح اقتصادية مهمة مع تلك الدول. ولنأخذ حالة الكويــت مثالًا: فهناك اســتثمارات للكويت من خلال الشــركة الكويتية للاستكشــافات البترولية الخارجية كوفبيك، في تطوير حقل ياشــينغ للغاز في الصين، حيث تبلغ تكلفتــه 1.12 مليار دولار، وهو يُعتبر من مشــاريع الطاقة الضخمة فــي الصين. وتمتلك الشــركة الكويتية كوفبيــك 14.7 في المئة من امتياز الحقل. كما توصلت الصين والكويت في عام 1998 إلى اتفاق لتحديث مصافٍ صينية في مقاطعة شــاندونغ ورفع قدراتها مــن 120 ألف برميل يوميًا إلى 280 ألف برميل. ويقــوم الطرف الكويتي بتوفير رأس المال اللازم والنفط الخام. كذلك حصلت الهيئة العامة للاســتثمار في شــباط/فبراير 2006 على حصة مقدارها 720 مليون دولار في المصــرف الصناعي والتجاري الصيني، ثاني أكبر بنك في الصين. كما أنشــأت الدولتان شــركة الاســتثمار الصينية -

الكويتية برأسمال قدره حوالى 280 مليون دولار أميركي، حيث تستثمر الكويت من خلالها في القطاع العقاري الصيني. بيد أن أهم مشروع اقتصادي هو مشروع 2012 لبناء مصفاة ومجمع البتروكيميائيات، وقيمته 9 مليارات دولار، على جزيرة دونغهاي في مدينة تشيانغيانغ في إقليم غواندونغ. ويشمل المشروع بناء مصفاة لتكرير النفط الخام تنتج 300 ألف برميل يوميًا، وبناء مصنع للبتروكيميائيات ينتج مادة الإيثيلين بسعة إنتاج تبلغ مليون طن سنويًا. وسيسفر المشروع عن زيادة صادرات الكويت إلى الصين إلى 500 ألف برميل يوميًا بحلول عام 2015. وهذا المشروع مشترك بين مؤسسة النفط الكويتية ممثّلة في شركة بترول الكويت العالمية، وشركة سينوبك الصينية. من ناحية أخرى، تقوم بعض الشركات الصينية بالمشاركة في تنمية الكويت من خلال المشاريع العملاقة التي تنفذها. ويوجد في الكويت حوالى عشر شركات صينية تعمل في مجال البناء والكهرباء والماء، وحوالى ثلاثة آلاف عامل صيني في مجال الإنشاءات والبناء في مشاريع إنشائية عدة.

إذًا هناك مصالح اقتصادية روسية وصينية مع الوطن العربي. وفي ظلها اتّبعت روسيا والصين سياسات إزاء الأزمة السورية تختلف عن سياسات دول الخليج العربية، فهل كانت الدولتان على استعداد للتضحية بتلك المصالح من أجل فرض رؤيتهما لحل الأزمة؟ الحق أن المصالح الاقتصادية الروسية والصينية مع الدول العربية لم تؤثر في سياساتها تجاه الأزمة السورية لأن دول الخليج العربية حرصت على عدم المساس بها لأنها مصالح متبادلة لا أحادية. ومن ثم، لم يكن لتلك المصالح دور في تحديد السياسات الروسية والصينية، وهو ما يبرر تركيز الباحث على الاعتبارات الأمنية والسياسية في تشكيل السياسات الروسية والصينية.

ضاعف من حرص الدول العربية الخليجية على عدم المساس بالمصالح الروسية والصينية عاملان: أولهما أن لروسيا دورًا في أمن الخليج العربي، وثانيهما أن الدول العربية الخليجية تتّبع سياسات الاتجاه شرقًا. وفي هذا

الاتجاه، تُعَدّ الصين أحد المكونات الأساسية؛ فمن ناحية أولى، هناك مفهوم روسي لأمن الخليج العربي يدور حول المحافظة على الحدود الراهنة في الإقليم مع حل النزاعات بالطرائق السلمية في إطار إعادة إدماج العراق في المنظومة الأمنية الإقليمية، مع اعتبار أن أمن الإقليم هو مسؤولية جماعية دولية لا مسؤولية غربية فحسب. ثم إن روسيا مستعدة لقبول فكرة الارتباطات الأمنية بين دول الخليج والدول الغربية، بشرط أن تكون مصحوبة بروابط أمنية مع روسيا ذاتها. ومن المؤكد أن دول الخليج العربية حريصة على استمرار الدور الروسي، وإن يكن محدودًا، كورقة للمناورة مع القوى الغربية. ومن ناحية ثانية، الصين في حاجة إلى النفط في وقت يقل الاعتماد الغربي على النفط العربي، كما أن ثمة الكثير من فرص تنويع البدائل مع العملاق الصيني القادم.

نعود إلى المداخل التي طرحها الباحث وإلى سؤال يقول إن هذه المداخل كانت مطروحة في أثناء اندلاع الأزمة الليبية، لكنها لم تؤثر في السياستين الصينية والروسية، إذ سمحت الدولتان بمرور المشروع الغربي لكنهما اعترضتا عليه في الحالة السورية. فإذا كانت روسيا والصين تعملان على تدشين نظام دولي جديد من خلال دعم سورية، فلماذا لم تنتهزا فرصة الأزمة الليبية لتحقيق هذا الهدف، خصوصًا أن الفاصل الزمني بين الأزمتين السورية والليبية لا يزيد على بضعة أسابيع؟ ما الذي حدث في تلك الأسابيع كي يدفع روسيا والصين إلى تغيير موقفهما كاملًا؟ أجاب الباحث أن روسيا والصين وافقتا على التدخل العسكري الغربي في ليبيا لأن قرار مجلس الأمن لم يكن ينص على هذا التدخل، وإنما على إقامة منطقة حظر طيران فحسب، وأن الحلف الأطلسي هو الذي وسّع مفهوم قرار المجلس ليوظّفه من أجل تدمير البنية التحتية الليبية، وأن روسيا والصين وجدتا في هذا التدخل سابقة خطِرة قد توظَّف في أقاليم قريبة منهما. في ضوء ذلك، يمكن القول إن المداخل الأربعة لا تنهض بمفردها أو بمجموعها مفسّرة للسياسات الروسية والصينية حيال الأزمة السورية، لأن تلك المداخل كانت مطروحة عند اندلاع الأزمة الليبية. ومن المرجح أن تكون الإجابة التي قدمها الباحث لصمت الدولتين عن التدخل الأطلسي في سورية

هي المدخل الأنسب، ونقصد بذلك مدخل «التعلم عبر الإقليمي»، أي التعلم من خبرة إقليم معيّن للتصرف تجاه إقليم آخر. فمن الواضح أن روسيا والصين خدعتا في الملف الليبي، وأرادتا ألّا تتكرر الخدعة في إقليم آخر. لكن للتعلم عبر الإقليمي شروطًا أهمها أن تكون الأوضاع السائدة في الإقليم المراد التعلم منه مماثلة تقريبًا للأوضاع المطروحة في الإقليم المراد تطبيق الخبرة التعليمية عليه. ولم يكن الأمر كذلك في الحالتين الليبية والسورية؛ فسورية محاطة بقوى إقليمية أقوى منها تعمل على تدمير الدولة السورية لمصلحة مكاسب إقليمية على حساب سورية أو مصالح استراتيجية في أمور تتعدى سورية، وأهمها إضعاف إيران والتمكين للمشروع الإسرائيلي في الشرق الأوسط. كما أنه ليس ثمة جوار جغرافي بين كل من الصين وروسيا من ناحية وسورية من ناحية أخرى. ومن ثم، ربما لا تؤدي السياسات الصينية والروسية الجديدة إلى إنتاج الأثر المرجو في الحالة السورية، وهو الأثر الذي كان يمكن أن ينتج لو أنهما عارضتا المشروع الأطلسي في ليبيا.

أخيرًا، هل تستطيع روسيا والصين أن تؤثرا بشكل فاعل في مسار الأزمة السورية؟ الصين مشغولة بملفات أكثر أهمية من ملفات السياسة العربية التي خرجت منها تقريبًا للتركيز على صعودها الاقتصادي، كما أنها شريك اقتصادي للعرب أكثر منها شريكًا سياسيًا؛ فالصين ليست راغبة في الانخراط في قضايا العرب بأكثر من الحد اللازم لتمكينها من استمرار مسيرة الصعود الاقتصادي، وذلك بتأمين الأسواق ومصادر النفط العربية والاستثمارات العربية الخليجية في الصين. لكن تلك الاستثمارات ليست هي الأهم في الصين، وهو ما يفسر تدنّي القضايا العربية على سلّم الأولويات الصينية. كما أن الاستثمارات الصينية في العالم العربي تكاد تصب في القطاع النفطي، ولم ترتق إلى حد التعاون التكنولوجي لأنها في هذا المجال ستكون هي المانحة للتكنولوجيا، وهي تفضل أن تكون في الجانب الآخر من عملية التعاون التكنولوجي. كما لا تعد الصين عنصرًا مؤثرًا في التوازنات القائمة في الشرق الأوسط أو الخليج العربي. فالصين تركز بالأساس على الصعود الاقتصادي وعلى عدم تحدي

الولايات المتحدة في القضايا الدولية، وفيها القضايا العربية. ونلمس ذلك في الموقف الصيني من الصراع العربي - الإسرائيلي، ومن قضية دارفور حيث يكاد الموقفان الصيني والأميركي يتماثلان. وفي أمن الخليج، تتوافق الصين مع الرؤى الغربية، ولهذا وافقت على جميع قرارات مجلس الأمن حيال البرنامج النووي الإيراني.

أمّا روسيا فعلى الرغم من أنها بدأت تستعيد دورها العالمي منذ رئاسة بوتين التي بدأت في عام 2000 ومنذ ارتفاع أسعار النفط، فإنها تظل قوة اقتصادية محدودة لا يتخطى نصيبها من الناتج القومي العالمي 2 في المئة. كما أن مصالحها الأساسية توجد في أوروبا وشرق آسيا أكثر مما توجد في الشرق الأوسط، وبالأخص في الوطن العربي. وعبّر الروس عن استيائهم من العرب، إذ يطلبون منهم دورًا في الشرق الأوسط، ولكنهم في لحظة الحقيقة يلهثون وراء الولايات المتحدة، ويديرون ظهرهم لروسيا كما قال الباحث الروسي زفاديسكي. هذا فضلًا عن أن صورة العرب سلبية في التصور الذهني الروسي بفعل ما تركه التفكك السوفياتي من حركات إسلامية مناهضة في روسيا، وبفعل دور اللوبي الصهيوني، وهو يكاد يسيطر على الإعلام الروسي.

أخيرًا، أشار الباحث - في صدد حديثه عن تطوير علاقات العرب بروسيا والصين - إلى ضرورة أن تطور الدولتان «خطابات واضحة بإزاء قضايا التحول الديمقراطي وحقوق الإنسان في المنطقة... لأنهما في المشهد الأخير تبدوان منحازتين إلى جانب الأنظمة السياسية السلطوية في مواجهة الموجات الثورية العربية المطالبة بإزاحة هذه الأنظمة وإقامة أنظمة ديمقراطية بديلة. ويرتبط بهذه النقطة ضرورة أن تستعد روسيا والصين للتعامل مع أنظمة أكثر انفتاحًا وديمقراطية في المنطقة». والحق إنني أختلف مع الباحث في هذا التحليل، في ضوء نتائج خبرة الثورات العربية، ذلك بأن تبنّي الصين وروسيا خطابات واضحة إزاء قضايا التحول الديمقراطي في الوطن العربي سيضعهما وجهًا لوجه مع دول الخليج العربية في المقام الأول، وليس ثمة دولة من الدول

الكبرى مستعدة لأن تفعل ذلك، حفاظًا على مصالحها؛ فالخطاب الديمقراطي الغربي يستعمل بشكل انتقائي بما يحقق المصالح الغربية، فضلًا عن أن خبرة الثورات العربية جميعًا تدل على أننا لسنا في صدد إنشاء أنظمة ديمقراطية في دول الثورات العربية، وإنما نحن في صدد إقامة أنظمة تسلطية جديدة تحتفظ بجوهر السياسات الاقتصادية التقليدية للمؤسسات الاقتصادية الدولية، والطابع التسلطي للنظام السياسي المغلف بإطار ديني. فليس من المتوقّع في تقديرنا أن تنشأ في المنطقة أنظمة ديمقراطية تتطلب من روسيا والصين سياسة جديدة، فما نراه ليس إلّا إعادة إنتاج الأنظمة السابقة مع تغيير الثوب فحسب.

أتصور أن الموقف الرسمي العربي من السياستين الروسية والصينية هو موقف ينطوي على سوء تقدير كبير في الحساب وتغليب للمكاسب في المدى القصير، حتى لو أدى إلى الخسائر في المدى البعيد، وهو ما اعتاده العرب طوال القرن العشرين؛ إذ وقفوا ضد الدولة العثمانية وتحالفوا مع بريطانيا وفرنسا أملًا ببناء دولة عربية واحدة، وانتهى بهم الأمر إلى التقسيم والاحتلال. كما أيدوا الولايات المتحدة ضد التدخل العسكري السوفياتي في أفغانستان، وكسبوا خروج السوفيات مع تحول النظام العالمي إلى القطبية الأحادية، ودفعوا أثمانًا باهظة لهذا التحوّل. وساندوا الاحتلال الأميركي للعراق وانتهى بهم الأمر إلى تفشي الطائفية وصعود إيران في الشرق الأوسط. وللمرة الرابعة يكررون الخطأ ذاته، فهُم يساندون المشروع الغربي لتغير النظام السوري تحت شعار الديمقراطية وحقوق الإنسان، وهو ما سينتهي إلى تفكك الدولة السورية كما حدث في العراق.

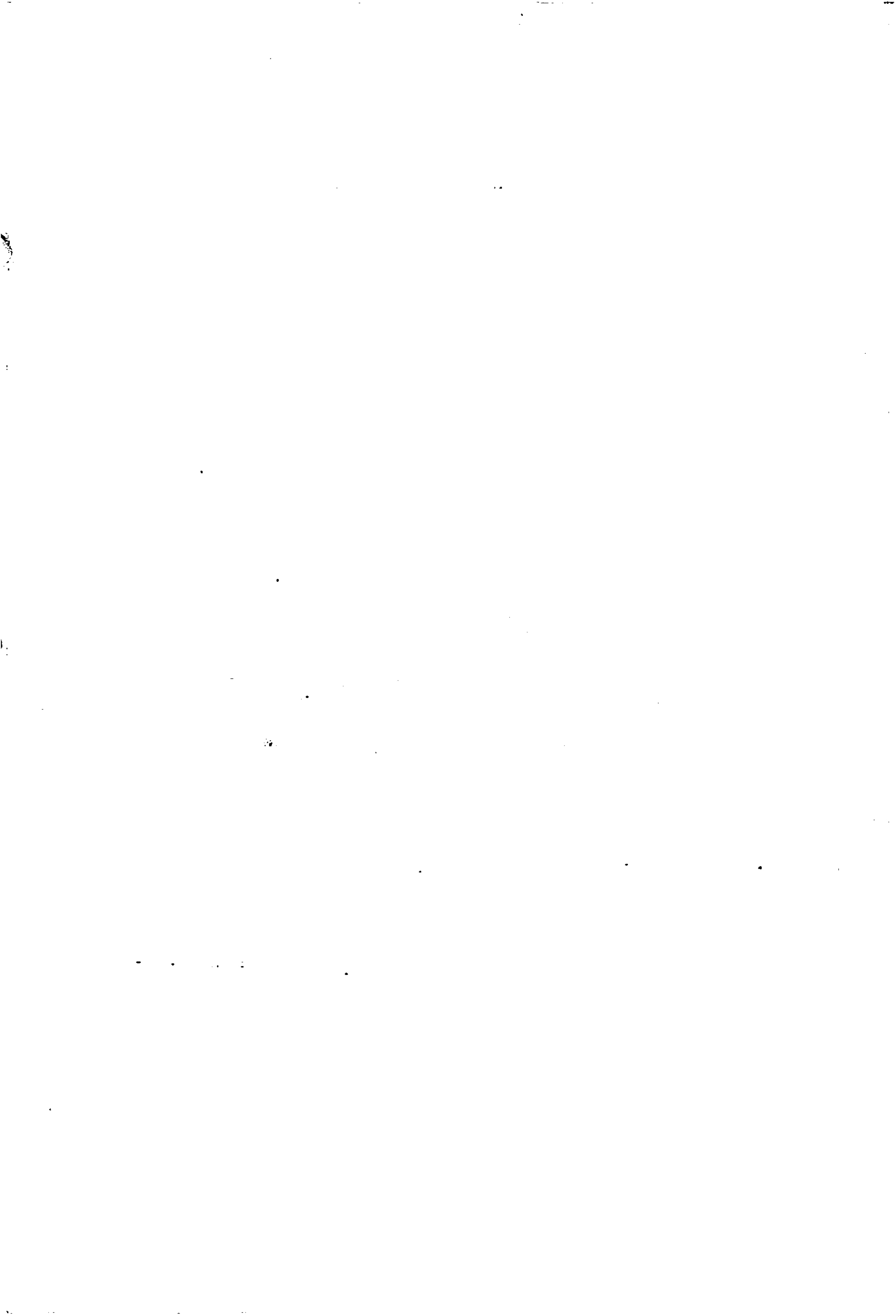
ما الذي تريده روسيا والصين في القضية السورية؟ إنهما تريدان كسر نظام القطبية الأحادية العالمية، وتأكيد مبدأ سيادة الدولة وعدم التدخّل في الشؤون الذاتية للدول، ومبدأ التسوية السلمية للمنازعات الدولية والأهلية. وهذه كلها مفاهيم تتفق مع المصالح العربية. والغريب أن من يعارض روسيا والصين في هذا الموقف ويؤيد التدخل العسكري في سورية، بل وتسليح المعارضة

السورية، يعارض في الوقت ذاته تسليح المقاومة الفلسطينية، بل ويعرض على إسرائيل منذ عام 2002 مبادرة سلام لم تهتم بها إسرائيل، بل ردّت عليها فورًا وفي وقتها بمذبحة جنين وتكثيف الاستيطان. وعلى الرغم من ذلك، ما زالت المبادرة مطروحة على الطاولة، لكن لغة السلاح هي المستخدمة مع سورية.

أخيرًا، يمكن القول إذا انتهت الأزمة السورية بانتصار المشروع الأميركي، فإن ذلك سيعَد تكريسًا لنظام القطبية الأحادية العالمية، وربما يعَد بداية لانحسار التأثير والمصالح الروسية الصينية في المنطقة انحسارًا سيمتد لعقود مقبلة، فضلًا عن أنه يعَد تدشينًا جديدًا لعصر التجزئة العربية، وسيكون العرب جميعًا ضحايا لانتصار هذا المشروع كما كانوا ضحايا لانتصار مشروع سايكس - بيكو بعد الحرب العالمية الثانية.

القسم الثاني

القوى الدولية والتغيرات الجيوستراتيجية في الوطن العربي



الفصل الخامس

روسيا والتغيرات الجيوستراتيجية في الوطن العربي

نورهان الشيخ

مقدّمة

كان العالم العربي دومًا منطقة ذات جوار جغرافي شـبه مباشـر لروسيا، وذات أهمية اسـتراتيجية وجيوسياسـية على مـرّ العصور؛ فعلـى الرغم من امتداد السواحل الروسـية، لم تكن موانئها صالحة للملاحة معظم أشهر السنة نظرًا إلى تجمّدها. ومن ثمّ، فإن الوصـول إلى المياه الدافئة في الخليج العربي والبحر المتوسط عبر البحر الأسود كان ذا أهمية استراتيجية عظمى بالنسبة إلى روسيا[1]. وأبدى قياصرة روسيا اهتمامًا بها، وافتتحت روسيا القيصرية قنصلية في الإسـكندرية في عام 1748، وأخرى في الحجاز عام 1879. وتسـنّى لها دخول الخليج العربي فترة قصيرة بين عامي 1899 و1903[2].

---

(1) لمزيد من التفاصيل، انظر: الاستراتيجية السوفيتية والبحر المتوسط (القاهرة: مطبعة أكاديمية ناصر العسكرية العليا، [د. ت.])، ص 54-63.

(2) لمزيد من التفاصيل: يفيم ريزفان، سـفن روسية في الخليج العربي 1899-1903: مواد من =

استمرّ هذا التوجّه بعد الحقبة القيصرية، مذ أدرك الاتحاد السوفياتي الأهمية الاستراتيجية للمنطقة العربية، وحرص على التواصل معها، فكان أول دولة اعترفت باستقلال مملكة ابن سعود وأقامت العلاقات الدبلوماسية بها. وازدادت أهمية المنطقة بتصاعد حدّة المنافسة والصراع بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأميركية، منذ أواخر الأربعينيات، في إطار ما عُرف بالحرب الباردة، حين قاوم الاتحاد السوفياتي هيمنة القوى الاستعمارية على المنطقة المتاخمة له، وساند حركات التحرر الوطني في البلدان العربية، ودعم الدول العربية الثورية اقتصاديًا وعسكريًا، وأقام عشرات المشاريع التنموية التي لا تزال تمثّل عصب التنمية والاقتصاد فيها.

لم تفقد المنطقة أهميتها مع تفكّك الاتحاد السوفياتي وانتهاء الحرب الباردة، بل ازدادت في ضوء الرؤية البراغماتية التي انطلقت منها موسكو في سياستها الخارجية وعلاقاتها الدولية والإقليمية. وشهدت العلاقات الروسية - العربية تفعيلًا ملحوظًا منذ مطلع الألفية، بعد انحسار وتراجع واضحيْن خلال عقد التسعينيات من القرن العشرين لأسباب تتعلّق بعدم الاستقرار السياسي والتدهور الاقتصادي الذي اعتصر روسيا آنذاك. فمن ناحية، استطاعت موسكو إعادة إطلاق علاقاتها بحلفائها التقليديين في المنطقة على أسس جديدة، إلّا أن اللافت هو التطور غير المسبوق في صلة روسيا بدول الخليج العربي، خصوصًا المملكة العربية السعودية، بعد عقود طويلة من توقفها منذ ثلاثينيات القرن الماضي، في إطار سعي روسيا إلى شراكة استراتيجية في مجال الطاقة تحقّق لها طموحها كعملاق في نطاقها.

لكن، ما إن استطاعت روسيا ترتيب أوضاعها في المنطقة بجهد كبير، وقامت قيادتها بزيارات متتالية ومكثّفة، حتى هبّت رياح التغيير لتعصف بالأوراق كلها، وتطرح ضرورة إعادة ترتيبها من جديد.

= أرشيف الدولة المركزي للأسطول البحري الحربي، تحرير ف. ناؤومكين، ترجمة سليم توما (موسكو: دار التقدم، 1990).

إن ثورات الربيع العربي التي بدأت في تونس في كانون الأول/ ديسمبر 2010، ولا تزال تتطوّر في العديد من الدول العربية، كانت متغيرًا استراتيجيًا مهمًّا فرض تحديات عديدة على روسيا مذ بدأت الهيمنة الأميركية على شؤون المنطقة تتزايد في ظل التفاهم بين واشنطن وقوى الإسلام السياسي التي صعدت إلى السلطة في بعض دول الربيع العربي. ويُعتقد أن الأزمة السورية تطور مفصلي لن يتوقف عليه مستقبل العلاقات الروسية - العربية فحسب، بل مستقبل المنطقة ككلٍّ وتوازنات القوى بها، وشكل النظام العالمي الجديد.

تسعى الدراسة إلى الإجابة عن ثلاثة أسئلة رئيسة:

- ما هي التوجّهات العامّة التي ميزت الموقف الروسي من الثورات العربية؟

- ما هي العوامل المؤثّرة في هذا الموقف والحاكمة له؟

- ما هي تداعيات الموقف الروسي من الأزمة السورية ودلالاته ها هنا، في ما يتعلّق بمسار الثورة السورية، ومستقبل العلاقات الروسية - العربية، خصوصًا العلاقة بدول الخليج العربي، وتوازن القوى الإقليمي، وهيكل النظام الدولي؟

أولًا: الموقف الروسي من ثورات الربيع العربي

لم تعلن روسيا تأييدًا صريحًا للثورة والثوار في أي بلد عربي، خلافًا للعهد السوفياتي الذي كانت فيه موسكو تقدم دعمًا سخيًا إلى الثورات وحركات التحرّر الوطني في العالم؛ فلم ترَ موسكو أن ما يحدث ثورات، وإنما احتجاجات واسعة أو انتفاضات يتفاوت نطاقها وتأثيرها من دولة عربية إلى أخرى؛ وهي شأن داخلي لهذه الدول العربية ولا يجوز التدخل فيه. وبناءً عليه، تميزت المواقف الروسية من الثورات العربية بالتحفّظ النسبي والتأنّي الواضحيْن اللذيْن وصلا إلى حدّ البطء في ردّة الفعل؛ إذ كانت موسكو تلتزم الصمت إزاء الحوادث حتى تنضج وتتفاقم، أو يُزاح من بالسلطة، كما جرى في حالتي تونس ومصر.

كان التوجه الثابت في الموقف الروسي من الثورات العربية كلها التشديد على أهمية التغيير السلمي ونبذ العنف، والدعوة إلى الحوار والحلّ السياسي ضمن الأطر القانونية وعلى أساس الوفاق الوطني عربيًا. ورفضت موسكو استخدام السلطة للقوّة في مواجهة الثوار، لكنها فعلت ذلك من دون تنديد أو شجب أو انتقاد مباشر للسلطات الحاكمة.

في الحالة التونسية، لم تُبدِ روسيا موقفًا واضحًا إلّا بعد تنحّي بن علي وهروبه، على الرغم من بدء التطورات في كانون الأول/ ديسمبر 2010؛ ففي منتدى دافوس الاقتصادي العالمي، في 26 كانون الثاني/ يناير 2011، جاءت كلمة الرئيس الروسي ديمتري ميدفيديف متحفّظة تجاه الثورة التونسية ومقتضبة، إذ قال: «آمل بشدّة أن تستقرّ الأوضاع في تونس وألّا تؤثّر سلبيًا على الوضع العام في العالم العربي»[3].

كما جاء الموقف الروسي متحفظًا وأميلَ إلى تأييد نظام مبارك في مصر حتى أُقصِي كذلك عن السلطة. ففي أول تعليق على الثورة المصرية، أعلن القنصل العام لروسيا الاتحادية في الإسكندرية سيرغي بيدلاكوف في 27 كانون الثاني/ يناير 2011، أن الأمور في مصر تحت السيطرة، «ولا نتوقّع أن يتفاقم الوضع»[4]. ووصفت وسائل الإعلام الرسمية الروسية الثورة المصرية بـ «موجة غضب شعبية»، و«اضطرابات واحتجاجات على نظام الرئيس مبارك»، و«أعمال شغب». ودعا وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف المعارضة المصرية إلى البحث، عبر الحوار مع الحكومة، في التحضير للانتخابات الرئاسية المقبلة، وعدم الإصرار على مطالب غير واقعية كاستقالة الرئيس المصري فورًا[5].

هذا في حين التزمت موسكو الصمت والحياد في حالتي اليمن والبحرين، ولم يكن لها هناك موقف واضح في كلتيهما. ووصفت الخارجية الروسية الأوضاع في البحرين بـ«المسيرات الاحتجاجية»، ورأت أن ما يجري شأن

(3) انظر: ديمتري ميدفيديف في: وكالة أنباء نوفوستي، 26/ 1/ 2011.

(4) انظر: سيرغي بيدلاكوف في: وكالة أنباء نوفوستي، 27/ 1/ 2011.

(5) انظر: سيرغي لافروف في: وكالة أنباء نوفوستي، 10/ 2/ 2011.

داخلي، ودعت الأطراف البحرينية المعنية إلى حلّ المسائل العالقة عبر الحوار البنّاء وفي إطار قانوني، والابتعاد عــن العنف، والتحلّي بالهدوء وضبط النفس لإحلال الاستقرار والوحدة الوطنية في المجتمع البحريني». كما رأت موسكو أن دخول قوات «درع الجزيرة» السعودية والإماراتية إلى البحرين في 21 آذار/ مارس 2011 شــأن داخلي وكان بطلب من الســلطات البحرينية للمســاعدة في إحلال النظــام وفقًا للاتفاقات الأمنية بين دول مجلــس التعاون الخليجي، وأعادت موسكو تأكيد ضرورة الحلّ السلمي للأزمة[6].

أكّدت روسيا «أهمية الحفاظ على وحدة أراضي اليمن واستقلاله، وقدرة اليمنيين على تحديد مستقبلهم عبر حوار قائم على الاحترام المتبادل». وأعلنت معارضتها استخدام القوة لحلّ المشكلات السياسية في اليمن، ودعمت المبادرة الخليجية لحلّ الأزمة في البلد. واعتذرت الحكومة الروسية في آب/ أغسطس 2011 عن عدم استقبال الرئيس اليمني علي عبد الله صالح لاستكمال علاجه في موسكو خشية إثارة الثوار ضدّها.

تجلّى الحذر الروســي والحرص على الموقف الوسط والاحتفاظ بقدرٍ من التوازن بين الســلطة والثوّار في الحالة الليبية عبر علاقاتها الدبلوماســية بالســلطات الليبية من دون التنديــد بالثــوار. وكان أول موقف واضح ترجم هذا التوازن داخل مجلس الأمــن بالموافقة على القــرار رقم 1970، وعدم استخدام حقّ النقض ضدّ القرار رقم 1973، وما يمكن قراءته على أنه موقف وسط تضمّن دعمًا غير مباشــر للثوار وعزوفًا عن التأييد المطلق للقذافي في مواجهة حلف الأطلسي.

على الرغم من إســراع كثير مــن الدول العربية والأجنبيــة إلى الاعتراف بالمجلس الانتقالي سلطةً شــرعيةً في ليبيا بعد وصول الثوار إلى طرابلس، كان تأنّي موسكو واضحًا في الإقدام على هذه الخطوة، إذ أعلنت الخارجية الروسية أن «الوضع فــي ليبيا لا يزال غامضًا». وقال الرئيس الروســي: «رغم نجاحات

---

(6) وكالة أنباء نوفوستي، 22/ 2/ 2011، و22/ 3/ 2011.

الثـــوار وهجومهم على طرابلس، فـــإن القذافي وأنصـــاره لا يزالون يحتفظون ببعض النفوذ والقدرات العســـكرية. ونتمنى أن ينتهي هذا الأمر بأســـرع وقت ممكن». إلّا أن موســـكو عادت واعترفـــت بالمجلس الانتقالي ممثّلًا شـــرعيًا ووحيدًا للشـــعب الليبي، وســـلطة حاكمة في ليبيا، وكان ذلك في فاتح أيلول/ سبتمبر 2011[7].

كانت الحالة الســـورية خروجًا عن هذا الخط العام في السياسة الروسية، إذ كانت موسكو أسرع استجابة وحسمًا في مواقفها من الثورة السورية؛ فعقب اندلاع التظاهرات السلمية ضدّ [الرئيس] بشّار الأسد ونظامه، اتخذت موسكو في البداية موقفًا وسطًا بين النظام السوري والمعارضة، منطلقة من حقّ الشعب الســـوري في التغيير. وحذّر الرئيس الروســـي آنذاك ديمتري مدفيديف، القيادة السورية، ورأى أنّه «ينتظر الأســـد مصيرٌ محزنٌ إذا لم يبدأ حوارًا مع المعارضة ويباشر الإصلاحات»[8].

أعلنت موســـكو ترحيبها بحزمة الإصلاحات التي أعلنها الأسد، وعمدت إلى إجراء اتصالات مع المعارضة السورية. وانتقدت دمشق لقاء الدبلوماسيين الأميركيين ممثلي المعارضة السورية، لكنّها رحّبت باتصالات الجانب الروسي، انطلاقًا من أن موسكو وســـيط نزيه، وهي تحاول من خلال هذه اللقاءات إقناع المعارضة ببدء الحوار مع السلطة.

كان تحوّلًا مهمًّا ما حدث في الموقف الروسي مع تصاعد الثورة السورية واســـتخدام الســـلطات العنف ضد المتظاهرين، ثم لجوء المعارضة إلى القوة ضد الجيش النظامي الموالي للأسد؛ حيث حمّلت موسكو المسؤولية للسلطة والمعارضـــة معًا، ورفضـــت رفضًا قاطعًـــا أي تدخّل خارجي مباشـــر أو غير مباشر. وكان موقف موســـكو انطلاقًا من حتمية الحلّ السلمي وجلوس جميع الأطراف المعنية إلـــى طاولة المفاوضات. ويختلف هـــذا الموقف جذريًا عن

(7) وكالة أنباء نوفوستي، 1/ 9/ 2011.

(8) حديث ديمتري مدفيديف إلى قناة روسيا اليوم، 5/ 8/ 2011.

الموقفين الغربي والعربي اللذين حمّلا الرئيس بشـار الأسـد وحده مسؤولية العنف والمذابح في سـورية، وفقد الأمل في الحلّ السـلمي ليتّجه إلى الدعم العسـكري للمعارضة من أجل إطاحة الرئيس. فالرؤية الروسـية قد تشترك مع نظيرتها الغربية في ضرورة وقف اسـتمرار إراقة الدماء السورية، إلّا أن التباين بين الجانبين يبدو واضحًا في الكيفية؛ فروسـيا ترى أن ما يحدث في سـورية «نزاع داخلي مسلّح» أو حرب أهلية، وأن بشار الأسد لا يتحمّل وحده مسؤولية العنف وإنّما يتحمّلها الطرفان (السـلطة والمعارضة). كما أكدت روسـيا دور الطرف الثالث، وأنّ النزاع من وجهة نظرها ليس بين النظام السوري والمعارضة فحسب وإنما هناك ما يسـمّى «القوة الثالثة» وهي تنظيم «القاعدة» وتنظيمات إرهابية مقربة منه، تنامى نشاطها على نحو ملحوظ لا يهدّد سورية فحسب وإنما الأمن الإقليمي أيضًا.

انطلاقًا ممّا سـبق، رفضت موسـكو الدعوة إلى تنحّي بشار الأسد، وهي لا تدعم نظام الأسـد بقدر ما تحافظ على كيان الدولة السـورية حتى لا تتكرّر مأساة ليبيا ومن قبلها العراق والسودان. كما رفضت موسكو التدخّل الخارجي بأي صورة من الصور للتأثير في مسار الثورة السورية، ووجّهت انتقادات حادّة إلى دعم المعارضة المسـلّحة ورأته تدخّلًا خارجيا غير مباشـر لا يمكن قبوله ويؤدّي إلى زعزعة الاسـتقرار في سورية والمنطقة بأسـرها. كما أنه «عدوان عسـكري خارجي مبطّن... على الحكومة السـورية أن تقضي عليه بأسـاليب شديدة وحاسـمة وفعّالة [...] وأن اسـتخدام القوّة بصورة واسعة ضد الآلاف من المقاتلين المدرّبين والمسـلّحين، بمسـاعدة الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا وغيرهمـا من الدول الغربية، إضافة إلى السـعودية وقطر وتركيا بغية إسقاط السلطة الشـرعية، أمر شـرعي ومبرّر بأحكام القانون الدولي»[9]. وأكّد وزير الخارجية الروسي لافروف ذلك بقوله: «كيف يمكن الاعتقاد بأنه في مثل هذه الأوضاع يمكن أنْ تقبل الحكومة بكلّ بسـاطة بالأمر الواقع وتقول: كنت

---

(9) تصريح إيغور كوروتشـينكو، رئيس المجلس الاجتماعي بوزارة الدفاع الروسية، في حديث إلى قناة روسيا اليوم، 6/ 8/ 2011.

على خطأ، هيا اعملوا على إســقاطي وغيّروا النّظام، إن هذا بكلّ بســاطة غير واقعي»[10].

فشلت المســاعي الغربية المتكرّرة لإصدار قرار من مجلس الأمن الدولي يدين الســلطات الســورية على اســتخدام العنف في قمع المتظاهرين، بسبب معارضة روسيا والصين واستخدامهما الفيتو ثلاث مرات، الأولى في 5 تشرين الأول/ أكتوبر 2011، والثانية ضدّ قرار مماثل في 5 شــباط/ فبراير 2012، ثم المرة الثالثة في 19 تموز/ يوليو 2012.

أعلن الرئيس الروســي الســابق مدفيديف والرئيس الحالي بوتين في غير مناسبة أن روسيا لن تؤيد قرارًا يصدره مجلس الأمن الدولي بشأن سورية على غرار القرار بشــأن ليبيا، وأن القرارين رقم 1970 ورقم 1973 المتعلقين بليبيا قد انتُهكا بوضوح، وجرى التلاعب بهما، وأنه «لا توجد رغبة البتّة في أن تسير الحوادث في ســورية وفق النموذج الليبي، وأنْ يُســتخدَم قرار لمجلس الأمن لتبرير عملية عسكرية ضدّ سورية». وقالت موسكو بضرورة أن يتولّى السوريون تســوية أوضاع بلادهم بأنفســهم ومن دون تدخّل خارجي على أساس الحوار السوري الوطني الذي يبقى الأسلوب الوحيد للحل[11].

كما قامت روســيا بالاعتراض على قــرار الجمعية العامّــة الصادر في 3 آب/ أغســطس 2012، وهو القرار الذي أعدّت مشروعه الســعودية وتضمّن إدانة استخدام العنف الذي تمارســه الحكومة السورية، وتسريع عملية الانتقال السياسي للسلطة، ورأته روســيا غير متوازن ويمثّل التفافًا على قرارات مجلس الأمن. كما انتقدت موســكو قرار جامعة الدول العربية الصادر في 22 تموز/ يوليو 2012 الذي يدعو إلى تنحّي بشار الأسد وتأليف حكومة انتقالية، ورأت أنّه لا يســاهم في تســوية الأزمة ويغلق الباب أمام أي حديــث عن الإصلاح السياسي.

---

(10) انظر: سيرغي لافروف في: وكالة أنباء نوفوستي، 28/ 7/ 2012.

(11) Farooq Yousaf, «Russia and China Vow to Protect Syria from Becoming another Libya,» *Pravda*, 25/6/2012.

صوتت موسكو أيضًا ضد قرارات مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة الصادرة بشأن سورية في 29 نيسان/ أبريل و23 آب/ أغسطس 2011 و1 حزيران/ يونيو 2012، بحجّة رفض استخدام الآليات الحقوقية من أجل التدخّل في الشؤون الداخلية وتحقيق الأهداف السياسية التي تتعارض مع قواعد الشرعية الدولية، وتخالف ميثاق الأمم المتحدة الذي يقوم على مبدأ احترام سيادة الدول ووحدة أراضيها.

عارضت موسكو إحالة الملفّ النووي السوري إلى مجلس الأمن، في اجتماع مجلس محافظي الوكالة الدولية للطاقة الذرّية في حزيران/ يونيو 2011، لكن جاء التصويت لمصلحة القرار بالأغلبية، في محاولة الدول الغربية للضغط على سورية.

على صعيد آخر، كان للدبلوماسية الروسية الدور الرئيس في التوصل إلى خطّة كوفي أنان للتسوية في سورية؛ ففي أثناء لقاء سيرغي لافروف وزراء الخارجية العرب في القاهرة في 10 آذار/ مارس 2012، كان الاتفاق على خمسة مبادئ للتسوية السلمية للأزمة السورية، والمصادقة عليها في قرار خاص صادر عن مجلس الأمن الدولي في 21 آذار/ مارس، لتشكّل خطّة عمل كوفي أنان، مبعوث الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية الخاص إلى سورية، تتألّف من ست نقاط: وقف العنف والسعي للتسوية السلمية للأزمة. وأكّدت موسكو دعمها لإنجاح خطّة أنان، حتى بعد استقالته وتعيين الأخضر إبراهيمي، واتّهمت عناصر القاعدة في سورية بمحاولة إفشالها من خلال هجمات وتفجيرات استهدفت السلطة والمدنيين، بل والمراقبين الدوليين على السواء. وقالت روسيا بأهمية الإبقاء على المراقبين الدوليين كشرط مهم لنجاح خطّة أنان، وعارضت إنهاء بعثة المراقبين الدوليين في سورية، إلى أهمية عودتهم عقب قرار مجلس الأمن الدولي في 16 آب/ أغسطس 2012، بعدم تمديد بعثة المراقبين ومغادرتهم الأراضي السورية ابتداءً من يوم 20 آب/ أغسطس.

كما عبّرت روسيا عن استعدادها لاستضافة مفاوضات بين ممثّلي

الحكومة الســورية والمعارضة في موســكو، وكذلك الاتصالات الهادفة إلى توحيد المعارضة السورية. وطرحت في مبادرة عقد مؤتمر دولي يتعلق بسورية تحت رعاية الأمم المتحدة، ضرورة إشراك الفاعلين الإقليميين المؤثّرين الذين تتصدّرهم إيران إلى جانب قطر والســعودية ولبنــان والأردن والعراق وتركيا، إضافة إلى منظّمة التعاون الإسلامي والاتحاد الأوروبي، بينما رفضت واشنطن رفضًا قاطعًا إشــراك طهران في هــذا الاجتماع. لذلك يختلــف المؤتمر الذي تقترحه موسكو جوهريًا عن مؤتمرات مجموعة «أصدقاء سورية» التي قاطعتها روسيا ورفضت المشــاركة فيها، لكونها «ضارة»، و«تقتصر أعمالها على إيجاد مختلف الذرائع لإطاحة الحكومة الســورية الحالية، بدلًا من السعي إلى تنفيذ خطّة كوفي أنان». وأشــار لافــروف إلى أن «من الأفضــل تصحيح الخطأ في عدم دعوة إيران والمملكة العربية السعودية لحضور مؤتمر جنيف»، و«أن لقاء باريس (لأصدقاء ســورية) لا يهدف إلى توحيد المعارضة السورية على أسس بنّاءة، بل إن مهمّة المشاركين فيه تتلخّص منذ البداية بدعم المعارضة الخارجية فقط»[12].

كذلك أعلنت روسيا رفضها العقوبات الأميركية والأوروبية على سورية، ورأت أن فــرض مثل هذه العقوبات محصور في مجلــس الأمن الدولي، وفي حالات الضرورة القصوى فحسب. واســتمرت روسيا في علاقاتها الاقتصادية والتجارية بدمشــق، وقامت بدعمها في مواجهة العقوبات الأميركية والأوروبية والعربية. وكان الاتفاق في آب/ أغســطس 2012 على أن تقوم موسكو بتقديم قرض إلى سورية بالعملة الصعبة والاســتمرار في تصدير النفط ومشتقّاته إلى دمشــق. كما طُبعت أوراق نقدية سورية جديدة في روســيا لاستبدال الأوراق المهترئة ودفع المرتّبات والنفقات الحكومية. وكانت الأوراق النقدية الســورية تطبعها في النمسا شــركة تابعة للبنك المركزي النمساوي الذي أوقف العملية منذ أن فُرضت عقوبات الاتحاد الأوروبي في عام 2011.

هذا إلى جانب استمرار التعاون العسكري بين البلدين، إذ تواصل مؤسّسة

(12) انظر: سيرغي لافروف في: وكالة أنباء نوفوستي، 7/ 7/ 2012، و18/ 7/ 2012.

«روس أوبورون إكسبورت» الروسية توريد السلاح إلى سورية بموجب العقود الموقّعة سابقًا، وإن تكن روسـيا قد أوضحت في أكثر من مناسبة أنّ الأسلحة التي تقـوم بتصديرها إلى سـورية هي كلهـا دفاعية، ولا يمكـن تقنيًا وعمليًا اسـتخدامها لقمع المتظاهرين، ومن غير المحتمـل توجيهها إلى أهداف مدنية لأنّها مخصّصة لصدّ المدرّعات والأهداف الجوية إن تعرّضت سـورية لعدوان خارجي. كما أن موسـكو لا تريد تكرار السـيناريو الليبي حين أوقفت روسيا توريد الأسـلحة إلى ليبيا بينما اسـتمرّت الدول الغربية في إمـداد المعارضة بالأسـلحة، في خرق واضح لقـرارات مجلس الأمـن الدولي. وقـال وزير الخارجية الروسـي سيرغي لافروف: «لا نورد إلى سـورية، ولا إلى أي مكان آخر، وسائل تستخدم لقمع المتظاهرين السـلميين، بخلاف الولايات المتحدة الأميركية التي تبيع وسـائل خاصّة مـن هذا القبيل إلـى دول المنطقة والدول الخليجية. فنحن لا نورّد لدمشق إلّا الأشياء التي سـتحتاج إليها حال تعرّضها لعدوان من الخارج»[13].

ثانيًا: العوامل الحاكمة للمـوقف الروسي

هناك مجموعة من العوامل والرّؤى التي حكمت الموقف الروسـي تجاه الثورات العربية عمومًا، وسورية خصوصًا، يمكن إيجازها كما يلي:

1 - العوامل الجيوستراتيجية

ترى موسكو أن الولايات المتحدة تسعى إلى إحكام قبضتها على المنطقة والحدّ من الشراكة العربية المتنامية مع القوى الآسيوية الصاعدة التي تتصدّرها روسيا والصين، من خلال إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط جغرافيًا وسياسيًا، وإضعاف القوى الإقليمية المهمّة الكبرى، العربية وغير العربية، وخلق كيانات ضعيفة يسـهل توجيهها ولا تهدّد مصالحها في المنطقة. وأن ما تشهده الدول العربية هو صورة أخـرى للثورات الملوّنـة التي حاولت الولايـات المتحدة

(13) انظر: سيرغي لافروف في: وكالة أنباء نوفوستي، 13/ 6/ 2012.

الأميركيـــة من خلالها إحداث تغييـــرات عميقة فـــي دول الكومنولث التي هي المجال الحيوي لروسيا.

ففي حزيران/ يونيو 2006 نشرت مجلّة القوات المسلّحة الأميركية مقالة بعنوان «حدود الدم»، عن ملامح جديدة لشـــرق أوسط جديد تعالج، من وجهة نظر واشـــنطن، التقســـيم المعيب الذي قامت به إنكلترا وفرنســـا مطلع القرن العشـــرين مع تفكّك الإمبراطورية العثمانية؛ فتأتي التقســـيمات الجديدة على أســـاس الدين والقومية والمذهبية[14]. وهي الخطّة التـــي طرحها برنارد لويس (البريطاني الأصل واليهودي الديانة)، مستشـــار وزير الدفاع الأميركي لشؤون الشرق الأوســـط، خلال الســـبعينيات. وتبنّى بوش الابن والمحافظون الجدد مضمون هذه الخطّة في إطار «مبادرة الشـــرق الأوســـط الكبير» الأميركية التي طُرحَت في عام 2004 بهدفين، أحدهما معلن، وهو تشجيع الديمقراطية وبناء مجتمع معرفي، وآخر حقيقي، وهو تفتيت العالم العربي وتجزئته.

تتضمّن الخطّة، ضمن تغييـــرات أخرى عديدة، تقســـيم العراق إلى ثلاثة أجزاء: دولة كردية في الشـــمال، ودولة شـــيعية عربية في الجنوب، ودولة سنّية في الوســـط تنضمّ إلى ســـورية في وقت لاحق، واقتطاع مكّة والمدينة المنوّرة من السعودية لإنشاء «دولة إسلامية مقدسة» يحكمها مجلس يرئسه أحد ممثّلي الحركات والمدارس الإسلامية الرئيســـة بالتناوب، أي أن يكون المجلس نوعًا من «فاتيكان إســـلامي»، وإضافة جزء من شمال السعودية إلى الأردن، وإضافة جزء من جنوبها إلى اليمن، واقتطاع حقول النفط في الشـــرق لمصلحة الدولة الشيعية العربية، لتتقلص الأراضي السعودية وتقتصر على الوسط.

حدّدت الولايات المتحدة هدفين رئيســـين لها في المنطقة، أوّلهما ضمان أمن إسرائيل وســـلامتها وتفوّقها الاســـتراتيجي على جيرانها العرب، وثانيهما السيطرة المباشـــرة على منابع النفط ومصادر الطاقة في المنطقة وخطوط نقلها إلى أوروبا وأميركا.

---

(14) Ralph Peters, «Blood Borders: How a Better Middle East would Look,» *Armed Forces Journal* (June 2006), <http://www.armedforcesjournal.com/2006/06/1833899>.

من المؤكّد أن إضعاف العالـم العربي وتمزيقه وتجزئته ستحقّق هذين الهدفين، وسيبقيه الانقسام والصراع في دائرة التبعية السياسية والاقتصادية بما يسهل السيطرة على ثرواته وموارده. وقامت الولايات المتحدة بغرس بذور الفرقة في العراق للسيطرة على المناطق الغنية بالنفط، أمّا باقي العراق فلا يعني واشنطن في شيء، وقسمت السودان للهيمنة على «جنوب السودان» الغني بمصادر الطاقة، وفصله عن شماله الفقير.

كما تصب خطّة التجزئة في مصلحة إسرائيل؛ فمثلّث الدفاع العربي كان يرتكز على ثلاث ركائز هي مصر وسورية والعراق. والآن، بعد تدمير قدرات العراق والاتّجاه إلى تجزئته وإخراجه من هويته العربية وإنهاء دوره العربي والإقليمي، والتطورات التي تشهدها سورية وما لها من تأثير حتمي في القدرات السورية الشاملة، فإن ميزان القوى الإقليمي يميل أكثر من ذي قبل إلى مصلحة إسرائيل التي سيجعلها تقسيم العالم العربي الدولة الكبرى في المنطقة. كما أن في مثل هذه الانقسامات وشيوع حالة التجزئة في المنطقة إلى دويلات عرقية ودينية صغيرة، ستكون إسرائيل دولة طبيعية يسهل تضمينها في المنطقة التي لن تكون لها آنذاك هوية واضحة.

هكذا تكون سورية منطلقًا مثاليًا لإعادة رسم خريطة الشرق الأوسط بحكم موقعها الجغرافي المتميز، وتحالفاتها الإقليمية مع إيران و«حزب الله»؛ ذلك أنّ سقوط النظام السوري يفتح باب تصفية الحسابات القديمة بين الولايات المتحدة وإيران وكسر شوكة هذه الأخيرة. وأشار لافروف إلى أن «المطالبة بتغيير النظام في سورية حلقة في لعبة جيوسياسية تقصد إيران أيضًا»[15]. وأكّد ألكسندر لوكاشيفيتش، الناطق الرسمي باسم وزارة الخارجية الروسية، أن صورة النظام العالمي ستكون مرهونة بكيفية تسوية الوضع في سورية[16]. وأكّد أمين المجلس الأعلى للأمن القومي الإيراني سعيد جليلي أن ما يجري في

(15) Eduard Pesov and Olga Samofálova, «'Intervention in Syria is a Catastrophe,' says Lavrov,» *Pravda*, 28/8/2012.

(16) انظر: سيرغي لافروف في: وكالة أنباء نوفوستي، 21/ 6/ 2012.

سورية ليس قضية داخلية، وأن إيران لن تســمح بأي شكل من الأشكال بكسر محور المقاومة الذي تكوّن سورية ضلعًا أساسًا فيه[17].

من وجهة النظر الروســية، يعني ســقوط النظام في ســورية فقدان روسيا حليفها القوي والحقيقي الوحيد في العالم العربي، وهذا بدوره يعني أن روسيا ستخسر منطقة الشرق الأوســط برمّتها، وأن المقاومتين الفلســطينية واللبنانية ســتفقدان دعامة أساســية لصمودهما. كمــا أن النفوذ الأميركي فــي المنطقة سيتوسّع بلا حســيب أو رقيب. وسيكون من الصعب جدًّا على إيران أن تستمر في صمودها أمام الضغط الغربي.

كما أن إيران وسورية هما امتداد جغرافي للحدود الجنوبية الروسية، ومن ثمّ فإن سقوط النظام السوري الحالي يعني أن جبهة المواجهة مع الغرب سوف تقترب من الحدود الروســية في منطقة القوقاز، ومن جمهوريات آسيا الوسطى التي تكوّن مجال روســيا الحيوي الطبيعي، بما يمكّــن الولايات المتحدة من إحكام الطوق حول روســيا، ومواصلــة خططها الرامية إلى نشــر الفوضى في محيط روسيا والصين.

2- مصالح روسيا في المنطقة

ترى روســيا أن اســتقرار المنطقة هو حجر الزاوية في حماية مصالحها المتناميــة في المنطقة، وأن ثــورات الربيع العربي لم تجلب ســوى الفوضى وعدم الاســتقرار، ما يهدد مصالحها وشــراكتها الواعدة مع كثير من البلدان العربية، على عكس الولايات المتحدة التي ترى في الفوضى «الخلّاقة» ضمانًا لمصالحها.

في حين أن حجم التعاون العســكري والتقني مع تونس والبحرين واليمن محدود للغاية، وخسائر روسيا من عدم الاســتقرار فيها ضئيلة، فإن الأمر يبدو مختلفًا حيال الــدول العربية الأخــرى؛ فعلى مدى الأعوام العشــرة الماضية

---

(17) انظر: ألكسندر لوكاشيفيتش في: وكالة أنباء نوفوستي، 7/ 8/ 2012.

استطاعت روسـيا إعادة بناء علاقاتها بعدد من الدول العربية التي تراها حليفة تقليديـة لها في المنطقة، وفي المقدمة سـورية وليبيا ومصر. وأصبح لروسـيا مصالح حقيقية في هذه الدول ستتأثّر حتمًا، ولو مرحليًا، بعدم الاستقرار الذي يجتاحها، وقد تتضرّر كلية بتغيير النظم الحاكمة فيها. وترتبط المصالح الروسية بثلاثة قطاعات رئيسـة: الطاقة (النفط والغاز)، والتعاون العسـكري، والتعاون التقني في المجالات الصناعية والتنموية.

يتصدّر التعاون والتنسـيق في مجال الطاقة أولويات السياسة الروسية في المنطقة العربية، وحوله تدور الدبلوماسية الروسية والتقارب الروسي مع الدول العربية، ولا سيما دول الخليج العربي، وتلي ذلك أوجه التعاون الأخرى، أكان في المجال التقني أم في المجال الاقتصادي أو الاستراتيجي العسكري. فقطاع الطاقة هو أحد المجالات الأساسية التي تتلاقى فيها المصالح العربية والروسية، وهو جوهر الشـراكة العربية - الروسية في المستقبل ودعامتها الأساس. وتنظر روسيا إلى دول الخليج، ولا سيما السعودية، بوصفها حليفة لها في سوق الطاقة العالمية لا منافسة لها. وتسـعى روسيا إلى التنسيق والتعاون مع هذه الدول في إطار محورين أساسـيين: **أوّلهما**، الحفاظ على استقرار السوق النفطية وضمان حدٍّ أدنى لأسعار النفط من خلال التحكّم في حجم الإنتاج، خصوصًا أن روسيا تشـارك في اجتماعات «أوبك» بصفة مراقب. وثانيهما، الاستثمارات الروسية في قطاع النفط العربي؛ إذ تُقبل شـركات النفط الروسـية بشدّة على الاستثمار في قطاع النفط فـي الدول العربية من خلال المشـاركة فـي عمليات البحث والتنقيب وتطوير الإنتاج. فروسيا تمتلك التكنولوجيا والخبرة اللازمتين في هذا المجال وفي مجال الصناعات البتروكيميائية، بحيـث إنها تُعدّ من أكبر منتجي البتروكيميائيات في العالم من خلال شـبكة مكونة من 15 شـركة كبرى تنتشر فروعها في أنحاء العالم. وتُعدّ الشركات الروسية، خصوصًا «لوك أويل» و«غاز بروم»، من كبرى الشركات العالمية العاملة في مجال الطاقة. وقامت بالفعل بين روسيا وعدد من الدول العربية جملة من المشاريع العربية التي هي نواة لتطوير التعاون في هذا المجال، وفـي مقدمة هذه الدول السـعودية ومصر والجزائر والسودان وسورية وليبيا.

علــى الصعيد الاقتصادي، تمثــل المنطقة العربية ســوقًا مهمّة ذات قدرة اســتيعابية كبيرة للصادرات الروســية من السلع الاســتراتيجية والمعمّرة، مثل الآلات والمعدّات والأجهزة والشــاحنات والحبوب. ووصلــت قيمة التبادل التجاري بين روســيا والدول العربية في عام 2011 إلــى 10 مليارات دولار. وتأتي مصر والجزائر والمغرب في طليعة شركاء روسيا التجاريين في المنطقة. ويميل الميزان التجاري عادة إلى مصلحة روســيا بفارق كبير جدًّا. هذا علاوة على عشرات المشاريع المشــتركة التي حصل الاتفاق والتعاقد بشأنها، وتقدّر قيمة عقودها بمليارات الدولارات، وهي ستتأثّر حتمًا بإلغائها أو تأجيلها نتيجة موجة عدم الاستقرار التي تجتاح الدول العربية.

تسعى روســيا كذلك إلى تنشــيط صادراتها من الأســلحة إلى المنطقة، لا انطلاقًا من رؤى سياســية أو أيديولوجية، وإنما انطلاقًــا ممّا تمثّله عوائدها من مــوارد مهمّة للدخل القومي. ولا يقتصر ذلك علــى حلفائها التقليديين في المنطقة، ولا سيما سورية والجزائر وليبيا واليمن، بل يتعدى إلى أسواق جديدة في الأردن ودول الخليــج العربي التي كانت تقليديًا ســوقًا للولايات المتحدة والــدول الغربية. وأعلــن أناتولي إيســايكين، رئيس شــركة «روس أوبورون إكســبورت»، أن الشــركة فقدت إيرادات تبلــغ ملياري دولار أميركي بســبب الثورة في ليبيــا، وهي قيمة عقود أبرمت مع طرابلس وتضمّنت أســلحة وقطع غيار للأسلحة السوفياتية الصنع لدى ليبيا، أي بما مثّل 90 في المئة من أسلحة القوات المسلّحة الليبية ومعدّاتها.

تتعاظــم المصالح الروســية في الحالة الســورية، وتتصدّرهــا القاعدة العسكرية الروسية في ميناء طرطوس لخدمة سلاح البحرية الروسية، وخدمة الســفن الروســية التي تؤدّي مهمّات عســكرية في منطقة البحر المتوســط وخليج عدن، وتتيح لهــا التزوّد بما تحتاج إليه من الوقــود والمؤن والمياه، وأعمــال الصيانة. وصــرّح القائد العام للقــوات البحرية الروســية، الفريق البحري فيكتور تشيركوف، أن روســيا لا تعتزم التخلّي عن قاعدتها البحرية العسكرية في ميناء طرطوس السوري، الأمر الذي يوضّح مدى أهمية القاعدة

لروسيا[18]. ويضاف إلى هذا مبيعات الأسلحة إلى سورية، والتبادل التجاري والتعاون الاقتصادي والتقني بين البلدين، وكذلك الرعايا الروس في سورية (نحو 30 ألف شخص من الزوجات الروسيات وأبناء الزيجات المختلطة).

في ضوء التداعيات السلبية المتوقعة لهذه الثورات بإزاء المصالح الروسية، أكّدت موسكو أنّها تريد استقرار الأوضاع في بلدان الشرق الأوسط لأنّ أي قلاقل في المنطقة ستضرّ إضرارًا مباشرًا بمصالح روسيا. وترى أن سورية هي حجر الزاوية في أمن منطقة الشرق الأوسط، وعدم استقرار الوضع فيها سيؤدّي حتمًا إلى زعزعة الوضع في بلدان مجاورة، خصوصًا لبنان. كما أنّها ستؤدّي إلى صعوبات في المنطقة كلّها، وإلى تهديد حقيقي للأمن الإقليمي.

3 - العوامل المتعلّقة بالداخل الروسي

إن خبرة روسيا تجعلها متمسّكة بمبدأ عدم التدخّل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى، وأكثرَ حذرًا من المدّ الثوري داخلها، على الرغم من أن قادتها نفوا هذا التخوّف. فروسيا من الدول التي شهدت موجات عنيفة من عدم الاستقرار، خصوصًا في منطقة القوقاز الروسي طوال التسعينيات، وصولًا إلى الاستفتاء على الدستور الشيشاني الجديد في عام 2003، وتولّي أحمد قادروف مقاليد السلطة في الشيشان. ولمّا كانت موسكو قد استخدمت القوة بصرامة للقضاء على ما سمّته التمرّد الشيشاني، فإنه لا قِبَل لها على انتقاد نظم تستخدم الأسلوب ذاته لقمع المعارضة في الداخل.

كما تشهد روسيا بين حين وآخر احتجاجات تطالب بمزيد من الحريات والديمقراطية. وكان هناك انتقادات من الحزب الحاكم (روسيا الموحدة) للانتخابات المحلية التي أجريت في آذار/ مارس 2010، وأثارت تحفّظات الحزب الشيوعي والحزب الليبرالي الديمقراطي، وحزب روسيا العادلة، وهي

(18) انظر: فيكتور تشيركوف في: وكالة أنباء نوفوستي، 25/ 6/ 2012.

القوى التي اتهمت السلطات المحلية وحزب «روسيا الموحّدة» بتزويرها. كما نُظّم كثير من المسيرات احتجاجًا على الانتخابات الرئاسية لعام 2012، وإعادة ترشيح بوتين لنفسه، وعلى نتائج الانتخابات وفوزه بفترة رئاسية جديدة. ثمّ إن تأييد الثورات في الخارج قد يؤدّي إلى تشجيع مثل هذه الاحتجاجات الداخلية، وتهديد الاستقرار السياسي في روسيا، وربّما النظام القائم برمّته.

على صعيد آخر، وجّه رئيس الحكومة آنذاك بوتين إلى الرئيس ميدفيديف انتقادات داخلية شديدة إليه لعدم استخدامه حق النقض ضدّ صدور قرار مجلس الأمن الدولي رقم 1973 بشأن ليبيا، إذ ندّد بالقرار ورأى أنّه «معيب وخاسر ومدمّر لأنّه يسمح بكلّ شيء، ويذكّر بدعوات من القرون الوسطى إلى شنّ حملات صليبية، ويجيز التدخّل في أراضي دولة ذات سيادة». وأوضح استطلاع للرأي أن 90 في المئة من الروس يوافقون بوتين الرأي. كما دعا البرلمان الروسي («الدوما») مجلس الأمن الدولي إلى وقف إطلاق النار والعنف والهجمات على السكّان المدنيين في ليبيا، ودعا برلمانات فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة وإيطاليا وكندا وغيرها من الدول المشاركة في العملية العسكرية إلى مساندة وقف العمليات القتالية التي تلحق أضرارًا بالبنى التحتية المدنية الليبية، وتؤدّي إلى وقوع ضحايا بين المدنيين، الأمر الذي أحدث تحوّلًا واضحًا في الموقف الروسي الرسمي تجاه ليبيا، ودفع الرئيس ميدفيديف إلى الدعوة إلى تنفيذ قرار مجلس الأمن الدولي، «بنصّه وروحه، وليس وفق التفسيرات العشوائية من بعض الدول»، والنظر إلى عمليات حلف الأطلسي على أنّها «تدخل سافر في شؤون الدولة الليبيّة».

مع عملية تبادل السلطة في روسيا وعودة بوتين إلى الكرملين، من الطبيعي أن يبدي تشدّدًا في الموقف من تدخّل الغرب في سورية، خصوصًا مع تأييد البرلمان الروسي ضرورة حماية سورية، ومنع تكرار السيناريو اللّيبي عندها.

4- الخبرة السلبية للتفاهمات مع واشنطن

تؤكّد الخبرة الروسية السـابقة في تعاملها مع الولايات المتحدة والغرب أن التفاهمـات تطيح عادة مصالحها، ولا تحترم واشـنطن وعودها وتعهّداتها. وتعتقد موسكو أن واشنطن وحلفاءها تجاوزا نص القرار بشأن ليبيا وطبّقوه وفق أهوائهم. وأثّر ذلك في الموقف الروسي من سورية، وأدّى إلى حذر موسكو في الحالة السورية ورفضها تكرار سـيناريو التدخّل الأميركي فيها تحت أي مظلّة. وأوضح لافروف أن نظام حظر الطيران يفترض تدمير الطائرات الحربية التابعة للقذّافي في حالة تحليقها، وكذلك تدمير وسـائل الدفاع الجوي عند محاولتها إعاقة إجراءات الطيران الدولي الذي يضمن حظر الطيران العسكري الليبي من دون تجاوز لهذا. و«أشار إلى أنّ الدعم العسكري الذي تقدّمه دول الناتو للثوار تجاوز، من وجهة نظره، الأطر المحدّدة لنظام حظر الطيران العسكري الليبي»، وأن «الناتو يقصف ليبيا لفترة أطول ممّا قصف يوغسلافيا. فقد قُصفت الأخيرة 78 يومًا، بينما يجري قصف ليبيا منذ أكثر من خمسة أشهر»[19].

كذلك انتقد نائب وزير خارجية روسـيا غروشكو عمليات الناتو في ليبيا، إلّا أن «قمّـة الحلف في لشـبونة كانون الأول/ ديسـمبر 2010 أقرّت العقيدة الاسـتراتيجية للحلف التي تضمّنت وعـودًا باحترام ومراعـاة قواعد القانون الدولي في عملياته. ومع الأسـف خرجت أفعال قـوات التحالف والناتو عن إطار قراري مجلس الأمن الدولـي 1970 و1973 وبذلك فإنها تضع صدقية التزامات لشبونة موضع الشكّ»[20].

ثم إن تجاوز الدول الغربية نصّ القرار بشأن ليبيا وتطبيقه على النحو الذي يخدم مصالحها أثّرا في الموقف الروسي من سـورية، وأدّيا إلى حذر موسكو ورفضها تكرار سـيناريو التدخّل الأميركي تحت مظلّـة الأمم المتحدة، أو أي مظلّة أخرى.

---

(19) انظر: سيرغي لافروف في: وكالة أنباء نوفوستي، 24/ 8/ 2011.

(20) انظر: سيرغي لافروف في: وكالة أنباء نوفوستي، 4/ 8/ 2011.

أيقنت روسيا من الدرس الليبي، وقبله العراقي - الإيراني، أن عائد التفاهم مع الولايات المتحدة وإبرام صفقات خاصّة بالمواقف الروسية داخل الأمم المتحدة أو خارجها لا يتناسبان أبدًا مع حجم الخسائر التي تلحق بها جرّاء التدخّل الأميركي السافر في هذه الملفّات. ويتضمّن ذلك الخسائر الاقتصادية المباشرة نتيجة إلغاء العقود المبرمة، والنيل من صورة روسيا وصدقيتها كحليف أو شريك يُعوَّل عليه. ولذا، فهي عازمة على الثبات على موقفها في الحالة السورية، خصوصًا أنها استعادت مكانتها كقوة كبرى، وتستطيع مقاومة الضغط الأميركي ورفض الانصياع للإرادة الأميركية، بل الوقوف بحزم في وجه المخطّطات الأميركية، كما جرى في أزمة أوسيتيا الجنوبية في عام 2008.

تقف روسيا موقفًا أكثر وضوحًا وصرامة في وجه محاولات تدخّل الولايات المتحدة وفرنسا وحلفائهما في سورية. وهناك إصرارها على أن يقرّر السوريون وحدهم مسار ثورتهم ومستقبل بلادهم. وتدعم هذا التوجّه الأهمية الاستراتيجية لسورية بالنسبة إلى روسيا، وخصوصية العلاقة بين البلدين، مقارنة بأيٍّ من الدول الأخرى التي تربطها بروسيا مصالح، مثل ليبيا والعراق وإيران.

ثالثًا: تداعيات الموقف الروسي من الأزمة السورية

إن المأساة الإنسانية المؤلمة والصراع على السلطة في سورية هما تطوّر مفصلي لا يتوقّف عليه مستقبل العلاقات الروسية - العربية فحسب، وإنّما مستقبل المنطقة كلها أيضًا، وكذلك توازنات القوى فيها، وشكل النظام العالمي الجديد.

1 - مستقبل العلاقات الروسية - العربية

إن مواقف روسيا داخل الأمم المتحدة وخارجها أثّرت، من دون شكٍّ، في صورة روسيا لدى قطاع من الشارع العربي عمومًا، والسوري خصوصًا؛ إذ أدّى استخدام روسيا الفيتو إلى اندلاع تظاهرات في بعض المدن السورية

منذّدةً بالموقف الروسي الداعم للقيادة السورية والمعرقل للعقوبات الدولية، ورافعةً شعارات ضد روسيا جاء فيها «لا تدعموا القتلة... لا تقتلوا السوريين بمواقفكم»، «النظام يذهب ويبقى الشعب». وأحرق المتظاهرون العلم الروسي في مدينة حمص ودرعا في مشهد لم تألفه الساحة العربية، حتى في أثناء الغزو السوفياتي لأفغانستان. وهُوجِم الخبراء الروس مرارًا في سورية، كما قامت المعارضة السورية باعتداءات متعدّدة على السفارة الروسية في لندن كان آخرها قذف المبنى بالحجارة في 17 آب/ أغسطس 2012[21].

من ناحية أخرى، سيُلقي تناقض المواقف بين روسيا وبعض الدول العربية - خصوصًا السعودية وقطر، ومصر مؤخّرًا - بظلاله حتمًا على العلاقات العربية - الروسية، خصوصًا العلاقات بدول الخليج التي بدأت تشهد توتّرات ملحوظة هي أوضح ما تكون في حالة قطر والسعودية.

إلّا أن هناك مجموعة من العوامل تدفع في اتجاه استمرار التعاون العربي - الروسي، أوّلها حرص روسيا على استمرار روابطها بالعالم العربي، وتنمية التعاون المثمر في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية والاستراتيجية. وهناك آفاق رحبة للتعاون الروسي - العربي في مجالات الطاقة النووية وتكنولوجيا الفضاء وتطوير البنية الصناعية العربية، وهو التعاون الذي بدأ فعلًا على نطاق محدود لا يتّفق مع حاجات الدول العربية، ولا مع ما يمكن أن تقدّمه روسيا من دعم تقني في هذا المجال. ولروسيا أيضًا دور متزايد وملحوظ في تنمية البنية الصناعية في كثير من الدول العربية، وتحديث البنية الصناعية التي شُيدت في فترة الاتحاد السوفياتي.

يضاف إلى هذا حاجة الدول العربية إلى الدعم السياسي الروسي في ما يتعلّق بقضايا المنطقة؛ فموقف روسيا منها يتّسم بالاعتدال والتوازن وتأييد الحقّ العربي، وعليه تُعقد آمال الدول العربية في مزيد من العدالة والإنصاف في مواقف المجتمع الدولي تجاه القضايا العربية المختلفة، ولا سيما القضية

---

(21) وكالة إيتار - تاس، 17/ 8/ 2012.

الفلسطينية، فروسيا عضو الرباعية الدولية المعنية بالتسوية السلمية في الشرق الأوسط، وعضو دائم في مجلس الأمن، وهي وسيط نزيه من وجهة النظر العربية يسعى إلى التسوية السلمية مراعيًا مصالح الأطراف كافة، خلافًا للولايات المتحدة التي تدعم إسرائيل دعمًا مطلقًا، وهي الطرف الدولي الوحيد الذي يحتفظ بقنوات مفتوحة مع جميع أطراف القضية، ومنها حركة «حماس» التي تراها الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي منظّمة إرهابية. كما أنّها أكثر ميلًا واستعدادًا للتعاون مع العالم العربي باعتباره كيانًا إقليميًا، وهي بذلك تختلف في موقفها عن دول كبرى أخرى ترفض من حيث المبدأ مفهوم الوطن العربي، وتسعى إلى إذابته في كيان أكبر «شرق أوسطي» أو «متوسطي» غير متجانس ولا محدّد الهوية، وتجد مصالحها في ضرب الوحدة العربية وتفتيت العالم العربي.

إن موسكو أميل إلى ترجمة أهدافها ومصالحها إلى علاقات تعاون تخدم مصالحها ومصالح الأطراف العربية. وبقدر قراءتها السليمة والمبكرة للتغيرات في المنطقة، سيكون نجاح السياسة الروسية في تجاوز التحديات التي تفرضها واستغلال الفرص المتاحة ورصيدها التعاوني، لإعادة صوغ وترتيب علاقاتها بالدول العربية، والحفاظ على وجودها ومصالحها، خصوصًا أنها لا تسعى إلى تحقيق مكاسب سياسية أو ممارسة دور أمني أو عسكري ينافس الوجود الأميركي المكثّف في المنطقة العربية، وإنّما إلى شراكة استراتيجية بالمعنى الاقتصادي والتقني ذات عائد اقتصادي مباشر لروسيا، وعائد تنموي حقيقي لدول المنطقة.

إن روسيا عازمة على الاستمرار في دفع علاقاتها بالعالم العربي قُدُمًا، إذ تراه جارًا مهمًّا ترتبط به بعلاقات صداقة تقليدية واحترام متبادل، وقاعدة راسخة من التواصل الحضاري والتاريخي والتعاون الاستراتيجي على مدى عقود طويلة. وهي قادرة على إعادة ترتيب علاقاتها ومواجهة التحديات التي تفرضها التغيرات المصاحبة للثورات العربية.

2 - مستقبل توازن القوى الإقليمي

ليس هناك تصـور واضح وغالـب لاتّجاه ميـزان القـوى الإقليمي في المسـتقبل القريب؛ فثورات الربيع العربي سـتؤدّي إلى بروز متغيرات إقليمية جديدة تمامًا. ومع نهاية مرحلة التحوّل سـوف يعاد تعريف الحلفاء والخصوم والمنافسين، ويعاد رسـم خريطة القوى والتحالفات في المنطقة بأكملها، نظرًا إلى التغير السـريع والجذري الذي تمرّ به. ولا شـكّ فـي أن تطورات الأزمة السـورية سـوف تلقي بظلال واضحة في هذا الإطار، خصوصًا إذا سقط نظام الأسد ووصلت المعارضة المسـلحة الموالية لتركيا والخليج إلى السلطة. ففي هذه الحالة، ستخسـر إيران وحليفها الأسـاس «حزب الله»، وسيتراجع محور المقاومة، وقد يكون هذا مقدمة لضرب إيران، لتصبح إسرائيل الرابح الأكبر من ذلك كلّه.

يظلّ الأمر معقّدًا، وقد ينتهي بأنْ يخسـر الجميع، فما يحدث في البحرين والمسـيرات الاحتجاجية المتواصلة في المنطقة الشـرقية في السعودية يثيران كثيرًا من التسـاؤلات عن امتداد الربيع العربي إلى منطقة الخليج. وتتباين آراء المحلّلين والساسة، فهناك من يرى أن ثورات الربيع العربي، وإنْ ألقت بظلالها على منطقة الخليـج، لن تحدث في دولـه تغييرات جذرية وعميقة لأسـباب عدة، لعلّ أهمّهـا الموقف الأميركي؛ فالولايات المتحـدة لن تدعم التغيير في الخليج كما فعلت في الـدول العربية الأخرى. كما أن اسـتقرار الخليج يبدو مصلحة أميركية مباشرة، حيث أكبر قاعدة عسـكرية أميركية في قطر، ويتمركز الأسطول الخامس الأميركي في البحرين، إلى جانب القوات الأميركية الضخمة في الكويـت وغيرها من دول الخليج. يضاف أن مثل هـذه التغييرات قد يُخلّ بميزان القوى في المنطقة لمصلحة إيران، خصوصًا لأن قادة الاحتجاجات في السعودية والبحرين والقوة الدافعة لها هم من الشيعة في البلدين. في حين يرى بعض آخر أن الأمور أكثر تعقيدًا ممّا تبدو، وإذا كان عام 2011 هو عام سقوط الجمهوريات في العالم العربي، فإن عام 2013 أو ما يليه قد يكون عام سقوط

الملَكيــات العربية، وإن دعم دول الخليج للثورة الســورية ومــن قبلها الليبية ولقوى سياســية بعينها في مصر يعطي شــرعية لمطالب التغيير ويشجّع الثورة داخلها، وإن وهم الدعم الأميركي غير صحيح حيث تؤكّد الخبرة الســابقة أن الولايات المتحدة ليس لها أصدقاء أو حلفــاء، وإنّما لها خدم قد تتخلّى عنهم وتبيعهم في أي لحظة، وأن من يوقِد نارًا في الجوار يجب ألّا يأمن شرّها، وأن الثورة آتية لا محالة في باقي الدول العربية.

على الرغم من اختــلاف الآراء، من المؤكّد أن هناك تغييــرًا جوهريًا في ميزان القوى الإقليمي ستشــهده المنطقة خلال الأعوام القليلة المقبلة، وإنْ لم تكنْ ملامح هذا التغيير واضحة المعالم، ويكتنفها الغموض والضبابية.

3 - هيكل النظام الدولي الجديد

إن التطــورات المصاحِبة لثــورات الربيع العربي في ســورية، والموقف الروســي منها، هما أحد أبعاد المخاض الصعب لنظام عالمي جديد. إذ شهد العقــد الثاني من القــرن الحادي والعشــرين بدءَ حقبة جديــدة في العلاقات الدولية تتضمّن تحوّلًا تدريجيًا إلى نظامٍ دولي متعدّد القوى، وله صبغة آسيوية واضحة. وأصبح هذا التغير حقيقة جليةً. فالنجم الأميركي أخذ أفوله يتســارع منذ منتصف العقــد الماضي، إذ تتراجع الهيمنة الأميركيــة، وتتصاعد قدرات دول أخرى مثل روسيا والصين وغيرهما من القوى الآسيوية المهمّة والفاعلة إقليميًا. وترغب هذه الأخيرة في أن يكون لهــا دور مؤثّر في إطار نظام دولي أكثر توازنًا وربّما يكــون أكثر عدالة. والأمر دفع كثيــرًا من المتخصصين إلى الاعتقاد بأن مثلما القرن التاســع عشر هو القرن الأوروبّي والقرن العشرين هو القرن الأميركي، فإن القرن الحادي والعشرين هو القرن الآسيوي. صحيح أن هذه القوى الصاعدة لا تستطيع حتى الآن فرض أجندة عالمية، لكنّها استطاعت تحجيم الولايات المتحدة وإعاقة حركتها فــي مواقف عدّة، من أبرزها الأزمة السورية.

لا شكّ في أن ثبات روسيا على موقفها خلال الأزمة السورية، كما حدث خلال أزمة أوسيتيا الجنوبية في عام 2008، له دلالاته في هذا الخصوص، لأن الوصول إلى تسوية للأزمة السورية سيتضمّن في هذه الحالة تنازلًا ولو محدودًا من واشنطن؛ فروسيا تُفضّل الانتقال السلس للسلطة، أو ما يُطلق عليه النموذج اليمني الذى يتضمّن رحيل الأسد، مع الحفاظ على النظام القائم بانتقال سلمي للسلطة إلى أحد رموز نظام الأسد أو إلى أحد رموز المعارضة المعتدلة. وترى في هذا السيناريو إنقاذًا للدولة والشعب السوريّين، والمنطقة بأسرها، وحماية للمصالح الروسية في سورية بالحد الأدنى.

ترفض موسكو تمامًا انتقال السلطة إلى أي فصيل من المعارضة المسلّحة، وكذلك التدخّل العسكري الخارجي والتحوّل إلى مواجهة عسكرية إقليمية، وربّما مواجهة دولية شاملة. وأشار رئيس الوزراء الروسي ميدفيديف إلى ذلك بقوله: «في لحظة ما، يمكن أن تتمخّض الخطوات الرامية إلى تقويض سيادة الدولة السورية عن اندلاع حرب إقليمية واستخدام السلاح النووي، وأنا لا أريد تخويف أي أحد»[22]. فالسيناريو الليبي لن يكون لمصلحة روسيا، لأنّه لا يمكن تصوّر أن المعارضة المسلّحة التي ناصبتها روسيا العداء تعمل على استمرار التقارب والتعاون معها. كما أن التدخّل الأميركي في سورية سوف يقضي على أي نفوذ روسي فيها، وقد يكون مقدّمة لصوملة سورية، الأمر الذي يطيح كلّ شيء، ويخرِج سورية كما أخرج العراق، من المعادلة الإقليمية، بعد أنْ كانت فاعلًا رئيسًا مهمًّا فيها.

إن تداعيات ما يحدث في سورية تتجاوز حدودها وحدود الإقليم لتشمل العالم بأسره، وستظل علامة بارزة ونقطة تحوّل في النظام الدولي، ومؤشّرًا إلى مكانة روسيا في هذا النظام والتحوّلات المأمول بها باتجاه نظام تعدّدي يتيح فرصًا جديدةً وآفاقًا واعدة للدول المتوسّطة والصغرى، ومنها الدول العربية.

---

(22) انظر: ديمتري ميدفيديف في: وكالة أنباء نوفوستي، 17/ 5/ 2012.

تعقيب

مروان قبلان

مقدّمة

تشهد المنطقة العربية أحد أهم الصراعات في فترة ما بعد الحرب الباردة، وتشكّل سورية محور هذا الصراع وساحته. يأخذ هذا الصراع أبعادًا ومستويات مختلفة، فهو صراع روسي - صيني من جهة، وغربي من جهة أخرى، وهو صراع إقليمي على النفوذ يأخذ طابعًا مذهبيًا. تلامس دراسة نورهان الشيخ «روسيا والتغيرات الجيوستراتيجية في الوطن العربي» بعض جوانب هذا الصراع، وتحديدًا موقف الطرف الروسي، فيما تغفل جوانب أخرى مهمة. ومن الواضح أن نقطة الانطلاق تشكل إشكالية أساسية فيها؛ فهي لا تزال ترى الموقف الروسي في سياقات الحرب الباردة، وتاليًا تعتبره موقفًا أكثر توازنًا، ويخدم في نهاية المطاف القضايا العربية. والحقيقة أن الموقف الروسي من مجمل قضايا المنطقة، ومن بينها المسألة السورية، لا يسعى إلا إلى حماية المصالح الروسية التي يشوبها كثير من الغموض واللغط.

أولًا: إشكالية العلاقة الروسية - السورية

أنهى الرئيس السوري السابق حافظ الأسد في أواخر عهده الطويل نفوذ قادة كبار في النظام (مثل قائد الجيش حكمت الشهابي، ورئيس شعبة المخابرات العسكرية علي دوبا... وغيرهما)، وتواصلت تلك العملية خلال

سني حكم بشار الأسـد الأولى، وأقصي نتيجتها، نائب رئيس الجمهورية عبد الحليم خدام ووزير الداخلية غازي كنعان[23].

أثارت تلك السياسة قلق روسيا على نفوذها في سورية، لأنها كانت تعتبر المسـؤولين المبعدين أصدقاء لها، كما أغاظها سـلوك حاكم دمشق الجديد، خصوصًا أنه امتنع عن زيارة موسـكو حتى السـنة الخامسـة من وصوله إلى سـدة الحكم، واسـتعاض عن ذلك بزيارة إلى كل من باريس ولندن. وأشـار المسـؤولون الروس إلى تلك الحقيقـة منذ انطلاق الثورة السـورية، مؤكدين أن بلادهم لا تملـك أي علاقات خاصّة بنظام الأسـد، وأن علاقات روسـيا الاقتصادية والتجارية بسـورية لا تقارن بحجم علاقاتها بأوروبا[24]. فما الذي يدفع روسيا إلى التمسك بنظام بشار الأسد؟

ثانيًا: حقيقة المصالح الروسية في الأزمة السورية

عندما بدأت الأزمة السورية كانت موسكو منشغلة بقضايا داخلية وأخرى خارجية لم تكن سـورية من ضمنها. داخليًا، كانت الاستعدادات تجري لإعادة فلاديمير بوتيـن إلى الكرمليـن. وأدى الدعـم الأميركي المـادي والمعنوي للمعارضة الروسية - التي تعاظم نفوذها، واتهامها بوتين بالإشراف على تزوير الانتخابات البرلمانية في تشـرين الثاني/ نوفمبر 2011، ثم انتقلت لتسـتهدف عودته إلى الرئاسة - إلى اعتقاد روسي بأن واشنطن تسعى إلى نقل رياح التغيير العربي إلى موسكو[25]. من جهة ثانية، أثار الاستغلال الأميركي لقراري مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة (1970 و1973) بشـأن ليبيا، وتحوير الهدف من

---

(23) يتناول تقرير لموقع «سـيريا بوليتيـك» <http://syria-politic.com> هذه القضية الحساسـة، ويشير إلى أن مسـؤولين أمنيين كبارًا تدربوا في الاتحاد السوفياتي السابق تم إقصاؤهم عن مواقعهم في عهد بشار الأسد لمصلحة مسؤولين آخرين.

(24) خلال المراحل المبكرة للثورة السـورية، أعلن فلاديمير بوتين، وكان حينها رئيسًـا لوزراء روسيا، من باريس، أن حجم المصالح الاقتصادية الروسية في سورية لا يقارَن بحجم مصالحها مع فرنسا وبريطانيا، مشيرًا إلى أن بشار الأسد اختار زيارة لندن وباريس كأول عواصم خارجية يزورها. وكرر بعده المسؤولون الروس هذه المقولة، وأشار إليها مؤخرًا وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف.

(25) جورج سمعان، «موسكو في حساباتها السورية... والروسية،» الحياة، 30/ 1/ 2012.

حماية المدنيين إلى إطاحة معمر القذافي، استياءً شديدًا في موسكو التي شعرت بالغبن بعد أن خسرت عقود تسليح مع نظام القذافي بمليارات الدولارات[26].
لا شك في أن هذين العاملين الآنيين شكّلا محددات رئيسة للموقف الروسي من الأزمة السورية، لكن استمرار موسكو على موقفها بعد نحو عامين على انطلاق الثورة السورية، يؤكد وجود عوامل جيوستراتيجية أكثر ديمومة وأهمية.

ثالثًا: العامل التركي والخوف من تيارات الإسلام السياسي

شكّل ارتياب موسكو من دعم أميركا لتيارات الإسلام السياسي في العالم العربي، وعدم ممانعة وصولها إلى السلطة، أحد المحددات المهمة للموقف الروسي من الأزمة السورية؛ إذ لم تخف موسكو قلقها من تصاعد هذا المد في أقاليمها الإسلامية، وهي التي لم تنس بعدُ تجاربها في أفغانستان والشيشان. فضلًا عن ذلك، تتوجس روسيا من تنامي النفوذ التركي في العالم العربي بفعل النجاح الاقتصادي والسياسي الذي حققه النموذج الإسلامي لحزب العدالة والتنمية. وباعتبار أن تركيا وارثة الدولة العثمانية وخصم روسيا التاريخي، مع ملاحظة ما لها من نفوذ وامتدادات في جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية، فلا بد أن يؤثر ذلك في الحسابات الروسية. وساهم النظام السوري في تغذية مخاوف روسيا من تعاظم النفوذ التركي من جهة، وارتباطه بتيارات دينية من جهة أخرى، عبر تصوير الاحتجاجات على أنها حركة إسلامية سنّية تسعى إلى إطاحته وإحلال نظام قريب من أنقرة في سورية. لذلك قررت موسكو أن تلعب لعبة الإسلام الشيعي الذي تقوده إيران في مواجهة الإسلام السنّي الذي تمثّله تركيا، انطلاقًا من أن سقوط الأول الذي تمثّل سورية أهم أركانه، يعني تحولًا استراتيجيًا لغير مصلحتها في منطقة الشرق الأوسط. إن وصول نظام سنّي إلى الحكم في سورية يشكّل مبعث قلق رئيس لروسيا، كما جاء على لسان وزير خارجيتها سيرغي لافروف، لأن ذلك يضعف المواقع الإيرانية ويهدد بعزلها من جهة، ويؤدي من جهة أخرى إلى تقوية خصومها في أنقرة والرياض، وإلى

(26) رائد جبر، «منتدى فالداي: روسيا تحاول تعويض خسائرها بالدعوة إلى الاتعاظ من تجربة ليبيا،» الحياة، 2/ 3/ 2012.

ازدياد النفوذ التركي في المنطقة، وما يستتبع ذلك من تداعيات على توازن القوى في البلقان والقوقاز وآسيا الوسطى، وهي مناطق تحظى باهتمام روسيا الكبير. من الملاحَظ أيضًا، أن روسيا تميل تاريخيًا إلى دعم حكم الأقليات لاعتقادها أن هذه الأقليات لا تستمد قوتها من الداخل، بل من الخارج، وهي لذلك، تبقى معتمدة في دعمها على روسيا، بعكس حكم الأغلبية.

رابعًا: العامل الإيراني

شكّلت إيران خلال العقد الماضي مشكلة حقيقية بالنسبة إلى روسيا، فهي من جهة تخشى تزايد نفوذها الإقليمي على حساب الدور الروسي، ومن منافستها لها في قطاعي النفط والغاز، ومن إمكان حصولها على السلاح النووي، بما يعنيه ذلك من تضخّم غير مقبول للنفوذ الإيراني. وفي المقابل، ترى روسيا في إيران خطًا دفاعيًا أساسًا لها، لناحية جنوح الغرب إلى مد نفوذه إلى التخوم الجنوبية لروسيا. وسعت روسيا دومًا، ومن قبلها الاتحاد السوفياتي، إلى منع تغلغل النفوذ الغربي في إيران، فنراها تجتاح إيران خلال الحرب العالمية الثانية لمنع بريطانيا من السيطرة بشكل كامل عليها، كما حاولت إطاحة الشاه من خلال دعم حزب تودة الشيوعي.

تعتبر روسيا أن وجود إيران قوية في مواجهة واشنطن يُعَدّ أمرًا حيويًا لأمنها القومي، لذلك ترى أن ما يجري في سورية يستهدف إيران بالدرجة الأولى، وهذا ما عبّر عنه علنًا الرئيس الروسي في مقابلة له في تشرين الأول/ أكتوبر 2012.

خامسًا: مشاريع الطاقة

يعدّ سعي موسكو إلى التمسك بمكانتها كعملاق في حقل الطاقة من المصالح الروسية البارزة في الأزمة السورية؛ فهي تسعى إلى منع المنافسين الكبار من مزاحمتها اقتصاديًا واستراتيجيًا، وتعتقد أنه مع تناقص عدد سكانها، واضمحلال دورها، وانتقالها من قوة عالمية إلى قوة إقليمية، فإن قطاع الطاقة

قد يحقق لها مكانة لم تتمكن من تحقيقها عبر القوة العسكرية والمنافسة مع الغرب. لذلك تجد أن علاقاتها بالمنافسين الكبار في حقل الطاقة، ومنهم إيران، تتراوح بين الفتور والتوتر.

يمثل التنافس الدولي والإقليمي على خطوط نقل الغاز والنفط من الدول المطلة على الخليج العربي أحد المحددات المهمة للموقف الروسي من الأزمة السورية؛ فروسيا تخشى أن يؤدي سقوط النظام السوري إلى زعزعة مكانتها المهيمنة على سوق الغاز الأوروبية كنتيجة لاحتمال مد الغاز القطري عبر السعودية وسورية وتركيا إلى أوروبا، وهذا من شأنه أن يحرم الكرملين ورقة رابحة استراتيجيًا واقتصاديًا.

سادسًا: العوامل الداخلية: الموقف الروسي من مفهوم الثورة (نظرية النخبة في مقابل الرعاع)

لدى النخبة الحاكمة الروسية حساسية مفرطة تجاه مفهوم الثورة عمومًا؛ فمن منطلق تفكير نخبوي بحت، تعتقد هذه النخبة أن الشعوب والعامة غير قادرة على تحديد مصالحها، والثورة من وجهة النظر هذه، هي فعل جماهيري غوغائي يستجلب الفوضى ويؤدي إلى حالة من عدم الاستقرار. ولما كانت النخب الحاكمة الروسية شبيهة من حيث تكوينها وصفاتها - مافيوية فاسدة ومستبدة - بالنظم العربية المستبدة، وتحاول الإيحاء بأنها تتخذ مواقف صلبة في مواجهة الخارج المتآمر والطامع، فإنها تخشى فعلًا أن تنتقل عدوى الثورات إليها.

من جهة أخرى، يرى القادة الروس أن اتخاذ مواقف مناكفة وقوية تجاه الغرب، تحقق لهم شعبية في الداخل الروسي. ومن اللافت أن كثيرًا من الخبراء يذهبون إلى أن الروسي مستعد للصبر على المرض والبرد والجوع، في سبيل أن يرى بلاده في مكانة قوية على الساحة الدولية. وهذا ما يفسر إعجاب كثير من الروس بشخصية جوزف ستالين والمكانة التي حققها لبلاده على الساحة الدولية، على الرغم من الأثمان البشرية الباهظة.

يمكن القول إن تلك العوامل تشكّل محدّدات مهمة للتحرك الروسي تجاه سورية. ويمكن أن نضيف إليها امتعاض موسكو الشديد من محاولات الغرب في فترة ما بعد الحرب الباردة لإطاحة قوانين الأمم المتحدة، عبر شنّ الحروب تحت ذرائع التدخل الإنساني. قد يبدو هذا الأمر شكليًا للبعض، لكن وضع القواعد التي ستحدد سلوكيات الدول لعقود مقبلة، يمثل أحد أبرز مطالب القوى الكبرى في النظام الدولي، وهو في صلب التفكير الروسي الذي يسعى إلى فرض روسيا شريكًا على الغرب في النظام الدولي الذي يتأسس حاليًا. وتاليًا، ليس أقل من أن تستغل روسيا الأزمة في سورية لإعادة التوازن إلى قواعد القانون الدولي وفق ما تعتقده هي على أقل تقدير.

من جهة أخرى، أسفرت الأزمة الاقتصادية العالمية عن تغيّر ملحوظ في موازين القوى الدولية، لكن الموازين الجديدة بحاجة إلى اختبارات قوة تظهرها وتدل عليها. وجاءت الأزمة في سورية لتشكّل أحد تلك الاختبارات، التي تعول عليها موسكو (وبيجين أيضًا)، لتثبيت التبدل في موازين القوى من ناحية، وللردّ على ما جرى في ليبيا من ناحية ثانية.

من أجل هذه الأسباب ذات الطابع الجيوستراتيجي كلها أمّنت موسكو شبكة حماية دولية للنظام السوري، لكنها لا تربط سياساتها بمصير أشخاصه، ومن ثم، فهي لن تجد غضاضة في الاستغناء عنهم شرط بقاء توجهات النظام الخارجية على حالها، وهذا ما يفسر تركيز موسكو الكبير في الآونة الأخيرة على وضع المؤسسة العسكرية السورية ومستقبلها، التي تعتبرها بحكم تدريبها وتسليحها الضامن الأساس للنفوذ الروسي في سورية[27].

(27) انظر: سمعان، «موسكو في حساباتها السورية». كان لافتًا التصريح الذي أدلى به نائب وزير الخارجية الروسي سيرغي ريابكوف عقب قمة الثماني الكبار (G8) التي عُقدت في كامب ديفيد في 20-21 أيار/ مايو 2012، إذ صرَّح بأن «تغيير السلطة في دمشق بشكل جذري سيكون مقبولًا بالنسبة إلينا إذا لم يرافقه سفك الدماء والتدخل الأجنبي وتسليح أحد الأطراف والتحريض على استخدام القوة وغير ذلك، وأي بديل سيكون مرضيًا لنا بغضّ النظر عن النتائج». انظر: «الخارجية الروسية: بنود البيان الختامي لقمة الثماني حول سوريا مقبولة تماما لدى موسكو،» موقع سيريا نيوز: <http://www.syria-
= news.com/readnews.php?sy_seq=148346>.

خلصت روسيا إلى أن سـقوط النظام في دمشق - لا رموز النظام - يعني إضعافًا لإيران التي غدت تشكّل جزءًا أساسيًا من استراتيجية موسكو لمواجهة المشـروع الأميركي والدور التركـي الصاعـد[28]. وبانتظار نضـج الموقف الأميركي لإبرام صفقة اسـتراتيجية مع موسـكو في عموم الصـراع الدائر في الشرق الأوسط، فإن روسيا ستبقى على الأرجح متمسكة بموقفها[29].

سابعًا: بعض الملاحظات على ورقة نورهان الشيخ

لعـلّ أهم المآخذ على دراسـة نورهان الشـيخ، أنها ما زالـت تنظر إلى العلاقات الأميركية - الروسية والمصالح الروسية في المنطقة العربية من منظور الحرب الباردة، على الرغم من التغيرات الاستراتيجية الكبيرة التي طرأت على المشهدين الإقليمي والدولي خلال العقدين الماضيين.

= هنـاك من يميل إلى ربـط التغير في الموقف الروسـي بالتصريحات التي أدلى بها رئيس شـعبة الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية اللواء أفيف كوخافي في واشنطن، ونقلتها صحيفة هآرتس أنه «بينما كان يعتقد في السابق أن بقاء النظام السوري يخدم مصالح إسرائيل، فإنه بات يعتقد اليوم أن سقوط النظام سـيخدم على نحو أفضل مصالح إسرائيل». انظر: أسعد تلحمي، «الاسـتخبارات العسكرية الإسرائيلية تعتقد أن سقوط الأسد يخدم مصالح إسـرائيل،» الحياة، 17/ 5/ 2012. لكن الأهم في هذا الصدد هو ما صرح به وزير الحرب الإسـرائيلي إيهود باراك لشبكة سـي إن إن (CNN)، خلال زيارته الأخيرة إلى واشـنطن، عندما قال: «أعتقد أنه لا بد من إيجاد طريقة... لتغيير النظام في سورية، ومن الأفضل اعتماد الطريقة اليمنية، أي ترك الأسد وفريقه يغادرون البلاد... من دون تفكيك الحزب والاستخبارات والقوات المسلحة». انظر: «باراك: الرئيس السـوري «انتهى أمره»،» الحياة، 18/ 5/ 2012، وأمال شحادة، «داني أيالون لا يسـتبعد ضربة عسـكرية أميركية ضد إيران وباراك يفضل النموذج اليمني في سوريا،» الحياة، 17/ 5/ 2012.

(28) George Freidman, «Russia's Strategy,» Stratfor, 24 April 2012.

(29) هناك ميل شـديد في وسـائل الإعلام إلى تفسـير الموقف الروسـي من الأزمة السـورية بأنه بسـبب وجود عقود سـلاح بين الطرفين أو اهتمام الـروس بالقاعدة البحرية فـي طرطوس. لكن هذه الأسـباب ضعيفة جدًا في فهم الموقف الروسي المتشـدد في دعم النظام؛ فعقود السلاح الروسية مع سـورية لا تكاد قيمتها تُذكر، أمّا قاعدة طرطوس فهي صغيرة جدًا، ولا تسـتطيع اسـتيعاب السفن الروسـية الكبيرة. وفقدت أهميتها بالنسـبة إلى الروس بعد أن وافقت أوكرانيا على تجديد العقد الذي يسمح لأسطول البحر الأسود الروسي باسـتخدام القاعدة البحرية في سيفاستوبول الذي كان من المقرر أن تنتهي مدته في عام 2017. للوقوف على هذا التفسـير، انظر مثلًا: بهاء أبـو كروم، «أين يقف ميزان المصالح الروسية عربيًا،» الحياة، 14/ 3/ 2012.

أميركا مثلًا هي في العموم دولة «ستاتيكو»، لذلك فإن اتهامها بالعمل على تمزيق المنطقة كما جاء في الدراسة، قد لا يعكس حقيقة الموقف الأميركي؛ إذ تدرك أميركا أن ضعف السلطات المركزية العربية يؤدي عادة إلى نشوء تنظيمات دينية متطرفة («حزب الله»)، تشكّل خطرًا عليها وعلى إسرائيل. كما أن دخول المنطقة في حالة نزاعات وحروب وتقسيمات جديدة يعني فوضى تؤدي إلى رفع أسعار النفط، وربما توقف إمداداته، وهذا آخر ما تريده واشنطن.

فضلًا عن ذلك، هذا يتناقض مع تأكيد الباحثة حرص أميركا على الاستقرار في منطقة الخليج وعدم تعريضها لهزات عنيفة. تقول الباحثة: «إن فقدان سورية يعني فقدان روسيا حليفها القوي والحقيقي الوحيد في العالم العربي. وهذا بدوره يعني أن روسيا ستخسر منطقة الشرق الأوسط برمّتها، وأن المقاومتين الفلسطينية واللبنانية ستفقدان دعامة أساسية لصمودهما، وأن النفوذ الأميركي في المنطقة سينتشر بلا حسيب أو رقيب من وجهة النظر الروسية. وسيكون من الصعب جدًا على إيران أن تستمر في صمودها أمام الضغط الغربي». هذا غير صحيح؛ فسورية ليست حليف روسيا الحقيقي، بدليل أن روسيا قامت ببيع بشار الأسد مباشرة عقب تفجير مبنى مجلس الأمن القومي في دمشق، من خلال تصريحات سفيرها في باريس الذي أشار إلى أن الأسد مستعد للرحيل.

إن ما يعني روسيا في سورية هو المؤسسة العسكرية والأمنية، وتحديدًا جهاز الاستخبارات العسكرية، وليس بشار الأسد. وهي تشاطر أميركا الهمَّ نفسه، فأميركا لا تريد انهيار الدولة السورية وتكرار التجربة العراقية، وهذا يتعارض مع زعم أنها تريد إضعاف النظام وتقسيم سورية والمنطقة.

لا تنظر الدراسة إلى التغير الذي حصل في السياسة الأميركية في عهد باراك أوباما، وهي تستمر في الحديث عن الفوضى الخلاقة، وكأن كوندوليزا رايس ما زالت وزيرة خارجية أميركا (2005-2006). والحقيقة أن واشنطن تخلت عن هذه السياسة منذ عام 2007، بسبب ما حصل في العراق وأفغانستان.

إن سورية لا تشكّل زبونًا رئيسًا للسلاح الروسي، فهناك مبالغات كبيرة في هذا الشــأن. كما أن القاعدة البحرية الروسية في طرطوس لا تُعتبر استراتيجية، فهي قاعدة صغيرة جدًا، وغير قادرة على اســتيعاب الســفن الروســية الحربية الكبيرة. كما أن خدمات التموين التي تقدمها القاعدة تحصل عليها روســيا في مالطا وفرنسا والجزائر.

تبحث روســيا عن صفقة مع الولايات المتحدة، بحيث تســتطيع ضمان مصالحها الأوسع في مناطق أخرى من العالم، في مقابل تخليها عن دعم النظام السوري. ومن ذلك، موضوع الدرع الصاروخية، والعلاقة بين روسيا وألمانيا، والدخول في منظمة التجارة العالمية، وتنظيم الانسحاب من أفغانستان.

صرّحت روســيا أكثر من مرة بأنها لن تفعل شــيئًا إذا قام حلف شــمال الأطلسي («الناتو») بتدخّل عسكري في سورية خارج إطار مجلس الأمن.

الفصل السادس

الأهداف والمصالح التركية في النظام العربي

سمير صالحة

أولًا: تركيا: التجربة والمصالح الإقليمية

يصر كثير من الباحثين والدارسين الذين يتابعون التجربة التركية على تقديمها نموذجًا يستحق الاستفادة منه، أو حتى اعتماده في دول المنطقة التي تطالب بالتغيير والإصلاح وحقّها في استلام دفّة الحكم. يتفاعل موضوع النموذج التركي في ضوء تجربة حزب العدالة ووصوله إلى موقع القيادة السياسية في تركيا في عام 2002.

إن التركيز في هذه الدراسة على التجربة التركية وتأثيراتها وعلاقاتها بدول المنطقة بعد الربيع العربي التي سيجري بحثها تحت عنوان «الأهداف والمصالح التركية في النظام العربي»، سيبدأ بالتعريف، ولو على نحو موجز، بالمشهد التركي وطريقة قراءته عربيًا: كيف تطرحه قيادات العدالة والتنمية وتناقشه؟ كيف يرى حزب العدالة والتنمية نفسه ويقدّم تجربته للآخرين؟ ما هي العلاقة بين العدالة والتنمية وكثير من الحركات الإسلامية الفاعلة في العالم العربي، وما هو حجم التداخل والتأثير والتفاعل؟ أين تقف التجربة التركية

اليوم بعد مرور أكثر من عامٍ على انطلاقة الربيع العربي والحالة التركية ودورها في نقاط التجاذب والالتقاءِ مع ما يجري عربيًا وفي أي اتّجاه يتقدّم الحوار بين الجانبين؟ هل من يروّج لها على أنّها نموذج للتقليد والتبنّي؟ هل يُجمع إسلاميو تركيا على الوقوف وراء ما يقوله أردوغان عن العلاقة بين الدِّين والدولة، وبين الإسلام والعلمانية مثلًا؟ أين ستتعارض المصالح التركية والعربية في المستقبل وأين ستلتقي؟

1 – ملخّص لصورة الوضع القائم في تركيا اليوم ودروس التجربة التركية

تتجسد المواجهة في تركيا في تجاذب بين ضربين أساسيين من القوى: القوى العلمانية القومية التقليدية التي تشمل الجيش والقضاء والجامعات البيروقراطية، وقوى سياسية فكرية ودينية ديمقراطية ليبرالية تريد التغيير وتسلّم القيادة، مع وجود جماعات كرديةٍ تبحث لنفسها عن مكان ودور. وحُسمت هذه المواجهة في عام 2002 لمصلحة الطرف الثاني، مع تسلم العدالة والتنمية السلطة.

دفعت باتجاه التغيير في تركيا ثلاثة عوامل أساسية:

– القيادات التقليدية التي تفقد قواها وتتراجع لمصلحة المُحدَثين؛

– أكثر من ضغط داخلي وخارجي يطارد وعود التغيير والانفتاح، يقودها الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة الأميركية؛

– المعادلات الإنمائية السياسية الاقتصادية الاجتماعية التي لا تتوقّف لحظة في تركيا.

التعديلات الدستورية مسألة مهمّة في تركيا، لكن أردوغان قال مؤخّرًا إنّ الجمود في ما يتعلق بهذه المسألة بدأ يقلقه؛ فهناك إجماع على أن التعديلات الدستورية تحوّلت إلى قصّة «إبريق الزيت»، إذ يطالب الكلّ بدستور جديد على مقاسه.

من هنا تحرّكت الحكومة لمراجعة أولوياتها التالية:

- قانون جديد للبلديات وإعادة تنظيم عملها؛

- زيادة عدد خطوط ومحطّات الميترو في المدن الكبرى؛

- الخدمات الاجتماعية والصحية ونظام التقاعد المحدث؛

- المزيد من التجمّعات السكنية، والنجاح في مشروع إزالة أحزمة البؤس والفقر الجاثمة فوق صدر كثير من المدن.

إن إعادة الاعتبار إلى تاريخ تركيا العثماني لا يعني إعادة إنتاجه، وهو أمر مستحيل حتى لو هناك حالم يتمنّى ذلك. تريد تركيا أن تستخدم قوّتها الناعمة لتكون مركز جذب وقوة تأثير إيجابية في محيطها العربي والإسلامي، فتكون مركز جذب للاستثمارات والسياحة والعقود التجارية الكبرى وتبادل الخبرات وتوسيع التجارة والصناعة والمجالات المتعدّدة. أمّا ما تبقّى فهو مسائل من الممكن إرجاء مناقشتها.

خرج العدالة والتنمية بتركيا من عنق الزجاجة؛ إذ كانت البلاد في عام 2000 تمرّ بأزمة اقتصادية طاحنة ثم أصبحت تحتل المرتبة الـ14 في الاقتصاد العالمي، وهي الثالثة بعد الصين والبرازيل من حيث معدّلات النموّ.

استقبلت تركيا في العام الماضي 27 مليون سائح. وبلغت عوائد هذا القطاع 22 مليار دولار أميركي، وهي صاحبة أضخم ثروة زراعية في أوروبا والشرق الأوسط، وتحتل المرتبة 21 عالميًا بين الدول الصناعية.

يضع التقدّم الاقتصادي المطّرد مشكلات عديدة، مثل التفاوت الاجتماعي والنموّ غير المتوازن بين المناطق التركية، على سكة الحلّ؛ فأردوغان الذي قطع الطريق على نسبة بطالة وصلت إلى 1313.5 في المئة، استطاع أن يرفع نسبة تعاملات تركيا التجارية مع العالم العربي من 3.5 مليار دولار إلى 37 مليار دولار، وأنْ يحافظ على نسبة نموّ اقتصادي بمعدّل 6 في المئة على الرغم من الأزمة المالية العالمية.

تمثّلت أهم مؤشّرات تقدّم الاقتصاد التركي في عهد العدالة والتنمية في:

- قفز الناتج القومي الإجمالي بين عامي 2002 و 2008 من 300 مليار دولار إلى 750 مليار دولار، أي بمعدل نمو بلغ 6.8 في المئة.

- قفز معدّل الدخـــل الفردي للمواطن في الفترة نفســها من نحو 3300 دولار إلى نحو 10.000 دولار.

- تقوم تركيا هذا العام، أول مرة في تاريخها، بتقديم قرض للبنك الدولي بقيمة 5 مليارات دولار.

2- بين تنامي النفوذ والتحوّلات الجديدة

تكفي العودة عشرة أعوام فقط إلى الوراء لنتذكّر حجم الأزمات الاقتصادية والمالية الكبيرة التي كانت تركيا تعانيها، والتي لم تكنْ تهدّد اقتصادها فحسب، بل أيضًا عُملتها التي فقدت كثيرًا من قيمتها وتقديرها، وكذلك علاقتها التجارية والمالية بالدول والمؤسّســات الكبرى. وكانت مراكز رصد الاقتصاد المعروفة تضع تركيا دائمًا ضمن دائرة المناطق الحمراء المهدّدة التي يجب التعامل معها بحذر ودقّة. إذ كان حجم الديون الداخلية والخارجية وتأزّم علاقاتها مع البنك الدولي في مقدّمة بعض الصوّر والمشاهد التي برزت إلى الواجهة خلال تذكّر وعرض تلك الحقبة الصعبة من التاريخ الاقتصادي التركي الحديث.

حقّقت سياســة تركيا الخارجية، فــي فترة حكم حــزب العدالة والتنمية، قفزة لافتة تجاه مختلــف الدوائر الجغرافية المحيطة بتركيــا والقضايا المثارة؛ فمن نظرية صفر مشــكلات إلى التطور الكبير في العلاقــات مع الدول العربية وإيران وروسيا والصين، وصولًا إلى تعزيز مكانتها الاستراتيجية في السياستين الأميركية والأوروبية، ما جعــل تركيا دولة إقليمية مؤثــرة، وعزّز مكانة حزب العدالة والتنمية في عين الناخب التركي الذي بــدأ ينظر باعتزاز إلى دور بلاده في الخارج.

خاضت تركيا في الأعوام الأخيرة تحوّلًا سياسيًا كبيرًا، فما هي العوامل الكامنة وراء تنامي نفوذ تركيا في الشرق الأوسط؟

- المصالحة مع التاريخ والجغرافيا.

- النظرة العربية الجديدة إلى تركيا.

- تعاظم قوة تركيا الاقتصادية في الإقليم.

- بحلول عام 2023، سيكون لتركيا جيش من الطراز الأول، ونفوذ أمني وعسكري أكبر.

لكنْ هناك أسئلة مركزية تنتظر الإجابة عنها:

أين تقف التجربة التركية اليوم بعد مرور أكثر من عام على انطلاقة الربيع العربي؟ هل تُجمع القيادات الإسلامية في المنطقة على الوقوف وراء ما يقوله أردوغان عربيًا وإسلاميًا مثلًا؟ هل توافق على تقديم النموذج التركي العلماني إلى بلدان الربيع العربي لتعتمده خلال إقرار دساتيرها الجديدة، مع أن تركيا لم تحسم حتى الآن النقاشات بشأن دستورها الجديد؟

إن دور حزب العدالة والتنمية التركي وتأثيره في إيصال بعض الحركات الإسلامية إلى السلطة في العديد من بلدان الربيع العربي هما في طليعة المسائل التي يناقشها كثيرون من الباحثين والدارسين، متابعين التجربة التركية ومصرّين على تقديمها نموذجًا يستحق الاستفادة منه أو حتى اعتماده في دول المنطقة التي تطالب بالتغيير والإصلاح، وحقّها في استلام دفّة الحكم. فهل هذا صحيح؟ وإلى أي مدًى يمكن قبوله؟ وما هي فرص نجاحه؟

بدأت صورة جديدة تظهر إلى العلن وتقول إنّ مهمّة حزب العدالة والتنمية في الدفاع عن النموذج التركي والترويج له غاية في الصعوبة، وإن المشهد اليوم أمام تجارب ثورات الربيع العربي، وتحديدًا مع انفجار الأزمة السورية وتشابكها على هذا النحو، يذكّر بمشهد الإمبراطورية العثمانية في آخر أيامها عندما تراجع الموقع والدور أمام دخول قوى إقليمية ودولية

متنافسة على ميراث الرجل المريض، وتريد تصفية حساباتها مع الإمبراطورية التي هدّدت أسـوارهم وحصونهم عقودًا طويلة، وهم لن يسـمحوا لها اليوم أيضًا بتكرار تجربتها هذه، مستغلّةً الفراغ الاسـتراتيجي وتراجع دور البعض ونفوذه.

إن تركيا في جميـع الأحوال لن تكون دولة حياديـة، أو راغبة في اعتماد سياسة متوازنة كانت تطبّقها قبل وصول العدالة والتنمية إلى السلطة. فهي باتت بعد التطورات الإقليمية كلها حلقة أساسـية في تكتّـل إقليمي ضدّ تكتّل آخر. وهي مدعوة إلى تبنّي مشروع تكتّل عربي جديد يبرز إلى العلن، كما أنّها ملزمة بدعمه ليكون نقطة حوار إيجابي لا بدّ منها كمقدّمـة للعودة القوية إلى الدائرة العربية.

أردوغان في حديثه، في العام المنصرم (2012)، عن العلاقة بين العلمانية والدِّين أمام المصريين أراد أن يوجّه إلى من يهمّه الأمر أربع رسائل على الأقل: الأولى إلى الحركات الإسلامية في العالم العربي التي تتطلّع إلى المشاركة في السـلطة، خصوصًا في البلدان المنخرطة في الربيع العربي، لكن لا تزجّ باسمه في لعبة التوازنات الراهنة. الثانية إلى جماعات التطرّف والتشـدّد الإسـلامي، داعيًا فيها إلى تحرير السياسـة من نفوذهم وإحداث القطيعة معهم. الثالثة إلى الاتحاد الأوروبي، لمراجعة الموقف من تركيا وتمكينها من الانضمام شـريكًا كاملًا في المجموعة الأوروبية. الرابعة والأخيرة إلى الدعايات الإسـرائيلية في الغرب التي تدّعي أن تركيا تشـجّع قيادات الربيع العربي بما يسـاهم في نشر التطرّف الديني، وتاليًا فإنّه بكلامه المنحاز إلى العلمانية أعلن موقفًا واضحًا من هذا الأمر.

المسألة هي أن سياسة «صفر مشكلات» التي تقوم على تجنّب الصدام مع مختلف القوى الدولية والإقليمية والسعي إلى التوافق معها، شرعت في التآكل تدريجًا حتى أصبحت تركيا مشتبكة مع العديد من الأطراف. وفرضت ظروف إقليمية عدة علـى أنقرة أن تغيّـر موقفها، وتنخرط في صراعـات كانت تأمل بتحاشيها، وتتصدّر الأزمة السورية هذه القضايا؛ فتركيا إذًا تعاني الاضطرار إلى

التصعيد في مواجهتها مع تل أبيب، بعد مقتل تسعة أتراك قبل ثلاثة أعوام في قافلة بحرية تركية كانت متّجهة إلى قطاع غزة.

كما تصاعدت حدّة الخلاف بين أنقرة وطهران في أعقاب موافقة الأولى على نشر رادار تابع للدرع الصاروخية الأميركية على أرضها، وهو ما رأته طهران تهديدًا واضحًا لمصالحها، خصوصًا مع تواتر الأنباء عن نيّة إسرائيل توجيه ضربة منفردة إليها.

ما يزيد من وطأة الأزمة التركية في الشرق الأوسط أن أنقرة اتّجهت للتأثير في المنطقة بعد أن يئست تمامًا من دخول الاتحاد الأوروبي في ظلّ ممانعة ألمانية - فرنسية، ما دفع أنقرة إلى البحث عن مجال نفوذ بديل في الشرق الأوسط. من هنا نرى تركيا بذلت جهدًا كبيرًا لإصلاح علاقاتها بدول المنطقة، وتحديدًا العالم العربي. وزيارة أردوغان الأخيرة إلى ألمانيا لن تقطع الطريق بمثل هذه السهولة على تراجع الحلم التركي بالعضوية الأوروبية.

مرةً أخرى يتوضّح المشهد الذي يوحي بأن من غير المقبول، أو حتى من غير المنطقي القول إن تركيا تقدّم نموذجًا لإسلام معتدل يمثّل نمطًا جديدًا في الإدارة والحكم يمكن تطبيقه في العالم العربي، وذلك لاعتبارات عدة، أوّلها أنّ تركيا نفسها تخوض حراكًا داخليًا لم تُحسمْ نتائجه بعد.

أوقعت الثورات العربية تركيا في موقف صعب لأنّ أنقرة لا تعرف حتى الآن الصورة المستقبلية للحكومات في المنطقة، والأمر يمكن أن يكون ضمانة لها تستطيع معها تثبيت سياستها الخارجية.

يبقى الخطر الأكبر المحدق بالدور الإقليمي التركي وصعوده هو تكرار الغرب للعبة ذاتها التي قادها عشيةَ الحرب العالمية الأولى باسم العرب والعالم الإسلامي نفسه ضدّ الأتراك تحديدًا، وذلك عندما أشرف على عملية إسقاط النموذج التركي ومحاولة دفنه لأنّه هدّد الداخل الأوروبي ووصل إلى عقر داره، وشكّل عقبةً كبيرةً أمام انتشاره وتمدده قرونًا من الزمن. فهل تكون مقولة الترويج للنموذج التركي خدعة غربية جديدة لإطاحة الصعود التركي مرة أخرى،

ولترك الأتراك والعرب وجهًا لوجه من جديد ومحاولة تقديم الأتراك على أنّهم هم الذين يبتعدون عن الإسلام الصحيح عندما تتزايد الخلافات في شأن تعريف النماذج وموقعها ودورها في المرحلة المقبلة؟ فالذين أطلقوا مصطلح النموذج التركي هم الإنتلجنسيا الغربية، والذين يروّجون له هم أقرب المقرّبين إليهم. وهو الطرح الذي سيتحوّل إلى مشكلة ستتفاقم إذا لم يتنبه الطرفان إلى مخاطر وسلبيات الترويج لمشاريع وبرامج لا يعرف أصحابها بعدُ حقيقة مضمونها والأطر التي تقدّمها وتتبنّاها وتطرحها كخيار جديد للتعايش الوطني أو القومي أو الإقليمي. فعلى المنطقة - وهي تناقش فكرة التموضع- ألّا تنسى النماذج التي طرحها الغرب بدائل أمام انسداد الأبواب والحلول مع نهاية الحرب العالمية الأولى بغطاءٍ كان اسمه الوصاية تارة والحماية تارة أخرى.

إن حزب العدالة والتنمية الذي يكرّر أن لا علاقة له بالتطرّف والتشدّد والإسلام الراديكالي سيقول مرّة أخرى إنّه مع التغيير والإصلاح في القوانين وفي الدستور التركي لكنّه يعرف أيضًا أن المشروع الديمقراطي في تركيا واكب مشروعًا آخر هو التحديث المستمَدّ من أفكار التغريب التي أطلقت في أواخر العهد العثماني، وأنّ الديمقراطية والتحديث كليهما هبطا على صورة رزم جاهزة للتوزيع والانتشار سياسيًا وثقافيًا ودستوريًا واقتصاديًا أُخذَ بها لعقود طويلة، وجمعت التناقضات كلها ووحّدتها أمام نظام تعايش أسّس له أتاتورك وحمته المؤسّسة العسكرية لسنوات؛ وكان أهمّ خصائصه توفير التعايش بين العلمانية والإسلام المحافظ المعتدل الذي يرفض أي علاقة بالإسلام السياسي الذي كان يناقَش في تلك الحقبة.

العلمانية التركية نفسها تحتاج إلى قراءة توصيفية دقيقة تحدّد هل هي علمانية مميزة ابتكرها أتاتورك مؤسّس الجمهورية الحديثة، أم علمانية مركّبة تجمع ما يقوله كثير من المفكّرين والمثقّفين الغربيين، وتركت الأتراك حتى اليوم في حالة من المواجهة في موضوع تنظيم العلاقة بين الأقلّيات التي يصفها الدستور بالجماعات غير المسلمة ونظرة الدولة الرسمية إليها وإلى قوانينها المدنية ومؤسّساتها التعليمية ومراكزها الدينية تحت شعار اسمه العلمانية التي

لا يعرف أحـد أين تبدأ وكيف تنتهـي حدودها، فضلًا عـن وضع الجماعات العلوية التي تنتظر منذ عقود مراجعة جذريـة لموقعها ودورها داخل المجتمع التركي العلماني. فهو يعترف بها كشـريحة في هذا المجتمـع لكنّه لا يعترف بها دسـتوريًا وقانونيًا ودينيًا كقوّى لها مطالبها وحقوقها وخصائصها داخل هذا المجتمع الذي تمثّل الملايين منه.

هناك حقيقة أخرى لا يمكن تغييبها، هي أنّه خلال مناقشة أسباب إصرار الناخب التركـي على منح حكومة رجب طيب أردوغـان فرصة ثالثة لم تُعطَ لأي حزب سياسـي تركي آخر، نكتشف أن المواطن التركي بقراره هذا خلال بحثه عن الاسـتقرار السياسي كان ينشد أولًا الاسـتقرار الاقتصادي والمالي الذي وفّرته له حكومة العدالة والتنمية في الأعوام الأخيرة. إن الناتج المحلي الصافـي خلال الربع الأول مـن العام الحالي (2013) هـو 285 مليار ليرة تركية، أيْ ضعف مـا كان عليه هذا الرقم قبل أعوام، وخلال عام كاملٍ وقتها. هل سيستمرّ هذا الصعود؟ هل يقلق اسـتمراره تركيا وحدها؟ إن الإجابة عن هذه التساؤلات مرتبطة بالردّ مباشرة على تسـاؤل آخر: ما الذي سهّل لتركيا إطلاق العصر الذهبي وسـاعدها فيـه؟ هل هو البراغماتيـة التركية؟ وضوح الرؤيـة؟ انعدام الرؤيـة لدى كثيرين؟ عـدم وضوح أبعاد المشـروع التركي وأهدافه؟ غياب المنافس الإقليمـي الحقيقي؟ نجاح حزب العدالة في اللعب على تناقضات المنطقة؟

اللعبة لم تنته بعدُ، بل على العكس، ما زلنا في وسـطها؛ فالداخل التركي يتحرّك لكنّ الصعود التركي الخارجي لم يرافقه صعود داخلي سياسي دستوري، وثمة مشكلات تعوّق الصعود التركي الإقليمي التركي اليوم، تتقدّمها العلاقات التركيـة - الأميركية، فالعلاقـات التركية - الإسـرائيلية، فالعلاقات التركية - الأوروبية، فالعلاقات التركية - الروسية، فالعلاقات التركية - الإيرانية.

هل نجحت تركيـا حقًا في معادلـة أنْ يُقبل بها على أن تكون أطلسـية الملامح، أوروبية الحلم، شرق أوسطية الميول، منفتحة على إيران وروسيا في الوقت نفسه؟

ثانيًا: نقاشات النموذج وتأثيراته في الربيع العربي

لا خلاف على أن التحوّل الكبير في سياسة تركيا ومواقفها حيال العالمين العربي والإسلامي ظهر مع وصول حزب العدالة والتنمية إلى السلطة قبل عشرة أعوام، وأنّ ذروة هذه القراءة المغايرة كانت مع انفجار ثورات الربيع العربي. لكنّ المسألة التي تقلق كثيرين من العرب والأتراك على السواء هي نظرة حزب العدالة والتنمية إلى هذه الحركات: فهل يراها تهديدًا لمصالحه الإقليمية والدولية؟ هل تُمثل حالة تقود إلى التوتّر الدائم في الدول العربية وتمنع الاستقرار السياسي والاقتصادي فيها؟ هل يريد أن يراها في الحكم تتسلّم زمام السلطة وتقود مسار عملية الإصلاح والتغيير في البلاد؟

طرحت أنقرة مثلًا التغيير والإصلاح السياسي والاجتماعي والاقتصادي وقبول التعددية السياسية ممارسةً وتطبيقًا، والحوار الحقيقي بين الأحزاب الحاكمة والمعارضة، لكنّها لم تطالب يومًا بإسقاط هذه الأنظمة بالقوة واللجوء إلى السلاح أو إراقة الدماء.

ربما يؤخذ على حزب العدالة والتنمية أنه عندما كان يدعو هذه الأحزاب والحركات إلى الانتفاض كان يذكّرها دائمًا بالحراك الإقليمي والدولي المحيط والقرارات والاستراتيجيات التي تُرسم على حين غفلة من قياداتها. فلم يُعطِ حزب العدالة والتنمية الأولوية لأيديولوجيات وتوجّهات وميول هذه الحركات وتجاربها في العمل السياسي، بل للظلم والعزل والإبعاد، أي ما ألحقته بها الأنظمة التي تعاملت معها وأصرّت على تهميشها، وعدم إفساح المجال أمامها للمشاركة في اللعبة السياسية والالتحاق بمؤسّسات الدولة الديمقراطية، وهو أبسط حقوقها المشروعة، كما ردّدت القيادات الإسلامية التركية وهي تبرر أسباب وقوفها إلى جانب هذه الحركات في ثورات الربيع العربي. وهذا يعني بصورة أو بأخرى أنّه يريد أن يراها في السلطة إذا كانت قادرة على الوصول بالأساليب المشروعة وما دام هو حقها في اللعبة الديمقراطية. ويريد أن يساعدها في الدفاع عن حقّها هذا الذي حُرمت منه لعقود، لكنّه لا يريد ذلك

عبر طرح برامجه وأفكاره وأســاليبه هــو لتأخذها وتطبّقهــا أو تعمّمها خلال وجودها في موقع القيادة.

ربّما يفوتنا ونحن نناقش طريقــة تعامل الأتراك مع الربيع العربي، أن على الرغم من الترحيب الواســع بهذه الثورات التي تجري تحت شــعار المزيد من الحريات والديمقراطية وإســقاط أنظمة دكتاتورية، يستوقفنا التعمّق في تحليل مواقف الأتــراك أولًا عنــد تباعد التحليلات والأســباب والنتائــج، وتحديدًا أســلوب أنقرة في التعامل مع ما يجري. فهناك من قبل ســيناريو المؤامرة التي فجّرت هذه الثورات لتخدم مشروع الشرق الأوسط الكبير، وربّما تلتقي أحزاب اليســار العلماني واليمين القومــي التركي عند هذا الطرح بصــورة أو بأخرى. ورآها بعض آخر عملية تصفية حسابات داخلية كان لا بدّ منها، وكان ينبغي أن تحدث قبل ذلك بكثير باسم إسقاط الدكتاتوريات الاستبدادية والأنظمة. ويتبنّى هذا الطرحَ ليبراليو تركيا قبل غيرهم. وهناك طــرف ثالث رآه بمنزلة انفجار لا مفرّ منه أمام حجم تضييق مساحة الحريات والديمقراطية في هذه البلدان، لكنّها في النهاية أقــلّ من ثورة وأكثر من حادث عابر، وســتنتهي بالهدنة والمصالحة التي تُبقي الأنظمة في الســلطة. وهنا يبرز موقف كثير من الجماعات الإسلامية التركية التقليدية. واللافت تكــرار الموقف القاضي بأن ما يجري لن يترك تركيا بعيدة عن التأثّر بهــذه التحوّلات، وأنّها ســتتعرض هي، بصــورة أو بأخرى، لارتدادات هذه الثــورات. فالغيوم الداكنة المتراكمة في الســماء التركية لا بدّ من أن تتحوّل إلى مطر غزير جارف وسيول، ويسبّب فيضانات تقود إلى التغيير في تركيا نفســها. فهناك أكثر من جماعة وقوة تنتظر الفرصة الملائمة للتحرّك، ويتقدّمهــا أكراد تركيــا الذين يحاولون جاهديــن الجمع بيــن الحالة الكردية في العراق والاســتفادة من الحالة السورية بأســرع ما يمكن لنقل التجربة إلى الداخلين التركي والإيراني، على طريق تحقيق مشــروع الدولة الكردية الكبرى وإنجازه. فالداخل التركي نفسه يشهد في هذه الآونة نقاشًا ساخنًا وانقسامًا بين المثقّفين على موقع النموذج التركي في المنطقة ودوره التركي. والنقطة الأهمّ التي تحتــاج إلى نقاش وتوضيح في المرحلة المقبلــة تتعلّق بنتائج الحوار بين

المثقّفين الأتراك أنفسـهم بجناحيهم العلماني المتشـدّد والإسلامي المحافظ في مسألة العلاقة بين الديمقراطية والإسـلام. فحزب العدالة والتنمية يقول إنّه حزب ديمقراطي محافظ ذو هوية إسلامية لكنّه يطرح الإسلام المحافظ بدلًا من الإسلام السياسي خلال التعريف بهويته وأفكاره وبموقعه على الساحة السياسية التركيـة. لكن التخفيف مـن قيمة النمـوذج التركي وأهميته سـيكون إجحافًا بحقّه، خصوصًا أمام الإجماع على تمايز التجربة التركية، والاستشهاد بأكثر من استطلاع للرأي بشأن هذه المسألة في تركيا وخارجها، كانت نتائجه لافتة حقًّا.

مع ذلك، تبقى المشـكلة الكبرى التي تهدّد اسـتمرار بقاء حزب العدالة والتنمية في الحكم أو تفرّده بالسـلطة على أقل تقدير، هي أزمة إطلاق مشروع التحضير للدسـتور الجديد الذي وعد بإنجازه منذ أعوام، لكن أسـبابًا سياسية وأمنية داخلية دفعته إلى إرجاء التحرّك الجـدّي في هذا الاتّجاه. وكانت وعود حكومـة أردوغان الأخيـرة بأن يكون عـام 2012 عامًا حاسـمًا في موضوع الدسـتور الجديد والاختبارَ الجدّي الحقيقي، خصوصًا أن كثيرًا من الفاعليات السياسـية والاجتماعية تلتقي كلّها عند ضرورة التحرّك السريع في هذا الاتّجاه لإنقاذ البلاد من دستور العسكر الذي أُقرّ قبل 30 عامًا ولا يزال ساري المفعول حتى اليوم.

إن على الأتراك قبل مناقشـة النموذج والترويج له إعادة تعريف مصطلح الديمقراطية الذي يتبنّاه حزب العدالة والتنمية ويعتمده. هذه الديمقراطية بقيت مثار انتقاد دائم من أحزاب المعارضة وكثير مـن الليبراليين الذين قدّموا دعمًا مشـروطًا لحزب رجب طيب أردوغان يتضمّن طرح هذه المصطلحات وإعادة تعريفها. فالديمقراطية التي يدافع عنهـا كثير من أركان العدالة والتنمية في هذه الآونة لها علاقة مباشرة بصعود التجربة التركية الاقتصادية. وهذا يعني ارتباطها المباشـر بطرح موقع العولمة ودورها ببعدها الاقتصادي في التحكّم، واختيار التعاريف الأنسب للمصطلحات الفكرية والسياسية والعقائدية، وتنظيم العلاقة بين جميع هذه القواعد والأفكار الجديدة والمجتمع المتدين مثل تركيا، حتى لا يتحوّل إلى مجتمع ديني يهدّد مصالح هذا النموذج المعولم المراد تبنّيه ونشره.

لا يمكننا أيضًا إغفال موقع رجب طيب أردوغان ودوره وشخصيته «الثورية» المنتفضة في «التحريض والاستفزاز»، خصوصًا عندما بدأ الشارع العربي يردّد اسم أردوغان مناصرًا أول للقضايا العربية والإسلامية، ومدافعًا عن القضية الفلسطينية، ومتصديًا لإسرائيل وسياساتها في غزّة ولبنان والداخل الإسرائيلي، وذا قدرة على رفض ما تقوله وتطلبه الولايات المتحدة الأميركية كما حدث في الحرب على العراق في عام 2003.

ربما ما يدعم النموذج التركي الذي هناك من يصرّ على تقديمه والترويج له في هذه الآونة، هو انتشار كثير من القوانين والأفكار والقواعد السياسية بإرادة غربية مباشرة أو بتقليد عشوائي ضمّ العلمنة والديمقراطية والدِّين والحريات الفردية من دون تنظيم هذه العلاقات وتأطيرها، بل تركها تتواجه في ما بينها لتفسح في المجال أمام دخول القيادات والأحزاب الحاكمة على الخط ومحاولة فرض نفسها كقوة توازن لا بدّ منها لحماية وحدة الأرض والشعب والمؤسّسات.

لكن عندما يقدّم حزب العدالة والتنمية تجربته إلى بلدان الربيع العربي، فإنه يميز أيضًا بين التجربة التركية والتجارب الإسلامية في العالم العربي؛ ففي تركيا، لم يكن أي نقاش لمصطلح الإسلام السياسي، ومن يتبنّاه ويدافع عنه ويروّج له يُلزَم بدفع الثمن الباهظ في الاعتقال والسجن والنفي. فالحالة الإسلامية في تركيا كانت في أغلبيتها حركة مهادنة للنظام العلماني منذ عقود من الزمن. وعلى الرغم من جميع المطالب التي ردّدتها وناضلت من أجلها، فإنها لم تخرج إلى الشارع للتعبير عن رفضها لهذا النظام، بل كانت على العكس تساوم الأسس والمبادئ العلمانية الأتاتوركية في تركيا وتتعايش معها على الرغم من بعض الاستثناءات التي كانت هي الأخرى مكلفة لها، وأجبرتها على التراجع عن قرار انفصالها أو ابتعادها في المطالب، والعودة إلى حضن العلمانية، لتتحرّك وتناضل ضمن الخطوط العامّة التي فرضتها حتى اليوم.

بإيجاز، ربما يعرف حزب أردوغان أنه قد يختلف في تصوراته ومواقفه من التعريف بالديمقراطية والعلمانية والعدالة والمشاركة السياسية وحقوق

المرأة، عـــن التصوّرات والحلول التـــي تقدّمها الحركات الإســـلامية في دول الربيع العربي، لذلك ربّما لا يريد حتى الســـاعة أن يكـــون الكفيل أو الضامن لهذه الحركات في المستقبل لأن على الرغم من شرعية المطالب، فإنه لا يعرف كيف ســـتترجم على الأرض علاقاتها بالأحزاب والقوى السياسية والاجتماعية والدينية الأخرى، ولا يريد أن يرى نفســـه في ورطة اسمها الحامي الأول لهذه الحركات والشريك الأول لها، فيدفع ثمن أي فشـــل أو تراجع كتجربة ناجحة في تركيا لكنّها فاشلة في تسويق نموذجها على مستوى المنطقة.

لا يريد حزب العدالة والتنميـــة أن يغامر ليجد نفســـه «المروّج» للأفكار والسياســـات والاســـتراتيجيات الغربية فـــي المنطقة. ويظهر فـــي موقع العقل المدبّر لهذه الحركات الإســـلامية بعدما كان، حتى الأمس القريب، يقيم أفضل العلاقات مع كثير من الأنظمة الســـاقطة وفي مقدّمها النظام الليبي، أو الأنظمة المهدّدة بالسقوط، وبينها النظام السوري.

ففي مطلع التسعينيات، ساهم سقوط نظام القطبين وتراجع التهديد الروسي ضد جاره الجنوبي في إعطاء الفرصة مرّة أخرى للحركات الإســـلامية لتتحرّك وتُثبت وجودها ودورها على الأرض، لكن جهدها كله كان ضمن حدود لم ترد هي تجاوزها. كمـــا أن النظام وقواه الضاغطة لم يقبـــلا بمنحها فرصة الاقتراب من المحظورات والخطوط الحمر التي حدّدها حُماتـــه، مع التذكير مرّة أخرى بأن شعارات الإسلام السياســـي التي كانت مرفوعة في كثير من البلدان العربية والإســـلامية كانت ضعيفة جدًّا في المدن التركية، ولم تخـــرج عن إطار بعض الأجنحة والتيارات التي كانت ملزمة بالتنسيق مع الحركات الإسلامية التقليدية إذا كانـــت تريد البقاء على قيـــد الحياة. ولم يكن حزب العدالـــة والتنمية، على الرغم من كل ما يُقال ويُكتب، جزءًا من مشـــروع الإسلام السياسي، وثمة كثير من قواعده تتبنّى هذه الأفكار. وربما يكون الحزب قد قَبِل من قواعده أن تتحرّك تحت جناحيه، لكنّه لم يســـمح لهـــا بالتأثير في اســـتراتيجياته وقراراته ومواقفه التي ظلت تتبلور في إطـــار الهدنة والتوافق مع أركان النظـــام العلماني المدنية والعســـكرية على الســـواء. وتجنّب عدم اســـتفزازهم قبل ضمانه القوة الكافية

القادرة علــى الردّ والتحدّي. وهذا ما حدث في عام 2002 عندما بدا المشــهد تصفية حسابات بين الإسلاميين أنفسهم، لكنّه كان في الحقيقة بداية التحرّك نحو استلام الســلطة التي طال انتظارها. فحكومة رجب طيب أردوغان أفرحها حتمًا أن ترى عشرات الآلاف من الشباب في ميادين مدنهم يهتفون للإصلاح وإسقاط الأنظمة ليس باســم الربيع العربي فحسب، بل أيضًا باســم انتزاع حقوقهم من أنظمة وقيادات رفضت حتى الأمس القريب الإصغاء إلى ما قالته قيادات العدالة والتنمية عن التغيير فــي المنطقة. وأفرحها أكثر أن يكون الغــرب وقياداته هما المستهدّفين اللذين يُحمّلان بعض المسؤوليات عمّا يجري لأنّهما كانا شريكين وداعمين لهذه الأنظمة ورموزها، إذ ســتكون هناك مراجعة جذرية وشــاملة في العلاقات مع هذه البلدان، ربما تقود إلى تراجع مُكلف في التقارب والتنسيق.

تحدث كثيــرون من الأتراك خــلال تقويم الربيع العربــي عن الإجحاف والغبن والاضطهاد الذي تعرّض له العديد من شــعوب الدول العربية بحرمانها فرص المشاركة والتعبير وصناعة القرار، والاســتفادة بصورة عادلة من تقاسم الثروات. لكنّ النقطة الوحيدة التي لم تُناقــش داخل تركيا بما فيه الكفاية حتى اليوم تبقى هوية من سيقود اللعبة ويطرح نفسه النموذج الحقيقي في تركيا؟ هل ســيكون حزب العدالة والتنمية دائمًا أم الحركة النورسية المتزايدة انتشارًا وقوةً وصعودًا، وهي الحركة التي أسّسها سعيد نورسي في أواخر القرن التاسع عشر من خلال مجموعة من الأفكار والأســس التي يتّقدمها أنّ الإسلام هو دين الله الموجّه إلى الإنسانية جمعاء، ويحمل الرسائل الإلهية على مدى العصور، وهي حركة تتبنّى فكــر وموقع ودور الإيمان والعبــادة والعدالة والأخلاق والفضيلة والاعتدال أساسًا للتعامل والحوار بين المدنيات والحضارات؟

ثالثًا: عوامل النجاح وأسباب الفشل

تتقدّم هنا إلى الواجهة مســألة الصعود التركي الــذي أزعج بعضًا وأغاظ بعضًا آخر إقليميّــا، لكنّه ترك آخرين في حالة من الإعجــاب والانبهار. وربما يكون هذا هو المســألة التي دفعت إلى التّوقف عند موضوع «النموذج التركي» الذي كان حــزب العدالة والتنمية بقيــادة رجب طيب أردوغان الشــرارة التي

أضرمت النار في عود ثقابه، وقادت إلى هذا الحوار المتفاعل مع ازدياد توسّع رقعة ثورات الربيع العربي وانتشارها المتواصل في غير مكان.

مقارنة بالحالة العربية، لم يكـن افتقاد العالم العربي القـوة القادرة على تحريك مسائل الحريات والديمقراطية على طريق الوصول إلى السلطة فحسب هو الذي ميّز الصعود التركي، بل هناك أيضًا عجز كثير من هذه الشـعوب عن المشاركة ولو في أبسط مجالات التعبير عن الرأي، وهي الانتخابات المحلية، إذ كانت القيادات الإسـلامية التركية تقطع هناك شوطًا واسعًا مع هيمنتها على عدد من المدن والأقضية التي تديرها وتنظّم شؤونها اليومية في تركيا، وتكسب المزيد من الدعم والإعجـاب حتى في صفوف العلمانيين المتشـدّدين الذين عاشوا خيبة أمل مع أحزاب يسارية أو يمينية تقليدية لم تقدّم حلولًا لأولوياتهم الحياتية ومشـكلاتهم اليومية، كتوفير المياه والكهربـاء والمحروقات وتنظيم حركة المرور والتلوث البيئي.

كانت الولايات المتحدة الأميركية سـباقة، كعادتها في مثل هذه المسائل، إلى التنويه والإشـادة بالنموذج التركي والإنجـازات الكبيرة التي حقّقها داخل تركيا وخارجها. وربّما تكون مسـارعة الرئيس الأميركي أوباما إلى زيارة تركيا مقدمة للترويج لهذا النموذج وضرورة الاسـتفادة منه وتبنّيه؛ فكانت تركيا أوّل بلد إسلامي يقصده بعد وصوله إلى مقعد الرئاسة ويوجه منها الرسائل المشيدة بها وبدورها الإقليمي وبتجاربها الغنية.

ليس من الضرورة هنا التذكير مرّة أخرى بتناقض الموقف الأميركي الذي يشـيد بوصول العدالة والتنمية إلى الحكـم، ويذكّر بقـوة التحالف التركي - الأميركي وأهميته الاسـتراتيجية ودور المؤسّسة العسكرية التركية في التأسيس لهذا التقـارب وحمايته على مدى عقود طويلة، وبوقوف واشـنطن إلى جانب هذه المؤسّسـة أو التغاضي عن الرسـائل التـي وجهتها إلـى الداخل التركي ودورها المؤثّر في الحياة السياسـية التركية اليومية، وكان فـي مقدّمها إطاحة حكومة الإسلامي نجم الدين أربكان في عام 1997.

اللافت خلال مناقشــة النموذج التركي هو التوقّف عنــد أهمّ التحوّلات التي طرحها في الفكر والممارســة، وتتلخّص في رفع معادلة قبول التغيير في فكر الإسلاميين لا في الفكر الإسلامي نفســه، على عكس عدد من الحركات الإسلامية التي اعتمدت المعادلة المعكوسة في مواقفها، وهو ما كلّفها الابتعاد أكثر فأكثر عن القواعد الشــعبية التي وصلت إلى حالة من الخيبة بسبب رهانها على هذه الحركات لتنتشلها من الحالة الصعبة التي تعيشها.

رابعًا: الناجح هو التجربة لا النموذج

إن المســألة الأهمّ التي ينبغي مناقشــتها وحســمها في رأينا هي تحديد النموذج التركي الذي نتكلم عليه خــلال الدفاع عنه، ومحاولة الترويج له: أهو نموذج تركيا ما قبل مصطفى كمال أتاتورك وحتى تاريخ إعلان الجمهورية في عام 1923، أمْ نموذج ما بعد هذه الحقبة، بعدما توسّــعت رقعة انتشار الحالة العلمانية في البلاد، أمْ أنّنا نتحدّث عن مرحلة التغيير والتحوّل التي انطلقت في عام 2002، تاريخ وصول حزب العدالة والتنمية إلى السلطة؟

إن نموذج مــا قبل إعلان الجمهوريــة في تركيا يعني العــودة إلى الحالة العثمانيــة، إذ وُجّهتْ إلى وزيــر الخارجية التركي أحمــد داود أوغلو غير مرّة تهمة أنّه يدعم هذا النموذج في السرّ، ويتبنّاه كمشروع استقرار إقليمي بديل في التعايش والتقارب بين دول المنطقة وشــعوبها، فهــو الوحيد القادر على توفير التقارب والانفتاح بين فسيفســاء سياســية ودينية وعرقية من هذا النوع، أم أننا نتحدّث عن التجربة الأتاتوركية التي أطاحت الإمبراطورية العثمانية، وطرحت نموذج الدولة الحديثة، والديمقراطية المنفتحة على الغرب في أكثر من مكان، لكنّها قطعت مع الشرق في أكثر من مكان وابتعدت عنه.

إنّ إقرار وزيــرة الخارجية الأميركية كوندوليزا رايس في عام 2005 بدعم الاســتقرار في المنطقة على حســاب الديمقراطية كان كفيــلًا بتلخيص الرؤية الغربية بين حماية مصالحهــا والوقوف إلى جانب مطالــب التغيير والإصلاح والديمقراطية.

استغل حزب العدالة باحتراف فرص تراجع نفوذ القوى الكبرى في المنطقة بسبب اعتراضات ورفض سياساتها الإقليمية ورفضها، وطرح نظرية تصفير المشكلات مع الجيران، وقدّم حلولًا تتعارض مع سياسات التهديد والفوقية التي كانت الحكومات التركية السابقة تعتمدها في علاقاتها مع دول المنطقة، وعرّف نفسه بأنّه حزب تجديدي لكنّه لم يتخلّ عن هويته الإسلامية المحافظة، وقبِل المساهمة في حلّ غير أزمة إقليمية، أو اعتماد مواقف لافتة إلى جانب القضية الفلسطينية والمسائل العربية الكثيرة. هذه كلّها خطوات تعكس حقيقة أن قيادة حزب العدالة أتقنت موضوع ملء الفراغ الاستراتيجي الذي تركته وفرة من الدول العربية؛ فهو استفاد حتى النهاية من موقفه المعارض لأميركا في حربها على العراق في عام 2003، كما استفاد من مواقفه المعارضة للسياسة الإسرائيلية في المنطقة ضد الشعب اللبناني الذي تعرض لأكثرَ من اعتداء، والشعب الفلسطيني خلال الحرب الإسرائيلية على غزّة في عام 2008.

مع إعلان الجمهورية في مطلع العشرينيات، قرّرت تركيا اعتماد مبدأ أن السيادة هي للشعب ليكون هو من يقود ويحكم على الرغم من جميع النواقص والسلبيات التي لا تزال تعيشها في تطبيق هذه النظرة حتى اليوم. أمّا الدول العديدة في منطقتنا فتبنّت شعارات مماثلة لم تدخل يومًا حيّز التطبيق وظلّت حبرًا على ورقٍ، أو شعارًا مرفوعًا على صفحات الدساتير والقوانين التي أكل الدهر عليها وشرب، لكنّها مع ذلك كانت تدير القرار في هذه الدول عشية ثوراتها في الأمس القريب.

عند محاولة حصر وتعداد أهمّ العوامل التي تعزّز مقولة أن تكون تركيا نموذجًا للدوّل العربية التي تتحرّك تحت شعار ربيع العالم العربي، نجد أنّ في مقدّمها:

- الموقع الجيوسياسي والجيوستراتيجي التركي، والاستفادة من تأدية دور جسر العبور التاريخي والثقافي والاقتصادي بين الشرق والغرب وبين العالمين الإسلامي والعربي.

- تركيبة المجتمع التركي الثقافية التاريخية الدينية.

- أهمية التجارب التركية وتنوّعها عبر القرون، والخبرات المكتسبة في مجالات الحكم والإدارة.

- وصول حزب العدالة والتنمية إلى السلطة في عام 2002، والأسلوب الذي اعتمده في إدارة شؤون الداخل وتحديد السياسات والاستراتيجيات الإقليمية والدولية، وتحقيقه الكثير من الأهداف والتطلّعات التي وضعها في المجالات الاقتصادية والإنمائية والسياسية والإصلاحية الداخلية.

- الاستفادة من فرص غياب المنافس العربي والإسلامي القادر على طرح نفسه نموذجًا بديلًا تستفيد دول المنطقة وشعوبها من خصائصه ومميزاته، ويؤثّر فيها ويقنعها بتبنّي المعالم التي يقترحها للتغيير والانفتاح في المنطقة كما فعلت حكومة العدالة والتنمية في الأعوام العشرة الأخيرة.

- نجاح العدالة والتنمية في إبعاد المؤسّسة العسكرية عن الحياة السياسية بعد عقود طويلة من التحكّم في مركز القيادة السياسية من وراء الستار.

- الخطوات السياسية الإصلاحية التي أُنجِزت على الأرض على طريق تعزيز الديمقراطية وتمركزها في الحياة العامّة من خلال جملة من القوانين والتعديلات الدستورية التي شملت قوانين الانتخابات والإعلام وتوزيع السلطات ووقوف القواعد الشعبية إلى جانب حكومة رجب طيب أردوغان طوال عقد كامل، ودعمها بقاءه في السلطة والقيادة، أكان ذلك على مستوى البلديات أم تحت سقف البرلمان. وهنا نقطة يجب عدم إغفالها هي أن المواطن التركي أعطى صوته ودعم خيار الحزب الواحد في السلطة بحثًا عن الاستقرار السياسي والاقتصادي الذي كانت تركيا قبل عام 2000 تعاني كلّ سلبياته ومشكلاته.

- نجاح الإسلاميين في تركيا مبكّرًا في تصفية حساباتهم العقائدية والفكرية في ما بينهم. وجاء الحسم في عام 1997 بعد خصومة وفراق بين

العقل المدبّر في الإسلام السياسي التركي نجم الدين أربكان، وتلامذته وأقرب أعوانه في الإدارة، الذين انفصلوا عنه وقرّروا لعب ورقة تغيير اللغة والأسلوب من دون التخلّي عن إسلاميتهم السياسية، وقدرتهم على كسب القواعد إلى جانبهم حتى اليوم.

حتى لا يختلّ التوازن، لا بدّ، ولو بإيجاز، من إلقاء نظرة سريعة على العقبات والمسائل التي تحول دون الاعتقاد أن تركيا نموذج مقبول يمكن تبنّيه والدفاع عنه كخيار بديل لبلدان ثورات الربيع العربي، ويتقدمها:

- ضرورة قبول طرح أن لكلّ دولة خصائصها ومميزاتها التاريخية والثقافية والدينية والسياسية، وهي لا يمكن التفريط فيها أو تركها لمجرّد أن التغيير ضرورة تقتضي التطلّع إلى النماذج القائمة، واختيار الأنسب بينها، ليكون النموذج التركي هو المطروح لكونه الأقرب جغرافيًا واجتماعيًا إلى دول المنطقة.

- لعبة التوازنات العرقية والدينية واللغوية القائمة في المنطقة تتطلّب الحذر في التعامل مع موضوع النماذج البديلة، حتى ولو كانت ناجحة. وهذه مسألة تُطرح باسم من يرفض محاولات التدخّل في شؤون الآخرين، وهي الورقة التي يلوّح بها النظام في سورية اليوم ويلعبها حتى النهاية ضد تركيا تحديدًا، حيث إنها تحاول أن تروّج نموذجها عبر التنسيق مع المعارضة السورية، كما يقول النظام.

- على الرغم من الخطوات والقفزات الكبيرة التي حققتها تركيا على الأرض، فإنّها لا تزال تعاني في الداخل مشكلات دستورية وسياسية واجتماعية أساسية، تحتاج إلى نقاش ومراجعة، يتقدّمها الفصل الحقيقي بين المؤسّسة العسكرية والمؤسّسات المدنية، والدستور الجديد الذي يُنتظَر إقراره منذ سنوات من دون أن يكون هناك أي تقدّم حقيقي على الأرض.

- ابتعاد تركيا أكثر فأكثر عن مشروع الالتحاق بالاتحاد الأوروبي وحاجتها إلى معالجة مسائل وملفّات ساخنةٍ كثيرة تنتظر. وهي جاهزة أساسًا لتتحوّل

إلى بركان ثائر في كلّ لحظة، وتتقدّمها مطالــب العلويين والموضوع الأرميني والملف القبرصي تحديدًا.

- حتى الساعة، لم يحسم حزب العدالة والتنمية، كما يرى بعض الكتّاب الإسلاميين، مشكلة تفاوت توزيع الثروات وتقاســمها. كما أن له علاقات مع المنظمات الماليــة الدولية لم يفرّط فيها على الرغم مــن انتقاده لها بين الحين والآخر. وهو لم يحســم مشكلات كثير من الإســلاميين في تركيا ولم يحلها، وفي صدارتها موضوع الحجاب في المؤسّســات العامة، وكذلك علاقته القوية بواشنطن وبروكسِــل المعروفة لدى الجميع، وهو لن يتخلّى عنها ويفرّط فيها بمثل هذه الســهولة. كما أن حربه المعلنة على الفساد والرشى لم تسجّل حتى الآن انتصارات ميدانية كبيرة.

- بدأ بعض الأصوات والأقلام المقرّبة من حــزب العدالة والتنمية يعلن تململه حيــال الأخطاء المتزايدة في التعامل مع المســائل الداخلية والخارجية التي قــادت إلى حالة من الجمود والتراجع في قضايا تنتظر حلًّا منذ ســنوات، وتهدّد الأمن والاســتقرار فــي تركيا، وفــي مقدّمها المســألة الكردية كما هو معروف.

- تقريــر مفوضية الاتحاد الاوروبي بشــأن مســار العلاقــات التركية - الأوروبية ومضمون الأحكام الصادرة عن محكمــة العدل الأوروبية في قضايا تتعلّق بتركيا، ولها صلة مباشــرة بمســائل الحريــات والديمقراطيــة والتعبير والمشاركة السياســية، كلها نقاط تتعارض مع ما تقوله قيادات العدالة والتنمية عن التغيير والانفتاح وتوسيع رقعة الديمقراطية والحريات في البلاد.

يرى خبراء وكتّاب متعددون أن المنطقة في جميع الأحوال هي أمام فصل جديد يختلف تمامًا عمّا عهدته خلال العقود الأخيرة، وأن ما يجري في الشرق الأوسط يشــكّل حادثًا غير مســبوق، وهذا ما قالته أقلام ونخب تركية عدة في رسائلها العلنية والمباشرة إلى القيادات العربية كما يلي:

- إنّ الديمقراطية تحتاج إلى مجتمع متجدّد يقود البلاد نحو دولة حديثة.

- في تجارب التحوّل الديمقراطي في العالم العربي، كان المشاهَد غالبًا هو كبت الشعوب والقواعد ومنع صوتها الحقيقي من الوصول إلى القيادات، وربّما كانت القيادات نفسها شريكًا في ذلك أحيانًا.

- هيمنة الحكم العسكري وأيديولوجية السلطة المتحكّمة التي يستحيل انتقادها.

- شرعيات مصدرها الوصول إلى السلطة بقوّة السلاح، والاحتفاظ بهذه السلطة بقوّة السلاح أيضًا لتسهل لها الإمساك بخيوط الدولة الدينية والعرقية والعشائرية.

- الاحتكام إلى مؤسّسات غير فاعلة ومجتمع مدني ضعيف يعاني فشل النخب التي رفعت لواء القومية التي ابتكرتها هي لنفسها. وأزمة البرجوازية الصغيرة المرتبطة بالنظام والمشكّلة لدعامته الثانية بعد الجيش، وسط تآكل اقتصادي ثقافي تنموي.

على الرغم من كلّ ما يقال عن النموذج التركي، فإن تركيا لا تزال أمام مفترق طرق بالغ الأهمية، ولا يعرف أحد كيف تجاوزه بأقلّ الخسائر والأضرار، وهو يتعّلق بنتائج حسم المواجهة بين قلاع العلمانية وحصونها والقوى الإسلامية التي تردّد أنّها تتحرّك تحت غطاء النظام العلماني، لكنّها في الحقيقة ملزمة بالاستماع إلى ما تقوله وتطالب به قواعدها الإسلامية التي تنتظر إنجاز المزيد من التغيير يوّفر لها المزيد من المساحة الدينية والسياسية التي تريدها؛ جماعات تقول إنها متمسّكة بما فقدته على مدى عقود، وسط ظروف سياسية وأمنية واجتماعية قادت إلى هذه النتيجة.

إذا أُريد للنموذج التركي أن يكون حقًّا مثالًا يُحتذى، فإن هناك من يطالب بإعطاء الجماهير فرصة التعبير والمشاركة على طريقتها بما اختارته كنمط عيش. وهي في الوقت نفسه فرصة لحماية هوية البلد الوطنية والقومية؛ ففي تركيا، هناك من بذل أيضًا جهدًا كبيرًا لإخافة المواطنين من وصول الإسلاميين إلى السلطة، لكن الفارق هنا هو أن الذين كانوا يفعلون ذلك كانت انتماءاتهم السياسية علمانية متشدّدة، ولم تحظَ بدعم يُذْكر من الليبراليين الأتراك الذين

وقفوا إلى جانب التغيير وحق الإسلاميين في استلام السلطة ضمن انتخابات عادلة تقودهم إلى مواقع القيادة. وربما تكون هذه هي المشكلة الأساس في كثير من البلدان العربية، إذ التقى جهد العلمانيين والليبراليين هناك للتصدّي لمحاولات وصول الأحزاب الإسلامية إلى السلطة. وربما يكون هذا أيضًا ما يقودنا إلى التذكير مرّة أخرى بأن العلمانية التركية مختلفة عن الصورة الشائعة لها في أنحاء العالم العربي والإسلامي، ومتعارضة مع علمانية الغرب المتعارف عليها، في غير مكان.

إن أفضل ما أشارت إليه أنقرة في مثل هذه الظروف هو حتمًا ضرورة إشراك الإسلاميين في الحكم والسلطة، لأن ذلك من حقّهم أوّلًا، واجتناب سياسات إبعادهم وعزلهم التي تقود نحو التطرّف والتصعيد والتأزّم ثانيًا، ولأنّ إشراكهم في السلطة يعني إشراكهم في تحمّل المسؤوليات والأعباء وإلزامهم بوضع أصابعهم تحت الحجر المعرقل، للمساهمة في إزاحته من الطريق وهذا هو الأهمّ. فعندما تقول أنقرة ما عندها، ستكون في مقدّمة المتصدّين لأي رهان على مشروع إقليمي يُخطّط له لافتعال خطّ مواجهة عرقي أو مذهبي داخل الدول العربية والإسلامية أو في ما بينها. وربما يقفز إلى الأمام هنا نموذج التعايش التركي على الرغم من نواقصه وسلبياته العديدة. أما النقطة الثانية التي تركّز عليها حكومة أردوغان خلال مناقشة تصوّرات «الموديل» التركي، فهي أن لكلّ دولة عربية وإسلامية خصائصها وبنيتها وجغرافيتها التي تميزها من بقية الدول، والتي لا يمكن التفريط بها أو تجاهلها خلال الحديث عن خطط التغيير والتحديث. لقد قبلت حكومة حزب العدالة والتنمية المغامرة، وربحتها على ما يبدو، حين عرّضت علاقتها بإسرائيل والكثير من الدول الأوروبية للتراجع إذا كان ذلك على حساب تركيا ومصالحها. وهي الرغم من انحسار رقعة الشعارات التي رفعتها ورددتها في شأن تعدّد الأبعاد، وتصفير المشكلات، و«العمق الاستراتيجي»، لا تزال تستفيد من ثمار ما طرحته وتبنّته في الأعوام الأخيرة من تغيير في سياساتها الخارجية مع جوارها العربي والإسلامي، وكثير من القوى الإقليمية التي كانت تعيش أزمات مزمنة معها. وقد لا تكون الخدمة الكبرى التي قدّمها حزب أردوغان إلى العالم العربي هي رفضه حركات

التطرّف والتشدّد في الإسلام فحسب، بل رفضه كذلك مقولة الإسلام الرسمي الذي فقد صدقيته بسبب المهادنة والحلول الوسط التي كان يقدّمها ولا يزال.

ثار أتاتورك على الحكم القديم، ورسم خيوط العلمانية التركية، لكن العلمانية القائمة لم تنجح في منع وصول حزب العدالة والتنمية إلى الحكم في تركيا، ولم تقف حائلًا بين مبادئها واتّخاذ حكومة أردوغان قرار الانفتاح على العالمين العربي والإسلامي بوضع إسلاميته أيضًا في قلب المعادلة.

ليس غريبًا أن نرى أن في وقت كان السياسي المخضرم وأبو مدرسة الإسلام السياسي في تركيا، نجم الدين أربكان، يودّع الأصدقاء والمقرّبين، تمهيدًا لتنفيذ عقوبة السجن المنزلي مدّة 11 شهرًا، في قضية لها علاقة مباشرة بقرارات حظر حزبه وإغلاقه، كان تلميذه رجب طيب أردوغان الذي انفصل عنه قبل سبعة أعوام تحت شعار التغيير والتحديث في أسلوب الإسلاميين، يضع اللمسات الأخيرة على خطّة الدفاع والمواجهة التي أقرّها حزب العدالة والتنمية للتصدّي لمحاولات حظره. وليس ذلك بالدفاع عن علمانية حزبه بل، كما قال أردوغان نفسه: «عذرًا لا يمكنني أنْ أبقى صامتًا أمام ما يجري ويدور، فأنا لو فعلت سأخون أكثرَ من 16 مليون صوت منحها الشعب التركي لحزبنا في الانتخابات البرلمانية الأخيرة، وحدّد خياراته وأعطى قراراته بشأن الجهة التي يريد أن يراها في الحكم والإدارة، ومع ذلك فهناك من يتجاهل ويصرّ على الخروج عن التقاليد والأعراف».

هنا نستمع إلى ما قالته قيادات حزب العدالة والتنمية عن كون مرحلة التنفيذ بدأت في إثر إنجاز مرحلة التأسيس، وإعلان مشروع التغيير والإصلاح على غير صعيد، وفي غير مكان. وهي مرحلة جديدة بدأت بمناوشات عبر إقرار عشرات القوانين والتشريعات السياسية والاجتماعية والتربوية، ثم طرح مسألة إعداد دستور جديدٍ للبلاد، من دون العودة إلى المعارضة السياسية، لكنّها كلّها محاولات تراجعت عنها الحكومة لاحقًا بعد اكتشافها صعوبة تجاهل الأحزاب الأخرى في مسائل سياسية ودستورية واجتماعية حسّاسة من هذا النوع، وكذلك إذا كانت تريد حقًّا البقاء في السلطة حقبة جديدة رابعة.

الفصل السابع

الأهداف والمصالح الإيرانية في النظام العربي بعد الثورات

طلال عتريسي

أولًا: إيران قبل الثورات

لم تتوقّع إيران حدوث الثورات العربية، شأنها شـأن باقي دول المنطقة. هذه الثـورات «المفاجئة» سـتجعل التقديرات والسـيناريوات الاسـتراتيجية مفتوحة على الاحتمالات كافّة. وكانت إيران، منذ سـنوات، مشغولة بأولويات ذات صلة بأوضاعها الداخلية والخارجية، من مشـكلة الانتخابات الرئاسية في عام 2009، وظاهرة الحركة الخضراء، إلى قضية برنامجها النووي والعقوبات المالية والنفطية المفروضة بسـببه، التي بدأت تؤثّر سلبًا في الواقع الاقتصادي في إيران، إضافة إلى إدارة الصراع بشـأن هذا البرنامج مع القوى الدولية، من التفـاوض مع مجموعـة 5+1 إلى التهديد الإسـرائيلي المباشـر بقصف هذا البرنامج، أو بشنّ حرب واسعة على إيران[1].

---

(1) النهار، 28/5/2010. يُشـار هنا إلى أن هذا البحث كتب قبل اتفاق التفاهم الذي وقّع بين إيران ومجموعة 5 + 1 في 25/11/2013 (المحرر).

لــم تكن إيــران تبحث عن مشــكلات إضافية فــي علاقاتهــا العربية أو الإقليمية؛ فمشــكلاتها «النوويــة» والاقتصاديــة والنفطية، وحتــى الداخلية، تدفعها إلى اجتنــاب أي توتّر في هذه العلاقات، بل إنها على العكس من ذلك، حاولت - مثلًا - أن تعطي علاقاتها بتركيا دفعًا قويًا من خلال ما سمّي «إعلان طهران» المتعلق ببرنامجها النووي. وقبلــت بموجب هذا الإعلان بدور لتركيا لم تقبل به لروســيا في الســابق، أيْ تبادل الوقود الإيرانــي المخصّب بالوقود النووي الغربي على الأراضي التركية[2]. كما أنها دعمت المبادرة الســعودية - السورية لحلّ الأزمة السياســية في لبنان في عام 2010[3]، وتجنّبت التوتّر مع المملكة العربية الســعودية علــى الرغم من إعلان صفقة أســلحة ضخمة بين المملكة والولايات المتحدة بلغت قيمتها 60 مليار دولار ومدتها عشرة أعوام، علمًا بأن هذه الصفقة تهدف، بحســب المحلّلين العسكريين، إلى تعزيز التفوق الجوي الســعودي إزاء إيران، فضلًا عن ســدّ بعض الثُّغَر الدفاعية التي ظهرت خلال حرب القوات السعودية ضد الحوثيين على الحدود مع اليمن. وبموجب

(2) إن أهم تطور في العلاقات الإيرانيــة - التركية هو الاتفاق الذي عرف بـ «إعلان طهران» مع تركيا والبرازيل في شــأن التبادل النووي في 17 حزيران/ يونيــو 2010. وبموجب هذا الإعلان، تقبل إيران (أول مرة) نقل اليورانيوم المنخفض التخصيب إلــى تركيا التي تحتفظ به إلى حين وصول الوقود النووي من الخارج (العالي التخصيب بنسبة 20 في المئة) فترسله تركيا إلى إيران. وأعطت إيران تركيا هذا الدور المهم بعدما رفضت ســابقا فكرة إرســال اليورانيوم إلى خارج الأراضي الإيرانية، أكان إلى فرنسا أم إلى روســيا. عزز هذا الاتفاق الدور التركي الإقليمي لكنه ســاهم في الوقت نفسه في وقوف تركيا إلى جانب إيران وفــي رفض التصويت - مع البرازيل - على قرار العقوبات ضد إيران في مجلس الأمن.

(3) كان لافتًا في لبنان التنســيق وتبادل الزيارات بين ســفيري المملكة الســعودية والجمهورية الإســلامية الإيرانية لـ «حماية لبنان وتعزيز اســتقراره»، وتأكيد «العلاقات الطيبة بين طهران والرياض، وضــرورة العمل على اســتخدام كل الإمكانــات باتجاه تعزيز هــذه العلاقات بما يخــدم قضايا الأمّة الإســلامية». ومن طهران أيضًا قال وزير الخارجية الإيراني بعد لقاء السفير السعودي في طهران محمد بن عباس الكلابي: «إن المشــاورات بين طهران والرياض لها نتائج إيجابية على الملفات الإقليمية»... وأن «تطوير العلاقــات بين البلدين يصبّ في مصلحــة الطرفين والعالم الإســلامي والمنطقة»، واصفًا إيران والسعودية بأنهما بلدان مهمان ومؤثران في المنطقة والعالم. وأكّد أنّ الحوار والتعاون بين البلدين ســيؤدي إلى الارتقاء بمكانة البلدان الإســلامية على صعيد التطورات الإقليمية والدولية. انظر: السفير، 2010/10/27.

الصفقة، سيسمح للسعوديين بشــراء 84 مقاتلة جديدة من طراز «أف - 15»، فضلًا عن تحديث 70 مقاتلة أخــرى من الطراز ذاته، إضافةً إلى شــراء 178 طائرة هليكوبتر هجومية وعدد من الصواريخ المتنوعة[4].

في الإطار نفســه، رأى علاء الدين بروجوردي، رئيس لجنة الأمن القومي والعلاقات الخارجية في البرلمان الإيراني، فــي تعليقه على وثائق ويكيليكس التي نشــرت دعوات بعض القادة العرب لضرب إيــران: أن «هدف الولايات المتحدة من نشر وثائق سرية على موقع ويكيليكس هو التأثير في علاقات بلاده بدول المنطقة. وأن نشــر الوثائق الســرية الجديدة ليس إلّا خطة شيطانية لزرع الخلافات بين إيران والدول المجاورة، ويجب ألّا ننخدع بهذه المعلومات»... وأضاف: «عندما يعلن الأميركيــون أن الدول العربية تشــجعهم على مهاجمة إيران، فذلك يعني أن واشــنطن تستهدف المســاس بنوعية العلاقات بين إيران ودول المنطقة، داعيًا إلى عدم الانخداع بهذه الأساليب»[5].

رأى وزير الخارجية الإيراني علي أكبر صالحي بدوره أن «كبرى أولويات إيران دبلوماســيًا ينبغي أن تكون الجيران والعالم الإســلامي. في هذا الإطار، للســعودية وتركيا مكانة خاصّة»، وتابع: «إن السعودية تستحق علاقات سياسية مميــزة مع إيران. وإيران والســعودية يمكنهمــا، كدولتين فاعلتيــن في العالم الإسلامي، حلّ الكثير من المشكلات معًا»[6].

كانت إيران حريصة على عــدم توتّر علاقاتها بالدول العربية، إلّا أن بعض التصريحات الإيرانية بشــأن البحريــن والجزر الإماراتيــة، والاتّهام الأميركي لإيران بمحاولة اغتيال الســفير السعودي في واشــنطن، أرخى بظلّه على هذه العلاقات التي كانت تتعرّض بعــد كلّ تصريح أو اتّهام للتوتّر والتراجع، بحيث بقيت عمومًا باردةً حينًا ومتوترة حينًا آخر، مع ملاحظة الفروق في هذا البرود أو في هذا التوتّر بين بلد عربي وآخر لناحية علاقته بإيران.

(4) السفير، 16/ 9/ 2010.
(5) موقع قناة العالم، 3/ 12/ 2010.
(6) موقع الإسلام اليوم، 19/ 12/ 2010.

لكن إيران لم تنظر يومًا إلى دورها وموقعهـــا الإقليمي من خلال العلاقة بالدول العربية فحســـب؛ فجوار إيران المباشـــر هو جوار متعدّد: عربي وتركي وأفغاني وباكســـتاني، إضافة إلى بحر قزوين والدول المجاورة له، من روســـيا إلى الدول الجديدة في آســـيا الوســـطى. لذا، كانت إيران تعمل بلا توقّف على تطويـــر علاقاتها الإقليميـــة غير العربية، وصـــولًا إلى تطويـــر علاقاتها الهندية والصينية والروســـية. وتحوّلت العلاقات الإيرانية - التركية نموذجًا؛ إذ وقفت إيران إلى جانب تركيا سياسيًا بعد المجزرة التي تعرّض لها ناشطون أتراك على متن أسطول الحرية (ســـفينة مرمرة) المتجهة إلى قطاع غزة. وبلغ حجم التبادل التجاري بين البلدين نحو 7.5 مليارات دولار في عام 2010. ووقّعت طهران في الإطار نفســـه مع شركة «سوم بترول» التركية اتفاقًا لإنشاء خـــطّ أنابيـــب للغـــاز طوله 660 كلم بقيمة مليار يورو (1.3 مليار دولار). وقال رئيس شركة الغاز الوطنية الإيرانية جواد أوجي «إن خطّ الأنابيب سيمكّن إيران من تصدير ما بين 50 إلى 60 مليون متر مكعب من الغاز يوميًا، وسيجري إنشاؤه في غضون ثلاث ســـنوات»[7]. أمّا التحول الاســـتراتيجي الأبرز في علاقات إيران وتركيا فكان في شطب إيران من لائحة الدول التي تمثّل تهديدًا للأمن القومي التركي. لذا رأى مراســـل صحيفة لا ســـتمبا الإيطالية «...أن من شأن هذا التحالف بين الدولتين المســـلمتين أن يمنحهما في المدى البعيد دورًا أقوى في المؤسّسات الإسلامية على المستوى الدولي»[8].

مع باكســـتان وقّعت إيـــران، في إطار توطيد شـــبكة علاقاتهـــا الإقليمية الاقتصاديـــة والسياســـية، اتفاقًا لتزويد باكســـتان بالغاز الطبيعي بـــدءًا من عام 2014، بموجب عقد مدّته 25 ســـنة أبرمـــه البلدان في طهـــران. ووقّعا عقد «خط أنابيب الســـلام» عقب اتفاق أبرماه لبناء أنبوب غاز يربط إيران بباكستان في مشـــروع قيمته 7.5 مليارات دولار، يتفاوض البلَدان بشـــأنه منذ 17 عامًا. وينصّ العقد الذي وقّعه مسؤولون في الشركة الوطنـــية الإيرانية لتصدير الغاز

---

(7) السفير، 24/ 7/ 2010.

(8) الأخبار، 25/ 8/ 2010

وشـــركة «إنتر - ستايت غاز» الباكستانية، على تزويد باكستان يوميًا ما مقداره 21 مليون م^3 من الغاز الطبيعي لمدة 25 عامًا[9].

مع الهند، ارتفع حجم التجارة الإيرانية خلال ثلاثة أعوام من حوالى 9.3 مليــارات دولار إلى حوالى 15 مليــار دولار في عــام 2010. ووقّع الطرفان اتفاقات اقتصادية وتفاهمـــات تجارية عدة، مع توقّعات بأن يرتفع حجم التبادل التجاري بينهما إلى 30 مليار دولار خلال الأعوام الخمســة المقبلة. ويشــكّل قطاع الطاقة حجر الأساس في علاقة البلدين؛ إذ تحتلّ الهند مرتبة خامس أكبر مســتهلك لمصادر الطاقة في العالم، وتعتمد بصورة كبيــرة على الواردات من الخارج. وفــي المقابل، يُعتقد أن إيران هي ثاني أكبــر منتج للنفط في «أوبك» ومالكة لثاني أكبر احتياط من الغاز الطبيعي في العالم بعد روسيا.

من هذا المنطلق، ترتدي طهران أهمية متزايدة في اســتراتيجية أمن الطاقة الهندية، إذ تمثّل اليوم ثانــي أكبر مصدّر للنفط الخام إلــى الهند بعد المملكة العربية الســعودية. وتبلغ قيمة واردات نيودلهي منها حوالــى 11 مليار دولار ســنويًا من النفط الخام، أو ما يشــكّل قرابة 14 في المئة مــن مجموع فاتورة الواردات الهنديــة من النفط من الخــارج، وحوالى 85 فــي المئة من مجمل وارداتها من طهران[10].

ســمح تنامي الأدوار الإقليمية لكلّ من تركيا وإيران في الأعوام الماضية، وشــبكة علاقاتهما الواســعة، بالدعوة إلى ما ســمّاه بعض الباحثيــن الغربيين «مثلّث القوة المقبل» لـ «إرساء دعائم الســلام والاستقرار». ففي مقالة تخالف التوجّهــات الحالية للسياســة الخارجية الأميركية، يرى الكاتب ســتيفن كينزر «أن على تركيــا وإيران أن تكونا حليفتيْ الولايــات المتحدة... لأن التحالفات الحالية للولايات المتحدة، خصوصًا مع المملكة العربية الســعودية وإسرائيل، وإنْ كانت قد خدمت واشــنطن في الحرب الباردة، لم تستطع أن ترسي دعائم

---

(9) وكالة أ ف ب ووكالة رويترز، 14/ 6/ 2010.

(10) علي حســين باكير، «العقوبات على طهران تضع نيودلهي تحت الاختبار الأمريكي،» موقع منبر الحرية، 27/ 8/ 2010.

السلام والاستقرار في الشرق الأوسط... لذا يجب أن نعمل لتكون تركيا وإيران حليفتيْ الولايات المتحدة في المستقبل...»[11].

لذا، كانت إيران قبل الثورات العربية تنسج علاقات واسعة، اقتصادية ونفطية واستراتيجية، مع دول الجوار الإقليمي. وكانت تشعر بتنامي دورها ونفوذها، وبأن الحاجة إليها وإلى هذا الدور لم يعد من الممكن تجاهله، باعتراف المحلّلين والباحثين ودوائر صنع القرار الغربية، خصوصًا بعد الانسحاب الأميركي من العراق وقرار الانسحاب المقبل من أفغانستان. لكن إيران كانت في الوقت نفسه تشعر بالقلق من المحاولات المستمرّة لتقويض هذا الدور والتخلّص من تلك الحاجة إليها ومن التهديد المباشر بالعداون العسكري عليها من إسرائيل مباشرة أو من الولايات المتحدة التي تؤكّد دائمًا أن الخيارات كلها مفتوحة في التعامل مع البرنامج النووي الإيراني، إضافة طبعًا إلى عقوبات مجلس الأمن على الصعيدين المالي والنفطي بما شكّل إرباكًا في الداخل الإيراني اضطّرت معه الحكومة الإيرانية إلى اعتماد سياسة تقنين البنزين، مثلًا، ووضع سلّم متفاوت لأسعاره، خصوصًا بعد تدهور سعر صرف الريال في نهاية عام 2012 وتراجعه نحو 30 في المئة.

بلغت التهديدات الإسرائيلية بضرب إيران وتدمير برنامجها النووي مستوى من الجدية أقلق إدارة أوباما نفسها، فيما هي تستعدّ للانتخابات الرئاسية الجديدة. وفي التقرير الصادر عن معهد أبحاث الأمن القومي الإسرائيلي[12] تفاصيل واسعة لوجهة النظر الإسرائيلية بشأن «التحدّي الإيراني» وتطوّرات البرنامج النووي وسياسات واشنطن تجاه هذا البرنامج، وتجاه إيران نفسها. وذكرت مجلّة تايم[13] على سبيل المثال، أن «واشنطن تخطّط جديًا» لضرب

(11) Stephen Kinzer, «The Next Power Triangle,» *American Prospect*, vol. 21, no. 6 (July-August 2010).

(12) معهد أبحاث الأمن القومي الإسرائيلي، التقرير الاستراتيجي السنوي لإسرائيل 2010، ترجمة مركز قدس نت للدراسات والإعلام والنشر الإلكتروني، قراءة نقدية أمين محمد حطيط ([د. م.]، مركز باحث للدراسات الفلسطينية والاستراتيجية، 2010).

(13) *Time*, 16/7/2010.

إيران بالتنسيق مع إسرائيل، وأن القيادة الوسطى الأميركية التي تدير العمليات في الشرق الأوسط حققت تقدّمًا «مهمًّا» في التخطيط لضربات محدّدة ضدّ إيران... خشية «توجّه الحكومة اليمينية الإسرائيلية نحو المبادرة إلى ضرب إيران أحاديًا». لكن إسرائيل عمليًا كانت تعاني قلقًا حقيقيًا ممّا تراه عجزًا «أميركيًا عن منع إيران وقف برنامجها النووي وعن اتّخاذ القرار بتوجيه ضربة عسكرية إليها»[14].

في مواجهة العقوبات المتواصلة من مجلس الأمن ومن الدول الغربية والولايات المتحدة، لم تقف إيران مكتوفة، بل طوّرت علاقاتها بكلّ من الصين وروسيا، فعرضت على روسيا في 27/ 8/ 2010 «إنشاء كونسورسيوم، برعاية روسية، للقيام بجزء من العمل (إنتاج اليورانيوم) في روسيا وجزء في إيران...». ومع الصين، أجرت محادثات لاستخدام عملة اليوان الصيني، لتسوية صفقات النفط والمشاريع. وينصّ الاقتراح على أن تفتح إيران، ثالث أكبر مورّد للنفط إلى الصين، حسابًا باليوان في بنك صيني، وتتلقّى مدفوعات عن إمداداتها من الخام. ويمكن أن يسدّد هذا الحساب جزئيًا مبيعات إيران من الوقود والمعدّات، وغيرها من المشاريع مع الصين[15].

في إطار استراتيجية التفلّت من التأثيرات السلبية للعقوبات، عقدت إيران مع العراق اتفاقات تعاون وتفاهم بلغت أكثر من 170 اتفاقًا. كما بلغ حجم التبادلات التجارية بين البلدين في عام 2009 نحو 7 مليارات دولار. ويسعى البلَدان إلى تنمية المبادلات التجارية، مثل تسهيل منح تأشيرات للتجار والمستثمرين الإيرانيين[16]. كما وافق العراق على مدّ أنبوب لنقل الغاز الإيراني عبر الأراضي العراقية إلى سورية وصولًا إلى البحر الأبيض المتوسّط[17]. وفي وقت تتوقّع واشنطن تنفيذ العقوبات، توقعت طهران أن تتجاوز قيمة صادراتها

(14) يديعوت أحرونوت، ترجمة المصدر - رام الله، النهار، 17/ 8/ 2010.
(15) السفير، 30/ 9/ 2010.
(16) وكالة يو بي آي، 11/ 8/ 2010.
(17) قناة روسيا اليوم، 16/ 8/ 2010

إلى العــراق في عام 2010 ثمانيــة مليارات دولار، مرتفعةً من ســتة مليارات دولار في عام 2009، ومدعومةً بمبيعات المعدّات والمواد اللازمة لإعادة بناء البلد الذي دمرته الحرب. وتعدّ إيران الشــريك التجاري الرئيس للعراق، ومن أكبر المســتثمرين في البلد منذ الغزو الذي قادتــه الولايات المتحدة وأطاحت به نظام الرئيس الســابق صدام حسين في عام 2003. وتســتثمر إيران في بناء محطّات الكهربــاء والمدارس والفنادق ومصانع الطوب فــي إطار جهد إعادة بناء العراق. وتشمل الصادرات الإيرانية إلى العراق مواد البناء والبتروكيمائيات والمعدّات الصناعية والأجهزة الطبّية والغذاء، كما تشــمل زيت الغاز لتشــغيل محطّات الكهرباء العراقية. وصــدّرت إيران إلى العراق فــي عام 2004 نحو 40 ألف ســيارة، ويصدّر العراق إلى إيران التمور والكبريت والجلود، وبعض المحاصيل في حال توافرها[18].

أمّا علاقة إيران بسورية فكانت مستقرّة على المستوى الاستراتيجي طوال العقود الثلاثة الماضية. وتطوّرت على المستويات التجارية والاقتصادية، إلّا أن جوهرها كان على المستوى الاستراتيجي في ما أُطلق عليه «محور الممانعة»، أو «محور المقاومة» الذي قادته إيران في مواجهة إســرائيل، مع حركات المقاومة في لبنان وفلســطين وفي مواجهة السياســات الأميركيــة والاحتلال الأميركي للعراق. ومن المعلوم أن ســورية كان لها دور مهمّ في تسهيل انتقال المقاتلين إلى العراق ضــد قوات الاحتلال الأميركي. ووجّهــت الولايات المتحدة إليها إنذارات وتهديدات عديدة بسبب هذا الدور.

على المستوى الاستراتيجي، كانت إيران منذ عام 2003 إلى عام الثورات العربية (2011) في وضعية دفاعية. وخلافًا لما يردّده البعض، كان المشــروع الإيراني دفاعيًا على الرغم مــن محاولات الهجوم أو التقــدّم في هذا الموقع أو ذاك، في لبنان أو في العراق وفلســطين، أو في أفريقيــا، أو حتى في أميركا اللاتينية، أكان ذلك من خلال نســج العلاقات الدبلوماسية أم الاستراتيجية أم الاقتصادية أم الأمنية.

(18) وكالة رويترز، 25/ 4/ 2010.

كانت إيران قبل الثورات العربية تمارس سياســات دفاعية، اقتصاديًا للحدّ من تأثير العقوبــات المفروضة نفطيًــا وماليًا وتجاريًا وسياســيًا لمنع تطويقها والحدّ من تأثيرها ونفوذها الإقليمــي. وكانت تنفق جزءًا مهمًّا من عوائد النفط لبناء ترسانة عسكرية، وكانت تُجري المناورات لمواجهة التهديدات الإسرائيلية والأميركية المتواصلة بضرب منشآتها النووية، أو تلوّح بإغلاق مضيق هرمز ردًّا على تلك.

باتت إيــران بعد الاحتلال الأميركــي للعراق في موقع التهديد المباشــر من جانب 150 ألــف جندي أميركي على الأراضــي العراقية، وعلى حدودها مباشرة، خصوصًا أن مشــروع المحافظين الجدد في واشــنطن بشأن «الشرق الأوسط الجديد» كان يدعو إلى تغيير النظام الإيراني أيضًا.

في عام 2004 تقدّم الهجوم الأميركي نحو حلفاء إيران في سورية ولبنان، فصدر القرار رقم 1559 الذي يدعو إلى ســحب القوات الســورية من لبنان، وإلى نزع ســلاح الميليشــيات (ســلاح «حزب الله»). وفي عام 2005 كانت جريمة اغتيال رئيس الحكومة اللبنانية الســابق رفيق الحريــري. ووُجّه الاتّهام المباشــر إلى ســورية (قبل أن يتحوّل هذا الاتّهام إلى حزب اللــه لاحقًا). ثمّ أُرغمت سورية على سحب جيشها من لبنان. وكانت هذه الخطوة الاستراتيجية تراجعًا في نفوذ سورية في لبنان لأوّل مرّة منذ ثلاثين عامًا. لم تنقضِ سنة واحدة على هذا التراجع حتى شنّت إسرائيل في عام 2006 حربها للقضاء على حزب الله (الحليف القوي لإيران). وأدّى فشــل هذه الحرب إلى نتائج معاكسة تمامًا للهدف الأميركي- الإسرائيلي، إذ ارتفعت شعبية حزب الله وإيران في المنطقة العربية. لكن الهجوم على «محور الممانعة» لم يتوقّف، وعادت الحرب مجدّدًا على حركة «حماس» فــي قطاع غزة في نهاية عــام 2008 وبداية عام 2009. وفي لبنان، بات «حزب الله» وســلاحه هدفًا للتحريض السياســي والإعلامي اليومي. وكشف السفير الأميركي الســابق في لبنان جيفري فيلتمان أن حكومته أنفقت 500 مليون دولار لتشويه صورة هذا الحزب.

خلال هذه الفترة أيضًا، تعرضَت إيران لمجموعة من العقوبات القاسية،

الاقتصادية منها والمالية والنفطية، لمنعها من الاستمرار في برنامجها النووي ومـــن متابعة تخصيب اليورانيـــوم، أيْ أن إيران كانت طـــوال العقد الماضي تتعرض لضغط مباشـــر عليها، أو على حلفائها في لبنان وسورية وفلسطين. لذلك، كانت تحاول - حيثما اســـتطاعت - أن تقطع الطريق على الولايات المتحدة وحلفائها، أو أن تســـعى إلى دعم حلفائها في مواقع السلطة والنفوذ في العراق أو لبنان، أو أن تنسج العلاقات الاستراتيجية والاقتصادية والنفطية مع خصوم الولايات المتحدة، من أميركا اللاتينية وصولًا إلى روسيا والصين والهند وفنزويلا.. ومـــا لا يقلّ أهمية هو أن إيران لم تتخلّ عن اســـتراتيجية «شـــعرة التفاوض» مع الغرب في ما يتعلق ببرنامجها النـــووي، ولم تتجاوز حافّـــة الهاوية في تهديداتها بإغـــلاق مضيق هرمز. لذا يرى محمد حســـنين هيكل أن المشـــروع الإيراني «محدود في إطاره لأســـباب عديـــدة تصنعها الجغرافيا بالمسافات ويصنعها التاريخ بالثقافات، إلى جانب أن هذا المشروع تحت حصار، وعليه فإن استراتيجيته الآن استراتيجية دفاع...»[19].

ثانيًا: إيران وسورية والنظام العربي قبل الثورات

كان النظـــام العربي قبل الثـــورات العربية، ومنذ التســـعينيات، في مرحلة جديدة من التفكّك والانقســـام. إذ دخلت القوات العراقيـــة الأراضي الكويتية واحتلّتها بالقوّة. ثمّ انضمّت معظم الدول العربية إلى التحالف الدولي (عاصفة الصحراء) لطرد الجيش العراقي من الكويـــت. ولم تفعل جامعة الدول العربية شـــيئًا لمنع احتلال العراق في عام 2003، بل صمت بعضها وشـــجّع بعضها الآخر هذه العملية، أي إن النظام العربي، ومن خلال جامعة الدول العربية، لم يكنْ له أي دور فعلي في حلّ المشـــكلات العربيـــة - العربية، ولا في مواجهة العدوان على بلـــد عربي، ولا في منع احتلاله أو حتـــى التنديد بهذا الاحتلال. أضف إلى ذلك أن العراق، أحد أهمّ مكوّنات النظـــام العربي إلى جانب مصر وســـورية والمملكة الســـعودية، بقي خارج أي تأثير في السياسات العربية منذ

---

(19) انظر مقابلة محمد حسنين هيكل، في: الأهرام، 4/ 10/ 2012.

عام 1990 (بعد احتلال الكويت) إلى عام 2012، بسبب عدم الاستقرار الذي يعيشه، وبسبب التركيبة المذهبية والعرقية للنظام الجديد التي ساهمت الولايات المتحدة في صوغه، ما جعله ضعيف التأثير والفاعلية في النظام العربي وفي جامعه الدول العربية التي تشكو أصلًا الترهّل والضعف، وتحتاج إلى إعادة الهيكلة، كما كان يردّد أمينها العام عمرو موسى.

كانت سورية من جهتها في تحالف استراتيجي مع إيران، وتفاوتت علاقاتها العربية بين التوتّر (مع مصر والمملكة العربية السعودية) بعد اغتيال الحريري وحتى حرب تموز/ يوليو 2006، والتنسيق (مع المملكة)، خصوصًا في ما يتعلق بلبنان والعراق (تأييد أياد علاوي لرئاسة الحكومة العراقية، وتأييد التفاهم في لبنان بين سعد الحريري وحزب الله بشأن رئاسة الحكومة والمحكمة الدولية قبل أن يطيح حزب الله وحلفاؤه هذا التفاهم بعدما رفض سعد الحريري سحب تأييده للمحكمة الدولية). وزامن هذا التنسيقَ مع المملكة العربية السعودية مستويان: **الأول** هو نهاية القطيعة الغربية لسورية بعد مرحلة اتّهامها باغتيال رفيق الحريري (بين عامي 2005 و2008)، **والثاني** هو الإعلان العربي- الغربي عن استراتيجية جذب سورية بعيدًا من إيران. ومن المعلوم أن جهدًا كبيرًا ووعودًا علنية عربية ودولية بُذلا لفكّ تحالف سورية مع إيران، لكنّها فشلت، ولم تؤدّ إلى ما سمّي «استعادة سورية إلى الحضن العربي»[20].

أجهزت الثورات العربية على ما بقي من النظام العربي القديم المترهّل؛ حيث تمكّن المتظاهرون والمحتجّون في الميادين والعواصم العربية المختلفة من زعزعة معظم الأنظمة التي شكّلت منذ عقود أعمدة هذا النظام وجامعته. ثمّ تهاوت رؤوس ذلك النظام من تونس في المغرب العربي إلى مصر، قلب

(20) أكد المتحدث باسم الخارجية الأميركية فيليب كراولي في أثناء زيارة الملك عبد الله إلى سورية في نهاية تموز/ يوليو 2010، أن واشنطن قلقة من العلاقة بين دمشق وطهران، وقال إن على سورية توسيع علاقاتها بدول المنطقة والابتعاد عن إيران. انظر: قناة العالم الاخبارية، 29/ 7/ 2010.

هذا النظام، وصولًا إلى ليبيا واليمن ثــم البحرين في عقر دار مجلس التعاون الخليجي قبل أن تنتقل إلى ســورية في قلب المشــرق العربــي. هكذا انفرط عقد النظام القديم خــلال عام 2011، لكنّ النظام الجديد لم يبصر النور بعدُ؛ فالثورات لم تشــهد نهاياتها ولم يكتمــل عقدها، والحكومــات الجديدة لم تســتقرّ، وسياســاتها الجديدة لم تتّضح وتتبلور وإنْ كانت الأوضاع الداخلية الاقتصادية والاجتماعية على ســلّم الأولويات قبل أي سياســات إقليمية أو عربية. وإيران واحدة من القوى الإقليمية المهمّة التي شُــغلت بما حصل من ثورات عربية. ومــن اللافت أن تكون هي الدولة الوحيدة التي ســارعت إلى توصيف هذه الثورات بأنها «صحوة إســلامية» بعدما أعلنت تأييدها ودعمها لها. وإن أي جردة حســاب في منظور الأرباح والخسائر الاستراتيجية سوف تبين لنا أن المرحلة الأولى من نتائج الثورات كانت في مصلحة إيران مباشرة؛ فغياب زيــن العابدين بن علي، ثم حســني مبارك، ثم علي عبــد الله صالح، أضف إلى ذلك حركة الاحتجاج التي اندلعت في البحرين، كانت كلّها لإيران خسائر محقّقة في جبهة الطرف المناوئ لها: أيْ ما يُعرف بـ«جبهة الاعتدال» التي تقودها المملكة العربية الســعودية إلى جانب مصر. وشكّلت هذه الجبهة في الأعــوام الماضية حاجــزًا في وجه إيران، ونسّــقت المواقف السياســية والإعلامية ضدّها وضد حلفائهــا، خصوصًا حزب الله فــي لبنان والمالكي في العراق. وكانــت المواقف المصرية والســعودية الرســمية لافتة في أثناء العدوان الإســرائيلي على لبنان في المواجهة مع حــزب الله، عندما اعتقدت هذه المواقف أن حزب الله يتحمّل مســؤولية هذه الحرب بسبب ما رأت أنه «مغامرة غير مسؤولة».

يختلف «محــور الاعتدال» تمامًا عــن رؤية إيران الاســتراتيجية للصراع العربي - الإســرائيلي؛ ففي حين تؤيد إيران مبدأ المقاومة ضد إسرائيل وتقدّم الدعم، وتراها الســبيل الوحيد لاســترجاع الأرض، وتدعو إلى اســتمرارها، فإنّ محور الاعتدال في المقابل يرى في التفاوض الوســيلة الفضلى لحلّ هذه القضية. لذا، يرى أن دعم السلطة الفلسطينية ورئيسها أبي مازن هو المطلوب. وقد تقدّم مؤتمر القمّة العربية، بدعم من المملكة العربية السعودية وتأييدها في

عام 2002، بمبادرة سميت «المبادرة العربية للسلام» لحلّ الصراع والاعتراف بإسرائيل والتطبيع معها، لكن بشــرط موافقة هذه الأخيرة على تأسيس الدولة الفلسطينية.

كان هذا المحور في الوقت نفسه حليفًا للولايات المتحدة الأميركية طوال العقود الماضية، وهو مــا تؤكّده حتى التصريحات العلنيــة للطرفين. أمّا مصر تحديدًا فكان رئيســها بالنســبة إلى إســرائيل - كما قالت بعد سقوطه - «كنزًا استراتيجيًا».

كانت علاقات إيران العربية قبل الثورات متفاوتة بين دولة وأخرى، لكنّها الأقلّ دفئًا مع المملكة العربية الســعودية ومصر التي كانت سياستها أكثر تطابقًا مع سياســة المملكة تجاه إيران من أي دولة عربية أخرى، وحتى أكثر من دول الخليج نفســها، مثل الإمارات والكويــت وقطر وباقــي دول مجلس التعاون الخليجــي. ومصر هــي الدولة العربية الوحيــدة التي رفضت إعــادة علاقاتها الدبلوماسية مع إيران منذ الثمانينيات، بينما استمرت هذه العلاقات مع المملكة ومع باقي الدول الخليجية. لذا، شــكل سقوط مبارك بالنســبة إلى إيران ربحًا اســتراتيجيًا صافيًا لأنّه زعزع محــور الاعتدال بحيث بــدا أن المملكة العربية الســعودية باتت تقف على قدم واحــدة بعدما فقدت حليفها الرئيس حســني مبارك.

لم تكن تســمية محوريْ الاعتدال والممانعة ســوى انعكاس للاختلاف بين استراتيجيتين في التعامل مع القضايا الإقليمية، ومع المقاومة والتسوية وما تفترض تلك الاســتراتيجيات من تحالفات إقليمية ودولية، مع روسيا والصين من جهة، أو مع الولايات المتحدة من جهة ثانية.

كان كلّ محور يحاول إضعاف المحور الآخر بجميع الوســائل المباشرة وغير المباشــرة. ولهذا، عندما وقفت مصر والمملكة ضد حزب الله في حرب تموز/ يوليو 2006، كان المقصود الموافقة على ضرب أحد أهم أطراف محور الممانعة، وأحد أهم حلفاء إيران في المنطقة. وعندما شــنّت إسرائيل الحرب

في عام 2008 -2009 علـــى قطاع غزة ضد حركة «حماس»، كان من أهدافها أن تحاول مجـــدّدًا ضرب ركن آخر من أركان محـــور الممانعة وحليف لإيران وسورية. وعندما دعمت إيران مجيء المالكي إلى رئاسة الحكومة العراقية، كان غرضها أن تأتي بحليف لها وتمنع في الوقت نفسه أياد علاوي، صديق المملكة العربية الســـعودية أو حليفها، عن تولّي هذا الموقع المهمّ لطهران. وكان الأمر واضحًا من خلال الدعم الذي حصل عليه الأخير مـــن تركيا والمملكة العربية السعودية، وحتى ســـورية قبل أن تقتنع بوجهة النظر الإيرانية بدعم المالكي لا علاوي.

كانت المواجهة بين المحوريـــن علنية حينًا وصامتة حينًـــا آخر. ولم تنجُ سورية بدورها من هذه المواجهة؛ بل تعرضت لنوعين من المحاولات لجذبها بعيدًا من «محور الممانعة» وإيران: الأول من خلال التطويق والاتّهام المباشـــر باغتيال رئيس الحكومة اللبنانية الأسبق رفيق الحريري. والثاني من خلال الوعود والإغواء لا التهديد أو التطويق. هكذا، بات المطلوب أن تبتعد سورية طوعًا عن إيران، مع الوعود بكل أنواع الدعم الاقتصادي والسياسي لها. والهدف تفكيك محور الممانعة الذي ســـيؤدّي إلى إضعاف إيران وخسارتها إحدى أهمّ أوراق قوّتها ونفوذها وجاذبيتها ودعايتها السياسية، لأن جوهر التمايز في سياسة إيران في المنطقة هو دعم المقاومة، وأهمّ قضية لمحور الممانعة هي قضية المقاومة فحسب (وهذا المحور يُسمّى أيضًا محور المقاومة) وليس أي قضية أخرى في الشرق الأوسط. لكن سورية لم تتفاعل مع تلك الوعود كافّة، ولم تنسحب من تحالفها مع إيران، وبقيت في ذلك المحـــور، ولم «ترجع» إلى «البيت العربي» كما كان يأمـــل أو يتوقّع أطراف «محور الاعتـــدال»، خصوصًا المملكة العربية السعودية.

تمكّنت ســـورية من تجـــاوز محنة تطويقهـــا باغتيال الرئيـــس الحريري، واســـتعادت علاقاتها بدول العالم، من أوروبا إلـــى الولايات المتحدة. وباتت العلاقات التركية - السورية نموذج علاقات دول الجوار الاستراتيجية والودية. وتحدّث وقتها أحمد داوود أوغلو عن أهمية ســـورية الجيوسياسية بالنسبة إلى

تركيـــا، ورأى أن تطويق ســـورية أو محاصرتها هما في الواقـــع تطويق لتركيا وحصار لها[21]، أيْ إن المحور السوري - الإيراني، ومعه حزب الله في لبنان وحركة «حماس» في فلســـطين، كان في موقع أفضل نســـبيًا مـــن موقع محور الاعتدال، منذ فشـــل هذا الأخير في تفكيك محـــور المقاومة (حرب 2006)، وفي القضاء على أطرافـــه واحدًا بعد الآخر (الحرب على غزة 2008- 2009 وفشل اتّهام سورية وفشل محاولة جذبها بعيدًا من إيران). ومذ بدأت الولايات المتحدة انســـحابها من العراق، بدت خشية ســـعودية - عربية من تنامي الدور الإيراني ووحدانيته. وبقي النظام العربي على حاله من الضعف والتفكّك، وهو ما يشير إليه وزير الخارجية الســـعودي في القمة العربية في سرت في ليبيا في عام 2010 عندما تحدّث عن «... شـــعورٍ بتآكل الدور الإقليمي للنظام العربي في محيطـــه ومركزه، مقارنـــةً بتصاعد دور بعض الدول الأخـــرى، ناهيك عن استمرار التحدّي الإسرائيلي...»، وليشكو أيضًا «من غياب الدور العربي الفاعل والمؤثّر الذي خلق فراغًا استراتيجيًا يســـتغلّه العديد من الدول المجاورة». أمّا الحلّ لدى الفيصل فـ «يســـتدعي منـــا بالدرجة الأولى تفعيـــل التعاون العربي من خلال تقوية مؤسّســـة جامعة الدول العربية. وهذا الأمـــر لا يحتاج منا إلى تعديلات جوهرية في الميثاق بقدر ما يحتاج إلـــى الالتزام الجاد والعملي بما ســـبق الإجماع عليه من إصلاحات ومقرّرات وضمان أعلى درجات الصدقية والجدية في تنفيذ القرارات»[22].

---

(21) تحدث داود أوغلو بصراحة في غرفته في أحد فنادق دمشـــق عن أهمية سورية بالنسبة إلى تركيا والشرق الأوسط، فقال إنه عندما طلب الغرب من تركيا عزل سورية وحصارها قلنا لهم إن هذا غير ممكن لأن فيه عزلًا لتركيا أيضًا. فالحدود التركية - الســـورية هي الأطول جغرافيًا - تمتد حوالى 900 كلم - وعلى جانبيها عائلات مقســـمة بين البلدين، أي روابط قربى وتاريخ مشترك واقتصاد متبادل. كما إن تركيا كانت أغلقت حدودها مع أرمينيا بســـبب الخلاف القديم معها في شـــأن احتلال أرمينيا مناطق أذرية (إقليـــم قره باخ عام 1993). والحـــدود التركية البرية مع إيران جبلية والحركـــة على جانبيها غير نشطة، والحدود التركية مع شمال العراق يشوبها وجود حزب العمال الكردستاني هناك، وهو ما يحد من التواصل عبرها. تبقى لتركيا حدودها مع ســـورية، فإن هي سعت إلى عزل سورية فإنما تكون - تركيا - قد سعت في الواقع إلى عزل نفسها عن محيطها الشرق الأوسطي. انظر: الحياة، 25/ 5/ 2009.

(22) الرياض، 10/ 10/ 2010.

كانت الثورات التي أطاحت رؤساء حلفاء للمملكة السعودية وواشنطن مكسبًا مباشـرًا لإيران وللمحور الذي تقوده. لكن اللافت، كما أشرنا، هو في مسـارعة مرشـد الثورة إلى اعتبار ما حصل في الـدول العربية «صحوة إسلامية»، وهذا توصيف لم يسـبقه أحد إليه؛ قيل إنّها الثورات حينًا والربيع العربي حينًـا آخر، لكن لم يطلـق أحد صفة «الصحوة الإسـلامية» على ما جرى حتى قبل أن ينجح الإسلاميون في الانتخابات في تونس ومصر اللتين لم ترَ حركة النهضة في الأولى وحركة الإخـوان في الثانية ما حصل صحوة إسلامية أو انتصارًا إسلاميًا. لم تكن القيادة الإيرانية تصف ما يجري فحسب، بل كانت تريد من خلال استشراف اسـتراتيجي إعلان الدعم والتأييد للقوى الإسلامية المقبلة على السـلطة في البلدان العربية. وكان المقصود مصر قبل أي بلدٍ آخر. ومن الملاحظ أن مرشـد الثورة شدّد كثيرًا في غير خطاب على أهمية مصر وأهمية دورها، محذّرًا مـن المحاولات الأميركية لتطويق الثورة وإفشالها[23].

كانت إيران تحاول من خلال إعلان التأييد لـ«الصحوة الإسلامية» استباق أي محاولة أو فكرة لعودة مصر إلى محور الاعتدال السابق، لأنّ النظام العربي السابق يتلخّص بالنسـبة إلى إيران، مهما قيل في ضعفه وتفكّكه، في التحالف بين مصر والسـعودية. وإذا سـقط الرئيس المصري، فهذا يعني لإيران فرصة مهمّة لفتح أفق العلاقة مع مصر بحيث تصعب عـودة محور الاعتدال مجدّدًا،

---

(23) أشاد علي خامنئي المرشد الأعلى للثورة الإيرانية بالتقدم الذي أحرزه الشعب المصري في مجال الحريات والثورة التي أطاحت بنظام الرئيس حسني مبارك. وقال خامنئي - خلال الاحتفال الذي أقيم بالذكرى الثالثة والعشرين لرحيل مفجر الثورة الإيرانية الإمام الخميني - إن مصر أم الدنيا بتاريخها العظيم، وهي عمقنا الاسـتراتيجي، وأضاف أن الصحوات الإسـلامية والثورات فـي المنطقة انطلقت من هوياتها الوطنية والإسـلامية، محذّرًا من سـعي الغـرب لتغيير الأوضاع والإلتفـاف على الثورات والصحوات الإسـلامية في المنطقة. وأوضح أن الغرب لا يتحدث عن حقوق الشعوب إلّا حينما تنتصر إرادتها كما حدث في مصر.

في السياق ذاته، أكّد علي أكبر ولايتي مستشار خامنئي للشـؤون الدولية عدم وجود أي عقبةٍ في طريق اسـتعادة العلاقات بين مصر وإيران، وأنّ مسـتقبل العلاقات بين البلدين يتوقّف على التعاون بين حكومتيهما، مؤكّدًا أنّ طهران لا ترى أي عقبةٍ أمام اسـتعادة العلاقات بين الدولتين بعد ثورة 25 يناير. انظر: الأهرام، 4/ 7/ 2012.

أيْ تبعية السياسة المصرية إلى السياسة السعودية، من جهة، وإلى التنسيق مع إسرائيل من جهة ثانيةٍ، كما كانت في عهد حسني مبارك[24].

ثالثًا: سورية في معادلة تطويق إيران وروسيا والصين

إن النظام السوري حليف استراتيجي لإيران منذ انتصار الثورة الإيرانية، وهو جزء مهمّ من «محور الممانعة». ونفوذ إيران و«نموذجها» المفترض الذي تتمايز به عن سواها من البلدان الإسلامية يرتبطان بصورة أساسية بفاعلية هذا المحور الذي هو قضية المقاومة ضد إسرائيل قبل أي قضية أخرى. وهذا يعني أن أي تغيير قد يحدث في سورية لا يمكن أن تنظر إليه إيران إلّا من خلال تأثيره في هذه العلاقة الاستراتيجية، وفي مستقبل هذا المحور. وعبّر القادة الإيرانيون مرارًا وصراحة عن مبرّرات وقوفهم إلى جانب النظام، وعن دعمهم له ورفضهم سقوطه، انسجامًا مع رؤيتهم لأولوية محور الممانعة ولدور سورية في هذا المحور، إلى جانب إيران وحركات المقاومة. هذه المؤشّرات كلها تذهب في الاتّجاه الاستراتيجي الأوسع الذي يربط بين موقف إيران ممّا يجري في سورية ورؤيتها للتهديد الذي تتعرّض له من جهة، ولعلاقة ما يجري في سورية بمستقبل النظام الإقليمي الذي سيتمخّض عن نتائج التغيرات المحتملة في دمشق من جهة أخرى. وهذه أيضًا رؤية الروس أنفسهم لمعركة سورية، وهي تذهب أبعد من النظام الإقليمي إلى اعتبارها «المعركة التي سترسم معالم النظام العالمي الجديد»، بحسب ما قال وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف في حزيران/ يونيو 2012. وقد يكون لافتًا أن تربط معظم التحليلات الغربية أيضًا بين معركة سورية واستهداف إيران. من ذلك ما ذكره كامران بخاري[25] عن الفرضية الغربية التي تقول إن السبيل إلى تحقيق انتصار استراتيجي على إيران وتحسين حقوق الإنسان في سورية هو بإزاحة القائد

---

(24) انظر على سبيل المثال: فهمي هويدي، «عن السم الذي تجرّعناه مضطرين،» الشروق، 23/10/2012.

(25) كامران بخاري، «وقف الفوضى السورية،» ستراتيجيك فوركاستينغ، 4 تموز/ يوليو 2012.

الســـوري، وإن واشنطن تريد الآن أمرين قد لا يســـيران جنبًا إلى جنب: تسليم إيران (وربما روســـيا) بهزيمة استراتيجية كاملة في ســـورية، حتى عندما يكون ســـفك الدم قد انخفض هناك، ما يعنـــي أن ما يجري في ســـورية هو محاولة لتحقيق انتصار اســـتراتيجي على إيران، وأنّ ما تريده واشـــنطن في سورية هو هزيمة استراتيجية كاملة لإيران ولروســـيا. ويؤكّد الفكرة نفسها روبرت فيسك في مقالته «حرب الأكاذيب والنفاق في ســـورية» إذ يقول: «إن السعي لضرب الدكتاتورية السورية لا يعود إلى محبّتنا للشـــعب السوري أو كراهيتنا لصديقنا السابق الرئيس بشار وليس بسبب غضبنا من روسيا، بل بسبب رغبتنا في توجيه ضربةٍ إلى النظام في إيران من خلال ضرب حليفه»[26].

«... إن نهاية اللعبة في ســـورية تُعدّ خبرًا ســـيئًا، تحديدًا لإيران وحليفها اللبناني حزب الله. كانت ســـورية حليف إيران الأساس منذ أوائل الثمانينيات، عندما تعاونت الدولتان على إنشـــاء حـــزب الله بعد غزو إســـرائيل للبنان في حزيران/ يونيو 1982. وكان أوّل عمل إرهابي لها هو قتل رئيسي بوب آيمس، وعدد من ضباط وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) الآخرين عن طريق تفجير الســـفارة الأميركية في بيروت. لقد كانت ســـورية المصـــدر الرئيس لصواريخ حزب الله منذ حرب إســـرائيل - لبنان فـــي عام 2006 (المقـــدّرة الآن بأكثر من 50.000 صاروخ). فبشـــار هو الداعم المتحمّس لحزب الله، وما ســـيأتي بعد الأســـد أمرٌ لا يمكن معرفته اليوم. كما أن الإخوان المسلمين الذين قادوا ثورة حماه في عام 1982 ولهم دور كبير في التمـــرّد الحالي قد يهيمنون على الحكم. ومن المرجّح تقريبًا أن أي نظام سيخلف الأسد سيكون معاديًا لحزب الله وإيران. وســـتجد ســـورية العدائية كثيرًا من الحلفاء في لبنان المتحمّسين للانقلاب على حزب الله»[27].

إذًا، «لا يمكـــن أن تنظر إيران إلى ما يجري في ســـورية علـــى أنه معركة داخلية فحســـب. ولا كما يعتقد البعض بتبســـيط ثمة خلفيـــات طائفية... ثمّة

(26) Robert Fisk, «Syrian War of Lies and Hypocrisy,» *The Independent*, 29/7/2012.

(27) Bruce Riedel, «What Comes after Assad in Syria?» The Daily Beast, 20/7/2012.

هدف اســـتراتيجي مهمّ له الأولوية فـــي هذه «المعركة» تقـــرأه إيران ويتحدّث عنه بوضوح المعلّقون والمحلّلون ودوائر صنع القرار في الغرب وهو «تحقيق انتصار اســـتراتيجي على إيران وتوجيـــه ضربةٍ لها». وهو كذلك بالنســـبة إلى روسيا: تسليم روسيا بهزيمة استراتيجية في سورية». وهذا يفترض بالنسبة إلى واشنطن «التعجيل في سقوط نظام الأسد، واحتواء الامتدادات الإقليمية الناتجة من الصراع الجاري، وكســـب النفوذ والتأثير في الدولة والقوات المسلّحة التي ستبرز بعد الأسد...»[28].

إن الأولوية الاســـتراتيجية المعلنة لدى الغرب بشـــأن المحور الذي يقود الصراع ضد النظام في ســـورية ليســـت تحقيق الديمقراطية الغائبة، أو حصول الشـــعب الســـوري على الحريات (وهذه هي أهداف وحقوق الشعب السوري نفسه)، بل الهدف الاستراتيجي للمحور الخارجي الإقليمي والدولي الذي يقود الصراع في سورية هو إيران وروسيا. ومن اللافت والغريب أن تكثر التقارير في الإعلام الغربي عن تعاون الاستخبارات الغربية البريطانية والفرنسية والألمانية، مع الاســـتخبارات التركية واســـتخبارات دول عربية أخرى في إرسال السلاح ودعم المقاتلين «الجهاديين» وتدريبهم ونقلهم إلى ســـورية، خصوصًا مقاتلي تنظيم القاعدة، وهو ما أدّى إلى طرح تســـاؤلات واســـعة حتى في الأوســـاط الغربية والرســـمية والإعلامية عن «مدى الانســـجام» بين دعم قضية الثورة، أو مســـألة الحريات، أو حتى الديمقراطية، مثلًا، مع دعم هذا التنظيم ونقل مقاتليه إلى ســـورية، في وقت تخوض الولايـــات المتحدة وحلفاؤهـــا حربًا لا هوادة فيها ضد هذا التنظيم في بلدان عدّة مثل اليمـــن، وتفتك طائراتها يوميًا بمقاتلي القاعدة في باكستان!!

ثمّة بُعد استراتيجي اقتصادي نفطي مهمّ لا يمكن تجاهله في هذا الانخراط الغربي في الأزمة السورية، وفي دعم التغيير لإسقاط النظام. وهذا العامل يفسّر من الجهة المقابلة الانخراط الإيراني - الروســـي في دعم النظام وفي حمايته

---

(28) Joseph Holliday, *Middle East Security Report 3: Syria's Armed Opposition* (Washington, DC: Institute for the Study of War, 2012).

ومحاولة منع إسقاطه، ويفسّر هذه الحساسية الاستراتيجية والمخاوف من مشروع التغيير في سورية الذي تقوده وتدعمه القوى الغربية وتركيا وبعض دول الخليج. وإلى البُعد الدولي، وما يتعلّق بروسيا والصين، يشير التقرير الذي صدر عن «المركز العربي للدراسات والاستشارات» إلى «أن الوضع المعقّد في سورية يقابله تعقيد آخر في التعامل مع الأزمة على أساس نظريات وطروح وافتراضات وحسابات احتمالات مختلفة. منها ما يتصل بروسيا أو بالصين، كلّ على حدة، ومنها ما تشترك فيه الدولتان. هناك محدّدات ذات طابع أيديولوجي، ومحدّدات أخرى ذات طابع مصلحي اقتصادي واستراتيجي. يجدر القول إنّه لا يمكن الاعتقاد أن أيًا من هذه العوامل هو الحاسم في تحديد الموقفين الروسي والصيني. نذكر من بين هذه العوامل: 1- الأنانية القومية. 2- دروس ليبيا. 3- طموحات السياسة الخارجية وأهدافها ووسائلها. 4- الخوف من الإسلام السياسي وتأثيرات الربيع العربي. 5- الدفاع عن آسيا الوسطى والقوقاز في الشرق الأوسط»[29]. وهذه العوامل صحيحة لكن يبدو أن أكثرها تأثيرًا في الموقفين الروسي والصيني هو المخاوف من التطويق الأميركي من خلال العامل الأخير، أي الدفاع عن آسيا الوسطى والقوقاز في الشرق الأوسط. وينبغي الإشارة هنا إلى أن الولايات المتحدة اعتقدت بعد اغتيال بن لادن في مطلع أيار/ مايو 2011 أن معركتها مع الإرهاب انتهت، وأن استراتيجيتها ستنتقل إلى المحيط الهادئ وآسيا، أيْ إنها ستتوجّه إلى تطويق المارد الصيني ومعه الدبّ الروسي الذي يحاول استعادة أمجاد السوفيات عبر التصدّي للهيمنة الأميركية، ويسعى إلى تشكيل نواة لتجمع إقليمي يضمّ روسيا وبعض دول آسيا الوسطى. وتدرك روسيا تمامًا أن أحد أخطر مشاريع تطويق نفوذها يتعلّق بأنابيب الغاز والنفط التي يُفترض أن تصل إلى أوروبا من دون المرور بالأراضي الروسية، أي إلغاء الاعتماد الأوروبي على إمدادات روسيا من الغاز والنفط، بحيث تتحرّر أوروبا من سطوة روسيا ومن نفوذها ومن

(29) وحدة تحليل السياسات في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، «ما الذي يحدد الموقفين الروسي والصيني من الأزمة السورية؟» المركز، 8/ 2/ 2012. <http://www.dohainstitute.org/release/17eb9c98-db79-4b1e-8d46-60a66332fba2>.

تأثيرها في شريان الحياة الاقتصادية في أوروبا؛ فمن المعلوم أن روسيا تأتي في المرتبة الأولى في إنتاج النفط والغاز عالميًـا، إذ تنتج حوالى 11 مليون برميل يوميًا، تستهلك منها حوالى مليونين ونصف المليون برميل، وتصدّر الباقي، إضافة إلى حوالى 500 مليون م^3 من الغاز يوميًا. ومعظم هذه الكميات يذهب إلى أوروبا، وهو ما يمثل حوالى 60 في المئة من حاجة الأوروبيين اليومية. ولم يتأخر الروس في عام 2008 عن الإشارة إلى أن أهمّ أسلحتهم في وجه الدرع الصاروخية سيكون التحكم في انسياب النفط والغاز. إن المشاريع المطروحة لتطويق روسيا تهدّد مكانتها الاقتصادية عالميًا، ونزع هذا السلاح من اليد الروسية يقضي على نموّها الاقتصادي وعلى دورها ومكانتها العالمية المستجدّة.

في المقابل، تشعر دول الخليج بتهديد إيران لدورها السياسي والاستراتيجي. وحاولت إيران غير مرّة، الإيحاء بأن لمضيق هرمز الذي يمرّ عبره حوالى 50 في المئة من نفط الدول الخليجية، دورًا سياسيًا وأمنيًا سيُستعمل عندما تدعو المصلحة الإيرانية. لذا، قد يكون من الطبيعي أن تسعى هذه الدول المنتجة وتلك المستهلكة إلى إضعاف الدور الإيراني المتصاعد الذي يشكّل تهديدًا بنيويًا لها من خلال تأمين مسارب أخرى لنفطها بعيدًا من التهديد الإيراني.

من هنا أتت مصلحة دول الخليج والأوروبيين والولايات المتحدة في مدّ أنابيب الغاز والنفط من حقول إنتاجها مرورًا بالأردن وسورية وتركيا، وصولًا إلى أوروبا، فيستغني الأوروبيون بذلك عن الطاقة المستوردة من روسيا، وتصبح ورقة مضيق هرمز ورقة ضد المصالح القومية الإيرانية، وتصبح الصادرات الإيرانية تحت رحمة القوى التي تستطيع السيطرة عليه. والأمر يؤدّي إلى إنهاء دورها الإقليمي وتحجيمها، وربّما إسقاط نظامها.

هي إذًا لعنة النفط التي تفسر هذا الانخراط العربي والدولي في معركة سورية؛ فالمعركة تكتسي الطابع المصيري لكلّ من دول الغرب والدول الخليجية وإيران وروسيا. وهزيمة الأسد تعني أنّ خطّ النفط الخليجي سيصل إلى أوروبا التي سرعان ما ستتخلّى عن النفط الروسي، وهو ما سيرتّب

مضاعفات وتداعيــات تؤثّر في التوازنــات الدولية لأنّه ســيقضي على دورَي روسيا السياسي والاقتصادي. وســتزول القيمة الجيوسياسية لمضيق هرمز بما يسمح لأميركا بأن تتحكّم بالسياسات الإيرانية والعراقية[30].

في تفسير ما يجري في سورية، لا يذهب روبرت فيسك في الاتّجاه نفسه لهذا المستوى الاستراتيجي المتعلّق بمدّ أنابيب النفط والغاز فحسب، بل يرى أن صفقة محتملة ترتبط بهذا المســتوى يمكن أن تبقي الرئيس الأســد سنتين إضافيتين في السلطة، «في مقابل تنازلات سياسية وتأمين طرق جديدةٍ للنفط». ويرى فيسك في مقالته التي نشــرتها صحيفة الإندبندنت البريطانية «أن الرئيس السوري بشار الأسد يمكن أن يستمرّ في السلطة فترة أطول ممّا يعتقد خصومه، وبموافقة ضمنية من القادة الغربييــن الحريصين على تأمين طرق جديدة للنفط إلى أوروبا عبر ســورية قبل ســقوط النظام». وقــال: «إن الأميركيين والروس والأوروبيين يضعون معًا اتفاقًا من شــأنه أن يســمح للرئيس الأسد بالبقاء في منصبــه مدة لا تقلّ عن ســنتين، وإن الهدف الحقيقــي للمحادثات بين القوى العالمية يدور حول إصرار الغرب على تأمين إمدادات النفط، وبصورة خاصّة، الغاز من دول الخليج، من دون الاعتماد على الإمدادات من موسكو».

ينقل فيســك عن مصدر مطّلع قوله إنّه «يمكن لروســيا أن تقطع إمدادات الغاز عن أوروبا متى شاءت، وهذا سيمنحها قوة سياسية هائلة، ونحن نتحدّث عن طريقين أساسيين للنفط إلى الغرب، أحدهما من قطر والسعودية عبر الأردن وســورية والبحر الأبيض المتوســط إلى أوروبا، والآخر من إيران عبر جنوب العراق (الشيعي) وســورية إلى البحر الأبيض المتوسط ومنه إلى أوروبا، وهذا هو المهمّ والسبب في أن يكون الغرب على استعداد لترك الأسد عامين آخرين في السلطة إذا لزم الأمر»[31].

هي إذًا معركــة طرق النفط والغــاز يخوضها الغرب في ســورية. وهذه

(30) مالك أبي نادر، «سوريا وروسيا: مَن يخوض معارك الآخر؟» النهار، 30/ 6/ 2012.
<http://www.akhbaralyawm.com/article-31546/2012/6/30>.

(31) وكالة يو بي آي، 30/ 6/ 2012.

المعركة تفسّر لماذا تقف روسيا بقوةٍ إلى جانب النظام وترفض سقوطه وتفسّر في الوقت نفسه لماذا تقف إيران أيضًا إلى جانب النظام بقوةٍ وترفض سقوطه. وينطبق الأمر نفسه على الصين التي يرتبط مستقبلها التنموي بالطريقة التي ستعالج بها علاقاتها مع بلدانٍ مفتاحيةٍ بالنسبة إلى الطاقة، وهي: إيران والسعودية. ولكلٍّ منهما موقفٌ مختلفٌ من الأزمة في سورية. ومن ثمّ، فإنّ أي تغييرٍ محتملٍ في الموقفين الروسي والصيني سوف يقوم على أساس معادلةٍ سياسية جديدة، يقع التفاوض عليها مع الفاعلين الرئيسيين المهتمّين بالتطوّرات الحالية في العالم العربي وإسقاطاتها المحتملة في آسيا الوسطى وشمال القوقاز. ومن خلال عملية التفاوض والمساومة (ولعلّها تحدث الآن وراء الكواليس)، ستكون «التسوية» التي تحفظ لروسيا والصين مصالحهما أو بعضًا منها على الأقلّ في النظام الإقليمي الجديد الذي بدأ يتشكّل في المنطقة. وقد لا يكون حسم مسألة نظام الحكم في سورية مرتبطًا بالفيتو الروسي والصيني، ولا سيما إذا لم تكن ساحة الصراع الحاسمة هي مجلس الأمن[32].

رابعًا: إيران وسيناريوات مستقبل سورية

عندما طرقت الثورات أبواب سورية، شعرت إيران بالقلق، وكان الوضع مربكًا في البداية، ولم يكن متوقّعًا مثلما كان الأمر للنظام السوري نفسه. لم يتوقّع كثيرون حجم ما يجري: هل هو تمرّد محدود يمكن قمعه بالقوة، أم مشكلة عابرة يمكن تسويتها مع عشائر درعا... لكن بعد توسع حقل المواجهات مع النظام، وفشل إخمادها بالقوة، وتكرر التعاطي الإعلامي معها على غرار التعاطي مع ثورتيْ تونس ومصر، باتت الأمور أكثر جدية وأكثر خطورة بالنسبة إلى النظام السوري وبالنسبة إلى إيران، حليفه الاستراتيجي في الوقت نفسه.

قبل سورية، كان مسار «الثورات» من دون عقبات في مصلحة إيران الاستراتيجية. لذا اعتقدت إسرائيل أن إيران هي المستفيد من الثورات العربية. وحذّر نتنياهو قائلًا: «لا بدّ من مواجهة ذلك، لأن الأنظمة

(32) «ما الذي يحدد الموقفين الروسي والصيني من الأزمة السورية».

الديكتاتورية تتهاوى أمام التأثير الإيراني». كما أن وزير الخارجية أفيغدور ليبرمان لم يستطع بدوره إخفاء ذعره من خطوة إيران وهي تسيير سفينتين حربيتين إيرانيتين في أثناء الثورة في مصر، عبر قناة السويس، واعتباره ذلك «عملًا استفزازيًا من إيران». وفي صحيفة هآرتس ركز ألوف بن على «دلالات الخطوة الإيرانية، وخطورة أن تتحوّل مصر مرة أخرى إلى دولة مواجهة». ورأى أن عبور السفينتين الإيرانيتين «يمثّل التحوّل الذي بدأ يظهر في توازن القوى الإقليمي في أعقاب سقوط حسني مبارك»، وأن «مصر ترسل إشارة مفادها أنّها لم تعد ملتزمة بالملف الاستراتيجي مع إسرائيل ضد إيران، وأنّها أصبحت مستعدةً للتعاون مع إيران، مثلما تفعل تركيا بالضبط في السنوات الأخيرة»[33].

لم يستمرّ الذعر الإسرائيلي من المكاسب الإيرانية طويلًا؛ فمن جهة مصر، لم يتعرّض الإخوان بأي إشارة سلبية إلى اتفاق كامب ديفيد، ولا بأي إشارة إيجابية في شأن استعجال استعادة العلاقات مع إيران. لا بل أعلن الرئيس المصري الجديد محمد مرسي التزامه الاتفاقات، ومنها اتفاق كامب ديفيد الذي سبق أن عقدته مصر (النظام السابق) مع الجهات الدولية. أمّا من جهة إيران فإن المكاسب من تساقط بعض رؤوس محور الاعتدال باتت في موضع الشكّ والقلق بعدما اقتربت النار من الحليف الاستراتيجي السوري. لذا أثارت الثورات بعد ذلك الكثير من التساؤلات بشأن المكاسب أو الفرص التي حصلت عليها إيران، والتحديات التي واجهتها أو ستواجهها بعد التغيرات التي ستنتج من تلك الثورات.

على الرغم من عدم الإجماع على الإجابات عن تلك الأسئلة المتعلقة بإيران والثورات، من الواضح أن ما جرى من تغيير في بلدان مثل تونس ومصر، وحتى اليمن، شكّل فرصة لإيران، لأن الأنظمة التي أطيحت كانت حليفة

---

(33) «التقدير الاستراتيجي (30): مستقبل الموقف الإسرائيلي من مصر بعد ثورة 25 يناير،» مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، أيار/ مايو 2011، <http://www.alzaytouna.net/permalink/4341.html>.

للمملكة السعودية وواشـنطن، ولأن شـعوب المنطقة كانت على الدوام ضد السياسات الأميركية والإسـرائيلية. وخرجت هذه الشعوب إلى الشوارع تأييدًا لحزب الله ضد إسـرائيل في عدوانها عليه في عام 2006. وكنا قد أشرنا إلى أن إيران كانت الدولة الوحيدة التي رأت أن ما جرى هو صحوة إسلامية، وهذا ينسجم مع المزاج الشـعبي العربي العام الذي ذهب إلى انتخاب الإخوان في مصر وحركة النهضة في تونس. وهو ما يجعل إيران قريبة من هذا المزاج، ذلك أن القادة الإيرانيين، وعلى رأسـهم مرشـد الثورة، أكّدوا هذه الصحوة وكرّروا تأييدهم لها، وعقدوا لها أكثر من مؤتمر في طهران خلال عام 2012.

في مواجهـة حركة الاحتجاج و«الثورة» التي أربكـت النظام وجعلته في أزمة عميقة، لم تتردّد إيران، على لسـان قادتها، في إعـلان وقوفها إلى جانب النظام في سورية. ورأت سقوطه ضربة لما تعدّه «محور الممانعة». وبررت هذا التأييد بوقوف النظام السوري إلى جانب حركات المقاومة في لبنان وفلسطين، وبالتحالف الاستراتيجي بين البلدين. كما قال مرشد الثورة في «نداء الحج» لعام 2012، عندما اعتبر: «أن أميركا والصهيونية، وبمساعدة عملائهما في المنطقة، يخلقـون الأزمات في سـورية لصرف أذهان الشـعوب عن القضايـا المهمّة في بلدانهم وعن الأخطار المحدقة بهم..». وأكّد مرشـد الثـورة «أن الانتقام من الحكومة السـورية يأتي بسـبب وقوفها خلال ثلاثة عقـود بوجه الصهاينة الغاصبيـن ودفاعها عـن فصائل المقاومة في فلسـطين ولبنـان... ومن الذي يصدّق أن الحكومات الداعمة للديكتاتوريات السـوداء في مصر وتونس وليبيا تدعم اليوم مطلب الشـعب السـوري في الديمقراطية؟» (25/10/2012). وقالت إيران في مناسـبات عدّة أنها لن تسمح بسـقوط النظام. ثمّ انتقلت إلى دعم الإصلاحات، وكذلك الحوار بيـن النظام والمعارضة، وأعلنت أنها بذلت محاولات في هذا المجال لكنّها لم تؤدّ إلى النتائج المطلوبة. كما شدّدت، إلى جانب روسيا والصين، على رفض التدخل الخارجي في سورية[34]، ولم تغفل

(34) الأخبار، 30/11/2011.

عن مساعدة سورية نفطيًا؛ إذ من المتوقّع أن تَهَبَ حليفتها 290 ألف برميل نفط يوميًا على مدى الأشهر التسعة المقبلة[35].

رأت إيـران أن التداعيات الأولية لهـذه التطـورات الإقليمية تصبّ في مصلحتها على أساس أنّها تقدّم مؤشّرًا إلى فشـل الجهد الأميركي، التي تلقى دعمًا من بعض القوى الإقليمية، لكبح طموحاتها النووية والإقليمية، خصوصًا لأنّ النظامين التونسي والمصري اللذين سقطا بفعل هذه الموجات الثورية كانا من أهمّ حلفاء واشنطن في المنطقة. ومن هنا، لم تكتفِ إيران بمباركة الثورتين التونسـية والمصرية، حيث رأتهما «بوادر يقظة إسلامية في العالم مستوحاة من الثورة الإسلامية الإيرانية عام 1979»، على حد قول خامنئي في خطبة الجمعة يوم 4 شـباط/ فبراير 2011. بل إنّها سـعت إلى اسـتثمار تزامن نجاح الثورة المصرية في إطاحة نظام الرئيس السابق حسني مبارك مع حلول الذكرى الثانية والثلاثين لنجاح الثورة الإسلامية في 11 شباط/ فبراير 2011، دلالة على قوة تأثير الثورة الإيرانية في محيطها الإقليمي.

كما رأت إيران أن هذه التطـورات الإقليمية وضعت خصومها الإقليميين أمام «بدائل ضيقة»؛ فإسـرائيل فقدت أحد أهم حلفائهـا الإقليميين، وهو نظام الرئيس المصري السابق حسـني مبارك الذي اعتبرته «كنزًا استراتيجيًا»، وهذا يكسب إيران مسـاحات إقليمية جديدة على حسـاب خصومها، ويقلّص قدرة هؤلاء على محاصرتها وإضعاف دورها.

أدّت الثورات إلى ارتفاع أسعار النفط بصورة ملحوظة بعد أن امتدّت إلى دول نفطية مثل ليبيا، وإلى تجاوز أسـعار النفط حاجـز 100 دولار للبرميل. وكان ذلك بطبيعة الحال في مصلحة إيران التي تعتمد على عوائد تصدير النفط كمصدر أساس في دخلها القومي.

---

(35) مأمون الحسـيني، «سـوريا و«خريطة الطريق» الآمنة للإصلاح والديمقراطية،» صحيفة ليه إيكو الفرنسية، 16/ 7/ 2011. <http://www.wahdaislamyia.org/issues/116/mhusseini.htm>.

أبدت إيران ارتياحًا لصعود قوى الإسـلام السياسـي، الفائز الأكبر في الاستحقاقات الانتخابية والرئاسـية التي شـهدتها دول الثورات العربية مثل تونس ومصـر. ودفع ذلك قائد «فيلـق القدس» في الحـرس الثوري العميد قاسـم سـليماني إلى القول: «إن الحمى الثورية التي تجتاح مصر وغيرها من البلدان العربية تتمخض عن إيرانات جديدة يجمعها العداء للولايات المتحدة الأمريكية»، وأضـاف أنّ «المنطقـة تمخضت اليوم عن عدد مـن الإيرانات الكبـرى الجديدة، فمصـر إيران جديدة، سـواءً أردتم أم لـم تريدوا». وزاد خامنئي بقوله في خطبة الجمعة التي ألقاها باللغة العربية في 3 شـباط/ فبراير 2012، لمناسـبة حلول الذكرى الثالثة والثلاثين للثورة الإيرانية، أن «الثورة الإسـلامية التي نجحت في إسـقاط أكبر دكتاتور علماني في إيران قد عمّت الدول العربيـة، وأن انتخابات مصر وتونس وتطلعات الشـعوب في البحرين واليمن تدلّ على أنّهم يريدون أن يكونوا مسـلمين معاصرين من دون إفراط أو تفريطٍ».

إن محدّدات الموقف الإيراني والحسـابات الاسـتراتيجية ممّا يجري في سورية لا يمكن استشـرافه أو محاولة فهمه إلّا في ضوء معادلة شديدة التعقيد من العلاقات والمخاوف والضغط التي ينبغي لإيران أن تحسـبها بصورة جيدة ودقيقة حتى لا ترتدّ عليها الثورات سـلبًا وتعـود حصيلتها إلى القوى المعادية لها، أو المختلفة معها في المنطقـة والإقليم، أو في العالم، خصوصًا الولايات المتحـدة الأميركية التي سـارعت إلى التكيـف مع المتغيـرات الجديدة بعد الثورات، من خلال فتـح قنوات الحوار والتواصل مع القوى الإسـلامية التي وصلت إلى السلطة، أيْ إن على إيران، وهي تتعامل مع الوضع في سورية، أن تأخذ في الحسبان طبيعة علاقتها بتركيا والولايات المتحدة، ومستقبل برنامجها النووي والعقوبات المفروضة عليها، ومستقبل علاقتها بمصر تحديدًا وبالقوى الإسـلامية الصاعدة في المنطقـة. وعلى إيران أن تقدّر ما تريـده من المملكة العربية السعودية، وكيف ستتعامل مع التهديدات الإسرائيلية الجدية المتواصلة بتوجيه ضربة عسكرية إلى منشآتها النووية أو إلى النظام الإسلامي نفسه. والأمر الشديد الأهمية بالنسـبة إلى إيران هو مستقبل محور الممانعة في ضوء مستقبل

النظام الســوري، أيْ إلى أي مدى سيؤثّر مســتقبل هذا النظام في إضعاف هذا المحور الذي تراه إيران أحد أهمّ مصادر تميزها و قوّتها.

طالت الأزمة في سورية، ولا يبدو في الأفق القريب ما يوحي بنهايتها عبر سيناريو محدّد. لا بل يبدو أن هذه الأزمة ستكون مفتوحة على سيناريوات عدة. وعلى إيران تاليًا أن تحسب هذه الســيناريوات كلها، وهو ما يبرّر ما أشرنا إليه من تعقيدات وصعوبات ومخاوف إيرانية في التعامل مع ســيناريوات مستقبل الوضع في سورية، ونذكر منها ما يلي:

1 - سيناريو استمرار الأزمة

يشير معظم معطيات ما يجري في ســورية، ومعها التحليلات العسكرية والسياســية والأمنية، إلى أن الأزمة تبــدو مفتوحة؛ فالنظام لم يســقط، خلافًا لجميــع التوقّعات التي مؤداها أن الســقوط قريب جدًا. وعلــى الرغم من كلّ ما تعرضّ لــه من مواجهات مســلّحة وضربات أمنية ومن تراجــع للهيبة ومن الانشقاقات العسكرية والمدنية، لا تزال بنية النظام الأساسية العسكرية والأمنية صلبة إلى حدٍّ كبير.

تقول الغارديــان في هذا الصــدّد: «بعض الحروب لا تنتهــي. فما الذي يدعونا إلى الثقة بأن الحرب الأهلية في سورية، وهي دولة توجد فيها انقسامات وضغائن متأصّلة، ســتضع أوزارها في نهاية محدّدة، مثل إطاحة بشــار الأسد وإرســاء نظام يلتزم إجراء انتخابات حرّة ونزيهة؟ حتى الآن لا يوجد ما يشــير إلى ذلك»[36]. وقام الكاتب البريطاني روبرت فيســك بجولة في سورية كانت محفوفة بالمخاطر، فالتقى قادة الجيش الســوري النظامي، وتحدّث معهم عن معاركهم في مدينة حلب وفي البلاد بأكملها، وخرج بنتيجة أن المعارك في هذا البلد لن تتوقّف قريبًا[37].

---

(36) «الغارديان: حرب طويلة في انتظار ســوريا،» موقع بي بي ســي، 22/ 8/ 2012، <http:// www.bbc.co.uk/arabic/inthepress/2012/08/120821_press_wednesday.shtml>.

(37) روبرت فيســك، «المعركة لن تنتهــي قريبًا،» الإندبندنــت، 21/ 8/ 2012، <http://www. akhbarak.net/news/2012/08/21>.

إن سيناريو اســـتمرار الأزمة يعني أن عدم الاستقرار سيبقى على حاله في سورية، وستكون إيران غير مرتاحة لهذا السيناريو، لأنّه يعني تعطيل دور سورية الإقليمي، في موازاة المزيد من الدعم الإيراني للنظام على المســتويات كافّة، وبقاء سيف التهديد على هذا النظام.

استمرار الأزمة يعني أيضًا اســتمرار تراجع علاقات إيران الإقليمية، لأن من المرجّح استمرار المواقف الإقليمية التركية خصوصًا، والعربية عمومًا، من النظام السوري على حالها. واستمرار الأزمة في ســـورية يجعلها بوابة مفتوحة لممارسة الضغط على طهران بشـــأن دورها ونفوذها وبرنامجها النووي، وهذا ما لا ترغب فيه طهـــران التي لا تريد التراجع أمام واشـــنطن وحلفائها والقبول بســـقوط النظام، وبالتالي لا ترغب في ســـيناريو اســـتمرار الأزمة. وهي تعمل على دعم بقاء النظام وتطرح، بالتفاهم والانسجام مع الروس، مشاريع للتسوية والمصالحة تحت ســـقف هذا النظام، لكن إرادتها وحدهـــا لا تكفي لتحقّق ما تريد.

2 – سيناريو بقاء النظام

على الرغم من اســـتبعاد معظم المحلّلين هذا السيناريو، نظرًا إلى الضغط الدولي الشـــديد للتنحية والعزل، ونظرًا إلى حجم الضغط العسكري الداخلي، فإنّنا على مســـتوى الســـيناريوات نرى أن هذا هو أحـــد الاحتمالات في عملية الصراع الحالية في ســـورية وعليها؛ ذلك أن ما ســـبق بشـــأن اســـتمرار الأزمة يتضمّن منطقيًا هـــذا الاحتمال، أيْ احتمال بقاء النظـــام، مثلما يتضمّن احتمال إسقاطه. وثمّة مؤشّرات تســـاعد في افتراض هذا السيناريو. كما تشير إلى ذلك حتى اليوم (أوائل تشـــرين الثاني/ نوفمبر 2012) كثـــرة من مواقف وتحليلات المســـؤولين الغربيين في قراءاتهم للوضع في ســـورية؛ خصوصًا التي ترى في تماسك الجيش السوري عقبة أمام التغيير المطلوب بإسقاط الرئيس. لذا يعتقد مارتن إنديك، مثلًا، أن الجيش الســـوري لا يزال يتمتّع بقدرات مهمّة ويستحوذ عليها – وفي ذلك الأسلحة الكيميائية التي يمكنها أن تجعل ثمن التدخّل عاليًا.

كما أن المعارضة منقسمة وعاجزة حتى الآن عن تقديم بديل متجانس كي تمد الولايات المتحدة يد المساعدة بصورة فاعلة لاستلام السلطة. هذه العوامل كلها يمكن أن تتغير، ربّما، وسوف تتغير بمرور الوقت. لذا، يستنتج إنديك: «ليست هناك خطوة سهلة... ولا وصفة أكيدة للنار المشتعلة لإنتاج عملية انتقال منتظمة لسورية ما بعد الأسـد. مع ذلك، هناك الكثير من الأمور على المحك من أجل مصالحنا الاستراتيجية، وهناك الكثير جدًّا لنكسبه من القيام بكلّ ما في وسعنا لمنع الانزلاق في الفوضى، وذلك بالتصرف بسرعة وحزم»[38].

إن بقاء الأسـد هو أيضًا أحد السـيناريوات الخمسـة التي يطرحها تقرير «مركز الأمـن الأميركي الجديد» (السـيناريو الرابع) من خـلال الافتراض أن يحافظ الأسـد على السـلطة بعد حرب أهلية طويلة. في هذا السـيناريو يبقى الأسـد على رأس السلطة بدعم من روسـيا وإيران، لكن تضعف سيطرته على الدولة. وقد يختار في هذه المرحلة عدم اسـتخدام المخزون الكيميائي تفاديًا لردّة فعل المجتمع الدولي. لكن بقاء الأسد سيضعف صدقية الولايات المتحدة وحلفائها، فيصبح هذا السيناريو بمنزلة صفعة لثورات «الربيع العربي» والبلدان التي شهدت مراحل انتقالية عقب هذه الثورات[39].

إن سـيناريو بقاء النظام رغبة إيرانيـة معلنة، وهو كذلـك مطلب الصين وروسيا، خشـية تغيير المعادلة الإقليمية لمصلحة التمدّد التركي، أو لمصلحة الفاعلين الجـدد (الأصولية الإسـلامية وتنظيم القاعدة). وإيـران تفضّل هذا السيناريو أيضًا بسبب التهديد العسكري الإسـرائيلي بشنّ حرب عليها، أيْ إن إيـران لا ترغب في أي تغيير فـي المعادلة الإقليمية في هـذه الظروف، فضلًا عن المعادلة الاسـتراتيجية في المواجهة مع الولايـات المتحدة. وذا ما يؤكّده مارتن إنديك بقوله: سـعت الإدارات الأميركية المتعاقبة إلى إحضار سـورية

(38) مارتن إنديك، «الخطوات التالية في سورية» (شهادة أمام لجنة استماع العلاقات الخارجية التابعة لمجلس الشـيوخ، معهد بروكينغز، 1 آب/ أغسـطس 2012)، <http://www.rsgleb.org/modules.php?name=News&file=article&sid=346>.

(39) ملاك حمود، «مستشـارة في البنتاغون: 5 سيناريوهات لمسـتقبل الصراع السوري،» السفير، 14 /9/ 2012، <http://www.assafir.com/Article.aspx?ArticleId=1407&EditionId=2255&ChannelId=54108>.

إلى معسكر السلام مع إسـرائيل لتدعيم مصلحتين اسـتراتيجيتين أساسيتين: الاسـتقرار في منطقة متفجرة وحيوية؛ وأمن إسـرائيل. وفي ذلك السياق، فإنّ قطع القناة السورية التي تسـتخدمها إيران لتعزيز حالة اللااستقرار على حدود إسرائيل من خلال وكيليها: «حزب الله» و«حماس»، أمر استراتيجي ملحّ(40).

3- سيناريو الفوضى أو تفكّك سورية

يخشـى معظم الأطـراف الإقليمية المعنية بالأزمة السـورية، ولا سـيما دول جوار سـورية، أن يتحوّل اسـتمرار الأزمة إلى حرب أهليـة، أو إلى جرّ أجزاءٍ أخرى من الشـرق، تحديدًا الفئات المذهبية والعشـائرية والعائلية، إلى الاضطرابات الحالية في سورية(41).

يذهب فيجاي براشاد إلى المخاوف نفسها في مقالته «حركة عدم الانحياز والأزمة السـورية»، عندما يسـتند إلى ما كتبه يوسـف كانلي، أحد المحلّلين الاتراك في صحيفة حرييت عن هذه الأزمة، منتقـدًا الدور التركي بقوله: «قال رئيس هيئة الأركان في الجيش الإيراني إن تركيا هي «التالية» بعد سورية، لكن كانلي يقول: «إن التالي سيكون إيران وتركيا ولبنان»(42).

في نقل أخبار القتال في سورية، نشرت فاينانشيال تايمز تقريرًا عن الصبغة الدينية للحرب الأهلية الدائرة في سـورية. كما أشارت إلى أن تلك الأوضاع تؤثّر في تركيا، بما يشكّل أكثر من كابوس للدولة التركية. وتشير الصحيفة إلى أنه «إذا لم يكن في مقدور تركيا وقف انهيار الأوضاع في سورية، فعلى الأقلّ، يتعين على أنقرة أن تعمل على الحدّ من النزعات العرقية والطائفية»(43).

---

(40) إنديك، «الخطوات التالية في سورية».

(41) بروس ز. جنتلسـون [وآخ.]، «أوراق استراتيجية: التكيف الاسـتراتيجي: نحو استراتيجية أميركية جديدة في الشرق الأوسط،» مجموعة الخدمات البحثية، حزيران/ يونيو 2012.

(42) فيجاي براشـاد، «هـل تقدم حركـة عدم الانحيـاز الحل للأزمـة السـورية،» الأخبار، 31/ 8/ 2012. <http://www.al-akhbar.com/node/166080>.

(43) المصري اليوم، 10/ 8/ 2012.

إن الفوضى أو تفكّك سورية من السيناريوات الجدية التي تتكرّر في معظم التقارير عن الأزمة السورية، وهو أيضًا السيناريو الخامس في تقرير البنتاغون الذي سبق وأشرنا إليه[44]، والذي يقول: إن احتمال تقسيم سورية إلى فدراليات طائفية يقلق «مركز الأمن الأميركي».

هذا السيناريو، هو الأخطر بالنسبة إلى الولايات المتحدة، لأنّه سيضعف سيطرة الدولة على الأسلحة الكيميائية، وقد يختار أنصار النظام استخدام هذه الأسلحة لمنع تقدّم المعارضة نحو المناطق التي يسيطرون عليها[45].

4- سيناريو المشهد «الأصولي/ الجهادي»

بحسب تقرير لـ الفايننشيال تايمز نشرته هيئة الإذاعة البريطانية BBC على موقعها الإلكتروني بشأن حجم المسلّحين السلفيين الذين يحاربون نظام الرئيس بشار الأسد[46]، وتقارير مماثلة نقلتها القدس العربي، يوجد في هذه اللحظة آلاف من مقاتلي المعارضة، من نشطاء المنظّمات المتماثلة مع القاعدة. ويسمّي المسلحون أنفسهم نشطاء «كتيبة المجاهدين الموحدة». وقد رووا لوكالة الأنباء الفرنسية أنّهم جاءوا من مختلف أرجاء العالم، من الشيشان وفرنسا والسويد والجزائر... وغيرها[47]. وفي تقرير أكثر تفصيلًا بشأن واقع «الجهاديين في معركة سورية»، تنقل جريدة الأخبار اللبنانية عن تغيّر شكل المسلّحين وخطابهم وشعاراتهم. وفق ما كتبته صباح أيوب في تقريرها: «جهاديون «لتحرير الشام» من لبنان إلى الصومال». كما كتب الصحافي نيل ماكفاركر في نيويورك تايمز مقالة طويلة عن «تعاظم دور الجهاديين في الحرب السورية»، فقال إنه «في الأشهر الأخيرة، شهدنا صعود منظمات مسلحة أوسع وأقوى وأكثر تنظيمًا تتبنّى أجندة جهادية». ويتابع: «حتى إن الحركات الأقل حماسة أحاطت نفسها بهالة إسلامية معلنة لأنّ ذلك يجذب الأموال الداعمة».

---

(44) السفير، 14/ 9/ 2012.

(45) بخاري، ص 2.

(46) المصري اليوم، 10/ 8/ 2012.

(47) القدس العربي، نقلًا عن صحف عبرية، 29/ 7/ 2012.

وكان هارون ي. زيلين قد أشار في «معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى» منذ حزيران/ يونيو 2012 إلى أن «مقاتلين أجانب يتسلّلون للمشاركة في الثورة السورية». وقدّر نسبة هؤلاء بـ 4 إلى7 في المئة من مجموع المقاتلين في سورية. وعدّد زيلين البلدان التي أتى منها المجاهدون إلى سورية، ويقول إن أكبر الوحدات الوافدة ضمّت لبنانيين وأردنيين وعراقيين وفلسطينيين ممّن قاتلوا في حرب العراق. وثانية أكبر الوحدات، جاء مقاتلوها من شمال أفريقيا. ويتابع شارحًا أن بعض تلك المجموعات الجهادية «على علاقة وتنسيق مع الجيش السوري الحرّ»، أمّا بعضها الآخر، «فيعمل على نحو مستقلّ بصفة جهادية بحتة».

في هذا الإطار، يلفت باتريك برينين على موقع ناشيونال ريفيو إلى أن «العوامل التي تسمح للجهاديين بالاندساس في سورية اليوم هي التي ستحدّد أهمية دورهم في مرحلة ما بعد سقوط الأسد». ويقول بيتر هارلينغ، الباحث في «مجموعة الأزمات الدولية»، في حوار على موقع «مجلس العلاقات الخارجية» إنه «لا يبدو متفاجئًا أبدًا بمشاركة الجهاديين في المعارك السورية»[48]. وحتى معهد بروكينغز لفت إلى تنامي تنظيم القاعدة على الأراضي السورية، وإلى القلق من «قدرته على نشر الفوضى والعنف في سورية ومحيطها الإقليمي كسرطان» يستشري في الجسم. وأضاف أن على الرغم من تلقّي التنظيم ضربات موجعة في مخابئه، فإن «وجوده في سورية حاليًا يعزّز قدرته على نشر الجهاد (بمفهومه) في قلب العالم العربي وفي مناطق الحدود مع إسرائيل»[49].

إذًا يبدو أن المشهد الأصولي/ الجهادي جدّي في «الثورة السورية»، وسوف يثير بطبيعة الحال الكثير من علامات الاستفهام والقلق لإيران، وحتى

(48) الأخبار، 4/ 8/ 2012.

(49) مركز الدراسات الأميركية والعربية، المرصد الفكري البحثي، التقرير الأسبوعي لمراكز الأبحاث الأميركية، 31 تموز/ يوليو 2012. <http://www.thinktanksmonitor.com>.

و«الديلي تلغراف: المعارضة المسلحة في سوريا ليست جديرة بالثقة بعد،» بي بي سي، 29/ 8/ 2012. <http://www.almanar.com.lb/adetails.php?fromval=1&cid=31&frid=31&eid=295411>.

للدول الأخرى المعنية بالأزمة الســورية. إن محط خشية واشنطن وباريس هو «سيطرة الأصوليين على الانتفاضة»، فليس المطلوب التخلص من بشار الأسد من أجل نظام آخر مماثلٍ له، كما قال وزير الخارجية الفرنســي لوران فابيوس في مقابلة له مع إذاعة أوروبا 1 »[50].

إن للجهاديين الآتين إلى ســورية أجندة خاصّة تختلــف عن أجندة قوى المعارضة السياسية الأخرى. فهُم لا يريدون إسقاط الأسد لأنه غير ديمقراطي أو لأنه يقمع الحريات، بل يريدون إســقاط «نظامــه الكافر». وهم يعتقدون أن إيران، حليفة هذا النظام، دولة كافرة أيضًا، وهــذا يؤكّد المخاوف الإيرانية من مرحلة ما بعد الأســد، أي المرحلة التي ســتفقد فيها طهران ســورية كحليف اســتراتيجي. ولن يقتصر الأمر على هذا القلق، بل ســتتحول سورية إلى دولة معادية لإيران، وســتكون في «الطرف الآخر» المقابل للسياســة الإيرانية، أكان إلى جانب تركيــا أم إلى جانب المملكة الســعودية. وحتى وزيــرة الخارجية الأميركية هيــلاري كلينتون، أعربت، بعدما دعت إلــى ضرورة توحيد صفوف المعارضة، عن قلق أميركي من تزايد تأثير «المتطرفين» واحتمال حرف «الثورة» عن مسارها. وأضافت: «هناك معلومات مثيرة للقلق عن متطرّفين يتوجّهون إلى سورية ويعملون على تحويل مســار ما كان حتى الآن ثورة مشروعة ضد نظام قمعي لمصلحتهم»[51].

هذا المشــهد الأصولي/ الجهــادي لا يمكن أن يكون جــزءًا من أي نظام عربي، ولا يمكن أن يكون شريكًا في أي تشــكيل للنظام العربي بعد الثورات. ويمكن القول إن المخاوف العربية والإيرانية قد تكون مشتركة من تمدّد نفوذ هذا المشهد الأصولي/ الجهادي في ســورية. أما الفارق بين إيران والدول الأخرى، فهو أن هذه الدول تؤجّل هذا القلق إلى ما بعد ســقوط الأســد، وتبرّر التسامح مع انتقال هذه الجماعات إلى سورية بأولوية محاربة نظام الأسد، في حين ترى إيران أن المشكلة تبدأ من هنا، وستصبح أكثر خطورة في المرحلة المقبلة.

(50) *L'Orient le jour*, 1/9/2012, p. 1.

(51) السفير، 1/ 11/ 2012.

5- سيناريو تنحّي/ سقوط الرئيس

إذا كانت فكرة التنحّي غير ممكنة عمليًا بسبب رفض الرئيس السوري لها من جهة، وبسبب الرفض الإيراني والروسي لها من جهة ثانية، يصبح إسقاط الرئيس الأسد بالقوة هو الفرضية الثانية الممكنة في سيناريو ما بعد الأسد (وهو أحد سيناريوات مركز الأمن الأميركي الجديد الذي سبقت الإشارة إليه)[52].

إن تنحّي الأسد أو سقوطه هما بلا شكّ خسارة مباشرة لإيران. وهذا بديهي بسبب العلاقة الاستراتيجية بين البلدين. وأكّد ذلك معظمُ التحليلات الغربية التي أشرنا إليها، التي ذهبت إلى حد اعتقاد أن المستهدف من إسقاط الأسد هو توجيه ضربة استراتيجية إلى إيران.

ما تخشاه إيران من سقوط الأسد هو النظام المقبل في سورية؛ وبالتحديد المحور الذي سينحاز إليه هذا النظام. إن مستويات التحليل كلها تؤكّد أن أي نظام مقبل لن يكون مثل النظام الحالي في علاقته بإيران، أو في التحاقه بمحور الممانعة. وأكّد ذلك مبكّرًا رئيس المجلس الوطني السوري السابق برهان غليون عندما أعلن أن بلاده بعد الأسد لن تكون لها العلاقات نفسها لا مع إيران ولا مع «حزب الله» ولا مع «حماس»، ولن تُبقي على الطريقة نفسها في التعامل مع إسرائيل. وهذا يعني خسارة مؤكّدة لإيران. كما يشير كثير من المعلومات التي تنشرها الصحف والتقارير الغربية إلى صلات قوية بين بعض رموز المعارضة السورية والأجهزة السياسية والاستخبارية الأميركية، ليس لدعم هذه المعارضة في مواجهة النظام السوري الحالي فحسب، بل وللبحث أيضًا في طبيعة تشكيل النظام السوري المقبل. وهذا طبعًا يزيد القلق الإيراني من طبيعة النظام المقبل إذا سقط النظام الحالي.

يشير شارلي سكيلتون في مقالته في الغارديان البريطانية إلى هذه العلاقة بين قادة المعارضة والأجهزة الاستخبارية والسياسية الغربية: «... في الواقع، إن عددًا من الشخصيات الأساسية في حركة المعارضة السورية هي من

---

(52) السفير، 14/ 9/ 2012.

الموجودين في المنفى منذ مدة طويلة وممّن يتلقّون تمويلًا من الحكومة الأميركية لتقويض حكومة الأسد، وذلك قبل وقت طويل من اندلاع الربيع العربي»[53]. ولم يقتصر الأمر على ذلك، فمع استمرار الأزمة طوال الأشهر

---

(53) بسمة قضماني، الأكاديمية السورية الموجودة في باريس، هي أرفع ناطق رسمي باسم المجلس الوطني السوري (قبل أن تعلن استقالتها لاحقًا من المجلس).

إن قضماني عضو في الدائرة التنفيذية ورئيسة الشؤون الخارجية في المجلس الوطني السوري. وهي قريبة من مركز هيكلية السلطة للمجلس الوطني السوري، وأحد أكثر الناطقين والمعبِّرين باسم المجلس. «لا حوار ممكنًا مع النظام الحاكم... في شباط 2005، انهارت العلاقات الأميركية- السورية، واستدعى الرئيس بوش سفيره من دمشق. وهناك الكثير من مشاريع المعارضة يعود تاريخها إلى هذه الفترة». بدأت الأموال الأميركية للمعارضة السورية تتدفق في ظل حكم الرئيس جورج دبليو بوش بعدما جمَّد علاقاته السياسية بدمشق في عام 2005، كما تقول الواشنطن بوست.

في أيلول/ سبتمبر 2005 تم تسليم قضماني منصب المدير التنفيذي لـ«مبادرة الإصلاح العربية» (ARI) - برنامج أبحاث استهلتها مجموعة اللوبي الأميركي القوية، أي «مجلس العلاقات الخارجية» (CFR).

إن «مجلس العلاقات الخارجية» هو من نخبة مراكز أبحاث السياسة الخارجية الأميركية، ووُصفت «مبادرة الإصلاح العربية» على موقعه الإلكتروني على أنها «مشروع CFR». وبشكل أكثر تحديدًا، تم إطلاق «مبادرة الإصلاح العربية» (ARI) من مجموعة داخل CFR تدعى «مشروع أميركا/ الشرق الأوسط» - هيئة من كبار الدبلوماسيين، ضباط الاستخبارات والممولين، الهدف المعلن لها هو الشروع بـ«تحليل سياسة» إقليمية لـ«منع الصراع وتعزيز الاستقرار». ويواصل «مشروع الشرق الأوسط» العمل على هذه الأهداف في ظل توجيه من لجنة دولية برئاسة الجنرال (المتقاعد) برنت سكوكروفت (الرئيس الفخري) مستشار سابق لشؤون الأمن القومي لدى الرئيس الأميركي - استلم الدور من هنري كيسنجر. ويجلس إلى جانب سكوكروفت في اللجنة الدولية زميله زبيغنيو بريجينسكي الذي خلفه كمستشار للأمن القومي، وبيتر سوثرلاند، رئيس Goldman Sachs International. إذًا، وبالعودة إلى عام 2005، نكون قد حصلنا على جناح رفيع من المؤسسة الاستخبارية/ المصرفية التي اختارت قضماني لإدارة مشروع أبحاث الشرق الأوسط. وفي أيلول/ سبتمبر من ذاك العام، عيّنت قضماني مديرًا متفرغًا للبرنامج. وفي وقت سابق من عام 2005، عيّنت CFR «مركز الإصلاح الأوروبي» (CER) «للإشراف المالي» على المشروع.

يحين الآن دور البريطانيين؛ إذ يشرف على «مركز الإصلاح الأوروبي» (CER) اللورد كير، نائب رئيس Royal Dutch Shell، ورئيس أسبق للجهاز الدبلوماسي، ومستشار رفيع في Chatham House (مركز أبحاث يعرض أفضل عقول المؤسسة الدبلوماسية البريطانية).

إن المسؤول المتفرغ عن CER هو تشارلز غرانت، المحرر السابق للشؤون الدفاعية في مجلة إيكونوميست، أمّا في هذه الأيام، فهو عضو في «المجلس الأوروبي للعلاقات الخارجة»، وهو «مركز أبحاث أوروبي» محشو بدبلوماسيين وصناعيين واختصاصيين ورؤساء حكومات. وعلى قائمة الأعضاء، سوف تجد اسم: بسمة قضماني (فرنسا/ سوريا) - المدير التنفيذي، «مبادرة الإصلاح العربية».

عند هذا المستوى، تتناغم العوالم المصرفية والدبلوماسية والصناعية والاستخبارية والمؤسسات =

الماضية، واتساع التشكيلات العسكرية والسياسية المعارضة والمسلّحة في

= والمعاهد السياسية المختلفة بعضها مع بعض، وسط كل هذا تجد هناك قضماني.

النقطة هنا هي أن قضماني ليست «ناشطة عشوائية مؤيدة للديمقراطية» يصدف أن وجدت نفسها أمام ميكروفون. فلديها أوراق اعتماد دبلوماسية دولية لا تشوبها شائبة: فهي تحتل منصب مدير أبحاث في «الأكاديمية الدبلوماسية الدولية» – وهو معهد مستقل ومحايد مخصص لتعزيز الدبلوماسية الحديثة. أمّا الأكاديمية، فهي برئاسة جان كلود كوسران، رئيس أسبق لـ DGSE – وكالة الاستخبارات الخارجية الفرنسية.

هناك ممثل آخر للمجلس الوطني السوري غالبًا ما يستشهد بأقواله هو رضوان زيادة – مدير العلاقات الخارجية في المجلس الوطني السوري. ويملك زيادة سيرة ذاتية مؤثرة: فهو زميل كبير في المعهد الأميركي للسلام، مركز الأبحاث في واشنطن الممول فدراليًا (هيئة مدراء USIP مليئة بخريجي وزارة الدفاع ومجلس الأمن القومي؛ رئيسها ريتشارد سولومون، مستشار أسبق لكيسنجر في مجلس الأمن القومي (NSC).

في شباط/ فبراير 2012، انضم زيادة إلى باقة من نخبة صقور واشنطن لتوقيع رسالة تدعو أوباما إلى التدخل في سورية. وضمت هذه الباقة من الزملاء الموقّعين جيمس وولسي (الرئيس الأسبق للـ CIA)، كارل روف (سائس بوش الابن)، كليفورد ماي (لجنة الخطر الحالي) وإليزابيث تشيني، رئيسة مجموعة عمليات إيران- سورية التابعة للبنتاغون.

زيادة شخص منظم دؤوب، ومطّلع ممتاز على بواطن الأمور في واشنطن، وله ارتباطات مع بعض أقوى مراكز الأبحاث هناك. وتمتد اتصالاته وصولًا إلى لندن. وفي عام 2009 أصبح زيادة «زميلًا زائرًا في Chatham House»، وفي حزيران/ يونيو 2012 ظهر على لائحة إحدى أمسياتها – «تصوُّر حول المستقبل السياسي لسورية»- مشاركًا الناطق باسم المجلس الوطني السوري أسامة منجد المنصة (هناك معلومات أكثر عن منجد لاحقًا) إضافة إلى مشاركته نجيب غضبان العضو في المجلس الوطني السوري.

عرَّفت مجلة وول ستريت جورنال غضبان بأنه من أوائل الوسطاء بين الحكومة الأميركية والمعارضة السورية في المنفى: «الاتصال المبدئي بين البيت الأبيض و«جبهة الخلاص الوطني» صاغه نجيب غضبان، عالِم سياسي في جامعة أركنساس. كان هذا في عام 2005، عام نقطة التحول.

أمّا اليوم فإن غضبان هو عضو في الأمانة العامة للمجلس الوطني السوري وفي اللجنة الاستشارية لهيئة سياسية مركزها واشنطن تدعى «المركز السوري للدراسات السياسية والاستراتيجية» (SCPSS) – منظمة ساعد زيادة في تأسيسها.

كان زيادة يقوم باتصالات كهذه لسنوات. وبالعودة إلى عام 2008، شارك زيادة في اجتماع لشخصيات معارضة في مبنى حكومي أميركي: مؤتمر صغير دعي «سوريا في المرحلة الانتقالية». وشاركت في رعاية الاجتماع هيئة تدعى «المجلس الديمقراطي» ومنظمة مركزها بريطانيا تدعى «حركة العدالة والتنمية» (MJD).

كان زيادة على لائحة برئاسة جوشوا مورافيشيك (كاتب الافتتاحية المتشددة الداعية للتدخل «اقصفوا إيران» في عام 2006). وكان موضوع النقاش «بروز المعارضة المنظمة». وكان إلى جانب =

سورية، تزايد تدخّل «الخارج» في عمل هذه المعارضة السورية وفي تشكيلاتها وأدوارها، وفي تحديد رموزها والشخصيات التي ينبغي أن تمثّلها. وها هي هيلاري كلينتون تقول: «إن الولايات المتحدة تريد «مساعدة» المعارضة السورية لتوحيد صفوفها. وأنّه لم يعد من الممكن النظر إلى المجلس الوطني السوري أنّه الزعيم المرئي للمعارضة»... أمّا فورين بوليسي فكانت أكثرَ وضوحًا في الحديث عن طبيعة هذا التدخّل الأميركي في تشكيل المعارضة السورية. إذ جاء في تقرير لها على موقعها الإلكتروني الخاص: «إن وزارة الخارجية الأميركية لها دور «نشيط» في تشكيل المجلس الجديد...»[54].

= زيادة على الطاولة المستديرة مدير العلاقات العامة في «حركة العدالة والتنمية» (MJD) - رجل أصبح لاحقًا زميله الناطق باسم المجلس الوطني السوري أسامة منجد.

إلى جانب قضماني وزيادة، يعتبر أسامة منجد أحد أهم الناطقين باسم المجلس الوطني السوري... وبحسب سيرته الذاتية في المجلس الوطني السوري، فهو «مؤسس ومدير تلفزيون بردى»، وهي قناة فضائية معارضة موجودة في فوكسهول، جنوب لندن. وفي عام 2008، تُظهر البرقيات الدبلوماسية الأميركية المصنَّفة سرية أن وزارة الخارجية ضخت ما يقدّر بـ 6 ملايين دولار إلى المجموعة منذ عام 2006 لتشغيل القناة الفضائية وتمويلة نشاط آخر داخل سورية.

يلقي التقرير نفسه الضوء عبر برقية من السفارة الأميركية في سورية عام 2009 تقول إن «مجلس الديمقراطية» تلقّى 6 ملايين و300 ألف دولار من وزارة الخارجية الأميركية لإدارة برنامج متصل بسورية («مبادرة تعزيز المجتمع المدني»). وتصف البرقية هذا الأمر بأنه «جهد تعاون منفصل ومتميز بين مجلس الديمقراطية وشركاء محليين»، بهدف إنتاج «مفاهيم بث مختلفة»، وذلك من بين أمور أخرى. وبحسب الواشنطن بوست: «هناك برقيات أخرى توضح بأن أحد تلك لمفاهيم كان تلفزيون بردى».

قبل بضعة أشهر مضت، كانت «مبادرة شراكة الشرق الأوسط» التابعة للخارجية الأميركية بإشراف تمارا كوفمان ويتس (وهي الآن في معهد بروكينغز -مركز أبحاث نافذ في واشنطن). ومن MEPI قالت إنها «خلقت شعارًا إيجابيًا» لجهد تعزيز الديمقراطية الأميركية. وعندما كانت تعمل هناك أعلنت: «هناك الكثير من المنظمات في سورية وبلدان أخرى تسعى لتغييرات من حكوماتها... وتلك أجندة نؤمن بها وسوف ندعمها»، وتقصد بكلمة الدعم التمويل.

الأموال: هذا ليس بالأمر الجديد. فبالعودة إلى أوائل عام 2006، تجد إعلانًا للخارجية الأميركية عن «فرصة تمويل جديدة» تدعى «برنامج الديمقراطية لسورية». وبحسب العرض، فإن المنح هي بقيمة 5 ملايين دولار في السنة المالية الفدرالية 2006». أمّا هدف المنح، فهو «تسريع عمل الإصلاحيين في سورية».... انظر: Charlie Skelton, «The Syrian Opposition: Who's Doing the Talking?» *The Guardian*, 12/7/2012.

(54) الأخبار، 1/ 11/ 2012.

6- تطويق إيران: الخسائر المحتملة من سقوط النظام

«لنفترض أن نظام بشار الأسد سـقط، بعد أيام أو أشهر أو أكثر...». طرح المحلّلون الأميركيون الفرضية ووضعوا السيناريوات السياسية والأمنية لمرحلة ما بعد الأسد. لكنّ المشكلة تلبث في أن المشهد الذي أجمعوا عليه كان «كارثيًا بكلّ جوانبه».

بشار الأسد لم يسـقط بعدُ، لكن المحلّلين الأميركيين انكبّوا على وضع سيناريوات ما بعد رحيله؛ تلك التي بُنيت على معلومات استخبارية أو «مصادر في الإدارة الأميركية»، أقـل ما قال عنها كاتبوها إنّها «غير مشـرقة» و«كارثية» حتى هناك من سمّاها «كوابيس».

أسـباب «الكوابيس» التي تحدّث عنها معظم المحلّلين الأميركيين كثيرة، تبـدأ بالنزاعات الطائفيـة، وتمرّ بجهاديـي «القاعدة»، وصولًا إلى اسـتخدام الأسلحة الكيميائية.

عن «اليوم التالي» لسـقوط الأسـد، كتب المحلّل ديفيـد إغناتيوس، في صحيفة واشـنطن بوسـت، داعيًا الإدارة الأميركية إلى «تحديد ما يمكن فعله الآن في سـورية بدلًا من تعداد ما لا يمكن تحقيقه». سيناريو إغناتيوس بشأن سورية ليس ورديًا، إذ يشـير الصحافي إلى أنه «حتى لو سقط الأسد، فالمعارك في سـورية ستسـتمرّ بعنف». ويضيف «إن مهمّة الولايات المتحدة وحلفائها سـتكون حينها العمل على التخفيف من الأضرار الجانبيـة». الصحافي يدعو واشـنطن إلى الانتقال إلى العمل الجدّي الفوري بدلًا من كيل الشتائم لروسيا على منابر الأمم المتحدة وغيرها. وفي هذا الوقت، يكشـف إغناتيوس عن أن «العمل جارٍ لاسـتكمال «برنامج العمليات السرّية» حيث تزوّد السعودية وقطر المعارضة بالمال والسلاح، وتتولى الولايات المتحدة الأمور اللوجستية، وتوفّر كلّ من تركيا وإسرائيل والأردن والإمارات العربية المتحدة الدعم الاستخباري الميداني». ويخلص إغناتيـوس إلى أن «الأمر المقلق هـو أن في اليوم الأول الذي سيلي سقوط الأسد، ستزداد المعارك عنفًا... وحتى لو لم تكن الولايات

المتحدة هي التي دمّـرت النظام كما في العراق، فإنها ستتدخّل لا محالة في إصلاح الأوضاع في سورية ما بعد الأسد».

يظهر العراق مجدّدًا في التحليلات الأميركية، وهذه المرّة حسم الكاتب توماس فريدمان في نيويورك تايمز رؤيته: «سورية هي عراق». وعرض فريدمان في مقاله نقاط التشابه العديدة بين العراق وسورية من حيث النسيج الاجتماعي والتعدّد الطائفي وحكم الحزب الواحد، لكنّ الكاتب قال إنّه «لا يدعو إلى تدخل أميركي في سورية على طريقة العراق لإنقاذها».

يعرض طوني كارون في مجلّة تايم الأميركية سيناريو من خمسة أجزاءٍ، يرجّح حصوله إذا سقط نظام الأسد؛ فبحسب **الجزء الأول** هذا السيناريو، «سيزداد حمّام الدم المذهبي عنفًا»، إذ يرى أنه «مهما قدّمت من تطمينات إلى الأقليات المسيحية والعلوية في سورية، فإن تطبيق ذلك عمليًا شبه مستحيل، خصوصًا أن المقاتلين العلويين المؤيدين للنظام سيستمرّون في القتال حتى بعد سقوطه». ويحذّر كارون من عدم وجود قوة معارضة موحّدة الصفوف وذات خطّة واحدة وواضحة، وهو ما سيؤدّي إلى إغراق البلد في الفوضى.

يدور **الجزء الثاني** حول الجهاديين. وينقل الصحافي عن تقارير استخبارية ألمانية قولها إن «مجموعات جهادية قريبة من «القاعدة» نفّذت نحو 90 تفجيرًا في سورية خلال الأشهر الستة الماضية». ويوضح كارون أن انفلات الأوضاع بعد رحيل الأسد سيدفع تلك المجموعات الجهادية إلى «ملء الفراغ» وتحريك جبهاتهم بين لبنان والعراق وسورية.

الجزء الثالث من السيناريو هو «إفلات الأسلحة الكيميائية من السيطرة»، فيرى الكاتب أن الخشية من استخدام تلك الأسلحة هي أكبر في مرحلة ما بعد سقوط الأسد، بعد أن تقع في أيدي المجموعات غير المنضبطة.

و«**الكابوس الرابع**» هو انهيار سورية وتفكّكها بفعل التنوّع الإثني والطائفي الذي تتكوّن منه. أمّا «**الكابوس الخامس**» والأخير فيلخّصه كارون

بـ «أن ما يحدث في ســورية لن يبقى فيها... بل ســينتقل إلــى لبنان والأردن والعراق وتركيا».

يرى روبرت دريفوس في مقالة منشــورة في نيشن سيناريو تفكّك سورية وتقسيمها وخلق دويلة للعلويين «من أسوأ الســيناريوات»، وأن «سؤال: كيف وصلنا إلى هنا؟ فات أوانه» في الأزمة الســورية. ويقول إن إدارة أوباما «توجَّه إليهــا التحية لأنها لم تســتمع إلــى المحافظين ولم تدخل في حرب مباشــرة مع ســورية، لكنّها تلام على تســليح المجموعات المقاتلة ومن بينها جهاديو القاعدة». ويضيف: «المشكلة الأساســية في إدارة أوباما أنها، منذ بداية الأزمة السورية، لم تسعَ إلى حلّ سياســي»، ويؤكّد أن «الأيام المقبلة ستثبت أن دور سي آي إي (CIA) في سورية كان أكبر كثيرًا ممّا أعلنته واشنطن»[55].

إن الســيناريوات الســابقة كلّها محتملة في ســورية بعد الأسد، وهي لا تطمئن إيران، ولن تجعلها تبدّل رأيها في التخلّــي عن دعم النظام الحالي. بل على العكس، إن ما ورد من احتمالات واقعية ســوف يجعــل إيران في وضع أكثر صعوبة إذا ما تحقّق بعضها، فكيف إذا أضفنا إلى ذلك تلك الصلة الوثيقة بين قادة المعارضــة ورموزها المهمّة (التي يفترض أن تكــون البديل من نظام الأسد) من جهة والأجهزة الغربية الأميركية والبريطانية من جهة أخرى؟ إن هذا الأمر سيجعل طهران أكثر ثقة بما تقوله عن المؤامرة الأميركية في سورية وعن الحرب بالوكالة التي تخوضها الولايات المتحدة ودول أخرى لضرب المقاومة ومحورها الســوري – الإيراني، كما قال مرشد الثورة الإيرانية في مؤتمر حركة عدم الانحياز في 31/ 8/ 2012، ثم عاد وكرّر ذلك في رســالته لمناسبة عيد الأضحى في 25/ 10/ 2012.

المواقف الإســرائيلية واضحةً أيضًا في حسابات الخســارة الاستراتيجية لإيران ولحزب الله إذا ســقط الأســد؛ «فقد رأى وزير الشــؤون الاستراتيجية الإسرائيلية موشيه يعلون أن ســقوط الرئيس بشار الأسد سيشكّل ضربة شديدة

(55) الأخبار، 28/ 7/ 2012، نقلًا عن: ليال أوليفاس، في: وكالة أ ف ب.

لمحور الشرّ، وأن سقوط الأسد ضربة شديدة للنظام الإيراني وحزب الله.. وأن حزب الله ليس في وضع يجعله يستفزّ إسرائيل بسبب هذه الضغوط».. فيما رأى رئيس الأركان الإسرائيلي السابق غابي أشكينازي أن سقوط الأسد «سيحسّن وضع إسرائيل من الناحية الاستراتيجية»[(56)].

إنها الاحتمالات المختلفة لسقوط النظام أو للفوضى أو للمشهد الأصولي/ الجهادي أو لعلاقة المعارضة أو رموزها الأساسية مع الولايات المتحدة، وما سينجم عن ذلك كلّه من إضعاف لمحور الممانعة، أو «من تحسّن لوضع إسرائيل الاستراتيجي». وإذا خسرت إيران في سورية ولبنان، فإن السعودية وتركيا ستسعيان إلى خلق منطقة سنّية وصولًا إلى العراق، وهو ما «سيشكّل خطرًا كبيرًا على إيران» وفق ما جاء في مقالة إيزابيل لاسير في صحيفة لوفيغارو الفرنسية في 24/ 8/ 2012.

ينبغي أن نضيف إلى تلك السيناريوات التي أشرنا إليها مخاوف إيران من مزيد من التطويق، ومن فرض العقوبات، ومن التهديد الإسرائيلي بشنّ الحرب عليها، وهو تهديد جدّي اضطّرت الإدارة الأميركية بسببه، وهي على أبواب التحضير للحملة الانتخابية، إلى إرسال الموفدين، وعلى أعلى المستويات، إلى إسرائيل لثنيها عن أي قرار أحادي يمكن أن تتّخذه بشنّ الحرب على إيران. وكان الربط بين الضغط الإسرائيلي على واشنطن ونسف محاولة الاتفاق والتفاهم بشأن البرنامج النووي الإيراني في لقاءات إسطنبول وبغداد لتعود الأمور إلى نقطة الصفر في اجتماع موسكو في منتصف عام 2012 بين إيران ومجموعة 5+1، وليعود النقاش مجدّدًا إلى المخاوف من برنامج إيران العسكري وإلى المزيد من الضغط والعقوبات، بدلًا من البحث في كيفية تنفيذ الاتفاق في شأن تبادل الوقود النووي في مقابل وقف التخصيب ورفع العقوبات.

لن تقتصر التداعيات السلبية للسيناريوات المحتملة في سورية على إيران وحدها في الإقليم؛ إذ من المفترض أن تشترك إيران في مخاوفها من بعض

---

(56) الأخبار، 25/ 8/ 2012، ص 21.

سيناريوات «المستقبل السـوري» مع دول أخرى في المنطقة وفي العالم معنية بالأزمة السورية. بالنسبة إلى تركيا، مثلًا، حذّر معهد كارنيغي من انتقال عدوى الأزمة السـورية إلى المناطق الكردية من تركيا التـي «تؤجّج نياتها لإقامة كيان كردي مسـتقلّ» على جانبيْ الحدود مع سورية. وإن السياسـة التركية المتّبعة لتغيير النظام في سـورية بالقوّة «تواجه معارضة داخلية» تتنامى مع إخفاق جهد إطاحة الرئيس السـوري[57]، إضافة إلى اسـتطلاعات الرأي العام التي وصلت إلى نسبة 80 في المئة ممن يعارضون التدخّل العسكري التركي في سورية.

خصّصت فاينانشـال تايمز إحدى افتتاحياتها لتأثير الوضع السـوري في تركيا، وكيف أنه يشـكّل أكثر من كابوس للدولة التركية؛ فمع سـيطرة الأكراد على بعض المناطق في سـورية، تواجه تركيا احتمال نـواة دولة قومية للأكراد من سـورية والعراق، ما يعني تقوية عزيمة 13 مليون كردي في تركيا للمطالبة بالانفصال. وفي سياسـة تركيا الخارجية، ترى الافتتاحية أن زيادة الشـقاق مع إيران ليست في مصلحة تركيا، مشـيرةً إلى دور هذه الأخيرة في محاولة قيادة معسكر سنّي في المنطقة ضد إيران «الشيعية»[58].

إن المخاوف من عامل الانفصال الكردي نتيجة الأزمة السورية يفترض ألّا يقلق تركيا وحدها، بل هو يقلق إيران أيضًا بسـبب النزعات الانفصالية الكردية في داخلها. كما يفترض أن يقلـق «النظام العربي» المقبل وهو قيد التشـكل، لأنّ أي دولة كردية تعني المزيد من تقسـيم المنطقة العربية بعد تقسيم السودان الذي لم يواجه أي معارضـةٍ جدية من جامعة الدول العربيـة. وإذا أضفنا إلى ذلك مشروع عودة اليمن الجنوبي إلى سابق عهده من الانفصال، فإن هذا يعني تقسيم اليمن مجدّدًا إلى دولتين. يمكن القول إنّنا ذاهبون نحو المزيد من تفكّك النظام العربي بعد الثورات. هذا إذا لم نضمّ سـيناريو تقسـيم سورية أيضًا إلى هذا التفكّك المحتمل. أمّا السـيناريو الجهادي الـذي يتنامى دوره والمخاوف

(57) مركز الدراسات الأميركية والعربية، التقرير الأسبوعي لمراكز الأبحاث الأميركية.

(58) «صحف بريطانية: الوضع في سـوريا يشـكل أكثر من كابوس للدولـة التركية،» المصري اليوم، 10/ 8/ 2012. <http://www.almasryalyoum.com/node/1041376>.

منه في ســورية، فهو أيضًا لا يقلق إيران وحدها (وأشــرنا إلى تنامي المخاوف والتحذيرات الغربية من التنظيمات الأصولية في ســورية). ومن المستغرب أن تتساهل دول عربية وغربية، وحتى تركيا، في تمرير هؤلاء المقاتلين إلى سورية وقت تشنّ القوات الأميركية حملة عســكرية وأمنية للقضاء على مواقع القاعدة في اليمن. والمملكة العربية السعودية تخوض أيضًا حملة أمنية قوية ضد أفراد هذا التنظيم.. ما يعني أن المشكلات المقبلة مع السيناريو الأصولي/ الجهادي ســتكون مشــكلات حقيقية مع معظم دول الإقليم. وفي هذه الحالة، سنكون مجدّدًا أمام مشــهد «الأفغان العرب» الذين قاتلوا في أفغانستان ثمّ تحوّلوا إلى مُطارَدين لا يســتطيعون العودة إلــى بلدانهم. ومن المرجّــح أن يكون «أفغان سورية» «مدركين تمامًا» لمستقبل هذا السيناريو. لذا، فإنهم لن يتخلّوا بسهولة عن سلاحهم، ولا عن دورهم، ولا عن النفوذ الذي حققّوه من خلال مشاركتهم في القتال ضد النظام.

أمّا مشــهد الفوضــى أو الحرب الأهليــة، أو حتى اســتمرار الأزمة، مع ملاحظة الفروق بين ســيناريو وآخر، فإن معظم دول المنطقة ستكون متضرّرة ومُربَكة منه. ولا يحتاج الأمر إلى عناء الشــرح والتفصيل؛ إذ نظرًا إلى التشابه المجتمعي الديني والمذهبي والعرقي، وحتى العشــائري بين ســورية والدول المجاورة لها، لاحت بوادر لما يجري في ســورية من تأثيرات سلبية مجتمعية ومذهبية وطائفية ودينية من تأثيرات في لبنان وتركيا والعراق، ما يعني اشــتعال هذه التأثيرات وتمدّدها إلى بلدان المنطقة الأخرى.

إن الانقســام المجتمعي، وتأخّر حسم مستقبل ســورية، وأولوية البرامج الداخلية الاجتماعيــة الاقتصادية في حكومات ما بعد الثــورات، وعدم تحقّق الاســتقرار الداخلي في هذه الحكومات بسبب التوترات مع بقايا النظام السابق «الفلول»، أو التوترات مع الســلفيين (تونس)، كل ذلك لن يســاعد في تبلور صورة النظام العربي المقبل.

الخيــارات الإقليمية في العلاقة بتركيــا أو بإيران، وقبل ذلــك كلّه خيار التعامــل مع القضيــة الفلســطينية (التفــاوض أو المقاومة، العلاقة بالســلطة

الفلسطينية والعلاقة بحماس)، هي التي ستحدّد مستقبل هذا النظام وطبيعته. وما دامت هذه القضايا رمادية وغير واضحة أو حاسمة، فإن خيارات النظام العربي واتّجاهاته لن تكون واضحة.

قامت كلّ من مصر والمملكة العربية السعودية وسورية بدور قاطرة هذا النظام ومركز الجذب فيه في العقدين الأخيرين (قبل استفحال الخلاف مع سورية بعد عام 2005). لكن القاطرة الجديدة لهذا النظام لا تبدو واضحة في ظلّ استمرار الأزمة في سورية. وأمام الأسئلة المفتوحة عن موقع مصر ودورها المفترض في هذا النظام، فهل ستعود مصر إلى موقع الريادة؟ وهل في إمكانها أن تفعل ذلك لمجرّد الرغبة أم أن شروط هذه الريادة تغيّرت مع وجود قوّى إقليمية مهمّة مثل تركيا وإيران، ومع تنامي دور المملكة العربية السعودية في غياب مصر سنوات طويلة؟ وهل ستكون أولوية العودة المصرية أولوية مذهبية في إطار «المشروع السنّي» كما قال الرئيس مرسي للملك عبد الله في زيارته الأولى للمملكة؟ أمْ أن مصر بقيادتها الجديدة ستكون أولويتها إسلامية بالتفاهم مع إيران أو مع تركيا، أو بالتفاهم مع المملكة العربية السعودية؟

لا تزال الأسئلة مفتوحة حيال توجّهات السياسة الخارجية المصرية التي ستكون أحد أهمّ محدّدات النظام العربي القادم. ولا تزال تلك الأسئلة مفتوحةً أيضًا حيال أولويات النظام العربي نفسه. هل فلسطين هي قضيته المركزية؟ أمْ أن إيران هي التي أصبحت «القضية المركزية» للعرب؟ أمْ لا هذه ولا تلك، بل القضية الداخلية الاقتصادية والاجتماعية هي التي ستكون الشغل الشاغل للحكومات الجديدة ما بعد الثورات العربية؟ الجواب عن أولوية هذه القضية أو تلك سوف يحدّد بكلّ تأكيد طبيعة النظام العربي القادم.

إذا أضفنا إلى التعقيدات والسيناريوات السابقة تعقيدات أخرى تلفّ طبيعة المواجهة ومستقبلها في المنطقة وفي سورية وعليها، بين روسيا والصين وحلفائهما من جهة والولايات المتحدة وحلفائها من جهة ثانية (يرى لافروف أن ما يجري في سورية سيؤثّر في تشكيل النظام العالمي الجديد)، أمكن القول إن مستقبل سورية في أي من الاتّجاهات التي أشرنا إليها هو الذي سيحدّد

بصورة كبيرة مدى أرباح وخسائر القوى الدولية والقوى الإقليمية، وفي مقدمها إيران، نتيجة التغيرات المقبلة والمتسارعة في الشرق الأوسط.

إن استمرار الأزمة وقتًا طويلًا هو الأرجح في سورية. وربما لا ترغب إيران وقوى إقليمية أخرى في ذلك. كما أن إيران لا تريد مشهد سقوط الأسد، والمخاوف الإيرانية جدية في هذا المجال. وتشترك إيران مع القوى الإقليمية الأخرى في مخاوفها من معظم السيناريوات المطروحة لمستقبل سورية. وتخشى في الدرجة الأولى تمدّد النفوذ الأميركي في سورية بعد احتمال إطاحة الأسد. ويثير هذا القلق من النفوذ الأميركي المقبل في سورية مخاوف باحثين ومحلّلين عرب أيضًا. ولا يَستبعد هؤلاء أنْ تؤدّي التسوية في سورية إلى قيام نظام «إقليمي» على أسسٍ جديدة تمامًا، تحكمه وتتحكّم به واشنطن عن طريق سيطرة مباشرة من جانب ممثّلين للاستخبارات والدبلوماسيات الغربية، ملحقين الآن ببعض المؤسّسات الدولية، وعن طريق الاعتماد المتزايد على تعاون وثيق مع نُخب الإسلام السياسي، أيْ مع التيار الصاعد إلى الحكم في جميع دول الإقليم الممتدّ من حدود الصين الغربية إلى شواطئ أفريقيا الغربية. وستعمل الأطراف الخارجية لتحصل على امتيازات ومواقع أفضل في سورية المستقبل التي يجري رسم خطوطها العامّة الآن في أجهزة وإدارات دولية.

«إنّ أقرب شكل يمكن تصوّره هو حالة تشبه نظام وصاية مستترًا من المنظمة الدولية، يجري الآن الإعداد له، لتلحق سورية بغيرها من دول الربيع العربي التي يجمع بينها الآن سياسات يعبّر أكثرها عن «انصياع» لإرادة المجتمع الدولي ممثّلًا بالوجود والنفوذ المتزايد لممثّلين لمؤسّسات دولية عريقة في دبلوماسية التدخّل في الشؤون الداخلية تحت عنوان بناء الأمم أو غيره من العناوين المبتكرة»[59].

تدعم إيران النظام السوري حماية لمصالحها الإقليمية، فيما تفعل تركيا العكس توخيًا للأهداف ذاتها. أمّا السعودية وقطر فتريدان توجيه ضربة قاصمة

(59) جميل مطر، «دمشق و«الشرق الأكبر» على خط البداية،» السفير، 13/ 9/ 2012. <http://www.assafir.com/Article.aspx?EditionId=2254&ChannelId=54090&ArticleId=1210>.

لإيران عبر إسـقاط النظام في سـورية، وهو النظام الذي دعمتـاه في الأعوام الأخيرة ماليًا وسياسـيًا أملًا في جذبه بعيدًا عن تحالفه مع إيران. ولمّا لم تفلح هذه المحاولات لتسـيطر إيران علـى مفاصل القرار السـوري، جرى العمل، ويجري حاليًا على رفع سـقف الانتفاضة الشعبية السـورية بما يتجاوز تحقيق أهداف الانتفاضة الشـعبية السـورية في الحرية والديمقراطيـة، ليعاد صوغها في مطابخ الجـوار الإقليمي على الصورة التالية: «تحجيـم الدور الإيراني في المنطقة، وتغيير المعادلات السياسية والطائفية في المشرق العربي كاملًا، وكلّ ذلك على ظهر السوريين وبدمهم»[60].

إن اسـتمرار الأزمة هو السـيناريو المرجّح في المـدى المنظور، وذلك لأسباب داخلية وخارجية. فمن جهة، هناك عجز الأطراف الداخلية، أيْ النظام و«المعارضة» بتشـكيلاتها المختلفة، عن حسـم المواجهات العسكرية، ومن جهة ثانية، هناك الانقسام الدولي والإقليمي في شأن ما يجري في سورية، وهو الانقسام الوحيد الذي حصل على هذا المسـتوى إزاء «الثورات العربية»، فلم نشهد مثل هذا الانقسـام الواضح والقوي والحادّ الإقليمي والدولي بين مؤيد للنظام ومؤيد للمعارضة، لا في مصر ولا فـي تونس ولا في ليبيا ولا حتى في البحريـن أو في اليمن. أمّا المخاوف من هذا السـيناريو فتـزداد وضوحًا يومًا بعد يوم، مـن الآف الضحايا، إلـى التدمير الهائل والمخيـف للمباني والآثار والأسـواق، إلى اغتيـال الرموز والشـخصيات العلمية. ولن يـؤدّي ذلك مع استمراره إلّا إلى تدمير المجتمع السوري وانهيار الدولة في سورية، وإلى تفتيت الجيش السوري. ولن يكون في استطاعة سـورية بعد ذلك أن تنهض بسهولة. وستكون بحاجة إلى المزيد من التدخّل من جانب الخارج في المرحلة المقبلة. ولن يكون في مقدور سـورية أن تسـتعيد دورها الإقليمـي المهمّ والمحوري الذي كان لها قبل ذلك، وهذا ما يثير مخاوف كثيرين من «صوملة» سـورية، أو من دخولها أتون حرب أهلية لا أحد يعلم أو يقدّر متى وكيف يمكن أن تنتهي.

---

(60) مصطفى اللبـاد، «مسـتقبل التحالف الإيراني - السـوري،» السـفير، 29/ 10/ 2012. <http://www.assafir.com/Article.aspx?EditionId=2294&ChannelId=55090&ArticleId=2829>.

لذا فــإن أي تصوّر لنظــام إقليمي عربــي واضح المعالــم أو للعلاقات الإقليمية والبينية العربية، لن يكون ممكنًا قبل أن تتّضح مآلات الأزمة السورية. وإذا أضفنــا المرحلة الانتقالية الصعبة التي تمرّ بهــا التجارب الجديدة للحكم في كلّ من تونس ومصــر، وهي التي لم تحدّد تمامًــا علاقتها وموقعها في أي نظام إقليمي، أمكن القــول إن النظام الإقليمي العربي لن يبصر النور قريبًا، وإنّ إيرانَ - مثل القوى الإقليمية الأخرى - لن تجد بســهولة السياســات الملائمة للتعامل مع الوضع الانتقالي، بل ســتعتمد السياســات الوقائية في ظلّ ضبابية المشــهد الإقليمي، وفي ظلّ عدم وضوح الخيارات الإقليميــة لأنظمة ما بعد الثورات العربية. وكما تفعل القوى الإقليمية الأخرى، فإن تدخّلها سيكون قويًا كي يصبح النظام العربي (وفيه النظام الســوري الجديد) منسجمًا مع مصالحها وأهدافها، من تركيا إلى دول الخليج، علاوة على إسرائيل التي تريد بكلّ تأكيد نظامًا عربيًا معتدلًا يشجع السلام والتفاوض والتطبيع وليس خلاف ذلك، وهو ما يثير خشــية البعض من نظام إقليمي تحكمه واشنطن وتتحكّم به، وهنا تبذل إيران في المقابل، في ضوء استراتيجيتها الدفاعية، وفي ظلّ العقوبات والضغط والتهديدات الاســتراتيجية، ومحاولات التطويق التي تتعرّض لها، ما أمكن من جهد كيْ يكون هذا النظام العربي، خصوصًا في مصر و سورية، متصالحًا معها، أو حتى لا يكون جزءًا من جبهة إقليمية ودولية معادية لها.

تعقيب

محجوب الزويري

لا تمرّ الثورات من دون أن تترك بصمتها واضحة على حياة الناس والعلاقات بين الدول، وهذا منطق تفرضه طبيعة الثورة كوجه للتغيير تختاره مجتمعات عندما تفقد الأمل في التغيير والإصلاح التدريجي. ولا يُستثنى العرب والإيرانيون من هذا كله؛ إذ أدخلت الثورة الإسلامية في إيران عام 1979 العلاقات العربية - الإيرانية في مرحلة جديدة لا تزال آثارها ماثلة. كما أن الربيع العربي الذي بدأ في أواخر عام 2010 أدخل العرب والإيرانيين في فصل جديد من العلاقات في طور التشكّل.

تسعى هذه الدراسة إلى تحليل مسار العلاقات العربية - الإيرانية بين الثورة الإسلامية والربيع العربي. كما تسعى إلى تقديم تصوّر بشأن سيناريوات العلاقة بين العرب والإيرانيين في ظل المشهد السياسي المتشكّل في منطقة الشرق الأوسط، ومدى تأثيره في التطوّرات الإقليمية والدولية.

أولًا: العرب وإيران: بين الثورة والثورات

أدخلت الثورة الإسلامية الإيرانية في عام 1979 العلاقة العربية - الإيرانية في فصل جديد يمكن أن يعَنْون بفصل «الرّيبة والمخاوف»؛ فالنّظام السياسي الإيراني المتشكّل من الثورة الإسلامية بدَا بالنسبة إلى العرب - أكان في الجوار الإيراني أو حتى ما هو أبعد جغرافيًا - مهدّدًا، ولا سيما عند نشوب الحرب

العراقية - الإيرانية التي امتدّت ثمانية أعوام. ويبدو التهديد في مستوى الأبعاد المذهبية والسياســية والاقتصادية. فالخطاب السياســي القادم من إيران بشأن انتقاد الأنظمة الملكية ووصفها بالمستبدّة، والحديث عن تصدير نموذج الثورة الإيرانية كوسيلة لمقاومة استبداد تلك الأنظمة الملكية، كلّها عوامل أذكت تلك الشكوك في خصوص ما تريده إيران. أضف دور العامل الخارجي المتمثّل في المواجهة الأميركية - الإيرانية التي هبت مع أزمة الرّهائن، ولا يبدو أنّها ستنتهي بوجود أزمة الملفّ النووي الإيراني.

تأثّرت العلاقة بين إيــران والدول العربية بثنائيــة القطبية في فترة الحرب الباردة، ولا ســيما في الفترة الواقعة بين عامي 1979و1990؛ إذ أسّست إيران لتحالفاتها غير ما كان يســمّى الاتحاد السوفياتي، وهو أحد الأمور التي جعلت النظام السوري مرغوبًا فيه، ثمّ أصبح حليفًا استراتيجيًا لإيران حتى تاريخ كتابة هذه الدراسة. ويعدّ النظام الســوري من الدول الأقرب إلى الاتحاد السوفياتي قبل سقوطه وتحوّله إلى روسيا الاتحادية. وتمكّنت إيران من الاستفادة من هذا الدّور في ظلّ ما كانت تــراه من تحالف الدول العربية مــع الولايات المتحدة الأميركيــة؛ إذ أصبح العامل الأميركــي عنصرًا مهمًّا ومؤثّرًا فــي أي تطوّر في العلاقة بين طهران وجيرانهــا العرب. وحتى مع انتهاء الحــرب الباردة، بقيت إيران محافظة على هذه العلاقة مع روســيا التي ساندت إلى حدٍّ كبير الموقف الإيراني، خصوصًا في ما يتعلّق بالبرنامج النووي.

أمضت إيران عقد الثمانينيات من القرن الماضي وهي تعيش حالة الثورة، وفي المقابل حالة من الخصومة تســيطر على علاقاتها بالجوار، وجوار لم تنته شكوكه على الرغم من كلّ التّطمينات التي تحاول إيران إرسالها من وقت إلى آخر؛ فالسلوك السياســي الذي كانت إيران تنتهجه ويثير غضب جوارها العربي هو أن طهران ذات علاقات بمعارضي تلك الحكومات، أكانت إسلامية أم غير إســلامية. وكان هناك تصوّر مؤداه أن ما قامت به الثورة الإســلامية من وضع نهاية لنظام مستبدّ كان يُعرف بشــطّي أميركا في الخليج، هو عمل عظيم يشجّع على التعاون مع الفاعــل. وعليه، تمكّنت إيران الجمهورية الإســلامية من أن

تقدّم نفسها باعتبارها دولة وليدة حركة تحرّر من الاستبداد ومن تبعاته المتعلّقة بالسيطرة الغربية، خصوصًا الأميركية منها.

لمّا كانت الثورة والدولة المنبثقة منها تقرّ بأن اكتساب شرعيتها الدينية من كونها دولة شيعية اثنتي عشــرية، فقد أعطت الشيعة حيث هم في العالم العربي وخارجه مؤشــرًا إلى وجود من يمكن أن يدافع عنهم وعن حقوقهم التي يرون أنها منتهَكة. إن العلاقات بالمواطنين الشّيعة في بعض البلاد العربية، ولا سيما في منطقة الخليج ولبنان، ضاعفت مخاوف تلك الدول ومخاوف الدول العربية الأخرى، والأمر نقل إيران لتصبح تهديدًا أمنيًا في نظر بعض تلك الدول.

أسّســت تلك المرحلة لكلّ ما جرى الحديث عنه من تعاظم دور الشيعة السياســي في الشــرق الأوســط بعد عام 2003 عندما احتلّ العــراق؛ فكلّ المقولات والتصريحات بشأن ظهور كتلة شيعية أو تحالف في المنطقة العربية، كانت تنطلق في الأساس ممّا حدث في إيران عام 1979، ما دفع إلى ظهور ما يُعرف بـ «الشّيعة فوبيا» متلازمة مع استمرار حالة «إيران فوبيا».

ســاعدت طبيعة النظام السياســي العربي الذي كان يميل إلى الســيطرة المطلقة على مقاليد الأمور بلدانًا كثيرة سياســيًا واقتصاديًا على اكتساب إيران جاذبية خاصّــة، ذلك أنها الدولة التي كانت تقدّم نفســها كنموذج للديمقراطية الإسلامية. فالانتخابات، الرئاســية أو البرلمانية أو المحلّية، تُجرى كل عامين. وتعاظمت هذه الجاذبية في ظل التقارب بين النظام العربي الرســمي ومصالح القوى الغربية في المنطقة، وكانت في الأغلب تخدم أمن إسرائيل ومصالحها. ودفع ذلك التّقارب إلى زيادة الجاذبية السياســية لإيــران عند كثير من العرب فازداد حضورها السياسي في البيت السياسي العربي.

لم تنجح إيــران كلّيًا فــي تبديد مخــاوف النظام الرســمي العربي من سياساتها، على الرغم من الجهد الدبلوماسي الذي بذلته في عقد التسعينيات، وهو الجهــد الذي ركّز على الانفتــاح على الدول العربيــة وإعادة العلاقات الدبلوماســية بين طهران وأكثر من خمس عشــرة دولة عربيــة. وبقيت إيران

في دائرة الخطر الأمني على تلك الدول، أكان لأسباب سياسية أم لأسباب مذهبية عند البعض. واللافت عند الحديث عن العامل المذهبي في العلاقة بين إيران والعرب أن الدول التي تبدو منزعجة ممّا تسمّيه السياسات المذهبية الإيرانية هي في الأساس دول علمانية بالمعنى السياسي، ما عدا المملكة العربية السعودية. بعبارة أخرى، هي دول لا ترى للدّين دورًا في المحيط العام، والمقصود بذلك السياسة والاقتصاد، وهو ما يدفع إلى القول إن العامل المذهبي قد لا يكون الأهم بالنسبة إلى الدول، بل إن السياسة والتّأثير في سمعة تلك الدول وصدقيتها هما العاملان الأهمّ بناءً على ذلك التصوّر السلبي تجاه إيران.

قامت التطوّرات السياسية الإقليمية وطبيعة التحالفات في المنطقة بدور أساس في تعميق عامل المواجهة بين الجمهورية الإسلامية والكثير من الدول العربية، وهو الذي حكم تلك العلاقات باستثناء كلٍّ من سورية ولبنان وعُمان. إن شكل التحالفات المتمثّل في معسكر عربي رسمي أميركي (إسرائيلي) وفقًا للتعريف الإيراني، يقابله معسكر يؤمن بالتحرّر ومقاومة النّفوذ الأميركي - الإسرائيلي، وهو المعسكر الذي كان يحظى غالبًا بدعم جماهيري يزعج النظام الرسمي العربي، ولا سيما في البلدان التي يُنظر إليها على أنها جزء من هذا التحالف، مثل مصر والسعودية والأردن. وظهرت هذه التحالفات جلية في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين في ما يُعرف بمحور المعتدلين، وكان يضمّ الولايات المتحدة ومصر والسعودية والأردن. وفي المقابل، نجد محور المقاومة الذي يضمّ إيران وسورية وحركات المقاومة مثل «حماس» و«الجهاد الإسلامي» و«حزب الله».

لقد مثّل يوم 17 كانون الأول/ ديسمبر 2010 بداية مرحلة جديدة في العلاقة بين إيران والعرب؛ بداية أسّست لها ثورات العرب في ما سُمّي الربيع العربي، لتطرح أسئلة عن خصوصية حالة الثورة في إيران ومستقبل التّحالفات التي تشكّلت متأثّرةً بها وبالنظام السياسي المنبثق منها.

ثانيًا: ربيع العرب: صورة إيران وانهيار التحالفات

إن الثورات أو الاعتراضات التي اجتاحت سبع دول عربية (تونس ومصر وليبيا واليمن والبحرين وسورية والأردن وعُمان) تبدو حوادث منفصلة ومتعلّقة بمطالبات سياسية، على رأسها وقف الاستبداد وتبعاته من فساد وتدمير لأسس المجتمعات، لكنها سرعان ما تركت آثارًا واضحة، أكان في المشهد السياسي لكلّ دولة أم في المشهد الإقليمي غير المنقطع عن الدولي. وكانت إيران إحدى هذه القضايا الحاضرة في مشهد التغيير العربي.

ثمّة ثلاثة مستويات يمكن من خلالها تحليل العلاقة بين ما شهده العالم العربي من تغيير والموقف من إيران بشكل عام. **الأول** هو المستوى المحلّي العربي المتمثّل في داخل كلّ دولة أو لدى الرأي العام العربي عمومًا. **والثاني** هو المستوى السياسي الإقليمي وما طرأ عليه من تغييرات ارتبط كثير منها بالموقف من إيران أو انعكس على إيران، **والمستوى الثالث** هو ما يحدثه الربيع العربي من تغيير في السلوك السياسي على المستوى الدولي، ولا سيما منه التصرّف تجاه إيران.

في المستوى الأول - المحلّي العربي - يمكن رصد جملة من التغييرات: **أوّلها** إنهاء مقولة أن إيران هي الدولة الوحيدة التي لها «امتياز ثوري» في منطقة الشرق الأوسط بشقّيها العربي وغير العربي، وأن سبب هذا الامتياز هو التميز المذهبي الإيراني على أساس أن إيران دولة شيعية اثنا عشرية. ومن تطوّرات الربيع العربي وتدحرج قوى التغيير فيه وانتقالها بين البلدان بنسق متسارع وإطاحتها أربعة أنظمة سياسية، كانت تعدّ من أبرز النّظم في الدول العربية في قوائم الاستبداد والفساد، وكان أن أعادت للعرب شيئًا من الثّقة بقدرتهم على إحداث التّغيير وإنتاج نموذجهم الخاصّ بدلًا من الانبهار بالنّماذج الأخرى وتوقُّع أن يدافع الآخرون عن حقوق العرب. فمفردة الانبهار بالثورة الإسلامية والجمهورية الإسلامية تكاد تنتهي إلى غير رجعة، كما أن الانبهار بالنموذج التركي سيتأثّر كلّما حقّقت الدول التي حدثت فيها الثّورات بناء نموذجها. وقد

يتأخّر الموقف العروبي من النموذج التركي بسبب ظاهرة «الإسلامو فوبيا» التي يراد لها أن تعمّ العالم العربي انطلاقًا من بلدان الربيع العربي.

ارتبط التغيــر تجاه إيران بطبيعة الثورات العربية وحصادها الســريع، لكنه ســرعان ما تعاظم مع بداية ظهور المواقف الإيرانية من تطوّرات تلك الثورات والمتعلقة بالمســتوى الثاني - السياســي الإقليمي. إذ أعلن الربيع العربي بدْءَ تشــكّل بيئة سياســية إقليمية جديدة ســاعد في ظهورها التغير الذي طرأ على الرأي العام والنخبة السياســية، وكذلك التغيير الذي طــرأ على تعريف النخبة الجديدة لمصالحها بطريقــة مختلفة عمّا كانت عليه. في هذا التعريف قدر كبير من الاتّكاء على الشــرعية السياسية للأنظمة المتشــكّلة التي بدت أقوى مقارنة بالأنظمة السابقة.

في هذا الســياق، كان الانهيار المــدوّي للتحالفات التــي أنتجها المناخ السياســي الســابق والتي جعلت المنطقة تنقســم إلى محورين هما الاعتدال والممانعة، أو الاعتدال والمقاومة. وظهرت نتائج انهيار قواعد اللعبة السياسية في المنطقة سريعًا، متمثّلة في حرب الأيام الثمانية على غزة في تشرين الثاني/ نوفمبر 2012. لقد كان القبول الأميركي والتأييد الأوروبي لدور مصري يشمل فتح المعبر وإنهاء الحصار ولــو كان المتعلّق منه بمعبر رفــح، نتيجة واضحة لذلك التغيير تركها الربيع العربي. صحيح أن إيران حضرت إيجابيًا عبر شكرها على دعم المقاومة، وهو ما أكّده خالد مشــعل في مقابلة تلفزيونية، إلّا أنه بقي شــكرًا مرتبطًا بقيادة «حماس» السياســية من دون أن ينعكس على الرأي العام الذي ما كان له موقفه، وهو شــكر متزامن مع تأكيد وجــود اختلاف مع إيران بشأن موقفها من سورية.

أدّى الدور الإيراني المســاند للنظام السياسي في سورية بالخصوص إلى تراجع كبير في صورة إيران لدى الرأي العام العربــي. وتزامَن التغير مع إعادة إيران بقوّة إلى مربّع الدول الطائفية، وهو ما يجعلها في وضع لا يريحها. وسبق ذلك موقفها من الاعتراضات السياسية في البحرين.

كان من المتوقّــع أن يكون انهيار محــور الاعتدال نتيجــة لتفوّق محور المقاومة، أو أن يأتي الربيع العربي ليقوّي هذا المحور، وما حدث هو عكســه تمامًا؛ فصورة إيران تأثّرت ســلبيًا لدى العرب، وســورية حليفها الإقليمي في وضعية الســقوط، و«حزب الله» جرت إعادته إلى المربّــع الطائفي مع إيران. وأصبــح رائجًا أن الأولويــات في المنطقة تتغيــر وتتقدّم، مقاومة الاســتبداد الداخلي كخطوة مهمّــة لمقاومة الاحتلال. وبدا واضحًــا أن لدى الرأي العام العربي الجديد حساسية أكثر بإزاء هويته الدينية والسياسية.

إن الانهيار الذي أصاب محورَي الاعتدال والمقاومة، رافقه استمرار في صعود دول وأطراف أخرى إقليميًا اختارت أن تساند خيارات الشعوب العربية في الدول التي شــهدت ثورات. من هنا برزت تركيا وقطر كمحور جديد، لكنّه منسجم مع التأييد الدولي الذي حظيت به الدول التي طاولها التّغيير بعد الربيع العربي.

إن ظلال التغيير للربيع العربي شــملت من يوصفــون بالأطراف الدولية كما أشــرنا آنفًا؛ فعلاوة على أنّهم لم يتمكّنوا من المحافظة على الأنظمة التي طالما ساندتهم - وهو أمر يذكّر بما حدث في إيران عام 1979 عندما لم تساند الولايات المتحدة حليفها المهمّ محمد رضا شــاه ملك إيران - لم يتردّدوا في النزول عند رغبة الشــعوب في التغيير. وهذا طالما أُريدَ له أن يُنجَز عبر ترويج نسخ خاصّة للديمقراطية أُعدّت في الخارج تحسّن صورة الاستبداد التي كانت تعيش تحت وطأتها دول الثورات العربية. وجعلت هذه المســاندة إيران تتلقّى التغييــر أحيانًا كأنه جاء من الخارج، وهو ما قيل عــن ليبيا. لكن حالة من عدم التوازن كانت تبدو على التقويم الإيراني، فعندما شــرعت ملامح قوى الإسلام السياســي في الظّهور، قالت إيران إن ما يحدث ليس إلّا «صحوة إسلامية» غير بعيدة عن الثورة الإسلامية في إيران.

إن التطوّرات التي تعصف بالمنطقة، ولا ســيما ســورية التي طالما عُدَّت جزءًا من محور المقاومة، تجعل إيران في وضع لا تُحسد عليه، وبعبارة أخرى أصبح الربيع العربي تحدّيًا مباشرًا لإيران من سورية. ولا يبدو أن إيران ستتمتّع

بما كانت عليه حال تغيّر النظام السوري. يضاف إلى ذلك ما تضطلع به تركيا من دور يزيد من الضغط على إيران، خصوصًا متى علمنا أن تركيا تساند إنهاء نظام البعث في سورية. والأهمّ في هذا السياق هو أن تفكيك التحالف الذي كثيرًا ما تحدّثت عنه قوى غربية يحدث الآن بثورة الشعب السوري من دون أن يساهم المجتمع الدولي فيه.

في تأثيرات الربيع العربي في مسارات السياسة الإقليمية والدولية، يُنتظر أن يلقي ظلاله على توقّع نجاح أي تفاوض بين إيران والولايات المتحدة الأميركية؛ فإيران في ظلّ خيبة الأمل وربّما العزلة في علاقاتها بالعرب شعوبًا وحكومات، ربّما تسعى إلى خفض سقف مطالبها بتفاوض متوقّع مع واشنطن، لأن بقاء النظام السياسي قد يستدعي التقارب مع الولايات المتحدة وتبنّي خطاب أقلّ عدائية تجاه واشنطن، ولا ينفي هذا بالضرورة وجود صعوباتٍ، منها أن التفاوض بين واشنطن وطهران لا ينجح من دون حضور المؤسّسة الأمنية والعسكرية المتمثّلة في الحرس الثوري والمؤسّسة الدينية وموافقتهما.

من جانب آخر، وفي ظلّ الشكوك بين أنقرة وواشنطن والقطيعة بين إسرائيل وتركيا، فإن واشنطن قد تعيد قراءتها للعلاقة مع إيران، ولا يخلو الأمر بالضرورة من تحدّيات متمثّلة في إقناع الكونغرس والمؤسّسة العسكرية والأمنية.

خاتمة

لا يمكن وصف العلاقة بين العرب وإيران بأنها مرّت بشهر عسل كامل. ولعل سِمتها الغالبة هي التوتّر والشكوك المتبادلة. وليس الأمر مرتبطًا بالتفاوت المذهبي فحسب، بل مرتبط أيضًا بإرث حضاري ذي صلة بما فعله العرب من وضع نهاية لحكم الساسانيين؛ هذا الإرث الذي غُيّب كثير منه مع اعتناق كثير من الإيرانيين الإسلام. ولا يمكن تجاهل دور السياسة وتحوّلاتها المتسارعة

في التاريخ الحديث؛ فإيران انفصلت سياسيًا ودينيًا عن المحيط السنّي بتأسيس الدولة الصفوية ذات الهوية الشيعية الاثني عشـرية، ونتج من ذلك تعزيز فكرة الاستقلال عن الجوار العربي كما هي حال الجوار الشرقي.

من المؤكّد أن الثورة الإسـلامية تعـدّ عاملًا مؤثّرًا في مسـيرة العلاقات العربية - الإيرانية لـم يتوقّف بعْدُ. وكما كانت الثورة الإسـلامية، فإن ثورات العرب هي الأخرى تترك علاماتها الفارقة على تلـك العلاقات، وهي لا تزال تتشكّل، وتحتاج إلى بعض الوقت قبل التقويم النهائي.

الفصل الثامن

المحيط الهندي كفضاء جيوستراتيجي
مصالح الهند وباكستان في الوطن العربي
(دول الخليج العربي نموذجًا)

عبد الوهاب القصاب

مدخل

تشـغل الهند في الذاكرة التاريخيـة العربية حيزًا كبيـرًا؛ فهي لا تزال كما يشـار إليها، بلاد السّند والهند، مآل أسفار السـندباد البحري الشهير، ولا تزال الحكايات تتردّد على آذاننا ونحن طلبة في المدارس، عن الجنود الهنود الذين أتى بهم البريطانيـون في الحرب العالمية الأولى كمكـوّن مهمّ من قوّاتهم في حملاتهم على بلادنا، أكانت حملتهم على بلاد الرافدين (14 تشـرين الأول/ أكتوبـر 1914- تشـرين الثاني/ نوفمبـر 1918)، أم وجودهـم الكثيف في شوارعنا ومدننا في الحرب العالمية الثانية في طريقهم من ساح القتال الأوروبية وإليها، أو في شـمال أفريقيا، أم كجزءٍ من قوّات الاستعمار في عدن والجنوب العربي. ثمّ ما لبثوا أن شـكّلوا في حينه جالية لها وزنها في عدن، على عادتهم في الاستقرار في المناطق التي تحتاج إلى الأيدي العاملة الماهرة وغير الماهرة،

كما هي الحال في سنغافورة والملايو. لكن، على دارس العلاقات بين شبه القارّة الهندية وطرفيها الرئيسيْن الهند والباكستان أن يأخذ بالاعتبار جملة حقائق جعلت من هذه العلاقات الطابع الدائم تتقلّب مع حقب الدهر، تلبس لكلّ حالة لبوسها.

لم يكن وجود الهنود في وطننا العربي، خصوصًا مناطقه التي كانت خاضعة للنفوذ البريطاني، علامة من علامات فرض القوّة فحسب، بل كان أيضًا علامة على كونهم روّادًا في تعليم أهالي البلاد الكثير من متطلّبات الحياة المدنية الحديثة، أكان في مجال الإدارة أم النّقل أم الحرف الميكانيكية وغير ذلك. يدلّ هذا كله على أن العلائق بين العرب والهنود ليست جديدة، بل راسخة في القدم، وتعود إلى عصور سحيقة. فمنذ أيام السومريين، مخر العراقيون القدماء هذا الخليج العربي الذي دعوه البحر الأسفل، عندما كانت مياهه تغسل شواطئ أور قبل خمسة آلاف عام، في طريقهم لاستكشاف عوالمَ جديدة ينقلون إليها حضارتهم. فنجحوا في نقلها حيث نشأت حضارة موهانجيرو في حوض نهر السّند. ثمّ استمرّت العلاقة مع تطوّر التاريخ الإنساني المكتوب، حتى أضحت الجزيرة العربية وامتداداتها في العراق وبلاد الشام طريق القوافل النّاقلة منتجات بلاد الهند منها وإلى أوروبا والمشرق. وعبر الخليج العربي، انطلقت رسل المسيحية الأولى من العراق إلى ساحل المالابار، حاملة رسالة الإيمان، ومن الخليج العربي انطلقت أولى حملات الإيمان بالإسلام إلى الهند، وأسّست لها مواطئ قدم في ما يُعرف اليوم بباكستان.

العلاقة إذًا قديمة متجذّرة، وهي متفاعلة وليست جامدة، ساعدت فيها مهارة أهل الخليج الملاحية وسلوك وأمن الطريق البحرية من البصرة وبقية حواضر الخليج العربي وموانئِه القديمة كجلفار وهجر... وغيرهما، وسواحل الهند الغربية المسمّاة ساحل مالابار، حيث كوجين ميناء وحاضرة كيرالا وقت لم تكن بومباي بعظمتها الحالية. ثـمّ انتقلت العلاقات في الحاضر الراهن إلى أنماط أكثرَ تعقيدًا تدخّلت في صوغها سمات متعدّدة متقاطعة، وهو ما يَنتج من محصّلات أفعالها أنماط متضادّة ومتطابقة من العلاقات البينية ساهم في نشوئها

وصوغها تقسيم شبه القارة الهندية بعد رحيل الاستعمار البريطاني في عام 1947 إلى دولتين هما الهند وباكستان. واتّسمت علاقة هذين البلدين بالتوتّر منذ لحظة الاستقلال لبقاء مشكلة كشمير متنازعًا عليها بين البلدين، والأمر أفضى إلى سلسلة من الحروب بينهما كان من جملة تداعياتها انقسام الأقطار العربية في علاقاتها بين الطرفين بين مؤيد لباكستان ومتحفّظ، أو حيادي على الأقل، في علاقاته معها، وميل واضح إلى الهند لوجود الكثير من النظرات المشتركة حيال القضايا العالمية. وتبلور ذلك في مؤتمر باندونغ (1955) مع نشوء حركة عدم الانحياز على أيدي الزعماء التاريخيين الثلاثة عبد الناصر وتيتو ونهرو. وكان الانحياز إلى الهند سمة للدول العربية الجمهورية والمستقلّة حديثًا، التي كانت تقود أغلبَها قياداتٌ عسكرية نتيجة الانقلابات العسكرية التي عانتها بلدانها. وفي المقابل، وقفت الهند بزعامة حزب المؤتمر إلى جانب الحقّ العربي في فلسطين، وأيدت نضال الشعب العربي الفلسطيني لنيل حقوقه، واعترفت بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثّلًا وحيدًا للشعب الفلسطيني. ثمّ تعقّدت العلاقات في شبه القارة الهندية بشكل أكبر بعد حرب الهند على باكستان لفصل باكستان الشرقية عن باكستان وولادة دولة بنغلادش الجديدة. وكان لتكرار الصراعات والحروب الهندية الباكستانية، بحيث كانت حرب في كلّ عقد تقريبًا، تأثير كبير في نظرة البلدين وتصرّفهما بإزاء الجوار القريب الذي يضمّ الخليج العربي كمنطقة مصالح محورية لكلٍّ منهما.

أهمّية الدراسة

في هذه الحقبة حصلت تقاطعات جيوستراتيجية ذات تداعيات وتبعات كبيرة أخرى؛ أوّلها التدخّل السوفياتي في أفغانستان وانطلاق الثورة الإيرانية، واندلاع الحرب العراقية - الإيرانية، ثمّ احتلال الكويت وحرب الخليج الأولى (1990-1991)، ثمّ انعكاسات حوادث 11 أيلول/ سبتمبر 2001 وما تمخّض عنها من ضرب أفغانستان واحتلالها أولًا، ثمّ غزو العراق واحتلاله تاليًا. في هذه التداعيات كلها، كان للمحيط الهندي دوره الكبير كبيئة جيوستراتيجية حاكمة في هذه المنطقة من العالم، والأمر يجعل من

دراســتها وتتبّع فواعلها أمرًا لازمًا لتفهّم انعكاســات الحالة الجيوســتراتيجية المســتجدّة والمطلّة على هذا الإقليم الجيوســتراتيجي، ونقصد التغيرات التي أحدثتها الثورات العربية في هذه المنطقة جيوســتراتيجيًا. ومن هنا، ســيحاول هذا البحث دراسة البيئة الجيوســتراتيجية للمحيط الهندي من ناحية علاقة كلٍّ من الهند وباكستان باعتبارهما البلدين الكبيرين المطلّين على المحيط الهندي، واللذين عندهما كمٌّ كبير من عناصر القدرة الشــاملة والفاعلــة في هذا النظام الجيوستراتيجي ذي الأهمّية الفائقة، من خلال علاقتهما بالخليج العربي بكونه المجال الذي تظهر مصالح البلدين فيه وتتصارع وتتقاطع.

المحيط الهندي كبيئة جيوستراتيجية حاكمة

ينظر الجيوسياســيون والجيوســتراتيجيون الغربيون إلى المحيط الهندي نظرة متفحّصة وبالغة الاهتمام؛ فهو من وجهة نظرهم الثالث من حيث اتّســاع المساحة بين محيطات العالم بعد الهادئ والأطلسي، لكنه يتصف بميزة خاصّة هي أنه محكوم بنقاط بؤرية (Focal Points) وبممرّات بحرية محكومة من جوارها البرّي القريب، وبمضايق تتحكّم في ســابلة الملاحــة التي تدخل إليه وتخرج منه. وعند مناقشتنا تأثير الجوار البرّي القريب في الوضع الجيوستراتيجي لهذا المحيط، لا بدّ لنا من أن نحدّد أيًا مــن مناطق هذا المحيط هي الأخطر تأثيرًا، ليتمّ لنا التعرّف إلى تلــك الكتل البرّيــة (Territorial Land Masses) التي تتحكّم فيه[1].

لا شكّ في أن القسم الشــمالي من هذا المحيط هو الأكثر تأثيرًا في سابلة الملاحة العالمية، لا الآن فحســب، بل منذ فجر التاريخ، لأنّه الرابط الحقيقي بين الكتــل القارّية العالميــة المهمّة الثلاث: آســيا وأفريقيــا وأوروبا. لاحظ أوغســت تاوســان في دراســة له عنوانها «تحوّل موازين القــدرة في المحيط الهندي» أن هذا المحيط مــرّ تاريخيًا بمرحلتين: ما قبل فاســكو دي غاما وما

(1) عبــد الوهاب عبــد الســتار القصــاب، المحيط الهنــدي وتأثيره فــي السياســات الدولية والإقليمية، مراجعة علي المياح (بغداد: بيت الحكمة، 2000)، ص 21-23.

بعد فاسكو دي غاما[2]. قد لا نتّفق معه نحن العرب الذين ساهمنا منذ عُرِفنا ومخرنا عباب هذا المحيط، وكتب بحّارتنا وربابنتنا الكثير في العلوم البحرية والهيدرولوجية الخاصة به، ودرسوا حركة الرياح والأنواء والأعاصير التي يعيشها هذا المحيط، كلّ ذلك بهدف تسهيل الملاحة عبره. وما ربّاننا أحمد بن ماجد وكتابه الفوائد في أصول علم البحر والقواعد إلّا دليل ساطع على تسيّد العرب للملاحة عبر هذا المحيط قبل الحقبة الغربية التي افتتحها البرتغاليون في نهايات القرن الخامس عشر[3].

المحيط الهندي والنظريات الجيوستراتيجية

عند دراسته البيئات الجيوستراتيجية الكونية، لم يرصد شاول كوهين إلّا بيئتين جيوستراتيجيتين حقيقيتين على مستوى العالم، هما الكتلة البرّية الأوراسية (الكبرى)، ومسطح المحيط الهندي، بتميز كلّ منهما بالسمات الخاصة[4]. في هذا الطرح الكثير من الصدقية، خصوصًا أنه جاء في خضمّ حقبة عاشت تداخلات عدة على هذا الجزء من العالم. فالغزو السوفياتي لأفغانستان كان في واقع حاله هجمة من القوّة الأكبر على الكتلة البرّية الأوراسية، أي

---

(2) انظر: Auguste Toussaint, «Shifting Power Balance in the Indian Ocean,» in: Alvin J. Cottrell and R.M. Burrell, *The Indian Ocean: Its Political, Economic, and Military Importance*, Edited by Alvin J. Cottrell and R. M. Burrell, Praeger Special Studies in International Politics and Public Affairs (New York: Published for the Center for Strategic and International Studies by Praeger, [1972]), pp. 3-7.

(3) أحمد بن ماجد بن محمد السعدي النجدي المتوفّى حوالى عام 904 هـ/ 1498 م. ربّان وملّاح عربي اشتهر في مفتتح عصر الاستكشافات الجغرافية الغربية الكبرى التي قام بها البرتغاليون والإسبان. كان البرتغاليون مستكشفو طريق رأس الرجاء الصالح عبر جنوب القارة الأفريقية يدعونه الاميرانتي (Almirante) أو أمير البحر. له فضل كبير على فاسكو دي غاما في دلالته على أسرار مخر عباب المحيط الهندي وإرشاده إلى طريقة عبوره من الساحل الشرقي لأفريقيا إلى الهند بشكل مباشر، كما يشير بعض المصادر التاريخية، أو غير مباشر باستفادة دي غاما من كتابه هذا. ترك بعده أكثر من أربعين كتابًا وأرجوزة في علوم البحار، أشهرها هذا الذي ذكرنا. انظر: باقر أمين الورد، **معجم العلماء العرب**، راجعه كوركويس عواد، 2 ج (بيروت: عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية، 1986)، ج 1: **العلماء القدماء**، ص 59.

(4) William L. Dowdy and Russell B. Trood, «The Indian Ocean: An Emerging Geostrategic Region,» *International Journal*, vol. 38, no. 3 (Summer 1983), p .432.

روســيا، لأفغانســتان التي هي في قلب هذه الكتلة وخارجة عن ســطوة القوة الأكبر فيها، وهي الاتحاد السوفياتي في حينه. كما أنها من الناحية الجيوسياسية تمثّل رابطًا جيوسياسيًا وجيوســتراتيجيا كبيرًا ذا خطورة بجميع النظم السياسية والإقليمية الفرعية المحيطة بها؛ فمن الشمال منطقة آسيا الوسطى قلب أوراسيا، ومن الشرق الصين، ومن الجنوب إقليم جنوب آسيا الذي نعنى بدراسته في هذا البحث، ومن الغرب إقليم الشرق الأوســط الذي يمثّل الخليج العربي ونظامه الإقليمي الفرعي قلب الفعل فيه.

هــذه النظرية التي جاء بهــا كوهين (نظريــة البيئتين الجيوســتراتيجيتين العالميتين الوحيدتين) تحتمل الكثير مــن التضادّ والنّقد، من ذلك أن علينا أن نحســب حســابًا لكتل أخرى بازغة لم يعرها كوهين اهتمامًا تقتضيه أهمّيتها. فأين ســنضع المحيط الأطلســي بقطاعيه الشــمالي والجنوبي مثلًا، هو ليس أوراســيا، كما أنه ليس المحيط الهندي، وإن التقى بــه وامتزجت مياههما معًا عبر خطٍّ وهمي يبدأ مــن الكاب وحتى المحيط المتجمّــد الجنوبي على خطّ عمودي. كما أن بيئــة الهادئ بكلّ خطورتها لم نجد لهــا صدى عند كوهين، على أهمّيتها الواضحة، والتي فرضت نفســها أخيرًا كبيئة جيوستراتيجية تمثّل إقليم آســيا - الهادئ، جامعة بيئات المحيط الهندي والكتلة البرّية الأوراسية الضخمة عبر خطّ الساحل الشرقي لآســيا وامتداداته البحرية النازلة حتى بحر تاسمان جنوب أستراليا. كما تشكّل الشــواطئ الغربية للكتلة القارية الأميركية حدّها الغربــي. لكن الثابت أن الكتلتين اللتين حدّدهمــا كوهين لهما الأولوية في الفعل والتأثير في المحيط الدولي، ولا ندري هل ســتنتقل محصّلة التأثير فعلًا إلى بيئة آســيا - الهادئ بعد أن أعادت الولايــات المتحدة الأميركية في استراتيجيتها الجديدة للأمن القومي تركيزها على هذه المنطقة الجيوستراتيجية البازغة[5].

من ناحية ثانية، جاءت ردّة الفعل الغربي على الفعل الســوفياتي من جهة البحر، أي من جهة المحيط. فهنا نــرى أن الولايات المتحدة الأميركية، بتبنّيها

---

(5) Saul Cohen, «Geography and Politics in a World Divided,» in: Dowdy and Trood, p. 442.

عقيدة كارتر التي تشكّلت بموجبها قوات الانتشار السريع (RDP) للحؤول دون تسرّب الاتحاد السوفياتي إلى المياه الدافئة عبر باكستان، وتهديد سابلة المواصلات البحرية (Maritime Traffic)، وضمنها إمدادات النّفط، استخدمت المحيط الهندي منطقةَ انطلاق لها من قواعدها والتسهيلات الممنوحة لها في الخليج العربي (الجفير) في البحرين، وتطويرها قاعدة دييغوغارسيا في أواسط المحيط الهندي قاعدة متقدّمة لقواتها. ومن اللافت أن قيادة قوات التدخّل السريع تحوّلت في ما بعد إلى القيادة المركزية الأميركية (CENTCOM). هنا تقف أمامنا كتلتان متعارضتان لا متناظرتان، إحداهما بريّة والأخرى بحرية: أوراسيا (التيللوكراسيا Tellurocracy) في مقابل المحيط الهندي (ثالاسوكراسيا Thallassocracy)[6]. وسيكون هنا من المشروع التساؤل: من الذي سيقود الكتلتين في ظروف الانتقال الكوني هذا؟ وما هي القوى المرشّحة للتسيّد على عرش القدرة الدولية، قوّة واحدة كما كانت الحال بعد انهيار الاتحاد السوفياتي؟ أم قوّتان؟ أم قطبية متعدّدة في فضاء جيوستراتيجي متعدّد؟ وفي الحالة الأخيرة علينا أن نبحث عن أدوار لكلٍّ من روسيا والصين والهند، الكتلة البحرية/ البرّية الكبرى في إقليمها، وهي التي يهمّنا أمرها في هذا البحث، مع عدم إغفال تفاعلية العلاقات بينها وبين المحيط الدولي والإقليم.

الوطن العربي والمحيط الهندي

يقع المشرق العربي والجزيرة العربية على طوار الإقليمين، فهما جزء من كتلة أوراسيا البرّية الضخمة بما يمثّل نهاياتها الجنوبية الغربية، ولذلك يشير إليها الجيوسياسيون والجيوستراتيجيون الهنود باسم جنوب غرب آسيا. وهما، من ناحية أخرى، يمثّلان إطلالة تعدّ النهايات الشمالية الغربية للمحيط الهندي.

---

(6) التيللوروكراسيا (Tellurocracy) مفهوم جيوسياسي يعني الكتلة البرية وما يتعلق بها، والثلاسوكراسيا (Thallassocracy) يعني البحر وما يتعلق به. ويرى بعض الجيوبوسياسيين (Dugin) أن الحياة الإنسانية هي دومًا صراع بين قوّتين إحداهما تهيمن على التيللوكراسيا، والأخرى تهيمن على الثالاسوكراسيا. ويعدّ الكسندر دوغين أحد الجيوسياسيين الروس الذين تبنّوا النظرية النيوأوراسية، وله العديد من الكتابات في الموضوع، منها: ألكسندر دوغين، أسس الجيوبوليتيكا: جيوبوليتيكيا المستقبل لروسيا (موسكو: منشورات دار نشر آركتوغايا، [د. ت.]) (باللغة الروسية).

وتقع في هذه المنطقة أخطر متقرّباته وأهمّها على الإطلاق، قناة السويس وباب المندب ومضيق هرمز.

يهمّنا هنا التأثيرات المتبادلة التي ستتسبّب بها بيئة المحيط الهندي الجيوستراتيجية ممثّلة ببلدين مهمّين فيها: الهند وباكستان، حيال الحدّ الشمالي للبيئة نفسِها ممثّلًا في الخليج العربي والجزيرة العربية. نجد أنفسنا هنا بإزاء تفاعل نشط بين بلدين لهما سمات متشابهة وخلافات عميقة سنناقشها لاحقًا، مع ثمانية أقطار عربية مطلّة على المحيط الهندي بأسبقية أولى. والبلدان العربية المعنية هي: العراق والكويت والسعودية والبحرين وقطر والإمارات العربية المتحدة وسلطنة عُمان واليمن. فضلًا عن الأقطار العربية التي تقع في البيئة نفسها، لكن على الطوار الأفريقي كالسودان وجيبوتي والصومال وجزر القُمر. وتعمل جمهورية مصر العربية كرابط بين بيئة المحيط الهندي الجيوستراتيجية وبيئة الأطلسي الشمالي عبر قناة السويس والبحر المتوسط، وكذلك ستعمل كتلة المشرق العربي (الهلال الخصيب) والمعروفة جيوبوسياسيًا بالجسر العربي.

إذا كان هناك من يصنّف الصراع الكوني على النمط الذي كان سائدًا إبّان الحرب الباردة، معتبرًا حلف وارسو بقيادة الاتحاد السوفياتي ممثّلًا للكتلة الأوراسية، فإن حلف شمال الأطلسي (الناتو) اعتُبر ممثّلًا للقدرة البحرية. ينظر الجيوسياسيون الروس إلى البزوغ الروسي الجديد في حقبة الرئيس بوتين وكأنّه عودة إلى تزعّم الكتلة الأوراسية التي أصابها التشتّت بعد انهيار الاتحاد السوفياتي. هنا أيضًا يمكن تلمّس آثار هذه النظرية عند تطبيقها على النمط الصراعي الهندي - الباكستاني. على الرغم من أن الصراع المزمن بين البلدين كان في شكله العام صراعًا بريًا، فإنه يمكن أن ننظر إليه من زاوية تقسيم الأدوار، لنرى أن الهند بكتلتها البرّية الضخمة التي تقسم المسطّح الشمالي للمحيط الهندي إلى قسمين: البحر العربي غربًا وخليج البنغال شرقًا، اختارت البحرية لتمارس فيها دورًا بحريًا إقليميًا قائدًا في المحيط الهندي، في حين ركّزت باكستان على إعداد قواتها البرّية

بشــكل مهني راقٍ لتعوّض نقصها البارز في القدرة البحريــة أمام الهند التي اســتخدمت قوّتها البحرية ضدّ منشآت ساحلية باكســتانية بالفعل في حرب فصل بنغلادش (1971). ســنرى أن هذين الدورين سينعكسان على علاقة الهند وباكســتان بجوارهما الإقليمي وفي مقدّمه الجــوار العربي، بما يعزّز، أو يضعف، من حضور الطرفين الاســتراتيجي في الشــأن الخليجي حفاظًا على مصالحهما فيه. لا يعني الحضور المشــار إليه تدخّلًا فعليًا في الشــأن الخليجي، لكنّه بالفعل وســيلة مهمّة من وســائل إعلان الــذات، في خطوة واضحة للدّلالة على المصالح وإعلانها.

أولًا: المجالات الحيوية للعلاقات الجيوستراتيجية للهند

ترى الهند نفسها على الدوام أنها القوة الإقليمية الأعظم في إقليمها، ولها الحقّ في استجماع عناصر القدرة الشاملة التي تتوافر فيها. وتحليلها ذلك سيرينا بحقّ أننا أمام عملاق جيوستراتيجي لا يمكن إنكاره، وستظهر المعطيات عظم ما للهند من حيّز اســتراتيجي يُفعّل دورها السياسي والاستراتيجي على عموم الإقليم. ويُعدّ هذا الحيّز الاستراتيجي من أهمّ العوامل التي تُقاس بموجبه قدرة الدولة، فالمساحة والسكّان والموقع الجغرافي، والوضع الاقتصادي، والنسيج الاجتماعي، والقدرة العسكرية، ومستوى المعرفة، وتيسّر خطوط المواصلات لتسهيل القدرة على المناورة، كلّ هذه عوامل مهمّة يمكن بموجبها قياس قدرة الدولة – الأمّة في الوقت الراهن. وفي هذا المجال، ينبغي الأخذ بجملة عوامل فائقة الأهمية من الناحية الاســتراتيجية، وانعكاسات جيوستراتيجية خطِرة على العلاقات البينية بين الوطن العربي (ممثّلًا هنا في إقليم الخليج العربي الفرعي) والهند.

كانت الهند تاريخيًــا دولة مؤيدة للحقّ العربي في فلســطين، وتقف على الدوام مع قضايا الشــعوب العربيــة المكافحة للإمبريالية والاســتعمار. وظلّ هذا الموقف سائدًا حتى عشــية انتهاء الحرب الباردة، إذ شهدت نهاياتها تبلور اتجاهات تفكيرية استراتيجية جديدة في الهند، وجدت لها أصداء في عالم القوة

المتفرّدة الأعظم وهي الولايـات المتحدة الأميركيـة[7]. إذ تحوّلت العلاقات منذئذ بشـكل مطّرد، وببـطء، للتّفاعل مع التغيـر الكبير الذي شـهدته البيئة الجيوسـتراتيجية الدولية، وللتخلّص من رواسـب المرحلة السابقة. وهنا كان غزو العراق للكويت امتحانًا عسيرًا للسياسة الخارجية الهندية التي وقفت حائرة بين إرث الماضي الذي كان يقتضي منها الوقـوف إلى جانب العراق، وحقائق الحاضر التي تشير إلى عزم القوة العالمية الأولى وتصميمها على التدخّل، ليس لإخراج القوّات العراقية من الكويت واستعادة سيادتها فحسب، بل لتدمير القدرة العسكرية العراقية، وتفكيك قدراته الأخرى بفرض حصار صارم عليه أيضًا.

كانت السياسة الخارجية الهندية متناقضة فعلًا في هذا المجال، ما أغضب دول مجلس التعاون الخليجـي. كان نمط التصويت الهندي في مجلس الأمن إبّان الأزمة مزدوجًـا أيضًا، فبين الرفض والامتناع عـن التصويت، إلى التّأييد في حالات شـكّلت النقلة الهندية إلى معسـكر الولايات المتحدة وحلفائها، وهي مرحلة بدأت مع «عملية عاصفـة الصحراء» لإخراج العراق من الكويت (كانون الثاني/ يناير- آذار/ مارس1991)، كما أسـلفنا، حيـث قدّمت الهند التسهيلات للطائرات الأميركية للتزوّد بالوقود. ومع ذلك كله، استمرّت الهند في اسـتنكار الغارات والهجمات الأميركيـة والبريطانية علـى العراق وعدم تأييدها، وبالأخص الضربة الجوية الواسـعة النّطاق التـي نفّذتها الدولتان في خريف 1998[8].

كان التغيـر الجذري الكبير فـي علاقات الهند مع الغـرب، بعد حوادث 11 أيلول/ سـبتمبر 2001، إذ كان لا بدّ للهند - وفي ظل حكومة اليمين التي رئسـها فاجبايي زعيم حزب بهارتيا جاناتا (الهندوسي النّزعة) - من أن تستغل هذه الفرصة لتسوّق نفسها كداعم للاسـتقرار في المحيط الهندي، وكمحارب

(7) لمزيد من التفاصيل بشـأن تحوّل السياسـة الخارجية الهندية، انظر: C. Raja Mohan, «India and the Balance of Power,» *Foreign Affairs*, vol. 85, no.4 (July-August 2006).

(8) محمد السيد سليم، «العلاقات السياسـية بين الهند ومجلس التعاون الخليجي،» في: التقرير الاستراتيجي الخليجي 2007-2008 (الشارقة: مركز الخليج للدراسات، دار الخليج للصحافة والنشر، 2008)، ص 239.

للإرهاب، إلى محاصرة باكستان بتقديمها للرّأي العام العالمي - والغربي بشكل أكثر تحديدًا - كداعم للإرهاب، وكعنصر عدم استقرار في المحيط الهندي وشبه القارّة الهندية والشرق الأوسط الكبير. وعادت تلك الحوادث على الهند بالكثير من المزايا الاستراتيجية، لعل أهمّها سعيها إلى عزل باكستان باعتبارها حليف طالبان الموثوق به، وبذلك فهي دولة داعمة للإرهاب. ثمّ اهتبلت حوادث تفجيرات البرلمان الهندي في أيلول/ سبتمبر 2001 لتوجّه الاتّهام علنًا إلى باكستان بكونها المحرّض على هذا الهجوم. وتطوّر الموقف حينئذ ليصل إلى المواجهة الشاملة بين البلدين، لولا تدخّل الولايات المتحدة الأميركية لوقف تدهوره خشية تأثير ما يجري بين الهند والباكستان في عملياتها الجارية في أفغانستان. ويذكر أن دول مجلس التعاون الخليجي بذلت مساعيها الحميدة لتخفيف حدّة التوتّر بين البلدين[9].

أثار سعي الهند هذا وموقفها العدائي لباكستان تنافسًا حادًّا بينهما لنيل رضى الولايات المتحدة والتحالف معها في هذه المرحلة الدقيقة في المشهد الجيوستراتيجي العالمي. ففي حين سعت الهند إلى عزل باكستان واتّهامها بدعم الإرهاب، سعى الرئيس الباكستاني برويز مشرف إلى التحالف مع الولايات المتحدة لإسقاط ذرائع الهند، ووقف العقوبات الأميركية على باكستان، وحماية خيارها النووي، وهو أمر نجح فيه مشرّف كثيرًا، وفتح أبواب باكستان وحدودها وموانئها للقوات الأميركية الغازية، الأمر الذي تمخّضت عنه نتيجتان على صعيد العلاقات الهندية الباكستانية: وقف الصعود الاستراتيجي الهندي في منطقة المحيط الهندي من جهة ولو لفترة محدودة، والحفاظ على الخيار النووي الباكستاني من جهة أخرى[10].

من ضمن الحركة الهندية الواسعة النّطاق في المحيط الهندي ومقترباته، التي يشكّل إقليم الخليج العربي الفرعي واحدًا من أخطرها، ركّزت الهند على إدامة علاقات وظيفية على درجة عالية من المتانة مع دول مجلس التعاون

---

(9) سليم، «العلاقات السياسية».

(10) سليم، ص 225-226.

الخليجي، لتتمكّن من إدامة مصالحها الحيوية في المنطقة، وهي المصالح التي تتضمّن إمدادات الطاقة، وتنمية الصادرات لمعادلـة الميزان التجاري، ورعاية رفاه الجالية الهندية الكبيرة وأمنها وسلامتها في المنطقة، وما تعود به على الهند من مزايا تتضمّن التحويـلات المالية. تعدّ هذه أهمّ القضايا الحيوية التي تجمع الهند بالخليج العربي.

انعكسـت هذه العلاقة علـى نمط التوافـق والعارض في سـلوك الهند ومجلس التعاون الخليجي مـن حيث التصويت في الأمـم المتحدة؛ إذ وجد محمد السـيد سـليم أن المعدّل العام للتوافق حيال خمس عشرة قضية رئيسة عُرضت للتصويت على الأمم المتحدة في دورتهـا 62 لعامَي2007- 2008 كان 79.46 في المئة، سـبع منها توافق تام 100 في المئة، وأربع منها بنسـب بين 87.5 في المئة و91.66 في المئة، واثنتان بنسبة 68.75 في المئة، واثنتان على نسـبة توافق 50 في المئة[11]. يعدّ هذا كلّه مؤشّرًا مهمًّا إلى نجاح السياسة الخارجية الهندية في التعبير عن مصالحها المشـتركة مع الوطن العربي، ممثّلًا بالخليج العربي، على الرغم من التغير الكبير الذي طرأ على أسـس السياسـة الخارجية الهنديـة ومنطلقاتها بوصفهـا معبّرة عن النظرة الجديـدة للهند إلى دورها في المحيط الهندي، ومصالحها الحيوية فيه، وكذلك التبدّل الحاصل في استراتيجيتها العالمية باعتبارها قطبًا عالميًا مهمًّا في عالم متعدّد الأقطاب يشغل المحيط الهندي فيه موقعًا حيويًا متميزًا.

1 - الطّموح الاستراتيجي الهندي في إقليم المحيط الهندي الجيوستراتيجي

شكّلت تسـمية المحيط الهندي ما يشـبه الإيحاء النفسي لدى السياسيين والجيوسياسيين والاستراتيجيين الهنود المتولّد لدى نظرائهم الروس في نظرتهم إلى أوراسيا. فكما ينظر هؤلاء إلى روسـيا على أنها صاحبة الأولوية (Primacy) في أوراسـيا، ينظر الهنود إلى الهند باعتبارها صاحبة الأولوية الاستراتيجية في المحيط الهندي. لذلك، ليس من المسـتغرب أن يصرّح وزير خارجية حكومة

(11) سليم، ص 248.

فاجبايي الرامية إلى الهيمنة والتوسّع بأن «منطقة المصالح الحيوية الهندية في المحيط الهندي تمتدّ مسافة 11.200 كلم من سواحل أستراليا، إلى سواحل الخليج العربي، وإن الأسطول البحري الهندي سيعمل في هذه المنطقة لتأمين مصالح الهند»[12].

بناء عليه، يكون البحر العربي والخليج العربي والبحر الأحمر، وضمن ذلك باب المندب، جزءًا من منطقة المصالح الحيوية للهند، وهي منطقة ستصطدم بمصالح باكستان فيها. لكن يبدو أن الولايات المتحدة الأميركية وافقت للهند بكونها القوّة الإقليمية البحرية الأولى، وشهدنا تطوّرًا متسارعًا في العلاقات منذ زيارة الرئيس الأميركي كلينتون إلى الهند في عام 2000، ثمّ زيارة فاجبايي رئيس وزراء الهند إلى واشنطن، وتوّج الرئيس السابق جورج بوش العلاقات إلى مستوى التّحالف، بزيارته في عام 2006، وبتوقيعه معاهدة التعاون النووي معها في 18 كانون الأول/ ديسمبر 2006 والمسمّاة «اتفاقية التعاون السلمي في مجال الطّاقة النووية التي قدّمها هنري جي هايد» (Henry J. Hyde United States-India Peaceful Atomic Energy Cooperation Act)[13]. عادت هذه الاتفاقية بالنفع الكثير على الهند، إذ اعترفت بها كإحدى دول عدم الانتشار النووي من دون الحاجة إلى توقيع الاتفاقية الخاصة بعدم الانتشار النووي. ونلاحظ أن باكستان الحليفة للولايات المتحدة تاريخيًا لم تحظ بمثل هذه المزية، كما أن الرئيس بوش لم يعدها بشيء مشابه عند زيارته لها في عام 2006[14].

ينظر الجيوسياسيون الهنود إلى ثلاث دوائر تمثّل الاهتمام الرئيس للهند في استراتيجيتها العظمى[15]:

(12) صرّح جورج فيرنانديز وزير دفاع حكومة جاناتا في نيسان/ أبريل 2000 بما جاء أعلاه، ثمّ أدلى بسلسلة متوالية من التصريحات عن التمدّد الهندي في المحيط الهندي للوقوف بوجه تمدّد صيني محتمل تجاه تايلاند وبورما وباكستان. انظر: Indian Defense, Naval News, 26/1/2012.

(13) Mark L. Maiello, «The U.S.-India Nuclear Cooperation Agreement: A Controversial Move,» *Nuclear News* (March 2007), pp. 15 and 20.

(14) سليم، ص 224.

(15) Mohan, pp. 18-19.

- **الجوار القريب**: ترى الهند وجوب أن يكون لها الأولوية الاستراتيجية فيه، وأن يكون لها حق الاعتراض على فاعليات القوى الخارجية فيه.

- **الجوار الأوسع**: ترى فيه امتدادات آسيا والإقليم المتاخم للمحيط الهندي، إذ تحاول الهند موازنة ومعادلة تأثيرات الآخرين ونفوذهم فيه.

- **الساحة الكونية**: ترى الهند نفسها أن عليها أن تعمل لاحتلال موقعها كإحدى القوى الأكبر على الانتشار العالمي.

يقع الخليج العربي والجزيرة العربية ضمن نطاق الدائرة الأولى، ومن هنا ينبغي التحسّب لتعاظم الدور الهندي المستقبلي مع تيسّر وسائل التدخّل، حال تعرّضت المصالح الخليجية - الهندية للتوتّر أو الضّرر، أو حال تداعت أي أزمة هندية - باكستانية مستقبلية في المحيط الهندي، عندئذ لا تكون إمدادات الطاقة هي المهدّدة فحسب، بل الاستقرار الداخلي أيضًا.

2 - قوة الهند كدولة

للإحاطة - إحاطة كاملة - بقدرات الهند وإمكاناتها، وبالأخصّ تلك التي تؤثّر تأثيرًا جادًّا وخطِرًا في الوضع الجيوستراتيجي العام في المنطقة، لا بدّ من النظر إلى المعطيات الرئيسة التي تساهم في قياس قوّة الدولة، وتحديد قدراتها. ومن المهمّ أيضًا قياس تلك القدرات ودراستها من زاوية مهمّة هي العلاقة البينية مع باكستان من جهة، وموقف القوى الدولية الكبرى وفي مقدّمها الولايات المتحدة الأميركية ذات الوجود الدائم في منطقة المحيط الهندي. يقع المحيط الهندي ضمن مسؤولية القيادة المركزية الأميركية (USCENTCOM) ومقرّها الدائم في تامبا- فلوريدا، ومقرّها العملياتي المتقدّم في قاعدة العديد - قطر. لكن الولايات المتحدة الأميركية شكّلت مؤخّرًا قيادةً استراتيجية كونية جديدة سمّتها أفريكوم (AFRICOM) مقرّها في رامشتاد في ألمانيا، ولديها تسهيلات في جيبوتي على باب المندب، وانتقلت بهذا مسؤولية قارة أفريقيا إلى القيادة الجديدة، وبهذا سيكون لها علاقة بالشاطئ الشرقي لأفريقيا الواقع

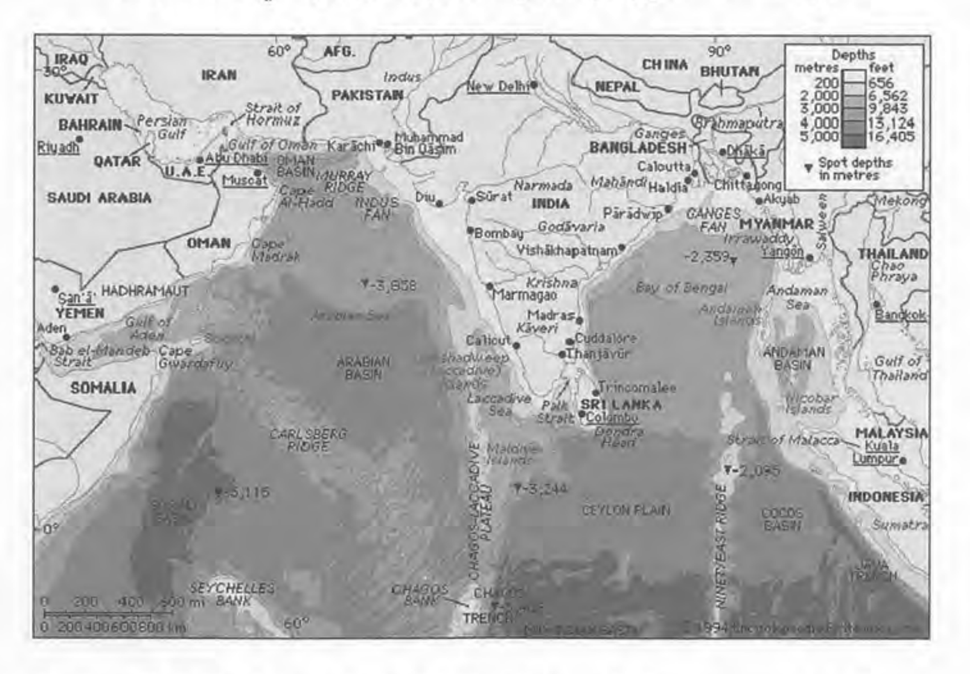
على المحيط الهندي. لا شـــكّ في أن هناك رضًى أميركيًا عــن الدور الهندي المتنامي في المحيط الهندي[16].

3 - مظهرية الدولة

عند دراسة دور الهند القيادي في الإقليم، لا بدّ من العودة إلى المعطيات الأساســية التي ترســم مظهرية الدولة، ومنها مظهرية قدرتهــا (Power Profile). وبإلقائنا نظرة على الجدول (8-1)، سيتبين لنا مظهر هذه القدرة وحجمها، وما يتوافر منها في الهند.

الخريطة (8-1)

خريطة الهند ضمن بيئتها الجيوستراتيجية الموصوفة في هذه الدراسة



المصدر: <http://www.lib.virginia.edu/area-studies/SouthAsia/maps/indiamap.html>.

---

(16) سليم، ص 225-226.

الجدول (8 – 1)
المعطيات والمؤشّرات الأساسية للهند

التسلسل	العوامل	المعطيات	التفاصيل
1	المساحة	3.287.263 كلم²	
2	السكان	1.205.073.612 مليار نسمة	
3	أطوال الحدود	14103 كلم	مع بنغلادش ٤٠٥٣ مع بوتان ٦٠٣ كلم مع بورما 1463 كلم، مع الصين ٣٣٨٠ كلم، مع النيبال ١٦٩٠ كلم، مع باكستان ٢٩١٢ كلم
4	أطوال السواحل	7000 كلم	
5	الناتج المحلي الإجمالي	1.628.620 تريلون دولار أميركي (بالأسعار الجارية)	
6	حصّة الفرد من الناتج المحلي الإجمالي	1349 دولار أميركي	
7	نسبة النموّ الاقتصادي	7.8 في المئة (2011)،10و6 في المئة 2010	تراجع النموّ 2.2 في المئة
8	نسبة الصادرات إلى الناتج المحلي الإجمالي GDP	13و5 في المئة 2010	
9	نسبة الواردات إلى الناتج المحلي الإجمالي	21.3 في المئة (2010)	

المصـــدر: البيانات الأوليــة لهــذا الجــدول اعتمــادًا علــى: *The CIA World Fact Book 2012* (Whashington, DC: Central Intelligence Agency, 2012), International Monetary Fund IMF (DOTS and WEO), and World Bank Development Indicators.

تشير هذه المعطيات والمؤشّرات والخريطة إلى الموقع الجيوسياسي الخطِر الذي تتمتّع به الهند، كما ترينا المعطيات أن هذا البلد يتميز باقتصاد متنام، على الرغم من تراجعه بنسبة -2.2 في المئة عن عام 2010، إلّا أنه لا يزال اقتصادًا واعدًا يتسلّق بنمط واضح مستفيدًا من مرونة براغماتية مطلقة بالتعامل مع أي بلد يحقّق للهند مصالحها. ومن هنا تجارتها المتنامية مع الصين التي لا تزال في حالة صراع على حدودهما المشتركة؛ حيث سجّل الميزان التجاري معها لعام 2011-2012 واردات بما قيمته 57.517.88 مليار دولار أميركي، في مقابل صادرات هندية للصين بمقدار 18.076.55 مليار دولار أميركي للعام المالي نفسه. يبيّن هذا الرقم عجزًا تجاريًا مقداره 39.441.33 مليار دولار أميركي، ما يعني أن الهند تحتاج إلى تقانة ومعرفة ومادّة مصنّعة تتيحها لها الصين، على الرغم من حالة الصراع البينية والخلاف على الحدود. ويصحّ الشيء نفسه على باكستان، العدوّة التقليدية للهند منذ استقلال البلدين في عام 1947، حيث شهد التبادل التجاري تناميًا ملحوظًا، مسجّلًا تناميًا في الصادرات نسبته106.91 في المئة بين عامَي 2005 و2007، مع تنامي الواردات بنسبة 86.04 في المئة[17].

إذا كان الاقتصاد واحدًا من مؤشّرات الأهمّية البالغة في العلاقات الدولية، فإن الاعتمادية الهندية على واردات الطاقة تؤكّد أهمّية العلاقة الاقتصادية استيرادًا وتصديرًا من منطقة الخليج العربي وإليها بأطرافها الثلاثة، العراق وإيران ومجلس التعاون الخليجي.

يرينا الجدول (2-8) العلاقة التصديرية والاستيرادية بين إيران وأقطار الخليج العربي (بملايين الدولارات الأميركية).

(17) انظر: <http://www.indiaonestop.com/tradeparteners/indias trade parteners.html>.

الجدول (8 - 2)
العلاقات التجارية بين الهند وبعض أقطار الخليج العربي للعام المالي 2011-2012 (*)

البلد	الصادرات	الواردات	الحجم الإجمالي التجاري	الميزان التجاري
الإمارات العربية المتحدة	18076.55	57517.88	75592.44	39441.33-
المملكة العربية السعودية	5683.29	31060.10	36743.40	25376.81-
الكويت	1181.41	16375.37	17556.78	15193.93-
العراق	763.97	18939.63	19703.6	18175.66-

(*) انظر: Government of India, Department of Commerce, Export Import Data Bank, GCC countries. <http://commerce.nic.in/eidb/iecnttopn.asp>.

يبدأ العام المالي في 1 نيسان/ أبريل من كلّ عام، وينتهي في 31 آذار/ مارس من العام الذي يليه.

المصدر: من إعداد الباحث استنادًا إلى: Gil Feiler, «India's Economic Relations with Israel and the Arabs,» The Begin-Sadat Center for Strategic Studies, Bar-Ilan University, Mideast Security and Policy Studies no. 96 (July 2012).

عند تحليلنا الجدول (8-2) نجد أن الميــزان التجاري يميل في مصلحة الــدول العربية في الخليج العربــي، وهو ما يبيّن اعتماديــة الهند على المنطقة لســببين: يتّضح أحدهما من المعطيات أعلاه، وهو اعتماد الهند على إمدادات الطاقة من الخليج العربي، وثانيهما سيتبين لنا من بعد، وهو تحويلات الجوالي الهندية في الخليج العربي إلى ذويهم في الهند، وهو رقم كبير.

لعل واحدًا من أهمّ عناصر القوة التي تتمتّع بها الهند هو طول ســواحلها الذي يتيح لها أن تُطل على البحر العربي الذي يمثّل الحوض الشــمالي للقسم الغربي من المحيط الهندي بكلّ ما يمثّله من أهمّية وخطورة جيوستراتيجية من جهة، وخليج البنغال الذي يمثّل القسم الشمالي من الحوض الشرقي للمحيط الهندي بكلّ ما يمثّله من إشــرافه على ســابلة الملاحة البحريــة المتّجهة من

الخليج العربي وأوروبا إلى الشـرق الأقصى من جهـة أخرى. وتضيف الجزر ذات الأهمّية الاستراتيجية التي تمتلكها الهند على مداخل مضيق مالاقا، وهي جزر أندومان ونيكوبار، مزية اسـتراتيجية كبرى من حيث إشـرافها على حركة المواصلات البحرية الداخلة مضيق مالاقا والخارجة منه. ومن هنا قسّمت الهند جهدها البحري إلى ثلاث قيادات بحرية:

- القيادة البحرية الغربية ومقرّها مدينة بومبي، وتتبعها القوات التي سيكون البحر العربي مسرحًا لعملياتها.

- القيادة البحرية الجنوبية، ومقرّها كوجين (كوجي)، وتتبعها مؤسّسـات التدريب ومؤسّسـات البناء والإصـلاح، فضلًا عمّا يوضـع بإمرتها من قوّات تكون مسؤولة عن المسرح البحري الجنوبي.

- القيادة البحرية الشرقية، ومقرّها فيشـاكاباتنام على خليج البنغال، وفي نقطة تقع في منتصف الخطّ السـاحلي لهذا الخليج بشكل يؤمّن لها الإشراف على مسرح عملياته.

نظرًا إلى حجـم البحرية الهندية التي تعدّ البحريـة الإقليمية الأقوى على الإطلاق في منطقة المحيط الهندي، وقدرتها على تأسيس موقف بحري ملائم يتيح لها التدخّل على سـواحل المحيط وبحاره وخلجانه، ينبغي أخذ ذلك في الاعتبار عند التعامل مع القضايا التي تخصّ البينية معها.

للهند مزية اسـتراتيجية أخرى هي امتلاكها الخيار النووي المتطوّر. ولئن كان هذا الخيار مخصّصًا لردع باكسـتان، فإنه جاهز أيضًا لاستخدامه لأغراض الابتزاز النووي حيال الدول التي لا يوجد عندها خيار نووي مشـابه. ومن هنا، ستكون منطقة الخليج العربي ضحية ثلاثة خيارات نووية، اثنان منهما مؤكّدان، وهما الخيار النووي الإسـرائيلي والخيار النووي الهندي، والثالث قيد التبلور، وهو الخيـار النووي الإيراني. كمـا أن على الدول العربية فـي منطقة الخليج العربي أن تأخذ علمًا بتداعيات أي تراشـق نووي محتمل بين الهند وباكستان،

وعليها كذلك أن تتهيأ لتلافي التداعيات السلبية لأي كارثة نووية غير متوقّعة على نمط تلك التي حصلت في تشيرنوبل في أوكرانيا في الحقبة السوفياتية. ونحن لم نورد أرقامًا تفصيلية للخيار النووي الهندي، ولا لأعداد القوّات لكون ذلك يقع خارج إطار بحثنا، وإن اعتمدنا على مصادر مختلفة للتوصّل إلى الخلاصات المبينة آنفًا.

4 - العلاقة بإسرائيل

تنظر إسرائيل إلى علاقتها بالهند وكأنها مرّت بثلاث مراحل، أُولاها هي المرحلة السابقة على مؤتمر مدريد للسّلام، وفيها كانت تتّسم بالجفاء ولم تكن هناك علاقات دبلوماسية رسمية، كما كانت العلاقات الاقتصادية في أدنى مستوياتها. كان ذلك بسبب تأييد الهند للحقّ العربي في فلسطين، وعدم اعتراف العرب بإسرائيل، والعلاقة الحميمة التي كانت تربط الهند بالحركة القومية العربية ممثّلة بقيادة الرئيس الراحل عبد الناصر. ومن هنا عدّت إسرائيل يوم 29 كانون الثاني/ يناير 1992 يومًا مهمًّا في مسيرة العلاقات البينية مع الهند، إذ هو اليوم الذي أسّس فيه البلدان علاقات دبلوماسية طبيعية كاملة بينهما. ولا ريب أن لمؤتمر مدريد للسلام وانتهاء حالة الحرب بين العرب وإسرائيل دورًا مهمًّا في مبادرة الكثير من الدول التي لم تكن لها علاقات مع إسرائيل إلى إنشاء مثلها، ومنها الصين الشعبية والهند[18].

مثّل التقدّم العلمي والتقني الإسرائيلي منذ وقت طويل حافزًا للهند من أجل تطوير علاقاتها بإسرائيل. ونشأت بالفعل علاقات وظيفية بين المستويات العليا في الحقل النووي للبلدين، تبلورت في تبادل الزيارات بينهما. وكانت تحظى على الدوام بدعم الولايات المتحدة الأميركية. ووجدت الهند التفاهم مع إسرائيل بعد أن أُسست العلاقات بينهما وترسّخت، فرصةً لأجل بناء

(18) Gil Feiler, «India's Economic Relations with Israel and the Arabs,» The Begin-Sadat Center for Strategic Studies, Bar-Ilan University, Mideast Security and Policy Studies no. 96 (July 2012), pp. 4-5.

تفاهمها مع الولايات المتحدة الأميركية حتى بلوغ أهدافها في المحيط الهندي وفي صراعها مع باكستان، ومصالحها على الصعيد العالمي، أكان من الناحية السياسية والاستراتيجية أم من الناحية الاقتصادية والتجارية[19].

تمخّض عن تفكّك المواقف العربية نتيجة حروب الخليج وغزو العراق ومؤتمر مدريد للسلام، تراجع تأييد الهند للقضايا العربية. وبلغ الأمر بوزير داخلية الهند أدفاني (من حكومة جاناتا)، في زيارة قام بها إلى إسرائيل في حزيران/ يونيو 2000 أن دعا إلى تعاون هندي - إسرائيلي لمواجهة ما دعاه «الإرهاب الإسلامي»، ما دفع جامعة الدول العربية إلى طلب إيضاحات من السفير الهندي في القاهرة[20]. وفاجأنا موقف الهند الذي دان كلًّا من الفلسطينيين والإسرائيليين على حدٍّ سواء إبّان الانتفاضة الفلسطينية الثانية (أيلول/ سبتمبر 2000) وساوى بين الجاني والضحية، ومثّل تنصّلًا للهند من جميع مواقفها السابقة المؤيدة للموقف الفلسطيني والعربي. ونلاحظ أن هذه المواقف كلها قد اتُّخذت في أثناء حكومة جاناتا اليمينية بزعامة فاجبايي.

لا يمكن مقارنة علاقات الهند التجارية بإسرائيل بعلاقاتها بالأقطار العربية، إذ لا تمثّل إلّا 5 في المئة، فهي تتميز بحساسيتها ونوعيتها، ذلك أنها تعتمد على تصدير التقانة النووية والعسكرية. كما من المفيد الإشارة إلى أن حجم التجارة بين الطرفين قد تطوّر ليصل إلى 3.5 مليار دولار في عام 2010، ويخطّط الجانبان للوصول به إلى 12 مليار دولار في إطار الاتفاقية التجارية الموقّعة. يرينا الجدول (8-3) الشّكل العام لنسبة التجارة الهندية مع الشرق الأوسط وإسرائيل بحسب المصادر الإسرائيلية[21].

---

(19) سليم، ص 241.

(20) سليم، ص 242.

(21) Feiler, pp. 20-23.

الجدول (8-3)

العلاقة التجارية بين الهند والدول العربية الخليجية وإسرائيل للعام المالي 2010 - 2011

الدولة	الصادرات/ مليار دولار	الواردات/ مليار دولار	الميزان التجاري	النسبة المئوية من التجارة الهندية
الإمارات العربية	34.349.10	32.753.16	67.102.26	10.81
السعودية	5.227.19	20.385.28	25.612.46	4.13
إيران	2.72.46	10.928.21	13670.67	2.20
الكويت	1.95.48	10.313.64	12.273.13	1.98
العراق	738.48	9.008.30	9.746.95	1.57
قطر	381.77	6.819.87	7.201.64	1.16
إسرائيل	3.029.75	2.253.51	5.283.25	0.85
عمان	1.151.70	4.002.07	5.153.77	0.83
البحرين	912.18	641.25	1.553.43	0.25

المصدر: Feiler, p. 21.

5 - موقف الهند من الثورات العربية

فاجأ رئيس وزراء الهند منموهان سينغ، في كلمته أمام قمّة عدم الانحياز، المراقبين والمعنيين بالشأن العربي والثورات العربية بقوله الذي أوردته جريدة الأهـرام في بوّابتهـا الإلكترونية يـوم 30 آب/ أغسـطس 2012: «إن التغيير السياسـي والديمقراطي الذي تشـهده منطقة الشرق الأوسط وشـمال أفريقيا (الربيع العربي) لا يمكن أن تمليه العوامل الداخلية، مشـيرًا إلى أن الصراع في سـورية مرتبط بعوامل خارجية»[22]. وكان هذا هو موقـف الهند من الثورات في التصويت داخل مجلس الأمن، كما كان التحفّـظ واضحًا في مواقف دول البريكس (البرازيل وروسـيا والهنـد والصين وجنوب أفريقيـا)، وهو تحالف

(22) انظر: الأهرام، 30/ 8/ 2012، بوابة الأهرام، نقلًا عن مراسلها في طهران هشام الميانى.

مناهض للهيمنة الغربية، واثنان من أعضائـه دائمان في مجلس الأمن. وتطمح البرازيل والهند إلى نيل العضوية الدائمة في تعديل جديد لنظام مجلس الأمن، ولا تخفى القوة المعنوية لجنوب أفريقيا. يندرج تحفّظ هذا التحالف في جملة أسباب، منها علاقات مصلحية بينية، وخشية الاستغلال الغربي لنتائج الثورات، والخشية من صعود تيارات الأصولية والتشدّد الإسلامي[23].

لكـن موقف الشـعب الهندي كان مع الثـورات العربية بشـكل واضح، ويرى فيها حقًّا للشـعوب أن تسعى إلى الديمقراطية وتسـتبدل حكّامها الطغاة والفاسدين؛ ففي استطلاع للرأي أجرته شبكتا ABN و CNN مع جريدة هندستان تايمز، تبيّن أن 69.3 في المئة من الهنود يعتقـدون أن حركة الثورات مناهضة للطغاة، وأن انتشـارها في الوطن العربي سـيؤدّي إلى المزيد من الديمقراطية، في حين رأى 17 في المئة أنهم غير متفائلين لتوقّعهم انتشـار الفوضى وتسلّق الأصولية الإسلامية إلى الواجهة[24].

ثانيًا: باكستان

تعدّ باكسـتان البلد الثاني المؤثّر ضمن أقطار شـبه القـارة الهندية الذي اخترنا دراسـته بإمعان من ناحية التأثيرات الجيوسـتراتيجية في الخليج العربي وأقطاره العربية، أكان ذلك فـي علاقته البينية بهذه الدول، أم في انعكاسـات الصراع الهندي - الباكستاني في المحيط الهندي على المشهد الجيوستراتيجي في المنطقة. لا شكّ في أن العلاقات بين باكستان والوطن العربي تمتلك أبعادًا مادّية ومعنوية، ويأتـي الرابط الثقافي والقيمي الذي يمثله الإسـلام في مقدّمة الروابط. كما كانت باكسـتان على الـدوام من الدول التـي وقفت إلى جانب الحقّ العربي في فلسطين، وناصرت قضية كفاح الشعب الفلسطيني لنيل حرّيته وحقوقه. كما ارتبطت باكستان بدول مجلس التعاون الخليجي بعلاقات تعاون في المجالات الأكاديمية والوظيفية والدفاعية، إذ يعمل مدرّبون باكستانيون في

---

(23) انظـر: <http://www.iwffo.org/index.php?view=article&catid=6%3A2009-05—11-20-56-01&id>, 11/13/2012

(24) <http://www.alhindelyom.com/comment/2026-2012-10-27-09-41-59.html>.

عدد من جيوش دول مجلس التعاون الخليجي. أمّـا العلاقة الماديّة فهي تلك المتعلّقة بالعلاقـات التجارية البينية، أكان على صعيد التبادل التجاري للسّـلع والخدمات، أم في مجال إمدادات الطاقة كما سيُذكر.

تصاقب باكسـتان من ناحية الموقع الجغرافي الطرف الجنوبي الشـرقي للجزيـرة العربيـة، ولا تبعد إلّا 320 كلم هي اتّسـاع خليج عُمـان في نهايته الجنوبية الشـرقية، وتمثّل الخطّ الذي يصل بين سـاحل سجسـتان - ماكران الباكسـتاني، ورأس الحدّ الذي يمثّل النهاية الجنوبية الشـرقية للجزيرة العربية على الشـاطئ العُماني المقابل. وبهذا، فإن باكسـتان أقرب إلى الوطن العربي جغرافيًا من الهند[25].

الجدول (8-4)

معطيات باكستان ومؤشراتها الأساسية

العوامل	المعطيات	التفاصيل
المساحة	796095 كلم^2	منها ٧٧٠٨٧٥ كلم^2 الكتلة البرّية و٢٥٠٠٠ كلم^2 البحر الإقليمي.
السكّان	178.945.000 مليون نسمة	منهم 44.86 في المئة بنجاب، 15.42 في المئة بشتون، 14.1 في المئة سند، 8.38 في المئة ساراتاكي، 7.57 في المئة مهاجرون (من بقية أنحاء الهند عند التقسيم)، 5 في المئة آخرون، 95 في المئة من سكّان باكستان مسلمون و٥ في المئة مسيحيون وهندوس.
أطوال الحدود	6774 كلم	مع أفغانستان ٢٤٣٠ كلم، مع الصين ٥٢٣ كلم، مع الهند ٢٩١٢ كلم، مع إيران ٩٠٩ كلم.
أطوال السواحل	1047 كلم	
الناتج المحلي الإجمالي	220 مليار دولار بالأسعار الجارية	

يتبع

(25) Facts and Matters, Gulf of Oman, <http://www.britannica.com/>.

تابع

حصّة الفرد من GDP	2800 دولار بمكافئ القوّة الشرائية (PPP)	
نسبة الفقر	22.2 في المئة تحت خطّ الفقر	
نسبة النموّ	2.4 في المئة	
نسبة الصادرات إلى GDP	12.1 في المئة	
نسبة الواردات إلى GDP	24.6 في المئة	

المصدر: البيانــات الأولية لهذا الجدول اعتمــادًا علــى: *The CIA World Fact Book 2012*, IMF (DOTS &WEO), and World Bank Development Indicators.

الخريطة (8-2)

خريطة باكستان مبيّنة حدودها السياسية



1 - المجالات الحيوية للعلاقات الجيوستراتيجية مع باكستان

إذا كانـت الهند تمثّـل الكيان البحـري الأكبر في منطقة شـمال غرب المحيط الهندي، والدولة ذات القدرات الاسـتراتيجية الفائقة، فإن باكسـتان تعدّ البلـد الأكبر الثاني الذي يطلّ على المحيط الهندي في حوضه الشـمالي الغربي. وباكسـتان في واقع الحال جزء أصيل من شبه القارة الهندية، وظلّت كذلـك حتى حصول البلدين على الاسـتقلال في عام 1947. ولم تتأسّـس ككيان مسـتقل إلّا بعد فشـل المسـلمين والهندوس في التوصّل إلى إجماع وطني يحفظ مطالب الطرفين اللذين خاضا معركة الاستقلال معًا، وحقوقَهما. لكن البلدين تورّطا في نزاع مرير منذ لحظة الاسـتقلال الأولى، فخاضا أربع حروب متتاليـة كانت أُولاها في عـام 1947 نتيجة الاختـلاف على عائدية كشمير ذات الأغلبية المسـلمة؛ إذ استعان المهراجا الهندوسـي بالهند لمنع ارتباط كشمير بباكستان كما اقتضى قرار تقسـيم الهند، فاشترطت عليه الهند إعلان انضمامه إليها لتقوم بالدفاع عن كشـمير، وتمخّـض عن هذه الحرب تقسيم كشـمير إلى قطاع باكستاني يسـمّى حاليًا «آزاد كشـمير»، أي كشمير الحرّة، وكشمير المتبقّية تحت إدارة الهند، ويفصل خطّ وقف إطلاق النار بين القطاعين. وشُـنّت الحرب الثانية في عام 1965 للأسباب نفسها. أمّا الحرب الثالثة، فشـنّتها الهند لأسـباب جيوسـتراتيجية أخرى، إذ ناصـرت جماهير الباكستان الشرقية (ولاية البنغال الشـرقية السابقة) في احتجاجاتها ضد هيمنة باكسـتان الغربية على الدولة باكسـتانية، واهتبلت الهند الفرصة للتخلّص من التماسّ مع باكسـتان على خليج البنغال والامتدادات البرّية لباكستان الشرقية حتى مرتفعات آسـام. هذه هي الحرب الوحيدة التي أحرزت فيها الهند نصرًا مؤزّرًا على باكسـتان، وخرجت منهـا منتصرة ومسـيطرة على حوض خليج البنغال، ولا يوجد من يستطيع تهديدها من الدول المشاطئة.

ظـل الوضع بعد ذلـك متوتّرًا في كشـمير وعلى طول حـدود التماسّ الدولية بين البلدين حتى توصّل الطرفان إلـى الحيازة النووية الكاملة في عام

1998[26]، ما دفع البلدين إلى البحث عن اســـتراتيجيا جديدة للصراع بينهما، وتبنّت الهند اســـتراتيجية تحاشـــي الضربة النووية الأولى كما يبـــدو (No First Use) مع الاحتفاظ بحق الرد. ويبدو أن باكســـتان اتّبعت النّهج نفســـه، ومن هنا كان الصراع الذي اندلع في عام 1999 في منطقة كارغيل الحدودية في كشمير تحت هذا المبدأ، ولـــو أن هناك معطيات تفيد بأن باكســـتان على الأقلّ رفعت درجة استعدادها النووي من دون علم رئيس الوزراء آنذاك نواز شريف[27].

من الملاحظ أن الدول الغربية تدخّلت، وبسرعة، لحلّ النزاع الأخير على كارغيل، إذ عقدت قمّة بلير هاوس لمعالجة الموقف هناك والتوصّل إلى وقف لإطلاق النار وتخفيف حدّة النّزاع، ما يشـــير إلى الخشـــية من تطوّر النزاع إلى اشـــتباك نووي (Nuclear Exchange) يؤثّر بدوره في الأمن والسّـــلم الدوليين[28]. وعند النظر إلى الموضوع من الناحية الجيوستراتيجية، ودراسة التداعيات الآنية والمستقبلية لأي صراع هندي - باكســـتاني يتمّ تحت المظلّة النووية للبلدين، أو بالتهديد بها، أو باســـتخدامها فعلًا، على الرغم مـــن محدودية هذا الخيار، فإن منطقة الخليج العربي ســـتكون مرشّـــحة لدفع أفدح الأثمان وتحمّل أفدح الخسائر نتيجة هذا الوضع.

تنظر باكســـتان دائمًا إلى علاقتها بالبيئة الإقليمية من زاوية علاقتها بالهند التي تمثّل لها عاملًا حيويًا حاســـمًا، بعد أن تعقّدت منذ الاستقلال. وإذا كانت قضية عائدية كشمير هي الأســـاس الذي تستند إليه باكســـتان في القرار ونمط علاقاتها الخارجية، ومن ثمّ الاســـتراتيجيات المعدّة لعلاقاتها الدولية، فإن هذا

---

(26) كانت الهند قد فجّرت ما ســـمّته بالمُعدّة النووية (Nuclear Device) التي لم تكن قنبلة نووية بالمعنى الدقيق، بل هو جهاز نووي قابل للتفجير الانشـــطاري، ثمّ توصّلت إلى صنع القنبلة النووية من دون إعلانها، حتى قامت حكومة حزب جاناتا الهندوســـي الحاكمة بتفجيـــر أول قنبلة نووية هندية علنًا في عام 1998، وبعد أيام قامت باكســـتان بإعلان حيازتها النووية بتفجير قنبلتها النووية الأولى، ما نقل الصراع بين البلدين إلى صراع تحت المظلّة النووية لكلّ منهما.

(27) Sharon Squassoni, «Indian and Pakistani Nuclear Weapons Status» (Report, Foreign Affairs, Defense, and Trade Division, CRS report number: RS21237, United States Congressional Research Service, 17 February 2005).

(28) Bruce Riedel, «American Diplomacy and the 1999 Kargil Summit at Blair House» (Center for Advanced Study of India, University of Pennsylvania, Philadelphia, 2002).

الطيف المحدود ولّد مع مرور الأعوام التي امتــدت نصف قرن ويزيد، قضايا أخرى، منها ما هو اســتراتيجي يتعلّق بالأمن القومي الباكســتاني، ومنها ما هو يومي يتعلّق بقضايــا الحياة والأمــن الوطني. ومن هنا انهمكت باكســتان في برنامج نــووي دؤوب، في وقت قرّرت الهند إطــلاق برنامجها النووي تقريبًا. وشــرعت في برنامج دؤوب هو الآخر لبناء قوّات مســلّحة ذات قدرة دفاعية رادعة، وقوّات برّية وبحرية وجوية قادرة على الــردع والمجابهة في أي ظرف تتعرّض معه باكســتان للتهديد. وإذا كانت عناصر القدرة الشــاملة لباكســتان تعاني وهنًا اســتراتيجيًا حيال الهند الأقوى والأكثر قــدرة، فإنها تمكّنت بحق، وبمســاعدة رادعها النووي ومرونة قواتها وقابلية حركتها، من تشكيل تحدٍّ ذي مغزى له قــدرة ردعية معترف بها. وكي لا نخوض تفصيلًا في حســابات تقنية مهنية عسكرية، سنقدّم في ما يلي تحليلًا اســتراتيجيًا لعناصر القدرة العسكرية الباكستانية وقدرتها على الرّدع، واضعين التفوّق الهندي دائمًا نصب العين.

تعاني باكستان في الجزء الجنوبي والجنوبي الغربي من حدودها وهنًا تجاه أي اندفاعة عسكرية هندية، وتقع مدنها المهمّة في البنجاب، لاهور وراولبندي والعاصمة إسلام آباد، على مرمى حجر من خطّ المراقبة الذي يمثّل خطّ وقف إطلاق النار في كشــمير. كما أن حقائق محدودية اتّســاع باكســتان ومساحتها مقارنة بالهند، والتفوّق الهندي الســاحق في كلّ من المســاحة وعدد السكّان (بالنســبة إلى المســاحة 1:4 تقريبًا، وبالنسبة إلى الســكّان 1:6 تقريبًا)، تشير إلى ما يمكن تســميته اللاتوازن بين الطّرفين ولمصلحــة الهند، لكن محدودية المساحة وصغرها النسبي يعطيان باكستان مزية المرونة وقابلية الحركة في نقل القوات والتعزيــزات. كما أثبتت في المواجهات الســابقة، ما عدا حرب فصل بنغلادش في عام 1971، أنّها خصم عنيد ليس من السّهل الانتصار عليه.

أ - في المجال الاستراتيجي

يعدّ الرادع النووي الباكستاني وسيلة باكســتان الأولى لردع جارتها الهند عن أي تجاوزات. كما أن وســائل الإيصال التي تعدّ حيوية لإيصال الســلاح النووي إلــى أهدافه، لا تقلّ كفــاءة عن مثيلاتهــا الهنديــة، أكان على صعيد

الصواريخ البالسـتية أم علـى صعيد القـوة الجوية. وتحفّظت باكسـتان عن قبول مشـروع خيار «عدم الضربة الأولى» (No First Use) الـذي تبنّته الهند في اسـتراتيجيتها النووية المعلنة في عام 2002، لأنها ترى أن ذلك سيفقدها قدرة الردع النووية التي بموجبها تجاوزت باكسـتان نقاط الوهن الماثلة في مظهرها الاستراتيجي والجيوسياسي. ففي هذا المجال، صرّح سفير باكستان لدى الأمم المتحدة منير مكرم في أيار/ مايو 2002 بأن باكسـتان لم تقل إنّها ستسـتخدم الأسـلحة النووية، ولم تقل إنها لن تسـتخدمها، بل هي تمتلكها كما تمتلكها الهند. كما صرّح الرئيس الباكسـتاني برويز مشرف في حزيران/ يونيو من العام نفسه بأن حيازة أي دولة للأسـلحة النووية تعني إمكان استخدامها في أوضاع معيّنة[29]. قد يكون هذا الموقف الذي يتيح إمكان الاستخدام النووي هو الذي حدا الولايات المتحدة على عدم شـمول باكستان بما التزمته أمام الهند باتفاقية هنري جي هايد 2006 التي سـبقت الإشـارة إليها، وقد يكون هناك أسـباب أخرى منها عدم رضا إسرائيل عن حيازة دولة إسلامية قوة نووية.

بسبب محدودية الإطلالة البحرية الباكستانية، مقارنةً بمثيلتها الهندية، فإن للهند قابلية ممتازة على الانتشـار بطريقة تهدّد حركة المواصلات البحرية من باكستان وإليها بشـكل أكثرَ كفاءة من البحرية الباكستانية التي تستطيع مع ذلك تهديد الإمدادات النفطية للهند عند مرور ناقلاتها بموازاة سـواحلها. وسـجّل التاريخ العسـكري بين البلدين ضربة صاروخية هندية من البحر لمنشآت نفطية باكستانية في ميناء كراجي في عام 1971.

ب- في المجال العملياتي الميداني

تفيد الخبرة المسـتقاة من الصراعات العسكرية السـابقة بين الطّرفين بأن الكفاءة القتالية للطرفين من ناحيـة المهنية والتدريب متقاربة، كما أن المعدّات متناظرة إلى حدٍّ ما، لكن الملاحظ أن الهند أكثر من باكسـتان قدرة على مدى الصراع. وكان الاشتباك في كارغيل دليلًا ملموسًا على عدم قدرة باكستان على

---

(29) Squassoni, p. 4.

إدامة صراع طويل المدى، لذلك ناشد رئيس الوزراء الباكستاني نواز شريف تدخّل الرئيس الأميركي كلينتون لفرض وقف إطلاق النار. واشترط الرئيس كلينتون انسحاب القوات الباكستانية المتغلغلة وراء خطّ المراقبة إلى داخل المنطقة الهندية، قبل أن يبدأ بوساطته، وهو ما تحقّق أخيرًا.

تتمثّل العلاقات البينية بين باكستان وأقطار مجلس التعاون الخليجي في مجالات عدة، منها ما هو وظيفي، ومنها ما هو ثقافي. وكما هي في حالة الهند، فإن مظهرين من مظاهر هذه العلاقة يتمثّلان في الاعتمادية الباكستانية على الإمدادات النفطية من دول الخليج العربي إلى باكستان من جهة، والثقل الكمّي للجوالي الباكستانية ضمن العمالة الأجنبية المقيمة إقامة طويلة، أو موقّتة في دوله، وبالأخصّ في دول مجلس التعاون الخليجي. وسيتمّ بيان نسبة هذه العمالة عندما تناقَش جزئية الهجرة واليد العاملة في الخليج العربي.

الجدول (8-5)

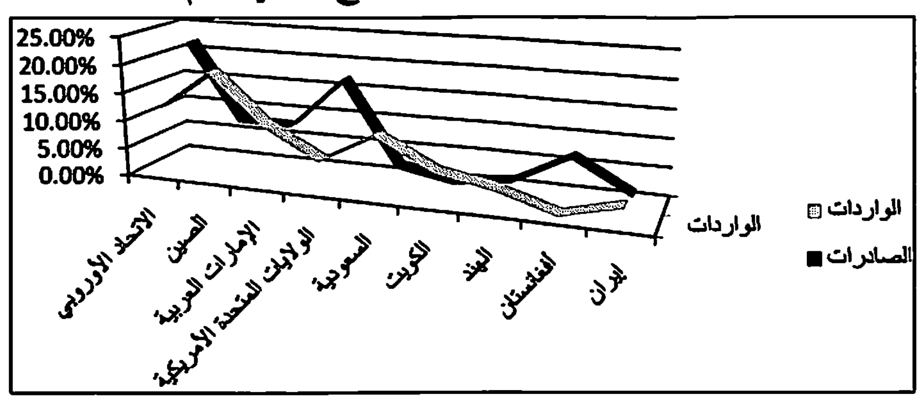
العلاقة التفاعلية بين باكستان وتسع دول هي الأعلى في نسبة التجارة البينية معها (في المئة)

التسلسل	البلد	نسبة الواردات	نسبة الصادرات	النسبة الشاملة
1	الاتحاد الأوروبي	12.1	22.6	15.8
2	الصين	19.1	7.9	15.4
3	الإمارات العربية المتحدة	10.4	7.9	9.6
4	الولايات المتحدة	5.2	17.1	9.2
5	السعودية	10.5	2.3	7.8
6	الكويت	5.4	0.4	3.8
7	الهند	3.3	1.6	3.0
8	أفغانستان	0.3	7.0	2.4
9	إيران	2.9	1.4	2.4

المصدر: انظر: The CIA World Fact Book 2012, Pakistan.

الشكل (8-1)

مخطّط للعلاقة التفاعلية التجارية بين أعلى تسع دول في العالم وباكستان



المصدر: من إعداد الباحث اعتمادًا على الجدول (8-5).

من تحليلنا الجدول (8-5) يتبين لنا بوضوح أن هناك 26.3 في المئة من واردات باكستان من دول مجلس التعاون الخليجي. فإذا كانت وارداتها من كلٍّ من السعودية والكويت نفطية، فإن وارداتها من الإمارات العربية المتحدة يشترك فيها النفط والمواد المصنّعة التي تعدّ الإمارات العربية المتحدة، وبالأخصّ دبي، منطقة إعادة تصدير. وتشارك إيران دول مجلس التعاون الخليجي في إضافة 2.9 في المئة إلى النسبة المذكورة التي يمثل النفط أيضًا مادّتها الأساسية.

2- الهجرة واليد العاملة الهندية والباكستانية في دول مجلس التعاون الخليجي

لم يكن الوجود البشري الهندي غريبًا عن منطقة الخليج العربي، بحكم الجوار الجغرافي والعلاقة التجارية البحرية، فضلًا عن إشراف حكومة الهند البريطانية على الشأن الخليجي إبّان الحكم الإمبراطوري البريطاني للهند. ولا غرو، فقد كانت الروبية الهندية هي عملة التداول قبل إطلاق العملات الوطنية لدول مجلس التعاون التي اتّخذت من قيمتها التبادلية آنئذ معيارًا لعملاتها. فالرّيال والدرهم في الإمارات وقطر يعادلان روبية واحدة في ما كان متداولًا حينئذ، وكلّ عشر روبيات تعادل دينارًا بحرينيًا وريالًا عمانيًا واحدًا. إلّا أن

حجم الجوالي الهندية آنئذ لم يكن ليشكّل ظاهرة سكانية ذات مغزى، فهي لم تكن تزيد على بعض العمالة الفنّية التي اشتغلت في مجالات الدعم الفنّي والصحّي وسوق المال والمهن الأخرى التي يحتاج إليها الفرد الخليجي في حياته اليومية، آخذين في الاعتبار أن المجتمعات الخليجية ما كانت دخلت بعدُ عصر الانطلاقة التحديثية التي سبّبها اكتشاف النفط منذ عقد الأربعينيات من القرن المنصرم والتي شهدت منذئذ تزايد العمالة الهندية الوافدة إلى دول الخليج بدءًا من أكثرها تطوّرًا حينئذ (الكويت والبحرين)، ثمّ إلى البلدان الأخرى[30]. لكن الوضع اختلف بعد انطلاق حركة البناء والتحديث في دول مجلس التعاون الخليجي وبروز الحاجة إلى اليد العاملة الماهرة وغير الماهرة، وهو ما شجّع طالبي فرص العمل الهنود على الاستفادة من هذه الفرصة لتحسين أحوالهم المعيشية وأحوال عوائلهم[31]. لكن الاعتماد الزائد على العمالة الوافدة في دول الخليج العربية (ما عدا المملكة العربية السعودية) أسفر عن زيادة مفرطة في عدد الوافدين الذين يمثّل الهنود نسبة عالية منهم، إلى جانب الباكستانيين، ويمثّل الوافدون العرب أقلّية حيال أرقام العمالة الآسيوية الوافدة. يبيّن الجدول (8-6) نسبة العمالة الوافدة من عدد السكّان لكلٍّ من دول مجلس التعاون الخليجي. ويتبيّن من المعطيات الواردة فيه وتحليلها الوهن الكبير في الوضع الديموغرافي والسكّاني بالنسبة إلى دول مجلس التعاون الخليجي ما عدا المملكة العربية السعودية. وترينا هذه المعطيات عِظم التأثير المتوقّع لهذه الجوالي في الوضع العام للمجتمعات الخليجية، وهو أمر درسه العديد، وهو بالتأكيد محطّ عناية المسؤولين.

يمكننا تقسيم العمالة الوافدة من شبه القارّة الهندية (الهند وباكستان وبنغلادش) بشكل رئيس إلى ثلاثة أنماط:

---

(30) اكتُشف النفط في البحرين أوّلًا في عام 1933، ولذلك فهي الأسرع تطوّرًا، ثمّ في الكويت في عام 1946، ثمّ في قطر في عام 1949، ثمّ في الإمارات العربية المتحدة في عام 1962 وأخيرًا في عُمان في عام 1967.

(31) Sulayman Khalaf and Saad Alkobaisi, Migrant's Strategies of Coping and Patterns of Accommodation in the Oil-Rich Gulf Societies: Evidence from the UAE,» *British Journal of Middle Eastern Studies*, vol. 26, no.2 (November 1999), p. 272.

- عمالة معرفية.

- عمالة ماهرة.

- عمالة غير ماهرة.

يقع تحت بنـد العمالـة المعرفية جميـع أولئك الذين يمتلكـون معرفة أكاديمية أو مهنيـة علمية على درجة عاليـة من الإعداد، ومنهـم اختصاصيو المعلوماتية والحاسـوب وقواعد المعلومات والأطبّاء والمهندسـون وأساتذة الجامعات ومدرّسو المدارس وموظّفو الحسابات والبنوك والبورصة، وغيرهم من الخبراء. وللهنـد حصّة كبيرة من هـذه العمالة، وبالأخـصّ في مجالات المال والصّيرفة والطبّ والهندسة والأكاديميين.أمّا من يقع تحت البند العمالة الماهرة فأولئك الحرفيـون الماهرون ومصلّحو الأجهـزة والمعدّات ومعلّمو البناء والمدرّبـون، وللهنود حصّة ذات مغزى من هـذه الأصناف. أمّا من يقع تحت البنـد الأخير (العمالـة غير الماهرة) فهـم عمّال البناء وخـدم المنازل والعتّالون وعمّال النظافة وغيرهم. ينتشـر الهنود والباكستانيون في عموم دول مجلس التعاون الخليجي، ويمثّلون الأغلبية في عـدد الوافدين الأجانب فيها، ويمارسون الأعمال المختلفة التي تتطلّبها السوق الخليجية، بمختلف أقطارها، ومختلف أنماط وأنواع النشـاط العمراني والصناعي والتجاري والخدمي التي تفرزها هذه السوق استجابةً لخطط التنمية الطّموح التي أطلقتها دول المجلس لتحديث بناها ورفع مستوى نوعية الحياة فيها. وعلى الرغم من أننا لا نناقش في هذه الدراسـة مخاطر زيادة أعداد الوافدين من خارج الوطن العربي وسلبياتها، ومن الثقافة القوميـة والمنظومة القيمية لدول مجلس التعـاون الخليجي، فإنّنا نجد من الضروري الإشـارة إلى هذه الحقيقة في هذا المجال. وينبغي الإشارة أيضًا إلى التداعيـات الأمنية التي قد تتمخّض عن حالـة يمكن أن تحصل في المسـتقبل من صراعات بينية بين الدول المصدّرة للعمالة، والهند وباكسـتان نموذجان يصلحان للدراسـة ومحاولة نمذجة قواعد الصراع وسلوك الجوالي وفْقه.

الجدول (8-6)
المعطيات البشرية والسكانية لدول مجلس التعاون الخليجي(*)

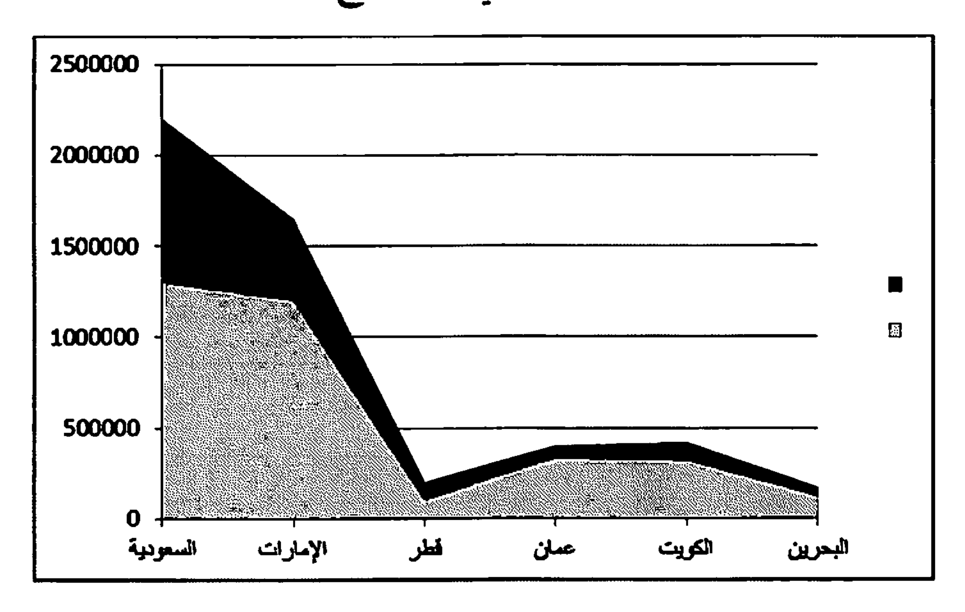
الدولة	عدد السكّان والمعطيات البشرية والسكانية				
	عدد السكان (مليون نسمة)	نسبة المواطنين	نسبة الأجانب	الذكور	الإناث
المملكة العربية السعودية	28.161417	73 في المئة + 10 في المئة بدون 94 في المئة سنة، ٦ في المئة شيعة، ١٠ في المئة دون جنسية	6 في المئة عرب، و20 في المئة آسيويون ١ في المئة أفارقة	54 في المئة	46 في المئة
دولة الإمارات العربية	8.264.070	11.7 في المئة	76 في المئة 30 في المئة هنود، 20 في المئة باكستانيون، 12 في المئة عرب، ١٠ في المئة آسيويون، 2 في المئة بريطانيون،١ في المئة أوروبيون.	60 في المئة	40 في المئة
سلطنة عمان	3.311.640	73 في المئة	27 في المئة مختلطون	56 في المئة	44 في المئة
دولة الكويت	3.566.437	53 في المئة	47 في المئة 53 في المئة عرب، 9 في المئة آسيويون، ٤ في المئة إيرانيون، 17 في المئة آخرون	61 في المئة	39 في المئة
مملكة البحرين	1.234.516	46 في المئة	37 في المئة 10 في المئة عرب، ٨ في المئة إيرانيون، ١٣ في المئة آسيويون، ٥ في المئة آخرون، ١ في المئة أوروبيون	56 في المئة	44 في المئة
دولة قطر	1.696.516	15.9 في المئة	75 في المئة 18 في المئة هنود، ١٨ في المئة باكستان، ٢٩ في المئة عرب وآخرون ١٠ في المئة إيرانيون	65 في المئة	35 في المئة

(*) المعطيات محدثة حتى عام 2011.

المصدر: الجدول من إعداد الباحث اعتمادًا على: المواقع الرسمية لمجلس التعاون الخليجي ودول المجلس، *The Military Balance 2010: The Annual Assessment of Global Military Capabilities and Defence Economics*, The Military Balance (Routledge: The International Institute for Strategic Studies, 2010), and *The CIA World Factbook*.

إذا حاولنا تحليل معطيات الجدول (8-6) ورسم دالة خطّية تبين منحنى جدول العمالة الأجنبية في الخليج، وحصّة الهند وباكستان، فسنحصل على المنحنيات التالية:

الشكل (8-2)
نسبة العمالة الهندية والباكستانية في دول الخليج (2002 - 2004)



(*) اللّون الرمادي الغامق للهنود، واللّون الرمادي الفاتح للباكستانيين.

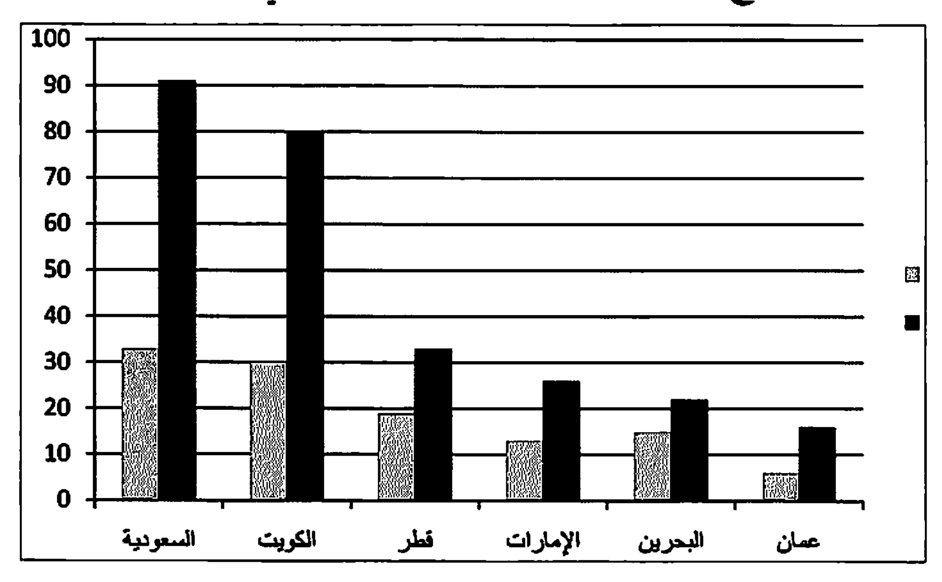
المنحنى من إعداد الباحث استنادًا إلى الإحصاءات الواردة في: Andrzej Kapiszewski, «Arab Versus Asian Migrant Workers in the GCC Countries,» UN/POP/EGM/2006/02 (Population Division, Department of Economic and Social Affairs, United Nations Secretariat Beirut, 15-17 May 2006), p. 10.

مع أخذنا المعطيات المشار إليها في الشكل (8-2) تعود إلى الفترة 2002- 2004 بحسب المعطيات المتاحة لنا، فإنها تتناظر من ناحية النسبة مع العدد الحالي الذي يفوق كثيرًا الرقم المشار إليه أعلاه. ونحن نرى أن نسبة الهنود إلى الباكستانيين متماثلة في حالة قطر، ويمثل الباكستانيون نسبة 69.2 في المئة من الهنود في حالة السعودية، و41.6 في البحرين، و37 في المئة في

الإمارات، و31.25 في المئة في الكويت، و21.2 في المئة في عمان. وبغضّ النظر عن العدد الفعلي، فإن حالة من هيمنة العمالة الهندية واضحة للعيان، ما يستدعي أخذ ذلك في العلاقات البينية بين العرب وكلٍّ من جاريهما الآسيويين القريبين. وإذا ما أخذنا منحنى آخر يقارن بين نسبة العمالة العربية إلى العمالة الأجنبية في أقطار مجلس التعاون الخليجي فستظهر لنا العلاقة المبينة في الشكل (8-3):

الشكل (8-3)

مخطّط تراجع نسبة العمالة العربية إلى الأجنبية بين عامي 1975 و2004



اللون الرمادي الغامق لنسبة العمالة العربية للعمالة الأجنبية في عام 1975، واللون الرمادي الفاتح لنسبتها في عام 2004.

المصدر: الجدول من إعداد الباحث نسبة إلى المعطيات المبيّنة في: Kapiszewski, p. 9.

ترينا العلاقة البينية المشار إليها تراجعًا كبيرًا في نسبة العمالة العربية لمجمل العمالة الأجنبية التي يمثّل الهنود والباكستانيون النسبة الأعلى منها في جميع دول مجلس التعاون الخليجي ما عدا السعودية، إذ يمثّلون 36.12

في المئة من إجمالي العمالة الوافدة في عام 2004 بحسب كابيزيوسكي[32].

هناك أسباب متعدّدة لتفسير زيادة العمالة من شبه القارّة الهندية وتصاعد وتيرة الزيادة، منها ما يلي:

- تصاعد وتيرة التطوّر الاقتصادي تسبّب بزيادة متطلّبات سوق العمل.

- القرب الجغرافي للبلدين المصدّرين للعمالة من سوق العمل.

- القبول المحلي بوجود العمالة الهندية والباكستانية لدأبها وقلّة مشكلاتها.

- تيسّر المهارة والمعرفة في مقابل مادّي متدنٍّ.

- الأواصر والعلاقات بين العمالة السابقة والعمالة الجديدة المستندة إلى القرابة العائلية، أو المعرفة.

تكرّر طرح خطورة زيادة أعداد العمالة الآسيوية، والهندية تحديدًا، في دراسات متعدّدة محذّرة من تحوّلات الموقف السياسي في العلاقات الدولية، واحتمال الضغط بمنح هذه الجوالي جنسيات البلدان المضيفة التي تعاني فعلًا حاجة مستدامة ومزمنة إلى اليد العاملة الأجنبية، بسبب محدودية المتاح محليًا. وطُرح في غير مجال إمكان تعويض العمالة الآسيوية بعمالة عربية، هناك الكثير منها متاح في دول مصدّرة للعمالة مثل جمهورية مصر العربية واليمن الجار الأقرب ودول المغرب العربي وبلاد الشام. إلّا أنه كان هناك دومًا إصرار على استقدام العمالة الآسيوية (وبالأخصّ من الهند وباكستان، ثمّ من بنغلادش وسري لانكا) للأسباب المشار إليها أعلاه (الطاعة والدّأب وقلّة الكلفة المالية

(32) Andrzej Kapiszewski, «Arab Versus Asian Migrant Workers in the GCC Countries,» UN/POP/EGM/2006/02 (Population Division, Department of Economic and Social Affairs, United Nations Secretariat Beirut, 15-17 May 2006), p. 10.

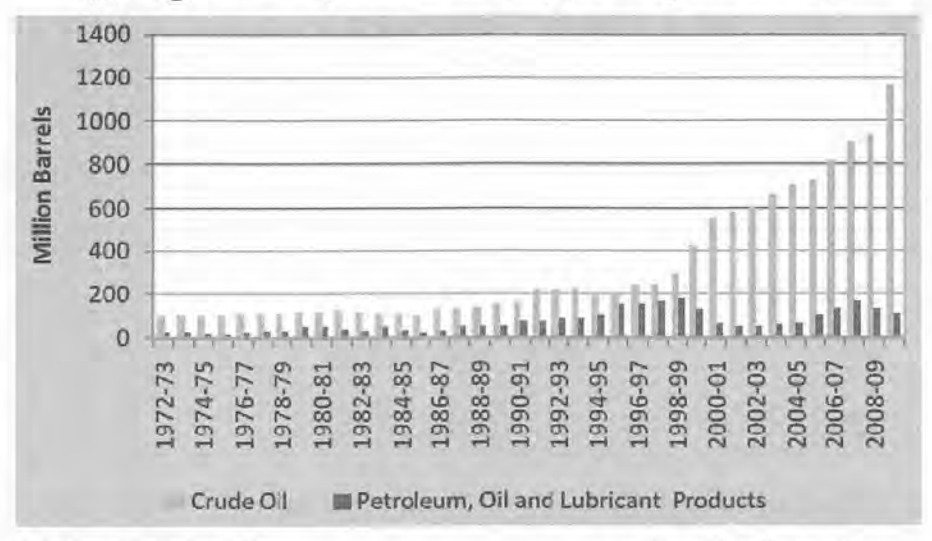
والعلاقات القرابية... وغيرها). وبهذا ستكون العمالة من هذين البلدين أحد أهمّ وأخطر العوامل المؤثّرة في صوْغ مصالح هذين البلدين في منطقة الخليج العربي ومتطلّباتها، وهو ما يقتضي الانتباه.

3 - إمدادات الطّاقة

الطاقة وإمداداتها هي الأخطر في العلاقات البينية بين منطقة الخليج العربي والمحيط الدولي، وتمثّل الاعتمادية العالمية على نفط الخليج العربي والغاز الذي يصدّر منه مؤشّرًا كبيرًا وخطِرًا إلى أهمّية هذه المنطقة من الناحية الجيوستراتيجية. كما أن الغرب والشرق كانا ينظران على الدوام إلى أهمّية أن تعالج هذه المنطقة بنفسها أي انقطاعات تعانيها إمدادات النفط، لأسباب تنطلق من داخلها، ومن أهمّها الأزمات والحروب. فعلى امتداد العقود الأربعة المنصرمة عانت المنطقة خمس أزمات وحروب، بدءًا بحرب تشرين الأول/ أكتوبر 1973، حيث كانت المقاطعة العربية ووقْف إمدادات النفط العربي الذي تمخّضت عنه أول زيادة فعلية في أسعار النفط من بضعة دولارات للبرميل إلى ما فوق العشرة دولارات، وبتصاعد واضح. عوّضت إيران شيئًا من انقطاع النفط العربي الذي استُخدم سياسيًا أول مرة ولم تتكرر. بعد ذلك، وفي حقبة الحرب العراقية - الإيرانية عندما انقطع نفط كلٍّ من العراق وإيران عن الأسواق، سارعت كلٌّ من السعودية والكويت والإمارات إلى زيادة إنتاجها لسدّ النقص. وفي أزمة الكويت، سارعت السعودية والإمارات إلى سدّ النّقص. وبقيت السعودية حتى الآن المقياس الذي يُستخدم للسيطرة على كمّية النفط المصدّر من هذه المنطقة نظرًا إلى طاقتها التصديرية الهائلة التي تصل إلى 10 ملايين برميل يوميًا. يرينا المخطّط التالي تنامي الاعتمادية الهندية على النفط كوسيلة من وسائل توليد الطاقة الرئيسة إلى جانب مواردها من الفحم. ومن المعروف أن جلّ هذه الواردات من منطقة الخليج العربي.

الشكل (8-4)

واردات الهند من النفط من الدول المصدّرة له في منطقة الخليج العربي



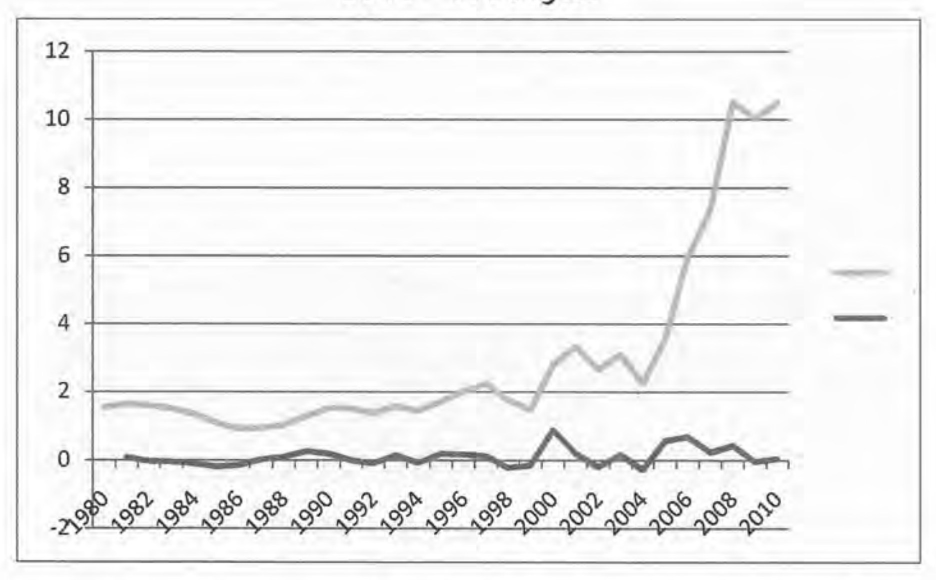
المصدر: الجدول مستلهَم من: India News BIZ, 18/11/2012.

لا تختلف باكستان كثيرًا عن الهند من ناحية اعتماديتها على إمدادات الطاقة المصدّرة من منطقة الخليج العربي. ويرينا المخطّط التالي تزايد كمّية الطاقة وفاتورتها بالنسبة إلى باكستان عبر السنوات. وسبق وأشرنا إلى قيمة الفاتورة عند مناقشتنا وضع باكستان الاقتصادي.

ستبقى منطقة الخليج العربي صاحبة الاحتياط النفطي الأعظم، وكذلك احتياطاتها الغازية، المصدرَ الأقرب والأكثر موثوقية، والأقل كلفة في إمدادات الطاقة لكلٍّ من الهند وباكستان. ونظرًا إلى تصاعد طلبات البلديْن من هذه المادة الحيوية، وكذلك تصاعد طلب مستوردين آخرين من خارج منطقتنا، كالصين ودول رابطة الآسيان والولايات المتحدة الأميركية، ستبقى حقيقة ضمان إمدادات الطاقة إليهما من صلب اهتماماتهما وجوهر مصالحهما القومية لحيوية، وضرورة إمداد الطاقة في تشغيل مرافق الحياة اليومية فيهما من جهة، كما هي حيوية لتشغيل منظومة الرّدع والمنظومة الدفاعية والأمنية للبلدين من جهة أخرى.

الشكل (8-5)

مخطّط تصاعد نسبة الواردات الباكستانية من النفط وقيمتها للفترة 1980 - 2010



المصدر: أعدّه الباحث عن جدول مبيّن في: <http://www.indexmundi.com/pakistan/oil_imports.html>.

على الدول العربية فـي الخليج العربي أن تأخذ قدرة الردع الهندية أولًا - باعتبارها البلد الأكبر قدرة - ثمّ قدرة باكستـان في حسـبان سياسـاتها الأمنية والدفاعية، وعليها أن تأخـذ بالاعتبار تنمية قدراتها لتتصاعـد إلى الحدّ الذي يمكنها معه احتواء أي آثار تنتج من أن يركن أي من البلدين، أو كلاهما لخياره النووي في تعامله مع خصمه ومنافسـه، ذلك لأن منطقة الخليج العربي ما هي إلّا منطقة مكمّلة جغرافيًا لمنطقة المواجهة المحتملة إذا ما حصل مثلها.

خاتمة

أظهرت هذه الدراسـة الأهمّية الفائقة التي تمثّلها البيئة الجيوسـتراتيجية للمحيـط الهندي، وخطـورة الموقع الـذي تتمتّع بـه الهند فيها. كمـا أرتنا، وبوضوح، أهمّية تركيز الانتباه على هذه الحقيقة، خصوصًا أننا في طور التحوّل

من عالـــم القطبية الأحادية إلى عالـــم متنوّع القطبية ومتعدّدهـــا ربما. في عالم كهذا، ســـيكون للهند دور مفصلي، فهي تقع فعلًا علـــى عتبة دارنا الجنوبية، ما يجعلها مراقبًا لنـــا للداخل والخارج، فاتحة أعينها علـــى صراعاتنا وصداقاتنا، على ثوراتنا وتســـوياتنا، على نســـيجنا الاجتماعي قوّةً وضعفًا. كما أن الأعين ســـتكون مفتوحة على نفطنا وغازنا وعلى صناعاتنا النفطية واستثماراتنا. الهند عملاق جيوستراتيجي آت، ســـيهمّه كثيرًا إثبات وجوده في إقليمه، وقد تكون الحدود الجنوبية الشرقية للوطن العربي، وهي الجزيرة العربية والخليج العربي، الساحة التي قد يرغب هذا العملاق في أن يثبت وجوده فيها. ونحن إذ نستعيد هنا تصريحات وزير الدفاع الهندي التي سبقت الإشارة إليها، فلتأكيد أهمّية هذه المنطقة للهند حاضرًا ومستقبلًا.

ما يصحّ على الهند يصحّ على باكســـتان بدرجة أقل، فكما استطاعت هذه الدولة أن تتغلّب على وهنها الجيوسياســـي الكبيـــر، وتمكّنت من أن تصل إلى الردع النـــدّي مع جارتها الأعظـــم (الهند)، فهي تمتلك المصالح نفســـها التي تمتلكها الهند في الخليج العربي، وهي شـــريك تجاري ذو ميزان تجاري سلبي مع المنطقة بســـبب إمدادات الطاقة المكلفة، ولها هـــي الأخرى جوالٍ وعمالة وافدة تمثّل جوالي باكســـتانية في كلّ بلد من أقطار مجلس التعاون الخليجي؛ جوالٍ لهـــا طموحاتها ومعضلاتهـــا وتطلّعاتها، كما هي حـــال الهندية. كما أن درجة التضادّ أو الانســـجام بين جاليتَي البلدين من الأمـــور التي ينبغي الاعتبار بها في حالة اندلاع نزاع واسع النطاق بينهما. وهنا لا بدّ من إعادة تأكيد خطورة ملفّ العمالة الآســـيوية الوافدة من الناحية الديموغرافية والقيمية، على تماسك مجتمعات دول مجلس التعاون الخليجي وحيويتها، والأمر يجعل دراســـته - وبعمق - مطلبًا معقولًا ومطلوبًا في الوقت نفسه، بهدف إيجاد الحلول العملية والإنسانية له.

إن المصالح العربية مع هذيـــن البلدين كبيرة، والعلاقـــات الثقافية البينية كثيرة أيضًا، والروابط الدينية والثقافية هي الأخرى ليســـت بالقليلة. وإذا كانت بيئة الخليج العربي لم تنتج ثورات بمعنى ثورات الربيع العربي، إذا ما اســـتثنينا

ما حصل في البحرين من انتفاضة لا تعود أســـبابها إلى اندلاع الثورات العربية، فإن حالة عدم الاستقرار التي تعانيها كلّ من البحرين والكويت تمثّل بيئة خصبة لنشـــوء حالة عدم الاســـتقرار ممّا يقتضي معه مراقبة حال الجوالـــي الوافدة، وبالأخص الجاليتين الهندية والباكســـتانية لكونهما أكبر الجوالي الموجودة في منطقة الخليج العربي على الإطلاق.

نحن نعتقد أن العلاقات البينية انطلاقًا من قراءة المشـــهد الجيوستراتيجي المســـتقبلي في منطقة المحيط الهندي تســـتدعي، وبإصرار، إيلاء هذه المنطقة الأهمّية الخطيرة التي تســـتحقّها، والنظر في حساب القدرات إلى الذّات بهدف التعظيم وليس التّقزيم. لن يكون لنا مكاننا الطبيعـــي هنا ما لم نتصرّف كعرب يمثّلون أمّة انتشـــارها على ســـطح كوكبنا مـــن المحيط الهنـــدي إلى المحيط الأطلسي، عندئذ ســـتكون هذه الكتلة الجيوســـتراتيجية الفعلية المالكة زمامها قادرة على فرض احترامها، قابلة للاســـتجابة للتحدّي. فهل ســـنكون؟ هذا هو أول دروس الثورات العربية.

تعقيب

محمد جواد علي

تمتلك منطقة المحيط الهندي فضاءً بحريًا شاسعًا، وهي ذات أهمّية جيوسياسية وجيواقتصادية واستراتيجية بالغة. كما أنها تتميز بحضور كبير لدول من خارج المنطقة، فالبلدان المطلّة على المحيط الهندي تعدّ موطنًا لأكثر من 2.6 مليار نسمة، أي ما يقارب 40 في المئة من سكّان العالم. وتواجه دول هذه المنطقة تهديدات وتحدّيات أمنية غير تقليدية، فيما كان الاقتصاد والأمن على الدوام المحرّكيْن الأساسيين لتشكّل الخطاب التاريخي المعاصر في هذه المنطقة. وعلى مدار التاريخ سهّل المحيط الهندي ببُعده الجيواقتصادي نشوء الروابط بين النظم التجارية للإغريق والرومان والمصريين واليهود والعرب والصينيين، وما زال هذا الوضع قائمًا إلى حدٍّ بعيد، حيث حركة التجارة والطاقة، ولا سيما في الخليج العربي.

كان المحيط الهندي ببُعده الجيوستراتيجي منطقة تسعى القوى العظمى إلى الهيمنة عليها، وهذا هو الهدف حتى اليوم، إذ تعدّ المنطقة ذات أهمّية استراتيجية بالنسبة إلى الولايات المتحدة والصين واليابان ودول الاتحاد الأوروبي التي وُجدت قواتها في المنطقة لحماية مصالحها الاقتصادية والاستراتيجية. ورحّب بعض بلدان منطقة المحيط الهندي بوجود قوى خارجية من أجل المحافظة على الهدوء والاستقرار فيها. وفي المقابل، هناك شكوك لدى بعض البلدان الأخرى تحول دون التعاون مع تلك القوى

الخارجية التي يُنظر إليها على أنها تسـعى إلى الهيمنـة، وأن وجودها يُضعف الأمن في المنطقة، فيما أصبحت اتّجاهات التعاون البحري في المحيط تتوقّف على المناورات البحرية المشتركة التي اتّخذت طابعًا مؤسّسيًا على أسس ثنائية ومتعدّدة الأطراف تسمح بالتعاون في العمليات البحرية، وهذه أساس عمليات الطوارئ التي تهدف إلى معالجة المشـكلات والاضطرابات في عرض البحر، والاستجابة للتهديدات الأمنية غير التقليدية، مثل المساعدات الإنسانية والإغاثة من الكوارث.

أفرزت مرحلة ما بعد الحرب الباردة تغييرات دراماتيكية في علاقات الهند الإقليمية والدولية، يعدّ التعاون مع الولايات المتحدة أبرزها، وهو ما دفع الهند إلى إعادة تحديد أهداف سياسـتها الخارجية بما يتـلاءم والمعادلات الدولية الجديدة لتتبوّأ مكانًا رياديًا في المنظومة العالمية.

أولًا: على صعيد التحوّلات الداخلية

شهد الاقتصاد الهندي جملة من التطوّرات لعل أهمّها ارتفاع متوسّط الناتج المحلّي الإجمالي إلى 6 في المئة في الفترة الممتدّة بين عامي 2006 و2012، وتوسّـع القطاع الصناعي، خصوصًا ذلك القائم علـى تكنولوجيا المعلومات، وانخفاض معدّل النموّ السـكّاني إلى 1.3 في المئة. كمـا عرف المعدّل العام للفقر انخفاضًا ملحوظًا على المسـتوى القومي منذ عام 1990، فانخفض في كلٍّ من الريف والحضر بنسبة 10 في المئة في الفترة 1990–2000 مسجّلًا في الرّيف تراجعًا من 37 في المئة إلى 27 في المئة، وفي الحضر من 33 في المئة إلى 23 في المئة، وترافق الانخفاض الحادّ في معدّلات الفقر الريفي مع ارتفاع معدّلات النموّ الاقتصادي.

تدلّ التطوّرات علـى أن المجتمع الهندي يمرّ بمرحلة لا بدّ من أن تفصح عـن ذاتها بحلول عـام 2020، بتجلّياته علـى حجم القوّة العاملـة وطبيعتها واتّساع البنية الأساسية، فيما سيمثّل حافزًا لتحديث الاقتصاد والانخراط بعمقٍ

في التفاعلات الدولية. ويعدّ الوجود الهندي مـا وراء البحار عاملًا يدعم تلك التوجّهات. في المقابـل يطلّ وباء الإيدز بوجهه القبيح مهدّدًا مسـتقبل الهند، فطبقًا للتقديرات الرسمية التي جرى إعلانها في عام 2005، يعاني حوالى 5.2 مليون مواطن الإيدز أو حوالى 0.9 في المئة من إجمالي السكّان الذين تراوح سنهم بين 15 و50 عامًا.

ثانيًا: على صعيد المتغيّرات السياسية

شهدت الحياة السياسـية في الهند تطورات على مدى العقدين الماضيين، يتمثّل أبرزها في التحوّل من نظام الحزب الواحد - بعد هيمنة حزب «المؤتمر» بوصفه الحزب الوحيد الذي اسـتطاع أن يحكم من دون الاعتماد على أحزاب أخرى - إلى نظام التعددية التنافسـية بين حزبيـن أو ثلاثة أحزاب؛ إذ أضحت الإقليميـة الصغيـرة رقمًا صعبًا فـي الانتخابـات لدورها المهمّ في تشـكيل الائتلافات الحكومية لحـزب «المؤتمر» و«بهراتيا جاناتـا»، فيما أثبت «بهراتا جاناتا» قدرته على قيادة الائتـلاف الحكومي بين عامي 1988 و 2004، وهو ما ينسـحب على النظام الحالـي بقيادة حزب «المؤتمر». فاسـتقرار الائتلاف الحكومي مرهون بقدرته على رسم سياسة عامّة يتوخّاها في الأجلين المتوسّط والبعيد بما يضمن له قضاء دورته كاملة. لذلك، فإن العملية الانتخابية في الهند باهظة الكلفة وبالغـة التّعقيد، ذلك أن ائتلافًا ما في توزيـع الحقائب الوزارية، وصوغ برنامج يحظى بالتوافق العام يعنيان تردّد أعضائه لإسقاط الحكومة خوفًا من مواجهة الناخبين. وبالتالي، فإن الغلبة في حلبة صنع القرار في الهند ليست للأيديولوجيا بل للقدرة على الاستمرار.

شهد عام 1998 طفرة استثمارية في المجالات العسكرية؛ إذ قفزت ميزانية الدفاع من 13 في المئة إلى 25 في المئة سنويًا، وحرصت المؤسّسة العسكرية على حيازة المعدّات التكنولوجية الحديثة بغية بناء قاعدة تحديث عريضة ودعم المهارات التخطيطية. وفي عـام 1998، كان إعلان تفجيراتها النووية الجديدة التي كان لها مردود سـلبي محدود النطاق على الاقتصـاد الهندي. وبناء عليه،

أصبحت القوة العسكرية الهندية مؤهّلة أكثر لممارسة دور محوري في الشؤون الآسيوية والعالمية.

أضحـت الولايات المتحـدة الأميركية اليـوم أهمّ حلفـاء الهند خارج محيطها الإقليمي. وفرضت عليها مصالحها الاقتصادية إعادة توصيف أهدافها الأمنية. ويستند وضعها الأمني ومكانتها في العالم اليوم إلى حيازتها أسـلحة الرّدع النووية. أمّا طموحها للاضطلاع بدور أكثر تميزًا عالميًا فيعدّ أبرز سماتها الخارجيـة. إلّا أن الرّؤية العامة لسياسـتها الخارجية أصبحـت أكثر محدودية مما كانت عليه في عهد نهرو. وشـهدت الأعوام الخمسة عشر الماضية مزيدًا من التّقارب الودّي مع الولايات المتحدة، وبالـذات مع بداية عولمة الاقتصاد الهندي، إذ تحصل الولايات المتحدة على ثلثي صادرات الهند من البرمجيات التي تنمو بمقدار 50 في المئة سـنويًا، وتمنح الولايـات المتحدة تصريحات عمل تصل إلى حوالى الثلث لرعايا الهند الذين يحملون جوازات سـفر موقّتة ويمثّلون قدرًا وافرًا مـن قوّة العمل في مجال تكنولوجيـا المعلومات. وتمثّل طائفة الهنـود الأميركيين ذات الثراء المتنامي جماعـة ضغط (لوبي) مؤثّرة في واشنطن لمصلحة الهند وذات استثمارات تصب في الوطن الأمّ.

اعتُبر موقف الهند من الصراع العربي – الإسـرائيلي العامل الحاسـم في تحديد سياستها في منطقة الشرق الأوسط ما قبل عام 1995. والأمر تجلّى في سلوكها التصويتي المناهض لقيام دولة إسرائيل في هيئة الأمم المتحدة، انطلاقًا من عدم اقتناعها بالدين أساسًا لبناء أمّةٍ ما. لكن العلاقات الهندية – الإسرائيلية بدأت منـذ عام 1992 منحـى إيجابيًا تَمَثّـل في علاقات دبلوماسـية بينهما، وتصدّرت مجالات الدفاع والاسـتخبارات أجندة تعاونهما؛ حيث وقّعت الهند اتفاقية دفاعية مع إسـرائيل قيمتها 3 مليـارات دولار أميركي، فأصبحت الهند ثاني أكبر مصدّر للأسلحة بعد روسيا.

تتميـز التوجّهات الجديدة للسياسـة الخارجية الهنديـة بامتدادها خلف الحدود التقليدية لمنطقة جنوب آسيا. إلّا أن الخلاف الهندي – الباكستاني يلقي ظلاله على وضع الهند الجيوسياسي؛ إذ يلاحَظ أن علاقة الهند بباكستان ودول

الجوار في جنوب آسـيا لم يطرأ عليها أي تغييرات جذرية، بخلاف الحال مع الولايات المتحدة وآسيا والشرق الأوسط. فمنذ انفصال دولتَي الهند وباكستان في عام 1947، تحـاول كلٌّ منهما تنمية قدراتها فـي المجالات المختلفة كي تعتلي مكانًا مؤثّرًا في المستويين الإقليمي والدولي، وانطلاقًا من نظرية المجال الحيوي والمجالات الأخرى التي يمكن تحديدها في:

– المصلحة الوطنية هي قمّة الغايات القومية التي تحدّدها الاسـتراتيجيا السياسية، كما أن ممارسة الدولة سياسـتها الخارجية تستند إلى قواها الشاملة وتتصاعد عندما يكـون هناك تهديد أو مسـاس بالمصلحـة الوطنية أو الأمن القومي الشامل.

– القدرة الشـاملة للدولة، وفي مقدّمها القوّة العسـكرية بوصفها السّـند الرئيس لسياسـتها في تحصين أهدافها وفرض الإرادة باستخدامها عند اللزوم، أو عندما تتعارض مصالحها مع مصالح أخرى مضادّة.

– القدرة الاقتصادية للدولة، وهي القاطرة التي تستند إليها القوى الأخرى في تحصين أهدافها، ومن دون اقتصاد يتقلّص تأثير الدولة في مجالها الحيوي نتيجة المشـكلات التي سـتؤثّر في داخلها، إلى جانب تقلّص إمكانات القدرة العسكرية نتيجة ضعف الإنفاق العسكري.

– رغبة الـدول الكبرى فـي التأثير والتوسّـع، ما أدّى إلـى صعود دول وإمبراطوريات وهبوطها، مع شـعور الهند بأنّها دولة كبيرة لها حقّ التأثير بقدر ما في إقليمها وفـي العالم. وكان أهمّ ما لدى الهند من تأثير هو الذي في اتّجاه باكسـتان التي انفصلت نتيجة تقسيم اسـتعماري. ولهذا تشعر باكستان بأنها ندٌّ للهند، ولا بدّ من أن تتصدّى لأطماعها.

كما أن باكسـتان تدرك حقيقة الخلل في التّوازن مـع الهند. وعلى الرغم من ذلك، فإنها تتبـع نظرية المفكّر الاسـتراتيجي والتر ليبمان بشـأن العلاقة بين القوّة العسـكرية والأمن القومي: سـتكون الدولة آمنة حين لا تضطرّ إلى التضحية بمصالحها المشروعة كي تتجنّب الحرب، بل يجب أن تكون مستعدّة

للتلويح بها عندما تتحدّث عن تحقيـق تلك المصالح؛ بمعنى أن أي تهاون في امتلاك قدرة ردع هو تهاون في تحقيق الأمـن القومي للدولة، وهو ما أدّى إلى تصميم باكستان على امتلاك سلاح ردع نووي في مواجهة الهند. فوجهة النظر الباكسـتانية تجاه الهند مبنية على الشـكّ المطلق في أي تحرّك هندي. وطبقًا لهذا التقويم، ترى باكسـتان الهندَ دولةً عدوانية تصبو إلى بناء إمبراطوريتها في المحيط الهندي على حساب الآخرين، لذلك أقامت آلة حربية هائلة وأسطولًا مجهّزًا للوصول إلى المياه الزرقاء البعيدة. كما أن سياسـتها تستهدف إخضاع شعوب المنطقة (الشعب المسلم في كشمير)، فضلًا عن أنها دولة تميز الأكثرية أمام الأقلّيات، خصوصًا الإسـلامية. ولهذا تعمل السياسـة الباكسـتانية بكلّ جهد على منع الهيمنة الهندية، ولا سـيما في المسـائل الدفاعية، لتبديد أوهام القيادة الهندية بالقدرة على العدوان، وهو ما حمل البلدين على سباق التسلّح، خصوصًا في المجال التقليدي.

أفقدت مشكلة كشمير كلًّا من الهند وباكستان أي ثقة بالأخرى، فلم تحقّقا أي نجاح في شـأنها عدا اتفاقية تقسـيم مياه النهر (الهندوسي في عام 1966) التي أدارها البنك الدولي. وتهدف باكسـتان إلى تصحيح الخلل الذي أحدثته الهند بقوّة في كشمير، وترى أنّها ليست دولة عدوانية بل هي تسعى إلى تحقيق مصالحها المشـروعة. ومن ثمّ من الضروري حلّ مشكلة كشمير بصورة نهائية حتى لا يكون هناك مصدر تهديد أو توتّر مع الهند مستقبلًا.

فيما ترى باكسـتان أنه لم يُقصد بالبرنامج الهندي النووي تحقيق التوازن مع الصين، فـإن الطبيعة الجغرافيـة بينهما تعوق غـزو إحداهما للأخرى، بل المقصود هو الهيمنة على المنطقة وردع الآخريـن وتخويفهم، وفي مقدّمهم باكستان. ويعزّز طموحها أنّها أمست عضوًا سادسًا في النادي، واضطلعت بدور قوّة عظمى تنافس الصيـن في الهيمنة على المنطقة. وترى باكسـتان أن مجال التسلّح التقليدي لا يمكنه تحقيق التوازن مع الهند التي تمتلك جيشًا كبيرًا يناهز أربعة أمثال الجيش الباكسـتاني، وتدعمه صناعات عسكرية متقدّمة تفتقر إليها باكستان. لذلك كان على إسـلام أباد أن تطوّر نظامًا اسـتراتيجيًا يمنحها ميزة

عسكرية يحذر منها أي عدوان عليها من دولة قوية مثل الهند. وكان السلاح النووي - من وجهة نظر باكستان - هو الوسيلة الوحيدة القادرة على تحقيق التوازن في المجال الاستراتيجي.

أمّا الهند فتقول إن استراتيجيتها في امتلاكها السلاح النووي لا تتمثّل في الاستخدام، بل في الردع فحسب. لذا، فإن الحدّ الأدنى من الردّ يكفي، وسباق التسلّح في المنطقة لا جدوى منه. وتسلّح الهند نوويًا ليس موجّهًا إلى دولة بعينها، وما التفجيرات النووية إلّا استجابة للتدهور المطّرد في الموقف الأمني الداخلي. وتؤكّد الهند أنها بادرت منذ عام 1994 إلى عقد اتفاق مع باكستان يمنع بموجبه كلًّا منهما من البدء في استخدام الأسلحة النووية ضد الأخرى. واقترحت أيضًا أن تصوغ الأمم المتحدة ميثاقًا دوليًا يمنع استخدام السلاح النووي أو التهديد به، غير أن الدول النووية في حينها رفضت هذه المبادرة.

ما يمكننا قوله هنا هو أن التوازن الجيوستراتيجي والديموغرافي والسياسي والاقتصادي والتقليدي يصب في مصلحة الهند لا في مصلحة باكستان عمومًا. وعلى الرغم من الإمكانات الكبيرة التي تمتلكها الهند في هذه المجالات، فإن ما حقّقته باكستان بامتلاكها السلاح النووي ووسائل الإطلاق أدّى إلى توازن استراتيجي مع الهند التي أُجبرت على العمل لتلطيف الأجواء في مخاطبة باكستان. ومنذ عام 1998، في أعقاب جولة التفجيرات الذرّية المتبادلة، أدّى توازن الرعب إلى اختلاف مفهوم حسابات القوّة بين الطّرفين، فالتفوّق الهندي في جميع المجالات يحقّق اختلالًا في التوازن مع باكستان في مصلحة الهند. إلّا أن عامل امتلاك الأسلحة النووية أفضى إلى كسر حلقات التفوّق وإحداث التوازن في المستويين السياسي والعسكري، فحال دون تفاقم الأمور ولجوء طرف إلى استخدامه ضد الطرف الآخر.

الفصل التاسع

الأهداف والمصالح الإسرائيلية في النظام العربي

محسن صالح

مقدّمة

يقوم المشروع الصهيوني على أساس معادلة جوهرها أن شرط بقائه مرتبط بضعف مَن حوله. بعبارة أخرى، إن شـــرط صعود المشروع النهضوي العربي الإسلامي هو إنهاء المشـــروع الصهيوني. لذلك، يلتقي المشروع الصهيوني مع المشروع الإمبريالي الغربي في إبقاء المنطقة المحيطة به ضعيفةً أولًا، ومفكّكة ومنقســـمة ثانيًا، ومتخلّفـــةً ماديًا معنويًـــا وحضاريًا ثالثًا؛ ما سـيؤدّي من جهة رابعة إلى إبقاء المنطقة تحت الهيمنة الأجنبية، ومصدرًا للمواد الخام وســـوقًا للمنتجات الغربية.

تحاول هذه الدراســـة أن تســـلط الضوء على خلفيات نشـــوء المشـــروع الصهيوني وطبيعته وســـماته وأهدافه ومصالحه التي يســـعى إليهـــا في العالم العربي. وتتطرّق في ثناياها إلى المشـــهد الإســـرائيلي الذي يُظهـــر الكثير من الارتباك والقلق من الثورات والتغيرات في العالـــم العربي التي أوجدت واقعًا جديدًا، أخذ يقلب الحســـابات الإقليمية، وينعكس علـــى الأوضاع الدولية؛ إذ

وجد الكيان الإسرائيلي نفسه وسط عاصفة لم يعتدْها، وربما تنعكس على مستقبله في فلسطين.

أولًا: المشروع الصهيوني
خلفيات الرؤية والدور في المنطقة العربية

1 - خلفيات نشوء المشروع الصهيوني وطبيعته

ترافق نشوء المشروع الصهيوني مع ذروة توسّع المشروع الاستعماري الغربي في العالم. ولأن المشروع الصهيوني نشأ في رحم الحضارة الغربية وفي بيئتها الجغرافية والسياسية، اتّخذ عددًا من السمات المرتبطة أو المتداخلة أو المتأثّرة بالرؤى الغربية للكون والحياة ومعايير التعامل الإنساني والقيم والمصالح. كما سعى المشروع الصهيوني بطريقة منهجية واعية إلى توظيف خلفيات الغرب الدينية والثقافية والأيديولوجية والحضارية بما يخدم أهدافه.

فتحت حملة نابليون بونابرت على مصر والشام (1798 - 1799) أعين القوى الاستعمارية الغربية على الأهمية الاستراتيجية للمنطقة. كما فتحت دعوته إلى إقامة دولة لليهود في فلسطين أعين الغرب على إمكان استخدام الجماعات اليهودية في مشاريع استعمارية، لتكوين كيانات وظيفية ترتبط مصلحيًا واستراتيجيًا بالقوى الغربية، وهي في الوقت نفسه تلبّي التطلعات الدينية اليهودية وتطلعات الجماعات المسيحية الصهيونية، خصوصًا ذات الخلفيات البروتستانتية.

على الرغم من التنافس الاستعماري البريطاني - الفرنسي، كانت بريطانيا سبّاقة في وضع يدها على المنطقة التي ازدادت أهميتها الاستراتيجية بافتتاح قناة السويس في عام 1869، فأصبحت أهمّ شريان بحري تجاري دولي بين أوروبا وشرق أفريقيا وجنوب آسيا وشرقها. وتمكّنت بريطانيا من السيطرة على قبرص في عام 1878، وعلى مصر في عام 1882، وأصبحت بحاجة إلى تأمين الجناح الشرقي لقناة السويس، ومنطقة فلسطين تحديدًا. وظهرت كتابات زعماء

وساسة، وركّزت على أهمية العامل الاستراتيجي المتعلّق بفلسطين، ومثال ذلك اللورد كتشنر[1] (Kichener) وتشارلز سكوت (C. Scott) وهربرت سايدبوثام (H. Sidebotham) (الكاتب البريطاني الشهير في فترة الحرب العالمية الأولى) الذي رأى أن فلسطين هي «مفتاح مصر»، وأن الدفاع عن مصر يتطلّب إنشاء دولة حاجزة في فلسطين، وأن العنصر الوحيد الملائم لذلك هو اليهود[2]. من هنا كان العامل الاستراتيجي حاضرًا في أذهان رجال الدولة الذين اتّخذوا قرار احتلال فلسطين، وأصدروا وعد بلفور[3].

في الخلاصة التي خرج بها المؤتمر الدولي عن «القوى العظمى في الشرق الأوسط 1919-1939»، وهي الخلاصة التي تولّى كتابتها برنارد لويس (B. Lewis)، كان اتفاق عام على أن العامل الرئيس الذي جذب بريطانيا وفرنسا إلى المنطقة هو العامل الاستراتيجي، وأن العامل السياسي يأتي ثانيًا، وأن هناك جانبًا من الأهمية لعامل استراتيجي - سياسي يتلخّص في عدم ترك المنطقة «فارغة»، بعد إسقاط الدولة العثمانية، بحيث تملأها قوى أخرى معادية أو منافسة. وشعرت بريطانيا وفرنسا بالحاجة إلى حفظ مواقعهما ومصالحهما الاستعمارية من «القوى المثيرة للاضطراب» التي يعتقدون يقينًا أنّها ستخرج من وسط المسلمين في الشرق الأوسط، إلّا إذا وُضعت البلاد وسكّانها بـ «أمان» تحت سيطرة استعمارية، أو على الأقل تحت نفوذ استعماري[4].

على الرغم من أهمية العامل الاستراتيجي الذي لا يمكن فهم الأهداف

(1) ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية: جذورها في التاريخ الغربي، ترجمة أحمد عبد الله عبد العزيز، سلسلة عالم المعرفة؛ 96 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1985)، ص 145.

(2) Herbert Sidebotham, *England and Palestine, Essays towards the Restoration of the Jewish State* (London: Constable and Company ltd, 1918), pp. 173-201.

والمعلومات المذكورة كتبها سايدبوثام قبل صدور وعد بلفور.

(3) بربارة حداد، «المواقف البريطانية في فلسطين بين عامي 1918 و1920،» مجلة شؤون فلسطينية، العدد 17 (كانون الثاني/ يناير 1973)، ص 118.

(4) Bernard Lewis, «Epilogue to a Period,» in: Uriel Dann, ed, *The Great Powers in the Middle East, 1919-1939*, Collected papers series (New York: Holmes & Meier, 1988), p. 421.

والمصالح الإسـرائيلية في المنطقـة العربية من دونه، فـإن هناك عددًا من العوامل التي دفعـت إلى إنجاح المشـروع الصهيوني وتقويـة تحالفه مع العالم الغربي، والتي ساهمت كذلك في تشـكيل الوعي الجمعي اليهودي الصهيوني وتحديد الأهداف الإسـرائيلية؛ فمن ناحية دينية، ساهمت حركة الإصلاح الديني «الحركة البروتسـتانتية» بصورة مباشرة أو غير مباشرة في إنشاء المشـروع الصهيوني. وظهرت هذه الحركة منذ القرن السادس عشر الميـلادي وركزت علـى الإيمان بالعهـد القديم (التـوراة)، ونظرت إلى اليهود وفق رؤيـة توراتية بأنّهم «أهل فلسـطين» المشـرّدون في الأرض، وآمن كثيرون مـن البروتسـتانت بنبوءة العهـد الألفي السـعيد، وهي أن اليهود سيُجمعون من جديد في فلسطين، اسـتعدادًا لعودة المسيح المنتظَر الذي سـيقوم بتنصيرهم، ثم يقودهم في معركة أرمجـدون (Armageddon) [الفاصلـة]، وينتصـر على أعدائـه، ليبدأ بعـد ذلك عهد يمتـد ألف عام من السعادة. وشـكل أتباع الكنائس البروتسـتانتية أغلبية سـكان بريطانيا والولايات المتحدة وهولندا ونحو نصف سـكان ألمانيـا. وهكذا ظهرت «الصهيونية غير اليهودية» خصوصًا وسـط هؤلاء البروتستانت الذين دعموا المشروع الصهيوني بناءً على خلفية دينية[5].

من جهة ثانية، شهدت أوروبا، خصوصًا في القرن التاسع عشر، تحولات سياسية مهمّة؛ فمنذ الثورة الفرنسية على الحكم الملكي في عام 1789، أخذت الدولة الأوروبية الحديثة تتشـكّل، وانتشرت الفكرة القومية والمشاعر الوطنية، وأُنشـئت أنظمة علمانية فصلت الدِّين عن الدولة وهمّشت دور الكنيسة. وكان «تحرير» اليهود وإعطاؤهم جميع حقوق المواطنة، خصوصًا في أوروبا الغربية، ما سـهل على اليهود اختراق هذه المجتمعات والأنظمـة، والارتقاء بمكانتهم السياسـية والاقتصادية والاجتماعية، وتحقيق مسـتويات نفوذ أعلى في دوائر السياسة والاقتصاد والإعلام.

ثمّ إن الفكرة القومية نفسـها راحت تنتشـر بين اليهود أنفسـهم بوصفهم

(5) انظر بشأن هذا الموضوع: الشريف، الصهيونية.

«شـعبًا» مختلفًا عن غيره، وغير قابل للاندماج في محيطـه؛ وكان من أبرزها كتابات موزس هس (M. Hess) في كتابه **روما والقدس**، وليو بنسكر (L. Pinsker) في كتابه **التحرّر الذاتي**، وتيودور هيرتسل (T. Herzl) في كتابه **دولة اليهود**.

من ناحية ثالثة، نحت الدولة القومية والمشاعر الوطنية في روسيا وأوروبا الشـرقية (حيث أغلبية يهود العالم) منحى آخر؛ إذ قاوم يهود روسـيا عمليات الدمج والتحديث الروسـية التي تميزت بالفوقية والقسـر والإرهاب. وزادت مشـاركة كثيرين من اليهود فـي الحركات الثورية اليسـارية عـداء الحكومة القيصرية الروسية لهم، وانفجرت العداوة ضدّهم بصورة مكشوفة في إثر اغتيال قيصر روسيا ألكسندر الثاني في عام 1881، واتّهم به اليهود. وبدأت موجة من الإجراءات العنيفة القاسية ضدّهم سمّيت اللاسامية، أي العداء لليهود لكونهم يهودًا ينتمون إلى العنصر السامي، وأدّى ذلك إلى نشوء «المشكلة اليهودية»[6]؛ إذ إن ملايين اليهود في روسـيا راحوا يبحثون عن فرصة للخلاص ممّا هم فيه، وشـرعت أعداد هائلة منهم في الهجـرة إلى أوروبا الغربية وأميركا الشـمالية وأميـركا الجنوبية. وكانت فرصة الحركة الصهيونيـة للظهور والدعوة إلى حلّ المشـكلة اليهودية، بإنشاء كيان آمن مسـتقلّ لليهود في فلسـطين. وتعاطف كثيرون من الأوروبيين والأميركيـن مع هذه الدعوة، أكان لخلفياتهم الدينية أم تخلّصًا من أعباء التدفّـق اليهودي على أرضهم. وقوّى هذا الدعمَ لاحقًا النظام النازي الهتلري في ألمانيا (1933 – 1945) الذي قام باضطهاد اليهود، والتقت مصالحه مع الحركة الصهيونية في تهجيرهم.

من جهة رابعة، كان لفشـل حركة التنوير «الهسكلا» وسط يهوديي أوروبّا أثره في دفع المشروع الصهيوني إلى الأمام، إذ سعت الحركة إلى إدماج اليهود في بلدانهم على أساس الانتماء والمواطنة، لكنها لم تنجح في تحقيق أهدافها.

---

(6) انظر في شأن هذا الموضوع: عبد الوهاب المسـيري، **الأيديولوجية الصهيونية: دراسة حالة في علم اجتماع المعرفـة**، 2 ج، عالم المعرفة؛ 60 – 61 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1982 – 1983)، ج 1، ص 89 – 116، وأسـعد عبد الرحمن، **المنظمة الصهيونية العالمية 1882 – 1982**، ط 2 (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1990)، ص 23 – 26.

وتاليًا، ظلت أعداد من الجماعات اليهودية غير مندمجة اجتماعيًا، وعلى أهبة للانتقال والهجرة بحثًا عن ظروف أفضل.

لم تكن النقاط السابقة مجرّد أسباب لنشوء المشروع الصهيوني، وإنما أسّست لبيئة غربية داعمة للمشروع الصهيوني، ولتحالف قائم على خدمة المصالح المشتركة لأسباب وخلفيات استراتيجية أو سياسية أو حضارية أو دينية أو اقتصادية. وتاليًا، لم يكن الأمر مرتبطًا بمجرّد إنشاء كيان يهودي في فلسطين، وإنما أيضًا برعاية منظومة المصالح والأهداف الغربية الاستعمارية في المنطقة.

بصورة عامّة، أدرك قادة المشروع الصهيوني أن إنشاء دولة لليهود في قلب العالم العربي وقلب العالم الإسلامي يستدعي وجود شرطين أساسيين: أولهما أنه لا بدّ من رعاية وحماية دولية من قوة عظمى واحدة أو أكثر، وثانيهما أنه لا بدّ من ضمانات تُبقي الفضاء الاستراتيجي في المنطقة المحيطة بفلسطين ضعيفًا، وذلك لإنجاح إقامة الدولة اليهودية واستمرارها في بيئة عربية وإسلامية معادية.

هكذا، يتعارض المشروع الصهيوني تعارضًا أصيلًا واستراتيجيًا مع حالة أي مشروع نهضوي أو وحدوي في المنطقة، خصوصًا أنه يستند في نهوضه إلى هوية الأمّة وتراثها وعزّتها وكرامتها واستقلالها عن التبعية والهيمنة الغربيتين.

لم يكن أمام المشروع الصهيوني من حلٍّ لتجاوز هذين الشرطين سوى التحوّل إلى كيان طبيعي في المنطقة. غير أن هذا التحوّل يستدعي أساسًا تحوّلًا في الهوية الحضارية العربية الإسلامية للمنطق، وهو أمر غاية في الصعوبة إنْ لم يكن مستحيلًا، ولا يكاد يمتلك إلّا فرصًا ضئيلة من خلال مشاريع التفتيت العرقي والطائفي، أو يستدعي أن يكيّف المشروع الصهيوني نفسه ليتوافق مع البيئة المحيطة، أكان بإنهاء فكرة يهودية الدولة أم بالسماح بعودة اللاجئين الفلسطينيين أم بتبنّي فكرة الدولة الواحدة، وهو ما قد يعني عمليًا إنهاء المشروع الصهيوني نفسه القائم على الهوية الدينية والقومية العنصرية.

2-انعكاسات سمات المشروع الصهيوني على المنطقة العربية

يتّسم المشــروع الصهيوني بعدد من السِّــمات، مثل العنصرية والعدوانية والتوســعية والإحلالية والدور الوظيفي... غير أننا ســنركّز على سمتين ذواتي انعكاسات مباشــرة على الفضاء الاستراتيجي العربي الإســلامي المحيط به، وتؤثّران بصورة واضحةٍ في السلوك الإسرائيلي تجاه المنطقة[7].

السمة الأولى هي أن المشروع الصهيوني «استعمار عميل»، أو أنه، بعبارة أخرى، «كيان وظيفي» يخدم بصورة أو بأخرى القوى التي أنشأته وتحالفت معه وحَمَته، إذ يجــد الطرفان مصلحة واضحة في اعتمــاد كلٍّ على الآخر. فعندما نشــأت الحركة الصهيونية لم يكن لديها أرض ولا جيش ولا حتى شعب تحت تصرّفها؛ كان لديها برنامج تبنّته بريطانيا والولايات المتحدة ودعمته باقي القوى الغربية. وهو برنامج يخدم في نهاية المطاف مصالح القوى الكبرى في المنطقة في إبقائها تحت الهيمنة والتبعية الاســتعمارية من خلال وجود قلعة استعمارية متقدّمة، ومن خلال إبقــاء المنطقة ضعيفة ومفكّكة ومتخلّفة. وهذا ســيضمن في المقابل أن تبقى هذه المنطقة موردًا للمواد الأولية وســوقًا كبيرة للصناعات والمنتجات الغربية.

فهم مؤسّسو المشــروع الصهيوني، خصوصًا هيرتســل، مؤسّس الحركة الصهيونية، العقلية الاستعمارية الغربية، فقدّموا هذا المشروع في ضوء المصالح التي يمكن أن تجنيهــا القوى الكبرى في المنطقة. وقدّموا أنفســهم باعتبارهم جزءًا مــن الحضارة الغربية التي نشــأوا في وســطها، وفهموا آليــات عملها؛ وتحدّثوا عــن «عبء الرجل الأبيض» الذي يقوم بغزوه الاســتعماري لتحضير الشــعوب الأخرى والارتقاء بها. وكانوا يعلمون تمامًا، لكنّهم كانوا يتغافلون، أن هذه مجرّد اعتذارية تحمل اسمًا مستعارًا لاستعمار البلدان واستغلالها ونهب خيراتها وامتصاص دماء شعوبها.

عندما التقى هيرتسل برئيس الوزراء البريطاني جوزيف تشمبرلين في عام

(7) انظر: المسيري، الأيديولوجية الصهيونية، ج 1، ص 160.

1902، قال له: إن «قاعدتنا يجب أن تكون في فلسطين، ويمكن أن تكون دولة حاجزة، بحيث تُؤمِّن المصالح البريطانيــة»[8]. وقال في موضع آخر: «إن دولة يهودية في فلســطين أو سورية ســتكون امتدادًا للحضارة الغربية، وحصنًا ضد الهمجية الشرقية»[9].

تحدّث عبد الوهاب المسيري، الخبير بالشــؤون الصهيونية، في مواضع متعدّدة من دراساته عن اســتخدام اليهود كعنصر نافع ضمن الحضارة الغربية؛ إذ كانــت الجماعــات اليهودية تضطلع فــي العصور القديمة بــدور الجماعة الوظيفية (القتالية والأمنية والاســتيطانية)، ثمّ تحوّلت في العصور الوســطى إلى جماعات وظيفيــة تجارية. وتكرّس هــذا المفهوم فــي التاريخ الحديث مع «علمنة» الحضــارة الغربية التي أعادت إنتاج هــذه الرؤية ضمن المنظومة الفكرية والفلسفية الغربية التي تنظر إلى العالم كلّه وجميع مجالات الحياة من منظور المنفعة المادية[10].

تكلم قــادة صهيونيــون كبار آخــرون عن الــدور الوظيفي للمشــروع الصهيوني، أمثال ماكــس نورداو وحاييــم وايزمان وناحــوم غولدمان، فقال غولدمان مثلًا في عام 1947: إن الدولة الصهيونية ستؤسَّــس في فلسطين لأن فلسطين «هي ملتقى الطرق بين أوروبا وآسيا وأفريقيا، ولأنها المركز الحقيقي للقوة السياسية العالمية، والمركز الاســتراتيجي للسيطرة على العالم»، أي إن «إسرائيل» ليست معنية بإنتاج الســلع والمواد الخام، وإنما ستنشأ لأنها ستقدّم شيئًا ثمينًا مغايرًا هو دورها الاستراتيجي الذي يؤمّن السيطرة الغربية، وهو دور ســيكون له مردوده الاقتصادي لكن بصورة غير مباشــرة[11]. وسيكون الدور

(8) وثائق أساســية في الصراع العربي الصهيوني، جمع وإعداد ســمير أيوب، 3 ج (بيروت: دار الحداثة، 1984)، ج 1: مرحلة الإرهاصات 1984، ص 208.

(9) أحمد ســعيد نوفل، دور إســرائيل في تفتيت الوطن العربي، ط 2 (بيــروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2010)، ص 34.

(10) عبد الوهاب المسيري، أســرار العقل الصهيوني (القاهرة: دار الحسام، 1996)، ص 114 و117.

(11) المسيري، أسرار العقل، ص 123.

الوظيفي للجماعة اليهودية المستوطنة في فلسطين دور الحامية في الخطوط الأمامية. لذلك، فإن عددًا من الزعماء الصهيونيين كان يشير إلى رخص تكلفة هذه «الحامية» للمشاريع الاستعمارية الغربية في مقابل قيام الاستعمار الغربي ذاته بعملية الاستعمار نفسها وبكلّ ما يرتبط بها من تكاليف، وبكلّ ما يرتبط بصورة القوى العظمى الغربية «الحضارية» التي تريد أن تسوقّها في وعي العالم ولاوعيه. وأشار إلى هذا المعنى حاييم وايزمان في رسالة كتبها إلى رئيس الوزراء البريطاني تشرشل. أمّا الوزير الإسرائيلي يعقوف ميريدور فركّز في ثمانينيات القرن الماضي على قلّة تكاليف المشروع الصهيوني بالنسبة إلى أميركا مقارنةً بما يمكن أن تجنيه من مكاسب، فقال إن «إسرائيل» تحلّ محلّ عشر حاملات طائرات تبلغ تكاليف تشييدها نحو خمسين مليار دولار. وأضاف أنه لو دفعت أميركا فائدة مقدارها 10 في المئة على تشييد هذه الحاملات وتشغيلها (وهذه نسبة متهاودة)، لبلغت خمسة مليارات دولار. ولأن المعونة الأميركية السنوية لـ«إسرائيل» هي بحدود ثلاثة مليارات، فـ«أين إذن بقية المبلغ؟» كما علق ميرودور بسخرية[12]. أمّا المحرّر الاقتصادي لـ **الجيروزاليم بوست** فأشار إلى أن جوهر المساعدة الأميركية للدولة الصهيونية هو خدمة المصالح الاستراتيجية للولايات المتحدة. ونبّه إلى أن الولايات المتحدة تدفع عشرات المليارات سنويًا لتسديد التزامها تجاه الحلف الأطلسي (الناتو)، وأن مساعدتها العسكرية والمالية لـ«إسرائيل» صغيرة بصورة مضحكة مقارنةً بالمبالغ الأخرى[13].

لا تزال الحكومات الأميركية المتعاقبة تُجدّد التزامها تجاه «إسرائيل»، وتسدّد نحو ثلاثة مليارات دولار سنويًا على صورة معونات عسكرية واقتصادية، وتؤكّد دائمًا تحالفها الاستراتيجي الثابت معها. ويرى خبراء البنتاغون أن دور «إسرائيل» أرخص من أي خيار عسكري أميركي محتمل في المنطقة. ولعلّ تجربة أميركا في العراق عزّزت هذا الاتّجاه، حيث وصلت التكلفة إلى أكثر

(12) المسيري، أسرار العقل، ص 125.

(13) المسيري، أسرار العقل، ص 126.

من مئة مليار دولار سنويًا في الأعوام الأولى لغزوها العراق. وعلى ذلك، فإن دعاوى الزعماء الصهيونيين بخصوص الدور الوظيفي للمشروع الصهيوني كانت تتّسم بالدقة، وأن العقد النفعي بين قادة الحضارة الغربية والمشروع الصهيوني لا يزال نافذًا ولا يزال عائده مرتفعًا[14].

يدخل في هذا السياق ما قاله وزير الخارجية الإسرائيلي أفيغدور ليبرمان في 9/ 2/ 2011، خلال استقباله الأمين العام لحلف شمال الأطلسي (الناتو) أندرس راسموسن (A. Rasmussen) من أن تقلبات الأوضاع الأخيرة في الشرق الأوسط تفرض التعامل معها بصورة غير تقليدية وإدراك أمني مختلف، وأن الحوادث في مصر تؤكّد أن «إسرائيل» هي الحليف الوحيد في الشرق الأوسط للغرب، خصوصًا حلف الناتو[15].

السمة الثانية هي الطبيعة التوسعية للمشروع الصهيوني؛ إذ يصح القول إن مطالب الحركة الصهيونية ركّزت أساسًا على فلسطين، غير أن الأدبيات الصهيونية جاءت متوافقة مع التصوّرات والمزاعم الدينية اليهودية. ففي عام 1898 حدّد هيرتسل منطقة الدولة اليهودية بأنها تمتد من نهر مصر إلى الفرات. أمّا الحاخام فيشمان، عضو الوكالة اليهودية، فقال في أثناء شهادته أمام لجنة التحقيق التابعة للأمم المتحدة في 9/ 7/ 1947: إن «الأرض الموعودة تمتدّ من نهر النيل حتى نهر الفرات». وسجّل هيرتسل في يومياته: «كلّما ازداد عدد المهاجرين، اتسعت رقعة الأرض». وفسّر الحاخامون اختلاف تحديد مساحة الأرض الموعودة في نصوص التوراة بأن الأرض كجلد الإبل ينكمش في حالة العطش والجوع ويتمدّد في حالة الشبع، والأرض المقدّسة تنكمش إذا هجرها ساكنوها وتتمدّد إنْ جاؤوها من بقاع الأرض[16].

لذلك، لم تعلن القيادة الصهيونية دستورًا للكيان الإسرائيلي حتى لا تضطر إلى تحديد مساحة الأرض، ولتترك مجالًا للتوسع، وحتى لا تقع

(14) انظر: المسيري، أسرار العقل، ص 127.

(15) *The Jerusalem Post*, 9/2/2011, <http://www.jpost.com>.

(16) المسيري، الأيديولوجية الصهيونية، ج 1، ص 176-178.

في إشــكالات بين أطياف ومــدارس المشــروع الصهيوني الدينيــة والقومية والاشــتراكية... في هذا الموضوع. وتاليًا، فرّق الصهيونيون بين ما يســمّونه «إريتس يســرائيل»، أيْ «أرض إســرائيل»، و«دولة إســرائيل» التــي لا تُمثّل بالضرورة كلّ «أرض إسرائيل».

عندما طرح قادة المشروع الصهيوني تصوّرهم للدولة اليهودية في مؤتمر الصلح في فرســاي في عام 1919، قدّموا خريطة تضمّ فلسطين كلها وجنوب لبنان وأجزاء من جنوب غرب ســورية وأجزاء من شرق الأردن. وعندما قامت بريطانيا بفصل شــرق الأردن عن فلســطين لتطبيق وعد بلفور في عام 1925، رأى العديــد من القادة الصهيونييــن ذلك خيانة من بريطانيــا وتقليصًا لحدود الوطن القومي اليهودي. وعندما صدر قرار تقســيم فلســطين في عام 1947 بإنشــاء دولة لليهود علــى نحو 54 في المئــة من أرض فلســطين، لم تكتفِ العصابات الصهيونيــة بذلك، بل احتلت 77 في المئة من أرض فلســطين في حرب 1948. ثــمّ إن الكيان الصهيونــي قام باحتلال باقي فلســطين في عام 1967. وعلى الرغم مــن أن العالم كلّه يعدُّ الضفة الغربيــة وقطاع غزة أرضًا محتلّة، فإنّ «إســرائيل» تتعامل معها، في أحســن الأحــوال، كأراض متنازع عليها. لذلك، على الرغم من وجود مشــروع تســوية ســلمية، واتفاق أوسلو وما تلاه، واصلت «إسرائيل» مشــاريع تهويد القدس ومصادرة الأراضي وبناء المستعمرات واســتجلاب المســتوطنين اليهود، خصوصًا في الضفة الغربية؛ حتى وصل عددهم إلى أكثر من 560 ألف مستوطن في مطلع عام 2012 بعد أن كان نحو 180 ألفًا عند توقيع اتفاق أوسلو.

حتى عام 1992، كان تكتّل الليكود يضع في برنامجه الانتخابي أن الأردن هو أراض إســرائيلية محتلّة. ولا تزال تتردّد على ألســنة العديد من المتطرفين المتدينيــن واليمينيــن الصهيونيين مقولات عــن الحقوق الدينيــة والتاريخية اليهودية في فلسطين والأردن وغيرهما.

من المؤكد أن الفكر التوســعي الصهيوني يمسّ بدرجة كبيرة دول الطوق المحيط بـ«إسرائيل»، إضافةً إلى العراق وشمال السعودية وحتى الكويت، كما

تظهر بعض الخرائط الصهيونية. وهذا يعني أن الخطر الصهيوني لا يَنصبُّ على فلسطين فحسب، وإنّما قد يتّسع بناءً على ما قد يُتاح من ظروف وإمكانات ليحتل مناطق مجاورة، كما حدث في احتلاله سيناء المصرية في الفترة 1967-1982، واحتلاله جنوب لبنان في الفترة 1978 - 2000، واحتلاله الجولان السورية منذ عام 1967.

من جهة أخرى، أدت المدركات الصهيونية لحقائق الواقع على الأرض إلى سلوك أكثر براغماتية واستجابة للإمكانات الذاتية، وللمعادلات الإقليمية الدولية، وهو ما كان يعني عمليًا تبنّي خطّ عام يركّز على ما يمكن تحقيقه لا على ما يُرغب في تحقيقه. وعلى أي حال، فإنّ الخطّ البراغماتي كان ولا يزال أصيلًا في الفكر الصهيوني الذي يحرص على ألّا يكشف جميع أوراقه دائمًا. وهناك إجماع حاليًا على الانكفاء داخل الحدود التاريخية لفلسطين، وثمّة خلاف على ما يمكن الانسحاب منه من مناطق الضفة الغربية، وعلى طبيعة الحكم وصورة السيادة التي ستُعطَى للفلسطينيين.

إن تراجع المشروع الصهيوني التوسّعي لا يعود إلى أن هذا المشروع فَقَدَ هذه السمة من سماته، وإنما إلى أن ظروف الواقع أملت عليه ذلك، ومن أبرزها:

- صمود الشعب الفلسطيني، وقوة المقاومة الفلسطينية واستمرار انتفاضتها، وتضحيات الشعب الفلسطيني الكبيرة، خطّ الدفاع الأول عن الأمّة العربية والإسلامية.

- قوة المقاومة اللبنانية التي أجبرت الكيان الإسرائيلي على الانسحاب من الجنوب اللبناني.

- نضوب مصادر الهجرة اليهودية، وعدم الحاجة إلى التوسّع الذي قد يحمل أخطار الذوبان في المحيط العربي، والتحوّل إلى أقلية في وسطه ما يجعلها غير قادرة على الحكم والتحكّم، ولا على الاحتفاظ بهوية الدولة اليهودية.

- الصعوبة الشديدة للقيام بعمليات تطهير عرقي واسعة وعمليات تهجير، كما حدث في عام 1948، أكان بسبب صمود الشعب الفلسطيني أم بسبب الصعوبات العملية الناتجة من عدم القدرة على فعل ذلك في أجواء الإعلام المفتوح ووسائل الاتّصال الحديثة، أم بسبب عدم وجود غطاء دولي لهذه الدرجة من الممارسات.

- رغبة الكيان الصهيوني في التحوّل إلى كيان طبيعي في المنطقة، وفي بناء علاقات سلمية مع الأنظمة العربية «المعتدلة»، وفي عدم إثارة حالات عداء معها قد تؤدّي إلى سقوط هذه الأنظمة، وانفتاح جبهات مقاومة أوسعَ على الحدود مع هذا الكيان.

وتاليًا، منذ أن قام الكيان الصهيوني بتوقيع اتفاقات التسوية مع مصر في عام 1978، ومع منظّمة التحرير الفلسطينية في عام 1993، ومع الأردن في عام 1994، أخذ فكر الهيمنة والتوسع الصهيوني ينحسر عن الاحتلال والتوسّع الفيزيائي، من خلال الجيوش والقوات العسكرية والحكم المباشر، إلى التوسّع والهيمنة الاقتصاديين والسياسيين في المنطقة، وهو ما أشار إليه عدد من مفكّري الصهيونية المعاصرة، على رأسهم شمعون بيرس في كتابه **الشرق الأوسط الجديد**. وهي النظرية التي أثبتت فشلها حتى الآن، أكان بسبب رفض الشعوب العربية والإسلامية التطبيع مع «إسرائيل»، أم بسبب المقاومة الفلسطينية وانتفاضاتها التي كانت تكشف دائمًا الوجه البشع للمشروع الصهيوني ومعاناة الشعب الفلسطيني تحت الاحتلال، أم بسبب السلوك الإسرائيلي الفوقي والمتعجرف الذي لا يجلب لنفسه إلّا مزيدًا من العزلة والعداء.

ثانيًا: الأهداف والمصالح الإسرائيلية في النظام العربي

تتمحور الأهداف والمصالح الإسرائيلية في العالم العربي بتقديم حلول لإشكالية وجودها بالقوة في بيئة عربية وإسلامية معادية، وما يرتبط من تحقيق ضمانات لبقائها واستمرارها، وفي ذلك الحفاظ على عناصر القوة والأمن والاقتصاد التي تؤمّن لها أسباب الحماية وأسباب الازدهار، بحيث

تظلّ نقطة جذب للجماعات اليهودية، ومركزًا تعتمد عليه القوى الكبرى المتحالفة معها.

لعل أبرز الأهداف والمصالح الإسرائيلية في النظام العربي هو استمرار حالة الضعف العربي، بما يضمن استمرار الاختلال في موازين القوى بين «إسرائيل» والبلدان العربية.

هناك إجماع بين القادة الصهيونيين على أن قوّة «إسرائيل» وتفوّقها العسكري هما الضمانة الأساسية لبقائها. ولا مجال هنا للاستطراد في الاستشهادات الكثيرة، لكنّنا نشير إلى كلمة رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو في مجلس الوزراء الإسرائيلي، نشرت جريدة الجيروزاليم بوست مقتطفات منها؛ حيث قال إن الحوادث والتغيرات في العالم العربي هي بمنزلة تذكير قاس لبلاده بظروف الجوار غير الرحيمة التي وجدت «إسرائيل» فيها نفسها. وأكّد نتنياهو أنّه لن يضمن استمرار «إسرائيل» وبقاءها على وجه الحياة في هذه المنطقة سوى «القوة والعظمة»[17]. وفي حفلة تنصيب بِني غانتس رئيسًا جديدًا لهيئة أركان الجيش الإسرائيلي خلفًا لغابي أشكينازي في 14/ 2/ 2011، قال نتنياهو: «إن السند الحقيقي الوحيد لقدرتنا على تعزيز وجودنا هنا، وعلى إقناع جيراننا ليكونوا معنا في السلام، هو جيش الدفاع، هو الضمانة الحقيقية لتأمين مستقبلنا»[18].

لضمان هذا الوضع، اعتمد المشروع الصهيوني على تحالفاته مع القوى الكبرى التي تزوّده بعناصر القوة في مقابل الدور الوظيفي الذي يقوم به؛ فمنذ أيام الاحتلال البريطاني لفلسطين، أوجد البريطانيون الظروف الملائمة لإنشاء القوات العسكرية الصهيونية ودعموا تلك القوات بصور مختلفة، بينما قمعوا الثورات العربية بكل قسوة، وسعوا إلى تجريد أبناء فلسطين من جميع عناصر القوة. وفي حرب 1948، لقيت القوات الصهيونية دعمًا مسلّحًا دوليًا، أكان من المعسكر الرأسمالي الذي تقوده أميركا، أم من المعسكر الاشتراكي الذي

---

(17) *The Jerusalem Post*, 5/2/2012.

(18) الحياة (لندن)، 15/ 2/ 2011.

كان الاتحاد السوفياتي يقوده، بينما حُرم الفلسطينيون والجيوش العربية من الحصول على أسلحة نوعية ملائمة للقتال.

حاولت البلدان العربية اللعب على النظام الثنائي القطبية في الفترة 1945 - 1990 لتسليح نفسها ورفع إمكاناتها، لكن صفقات الأسلحة التي كانت تأتي من روسيا وحلفائها لم ترقَ إلى مستوى الحاجات العربية، خلافًا لأفضل الأسلحة المتقدمة التي كان الكيان الإسرائيلي يتلقّاها من أميركا وحلفائها. وهذا ينطبق بصورة صارخة على حرب 1967، وحتى على حرب 1973. وربّما تشير «المذبحة» التي تعرّض لها الطيران العسكري السوري عند الاجتياح الإسرائيلي للبنان في عام 1982، حين دُمرت أكثر من مئة طائرة في مقابل خسائرَ لا تكاد تُذكر في الجانب الإسرائيلي، إلى مدى البون الشاسع المتزايد لموازين القوة العسكرية بين «إسرائيل» والعرب.

في عام 1982، وقّعت «إسرائيل» والولايات المتحدة اتفاقًا استراتيجيًا يضمن التفوّق العسكري الإسرائيلي على جميع البلدان العربية في حالة نشوب حرب بين الطرفين. ولا تزال الولايات المتحدة ملتزمة هذا الاتفاق.

منذ بدء سريان اتفاق كامب ديفيد في عام 1979 وحتى عام 2012 حصلت «إسرائيل» على دعم أميركي عسكري واقتصادي يزيد على 102 من ملايين الدولارات، بمعدّل يزيد على ثلاثة مليارات دولار سنويًا. وبينما كان هذا الدعم عادة ينقسم سنويًا إلى شقّ عسكري مقداره 1.8 مليار دولار، وشقّ اقتصادي مقداره 1.2 مليار دولار، وتقرّر في عام 1998 أن يُخفّض الدعم الاقتصادي لمصلحة زيادة الدعم العسكري بمتوسّط قدره 120 مليون دولار سنويًا، إلى أن يصبح المبلغ كلّه دعمًا عسكريًا بعد عشرة أعوام (أي في عام 2008)[19].

(19) انظر: التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة 2008، تحرير محسن محمد صالح (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2009)، ص 92، والتقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة 2011، تحرير محسن محمد صالح (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2012)، ص 84.

إن التحالف العسكري الأميركي مع «إسرائيل» لم يشمل مجرّد دعمها بمبالغ مالية لمشاريع عسكرية فحسب، وإنّما تزويدها الأسلحة النوعية التي تحتاج إليها والتي تمكنها من حسم أي معركة مع أي طرف في الشرق الأوسط؛ ومن ذلك الطائرات الحربية وطائرات الهليكوبتر والصواريخ وأسلحة المدفعية. كما فتحت أمامها جميع آفاق التعاون في مجالات التكنولوجيا العسكرية، وفي ذلك أنظمة القبّة الحديدية والدبابات... وغيرها.

في المقابل، لا تحصل البلدان العربية، ومن ضمنها أنظمة «الاعتدال» المتحالفة مع أميركا، على أي أسلحة يمكن أن تشكّل تحديًا لـ «إسرائيل»، إذ تباع هذه الأسلحة لها ضمن شروط قاسية، وبمواصفات ومزايا أقل من تلك التي تزوّد بها الأسلحة الإسرائيلية، كما يحدث مثلًا في صفقات الطائرات؛ وعادة تتسلّم «إسرائيل» أجيالًا من الأسلحة أكثر تطوّرًا من تلك التي تباع للبلدان العربية.

أمّا الدول المتحالفة مع الولايات المتحدة، كبريطانيا وفرنسا وألمانيا، فهي تلتزم عادة الشروط والمعايير الأميركية، بينما تتجنّب روسيا والصين إغضاب الولايات المتحدة في ما يتعلّق بتزويد البلدان العربية أسلحة نوعية متقدّمة، فضلًا عن أنها هي نفسها متخلفة عسكريًا قياسًا بالتكنولوجيا والإمكانات الأميركية.

من الصعب حصر عدد المرّات التي يؤكّد فيها الزعماء الأميركيون التزامهم أمن «إسرائيل» وتفوّقها؛ إذ إن أمن «إسرائيل» واستقرارها وقوّتها تمثل حجر الزاوية في سياسة أميركا في الشرق الأوسط، وهي من ثوابتها السياسية والاستراتيجية منذ أن ورثت الهيمنة على المنطقة بعد انسحاب الاستعمار البريطاني منها.

تمتلك «إسرائيل» ترسانة من الأسلحة الكيميائية والبيولوجية المدمّرة. كما أنها طوّرت إمكاناتها النووية طوال العقود الخمسة الماضية تحت غطاء وفّرته لها القوى الغربية العظمى. ويقدّر الخبراء امتلاك «إسرائيل» أكثر من 200 قنبلة نووية تكفي تدمير معظم مدن العالم العربي والإسلامي. ومع أن «إسرائيل»

ترفض إعلان إمكاناتها النووية وغير ذلك من الأسـلحة غير التقليدية، فإن هذه الأسلحة أصبحت «الصامت الفصيح» الذي يعرفه الجميع.

بالتأكيد، يضمن امتلاك «إسرائيل» الأسلحة النووية فارقًا هائلًا في موازين القوى مع البلدان العربية، غير أن «إسـرائيل» تسابق الزمن لعدم امتلاك أي من البلدان العربية والإسلامية هذه الأسلحة، لذلك تشغل العالم بما يُعرف بالملف النووي الإيراني من دون أن تسمح لأحد أن ينتقد ما لديها من إمكانات.

من جهة أخـرى، لم يوفّر الإبقاء على الاختـلال الهائل في موازين القوى الأمان ولا الاسـتقرار لـ «إسـرائيل» مع بروز قـوى المقاومة العسـكرية غير النظامية في داخل فلسـطين وفي لبنان، ولا ينفع معها اسـتخدام معظم وسائل التفوّق العسكري الإسـرائيلي، حيث البيئة الجغرافية المتداخلة، وحيث يصعب التعامل مع عدوّ محدّد ومكشوف. فالتغيرات والثورات في المنطقة العربية، إذا ما استمرت في الاتّجاه الصحيح، سـتفتح مجال اختراق في معادلة الصراع، قد يتطوّر ليمسَّ جوهر المشروع الصهيوني. لذلك، هناك خشية إسرائيلية بالغة من احتمالات تغيّر موازين القوى التي سعت إلى تثبيتها طوال أكثر من ستّين عامًا.

قـال رئيس الوزراء الإسـرائيلي السـابق ووزير الدفاع إيهـود باراك: إن «إسـرائيل تواجه زلزالًا إقليميًا»[20]. وعندما قال رئيس الوزراء الحالي نتنياهو إن «إسـرائيل» هي «واحة الاسـتقرار في بحر هائج»؛ علّق عليه رئيس الكيان الإسرائيلي بيرس نفسه قائلًا: «إنها حتى لو كانت كذلك، يُفضَّل أنْ يهدأ البحر، لأن البحر هو الذي يؤثّر في الواحة، وليس العكس»[21]!! أمّا شـاؤول موفاز، رئيس لجنـة العلاقات الخارجية في الكنيسـت، فرأى أن مـا حدث في مصر وتونس هو «إنذار استراتيجي لإسـرائيل»[22]، بينما وصف الوزير موشيه يعلون ما يحدث بأنّه «زلزال تاريخي»[23].

(20) وكالة أنباء الشرق الأوسط، 23/ 3/ 2011.

(21) تصريح لبيرس نشرته إذاعة صوت إسرائيل في 9/ 3/ 2011.

(22) القدس العربي (لندن)، نقلًا عن إذاعة صوت إسرائيل، 31/ 1/ 2011.

(23) اليوم السابع، نقلًا عن إذاعة صوت إسرائيل، 21/ 2/ 2011.

لعل المحلّلة الإسـرائيلية أمونة ألون قدّمت وصفًا مُعبّرًا عندما قالت: «إن العالم العربي ينقلب رأسًـا على عقب، وهكذا «إسرائيل» أيضًا، فالأرض التي تهتزّ تحت الدول المجاورة تهتزّ تحت «إسـرائيل» أيضًـا. ويكفي النظر في ما يحصل الآن في الشرق الأوسـط كي نفهم أنّنا لا نفهم شيئًا»! وأكّدت أن عصر التعالي الإسرائيلي على العرب قد انتهى[24].

1 - تشجيع حالة الانقسام في المنطقة العربية والعمل على إحداث مزيد من التفتيت على أسس طائفية وعرقية

إذا كانت الوحدة هي أحد أهمّ مؤشّرات النهوض العربي، فإنها هي نفسها أحد أكبر المؤشّـرات إلى المخاطر المحتملة التي يمكن أن تواجه المشـروع الصهيوني. إن استجماع المكوّنات وطاقات الأمّة العربية والإسلامية، خصوصًا فـي المنطقة المحيطة بفلسـطين، تحت قيـادة وطنية مخلصـة، تملك الرؤية وتملك برنامج عمل فاعل، يمثل أحد شـروط تغيير معادلة الصراع مع الكيان الصهيوني. وليس المجال هنـا لنقاش الوحدة الواجبة: هل هـي اندماجية أو فدرالية أو كونفدرالية أو مبنية على التكامل والتنسـيق المشترك؛ فالمهمّ حُسن استثمار طاقات الأمّة وتحديد أولوياتها واستفراغ طاقتها في عملية التنمية وبناء عناصر القوّة.

إن حالة الانقسـام العربي، ونشـوء الدول القُطرية في المنطقة، ونشـوء الحواجز والصراعات في مـا بينها، وغلبة الهموم المحلية على شـؤون الأمة الأوسع، وما رافق ذلك من دكتاتورية وفساد، كل ذلك أثّر في قدرة هذه البلدان على مواجهة العدوّ الإسرائيلي المشترك.

الجانب الإسـرائيلي معني تمامًا بإبقاء حالة الانقسام والتجزئة، وبالعمل على مزيد من التفتيت للمنطقة على أسـس طائفية وعرقية، بحيث يتحوّل هذا الكيان إلى طائفي عرقي يهودي «طبيعي» بيـن الكيانات الطائفية والعرقية التي

---

(24) انظر: أمونة ألون، «الإسـلام والفيس بـوك،» القدس العربـي، 23/ 2/ 2011، نقلًا عن: إسرائيل اليوم، 23/ 2/ 2011.

يسعى إلى إيجادها في المنطقة، أكانت سنية أم شيعية أم مسيحية أم درزية أم علوية...

اهتمّ المسؤولون الصهيونيون بمسألة الأقليات في العالم العربي، وادّعوا أن الحدود التي رُسمت للمنطقة في إثر الحرب العالمية الأولى لم تكن أمينة، وظلمت الأقليات العرقية والطائفية. ومن الدراسات المتميزة التي كشفت المشاريع والخطط الإسرائيلية لتفتيت الوطن العربي، الدراسة المهمّة لأحمد سعيد نوفل، التي استفدنا منها في دراستنا هذه. فمنذ ما قبل قيام الكيان الإسرائيلي كان هناك اهتمام صهيوني بمشاريع التفتيت والتقسيم؛ إذ دعا جابوتنسكي مثلًا إلى إيجاد دويلات طائفية عرقية تحيط بالكيان الصهيوني، ويهيمن عليها[25]. واتّصلت الحركة الصهيونية منذ أواخر ثلاثينيات القرن الماضي ببعض الأقليات في لبنان والعراق من أجل حضّها على التمرّد والانفصال؛ واتّصل كلّ من يورام نمرودي وأوري لوبراني (سفير سابق في إيران وتركيا) ومردخاي بن فورات وشوشانا أربيلي بالأكراد في العراق، وإيلياهو ساسون وإيسر هارئيل (رئيس جهاز الموساد) بالأقليات في سورية ولبنان[26].

وها هو بن غوريون الذي تولّى رئاسة الوزراء في «إسرائيل» من أيار/مايو 1948 حتى كانون الثاني/يناير 1954، ومن تشرين الثاني/نوفمبر 1955 حتى حزيران/يونيو 1963 يرى في التكوينات العرقية والطائفية في البلدان العربية فرصةً للمساهمة في تضخيم الخلافات، لتتحوّل في النهاية إلى معضلات يصعب حلّها أو احتواؤها. وطالب بن غوريون بوضع مخطّط عُرف في ما بعد بـ«استراتيجية الأطراف» أو استراتيجية شدّ الأطراف، وكان واضع المخطط رؤوبين شيلوح، الموظّف في الخارجية الإسرائيلية، ويقضي بتطوير علاقات «إسرائيل» بالدول الأجنبية (غير العربية) المحيطة بالبلدان العربية مثل إيران وتركيا وإثيوبيا، لتكون مصادر ضغط على البلدان العربية وتهديد

(25) نوفل، ص 56.

(26) نوفل، دور اسرائيل.

لها، ولإبقاء بـؤر الصراع قائمة في مـا بينها[27]. وطوّرت هذه الاسـتراتيجيا لتصبح اسـتراتيجية «شـدّ الأطراف ثم بترها» من خلال التركيز على التعامل مع الأقليات وتشـجيعها علـى الانفصال. وسـبق لآريئيل شـارون[28] وقبل الغزو الذي قاده إلى لبنان ببضعة أشـهر (عندما كان وزيرًا للدفاع)، أن ذكر أن الأوضاع مواتية لتحقيق مشروع تفتيت الدول العربية وبسط الهيمنة الإسرائيلية على المنطقة. وتحدّث عن الصراع المحتمل بين الشـيعة والسنّة والأكراد في العراق، وبين السنّة والعلويين في سـورية، وبين الطوائف المتناحرة في لبنان، وبين الفلسـطينيين والبدو في شرق الأردن، وبين السـنّة والشيعة في المنطقة الشرقية من العربية السعودية، وبين المسلمين والأقباط في مصر، وبين الشمال المسـلم والجنوب الوثني والمسيحي في السـودان، وبين العرب والبربر في المغرب العربي الكبير[29].

من الدراسات الخطِرة في هذا الإطار دراسـة عوديد ينون، الموظّف في الخارجية الإسرائيلية، بعنوان «استراتيجية إسرائيل في الثمانينيات»، حيث تركز على تجزئة العالم العربي وإضعافه[30]. أمّـا المفكّر الصهيوني يحزقئيل درور، فتحدّث في كتاب **سـتراتيجيا عظمى لإسـرائيل** في عـام 1990 عن تقويض الكيانات العربية وإسـقاطها وتفتيتها، وإثارة الحـروب والنزاعات في ما بينها، وتفتيـت المجتمعات العربية من الداخل عن طريق دعـم الأقليات غير العربية وغير المسلمة[31].

من المفكّرين الكبار الذين دعوا إلى تفتيت العالم العربي المؤرّخ اليهودي الصهيوني المعروف برنارد لويس الذي كان له تأثير مهمّ في مدرسة المحافظين الجدد الأميركيين وفي الرئيس جورج بوش الابن نفسه. وبنى الكاتب الأميركي رالف بيترز (R. Peters) على دراسـات لويس، ودعا إلى تقسيم الشرق الأوسط

(27) نوفل، ص 57.

(28) انظر مقابلة أريئيل شارون مع صحيفة معاريف، 18/ 12/ 1981.

(29) نوفل، ص 65.

(30) نوفل، ص 66-68.

(31) نوفل، ص 59-60.

في مقالته «حدود الدم» التي نشرها في مجلّة القوات المسلحة الأميركية *Armed Forces Journal* في حزيران/ يونيو 2006[32].

كتب الكاتب الإسرائيلي المعروف ورئيس تحرير هآرتس ألوف بن مقالة طويلة في الصحيفة نفسها في 25/ 3/ 2011، في بدايات الثورات والتغيرات العربية، بعنوان هو أقرب إلى اللافتات التي تضعها الشركات لتنبيه المارّة والزائرين بأن المكان قيد البناء والإنشاء أو الإصلاح، حيث ينبّه إلى أن منطقة الشرق الأوسط تشهد العملية نفسها[33]. وقال إن الخرائط التي رُسمت لها قبل نحو مئة عام تشهد الآن إعادة تحديث لتُظهر دولًا جديدة كجنوب السودان وكردستان وفلسطين، وربّما برقة في شرق ليبيا، وجنوب اليمن، كما ستتفكّك الإمارات العربية المتحدة، مع احتمال تقسيم السعودية بانفصال منطقة الحجاز عن مناطق النفط في الشرق، كما قد تنقسم سورية إلى دويلات سنّية وعلوية ودرزية. وبحسب ألوف بن، فإن هذه الدول تشكّلت من دون رغبة مكوّناتها، وأنّه سيترك الآن الخيار لإعادة تعريف نفسها.

أضاف ألوف بن أيضًا أنه بقدر ما يزداد عدد الدول في المستقبل تسهل على «إسرائيل» المناورة والتعامل معها. وقال إن إعادة تشكيل الخريطة بدأت مع الغزو الأميركي للعراق، واستمرت مع الانسحاب الإسرائيلي من غزة، ومع تقسيم السودان. وقال إن بلدانًا أخرى كالأردن وعُمان قد تتفكّك. ونوّه بأن الغرب، مثل «إسرائيل»، يفضّل الشرق الأوسط متشظيًا ممزّقًا ومنشغلًا بصراعاته، وتقاتل أنظمته على جبهات عدّة ضد الوحدة العربية وضد الوحدة الإسلامية. ولذلك، بحسب ألوف بن، ليس من المتوقّع أن يسعى الغرب إلى إفشال عمليات التقسيم في المنطقة، لكنّه سيسعى، على العكس، للمساهمة فيها. ودعا بن في نهاية مقالته إلى سياسة إسرائيلية ذكية للاستفادة من الفرص المتاحة للتحكّم في مسارات الحوادث، وزيادة قوة «إسرائيل» وتأثيرها في المنطقة.

---

(32) Ralph Peters, «Blood Borders: How a Better Middle East would Look,» *Armed Forces Journal* (June 2006), <http://www.armedforcesjournal.com/2006/06/1833899>.

(33) Aluf Benn, «Caution: Middle East under Construction,» *Haaretz*, 25/3/2011, <http://www.haaretz.com/weekend/week-s-end/caution-middle-east-under-construction-1.351743>.

ليس ضـــرورة أن تســـتجيب المنطقـــة العربيـــة للمخطّطـــات والرغبات الإســـرائيلية والغربية، لكن من المهمّ أن تنتبه الجماهيـــر العربية الثائرة وقادتها إلى المخطّطات التـــي تحاك لها، وإلى المصايد الطائفيـــة والعرقية التي توضع في طريقها، حتى تتعامل معها بالحكمة والحزم اللازميْن وبدرجة المســـؤولية التاريخية المطلوبـــة، خصوصًا أن الأوضاع الثورية وحـــالات التحوّل تضعف عادة الحكـــم المركزي، وتدخل البـــلاد في مراحل انتقالية قد يســـتغلّها بعض الأطراف بغية جني مكاسب طائفية أو عرقية ضيقة.

2- السعي للوصول إلى معاهدات تسوية سلمية منفردة مع البلدان العربية وتحييدها عن عملية الصراع

سعت «إسرائيل» للوصول إلى معاهدات تسوية سلمية، خصوصًا مع بلدان الطوق، وتحديدًا مصر لإخراجهـــا من معادلة الصراع العربي - الإســـرائيلي. وســـعت أيضًا إلى إفقاد قضية فلســـطين بُعديْها العربي والإسلامي، إضافة إلى بُعدها الدولي، لتتمكن من فرض شـــروطها على الشعب الفلسطيني، ولتضمن لنفسها التحكم بمسار التســـوية مع الجانب الفلسطيني. وبالطبع، فإن معاهدات التســـوية تضمن لـ «إســـرائيل» حدودًا هادئة وأمانًا إزاء عمليـــات المقاومة من محيطهـــا العربي، وتوفر لهـــا فرصًا أفضـــل للتعامل مع الداخل الفلســـطيني، واستقرارًا يسمح لها بتطوير إمكاناتها وقدراتها الاقتصادية ويجعلها بيئة جذب ليهود العالـــم. كما يوفر لها فرصة لتطبيع علاقاتهـــا بمحيطها العربي، وتُحوّلها إلى حقيقة واقعة على الأقل، هذا إن لم تســـتطع التحـــوّل إلى كيان طبيعي في المنطقة.

حرصت الأنظمة العربيـــة فترة طويلـــة أن تكون معاهداتها الســـلمية مع «إســـرائيل» ضمن صفقة تضمن على الأقل اســـتعادة الأرض المحتلّة في عام 1967 وإقامة دولة فلسطينية عليها، مع ضمان حقّ العودة للاجئين الفلسطينيين. وهذا كان جوهر مشاريع التسوية العربية بعد حرب 1967، وفي ذلك ما عُرف بمشروع فاس أو مبادرة الأمير (الملك لاحقًا) فهد في عام 1981، أو ما عُرف

بالمبادرة العربية أو مبادرة الأمير (الملك لاحقًا) عبد الله في عام 2002، والتي لا يزال الطرف العربي يتبنّاها على الرغم من تجاهل «إسرائيل» لها.

أمّا «إســرائيل» فحرصت على أن تفصل معالجة الملف الفلســطيني عن مشــاريع التســوية مع البلدان العربية، كما حرصت على عقد معاهدات تسوية مع كلّ بلد عربي على حدة، وفضلت المفاوضات المباشــرة من دون الاحتكام إلى القوانين والقرارات الدولية. ونجحت «إســرائيل» في عقد معاهدتي تسوية مع مصر في عام 1978، ومع الأردن في عام 1994. وتمكّنت تاليًا من تحييد أكبر قوّة عربية، وأطول جبهتين للصراع معها. وعنت التســوية مع مصر عمليًا انتهاء الحروب النظامية العربية - الإســرائيلية التي كان آخرها في عام 1973، وأضعف ذلك قدرة باقي الدول العربية على المواجهة مع «إسرائيل» أو الدعم الفاعل للقضية الفلسطينية، كما أدخل الفلسطينيين في مسارات وتحديات صعبة مع خسارة الظهير العربي الأكبر.

خلال تسعينيات القرن العشرين، نجحت «إســرائيل» في اختراق المنطقة العربية وإنشــاء علاقات ومكاتب تجارية لها في موريتانيــا والمغرب وتونس وقطر وعُمــان. غير أن اندلاع انتفاضة الأقصــى (2000 - 2005)، والحرب الإســرائيلية على لبنان في عام 2006 وعلى غزة في أواخر عام 2008 ومطلع عام 2009، وتعطّل مسار التسوية السلمية وفشله، كلها عوامل أدّت إلى تراجع موجة التطبيع وإغلاق عدد من المكاتب الإسرائيلية.

جاءت الثورات العربية لتفــرض واقعًا جديدًا يدعم بصورة أقوى حركات المقاومة ويقــاوم التطبيع. لذلك، ما إنْ بدأت هذه الثــورات حتى نقلت إذاعة الجيش الإسرائيلي عن مصادر رفيعة في مكتب نتنياهو قولها إن قلقًا كبيرًا يسود دوائر صنع القرار في تل أبيب[34]. وأعطت المخاوف الإســرائيلية من احتمال إلغاء اتفاق كامب ديفيد وانتهاء مشــروع التسوية مع مصر إشارات إلى الأهمية البالغة للاتفاق من وجهة النظر الإسرائيلية؛ إذ أكّد نتنياهو في بيان له أن معاهدة

---

(34) القدس العربي، 31/1/2011.

السلام بين «إسرائيل» ومصر عادت «بنفع كبير على البلدين، وهي حجر الزاوية للسلام والاستقرار في الشرق الأوسط كلّه»[35]. وعاد نتنياهو للإشادة في وقت لاحق بمعاهدتيْ السلام الموقّعتين مع مصر والأردن، واصفًا إياهما بأنّهما «ذخر استراتيجي»[36].

وعبّر نتنياهو خلال اللقاء الذي عقده في 11/ 4/ 2011 مع سفراء الاتحاد الأوروبي في القدس عن خوفه من أن تكون سياسة الحكومة المصرية الجديدة معادية لـ «إسرائيل»[37]. وشدّد دان مريدور، نائب رئيس الوزراء الإسرائيلي والوزير المسؤول عن الأجهزة الاستخبارية وعن لجنة الطاقة النووية، في 26/ 6/ 2012 على مصلحة «إسرائيل» في الحفاظ على معاهدة السلام مع مصر، بوصفها «ركنًا من أركان الاستقرار في المنطقة بأسرها»[38]. وبهذا المعنى تحدّث رئيس هيئة أركان الجيش الإسرائيلي غانتس في 26/ 8/ 2011، مؤكّدًا أن السلام مع مصر ذو أهمية استراتيجية كبيرة لـ «إسرائيل»[39].

حتى الزعيمة في المعارضة الإسرائيلية رئيسة حزب العمل شيلي يحيموفيتش قالت إن «السلام مع مصر له أهمية استراتيجية كبيرة، وعلى إسرائيل أن تقوم بكلّ ما في وسعها للمحافظة على العلاقات السلمية مع مصر»[40].

يتضح ممّا سبق أن «إسرائيل» حريصة على استمرار معاهدات التسوية التي عقدتها، لما لها من قيمة استراتيجية في علاقاتها بالمحيط العربي. غير أن الإسرائيليين فشلوا بصورة عامّة في تقديم مشروع تسوية يمكن أن توافق عليه

---

(35) الحياة الجديدة، 13/ 2/ 2011.

(36) وكالة سما الإخبارية، 28/ 12/ 2011.

(37) *Haaretz*, 17/4/2011.

(38) القدس العربي، 26/ 6/ 2012.

(39) موقع عرب 48، 27/ 8/ 2011.

(40) وكالة سما، 24/ 6/ 2012، <http://www.samanews.com>.

وانظر: *The Jerusalem Post*, 25/6/2012, <http://www.jpost.com/DiplomacyAndPolitics/Article.aspx?id=275088>.

الدول العربية، حتى وهي في أضعف حالاتها وأسوئها. وتعمّد الإسرائيليون أسلوب إدارة الصراع لا حلّ الصراع. وأغراهم الضعف العربي بمزيد من العنجهية وإجراءات التهويد وبناء الحقائق على الأرض. غير أن تبدُّل الأوضاع قد يُظهر أن الإسرائيليين خسروا «فرصتهم الذهبية» بعد أن فقدت عملية التسوية معناها كما فقدت «زبائنها». ليس هذا فحسب، وإنّما سيزيد الأمر تعقيدًا بالنسبة إلى الإسرائيليين أن مجتمعهم الصهيوني في فلسطين المحتلّة يزداد ميلًا نحو الاتجاهات الدينية واليمينية، كما أن الإسرائيليين يفتقدون رؤية موحّدة لكيفية حلّ الصراع مع الفلسطينيين والعرب. هذا فضلًا عن أن غرور القوة العسكرية لايزال يساهم في إفساد الحسابات السياسية الحالية والمستقبلية لهم.

3- الاستفراد بالفلسطينيين وعزلهم عن محيطهم العربي والإسلامي

سعى المشروع الصهيوني إلى حصر دائرة صراعه في الفلسطينيين وحدهم، لتخفيف بيئة العداء الواسعة التي وجد نفسه فيها. وهذه النقطة مرتبطة بالنقطة السابقة من حيث عمل معاهدات التسوية. والاستفراد بالفلسطينيين يهدف إلى:

- عزل فلسطين عن محيطها العربي والإسلامي.

- تسهيل تنفيذ المشروع الصهيوني في تهويد فلسطين، من خلال إمكاناته العالية المدعومة من قوى كبرى عالميًا، في مواجهة الشعب الفلسطيني المحدود الإمكانات والقدرات.

- فرض مشاريع تسوية على الفلسطينيين وإنهاء الملف الفلسطيني وفق الرؤية الصهيونية.

- تخفيف التكاليف الناتجة من إقامة المشروع الصهيوني في بيئة معادية.

أدّت معادلة القوة التي فرضتها «إسرائيل» على محيطها العربي، والخسائر الكبيرة التي يدفعها أي طرف عربي يدعم المقاومة أو يفتح جبهاته وحدوده

للعمل المقاوم، إلى إغلاق جميع الحدود العربية أمام المقاومة الفلسطينية من الخارج. وأصبحت المقاومة الفلسطينية تُطارَد في البلدان العربية، ويُقبضُ على مقاتليها قبل أن يصلوا إلى الحدود مع فلسطين المحتلّة؛ حتى قبل أن تكون هناك معاهدات تسوية مع الأطراف العربية.

وعندما اضطرّت «إسرائيل» إلى الاعتراف بوجود شعب اسمه شعب فلسطين، حرصت على الاستفراد بقيادته في مسار التسوية، بعيدًا عن الغطاء العربي، وبعيدًا عن الغطاء الدولي والقانون الدولي وقرارات الأمم المتحدة.

نسّقت «إسرائيل» عملية الحصار والبلدان العربية التي دخلت معها في علاقات سياسية أو معاهدات تسوية، خصوصًا بعد فوز حركة «حماس» في انتخابات المجلس التشريعي الفلسطيني وتأليفها الحكومة في الضفّة والقطاع، لإسقاط حكومة هذه الحركة وإفشالها. وكان من أبرز معالم ذلك تنسيقها مع نظام مبارك في مصر لحصار قطاع غزة.

الحالة العربية والإسلامية الضعيفة والمفكّكة تركت الفلسطينيين عمليًا وحدهم، ولم تستطع شيئًا عمليًا لوقف الاستيطان وبرامج تهويد القدس وباقي الضفة الغربية، وبناء الجدار العنصري العازل، وكسر الحصار. هذا إضافة إلى منعها للعمل المقاوم، ورفضها لأن ينظم الفلسطينيون أنفسهم أو يرتّبوا أوضاعهم في البلدان التي لجأوا إليها، أو حتى مجرّد استضافة مجالسهم الوطنية، أو جمع التبرعات لدعم المقاومة.

من جهة أخرى، فشلت «إسرائيل» في تنفيذ برنامجها تجاه عزل الفلسطينيين بصورة كاملة، فنجحت في جوانب دون أخرى، وعلى مدى زمني معيّن، وذلك لأسباب أبرزها ما يلي:

- لا تزال قضية فلسطين حاضرة بعمق في الوجدان العربي والإسلامي، ولا يزال التفاعل الشعبي معها كبيرًا، خصوصًا في أجواء المقاومة والانتفاضات.

- صمود الشعب الفلسطيني وانتفاضاته المتتالية، وإفشاله العديد من المخطّطات الصهيونية لتركيعه واستلاب إرادته. وكانت انتفاضة الأقصى، والمقاومة البطولية التي أبداها قطاع غزّة... وغيرها من أبرز الشواهد على ذلك.

- فشل مشاريع التسوية السلمية في الإطار العربي وفي الإطار الفلسطيني، ووصولها إلى طريق مسدودة مع تزايد التطرّف الديني واليميني في الشارع الإسرائيلي.

- الثورات والانتفاضات في البلدان العربية التي أدّت إلى صعود قوى إسلامية ووطنية إلى سدّة الحكم في مصر وتونس وليبيا واليمن والمغرب، والتي شرعت في تقديم حضن دافئ وداعم للقضية الفلسطينية وتيارات المقاومة. بدا ذلك واضحًا في العدوان الإسرائيلي على غزة 14-21/ 11/ 2012 عندما قام رئيس الوزراء المصري وقادة ووزراء عرب ومسلمون بزيارة القطاع، فضلًا عن الزيارة المهمّة التي قام بها قبل ذلك أمير قطر نفسه للقطاع.

4- توطين اللاجئين الفلسطينيين واستيعابهم حيث يقيمون في البلدان العربية

تركّزت الدعاية الصهيونية في اعتذارياتها ومسببات احتلالها وتشريدها للشعب الفلسطيني على أنها أقامت دولة واحدة «إسرائيل»، بينما هناك 22 دولة عربية، وأنه يمكن استيعاب اللاجئين الفلسطينيين ضمن بيئتهم وانتمائهم العربي.

ترفض «إسرائيل» عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى الأرض التي أُخرجوا منها في عام 1948، وتعدُّ ذلك خطًا أحمر لا يمكن التنازل فيه. فقد قامت العصابات الصهيونية بتهجير حوالى 800 ألف فلسطيني من مجموع 925 ألفًا كانوا يقيمون في الأرض التي احتلّتها عام 1948 والتي تبلغ نحو 77 في المئة من أرض فلسطين. وقد وصل عدد هؤلاء وأبنائهم ممّن هم على قيد الحياة عام 2012 إلى نحو ستّة ملايين و250 ألفًا، يقيم نحو مليون و800 ألف منهم في الضفة والقطاع والباقي خارج فلسطين. وهناك بالطبع لاجئون فلسطينيون يقيمون في الخارج من أبناء الضفة والقطاع. ومنذ صدور قرار الأمم

المتحدة رقم 194 في كانون الأول/ ديسمبر 1948 بحقّ اللاجئين الفلسطينيين في العودة إلى ديارهم التي أُخرجوا منها، تكرّر التشديد في الأمم المتحدة على هذا القرار أكثرَ من 120 مرة، وكانت الموافقة على عودة اللاجئين أحد شروط الأمم المتحدة لقبول «إسرائيل» في عضويتها، لكنّها رفضت ذلك.

من الناحيــة العملية، فإن عــودة اللاجئين إلى ديارهم تعني بالنســبة إلى «إسرائيل» نهاية المشروع الصهيوني ونهاية الدولة اليهودية؛ فإذا ضُمّ اللاجئون إلى الفلسطينيين المقيمين في الأرض المحتلّة في عام 1948 يصبح العدد نحو 7.6 مليون فلســطيني في مقابل 5.3 مليون يهودي يقيمون في المنطقة نفسها. أمّا إذا جُمعت الأعداد في فلســطين التاريخية كلها، ومنها الضفة والقطاع، فإنّ العدد يصبح نحو 11.3 مليون فلسطيني في مقابل 5.9 ملايين يهودي[41].

لذلك، فإن مشــاريع التسوية الإسرائيلية ومعظم مشــاريع التسوية الغربية تســتثني دائمًا حقّ اللاجئين الفلســطينيين في العودة، وتحــاول الضغط على الأنظمة العربية لتوطينهم وتجنيسهم واستيعابهم.

يقيم فــي الأردن نحو 3.3 ملاييــن من مجموع فلســطينيين يمثلون أكثر من نصف الســكّان؛ ولذلــك كان هناك تركيز إســرائيلي دائــم، خصوصًا في الأوســاط اليمينية والدينية على فكرة «الوطن البديل» في الأردن، وأن «الأردن هو فلسطين». وترتّبت حساســية هائلة لدى نظام الحكم في الأردن الذي شعر بأن ذلك قد يؤدّي إلى تقويض حكمه وإلى نشــوب حــرب أهلية. وربما ذلك أحد الأســباب التي دفعته إلى عقد معاهدة التسوية الســلمية «وادي عربة» مع الطرف الإســرائيلي. و تُطرح فكرة الوطن البديل بين فتــرة وأخرى كنوع من الابتزاز الإسرائيلي للأردن، أو كورقة ضغط في مقابل سعي الطرف الفلسطيني إلى تحرير أرضه وإقامة دولته المســتقلّة. وجدّد هذا الطــرح في أثناء الثورات والانتفاضات العربية عضوُ الكنيست أرييه إلداد وغيره[42]. واضطرّت الحكومة

---

(41) انظر في شــأن الأوضــاع الســكانية وأوضاع اللاجئين الفلســطينيين في داخل فلســطين وخارجها: التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة 2011، ص 311-325.

(42) <http://www.aljazeera.net>, 15/8/2011.

الإسرائيلية، الحريصة على استمرار علاقتها بنظام الحكم في الأردن، إلى نفي تبنّي ادّعاءات إلداد في هذا الشأن[43].

بصورة عامة، تواجه الرغبة الإسرائيلية في توطين الفلسطينيين صعوباتٍ حقيقية تتمثّل في الإجماع الفلسطيني والعربي على رفض التوطين، والإجماع على حقّ العودة، وجعل ذلك ثابتًا من ثوابت الموقف تجاه قضية فلسطين، وهذا يعني عمليًا عدم إمكان الوصول إلى تسوية سلمية.

أمّا في لبنان فالأمر ذو حساسية خاصّة، إذ إن جميع فلسطينيي لبنان هم من لاجئي 1948، كما إن أي عملية توطين ستؤدّي إلى «اختلال» التوازنات الطائفية الحسّاسة لمصلحة السنّة، وهو ما يرفضه الآخرون خصوصًا الطرف المسيحي. ثمّ إن هناك حالة إجماع فلسطيني في لبنان على رفض التوطين حتى لو وافق اللبنانيون أنفسهم.

5 - دعم الأنظمة العربية «المعتدلة» الموالية للغرب

ترى «إسرائيل» عنصر أمان لوجودها مع أنظمة عربية «معتدلة» تتبع منظومة الهيمنة الأميركية - الغربية. وليس لدى «إسرائيل» مشكلة إذا كانت هذه الأنظمة دكتاتورية أو فاسدة... المهم أن تكون أنظمة مستقرّة تستطيع إسكات شعوبها، وتعرف سقف حركتها في ما يتصل بقضية فلسطين وعلاقاتها بـ «إسرائيل»، ويهمّها ألّا تُغضب «السيد» الأميركي، وألّا تجرّ لنفسها العداء الغربي.

يُعدّ وجود هذه الأنظمة شرطًا حيويًا لاستفراد «إسرائيل» بالفلسطينيين، ومنع العمل الفلسطيني العسكري والسياسي أو تعويقه في الخارج، وإعطاء الفرصة للاختراق الصهيوني للمنطقة من خلال معاهدات التسوية أو عملية التطبيع السياسي والثقافي والاقتصادي.

بوجود هذه الأنظمة يمكن أن تدخل «إسرائيل» معها في شراكات تخدم

(43) الحياة، 15/11/2011.

مصالحها، مثل محاربة ما يسمّى «التطرّف» الإسلامي والإرهاب بوصفه تهديدًا للطرفين. كما يمكن التعاون لمنع صعود القوى الإســلامية والوطنية إلى سدّة الحكم في البلدان العربية بوصفه مصلحة «كبرى» للطرفين تخدم استقرار هذه الأنظمة حتى لو نشــأت «جمهوريات وراثية»، وحتى لــو قدّمت هذه الأنظمة أســوأ النماذج في قمع شعوبها وســرقة خيراتها؛ إذ إن فســاد الأنظمة العربية وتدمير «الإنسان» العربي المسلم هما، في النهاية، مصلحة إسرائيلية.

تحــدث أشــكينازي رئيــس أركان الجيــش الإســرائيلي الســابق فــي 10/ 2/ 2011 بوضوح عن أن الاستقرار في المنطقة العربية أهم لـ «إسرائيل» من الديمقراطية[44]. كما كان لأســف وزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق والقيادي في حزب العمل بنيامين بن أليعيزر، في تصريحه لإذاعة الجيش الإســرائيلي، لفقدان «إسرائيل» كنزًا استراتيجيًا بسقوط حسني مبارك، دلالاته الواضحة[45]. أمّا وزير الدفاع باراك فقال خلال مقابلة مع القناة التلفزيونية الثانية الإســرائيلية في 22/ 8/ 2011، إن مصر هي أكبر ذخر استراتيجي لبلاده[46].

إن الأنظمة الفاســدة الموالية للغرب لا تســتند بصورة عامــة إلى قاعدة شعبية حقيقية، ولا إلى رؤًى فكرية حضارية، ولا تملك مشروعًا نهضويًا، وهي بالتالي كيانات من نوع «الحديد المطاوع» القابل لـ الطرق والسحب»، وتسهل اســتجابتها للضغط الخارجي، ووضع خطوط سياســية وعســكرية واقتصادية حمراء لها. وليس بالضرورة أن تكون هذه الأنظمة كلها فاسدة أو موالية للغرب بالمعنى الحرفي للكلمة، إذ قد تتباين في ما بينها في درجات فســادها الداخلي أو ولاءاتها الخارجية، لكنّها قد تتّخذ مسارات تتقاطع مع المصالح الإسرائيلية أو الغربية، أو تراعيها، أو لا تتجاوز خطوطها الحمر.

هذه الأنظمة ســتكون مدفوعة، مــن أجل الحفاظ علــى كياناتها القطرية ومصالح طبقاتها الحاكمة، إلى مواجهة المشاريع الوحدوية العربية والإسلامية

(44) *Yedioth Ahronoth*, 10/2/2011.

(45) وكالة سما، 4/ 5/ 2010.

(46) الدستور (عمان)، 23/ 8/ 2011.

ومعاداتها، ومواجهة أي حالات نهضوية تستهدف تحرير «الإنسان» العربي المسلم، فتكون بالتالي عثرة في طريق امتلاك هذه الأمّة عناصر قوّتها، وتغيير معادلة الصراع وموازينها لمصلحة الأمّة في مقابل العدوّ الصهيوني. من هنا، فإن بقاءها سيكون مصلحة إسرائيلية.

لذلك، بعثت «إسرائيل» في نهاية الأسبوع الأول للثورة في مصر برسالة إلى الولايات المتحدة وعدد من الدول الغربية، وفيها أن مصالح الغرب هي في الحفاظ على استقرار النظام في مصر، وأن «إسرائيل» ترى أنه مفيد للاستقرار في الشرق الأوسط كلّه، لذلك يجب لجم الانتقادات العلنية التي تُوجّه إلى مبارك[47]. وحذر نتنياهو، في خطابه أمام الكنيست في 7/ 2/ 2011، من أن مصر يمكن أن تقع في أيدي الإسلاميين المتطرّفين نتيجة الانتفاضة في البلاد[48]. كما حذّر رئيس الدائرة السياسية والأمنية في وزارة الدفاع الإسرائيلية الجنرال احتياط عاموس جلعاد من أن صعود الإخوان المسلمين في مصر سيقلب موازين القوى في منطقة الشرق الأوسط، وأنه سيجرّ المنطقة إلى دوامة من عدم الاستقرار، وإلى الأسوأ، محذّرًا من أن «الإخوان المسلمين يشكّلون القوة الحقيقية في المنطقة، مثل حركة «حماس»، وهم يتطلّعون إلى السيطرة على منطقة الشرق الأوسط بأكملها»[49]. ووجّه جلعاد تحذيرًا من ظهور إمبراطورية إسلامية في الشرق الأوسط بقيادة الإخوان المسلمين في مصر والأردن وسورية[50]. أمّا رئيس أركان الجيش الإسرائيلي غانتس، فقد عبّر عن قلقه من «الاضطرابات» في العالم العربي، وقال إن ظاهرة الربيع العربي أصبحت زوبعة تعصف بالمنطقة كلّها، وأن الوضع الإقليمي يُعيد «إسرائيل» إلى الأوضاع التي كانت في عام 1967[51].

---

(47) موقع عرب 48، 31/ 1/ 2011، <http://www.arabs48.com>.
وانظر أيضًا: *Haaretz*, 31/1/2011.

(48) *Haaretz*, 7/2/2011.

(49) وكالة سما، 2/ 3/ 2011.

(50) وكالة سما، 27/ 6/ 2012.

(51) *Yedioth Ahronoth*, 30/12/2011.

لذلك، مع سـقوط حسـني مبارك، قامـت الحكومة الإسـرائيلية بزيادة ميزانيتهـا الأمنية العسـكرية، وصادقـت اللجنـة المالية في الكنيسـت في 8/ 2/ 2011 على طلب طارئ لوزارة الأمن الإسرائيلية من أجل إضافة مبلغ يقدّر بـ 700 مليون شـيكل (حوالى 195 مليون دولار أميركي) إلى ميزانيتها. وذكرت صحيفة يديعوت أحرونوت أن الثورة المصرية هي سبب طلب وزارة الأمن هذا[52]. وتحـدث وزير الدفاع الإسـرائيلي باراك يـوم 8/ 3/ 2011 في مقابلة مع صحيفة وول سـتريت جورنال عن أن «إسـرائيل» قد تطلب في الأعوام المقبلة مساعدة عسكرية أميركية إضافية بقيمة عشرين مليار دولار[53]. كما تقدمت قيادة الجيش الإسـرائيلي ووزارة الدفاع بطلب إلى رئيس الوزراء نتنياهو، في حزيران/ يونيو 2012، لزيادة الميزانية العسـكرية بمبلغ 15 مليار شـيكل (نحو أربعة مليارات دولار أميركي)، أي ما يعـادل 25 في المئة من الميزانية العسـكرية، بدعوى «سـدّ الحاجات الطارئة الناجمـة عن فوز ممثّل الإخوان المسلمين محمد مرسـي بالرئاسـة المصرية، وتصريحاته عن إعادة النظر في اتفاقات كامب ديفيد»[54].

وحذّرت صحيفة هآرتس من «ضائقة اسـتراتيجية» قد تشـهدها تل أبيب في ظل «فقدانها المسـتمرّ لحلفائها»، داعيةً الحكومة الإسـرائيلية إلى التحرّك سـريعًا لإيجاد مخرج لـ«المأزق الحالي» وحلفاء جدد في المنطقة. وأضافت «إن إسرائيل بقي لها شـريكان اسـتراتيجيان في المنطقة هما الأردن والسلطة الفلسطينية، وكلاهما يضمنان الجبهة الشرقية لإسـرائيل ويعملان على إحباط هجمات تستهدف إسرائيل، إلّا أن العلاقات معهما معقّدة»[55].

وفي ورقة عمل رئيسة قدّمها رئيس «معهد السياسات والاستراتيجيا» في

---

(52) وكالة سما، 8/ 2/ 2011.

(53) *The Wall Street Journal*, 8/3/2011, <http://online.wsj.com/article/SB10001424052748703 386704576186861325527354.html?KEYWORDS=barakKEYWORDS %253Dbarak>.

(54) الشـرق الأوسـط، 29/ 6/ 2012، وانظر أيضًا: The Times of Israel website, 28/6/2012, <http://www.timesofisrael.com/warfare-and-men-not-at-war/>.

(55) وكالة قدس برس إنترناشيونال للأنباء، 30/ 1/ 2011.

المركز المتعدّد المجالات في هيرتسِليا ورئيس سلسلة مؤتمرات هيرتسِليا الجنرال احتياط داني روتشيلد، بالتعاون مع تومي شتاينر، في مستهل أعمال مؤتمر هيرتسِليا السنوي الثاني عشر بشأن «ميزان المناعة والأمن القومي الإسرائيلي»، وجاءت تحت عنوان «تقويم هيرتسِليا 2012: إسرائيل في عين العواصف»، ذكرًا أنه يتعيّن على «إسرائيل» تشجيع ما يسمّى «التدخل البنَّاء» في الأردن، وقالا إن من السابق لأوانه إعطاء تقديرات بشأن نجاعة مثل هذا التدخل وفاعليته، إلّا أنه يكتسب أهمية على أرضية تنامي قوة حركة الإخوان المسلمين في مصر. وأضافا أن هذا التدخّل قد يُمكّن من تفادي تصعيد سياسي وأمني لا ترغب فيه «إسرائيل» والعناصر المعتدلة في الساحة الفلسطينية. كما أشارا إلى أن تحوّل الشرق الأوسط إلى «معقل إسلام سياسي راديكالي» يعتمد على تأييد شعبي قوي، جاء ليضع حدًا للتوقّعات بشأن تطبيع العلاقات الإسرائيلية - العربية ونسج علاقات استراتيجية مع دول مؤثّرة في المنطقة[56].

يكشف ما قاله بنيامين بن أليعيزر للإذاعة الإسرائيلية في 15/ 2/ 2011، عن مدى المخاوف الإسرائيلية من سقوط النظام في الأردن، حيث قال: «إن الكارثة الكبرى ستحلّ بنا حال تضعضع حكم جارنا الشرقي، فإذا طار هو فسنطير نحن»[57].

تشير الدراسة التي قدمتها أجهزة الأمن الإسرائيلية إلى رئيس الوزراء السابق إيهود أولمرت إلى أنها ترى أن النظام الأردني يمثّل «ذخرًا استراتيجيًا لإسرائيل، وأن استقراره يمثّل أهمية حيوية لها»[58].

---

(56) موقع المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار)، 7/ 2/ 2012.

(57) صالح النعامي، «إسرائيل والملكية الدستورية في الأردن،» الجزيرة. نت، 4/ 4/ 2011، <http://www.aljazeera.net/home/print/6c87b8ad-70ec-47d5-b7c4-3aa56fb899c2/be236608-79d9-4840-8e06-8cd9b23e2c9a>.

(58) *Haaretz*, 16/3/2007, <http://www.haaretz.com/print-edition/news/israel-fears-u-s-iraq-exit-could-topple-jordanian-regime-1.215746>.

خاتمة

فهم مؤسّسو المشروع الصهيوني العقلية الاستعمارية الغربية، فقدّموا هذا المشـــروع كـ «كيان وظيفي» يخدم بصورة أو بأخرى القوى الكبرى التي أنشأته وتحالفت معه وحمته، ويعمل في ضوء المصالـــح المتبادلة بين الطرفين. كما اتّسم هذا المشروع بطبيعة توســـعية عدوانية إحلالية جعلت منه خطرًا، لا على فلسطين وحدها وإنّما على المنطقة العربية الإسلامية بأسرها.

سعى المشروع الصهيوني إلى اســـتمرار حالة الضعف العربي، بما يضمن اســـتمرار الاختلال في موازين القوى بين «إســـرائيل» والبلدان العربية، وعمل على تفتيـــت المنطقة على أســـس طائفية وعرقية، وســـعى إلـــى الوصول إلى معاهدات تســـوية ســـلمية منفردة مع البلدان العربية، وإلى تحييدها عن عملية الصراع، كما ســـعى إلى الاستفراد بالفلســـطينيين وعزلهم عن محيطهم العربي والإسلامي، وإلى توطين اللاجئين الفلسطينيين واستيعابهم حيث يقيمون، هذا، إضافة إلى دعم الأنظمة العربية «المعتدلة» الموالية للغرب.

قام المشروع الصهيوني واســـتمرّ على أساس الاختلال الهائل في موازين القوى مع الفلســـطينيين والأنظمة العربية والإســـلامية. وفرضت غطرسة القوة الإســـرائيلية والأميركية حالة الهدوء في الجبهات العربيـــة، كما فرضت تحوُّل الأنظمة العربية نحو مسار التسوية السلمية، ولم يكن ذلك نتيجة اقتناع شعوب المنطقة (المحكومة بأنظمة دكتاتورية فاســـدة) بجدوى التســـوية. لذلك، فإن تحرّر الشـــعوب من أنظمتها العاجزة المســـتبدّة، وقيام أنظمـــة تعبّر عن كرامة الأمّة وحريتها وعزّتها، ســـيؤدّيان إلى نظرة مختلفة في إدارة الصراع مع الكيان الصهيوني، لا تقوم على قاعـــدة الأنانية القُطْرية أو التبعيـــة الغربية، وإنما على قاعـــدة نهضوية لا تقبـــل بأقل من تحرير الأرض والإنســـان واســـتعادة جميع الحقوق المغتصبة.

لذلك، يجد الكيان الإســـرائيلي نفســـه في حالة من الارتباك والقلق تجاه

التغيّرات والثورات في العالم العربي، ليس بسبب قوة هذه الانتفاضات وعمق تأثيرها فحسب، وإنما أيضًا بسبب تعصّب القيادة الإسرائيلية الحالية وتعنّتها وضعف رؤيتها المستقبلية. وبحسب ما ذكر الكاتب اليهودي الصهيوني الأميركي المعروف توماس فريدمان (Th. Friedman)، «لم أكن أبدًا أكثر قلقًا على مستقبل إسرائيل من قلقي عليه الآن. فتداعي الأعمدة الرئيسة لأمن إسرائيل - السلام مع مصر، واستقرار سورية والصداقة مع تركيا والأردن- مقترنًا بأكثر الحكومات في تاريخ إسرائيل حماقة من الناحية الدبلوماسية وأكثرها عجزًا في الشأن الاستراتيجي، قد وضعا إسرائيل في وضع بالغ الخطورة»(59).

(59) Thomas L. Friedman, « Israel: Adrift at Sea Alone, » *The New York Times*, 17/9/2011, <http://www.nytimes.com/2011/09/18/opinion/sunday/friedman-israel-adrift-at-sea-alone.html?_r=0>, والقدس، 20/ 9/ 2011.

تعقيب

أحمد سعيد نوفل

استعرضت الدراسة المهمّة لمحسن صالح خلفيات نشوء المشروع الصهيوني والأهداف التي يريد تحقيقها في فلسطين والوطن العربي، وعلاقة هذا المشروع بالقوى الكبرى المتحالفة معه. وسأحاول التركيز على بعض الجوانب الأخرى في تعقيبي عليها، مع الأخذ بتأثير الربيع العربي في الأهداف الإسرائيلية في النظام العربي.

شهد الوطن العربي منذ نهاية عام 2010 وحتى مشارف عام 2013 ثورات شعبية عربية، هي الأولى في التاريخ العربي، حيث الجماهير العربية أطاحت الأنظمة العربية في كلٍّ من تونس ومصر وليبيا واليمن. وترافق ذلك مع تحوّلات بنيوية في الثقافة السياسية العربية، ودخلت مفاهيم ومصطلحات جديدة عليها، كانت موجودة في القواميس العربية فحسب، لكنّها مجمّدة وغير مستعملة، كالحرّية والمساواة والديمقراطية والعدالة والمواطنة والكرامة الإنسانية وعدم الخوف من الأجهزة الأمنية القمعية، وثقافة المقاومة ضد إسرائيل ونبذ ثقافة الاستسلام التي فرضتها الأنظمة على مواطنيها، على أساس أن هذا الصّراع هو بين المشروع النهضوي العربي والمشروع الصهيوني الإمبريالي. لهذا رُفعت شعارات عديدة في العواصم والمدن العربية تطالب بمقاومة المشروع الصهيوني ورفض التطبيع مع إسرائيل، مؤيدة ثوابت القضية الفلسطينية في تحرير فلسطين. وهذا يدلّ على أهمية النضال ضد إسرائيل

باعتبارها دولة معادية للجماهير العربية، ذلك أن الأنظمة التي انهارت ارتبطت بعلاقات بإســرائيل بعكس ما كانت تريده تلك الجماهيــر. فلم يكن من نتائج تلك الثورات التخلّص من تلك الأنظمة المســتبدّة فحســب، بل أثّرت أيضًا، وبطريقة مباشرة، في الأهداف والمصالح الإســرائيلية في النظام العربي. على اعتبار أن القضية الفلســطينية هي القضية المركزية فــي الوطن العربي، وباتت تحظى بأهمّية كبيرة من خلال الشــعارات التي رفعتها الجماهير، ودعوتها إلى دعم نضال الشعب الفلسطيني ضد الاحتلال الصهيوني. ولهذا لا نبالغ إذا قلنا إن فلسطين هي الأكثر اســتفادة من الربيع العربي، وإسرائيل هي الأكثر تضررًا من النظام العربي الجديد.

نضرب على ذلــك المثال التالي: هنــاك حادثان مهمّان أثّــرا في القضية الفلســطينية في الأيام الماضية أولهما صمــود المقاومة الفلســطينية في وجه العدوان الإســرائيلي على قطاع غزّة في 20/ 11/ 2011 وفشــل إسرائيل في تحقيق أهدافها بســبب التأييد المصري الجديد بعد انهيار النظام الســابق الذي كان يؤيد إســرائيل في عدوانها عام 2008. وثانيهما نجاح منظّمة التحرير في الحصول على صفة دولة مراقــب غير عضو في الأمم المتحــدة بأغلبية 138 دولة ومعارضة 9 دول وامتناع 41 دولة، خلال التصويت في الجمعية العمومية للأمم المتحدة في 28/ 11/ 2012. وبعد أن مرّت القضية الفلسطينية بظروف صعبة في الأعوام الأخيرة، على جميع الصُّعد فلســطينيًا وعربيًا ودوليًا، وبات من المؤكّد أن أي تغييرات - بســبب الربيع العربي - ستكون لمصلحة الشعب الفلســطيني؛ أثّرت الثورات العربية فــي احتمال إتمام المصالحة الفلســطينية المتوقّفة منذ أعوام، بعد ســقوط النظام المصري السابق في عام 2011، وبات من المؤكّد توصُّل المنظّمات الفلســطينية إلى مرجعيــة وطنية واحدة والتوافق على برنامــج وطني في إطار مؤسّســات منظّمة التحرير الفلســطينية، فبعد أن كان ملــف المنظّمة مغلقًا، وهناك من أراد إفــراغ المنظّمة من محتواها الوطني من خلال تمرير بعض القرارات والاتفاقات التي لا تخدم الشــعب الفلسطيني، تمكّن الفلســطينيون مــن إيجاد إطار قيادي موحّد يشــارك فيــه الجميع. كما ســاهمت الثورات العربية في أن تتولــى الجماهير العربية دورًا رئيسًــا ومؤثرًا

في صنع القرارات التي لها علاقة بالقضية الفلسطينية، على أساس أنها قضية مركزية للأمّة العربية، وليست قضية الفلسطينيين وحدهم بل هي قضية كلّ عربي ومسلم. بينما كانت من قبل معزولة وتقوم الأنظمة العربية باتخاذ مواقفها السياسية تجاه الصراع العربي - الإسرائيلي بحسب مصالحها وليس مصلحة الشعب الفلسطيني. ولهذا، فإنّها ثورات مهّدت لميلاد الأمّة من جديد واستعادة دورها في تحرير فلسطين من الاحتلال الإسرائيلي[60].

كان الفلسطينيون، بحسب اعتراف صحيفة كريستيان ساينس مونيتور الأميركية، هم الأوفر ربحًا من الربيع العربي، وأن أكبر الخاسرين هو إسرائيل، تليها الولايات المتحدة. وأوضحت الصحيفة أن إسرائيل هي الخاسر الأكبر من الثورات الشعبية والتطوّرات في الشرق الأوسط، وأن بعض الحكّام العرب المستبدّين الذين كانوا حلفاء أميركا وإسرائيل في المنطقة، والمدعومين من الولايات المتحدة بالمال والسياسة، قد أطاحتهم شعوبهم. لكن، في الحقيقة إن ظهور القوى الشعبية في أي دولة عربية يضمن سياسات أكثر تشدّدًا تجاه إسرائيل، إذ ترغب الشعوب العربية في التصدّي لها.

من جهة أخرى، ساهم الربيع العربي في حضّ الفلسطينيين على الدعوة إلى المصالحة بين السلطة الفلسطينية، ممثّلة في حركة «فتح»، و«حركة حماس»، وخرج عشرات الآلاف من الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة في تظاهرات حاشدة، استجابةً لدعوة أطلقها شباب 15 آذار/ مارس، عبر الفيسبوك للمطالبة بإنهاء الانقسام. وهتف المتظاهرون بشعار «الشعب يريد إنهاء الانقسام»، و«يا عبّاس و يا هنية بدّنا وحدة وطنية»، وردّد المشاركون كذلك هتافات تدعو إلى إنهاء الحصار، و«الشعب يريد إنهاء الاحتلال والحفاظ على الثوابت»، ورفع قادة الفصائل المشاركة في المسيرة الأعلام الفلسطينية وتشابكت أيديهم وهم يهتفون «الشعب يريد تحقيق الوحدة وإنهاء الانقسام»[61].

---

(60) القدس العربي، 27/ 1/ 2012.

(61) المركز الفلسطيني للإعلام، 11/ 3/ 2011، والشرق الأوسط، 16/ 3/ 2011.

صحيح أن المصالحة لم تتحقّق بعدُ، لكن أجواء التفاهم الإيجابي تسود حركتَي «حماس» و«فتح»، ودعوات صادقة لدخول «حماس» و«الجهاد الإسلامي» في منظّمة التحرير الفلسطينية، وإجراء انتخابات تشريعية ورئاسية فلسطينية في هذا العام. وكان الاتفاق بين جميع الفصائل الفلسطينية على المقاومة الشعبية ضد الاحتلال الإسرائيلي. والاتفاق بين محمود عبّاس وخالد مشعل في العاصمة القطرية في 6/ 2/ 2012 على تأليف الحكومة الفلسطينية برئاسة عبّاس، وما كان ليتمّا، لولا الربيع العربي وتأثيره في القضية الفلسطينية. علاوة على تأييد حركة «حماس» للرئيس الفلسطيني خلال التصويت أمام الجمعية العمومية للأمم المتحدة على قرار تمتّع فلسطين بصفة دولة مراقبة في الأمم المتحدة.

بات من المؤكّد أن مواقف الأنظمة الجديدة ستكون أفضل كثيرًا من مواقف الأنظمة التي سقطت، لأنها باتت تصغي إلى مواقف الجماهير العربية المؤيدة لنضال الشعب الفلسطيني والمعادية للكيان الصهيوني. واستعاد الشارع العربي عبر الثورة روحه العربية الأصيلة، ما جعله يتجرّأ على البوح مجدّدًا برأيه وموقفه المعادي لإسرائيل والمؤيد للشعب الفلسطيني ومطالبه وحقوقه التاريخية. وهذا يعني أن القضية الفلسطينية استفادت من الربيع العربي، ومن المتوقّع أن تتزايد الاستفادة مع استقرار الدول العربية. لقد فقدت إسرائيل أهمّ شركائها بين الحكّام العرب وأكثرهم عداءً لشعوبهم وعمالة لإسرائيل وأميركا وتآمرًا على القضية الفلسطينية. وفي رفْع الثورات الشعبية شعارات معادية لإسرائيل ومؤيدة لثوابت القضية الفلسطينية في تحرير فلسطين، ما يدلّ على أهمية النضال ضد إسرائيل كدولة معادية للجماهير العربية، لأن الأنظمة التي انهارت ارتبطت بعلاقات مع إسرائيل بعكس ما كانت تريده تلك الجماهير. وعُدّت مطالب ثوّار ميدان التحرير في مصر بضرورة وقف بيع الغاز المصري لإسرائيل ومهاجمة السفارة الإسرائيلية في القاهرة مرارًا، ورفع الحصار عن قطاع غزة، دليلًا مهمًّا على تداخل المطالب الوطنية والمطالب القومية التي تمثّلها القضية الفلسطينية.

أصدر المعهد السياسي الإسرائيلي دراسة عن تخوّفات إسرائيل من نتائج الربيع العربي وعن حالة القلق التي تسيطر على كبار المسؤولين الإسرائيليين من تطوّرات المشهد السياسي المرتبط بالقاهرة. لأن انهيار نظام حسني مبارك في مصر يعني التخلّص من نظام ساهم مساهمة فاعلة في تراجع دور مصر القومي وانتشار الفساد بين النخب السياسية المصرية التي استفادت من تركيز النظام على القضايا المحلّية على حساب القضايا المصيرية العربية وعلى رأسها القضية الفلسطينية، بعد أن كانت تقوم بدور رئيس في عهد الزعيم عبد الناصر في القضايا القومية. وعدّت الثورات الشعبية العربية بداية عصر عربي جديد تقوده الجماهير لا الأنظمة العربية المستبدّة[62].

أعادت الثورات الشعبية العربية تجديد الأمل بمشروع المقاومة وهزيمة المشروع الصهيوني، وهذا يفترض أولًا ضرورة الوعي أن الصراع بين مشروع النهضة العربية والمشروع الصهيوني - الإمبريالي في أوج مراحله، وأن المحاولات لاحتواء الثورة العربية أو شرائها أو هزيمتها والانتصار عليها وإعادة التاريخ إلى الوراء لن تتوقّف، ما يستوجب حماية مشروع المقاومة الذي صمد أعوامًا طويلة، وكان أحد أبرز عوامل تماسكها. هذا التماسك هو الذي وفّر الظروف الموضوعية لتفجّر الثورات الراهنة، لأن إسرائيل تستمدّ جانبًا كبيرًا من قوّتها وتأثيرها من حالة العجز والضعف والانقسام والتخلّف العربية. كما أن عدم وجود أنظمة ديمقراطية تُظهر إرادة شعوبها جعل من هذه الأنظمة المستبدّة الفاسدة أداة قمع لشعوبها، بينما كانت تتأثّر في الوقت نفسه بشكل كبير في صناعة قرارها وفي استقرارها بعوامل خارجية، ليس أقلّها الرّضى والتعاون الأميركيين والغربيين. وإن نجاح الثورات الشعبية سيؤدّي إلى تغيير كبير في النظام الرسمي العربي ووصول قوى قومية وطنية تسعى إلى الوحدة العربية، خصوصًا بين الأنظمة الديمقراطية[63].

---

(62) عبد الغني سلامة، «عصر الثورات العربية، الأسباب والتداعيات،» الحوار المتمدّن، 10/4/2011.

(63) في شأن تأثير الثورات العربية في القضية الفلسطينية، انظر: «التقدير الاستراتيجي (30): مستقبل الموقف الإسرائيلي من مصر بعد ثورة 25 يناير» (مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، بيروت، أيار/مايو 2011).

من المؤشّـرات المهمّة لدى النظام العربي[64]: تخفيف الحصار عن قطاع غزة وفتح معبر رفح وعدم الحماسة الشديدة في تطبيق اتفاقات «كامب ديفيد» و«وادي عربة» والتراجـع عن التطبيع مع إسـرائيل سياسـيًا واقتصاديًا وأمنيًا وثقافيًا، وقد يصل الأمر إلى التجميد العملي لهذه الاتفاقات، من دون ضرورة إعلان إلغائها رسميًا. والتعامل مع ملفّ المصالحة الفلسطينية بمنهجية جديدة يسـمح بتفهّم أكبر لوجهة نظر تيارات المقاومة، خصوصًـا «حماس»، ويفتح أبواب دول «الاعتدال» كجزء مستحقّ من الشـرعية الفلسطينية، ويدفع بطريقة جادّة إلى إعادة بناء منظّمة التحرير الفلسـطينية وإصلاحها على أسس جديدة. وتصليب الموقف الفلسـطيني ضد إسـرائيل، وقد لاحظنا ذلـك في خطاب خالد مشـعل عند زيارته قطاع غزة، وتصليب الموقف التفاوضي العربي تجاه هذا المسـار، وتجاه طرح المبادرة العربية، حتى لو أدّى ذلك إلى تعطيل مسار التسوية. وتشجيع خيارات فلسطينية بديلة، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وفي ذلك الانتفاضة الشعبية والمقاومة المدنية والمسـلّحة. وإلى إضعاف التأثيرين الإسرائيلي والأميركي أو إنهائهما، في صناعة القرار الفلسطيني والعربي، وظهر ذلك برفض الرئيس الفلسـطيني محمـود عبّاس الخضـوع للضغط الأميركي والإسرائيلي قبل توجّهه إلى الأمم المتحدة. وإلى الموقف المصري الجديد من إسـرائيل، في زيارة التضامن التي قام بها رئيس الوزراء المصري هشام قنديل إلى غزة خلال العدوان الإسرائيلي الأخير على القطاع.

المصالح الإسرائيلية في النظام العربي

ظهر القلق الشـديد على القيادات الإسـرائيلية من النظام العربي الجديد الذي بدأ يتشـكّل بعد الثورات العربيـة منذ بداية حدوثها. وقال المشـاركون في مؤتمر هيرتسِـليا للأمن والمناعة القومية الذي انعقد في الأول من شباط/ فبراير 2012 إنّ إسـرائيل تواجه أوضاعًا صعبة بعد تصدّر الحركات الإسلامية الثورات العربية. وقال رئيس المؤتمر داني روتشـيلد في محاضرة عقب افتتاح

(64) «التقدير الاسـتراتيجي (31): مسـتقبل المقاومة الفلسـطينية في ضوء التطورات العربية» (مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، بيروت، أيار/ مايو 2011).

المؤتمر، إن إســرائيل تواجه تحدّيات خطِرة في ظــلّ المتغيرات المتفاعلة في العالم العربــي، إذا وصلت الحركات الإســلامية إلى الســلطة، وأن الثورات العربية تحمل تغييرات مهمّة وتضع حدًّا لأحلام إســرائيل بتطبيع علاقاتها مع الدول العربية. كما أن الربيع العربي ســيؤدّي إلى تراجع قوة الولايات المتحدة في المنطقة في مقابل صعود قوى إقليمية «معادية لإســرائيل التي تجد نفســها اليوم معزولة استراتيجيًا ولا تجد من تعتمد عليه في مواجهة المتغيّرات»[65].

اعترف الرئيس السابق لـ «الموســاد»، اللواء في الاحتياط داني ياتوم، بأن «على إســرائيل أن تقلق من التهديدات المتشكّلة في المنطقة». وبحسب ياتوم، فإن «الملامــح الجديدة للثورات في البلدان العربيــة، تُظهر لاعبين جددًا على الســاحة لم نكن نعرفهم حتى الآن، وفي مقدّمهم شبكات التواصل الاجتماعي ووسائل الإعلام ووسائل الاتّصالات الحديثة والجيل الشاب. وهذا يؤكّد انتهاء النسق الذي كان ســائدًا حتى الأمس القريب في الدول العربية، والمتشكّل من ثلاثة عناصر أساســية: زعيم معمّر وقوي، وحزب حاكم يسيطر على كلّ مرافق الحياة، وجيش قوي ووفــي»[66]. ويرى القادة الإســرائيليون في عملية التغيير الجارية في المنطقة «تهديدًا اســتراتيجيًا وجوديًــا، إذا ما تحوّلت إلى فضاءات تدعم المقاومة وتتبنّى مشروع التحرير، وتتبنّى استراتيجيات تؤدّي إلى الإخلال بموازين القوى القائمة»[67].

لوحظ الاهتمــام الإســرائيلي السياســي والإعلامي بالثــورات العربية، خصوصًا الثــورة المصرية منذ مراحلها الأولى. ودفاع إســرائيل عن حســني مبارك بصفته الشخصية كحليف استراتيجي لها، وكنظام، حيث رأت أن خسارة مبارك تعني خسارة الحارس الشخصي لملفّات أساسية ومركزية ثلاثة: الصراع في فلسطين، والمشهد السياســي العام في المنطقة، والتخلّي عن الدور وحتى المصالح المصريــة، وأخيرًا ملف اللاجئين الأفارقة. ويبدو القلق الإســرائيلي

---

(65) نقلا عن: الجزيرة. نت، 1/ 2/ 2012.

(66) الجزيرة. نت، 1/ 2/ 2012.

(67) هآرتس، 25/ 3/ 2012.

من الثورات العربية من الإشـــارات المقلقة التي تصدر عن الحراك الشعبي في المدن والعواصم العربية التي تدلّ على أن تحقيق تســوية سياسية وفق الشروط الإسرائيلية لم يعد ممكنًا بعد الربيع العربي.

يزيد مــن عوامل القلق الإســرائيلية توقّــع انتفاضة فلســطينية ثالثة ضد الاحتــلال الإســرائيلي، واحتمــال نجــاح المصالحــة الفلســطينية، واتفاق الفلســطينيين على مشــروع وطني فلســطيني يؤكّد ثوابت القضية الفلسطينية، إضافة إلى التحرّكات الشــعبية عند الحدود مع فلســطين التاريخية، فهذه كلّها عوامل إرباك متزايد للإسرائيليين[68].

إن غياب مبارك يعني فقدان ما ســمّاه بنيامين بن أليعيزر رصيد إســرائيل الاستراتيجي لأنّه كان يمثّل الكابح لحركة «حماس»، وقوة قادرة على التضييق على سياسات إقليمية معادية لها، إلى جانب دوره كوسيط بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية.

المطلوب هو الاســتفادة من آثار الربيع العربي في المصالح الإســرائيلية في النظــام العربي، وتوظيفها في المشــروع النهضوي العربــي ضد الأهداف والمصالح الإسرائيلية.

(68) انظر: زهير أندراوس، في: القدس العربي، 31/ 8/ 2011.

الفصل العاشر

إسرائيل والتغيرات الجيوستراتيجية في الوطن العربي

محمود محارب

أولًا: عوامل الاهتمام الإسرائيلي بالربيع العربي ومنطلقاته

ما انفكت إسـرائيل منذ انطلاق الربيع العربي تنظر بقلق شـديد إليه وإلى الواقع السياسـي الجديد الذي تشكّل، ولا يزال يتشكّل، جرّاء الثورات العربية. فإسـرائيل تهتّم اهتمامًا كبيرًا بما يجري في الوطن العربي، ولا سيما في الدول المجاورة لها، لاعتقادهـا أن ما يجري في الدول العربية يؤثّر بصورة مباشـرة وغير مباشـرة في مكانتها ودورها فـي المنطقة وفي أمنها القومي وسياسـاتها العدوانية تجاه العرب وقضاياهم عامة والشعب الفلسطيني خصوصًا؛ فإسرائيل التـي أقامت وجودها في عام 1948 على حسـاب الشـعب الفلسـطيني، ثمّ اسـتكملت احتلال باقي الأراضي الفلسـطينية وأراض عربيـة أخرى في عام 1967، لا تعدّ نفسـها دولة عادية مثل باقي الدول فـي المنطقة، لا من حيث المكانة ولا من حيث الدور. وفي سـياق توسـعها الإقليمي وتعزيزها مكانتها ودورها دولةً مهيمنةً ومُهابةً، وذات نفوذ واسـع فـي المنطقة، خاضت حروبًا

منذ عام 1948 وحتى اليوم أكثر من أي دولة أخرى في العالم، ولم تعتدِ على الدول العربية المجاورة لها فحسب، وإنما اعتدت أيضًا على عدد كبير من الدول العربية الأخرى التي تبعد عنها مئات الأميال. وهي الدولة الوحيدة في العالم التي دمّرت مفاعلات نووية (مفاعل في العراق (1981) وآخر في سورية (2007))، في سياق إصرارها على الاستمرار في احتكار السلاح النووي في المنطقة[1]. فاستراتيجية إسرائيل تجاه الدول العربية تنطلق من القوة والحرب والردع وموازين القوى. واستندت في إدارة صراعها مع الدول العربية إلى عوامل قوّتها الأساس وإلى عوامل ضعف الدول العربية. وهناك قلق في إسرائيل من أن تمسّ الثورات العربية، على المديين المتوسط والبعيد، بجوانب من عوامل قوة إسرائيل من ناحية، وأن تنهي أو تقلّص عوامل ضعف الدول العربية من ناحية أخرى. وأهمّ العوامل الأساسية لقوة إسرائيل هي: علاقاتها الخاصة بالولايات المتحدة الأميركية، وتفوّقها العسكري بالأسلحة التقليدية على جميع الدول العربية، واحتكارها السلاح النووي في المنطقة، ووضعها الاقتصادي المتطوّر، وامتلاكها إرادة سياسية موحّدة في قضايا الأمن القومي في ظل نظام ديمقراطي قائم على مسلّمات أمنية وأيديولوجية عنصرية معادية للعرب. ومن ناحية أخرى، فإن عوامل ضعف الدول العربية، وفي مقدّمها وجود أنظمة عربية حاكمة مستبدّة وفاسدة تحتدم الصراعات بينها وتفتقد إرادتها الوطنية، إلى حدّ كبير، وتقمع مواطنيها وتحرمهم أبسط حقوقهم وتحرم مجتمعاتها التطور، ساهمت في المزيد من تعزيز مكانة إسرائيل وسطوتها في المنطقة، ذلك أن الأغلبية العظمى من هذه الأنظمة المستبِدّة كانت خاضعة للأجندة الإسرائيلية - الأميركية.

على الرغم من الصدمة المفاجئة الأولية باندلاع الثورات العربية، سرعان ما احتلّت هذه الثورات وتطوراتها والتغيرات الاستراتيجية التي أحدثتها مكانة مهمّة عند صانعي القرار الإسرائيلي في المؤسّستين السياسية والعسكرية ولدى

(1) للمزيد عن تدمير إسرائيل هذين المفاعلين، انظر: يوسي ميلمان ودان رفيف، حروب الظلال... الموساد والمؤسسة الأمنية (تل أبيب: يديعوت سفاريم، 2012)، ص451 - 473.

مراكز الأبحاث والمؤسّسات الأكاديمية ووسائل الإعلام الإسرائيلية. وانطلاقًا من المفاهيم والفرضيات المتأصّلة في الثقافة السياسية الإسرائيلية، وفي مقدّمها العــداء للديمقراطية في الدول العربية والعداء للوحــدة العربية والعمل العربي المشتَرك، ناصبت إســرائيل الثورات العربية العداء منذ بدايتها، واتّخذت موقفًا واضحًا ضدها وضد أهدافها المطالِبة بإسقاط أنظمة الاستبداد والفساد وبإقامة أنظمة ديمقراطية تحترم حقــوق المواطن وتقيم العدالــة الاجتماعية. وعبّرت إســرائيل عن مواقفها هذه علنًا عبر تصريحات رئيس الحكومة والوزراء وقادة المؤسّسة الأمنية، ومن خلال تحليلات المؤسّسات الأكاديمية ومراكز الأبحاث ووسائل الإعلام الإسرائيلية[2]. وشكّكت إســرائيل في قوى التغيير في الوطن العربي وفــي أصالتها وفي قناعاتهــا وفي الأهداف التي تناضــل من أجلها[3]، ودافعت في الوقت نفسه عن أنظمة الفساد والاســتبداد العربية، ولا سيما تلك التي صنّفتها إســرائيل في خانة «الدول المعتدلة»، وتمسّــكت بأفكار عنصرية مدّعية أن نظام الحكم الديمقراطــي لا يلائم العرب، بل تلائمهم أنظمة الحكم المطلق.

انســجامًا مع هذه القيــم والأحكام، أعربت إســرائيل من خــلال قادتها ومؤسّســاتها المختلفة عن إعجابها بإتقان أنظمة الاستبداد والفساد العربية قمع الشــعوب العربية، وبنجاحها في فرض أنظمة حكم قوية ومستقرّة، إدراكًا منها أن أنظمة الاستبداد القوية في قمعها شــعوبها تنتج دولًا ضعيفة، خصوصًا في مواجهة العدو الخارجي.

---

(2) لمزيد من التفاصيل في بشأن الموقف الإســرائيلي المعادي للوحدة والثورات والديمقراطية في الوطن العربي، انظر: محمود محارب، «إسرائيل والثورة المصرية،» المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 21/ 4/ 2011. <http://dohainstitute.org/release/0e05903f-117f-4759-b44a-a4b287223c13>.

وانظر أيضًا: عوفر شيلح، «الديمقراطية ليســت للعرب،» معاريف، 1/ 2/ 2011، <http://www.nrg.co.il/online/1/ART2/206/733.html>,

وحغاي إلعاد، «هؤلاء ليسوا ناضجين بعدُ للديمقراطية،» معاريف، 30/ 1/ 2011. <http://www.nrg.co.il/online/1/ART2/206/220.html>.

(3) انظر مثلًا: آشــر سوســر، «التقليد والحداثة في «الربيع العربي»،» عدكان إستراتيجي، السنة 15، العدد 1 (نيسان/ أبريل 2012).

إن التغيـرات الاسـتراتيجية الناجمة عن الثـورات العربيـة في الوطن العربي لا تزال تجري وتتفاعل، ولم تكتمل معالمها بعدُ. وإسـرائيل تتابع هذه التغيرات بقلـق كبير، وهي تدرك أن تأثيرها في عمليـة التغيير وفي التطوّرات الناجمة عنها محدود للغاية. ومع ذلك، تسـعى إسـرائيل بقدر استطاعتها إلى التقليل من آثارها السـلبية فيها وفي مكانتها ودورها في المنطقة. وسـنعالج في هذه الدراسـة المواقف الإسـرائيلية من هذه التغيّرات الجيوستراتيجية في الوطن العربي المرتبطة بالربيع العربي، وفي مطلعها سـقوط العديد من أنظمة الاستبداد، وإقامة أنظمة ديمقراطية في العديد من الدول العربية، وتراجع نفوذ الولايات المتحدة ها هنا، والعلاقات الإسـرائيلية - الأميركية، والأسلحة غير التقليدية، والعزلة الإسرائيلية في ضوء الربيع العربي، والعلاقات الإسرائيلية - المصرية بعد ثورة 25 يناير والموقف الإسـرائيلي من سـيناريوات الثورة في سورية.

1 - سقوط العديد من أنظمة الاستبداد

شكّل سـقوط العديد من أنظمة الاسـتبداد والفسـاد، وفي رأسها نظام مبارك، خسارة استراتيجية لإسرائيل؛ حيث كانت هذه الأنظمة خاضعة بصورة عامّة للأجندة الإسـرائيلية - الأميركيـة في المنطقة، وكانت تسـاهم بصورة مباشرة وغير مباشـرة في تعزيز عوامل قوة إسـرائيل من ناحية، وفي إضعاف عوامل قوة الدول العربية من ناحية أخرى. وسنتطرّق إلى نظام مبارك بتفصيل أوسع لاحقًا.

2 - إقامة أنظمة ديمقراطية في العديد من الدول العربية

تقف إسرائيل منذ إنشائها حتى اليوم ضد إقامة أنظمة ديمقراطية في الدول العربيـة. وهي تعتقد أن إقامة مثل هـذه الأنظمة تمثل تهديدًا لها ولسياسـاتها تجاه العرب، لأن ذلك يساهم مساهمة أساسـية في فتح المجال أمام الشعوب العربية للتطـوّر والتقدّم بحرّية فـي مختلف الصعد الاقتصاديـة والاجتماعية والسياسية والعسكرية. ولأنه يقود أيضًا إلى تقليص الفجوة بين الشعب وقيادته

المنتخبة ديمقراطيًا في خصوص المواقف من إسـرائيل وسياسـاتها العدوانية ضد الشعوب العربية، وتاليًا يؤدّي إلى تغيير الاستراتيجيا العربية تجاه إسرائيل من سياسة الخنوع والخضوع لها إلى سياسـة مواجهتها ومقاومتها. ولأن إقامة أنظمة ديمقراطية في الدول العربية يحمل بين ثنايـاه أيضًا تعزيز العمل العربي المشـترَك، وقد يقود إلى صيغة من صيغ الوحدة العربية علـى المدى البعيد، تقف إسـرائيل ضدها وترى أنها تمثل خطرًا عليها وعلى سياسـاتها العدوانية تجاه العرب. والعـداء للديمقراطية والوحدة العربيتيْـن قديم وعميق ومتجذّر في الفكر والثقافة السياسـية الأمنية الإسـرائيلية، ولا يزال سـائدًا في إسرائيل حتى اليـوم. وأعرب دافيد بن غوريون، مؤسّـس إسـرائيل وواضـع نظريتها الأمنية، عن خشـيته من إمكان أن يؤسّـس العرب أنظمـة ديمقراطية ويحقّقوا وحدتهم السياسـية، واعتقد أن ذلك يهدّد وجود إسـرائيل. فكتب في يومياته في عام 1949 أن العرب يسـعوْن إلى تحقيق الديمقراطية والوحدة السياسية، وأن العرب يتجاهلون المعوّقات الداخلية والخارجية والزمن المطلوب لوحدة العرب. واستخلص مدى خطر ذلك على إسرائيل قائلًا: «يا ويلنا يا ويلنا إذا لم نعرف استغلال هذا الزمن لنَكبُر ولنحتلّ مكانةً في العالم» قبل أن يحقّق العرب هدفيْهم[4].

3 - تصاعد قوة الإسلام السياسي ووصوله إلى الحكم

هناك اتفاق في إسـرائيل على أن ازدياد القوّة والشـعبية لدى الإسـلام السياسي وصعوده إلى سدّة الحكم في العديد من الدول العربية جرّاء الثورات العربية يمثلان تهديدًا لإسرائيل وسياسـاتها تجاه القضية الفلسطينية والصراع العربي - الإسـرائيلي. وممّا يزيد القلق الإسـرائيلي من هـذا التهديد وصول أحزاب الإسلام السياسـي إلى الحكم من خلال صناديق الاقتراع وفي سياق عملية البنـاء الديمقراطي الناجمة عـن الثورات العربية. وتعود الخشـية من

(4) دافيـد بن غوريـون، يوميات حـرب (يومان ملحمـاه)، ط 3 (تـل أبيـب: وزارة الدفاع، 1982)، ص 964.

ازدياد قوة الإسلام السياسي ومن وصوله إلى الحكم إلى الأسباب التالية[5]:

- إن تحوّل المنطقة العربية، والشرق الأوسط أيضًا، إلى معقل للإسلام السياسي الراديكالي المستند إلى تأييد شعبي متين في مختلف أنحاء الشرق الأوسط، يضع حدًّا لأطماع إسرائيل في تطبيع علاقاتها بالدول العربية، وفي إقامة علاقات استراتيجية قوية مع دول محورية في المنطقة كالتي مع مصر مبارك، ومع تركيا في العقد الذي سبق وصول حزب العدالة والتنمية إلى سدة الحكم فيها في عام 2002.

- إقامة الولايات المتحدة وحلفائها الأوروبيين علاقات إيجابية مع أحزاب الإسلام السياسي، خصوصًا مع الإخوان المسلمين، وهو ما قد تكون له آثار سلبية في سياسات أميركا في المنطقة وفي علاقاتها مع إسرائيل.

- احتفاظ الأحزاب الإسلامية السياسية بعد وصولها إلى الحكم بمشروعها المعادي لإسرائيل وسياساتها في المنطقة، حتى وإن اتّبعت هذه الأحزاب سياسة براغماتية.

- وصول الإسلام السياسي إلى الحكم في مصر يحدّ من «الحرية» التي كانت تتمتّع بها إسرائيل في الاعتداء على الفلسطينيين في قطاع غزة. فمن أجل الحفاظ على العلاقات مع مصر ولو في حدّها الأدنى، فإن إسرائيل مرغمة على اتّباع سياسة «ضبط النفس» وعدم شنّ حرب أو عدوان كبير ولفترة زمنية طويلة. فأي حرب أو عدوان واسع على غزة قد يؤدّي إلى تدهور علاقات إسرائيل بمصر ومع تركيا، ويسيء إلى علاقات إسرائيل بالولايات المتحدة[6].

---

(5) تحدث كثيرون من المتخصصين والمسؤولين الإسرائيليين عن خطر وصول الإسلام السياسي إلى سدة الحكم بعد الثورات العربية، انظر مثلًا: داني روتشيلد وطومي شتاينر، «تقدير هيرتسِليا 2012: إسرائيل في عين العواصف» (ورقة قدمت إلى: مؤتمر هيرتسِليا الثاني عشر، هيرتسِليا، شباط/ فبراير، 2012). وانظر أيضًا: أفرايم عنبار، «التقلبات في العالم العربي والأمن القومي لإسرائيل» (مركز بيغن – السادات للأبحاث الاستراتيجية في جامعة بار إيلان، نيسان/ أبريل 2012).

(6) رون طيره، «اهتزاز احتياط إسرائيل الاستراتيجي،» عدكان إستراتيجي، السنة 14، العدد 3 (تشرين الأول/ أكتوبر 2011).

4 - تراجع نفوذ الولايات المتحدة في المنطقة العربية

هناك شـــبه إجماع بين الباحثين المتخصصين والقادة الإسرائيليين على أن النفوذ الأميركي في المنطقة العربية تراجع بصورة ملحوظة بعد انطلاق الثورات العربية. ويعيدون ســـبب هذا التراجع إلـــى جملة أســـباب تتصدّرها الثورات العربيـــة وموقف الولايات المتحـــدة منها وتعاملها مع تطـــوّر حوادثها. وينتقد المتخصصون والقادة الإســـرائيليون الإدارة الأميركية بشـــدة لأنّها تخلّت عن نظامي الاستبداد والفساد في تونس ومصر بســـرعة ولم تسمح لهما باستعمال القوّة الملائمة للبطش بالمتظاهرين لإنهاء ثورتهم، ولأنّها أيدت تأسيس أنظمة ديمقراطية فيها، وأقامت علاقات مع حركات الإسلام السياسي، ما ألحق ضررًا اســـتراتيجيًا بالمصالح الأميركية بحسب المحلّلين الإسرائيليين. ومن الملاحظ أن المتخصصين والمســـؤولين الإســـرائيليين يربطون ربطًا وثيقًا بين المصالح الأميركية والمصالح الإسرائيلية واســـتمرار أنظمة حكم الاستبداد والفساد في الدول العربية، ليس تلك الأنظمة التي سقطت فحســـب، وإنما أيضًا تلك التي لا تـــزال تحكم؛ إذ يؤكّد ميخائيل ميلشـــتاين أن تخلّي الولايـــات المتحدة عن نظامَيْ بن علي ومبـــارك «أثّر في ثقة حلفاء أميركا في المنطقة، بأنفســـهم وفي ثقتهم بالولايات المتحدة كركيزة اســـتراتيجية لهم ليس ضد تهديدات خارجية كالتهديد الإيراني فحسب، وإنما أيضًا ضد التحدّيات والتهديدات الداخلية»[7].

يثير تراجع نفوذ الولايات المتحدة في المنطقة قلق إسرائيل، لأنها الحليف والداعم الأساس لإسرائيل التي لا يزال مصيرها ودورها ومكانتها في المنطقة على صلة وطيـــدة بمكانة الولايات المتحدة ونفوذها هـــا هنا والعالم، وبعلاقة إسرائيل بها.

5 - الربيع العربي والعلاقات الإسرائيلية - الأميركية

اهتمّ الباحثون والمســـؤولون الإســـرائيليون بموضوع الربيع العربي وأثره

(7) ميخائيل ميلشـــتاين، «شرق أوســـط قديم - جديد: الثورات في الشرق الأوسط وانعكاساتها على إسرائيل،» عدكان إستراتيجي، السنة 14، العدد 1 (نيسان/ أبريل 2011).

في طبيعة العلاقات الإسرائيلية - الأميركية. ويظهر من كتابات أولئك وجود قلق وخشية في إسرائيل من الثورات العربية ونتائجها سلبًا على طبيعة العلاقات الإسرائيلية - الأميركية، وعلى الموقف والفعل الأميركيين تجاه سياسات وخطوات لإسرائيل في المنطقة تخالف السياسة الأميركية أو لا تتماشى معها. وأكّد أفرايم عنبار، مدير مركز بيغن - السادات للأبحاث الاستراتيجية في جامعة بار إيلان، في دراسة له أن الأمن والردع الإسرائيليين يعتمدان على عوامل مهمّة يتصدّرها التزام أميركا أمن إسرائيل وسلامتها، واستعدادها لأن تهُبّ لتقديم المساعدات العسكرية والاقتصادية والسياسية والدبلوماسية عندما تقتضي الضرورة. وأضاف أن هناك قلقًا في إسرائيل من ألّا تلتزم أميركا تقديم هذه المساعدات الضرورية للردع الإسرائيلي ومكانتها ودورها في المنطقة بلا شروط؛ إذ أظهرت التجربة أن الإدارة الأميركية خيّبت العديد من حلفائها وتخلّت عنهم عندما كانوا في أمسّ الحاجة إليها. إلى ذلك، هناك خشية من أن تحدّ الإدارة الأميركية من «حرية» إسرائيل في القيام بحرب أو بعمليات عسكرية كبيرة في المنطقة، أو بخطوات لا تتماشى مع سياستها، وأنها إذا فعلت من دون الموافقة الأميركية، فإنها ستُلحق ضررًا كبيرًا بالعلاقات. وذكّر عنبار بأن هذه الحسابات ليست جديدة، لكنها على أهمية كبيرة في هذه المرحلة بالذات التي تشهد تغيّرات مهمّة في المنطقة جرّاء الثورات العربية. واستخلص عنبار أن على إسرائيل أن تتخذ في الأعوام المقبلة جانب الحيطة الشديدة في علاقاتها بأميركا، وأن عليها ألّا تأخذها معطى ثابتًا ودائمًا في هذه الظروف المتغيرة، وأن تحرص بشدّة على طبيعة هذه العلاقات مع أميركا، إذ ليس ثمة بديل منها[8].

كان داني روتشيلد أكثر وضوحًا في رؤية المخاطر التي تهدّد العلاقات الأميركية - الإسرائيلية في أعقاب الربيع العربي؛ إذ قال إنه كان من المفترض أن تظهر إسرائيل بعد الثورات العربية ذخرًا استراتيجيًا لأميركا لأنها حليف مستقرّ ودائم، لكن حدث عكس ذلك تمامًا، إذ باتت الإدارة الأميركية ترى

(8) عنبار، «التقلبات في العالم العربي».

أن إسرائيل وسياساتها وممارســتها في المنطقة، في ضوء الربيع العربي، تمثل عبئًا على السياسة الأميركية ها هنا. وأكّد روتشــيلد أن حوارًا استراتيجيًا نقديًا يدور في مراكز الأبحاث الأميركية المحسوبة على المعسكر الديمقراطي، وفي الصحافة الليبرالية في إثر الثــورات العربية، ويتخذ منحى مضادًا للسياســات والممارسات الإسرائيلية في المنطقة، ويشبه الحوار النقدي الذي تتبنّاه النخب في أوروبا تجاه إسرائيل، والذي يرى أن القضية الفلسطينية هي لبّ الصراع في الشرق الأوسط، وأن المواقف الإسرائيلية هي السبب في عدم التوصل إلى حلّ لهذه القضية المركزية[9].

6 - الربيع العربي والأسلحة غير التقليدية

أثارت الثورات العربية اهتمامًا ملحوظًا في إســرائيل بمــدى تأثيرها في وضع الأسلحة غير التقليدية في الدول العربية، ولا سيما في الدول التي حدثت فيها ثورات، وفي السياسة النووية التي ستتبعها مصر ما بعد الثورة.

كانت إســرائيل مرتاحة جدًا إلى سياسة مصر النووية تحت حكم مبارك، ليقينها أن مبارك اتخذ قرارًا صارمًا بألّا تطوّر مصر مشــروعًا نوويًا عســكريًا. لكن الخشية في إســرائيل تكمن في أن تتّجه مصر بعد ســقوط نظام مبارك، وبعــد أن تســتقرّ الأوضاع فيهــا، نحو تطوير مشــروع نووي. أمّا في شــأن الأســلحة الكيميائية والبيولوجية، فظهر قلق إســرائيلي من عدم تمكّن أجهزة الدولة في سورية من الحفاظ على ســيطرتها الكاملة على هذه الأسلحة التي تعتقد إســرائيل أن ســورية تمتلك كميات كبيرةً جدًا منها. وتخشى إسرائيل من أن يتســرّب جزء من هذه الأسلحة، في ظل اســتمرار الصراع في سورية، إلى حزب الله، أو إلى بعض المجموعات المسلّحة التي تقاتل النظام. وترى إســرائيل أن ذلك يهدّدها تهديدًا خطِرًا؛ إذ تعتقد أن فــي إمكانها ردع النظام السوري عن استعمال هذه الأســلحة ضد إسرائيل، لكنها ستجد صعوبة كبيرة في ردع حزب الله والمجموعات المســلّحة. وقد يــؤدّي حصول حزب الله

(9) روتشيلد وشتاينر، «تقدير هيرتسِليا 2012».

عليها، في إطار سعيه إلى تأسيس الردع المتبادل بينه وبين إسرائيل، إلى ما لا تريد إسرائيل حدوثه بتاتًا(١٥).

ثانيًا: إسرائيل والتغيير في مصر

اهتمّت إسرائيل منذ نشوئها حتى اليوم اهتمامًا كبيرًا بمصر وبدورها البالغ الأهمية في معادلة الصراع العربي - الإسرائيلي وبقدرتها على التأثير في مجمل العلاقات العربية - الإسـرائيلية، أكان ذلك في مرحلة الحرب بين الدولتين أم في مرحلة ما بعد توقيع اتفاق السـلام مع مصر في عـام 1979. ويرجع هذا الاهتمام إلى عاملَيْن أساسيَّيْن:

أوّلهما قوّة مصر الذاتية بوصفها دولة كبيرة ومتماسكة وذات طاقات عظيمة كامنة، تجعلها الدولة العربية الأقدر على الصمود أمام إسرائيل والتصدّي لها.

وثانيهما، دور مصر العربـي والإقليمي المهمّ الذي مكّنها من تبوُّء صدارة العمل العربي المشـترَك وقيادته فتـرة طويلة. وانطلاقًا مـن هاتين الحقيقتين، وإدراكًا منها أن مصر تمتلك «مفتـاح» المنطقة العربية إلى حدّ بعيد، وهي ترى أن اتفاق كامب ديفيد أنهى الصـراع بينها وبين مصر، فإنهـا تعتقد أن الصراع دخل طورًا جديدًا واتّخذ صورة جديدة مغايرةً لما كان عليه. فبعد توقيع اتفاق كامب ديفيد، تمسّـكت إسرائيل بمنطلقاتها الأساسية بشـأن الصراع العربي - الإسرائيلي، واسـتمرّت في صراعها مع مصر على جملة واسـعة من القضايا التي أحرزت فيها منجـزات مهمّة لمصلحتها، وفي مقدّمهـا التقليل من مكانة مصر، وتهميش دورها العربـي والإقليمي، وتقليص تأثيرها في تطوّر الحوادث في المنطقة، وفرض الأجندة الإسرائيلية - الأميركية عليها في ما يخصّ قضايا الصراع الأساسية بصورة عامة والقضية الفلسطينية بصورة خاصّة، ولا سيما في النصف الثاني من فترة حكم مبارك. وممّا سـاعد إسـرائيل في تحقيق أهدافها

(10) انظر إلى دراسـة: دافيد فريدمان وأفرايم أسـكولاي، «انعكاسـات أحداث الربيع العربي في مجال السـلاح غير التقليدي،» في: يوئيل جوجانسـكي ومارك هلر، محرران، سـنة للربيع العربي: انعكاسات إقليمية ودولية (تل أبيب: معهد أبحاث الأمن القومي، 2012).

وجود نظام حكم في مصر يقوم على الاستبداد والفساد ويسعى إلى توريث السلطة مثل كثير من أنظمة الحكم في الدول العربية.

أثّر انتصار ثورة 25 كانون الثاني/ يناير2011 وإسقاط نظام الاستبداد والفساد في وضع إسرائيل الجيوستراتيجي في المنطقة، ووضع أمام استراتيجيتها المعادية لمصر والدول العربية تحدّيات ومخاطر جديدة. إذ فقدت إسرائيل أهمّ حلفائها في العقود الأخيرة، وهو الذي قدّم لها خدمات جمّة وصفها المسؤولون الإسرائيليون بأنها لا تقدّر بثمن[11]. وحدث تطوران مهمّان للغاية كانت إسرائيل تخشى حدوثهما لما يحملان من تأثيرات استراتيجية في مصير مصر والمنطقة: **الأول** هو الشروع في تأسيس نظام ديمقراطي في مصر، والمضي قدمًا في تعزيزه على الرغم من الصعوبات التي تواجهه. **والثاني** هو وصول الإسلام السياسي الذي يحمل مشروعًا معاديًا لإسرائيل، إلى سدّة الحكم في مصر عن طريق صناديق الاقتراع.

غيّرت ثورة 25 كانون الثاني/ يناير المصرية، ولا سيما بعد انتخاب محمد مرسي رئيسًا لمصر، طبيعة العلاقات ونوعيتها، ووضعت حدًا للشراكة الاستراتيجية بين الدولتين، وحرّرت الإرادة الوطنية المصرية من تبعيتها للأجندة الإسرائيلية - الأميركية في المنطقة بصورة عامة، وفي القضية الفلسطينية بصورة خاصّة. وعلى الرغم من صعوبة أوضاعها الاقتصادية، وصعوبة مرحلة عملية التأسيس لنظام ديمقراطي وما يرافقها من صراعات داخلية شديدة، شرعت مصر في استعادة مكانتها ودورها في المنطقة، مع ما فيهما من تعارض وتناقض مع دور إسرائيل وسياستها العدوانية. ومن الواضح أن أشدّ ما يقلق إسرائيل هو الاتجاه الاستراتيجي الذي اتخذته وتتّخذه مصر بعد الثورة في علاقاتها بإسرائيل، لكن من دون التقليل من قلق إسرائيل في تأثير الثورة في نوعية العلاقات بين الدولتين في الوقت الحالي والمدى القريب. فإسرائيل تدرك أن

---

(11) للمزيد من المعلومات في شأن أهمية نظام مبارك لإسرائيل وانفراد إسرائيل في الدفاع عنه، انظر: محارب، «إسرائيل والثورة المصرية».

الدور المصري بعد الثورة، ومــدى تأثيره وفاعليته في قضايا الصراع والخلاف مع إسرائيل، مرتبطان بعوامل كثيرة، تأتي في رأسها قوة مصر الذاتية في مختلف المجالات، ونوعية علاقاتها العربيــة والإقليمية والدولية، وموازين القوى بينها وبين إسرائيل.

انطلاقًا من هذا الإدراك، أولت إســرائيل ومصر اهتمامًــا كبيرًا في ما بعد الثورة وتأثير سياساتها وانعكاسها على إسرائيل في المديين القريب والبعيد في جملة من القضايا، وفي مقدّمها: طبيعة العلاقات الثنائية بين الدولتين، ومستقبل اتفاق السلام، وتأثير التغيرات مصر في سياسة إسرائيل تجاه القضية الفلسطينية بملفّاتها المختلفة، وفي ميزان القوى في المنطقة وفي الأمن القومي الإسرائيلي ووضع إســرائيل العســكري، وفي حجم الجيش الإســرائيلي ومدى استعداده لإمكانية المواجهة العسكرية مع مصر في حال تدهور العلاقات بين الدولتين.

1 - العلاقات الثنائية ومصير اتفاق السلام

هناك إجماع في إسرائيل على الأهمية القصوى لاتفاق السلام بين إسرائيل ومصر بالنسبة إلى أمن إســرائيل القومي ووضعها الاســتراتيجي في المنطقة، وعلى أنه ينبغي لإســرائيل بذل أقصى الجهد من أجــل الحفاظ عليها. وهناك أيضًا إجماع على أن مصر ما بعد الثورة، خصوصًا بعد انتخاب محمد مرســي رئيسًا لها، وضعت حدًا لطبيعة العلاقات السابقة التي كانت بين إسرائيل ونظام مبارك، وأنها غيّرت نوعية هذه العلاقات وطبيعتها تغييرًا كبيرًا. وتحاول إسرائيل استقراء مدى تأثير إقامة نظام ديمقراطي في مصر ووصول «الإخوان المسلمين» إلى ســدّة الحكم من خلال صناديق الاقتراع في مستقبل العلاقات المصرية - الإســرائيلية في الأمدية كلها، القريب منها والمتوســط والبعيد. وتحاول أيضًا استقراء التغيير في السياسة المصرية: هل ســيقتصر على تغيير نوعية العلاقات في ظلّ الالتزام باتفاق كامب ديفيد أم أن هذا التغيير سيشــمل المطالبة بإجراء تعديلات فيه، أم أن مصر ســتعمل على إلغاء الاتفاق على المديين المتوســط والبعيد؟

يستبعد معظم الباحثين والمتخصصين الإسرائيليين إقدام مصر في المدى القريب على إلغاء اتفاق كامب ديفيد، لأسباب براغماتية تعود إلى حسابات موازين القوى والعلاقات بالولايات المتحدة والدول الغربية، وإلى انعكاسات مثل هذا القرار على وضع مصر الاقتصادي. وأشار أكثر من باحث ومتخصص إسرائيلي إلى أن الحفاظ على علاقات مستقرّة بين مصر وإسرائيل هو أمر حيوي لمصر، ولا سيما لاقتصادها؛ إذ هناك أربعة قطاعات مهمة وواسعة في الاقتصاد المصري على علاقة مباشرة وغير مباشرة باستقرار العلاقات مع إسرائيل وعدم حدوث مواجهة عسكرية، وهي: السياحة والنفط والغاز وقناة السويس والمساعدات الاقتصادية والعسكرية الأميركية[12].

لكن من الملاحظ أن هناك قلقًا إسرائيليًا على مصير اتفاق كامب ديفيد على المدى البعيد؛ حيث هزّ الربيع العربي الكثير من المسلّمات لدى الإسرائيليين بشأن مصر والمنطقة العربية. وممّا زاد من قلق الإسرائيليين على مصير الاتفاق واقع جديد: ففي حين أن مصير اتفاقات السلام بين إسرائيل وجيرانها ارتبطت في الماضي بإرادة الحكام فحسب، كما يؤكّد المتخصصون الإسرائيليون، ظهر بعد الربيع العربي عامل جديد ذو تأثير كبير في هذه الاتفاقات، وهو الشارع العربي أو الرأي العام العربي الذي تحرّر من نظام الاستبداد. وهناك خشية في إسرائيل من أن يقود تأثير الرأي العام المصري المرافِق لوصول الإخوان المسلمين إلى سدّة الحكم في مصر، وهم الذين يحملون مشروعًا معاديًا في الأصل لإسرائيل، إلى المطالبة الجدية بتعديل اتفاق كامب ديفيد أو إلغائه كليةً على المدى البعيد، عندما تصبح مصر في وضع قوي يسمح لها بذلك[13].

---

(12) انظر مثلًا: غيورا آيلاند، «الاضطرابات في الشرق الأوسط وأمن إسرائيل،» عدكان إستراتيجي، السنة 14، العدد 2 (تموز/ يوليو 2011). وانظر أيضًا: يتسحاق غال، «المصلحة المصرية تتطلب استقرار العلاقات مع إسرائيل،» تسومت هامزرح هاتيخون، السنة 1، العدد 2 (6 آذار/ مارس 2011)، موقع موشي ديان لدراسات الشرق الأوسط، <http://www.tau.ac.il/dayancenter/framepub.htm>.

(13) للمزيد من التفاصيل، انظر: عوديد عيران، «مستقبل اتفاقيات إسرائيل مع جاراته،» عدكان إستراتيجي، السنة 15، العدد 1 (نيسان/ أبريل 2012).

كان الأمر الأهمّ بالنسبة إلى إسرائيل في ما يخصّ اتفاق كامب ديفيد أنه أخرج مصر من حلبة الصراع العسكري معها، ومكّنها من الافتراض طوال العقود الماضية أنه لن تحدث أي مواجهة عسكرية مع مصر في أي حال من الأحوال، حتى وإن شنّت إسرائيل حربًا وعمليات عسكرية واسعة ضد هذا الطرف العربي أو ذاك. وبناء على هذه الفرضية، أكّدت المؤسّسة العسكرية الإسرائيلية طوال العقود الماضية أنه لن تكون هناك مواجهة عسكرية بين مصر وإسرائيل ما لم يحدث «تحوّل استراتيجي» في مصر[14]. والسؤال الأهمّ الذي تحاول إسرائيل الإجابة عنه هو: هل حصل هذا «التحوّل الاستراتيجي» في مصر بعد الثورة؟

يتّفق المحلّلون الإسرائيليون على أن «التغيير الاستراتيجي» في مصر تجاه إسرائيل عملية طويلة تستغرق أعوامًا، وليس أمرًا يحدث دفعة واحدة، ما يعطي إسرائيل الوقت الملائم للاستعداد له[15]. والسؤال الذي تحاول إسرائيل استقراء الإجابة عنه هو: هل بدأ فعلًا في مصر «التحول الاستراتيجي» الذي يملي عليها إجراء تغيير في استراتيجيتها العسكرية وزيادة ميزانيتها الأمنية وزيادة حجم الجيش الإسرائيلي برًا وجوًا وبحرًا في الأفراد والعتاد والذخيرة[16]؟ ويدعو العديد من المتخصصين الإسرائيليين إلى متابعة مسألة «التغيير الاستراتيجي» في مصر وفحصها بدقّة وعن كثب لتقوم إسرائيل بالاستعداد لمواجهته في الوقت الملائم.

2 - الوضع في سيناء

الوضع في سيناء ذو أهمية كبيرة بالنسبة إلى كلّ من مصر وإسرائيل، إذ يمثل خطّ احتكاك مباشر بين الدولتين، وتتأثّر به العلاقات الثنائية وتؤثّر فيه. كما أنه يكشف القيود التي فرضها اتفاق كامب ديفيد على السيادة المصرية

(14) آيلاند، «الاضطرابات في الشرق الأوسط».
(15) آيلاند، «الاضطرابات في الشرق الأوسط».
(16) آيلاند، «الاضطرابات في الشرق الأوسط».

في ســيناء. وتواجه مصر منذ أعوام مشكلة كبيرة في بســط نفوذها على وسط سيناء وشمالها. وتعود هذه المشكلة جزئيًا إلى سياسة الإهمال والتهميش التي مارستها الدولة تحت حكم نظام مبارك ضد مواطنيها في سيناء، وأدّى بقسم كبير منهم إلى إدارة ظهره للنظام المصري ومؤسّساته، وإلى ظهور مجموعات كثيرة مسلّحة وغير مسلّحة، تعمل ضد النظام المصري من ناحية، وضد إسرائيل من ناحية أخرى. فهي تقوم بتهريب الســلاح إلى المقاومة في قطاع غزة، وتهريب المهاجرين الســرّيين الأفارقة إلى إسرائيل. أمّا الجزء الآخر من المشكلة فيعود إلى الملحق العسكري لاتفاق كامب ديفيد، إذ يمنع وجود الجيش المصري في وسط سيناء وشــمالها، ويقصره على وجود رمزي فحسب، الأمر الذي حدّ من قدرة الدولة المصرية على استعمال الجيش في مواجهة المجموعات المسلحة، ونظام مبارك كان يركّز على أسلوب القمع في هذه المواجهة.

في أثناء ثورة 25 كانون الثاني/ يناير وبعدها، تقلّص نفوذ الدولة في سيناء وازداد نشاط المجموعات المسلّحة في مختلف المستويات. وعارضت إسرائيل إجراء تعديلات في الملحق العســكري لاتفاق كامب ديفيد، أو إدخال الجيش المصري مــا يحتاج إليه من قــوات ومعدّات عســكرية لمواجهة المجموعات المســلّحة من دون الموافقة الإســرائيلية الرسمية المســبقة. وبدا هذا الموقف الإســرائيلي ضعيفًا ولا يتماشــى مع التغيرات في مصر ولا مع المســتجدّات في ســيناء التي لم يتوقّعها اتفاق كامب ديفيد، ولا سيما إن إسرائيل دأبت على الشــكوى من عدم قيام مصر بمواجهة المجموعات المسلّحة، وعدم مكافحتها تهريب الســلاح إلى قطاع غزة؛ ورفضت في الوقت نفســه إجراء تعديلات في الملحق العســكري لاتفاق كامب ديفيد لتتلاءم مع المتطلّبات الأمنية المصرية الداخلية، وتمسكت بأن يكون دخول القوات المصرية إلى وسط سيناء وشمالها محدودًا من حيث الأفراد والعتاد والفترة الزمنيــة. ويبدو أن نوعية هذه العلاقة كانت تتلاءم مــع نظام مبارك ولا تتــلاءم مع النظام الجديــد؛ إذ أدخلت مصر ما تحتــاج إليه من قوات الجيــش المصري إلى ســيناء لمكافحة المجموعات المســلّحة من دون الطلب من إسرائيل. ودعا الدبلوماســي الإسرائيلي السابق والباحث فــي معهد دراســات الأمن القومي فــي جامعة تل أبيــب الحكومة

الإســـرائيلية إلى الاســـتجابة لإجراء تعديلات إذا طلبت مصـــر ذلك، «وكانت التعديلات المطلوبة معقولة». فوفق ما ذكر عيـــران، فإن هدف هذه التعديلات هو تمكين مصر من مواجهة المجموعات المســلّحة ومكافحة تهريب السلاح إلى قطاع غزة، والحفاظ على القانون والنظام وليس محاربة إســـرائيل. كما أن إعادة إقرار مصر اتفاق السلام، تحت حكم «الإخوان المسلمين»، بعد استجابة إسرائيل للتعديلات المطلوبة، لها مردودها السياسي المهمّ[17].

3 - إسرائيل والثورة السورية

كان الموقف الإسرائيلي من النظام السوري ومن الثورة السورية المطالبة بإسقاطه مركّبًا ومعقّدًا، وتتنازعه عوامل عديدة مختلفة ومتضاربة، يدفع بعضها نحو إســـقاطه في حين يدفع بعضها الآخر عكس ذلـــك، على خلاف الموقف الواضح والداعم لنظام مبارك والمعارض لإســـقاطه بشـــدّة. ومن أهمّ العوامل التي تدفع الموقف الإسرائيلي نحو تحبيذ إسقاط النظام السوري نذكر ما يلي:

- التحالف الذي أقامه النظام الســـوري مع إيـــران و«حزب الله» وبعض التنظيمـــات الفلســـطينية، والذي أصبـــح محـــورًا مهمًا في مناهضة السياســـة الإســـرائيلية - الأميركية في المنطقة في ما يخصّ كلًا من الملفّات: الســـوري واللبناني والفلســـطيني والملفّ النووي الإيراني. وترى إســـرائيل أن ســـقوط النظام السوري ســـينهي المحور الإيراني- الســـوري المناهض لسياساتها في المنطقة، في مرحلة مهمّة وحسّاســـة في الصراع بشأن الملف النووي الإيراني، ويغيّر طبيعة علاقات سورية مع حزب الله، ويفكّ التحالف القائم بينهما، وهو ما يقود إلى إضعاف «حزب الله».

- تمسّك النظام الســـوري بموقفه المناهض لشروط السلام الإسرائيلية - الأميركية، وإصراره على انســـحاب إســـرائيل من الجولان السوري إلى حدود الرابع من حزيران/ يونيو 1967.

---

(17) عيران، «مستقبل اتفاقيات إسرائيل».

على الرغم من أن إســرائيل تتّخذ النظام الســوري عدوًا لهــا، فإن هناك عوامل مهمّة تدفع الموقف الإســرائيلي نحو تحبيذ بقاء النظام السوري اعتقادًا منها أن ســيناريو بقائه في الحكم هو الأقل ســوءًا بالنســبة إليها. فمن خبرتها بالنظام الســوري في العقود الماضية، تراه عدوًا مريحًا يمكن ردعه من ناحية، والتوصّــل معه إلــى تفاهمات مهمّة مــن ناحية أخرى، خصوصًــا منذ توقيعه اتفاق فصل القوات ووقف إطلاق النار مع إســرائيل في عام 1974. ومن هذه الأسباب نذكر ما يلي:

- احترام النظام الســوري منذ عام 1974 اتفاق وقــف إطلاق النار على الجبهة السورية، وعدم سماحه لجيشه أو للمقاومة بإطلاق رصاصة واحدة على قوات الاحتلال الإسرائيلي في الجولان.

- اتخاذ النظام الســوري قرارًا تاريخيًا مؤداه أن الســلام مع إسرائيل هو خياره الاســتراتيجي، وأن مسألة اســتعادة الجولان الســوري المحتلّ تعالَج بالطرائق الســلمية وبالمفاوضات غير المباشرة مع إســرائيل، وذلك منذ نهاية البحث عن «التوازن الاستراتيجي» مع إسرائيل وبدء مفاوضات مدريد.

- إجــراء النظــام الســوري مفاوضات جديــة وطويلة مع إســرائيل في تسعينيات القرن الماضي بوساطة أميركية، وفي عاميْ 2007 و2008 بوساطة تركية، إلى استعداده لتوقيع اتفاق سلام مع إسرائيل وإقامة علاقات طبيعية معها في مختلف المجالات في مقابل استعادة الجولان المحتل[18].

- إن التجربة في العقود الماضية أثبتت أن في إمكان إسرائيل التوصّل إلى تفاهمات مهمّة مع النظام السوري، من خلال الاتّصال المباشر به، على أرضية المصالح المشتركة في القضايا العربية الأكثر حساسية، حتى وإنْ كانت تتناقض مع مواقف النظام السوري العلنية الرسمية[19].

---

(18) للمزيد انظر: أوري ســجي، اليد التي تجمدت (هياد شكفآه) (تل أبيب: مسكال ويديعوت أحرونوت، 2011).

(19) للمزيد من التفاصيل في شأن هذا الموضوع وفي شأن اجتماع رفعت الأسد (شقيق الرئيس السوري السابق حافظ الأسد ورجل سورية القوي في عقد السبعينيات وبداية الثمانينيات) سرًا في كانون =

تنازعت العوامل المذكورة أعلاه التأثير في الموقف الإسرائيلي تجاه الثورة في سورية. وبدا واضحًا، على الرغم من الخطاب اللفظي لقادة إسرائيل، وهو الخطاب الذي يتّسم في كثير من الأحيان بالمناورات والتخبط، أن الموقف الإسرائيلي فضّل عدم استجابة النظام السوري لمطالب الثورة السورية المنادية بالحرية والديمقراطية، إلى لجوئه إلى الحل العسكري القمعي، لأن إسرائيل ترى أن إقامة نظام ديمقراطي في سورية يمثّل تغييرًا استراتيجيًا فيها وله تأثيره المهم في المنطقة، ويحمل إمكان النهوض بها وتعزيز قدراتها ومكانتها ودورها في المنطقة على المديين المتوسط والبعيد، وهو ما يزيد من قدراتها في مواجهة إسرائيل. وفضّلت إسرائيل، وتفضّل، إدامة الصراع في سورية واستمراره أطول فترة ممكنة من أجل استنزاف الدولة والشعب وطرفيْ الصراع - النظام والثورة.

يطرح المتخصصون الإسرائيليون سيناريوات عدة لمستقبل سورية وما قد يحمله من تأثير في إسرائيل والمنطقة، وأهمّ هذه السيناريوات[20]:

- تمكّن نظام بشّار الأسد، بعد جهد طويل ومرير وممارسة البطش والقمع، من البقاء في الحكم لأعوام. ويؤكّد غيورا آيلاند أن هناك تأييدًا لهذا السيناريو في أروقة متّخذي القرار في إسرائيل لأنه الأقلّ سوءًا كما يدّعي. وإذا بقي بشّار الأسد في الحكم، فإنه سيبذل كلّ جهده لتوطيد حكمه في الداخل والحصول على الشرعية الدولية في الخارج. وفي هذه الظروف سيكون ضعيفًا جدًا ولن يفكّر في المواجهة مع إسرائيل، وقد يخفّف من دعمه لـ «حزب الله».

- إسقاط النظام السوري ودخول سورية في حالة من الفوضى والصراع الداخلي. وهذا السيناريو سيضعف سورية ويقلّل من خطرها العسكري على

= الأول/ ديسمبر 1981، مع وزير الدفاع الإسرائيلي أريئيل شارون من أجل التفاهم بشأن أهداف الحرب على قوات منظمة التحرير الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية التي كان يخطط شنها في عام 1982، انظر: «الموقف الإسرائيلي من الثورة السورية ومستجداته،» المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 26 حزيران/ يونيو 2012. <http://dohainstitute.org/release/79d8a65c-1c6a-4f6a-a547-daf42f0c1c71>.

(20) آيلاند، «الاضطرابات في الشرق الأوسط».

إسرائيل، لكنّه في الوقت نفسه سيضع حدًا لاتفاق وقف إطلاق النار بين سورية وإسرائيل؛ إذ من المرجح أن تقوم بعض المجموعات المسلّحة بهجمات على الجيش الإسرائيلي في الجولان السوري المحتلّ وتفتح جبهة مع إسرائيل تستقطب شيئًا فشيئًا المزيد من المجموعات المسلّحة، مستغلّة الفوضى وعدم وجود حكم مركزي قوي في سورية.

- وصول الإسلاميين إلى السلطة من خلال صناديق الاقتراع بعد إسقاط النظام، وفي هذه الحالة ستتحالف سورية مع تركيا وستكون سورية أكثر عداءً لإسرائيل.

- إقامة نظام ديمقراطي يتمخّض عنه انتخاب الفئات والأحزاب ذات التوجّه السياسي العام نحو الغرب. وفي مثل هذه الحالة، من المرجح ألّا يتّخذ الحكم الجديد في البداية على الأقل، موقفًا عدائيًا تجاه إسرائيل، من أجل تثبيت الحكم. ومن المرجّح أن يشجّع وجود هذا النظام الدول الغربية في ممارسة الضغط على إسرائيل لإعادة الجولان السوري المحتلّ إلى سورية في إطار اتفاق سلام بين إسرائيل وسورية[21].

خاتمة

هزّ الربيع العربي العديد من الفرضيات والمسلّمات الأساسية المغلوطة التي كانت سائدة في إسرائيل، ولدى كثيرين في المنطقة والعالم بشأن «طبيعة» الإنسان العربي وتقبّله الخضوع للظلم والخنوع لأنظمة الاستبداد، وبشأن استقرار حكم أنظمة الاستبداد والفساد واستمرارهما في الدول العربية. وفي الوقت نفسه، أظهر الربيع العربي الطاقات الكبيرة الكامنة في الشعوب العربية، وأعاد التقدير إلى الرأي العام العربي والشارع العربي والجماهير العربية لناحية قدرتها على التأثير في تطوّر المجريات في المنطقة. وما انفكّت الثورات العربية منذ انطلاقها تثير قلقًا عميقًا في إسرائيل، لما تحمله من عوامل مهمّة مؤثّرة من شأنها إذا تحقّقت، أو تحقّق بعضها، أن تُضعف من عوامل قوّة إسرائيل

(21) آيلاند، «الاضطرابات في الشرق الأوسط».

من ناحيــة، وأنْ تعزّز عوامل قوة الدول العربية مــنْ ناحية أخرى. فعلاوة على إسقاط العديد من أنظمة الاستبداد والفساد، وفي مقدّمها خسارة إسرائيل نظام مبارك- حليفها الاستراتيجي الأفضل في العقدين الأخيرين - هناك قلق حقيقي في إسرائيل من إمكان نجاح الثورات العربية في تأسيس أنظمة حكم ديمقراطية متينة في الأعوام المقبلة في العديد من الدول العربية، ولا سيما في مصر، ومن وصول قوى وأحزاب سياســية إلى ســدّة الحكم في الدول العربية من خلال صناديق الاقتراع، تحمل مشــروعًا معاديًا لإســرائيل ولسياســاتها في المنطقة وتسعى إلى تغيير طبيعة العلاقات معها والتصدّي لها ولسياساتها العدوانية تجاه الشعب الفلسطيني والدول العربية. وتخشى إســرائيل أن يقود ذلك إلى تعزيز العمل العربي المشــترَك، في القضية الفلسطينية خصوصًا، وأن يساهم في خلق الأوضاع الملائمة لإعادة الوحدة الوطنية الفلســطينية، وإلى تبنّي الدول العربية استراتيجيا جديدة تجاه إســرائيل لعزلها إقليميًا ودوليًا، ما قد يؤدّي إلى تراجع علاقات إســرائيل بحلفائها، إذا اســتمرّت في سياسة الاســتيطان في المناطق الفلسطينية المحتلّة وفي البطش بالشعب الفلسطيني.

تعقيب

هاني المصري

تشير الدراسة المهمة التي قدّمها محمود محارب بشكل جيد إلى عوامل الاهتمام الإسرائيلي بالربيع العربي ومنطلقاته، والتغيير في مصر وتأثيره في العلاقات الثنائية، ومصير اتفاق السلام والوضع في سيناء، وما يجري في سورية والعوامل التي تدفع الموقف الإسرائيلي باتجاه تحبيذ إسقاط النظام السوري، وتلك التي تجعله أقل السيناريوات سوءًا.

الثغرة الواضحة في الدراسة أنها تبالغ في العوامل والمظاهر والاحتمالات الإيجابية التي رافقت التغييرات والثورات العربية، وتقلل من أهمية العوامل والمظاهر والاحتمالات السلبية. فما يجري هو ثورات وتغييرات تاريخية تحمل من الوعود والفرص والآمال الشيء الكثير، لكنها تترافق مع مؤامرات وتدخّلات ونواقص تجعل المخاطر كبيرة، بحيث يمكن ألّا تتحقق أهداف الثورات أو أن تتحقق جزئيًا، أو أن تنحرف تحت تأثير عوامل وظروف ومعطيات لا يمكن إسقاطها من الحسبان.

في السياق عينه، أظهرت الدراسة المخاوف الإسرائيلية من الثورات العربية، ولم تعطِ الآمال الإسرائيلية منها الاهتمام الواجب. فما يجري في المنطقة شر لإسرائيل، لكن يمكن تحويله إلى خير، أو إلى شر أقل سوءًا، خصوصًا إذا استطاعت إسرائيل والولايات المتحدة الأميركية إقامة حلف مع الدول العربية التقليدية والحكام الجدد، خصوصًا في مصر، ومع جماعة الإخوان المسلمين

لاستكمال تحويلها إلى إســلام معتدل، وتوظيفها ضد الإسلام المتطرف، وفي المعركة ضد إيران وسورية وحزب الله وتحالف هؤلاء مع روسيا والصين.

ترى إســرائيل في محصلــة موقفها مــن المتغيرات في المنطقــة العربية المخاطرَ وتستعد لها، كما أنها ترى الفرص وتسعى إلى قطف ثمارها. كما أنها حاولت توظيف الثورات والتغييرات لمصلحتها من خلال القول إنها أثبتت أن المنطقة العربية منطقة رمال متحركة لا يوجد ثابت فيها، لا الشعوب ولا البلدان ولا الحكام، وذلك لتبرير عدم قبولها تســوية في الســابق تتضمن الحد الأدنى من الحقوق الفلسطينية المكرســة في القانون الدولي وقرارات الأمم المتحدة، ورفض أي تسوية في هذه المرحلة أو في المستقبل.

فما جرى في المنطقــة العربية، وتحديدًا في مصــر (الدولة المحورية في المنطقــة)، مفتوح على احتمالات عــدة لا على احتمال واحــد؛ فهناك نجاح الثورات وتحقيــق أهدافها بإقامة أنظمــة ديمقراطية واســتقلال وطني وعدالة اجتماعية، وهناك انتكاسة الثورة وهزيمتها أو تحقيق نجاحات محدودة وليست حاســمة؛ إذ يمكن ألّا تنجح الثورة المصرية في تحقيق أهدافها (عيش [خبز]، حرية، كرامة، استقلال وطني) كما تدل الأزمة العميقة التي لا تزال تمر بها على الرغم من مرور حوالى عامين على اندلاعها، وما يمكن أن يعنيه ذلك من غرق في صراعات داخلية بين الإســلام السياســي والتيار المدني. فقد تدخل مصر في نفــق مظلم لفترة طويلة، تجعلها غير قادرة على إثارة المشــكلات في وجه إســرائيل، بل تبقيها تحت رحمتها ورحمة المساعدات الأميركية والدولية التي لا تقدَّم من دون شروط، والاستجابة لهذه الشروط تمنع الثورات من استكمال أهدافها، وهو ما قد يؤدي إلى إجهاضها. ويعزز ذلك ما أشــارت إليه دراســة محارب في شأن ملفات مصرية عدة مهمّة تؤثر إسرائيل فيها، مثل: النفط وقناة السويس والسياحة والمســاعدات الأميركية ومعاهدة السلام وسيناء والصراع العربي – الإســرائيلي، خصوصًا الفلسطيني – الإســرائيلي، وانعكاساته على العلاقات المصرية – الإسرائيلية.

الديمقراطية لم تتحقق في مصر حتى الآن، على الرغم من سقوط حسني

مبارك وإجــراء انتخابات برلمانية ورئاســية، فالانتخابات وحدها لا تســاوي الديمقراطية، مع أنه لا ديمقراطية بلا انتخابات.

قد تنتصر في مصر ديمقراطية مشــوّهة، شــكلية، لا تغيّر من طبيعة النظام ومرتكزاته وأهدافه الأساســية وطابعه الاجتماعي الاقتصادي، وإنما تســتبدل بنخبة حاكمة نخبة أخرى، تســير في سياساتها الأساســية على سياسات النظام السابق.

يدل على ذلك ما يجري حاليًا من أزمة في مصر أحد عناوينها الأساســية الخلاف في شــأن الدســتور، حيث إن الرئيس المصــري - مدعومًا بجماعة الإخوان المسلمين والســلفيين - يريد فرض دكتاتورية جديدة من خلال إقرار دســتور غير توافقي، بحجة أنه يمثّل الأغلبية، متجاهلًا أن الدســتور يجب أن يمثّل الجميع وليس الأغلبية فحسب، كما أن الأغلبية مهما كبُرت لا تستطيع أن تمس مجموعة من القيم والأهداف والأساســيات التي من دونها لا يوجد نظام ديمقراطي.

على ســبيل المثال، يشــار إلى أن حقوق الإنســان وحرياته الأساســية والمســاواة بين المواطنين وســيادة القانون ومبدأ تداول الســلطة واســتقلال الســلطات، خصوصًا الســلطة القضائية وحرية الإعــلام والانتخابات الدورية المنتظمة على جميع القطاعات والمســتويات، هذه كلهــا لا تخضع للأغلبية، لأن الأغلبيــة يمكن أن تفــرض حكمًا دكتاتوريًا مســتبدًا فاســدًا، ولا تحقق ديمقراطية إذا لم تعطِ الأقلية أو الأقليات حقوقها كاملة من دون نقصان، وعلى رأسها حقها المعارضة والعمل من أجل الســيطرة على الحكم بأشكال سلمية وديمقراطية.

يساعد في ظهور هذا الاحتمال الذي يشير إلى ارتداد الثورة وإجهاضها أو هزيمتها أن الإسلام السياســي الصاعد في المنطقة بصورة عامة، ومصر بصورة خاصّة، غير معروف عنه إيمانه العميق بالديمقراطية، بل إنه يعاني تأثير إرث قديم كان فيه محافظًا رجعيًا مرتبطًا بأوثق العلاقات بالدول الإمبريالية والمحافظة في

المنطقة، ومعاديًا للقوى والاتجاهات القومية واليسارية والتقدمية والوطنية التي من دون التحالف معها لا يمكن بالأمس واليوم والمستقبل النهوض بالشعوب العربية، الأمر الذي يكبّله ويحد من قدرته، وربما يمنعه، من السير باتجاه التقدم والديمقراطية. ويضاف إلى ذلك أنه خاضع لتجاذب اتجاهات عدة داخله: منها ما يعطي الأهمية الواجبة للاستقلال الوطني والتخلص من التبعية، وبلورة برامج وطنية اقتصادية اجتماعية قادرة على النهوض في البلدان العربية، ومنها ما يريد إعادة إنتاج الدور القديم للإخوان المسلمين، وينجر إلى تحويل الصراع في المنطقة إلى صراع بين الإسلام المعتدل والإسلام المتطرف، بين السنّة والشيعة، بين العرب والفرس، ويرى الانتخابات عرسًا ليوم واحد، أو طريقًا للوصول إلى الحكم واللجوء إليها ما دام هذا الهدف تحقق.

نقطة أخرى أهملتها الدراسة هي أهمية الترابط بين الديمقراطية والاستقلال الوطني، خصوصًا عندما يجري الحديث عن طبيعة الصراع العربي - الإسرائيلي وخصائصه، وعلاقات الولايات المتحدة الأميركية بالمنطقة، وبإسرائيل، وبهذا الصراع الذي تنظر إليه نظرة خاصّة على اعتبار أن الحفاظ على أمن إسرائيل ودورها محوري وأساس من محاور السياسة الأميركية بإزاء العالم والمنطقة.

إن إهمال أهمية الاستقلال الوطني، وتفكيك أواصر التبعية، وتوفير حد كافٍ من العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص، ومكافحة الفقر والفساد والبطالة والتخلف والتمييز، كل ذلك سيقود، في أحسن الأحوال، إلى ديمقراطية شكلية مشوّهة، قد تؤدي أو تغطي على تفتت طائفي ومذهبي على جميع المستويات والصعد، أكان في كل بلد عربي على حدة، أم على الصعيد العربي العام، وفي الإقليم.

إن ما جرى في العراق مثلًا، لناحية إضعافه وتقسيمه طائفيًا، مع حفاظه على إطار شكلي من الوحدة، ووقوعه في ما يشبه الحرب الأهلية، وإخراجه من دائرة التأثير في المنطقة لفترة طويلة مقبلة، ومحاولة تعميمه في المنطقة يجب أن يؤخذ في الحسبان، مع أنه ليس قدرًا، لكنه يبقى احتمالًا يجد من يدعمه ويغذيه، خصوصًا إسرائيل والولايات المتحدة الأميركية.

نعم، ثمة تراجع في الدور الأميركي في المنطقة وفي العالم، لكن هناك محاولات لسد الفراغ بأدوار أخرى، تركية وإسرائيلية وإيرانية، وإبقاء العرب ميدانًا لصراع النفوذ والمصالح بين الأطراف الإقليمية والدولية من دون مشروع عربي واحد وموحَّد.

صحيح أن ما يجري في مصر مختلف كثيرًا عما جرى في العراق، لأن التغيير في العراق جاء بغزو خارجي عبر احتلال العراق، أما ما يجري في مصر و بلدان عدة في المنطقة هو ثورات يراد لها أن تنتهي إلى ما وصل إليه العراق. وإذا كانت الآمال في مصر أكبر لأسباب تاريخية وراهنة - لسنا في مجال الخوض فيها - فإن ما يجري في سورية مفتوح على احتمالات عدة، بعضها يجعل تكرار ما جرى في العراق ليس مجرد احتمال بعيد. وإذا كانت أوساط إسرائيلية تفضّل بقاء نظام الأسد الذي تعرفه من فترة طويلة، على أساس «أن شيطانًا تعرفه خير من شيطان لا تعرفه»، فإن هناك أوساطًا إسرائيلية أخرى تعجّل في سقوطه، لأنها تأمل: إمّا بوجود نظام صديق لإسرائيل لن يضغط عليها بعد قيامه من أجل تقديم شيء له، مثل الانسحاب من الجولان كما أشارت الدراسة مثار النقاش، مثلما لم تقدم صداقة نظام حسني مبارك و«المعتدلين العرب» أي تسوية مقبولة، أو حتى قبول مبادرة السلام العربية، وإنما أدت الصداقة مع إسرائيل إلى المزيد من تطرفها وفتح شهيتها للمزيد من التنازلات العربية؛ وإمّا بدخول سورية في دوامة الصراع الداخلي والفوضى اللذين سيخرجانها من دائرة التأثير والصراع مع إسرائيل، وربما إلى تقسيمها، والأمر يسمح لإسرائيل بزيادة نفوذها في سورية والمنطقة.

ثم إن الاحتمالات والعوامل التي تركز عليها الدراسة صحيحة من حيث الآمال والفرص، لكن هناك احتمالات وعوامل أخرى تمس المخاطر لم تعطها الاهتمام الواجب، بحسب اعتقادي؛ فعلى سبيل المثال، لا يمكن وصف الإسلام السياسي الصاعد في المنطقة بالراديكالي فحسب، على راديكاليته، بل يجب وضع هذه الكلمة بين قوسين، لأن الوصف الأقرب إليه بعد التعديلات والتغييرات هو الإسلام المعتدل، لأنه يحرص بشكل متزايد، خصوصًا بعد

انتصاره في بلدان عربية عدة، على تمييز نفسه من الإسلام المتطرف الذي يمثّله تنظيم القاعدة وأمثاله، وتمثّله إيـران وحلفاؤها، كما يحرص على الصداقة مع الولايات المتحدة الأميركية والدول الغربية، ويسعى إلى مراضاتها بصورة مبالغ فيها كثيرًا، ما يعكس عدم رؤيته الدوافع التي تحركها نحوه، والمخططات التي ترسمها للمنطقة وله.

لا يمكـن ألّا نرى صعـود جماعة الإخوان المسـلمين فـي المنطقة مع تحوّلات ملموسـة في نظرتهم وسياسـاتهم، بحيث ينتقلون رويـدًا رويدًا من اتجاه إلى آخر. لا أقول إنهم انتقلوا كليًا، أو من المحتم أن يسـتكملوا التحوّل من إسلام راديكالي يسعى أو يمكن أن يتطور حتى يحقق الحرية والديمقراطية والاستقلال إلى إسلام معتدل ومحافظ، يتعايش مع إسرائيل إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولًا، بحجة أن مشـروعه إسلامي شـامل وليس عربيًا، وانتصاره حتمي. والدليل على هذا التحوّل تغيّر موقف جماعة الإخوان المسـلمين من إيران وسـورية وحزب الله والشـيعة، بحيث أصبح الخطر الإيراني والصفوي أكبر من خطر إسـرائيل عند بعضهم، أو كأنه خطرها عنـد بعضهم الآخر. كما أصبحت المراهنات على الولايات المتحدة الأميركية والسعي لعقد الاتفاقات السياسية والاقتصادية معها هما المسألة الجوهرية في سياسات الحكام الجدد، وهذا يجعـل الجانب البراغماتي يتقدم ويُنَحّي الجانـب الأيديولوجي والديني والراديكالي.

الفصل الحادي عشر

المنظمات والحركات العابرة الحدود

حسن أبو هنية

مع بدء «الانتفاضات العربية» السلمية في تونس وانتقالها إلى مصر ثم ليبيا فاليمن، وصولًا إلى سورية والبحرين، ودخول البقية الباقية من الدول العربية آفاق «الحراك الشعبي»، وعلى الرغم من قطع مسارات سلمية الانتفاضات وعسكرتها لاحقًا، كما جرى في ليبيا وسورية واليمن بطرائق مختلفة، بشّر خبراء ومحللون بهزيمة أيديولوجية «تنظيم القاعدة» العنيفة وأفول براديم «السلفية الجهادية» المتشدد. إلّا أن السلفية الجهادية التي فوجئت بداية، كغيرها، بطوفان التغيير، كان لها رأي مختلف؛ إذ واجهت حالة «إعلان الوفاة» بظاهرة ميلاد «الأنصار».

توصلت الاستراتيجية الجديدة للسلفية الجهادية وعقلها المدبّر «القاعدة»، عقب الانتفاضات العربية، إلى تحوّلات ميدانية عميقة تمثّلت في زوال بعض الأنظمة «السلطوية» الدكتاتورية والدخول في أفق اللعبة «الديمقراطية» التعددية إلى خلاصة أساسية تنص على ضرورة التكيّف مع التحوّلات البنيوية عبر الانتقال من «النخبوية» إلى «الشعبوية»؛ فتنظيم القاعدة، بقيادته المركزية في باكستان وأفغانستان وفروعه المنتشرة في أرجاء العالم الإسلامي أدرك منذ بداية «الانتفاضات» العربية التغيّرات الموضوعية والفائدة الحيوية للتحوّلات من

خلال تأييدها وإسنادها والمشاركة في حراكاتها، ذلك أن راياتها «السوداء» باتت في وقت لاحق جزءًا من المشـــهد العام، بل ادّعت أن مناوشة العدو «القريب» والصراع مـــع العدو «البعيد» مهّدا للدخول في أفق «الثـــورات» العربية؛ إذ يبدو أن الجاذبية النســـبية التي يتمتع بها تنظيم القاعدة فـــي تجنيد أعضاء ومناصرين لا تقتصر على الطبيعة الأيديولوجية والخطاب الديني المعولم الذي ينشـــط في ظروف الاســـتبداد والهيمنة، بل إنها تتجاوز المنظومة الأيديولوجية والخطابية بالاعتماد على وســـائل وتقنيات حداثية فـــي إيصال رســـالته الجهادية النظرية وتحقيق اســـتراتيجياته العملية[1]. وأظهرت «القاعدة» قـــدرة فائقة على التكيف والتطور مع التحديات والمتغيّـــرات المختلفة، وتمكنت من ابتكار طرائق فريدة للحفاظ على وجودها وتطوير قدراتها الواقعية والافتراضية، على الرغم من كثافة الملاحقة الدولية التي تقودها الولايات المتحدة وحلفاؤها في إطار سياسات ما يســـمّى «الحرب على الإرهاب». ولعل قراءة النماذج التفسيرية التي ظهرت في عام 2009 لجهاديي الجيل الثالث تفضي إلى التعرف إلى مدى التطور والقدرة على إبداع وسائل وتقنيات مبتكرة. فالعامل المشترك هو الدخول في أفق الفضاء السيبيري والعوالم الافتراضية الذي نتج من الثورة الرقمية في سياقات العولمة. ومع دخول العالم العربي عصـــر «الثورات» التي نـــادت بالحرية والديمقراطية والتعددية والعدالة الاجتماعية، قدمت القاعـــدة نموذجها الجديد بالانتقال من «النخبوية» إلى «الشعبوية».

أولًا: القاعدة والعولمة: تاريخية الأجيال

يرتبط تأســـيس تنظيم القاعدة بظاهرة العولمة ارتباطًا وثيقًا؛ حيث تزامنت إرهاصات النشأة والتكوين مع جملة من التحوّلات الأيديولوجية والاستراتيجية

(1) تتوافر مجموعة من الدراسات والأبحاث في شأن الجاذبية الأيديولوجية لتنظيم القاعدة، انظر على ســـبيل المثال التقارير الأميركية التي تتحدث عن الصعوبات التي تواجهها الســـعودية في «محاربة جاذبية أيديولوجيـــة القاعدة»: «تقرير الخارجية عـــن الإرهاب العالمي للعـــام 2006: الفصل الخاص بالشرق الأوســـط» (تقرير، وزارة الخارجية الأميركية، مكتب منسق مكافحة الإرهاب، 30 نيسان/ أبريل 2007). <http://www.cdhrap.net/text/tqarer/alkarjeei/004/2006.htm>.

التي غيّرت طبيعة النظام الدولي. فالحركة السلفية الجهادية المعاصرة التي يُعتبر تنظيم القاعدة أحد تجلياتها المباشرة دشنت قطيعة مع الفكر الإسلامي الإصلاحي الذي تبلور في نهاية القرن الثامن عشر، وامتد حتى منتصف القرن العشرين، متشبعًا بأفكار راديكالية ثورية، وضعت في قلب أولوياتها «الجهاد»، كمفهوم ثوري يهدف إلى الانقلاب على مجمل الأوضاع والأطروحات الإصلاحية التي تطالب بتطبيق الشريعة تدريجًا بالاعتماد على منهج سلمي في الوصول إلى غاياتها وأهدافها. وانشغلت بمفهوم «الجهاد» كأيديولوجيا ثورية انقلابية بغية إطاحة الأنظمة «الجاهلية» التي تتحكم في مصائر العالَمين العربي والإسلامي، استنادًا إلى مبدأ «الحاكمية» الذي ينص على الكفر والردّة لدى الأنظمة، والدول الإسلامية المعاصرة التي تكوّنت عقب أفول المرحلة الاستعمارية، وقيام الدولة الوطنية المعاصرة التي تبنّت منهجًا يقوم على أساس الفكرة القومية، أو الديمقراطية الليبرالية، أو الاشتراكية اليسارية، أو على خليط من هذه الأيديولوجيات.

بدأ تنظيم القاعدة بالتبلور والتشكّل في نهاية عقد الثمانينيات من القرن العشرين مع بروز «**الجيل الأول**» في ظل نظام دولي بلغت معه الحرب الباردة أوجها بين قطبي الصراع العالمي الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفياتي. وكانت أفغانستان أحد أهم حدود تخوم الصراع؛ حين اغتنمت الولايات المتحدة الفرصة لتقويض الاتحاد السوفياتي عبر أفغانستان، بالتحالف مع القوى العربية والإسلامية كما تقويض أركان المنظومة الاشتراكية. وساعدتها رغبة شديدة من لدن الأنظمة العربية والإسلامية في التخلص من الجهاديين المزعجين الذين استهوتهم أيديولوجيا قتال «العدو القريب». واستقطب الجهاد الأفغاني معظم رموز السلفية الجهادية، وفي مقدمها الشيخ عبد الله عزام الذي عمل على تأسيس «مكتب الخدمات» منذ وصوله إلى أفغانستان في عام 1984. وكان بن لادن والظواهري وبقية شيوخ السلفية الجهادية قد جاءوا إلى أفغانستان من مختلف أنحاء العالَمين العربي والإسلامي، وعملوا على تأسيس معسكرات خاصّة بهم. في هذا السياق، وضع الجيل الأول للقاعدة بزعامة بن لادن المبادئ الأساسية للتنظيم الذي

تبلور في عام 1988، متوفّرًا على هيكلية واضحة المعالم بإمارة بن لادن التي تمت من خلال بيعة الأعضاء، ووجود مجلس شورى ولجان متعددة، كاللجنة العسكرية والمالية والإدارية والمالية والإعلامية. وكان التنظيم مع الجيل الأول في حالة جدل دائم، ولم تكن أفكاره وأيديولوجيته قد استقرتا[2]، وكان بالغ السرية وليس له نشاط إعلامي مستقل.

مثّلت حرب الخليج الثانية (1991) منعطفًا حاسمًا في ظهور «**الجيل الثاني**» للقاعدة؛ إذ عقب خروج الاتحاد السوفياتي من أفغانستان في عام 1989 ثم انهياره وتفككه ودخول الجماعات الأفغانية في صراع مسلح، بدأ الأفغان العرب والأجانب يبحثون عن جبهات وملاذات جديدة وقتال عنيف خلال عقد التسعينيات، كما حدث في الجزائر وليبيا ومصر والشيشان والبوسنة وغيرها. واختار بعضهم البقاء إلى جانب أحد فصائل المجاهدين المتناحرة، واختار بعضهم الآخر أوروبا، خصوصًا بريطانيا التي أصبحت مركزًا إعلاميًا ولوجستيًا للحركات السلفية الجهادية في العالم، وباتت تُعرف بـ «لندنستان»[3]. وعاش هذا الجيل حلول العولمة التي تنطوي على هيمنة أميركية تقوم على مبدأ سيطرة الاقتصاد في حقل التنمية، ومبدأ سيطرة التقنية في حقل العلم، ومبدأ سيطرة الشبكة في حقل الاتصال[4]. ويبدو أن الفشل الذي أسفرت عنه عمليات الصدام مع الأنظمة المحلية، وعمليات العولمة القائمة على الهيمنة والسيطرة والاستتباع وبروز النظريات الاستشراقية والثقافوية، عمل على بلورة «الجيل الثاني» للقاعدة. ففي ظل التحوّلات الدولية والإقليمية والوطنية في منتصف

---

(2) في شأن تنظيم القاعدة، انظر: عبد الباري عطوان، القاعدة: التنظيم السري (بيروت: دار الساقي، 2007)؛ جيل كيبيل، الفتنة: حروب في ديار المسلمين، ترجمة نزار أورفلي (بيروت: دار الساقي، 2004)، وكميل الطويل، القاعدة وأخواتها: قصة الجهاديين العرب (بيروت: دار الساقي، 2007).

(3) في شأن هذه المرحلة، انظر: جيل كيبيل، جهاد: انتشار وانحسار الإسلام السياسي، ترجمة نبيل سعد، مراجعة أنور مغيث (القاهرة: دار العالم الثالث، 2005)، وراي تاكيه ونيكولاس غفوسديف، نشوء الإسلام السياسي الراديكالي وانهياره، ترجمة حسان بستاني (بيروت: دار الساقي، 2005).

(4) طه عبد الرحمن، روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية (بيروت: المركز الثقافي العربي، 2006)، ص 79-81.

التسعينيات، تولّد لدى بعض قطاعات السلفية الجهادية اقتناع قوامه أن «العدو القريب» تمثّله الأنظمة العربية والإسلامية ليس بذاتها، وإنما بغيرها، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأميركية وحلفاؤها من الإسرائيليين وعملائهم، وانتهت إلى نظرية جديدة تبلورت على يد أسامة بن لادن وأيمن الظواهري، وأسفرت في عام 1998 عن ولادة «الجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والصليبيين والأمريكان»[5]، وتبنّت استراتيجية أولوية قتال «العدو البعيد» التي نظّر لها الظواهري في كتابه **فرسان تحت راية النبي**[6]. وتعود أصول استراتيجية تدويل الجهاد والثورة إلى ثلاثة أوضاع: **الأول** محلي وطني يتمثّل في إغلاق الأنموذج السياسي وفشل وعود التحوّل الديمقراطي ورسوخ الاستبداد، **والثاني** إقليمي يتمثّل في عدم التوصل إلى سلام عادل وحقيقي في فلسطين، **والثالث** عالمي يتمثّل في انهيار الاتحاد السوفياتي وسيادة القطب الأميركي الواحد وحلول العولمة[7]. وكانت أولى ثمرات قيام الجبهة تفجيرات شرق أفريقيا في نيروبي ودار السلام، وفي هذه المرحلة لم يكن للإعلام داخل القاعدة حضور لافت، إلّا أنها مرحلة شكّلت إرهاصًا للدخول في حقل الشبكة بعد أن بدأت بالدخول إلى العالم العربي.

دشّنت حوادث 11 أيلول/ سبتمبر 2001 ظهور **«الجيل الثالث»** للقاعدة؛ إذ إنها أسفرت عن قيام الولايات المتحدة باحتلال أفغانستان وإزاحة حكم طالبان، من خلال حشد تحالف دولي بغية القضاء على القاعدة وحرمانها من ملاذات آمنة. وأعلنت الولايات المتحدة سياستها الموسومة بـ «الحرب على الإرهاب». وعلى الرغم من الضربات التي تعرّض لها تنظيم القاعدة باغتيال عدد من قادتها الأيديولوجيين والعسكريين أمثال أسامة بن لادن وأنور العولقي وأبو مصعب الزرقاوي وأبو يحيى الليبي وعطية عبد الرحمن وأبو اليزيد

---

(5) «إعلان الحرب على أمريكا،» بيان صادر عن تنظيم القاعدة العالمي، أفغانستان، 1998.

(6) أيمن الظواهري، **فرسان تحت راية النبي**، كتاب نشر على حلقات في صحيفة الشرق الأوسط، كانون الأول/ ديسمبر 2001، ص 41.

(7) فرانسوا بورغا، **الإسلام السياسي في زمن القاعدة: إعادة أسلمة، تحديث، راديكالية**، ترجمة سحر سعيد (بيروت: شركة قدمس للنشر والتوزيع، 2006)، ص 60.

المصري وأبو حفص المصري وأبو الليث الليبي، واعتقال خالد شيخ محمد وأبو زبيدة ورمزي بن الشيبة وأبو الفرج الليبي... وغيرهم، فإن تنظيم القاعدة برهن عن قدرة فائقة على التكيف مع ظهور «الجيل الثالث» الذي بدا أكثر خطورة وابتكارًا؛ إذ دشن عولمة الحركة السلفية الجهادية، وتمكّن من إنشاء فروع إقليمية في مختلف القارات. وتزامن ظهور الجيل الثالث في العالم الواقعي مع ظهور «الجيل الأول» من الجهاديين في الفضاء السيبيري مع تنامي العولمة والثورة الاتصالية، إذ شكّل في عام 1969 مرحلة جديدة من مراحل التطور في القرن العشرين، بعد أن توصل علماء أميركيون إلى ابتكار شبكة «الإنترنت» في صيغتها الأولى (ARPA)، ومن ثم تحوّلها في عام 1983 إلى الاستخدام المدني بعد أن كانت مقتصرة على الاستخدام العسكري، وانطلاقها إلى العالم بشكل واسع في عام 1995. وتنامت شبكة الإنترنت في العالم على نحو مذهل بحيث أصبح عدد المستخدمين أكثر من مليار مستخدم، منهم في العالم العربي أكثر من 38 مليونًا منذ دخول الخدمة في أواخر التسعينيات[8].

يُعتبر تنظيم القاعدة من أكثر التنظيمات الراديكالية المسلحة في التاريخ المعاصر اهتمامًا بشبكة الإنترنت والمسألة الإعلامية؛ إذ أدرك منذ فترة مبكرة من تأسيسه الأهمية الاستثنائية للوسائط الاتصالية في إيصال رسالته السياسية ونشر أيديولوجيته السلفية الجهادية، بحيث أصبح مفهوم «الجهاد الإلكتروني»[9] راسخًا في أدبياته الإعلامية. وأشار الظواهري إلى أن العمل الإعلامي للقاعدة يتمتع بأهمية العمل العسكري، وقال في أحد لقاءاته: «أسأل الله أن يجزي العاملين في الإعلام الجهادي خير الجزاء... وأدعوهم لمزيد من الجهد والعطاء، وأحمد الله أن شهد الأعداء وفي خدمتهم الإمكانات الهائلة

---

(8) في شأن أن دخول الإنترنت إلى العالم العربي، انظر: ألبرشت هوفهاينز، «الإنترنت في العالم العربي: ملعب الليبرالية السياسية،» ترجمة محمد فتحي كلف، وجهات نظر، <http://www.weghatnazar.com/article/article_details.asp?id=802&issue_id=51>.

(9) ظهر هذا المصطلح في أواسط التسعينيات واستخدمه أول مرة طلاب يعيشون في الولايات المتحدة، انظر: ألبرشت هوفهاينز، «الإنترنت والديموقراطية في العالم الإسلامي،» <http://www.qantara.de/webcom/show_article.php?wc_c=499&wc_id=11&wc_p=1>.

ومؤسسات الإعلام الجبارة بهزيمتهم أمام الإمكانات الضئيلة للمجاهدين»[10]. واعترفت الولايــات المتحدة بتفوّق القاعدة في حربهــا الإعلامية الإلكترونية، إذ تكاثــرت المواقع والمنتديات الجهادية بشــكل كبير ومذهــل منذ أن أعلن تأسيس «الجبهة العالمية لقتال اليهود والصليبيين» في عام 1998.

عملت الســلفية الجهادية، وهي الفضــاء الأيديولوجــي لتنظيم القاعدة، على عولمة حركيتها وفاعليتها في سياق الاســتجابة والرد على عولمة سياسة «الحرب علــى الإرهاب». وأظهرت قدرة فائقة علــى التكيف والنمو والتجدد بعد تعرضها لضربات عسكرية وأمنية أسفرت عن مقتل واعتقال عدد من قادتها البارزين في شــتى أنحاء المعمورة، بعد دخول القوات الأميركية وقوات حلف الناتو إلى أفغانســتان عقب هجمات 11 أيلول/ ســبتمبر 2001. إلّا أن فقدان القاعدة ملاذها الآمن ومركزيتها في أفغانســتان عمل علــى إحياء الجدل بين منظّريها في شــأن موضوعة مركزية التنظيم الذي كان يدافع عنه أبو بكر الناجي في كتابه إدارة التوحش... أخطر مرحلة ستمر بها الأمة[11]، ولا مركزيته مع أبو مصعب السوري في كتابه دعوة المقاومة الإسلامية العالمية[12].

يبــدو أن تنظيم القاعــدة زاوج بيــن الأطروحتين؛ إذ ســرعان مــا تبنّى اســتراتيجية تعدد الملاذات، وبدأ بإنشــاء فروع متعددة ذات مستويات عديدة، أهمها:

المستوى الأول مناطق أفغانستان، تمثّلها حركة طالبان بقيادة الملا محمد عمــر وقاعدة الجهاد بقيادة أســامة بن لادن. باكســتان، تمثّلهــا حركة طالبان الباكستانية بقيادة حكيم الله محســود. والعراق، تمثّلها دولة العراق الإسلامية

(10) انظر: الكلمة التي وجهها أيمن الظواهري إلى رجــال الإعلام الجهادي في اللقاء الرابع له مع مؤسسة السحاب، 16/12/2007.

(11) أبو بكر ناجي، إدارة التوحش... أخطر مرحلة ســتمر بها الأمة ([د. م.]: مركز الدراســات والبحوث الإسلامية، [د. ت.])، ص 26، منشور على موقع منبر التوحيد والجهاد: <http://www.tawhed.ws/c?i=62>.

(12) عمر عبد الحكيم (أبو مصعب السوري)، دعوة المقاومة الإسلامية العالمية، 2 ج ([د. م.]: د. ن.]، 2004)، ص 896.

بإمارة أبو مصعب الزرقاوي ثم أبو عمر البغدادي ثم أبو بكر الحسني، وجماعات السلفية الجهادية الأخرى. والشيشان، تمثّلها إمارة القوقاز الإسلامية وأميرها دوكو عموروف. وأخيرًا الصومال، تمثّلها حركة الشباب المجاهدين بإمارة الشيخ مختار عبد الرحمن (أبو الزبير)، وهي المناطق التي تمثّل للتيار الجهادي العالمي جبهات حرب مفتوحة ضد القوى الأجنبية على أراضيها.

المستوى الثاني يضم مناطق المغرب العربي ومركزه الجزائر: «قاعدة الجهاد في المغرب الإسلامي» التي تنشط ضد الأنظمة السياسية، ونسبيًا القاعدة في الجزيرة (بفرعيها النجدي واليمني)، وكلتاهما تعتبر نشاطها، على الأغلب، كما لو أنها في وضعية دفع الصائل؛ إذ غالبًا ما تهاجمان منشآت حيوية وأهدافًا أجنبية، وتنأيان عن بعض الممارسات التي لا تتبنّاها تلك الجماعات كما حدث في استهداف مقر الأمن العام في الرياض، حيث نفى زعيم القاعدة عبد العزيز المقرن المسؤولية عنها. ثم إن «قاعدة الجهاد في الجزيرة العربية» وجنوبها («قاعدة الجهاد في اليمن»)، على ارتباط تنظيمي مباشر بقاعدة الجهاد في أفغانستان.

المستوى الثالث: مناطق شرق آسيا في الفليبين وإندونيسيا ومؤخرًا جزر المالديف، ودول آسيا الوسطى، خصوصًا تركستان الشرقية وطاجكستان وأوزبكستان، وتضم هذه البلدان جماعات جهادية تمرَّس بعضها بالقتال في مراحل الجهاد الأفغاني، وفي بلدانها.

المستوى الرابع: لبنان: حركة «فتح الإسلام» و«عصبة الأنصار». وقطاع غزة: «جيش الأمة» و«جيش الإسلام» و«فتح الإسلام» و«سيوف الحق» و«جند أنصار الله»، وجميع هذه القوى فلسطينية الطابع ما عدا حركة «فتح الإسلام» التي تعرضت لحرب استئصالية شنّها الجيش اللبناني على معقلها في مخيم نهر البارد شمال لبنان. إضافة إلى سورية حيث تنشط بعض المجموعات بين الحين والآخر تحت مسمّى «جند الشام» أو «قاعدة الجهاد في بلاد الشام» لكنها غير واضحة المعالم حتى الآن(*). وفي مصر: «قاعدة الجهاد في أرض الكنانة».

(*) كتب هذا البحث قبل ظهور «داعش» (الدولة الإسلامية في العراق والشام).

المســتوى الخامس: خلايا المبادرة الذاتية، أو ما يطلق عليه أمنيًا «الخلايا النائمة»، وهذا النوع ينشــط عبر العالم من خلال أفراد لا صلات لهم تنظيمية مباشرة بالقاعدة أو بجماعات الجهاد العالمي[13].

طرحت مســألة فقدان المــلاذات في العالــم الواقعي ضــرورة البحث عن مــلاذات آمنة في العالم الافتراضي، فســارعت الفــروع الإقليمية للقاعدة إلى إنشــاء وتأســيس مواقع ومنتديات جهادية ومراكز إعلاميــة، حيث برزت «مؤسســة الســحاب» وأصبحت جزءًا من «مركز الفجر الإعلامي» الذي يتبع تنظيم القاعدة المركزي في أفغانستان وباكســتان بزعامة أسامة بن لادن وأيمن الظواهري. وظهــر «مركز اللجنة الإعلامية» الذي يتبــع تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإســلامي، وتحول إلى مؤسســة الأندلس للإنتاج الإعلامي. وظهر مركز «صوت الجهــاد» الذي يتبع تنظيــم القاعدة في جزيــرة العرب، وعقب اندماج فرعَي القاعدة في الســعودية واليمن ظهرت «مؤسسة صدى الملاحم». وعمدت هذه المؤسســات إلى إصدار كتب ومجلات إلكترونيــة عدة، أمثال «صوت الجهاد» و«البتار» و«ذروة السنام» وغيرها. وتُعتبر مساهمة فرع القاعدة في الســعودية فريدة وثرية، حيث عمل يوسف العييري على وضع التنظيم على شبكة الإنترنت بشــكل مكثف، وعمل عبد العزيز المقرن عقب مقتل العييري على تأســيس موقع جهادي مخصص للمرأة حمل اسم موقع «الخنساء». وقُتل المقرن في مواجهات مع الأجهزة الأمنية الســعودية في حزيران/ يونيو 2004. وعمل الموقع على تجنيد النســاء عبر شــبكة الإنترنت لتنظيم القاعدة، وكانت تشرف عليه نساء يتوفّرن على الأيديولوجيا الســلفية الجهادية نفسها. ونشطت النساء الجهاديات مؤخرًا على الشبكة في العالم الافتراضي، ولعل قضية مليكة العروض المنظورة في المحكمة في بلجيكا نموذج للناشطات الجهاديات على الشبكة، بعد أن عمل تنظيم القاعدة على دمج المرأة في المشروع الجهادي في العالم الواقعي، وصناعة كتائب «الاستشهاديات» اللواتي نفذن عمليات انتحارية في مناطق مختلفة.

---

(13) أكرم حجازي، رحلة في صميم عقل الســلفية الجهادية (دراسة استطلاعية)، <http://www.zshare.net/download/9398789efc6555/>.

إن تنامي شـــبكة الإنترنت فـــي العالمين العربي والإســـلامي مكّن تنظيم القاعدة من الانتشار والتجنيد، إذ وفّرت الشبكة إمكانات هائلة للنمو والانتشار وعولمة الجهاد، وكشـــفت العمليات الثلاث الأخيرة لتنظيم القاعدة عن طبيعة التحوّلات العميقـــة في بناء التنظيم ومـــدى جاذبيته الأيديولوجيـــة والخطابية وقدرته على خلق نمـــاذج مبتكرة قادرة على التجدد والتخفـــي وابتداع طرائق وممارسات هجومية فائقة الدقة والقوة؛ إذ تواجه الأجهزة الاستخبارية العالمية في إطار حربها على ما يســـمّى «الإرهاب» تحديًا حداثيًا غير مسبوق تاريخيًا. فقد اعتادت الأجهزة الأمنية التعامل مع عدو ظاهر واضح المعالم، وتنظيمات تتوفّر على هيراركية هيكلية محددة، وقيـــادات ورموز واقعية معروفة في أماكن جغرافيـــة محددة. إلّا أن النمـــوذج الجديد الذي أصبح إرشـــاديًا لا يقوم على الجماعات المنظمة في العالم الواقعي وإنما على الأفراد في العالم الافتراضي.

لعل أحـــد أهم التطورات التـــي فرضتها العولمة في العصـــر الرقمي على تنظيم القاعدة ترســـيخ نماذج جديدة من الجهاد والجهاديين، كالجهاد الفردي. وتتميز ظاهرة «الجهاد الفردي»[14] بأنها لا تخضع للتنميط، وأعضاؤها ينحدرون من خلفيـــات اجتماعية متنوعة غير مهمّشـــة اقتصاديًا إلّا أنّها تشـــعر بالتهميش الاجتماعي والثقافـــي، ولا تتوافر لدى الأجهزة الإســـتخبارية قاعدة معلومات خاصّة بهـــا، فأعضاؤها خاملون في المجال الاجتماعي الواقعي وناشـــطون في العالـــم الافتراضي، وعلى قـــدرات علمية وتقنية عالية فـــي مجال الاتصالات. فالجيل الثالث من جهاديي القاعدة ينتمي إلى خلفيات متنوعة بلا قيادات فعلية، ويتعامل مع قيادات رمزية على شـــبكة الإنترنت لا أحـــد يعرف هويتها الواقعية الحقيقية. ويشـــهد العالم الافتراضي ظهور موجات من القيـــادات الافتراضية، إذ اشـــتهر من الموجة الأولى من الجهاديين الافتراضيـــين التي ظهرت في عام 2002: أبو بكر الناجي وأبو عبيدة القرشـــي ولويس عطية، ومن الموجة الثانية التي ظهرت في عام 2006: حسين بن محمود وعطية الله، ومن الموجة الثالثة التي ظهرت في عام 2009: عبد الرحمن الفقير ويمان مخضب وأسد الجهاد 2.

---

(14) محمـــد خليل الحكايمـــة، الجهـــاد الفـــردي والخليـــة الفرديـــة، <http://alfaloja.info/vb/showthread.php?t=56827>.

إن إحـــدى مميزات الجيل الثالـــث من الجهاديين الفرديـــن هي المبادرة والقدرة على التواصل عبر الإنترنت، إذ إنهم لا يعتمدون على الطرائق التقليدية في التواصل والتجنيد؛ حيث حل الإنترنت مكان المســاجد في عمليات التعبئة والمشـــاركة والتدريب والتجنيد، وما عادت القاعدة تبحث عن أعضائها، فهذا الجيل هو من يسعى إلى الانضمام إلى القاعدة.

إن النماذج التفســيرية لجهاديي الجيل الثالث في العالم الافتراضي الذي وفّرته العولمة وثورة الاتصالات تكشــف عن تحــولات عميقة في بنية القاعدة والســلفية الجهادية على صعيد الوعي الأيديولوجي والممارســة الجهادية؛ إذ يتنامى الإحساس والشعور بأن الأمّة الإسلامية الممتهنة على مد النظر من خلال شاشات التلفزة والإنترنت تتطلب ضرورة بناء أمّة جديدة تضع حدًا لهذه الآلام المهينة. وتتغذى هذه الرؤية من عمليات الإفقــار لواقع على صلة بعالم يتجرد أكثر وتتزايد فيه صعوبة الوصول إليه. وتفضي هذه العمليات إلى شعور قوي بأن العلاقات الإنسانية تافهة وتفتقر إلى المعنى، والأمر يستدعي حضور «الشهادة» من المجال الإسلامي التاريخي إلى الحيّز الواقعي. فالشهيد لدى القاعدة يعيش هذه الحياة ويختبرها بنفسه من خلال الشبكات والفضائيات والتلفزيون الرقمية. واتصاله بهذا الواقع يتم عبر النظام الإلكتروني بشكل عام، وبه يتغذى عبر الصور ويتبلور من خلال مفاهيم العبودية والمســؤولية والحريــة والجهاد والتكليف. فالشـــهيد المفترض مكلّف في العالم الافتراضي ويصبح مســؤولًا عن العالم الواقعي باعتباره خياليًا؛ فالحياة الحقيقية هي الأخرى في الجنة؛ إذ سمح العالم الافتراضي الرقمي بطي المســافة بين الدنيا والآخرة، وهـــو يعيد بناء الجهادي باعتباره كائنًا أخلاقيًا منشــغلًا بأمانــة التكليف. فالمقاصــد والغايات تحركان الاستشهادي، والقيم والمعاني الرمزية وأسئلة النهايات تتحكم في المصائر؛ إذ تؤشر عوالم الاستشهادي إلى إعادة الاعتبار إلى المعنى الذي فُقد بفعل العولمة وقيام «آلهة» السوق وافتتاح بيوت «العبادة» الاستهلاكية. فالعنف الجهادي بهذا المعنى تمرّد على العنف الملازم للعولمة بعنف مضاد يعمل على إعادة الاعتبار إلى الرمزي بتقديمه على المادي. وأحدثت العولمة برأسماليتها المتوحشة حالة من الفوضى والتشتت، وهي البيئة التي تزدهر فيها القاعدة.

ثم إن الشعور بالغربة والمهانة لم يفارق الجيل الثالث الذي نشأ في حضن العولمة، وحتى من يعيش في مستوى الطبقات المتوسطة والعليا. ففي حالة هؤلاء الشهداء، يطغى مفهوم الأمّة الافتراضية ذات السياق الرقمي البحت والمرتبطة بشبكة الإنترنت؛ فهم يرون أن الأمّة تتعرض للعنف والامتهان والإساءة والاعتداء. وإذا كانت الكرامة غير قابلة للتحقق في العالم الواقعي، فإنها أصبحت أساسًا للتعبئة والحركة والتجنيد. وفي هذا السياق يحل مفهوم الأمّة المتخيلة الافتراضية في مكان الواقعية الضائعة. فالمكانة التي يحتلها الخيال تترجم في تجربة الموت/ الشهادة، بحيث يكتسب صفة الموت المقدس من خلال انفصال ثلاثي الأبعاد بين الحياة والموت، والحاضر والمستقبل، والدنيا والآخرة، إذ يسيطر مفهوم «الشهيد الحي» على أبناء الجيل الثالث من أتباع القاعدة الذين يعملون على تأسيس حداثة إسلامية متعالية بغية الوصل بين الإنسان والإله، والعقل والوحي، والدنيا والآخرة؛ إذ إن هذا التصوّر ينشد ضمان الديمومة بين الحياة والموت والعالم الافتراضي والواقعي، فالشعور بأن ثمة انفصالًا بين الحياة والموت يضعف بشدة، بحيث يخرج الخوف من الموت ويتلاشى من خلال مفهوم الشهادة، فالعالم الافتراضي الذي امتد إلى تجربة أبناء الجيل الثالث الذين يشعرون بالغربة في أوطانهم وجدوا ملاذًا آمنًا في فضاء العالم الإلكتروني، وصولًا إلى إمكانية وقوع الحادث من دون عائق من العالم الواقعي. ففي عوالم العالم الافتراضي لدى محترفي الدخول إلى الشبكات يصبح الواقع افتراضيًا معقدًا، ويظهر إلى حد كبير في عالم المجتمعات الحديثة اليومي في المدن الكبيرة المعولمة، وهي أمكنة غياب المعنى وشيوع التشتت، وبما يزيد في الاحتفاء بالعالم الافتراضي، ويعزّز الابتعاد من الواقع[15].

التقنيات الحديثة التي امتزجت مع تجارب الحياة في المدن الحديثة تعمل على جبهتين: الأولى جبهة ابتكار عالم جديد مرقّم يولّد واقعًا بحسب

(15) انظر: فرهارد خسرو خافار، شهداء الله الجدد في سوسيولوجيا العمليات الانتحارية، ترجمة جهيدة لاوند، الفكر الاجتماعي؛ 2 (العراق: معهد الدراسات الاستراتيجية؛ دمشق: دار المدى، 2007)، ص 354-356.

الطلب، يكون بمنزلة وسـيط ذي معنى ويتمتع بالاسـتقلالية، في مقابل حقيقة فعلية وواقع افتراضـي رقمي. فعندمـا نعيش في مدن كبرى، حيث يتلاشـى الواقع ونصبح مهمَّشـين اجتماعيًا وثقافيًا، وليس اقتصاديًا، من السهل الإقدام على الخطوة التالية، فالنتيجة الطبيعية للغطرسة الغربية التي يندد بها الجهاديون هي ضياع حقيقة هذا الغرب في غربة تبتعد أكثر فأكثر عن الواقع وتتسـم أكثر بالافتراضية والرقمية والتجريد. والأمر يؤذن بدخول القاعدة في أفق جديد من العوالم الجهادية الافتراضية، وتدشـين جيل ثالث من الجهاديين أكثر خطورة ومعرفة ودراية، ويصعب تتبّع مساراته ومآلاته.

ثانيًا: القاعدة بعد الثورة: طرائق مغايرة ونشأة مستأنفة

عقب عرض مقاطع من الفيلم المسـيء إلى الإسـلام «براءة المسلمين» على موقع اليوتيوب، تفجرت تظاهرات احتجاجيـة غاضبة مناهضة للولايات المتحـدة في طول العالـم العربي والإسـلامي وعرضه، وبات اسـم «أنصار الشريعة» الأكثر شـيوعًا وتداولًا؛ وجاء الحادث الأبرز من ليبيا عقب الهجوم على القنصليـة الأميركية في بنغازي واتهام جماعة محليـة تدعى «كتيبة أنصار الشريعة» بتنفيذ الهجوم، وهي تُهم أنكرتها الجماعة واعتبرتها مسيَّسة.

علـى الرغم من حداثة التسـمية بـ «أنصار الشـريعة»، فإن أفـراد هذه الجماعات وأنصارها ينتمون إلى التيار السـلفي الجهـادي الذي يمثّل الفضاء الأيديولوجي والبشـري لتنظيم القاعدة. فأنصار الشـريعة هـم بمكانة الطور الجديد الذي بدأ يمتد ليشـمل غالبية أفراد السلفية الجهادية في العالم، انطلاقًا من اليمـن ومرورًا بتونس وليبيـا والمغرب ومالي. والأمر يشـير إلى أننا أمام استراتيجيا جديدة للسلفية الجهادية، وآليات عمل مختلفة، وتكيّف أيديولوجي مع زمن الربيع الديمقراطي العربي. فجماعات أنصار الشـريعة تمثّل الاستجابة السـلفية الجهادية لحقبة الثورات الديمقراطية العربيـة وللتحوّلات البنيوية في البيئة المحيطة بالقاعدة والجهاديين، وهي التي فرضت على أولئك إعادة النظر في أولوياتهم وتصوراتهم الاستراتيجية بخصوص منهج التغيير السياسي؛ فمع

انخراط التيارات السـلفية التقليدية في مصر ودول أخرى في سياقات العملية الديمقراطية من خلال المشاركة وتأسـيس أحزاب سياسية، بدعوى إقامة دولة إسـلامية عبر اللعبة الديمقراطيـة، وفي مقابل مراجعـات الجهاديين في مصر وليبيا والمغرب والتخلي عن أيديولوجيا الحاكمية واستراتيجية العمل المسلح، ومع بروز خطاب جماعة الإخوان المسلمين الذي ذهب نحو تبنّي الديمقراطية بوصفها «نظامًا للحكم»، تطرح السـلفية الجهادية (اليوم) رؤيتها الجديدة عبر جماعات «أنصار الشـريعة»، لتأكيد رفض الانخراط في اللعبـة الديمقراطية، ونقض المراجعات السـلفية التي تنادي بالتخلّي عن المفاهيم الأساسية للتيار، والإصرار على مطلب تحكيم الشـريعة الإسـلامية. والمبدأ الأبرز لهذا التيار الموسوم بـ «تطبيق الشريعة الإسلامية» إنما يأتي من خلال «الوسائل الشرعية»، لكن من خارج أطر اللعبة الديمقراطية لا من داخلها.

اعتبر محللون أن مقتل بن لادن لم يكن سوى «إسدال الستار» على مرحلة القاعدة التي أتت انعكاسًـا لفشل الأنظمة العربية وسـوء إدارتها خلال العقود الماضية، وأن المقتل الحقيقي للرجل والضربة القاصمة لقاعدته تمثّلا بدخول زمن الثورات الديمقراطية العربية التي قدمت خيارًا استراتيجيًا مختلفًا للشباب العربي ومغايرًا للطريق التي تدعوهم إليها القاعدة لمواجهة الأنظمة العربية. إلّا أن السـؤال عن موقف القاعدة من الثورات الديمقراطيـة قد لا يكون عند هذا المسـتوى من الاختلاف والتناقض! فهذه الثورات، من زاوية أخرى، خلّصت القاعدة من عدو شـرس متربص بها، وهو هذه الأنظمـة، وفتحت الطريق أمام الشـعوب العربية لتكون أكثر حرية واسـتقلالًا وكرامة، وتمتلـك القدرة على المشـاركة في اختيار حكوماتها، كما هي الحال في مصر وتونس، وهي أنظمة معادية بقوة وشراسة للقاعدة والحركات الإسلامية عمومًا.

من هذه الزوايـا المتباينة والمتعددة في الرؤية يمكـن الاقتراب من قراءة القاعـدة لهذه الثـورات وتداعياتها في المنطقـة العربية، وهو مـا يدعونا إلى الوقـوف أولًا عند خطـاب قيادات نافذة ومؤثـرة في القاعدة تجـاه الثورات الديمقراطية، ثم استخلاص النتائج، على المستوى العالمي.

في السياق العالمي تبدو رسائل أيمن الظواهري، المنظّر الأيديولوجي للقاعدة والرجل الأبرز حاليًا فيها، بشأن الثورات الديمقراطية، وتحديدًا في مصر، من أهم «الوثائق» بهذا الخصوص، وتحديدًا ما سمّي «رسالة الأمل والبِشر لأهلنا في مصر»[16]. ومقالة أبو يحيى الليبي، وهو المفتي الشرعي والفقهي للقاعدة، بعنوان «ثورات الشعوب بين التأثر والتأثير»[17] المنشورة في مجلة طلائع خراسان، وهي المجلة الأكثر تأثيرًا وحضورًا لدى تنظيم القاعدة، وتحمل المواقف الأكثر أهمية لقادتها. وأخيرًا مقالة أنور العولقي، وهو من أبرز دعاة القاعدة، بعنوان «تسونامي التغيير» في المجلة التي تصدرها قاعدة الجزيرة العربية باللغة الإنكليزية إنسباير *(Inspire)* (إلهام)[18].

يُعتبر تناول الظواهري موضوع الثورات على درجة من الأهمية والتأثير في مسار القاعدة وأفكارها، ويمكن أن يمثّل ملامح الخطاب الجديد أو التغيّرات في خطابها. ففي رسالته، يخصص الجزء الأكبر للشأن المصري ويسهب في نقاط رئيسة أبرزها:

– اعتبار أن ما حدث من ثورات ديمقراطية عربية هو جزء مكمّل للحرب التي تخوضها القاعدة في العراق وأفغانستان ضد الغرب والأنظمة المتحالفة معه، بهدف تحرير الأمّة من الاستبداد والاحتلال: «أمتنا تخوض معركة واحدة ضد غزاة الحملة الصليبية ووكلائهم حكامنا الفاسدين المفسدين».

– التحذير من الأجندة الأميركية والغربية، والتشكيك في جدوى دعمها الثورة المصرية، بل التأكيد أن الغرب لا يريد إقامة حكم حرّ حقيقي في العالم العربي، يمثّل نظامًا إسلاميًا شوريًا، يرفض احتلال أراضي المسلمين ويواجه المطامع الإسرائيلية. بل يرى الظواهري أن كل ما تريده الولايات المتحدة

---

(16) أيمن الظواهري، «رسالة الأمل والبِشر لأهلنا في مصر» (مؤسسة السحاب للنشر الإعلامي، 4 آذار/ مارس 2011).

(17) محمد عبد المجيد حسن قائد (أبو يحيى الليبي)، «ثورات الشعوب بين التأثر والتأثير،» طلائع خراسان، العدد 18 (آذار/ مارس 2011).

(18) Anwar Al-Awlaki, «The Tsunami of Change,» *Inspire Magazine*, no. 5 (May 2011).

هو «نظام يعطي الشـعب بعض الحريات، ولا يهـدد مصالحها، ولا يمس أمن إسرائيل».

- الجزء الأهم في رسالته يبدو في تحذيره من «سرقة الثورة» بعدم تحكيم الشريعة الإسلامية أو بالتلاعب بهوية مصر الإسلامية. وفي هذا السياق يطالب الإسـلاميين والمصريين جميعًا بالدفع نحو تطبيق الشـريعة الإسلامية، وبعدم القبول بالحكم الديمقراطي بديلًا، موضّحًا الفوارق بين الشـورى الإسـلامية والديمقراطية الغربية.

أمّا أبو يحيي الليبي فهو أحد أبرز قـادة القاعدة اليوم، وتحديدًا في مجال التنظير الفكري والفقهي، ومقالته «ثورات الشـعوب بين التأثيـر والتأثر» أكثر تحديدًا ودقة من رسـالة الظواهري، إذ يعرِّف فيها - بصورة حاسمة - لأنصار التيار في مختلف البقاع ما هو مطلوب منهم، وما هي أهدافهم، وما المحددات فـي تفاعلهم مع الثورات، حتى لا تؤثر سـلبًا في ولاء الأفـراد للقاعدة، فكرًا وتنظيمًا.

يقدّم الليبي هذه الثورات «فرصة سـانحة» يجب استثمارها، لكن مع عدم الاندفاع وراء «صيحات التغيير» من غير تثبّت واستبصار. ويصوغ لذلك قاعدة رئيسـة: «المطلوب من المجاهدين أن يتقنوا الولوج للأحداث محافظين على جهادهم ومبادئهم، وأن يحذروا من تسلل شيء من (المفاهيم) المعوجة إليهم في غمرة الانشـغال والانفعال مع التغيرات الكبرى المتسـارعة المبهرة، وأن تكون مرتكزات مسـيرتهم راسـخة في أذهانهم مصقولة فـي تصوراتهم، وأن يكون همُّ المحافظة عليها وصيانتها وتدعيمها وزيادة ترسيخها فوق كل شيء».

الوثيقة الثالثة هي مقالة أنور العولقي، وهو الداعية الفكري وأحد أبرز قادة القاعدة في اليمن، ولديه قدرة خاصّة في التأثير في الأنصار والأجيال المسلمة في الغرب، بل خصص لذلك مجلة إنسـباير، وسـاهمت حياته في الولايات المتحدة وتفاعله مع الحوادث هناك في صقل إمكانات متميزة لديه بالتأثير في الجوالي المسلمة، خصوصًا من خلال شبكة الإنترنت. وكان له دور في تجنيد

كل من نضال مالك حســـن (الذي قتل عددًا من الجنـــود الأميركيين في قاعدة عسكرية في تكســـاس في عام 2010) وعمر فاروق (الذي حاول تفجير طائرة ديترويت)... وغيرهما ممن تأثروا بأفكاره.

في مقاله «تسونامي التغيير»(19) يبدو العولقي أكثر «براغماتية» من صاحبيه السابقين، بل أكثر اطّلاعًا على القراءة الأميركية للثورات وتأثير القاعدة وتأثرها بها، مستشهدًا بآراء وزيرة الخارجية الأميركية هيلاري كلينتون، والخبير بشؤون الإرهاب بيتر بيرغن، والكاتب المعروف فريد زكريا.

تتمثّل الفرضية التي يحاجّج بها العولقـــي في أن انهيار هذه النظم الحليفة مع الولايات المتحدة والمعادية لـ «المجاهدين» هو أولًا وأخيرًا يخدم أهداف القاعدة ولا يضرّ بها؛ إذ يســـتبعد تمامًا أن تأتي الأيام المقبلة بأنظمة شبيهة من حيث الخصائص والسمات بالأنظمة السابقة.

لا يشدّد العولقي، بخلاف صاحبيه، على أهمية وضرورة أن تنتهي الثورات إلى حكم إسلامي، مع عدم وضوح النتائج إلى الآن، لكن المهم أن ما يحدث سيمنح «المجاهدين» مساحة أوسع للحركة والدعوة.

في المحصلة، تتجلّى الملحوظات الرئيســـة على القـــراءات والفرضيات السابقة التي يقدّمها لنا قادة مهمون في القاعدة، في:

- القاعـــدة لا تعتبر هذه الحـــوادث مدعـــاة لمراجعة ما اســـتقرت عليه أيديولوجيًا، بقدر ما تســـعى إلى الاســـتفادة من النتائج المترتبة عليه في عملها ودعوتها الفكرية والسياســـية، باســـتثمار «المدى الأكبر» مـــن اللحظة الراهنة، وعدم التصادم مع موجة التحرر الشعبية العربية.

- القاعـــدة لا تريد أن تظهـــر وكأنّها على طرف نقيض للثـــورات، بل إن هنالـــك تكاملًا بين دورها ونشـــاطها ومـــا أنجزته الثورات فـــي مصر وتونس وليبيا وغيرها من دول، بالتشـــديد على «وحدة المعركة» التي تخوضها عالميًا

(19) Al-Awlaki, «The Tsunami of Change».

مع الولايات المتحدة ومســـار الثورات الشـــعبية التي تحرّر إرادة الشعوب من الأنظمة.

- الهدف الأول الذي تبدّى في مرحلـــة ما بعد الثورات يكمن في «تطبيق حكم الله» (الشـــريعة الإســـلامية)، والذهاب بالثورات نحـــو الهوية والصفة الإسلامية، والتقاطع مع أهداف القاعدة، في وجود أنظمة ليست حليفة للغرب، ولا معادية للحركات الإسلامية، وتكون أكثر تقاربًا مع أفكار القاعدة عمومًا.

- على الرغم من تركيز القاعدة على عـــدم وجود «التناقض» مع الثورات الجديدة، فـــإن هنالك قلقًـــا يبديه بعض قادتها مـــن أن تؤثر الحالـــة الجديدة والانبهار بهـــا (الديمقراطية) في تأييد القاعدة أو في أنصارها، ويضعف من قوة الأيديولوجيا (العالمية - الجهادية) التـــي تبنّتها في الأعوام الماضية. لكن نجد أول مرة في خطاب القاعدة عدم تركيز على «العامل الجهادي - المســـلح» في التغيير، وتراجعه في هذه الدول من مرتبة «الهدف - أي القيام بعمليات عسكرية فقط للنكاية في النظم والمصالح الأميركية» إلى «الوسيلة - غير المفروضة، أو التي يمكن الاستعانة من دونها بوسائل أخرى».

ثالثًا: أنصار الشريعة: من النخبة إلى الشعب

يبدو أن الاستراتيجيا الجديدة للسلفية الجهادية توصلت عقب الانتفاضات العربية إلى خلاصة أساســـية تنص على ضرورة التكيف مع التحولات البنيوية، وذلك عبر الانتقال من «النخبوية» إلى «الشعبوية».

في سياق هذه الخلاصات ولدت لحظة التحوّل إلى فكرة «أنصار الشريعة» التي بدأت تنتشـــر في غير دولة عربية وإســـلامية، عبر الجماعـــات والتيارات المحســـوبة على الســـلفية الجهادية والقاعدة، بداية في اليمن، ثم في المغرب العربي ومالي ومصر، وهنالك توجّه مماثل في الأردن.

فكرة «أنصار الشـــريعة» تعبّـــر بدرجة كبيرة عن تكيفات الفضاء الســـلفي الجهادي مع الثورات الديمقراطية العربية؛ إذ جاءت اســـتجابة لمتغيرات بنيوية

في البيئة المحيطة بالتيار، وهي استجابة للثورات الديمقراطية العربية التي تخلّصت من الحكومات السابقة وجاءت بحكومات على أساس الانتخابات في أكثر من دولة عربية (مصر واليمن وتونس)، ثم زيادة مساحة الحرية والحدّ من القيود على الديمقراطية، كما في دول أخرى (المغرب والأردن)، أو سيطرة القاعدة على بعض المناطق وتطبيق الشريعة فيها.

مثّلت الثورات الديمقراطية، بحد ذاتها، تحديًا لأيديولوجية القاعدة وتيار السلفية الجهادية واستراتيجيتها من زوايا متعددة. فكما تحدثنا سابقًا، وصلت أيديولوجية القاعدة في الأعوام الأخيرة إلى ثلاث فرضيات أساسية:

الفرضية الأولى هي أن طريق العمل المسلّح هي الوحيدة القادرة على إحداث التغيير في العالم العربي والإسلامي، بينما الديمقراطية أو العمل السلمي لن يأتيا بنتائج، وهي فرضية سقطت مع نجاح الثورات السلمية في تونس ومصر.

الفرضية الثانية هي أن الهدف من التغيير هو إقامة الخلافة أو الدولة الإسلامية وليس الديمقراطية، وهو ما ثبت خلافه؛ إذ إن شعار الثورات العربية كان مرتبطًا في صورة مباشرة وأساسية بإقامة أنظمة ديمقراطية وترسيخ العدالة الاجتماعية والكرامة.

الفرضية الثالثة هي الجمع بين العداء للولايات المتحدة الأميركية والأنظمة العربية (العدو القريب والعدو البعيد)، وهذا ما لم يظهر في الثورات العربية، إذ كان تركيز أغلب الشعوب على الشأن المحلي، والمطالبة بالديمقراطية ومكافحة الفساد والعدالة، بعيدًا من شعارات العداء للغرب.

كان لا بد، إذًا، من أن تحرّف السلفية الجهادية في خطابها السياسي، وأن تقفز إلى المرحلة الجديدة حتى لا تفقد الصلة بالتطورات المهمة، وكأنّها على الطرف الآخر من المعادلة، أو كأنّها خسرت رهاناتها السياسية، فسعى خبراء السلفية الجهادية إلى تحويل الثورات الديمقراطية من تحدٍّ أيديولوجي إلى «فرصة تاريخية» عبر تأكيد التكامل بين ما تطرحه القاعدة من مواجهة مع النظم

العربية المتحالفة مع الغرب وما حققته الثورات من إزالة هذه النظم، والاستفادة من مناخ الحريات الجديد من أجل نشر الدعوة الجهادية والضغط باتجاه تطبيق الشريعة، وتحويل الرهان نحو مشاعر الناس الدينية.

هذا «التحرف» أو التكيف في خطاب القاعدة وتيارها الأيديولوجي «السلفية الجهادية» ورهاناتها السياسية تأطّر بصورة ذكية مع مشروع «أنصار الشريعة»، فالقاعدة لم تتخلَّ عن مطالبها بإقامة الشريعة الإسلامية وإقامة النظام الديمقراطي بدلًا من ذلك (كما فعل الإخوان المسلمون والإسلاميون الديمقراطيون)، ولا هي أعلنت التخلي عن العمل المسلّح (الجهاد) كأحد خيارات التغيير السياسي (مثلما فعلت الجماعة الإسلامية وجماعة الجهاد في مصر)، ولا هي قامت بتشكيل أحزاب ودخلت اللعبة الديمقراطية والسياسية وقبلت بصندوق الاقتراع (كما فعل السلفيون في مصر - أحزاب النور والأصالة والبناء والتنمية...).

ردّت السلفية الجهادية من خلال أنصار الشريعة الاعتبار إلى الخيار المدني السلمي في التغيير، مع الاحتفاظ بركائزها الأيديولوجية: الحاكمية ومشروعية العمل المسلح (الجهاد)، في محاولة لاستثمار مناخات الحرية والديمقراطية الموجودة، عبر الضغط على الإسلاميين المشاركين في العملية السياسية للمطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية، وعبر الدعوة إلى الأفكار السلفية.

إحدى مهمات «أنصار الشريعة» هي ممارسة أكبر قدر من الضغط على الإسلاميين الذين وصلوا إلى السلطة، وفق الآليات الديمقراطية، من خلال تأكيد وجوب «تطبيق الشريعة»، وهو الشعار الذي نادى به الإسلام السياسي لعقود طويلة عندما كان في موقع «المعارضة».

بذلك، فإن قبول الإسلام السياسي، ممثلًا في أغلب الدول العربية بمدرسة الإخوان المسلمين الفكرية، باللعبة الديمقراطية والدخول في نهج «الدولة المدنية» يعتبران لدى «أنصار الشريعة» انتكاسة، وربما «ردة» عن مسألة «تطبيق الشريعة»، فالأنصار يمارسون سياسات «الأدلجة» التي مارسها من

قبل الإسلام السياسي نفسه على الأنظمة السابقه. ولعلها معضلة ستسبب قلقًا عميقًا وإحراجًا بالغًا للحركات الإسلامية «الديمقراطية» أمام قواعدها التنظيمية والانتخابية.

في هذا المربع السياسي الحاسم يسحب أنصار الشريعة البساط من تحت أقدام «الإخوان المسلمين»، عندما يتمسّكون بالأيديولوجيا الإسلامية (دولة الخلافة)؛ فالمخيال الإسلامي الذي تستثمره شبكات «أنصار الشريعة» - بفاعلية - يستند إلى تراث دولة «الخلافة» أو «السلطنة» أو «تطبيق الشريعة» لا إلى تراث الحداثة السياسية الذي يستند إلى «الدولة - الأمّة».

على صعيد العلاقات الخارجية، تعمل «أنصار الشريعة» على إحراج «الإسلام السياسي» في صوغ تلك مع «الغرب» الذي طالما اتهمته بالنفاق ودعم الأنظمة الاستبدادية البائدة وعدائه لها وسعيه إلى الهيمنة، والمشكل الأكبر هو التعامل مع «إسرائيل» التي تمثّل عدوًا لا ترجى صداقته، في ظل اتفاقات مبرمة لا سبيل إلى التنصل منها.

هذا التطوّر في رؤية الجهاديين لا يحتاج إلى تأويلات مركّبة فقهيًا وعقديًا في الخطاب الفكري للتيار، ولا في الأدبيات التي يتم التعامل بها مع أنصاره، فكل ما في الأمر هو تفعيل مبدأ «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» عبر الكلمة، وعدم الاكتفاء باليد أو السلاح.

إن أحد أبرز المنظّرين الجهاديين لأنصار الشريعة هو الموريتاني أبو المنذر الشنقيطي الذي تولّى عبر الموقع الإلكتروني (منبر التوحيد والجهاد - الذي يمثّل أحد منظّري التيار الجهادي، أبو محمد المقدسي)، إذ قدّم مقالة بعنوان «نحن أنصار الشريعة»[20]، فيها تبرير لدعوته إلى تغيير مسمّى التيار نفسه من السلفية الجهادية إلى أنصار الشريعة، ونشر هذا الاسم ليصبح العنوان العام الذي يضم أبناء التيار في العالم.

---

(20) أبو المنذر الشنقيطي، «نحن أنصار الشريعة،» موقع منبر الوحيد والجهاد، 29/ 5/ 2012.

يرسم الشنقيطي في هذه المقالة معالم الدور السياسي الجديد للتيار في حقبة الثورات الديمقراطية العربية، أركانه النقاط التالية:

- اجتماع كلمة أهل التوحيد في إطار واحد في شأن هدف واحد ومشروع واحد.

- إبراز القادة المؤهلين للصدارة من خلال هذا الإطار.

- الخروج من العمل العشوائي الذي يبعثر القوة ويبدد الطاقة.

- منافسة بعض الشيوخ من تجار الفضائيات الذين برزوا في عهد الأنظمة السابقة، وعدم إخلاء الساحة لهم بعد أن سقطت الأنظمة التي كانت تدعمهم ويدعمونها.

- وجود قوة إسلامية تسعى إلى تحكيم الشريعة بالوسائل الشرعية لا عن طريق الديمقراطية.

- وجود كيان إسلامي شرعي منافس للأحزاب الإخوانية والسلفية، وإيجاد البدائل الشرعية من أجل صرف الناس عن «تجمعات المناهج المنحرفة».

- أن نتسمّى بالاسم الذي نريد ونتصف بالأوصاف التي تعبّر عن حقيقة الأهداف السامية التي نسعى إليها.

يختم الشنقيطي مقالته بالقول: «إذا كان هناك من جعل اسمه مرتبطًا بـ«العدالة و«الحرية» و«التنمية» و«الإصلاح» و«النور». فسوف نجعل اسمنا مرتبطًا بالشريعة، فنحن أنصار الشريعة».

نقطة التحول الاستراتيجية في تصور الشنقيطي لأنصار الشريعة ومهمتها الأساسية تتمثّل في الانتقال بتيار السلفية الجهادية من العمل السرّي إلى العمل العلني، ومن نطاق النخبوية إلى نطاق الجماهيرية، ومن العشوائية والهلامية إلى التنظيم الواضح الذي له عنوان معلن في الشارع وهو «تطبيق الشريعة الإسلامية».

على الرغم من أن اســم أبو المنذر الشــنقيطي لم يكن متداولًا أو معروفًا على الأقل لدى المتابعين والمهتمين بالحركات الســلفية الجهادية، ولا نمتلك معرفة مفصّلة عنه، باستثناء ما نشر من مقالاته ومساجلاته مع الشيخ وجدي غنيم (الداعية المصري المعروف)، فإن نجمه صعد بسرعة كبيرة في المواقع الإلكترونية التي تتبنّى الســلفية الجهادية بصورة واضحة (منبر التوحيد والجهاد والمنتديات الجهادية). وهو يفتي باسم اللجنة الشرعية في منبر التوحيد والجهاد، ويُعتبر ذلك بمنزلة إشارة واضحة إلى مدى قبوله وحضوره داخل هذه الأوساط، وإلى مقدار ما يمثّل ما يصدر عنه من فتاوى ومواقف خطاب له أهميته ورؤيته داخل أوساط السلفية الجهادية، وهو ما يمنح ما يقوله أهمية على الصعيد الواقعي أيضًا.

قدّم الشــنقيطي تصورًا أكثر تفصيلًا للدور الجديد للســلفية الجهادية (أو أنصار الشــريعة) في الفضاءات السياســية العربية والإســلامية، عبر مجموعة متنوعة من الدراســات والمقالات والردود والفتاوى، ومــن أبرزها كتبه **بلوغ الأمنية في حكم الترجيح بقبول الأكثرية، والانحرافات الشــنيعة لحكم منتقدي أنصار الشريعة** (يرد فيه على أبو بصير الطرطوسي الذي كان قد وجّه رسالة إلى أنصار الشــريعة في اليمن ينتقدهم فيها)، ونصرهم الله فانتكسوا (يرد فيه على خطاب لياسر برهامي، أحد أبرز منظّري حزب النور السلفي المصري)[21].

ظهرت التسمية «أنصار الشريعة» ابتداء في اليمن مع مرحلة مبكرة من قيام الانتفاضات في العالــم العربي، وهي أحد «تجليات» تنظيم «القاعدة في جزيرة العرب» - الفرع الإقليمي - الأقوى والأكثر نشاطًا بين الفروع الآخرى، ومنها التنظم المركزي في باكستان منذ توحد الفرعان اليمني والسعودي في بداية عام 2009. ولا نعلم ما إذا كانت التسمية والاستراتيجيا وضِعتا بالتشاور مع التنظيم المركزي، إذ لم ترد في خطابات الزعيم الســابق أســامة بــن لادن ولا خليفته أيمن الظواهري، بل ظهرت عندما أعلن المســؤول الشرعي لتنظيم القاعدة في جزيرة العرب، عادل بن عبد الله بن ثابت العباب المكنى بالشــيخ «أبو الزبير»

(21) لمزيد مــن التفاصيل عن أبو المنذر الشــنقيطي، انظر الملف الخاص بــه على موقع منبر التوحيد والجهاد، <http://www.tawhed.ws/a?a=shanqeet>.

في 12 نيسان/ أبريل 2011 تأسـيس «أنصار الشريعة»، فنجده يقول: «أطلقت هذه التسمية لتحبيب الناس بالشـريعة في المناطق التي تسيطر عليها القاعدة»، وتعتمد على جذب القبائل والسكان المحليين في اليمن إلى أيديولوجية القاعدة أو التيار السلفي الجهادي عبر «تحويل تحكيم الشـريعة من عمل نخبوي إلى عمل شعبوي»[22].

كانت جماعة «أنصار الشريعة» قد سـيطرت على محافظات أبين وشبوة، وأعلنت تأسيس «إمارات» في مناطق عديدة قبل أن تنسحب مع تدخّل الجيش اليمني بمساعدة أميركية - سعودية، واختيار عبد ربه منصور هادي رئيسًا توافقيًا خلفًا لعلي عبد الله صالح وفق «المبادرة الخليجية» المدعومة «أمميًا».

يرتبط أمير أنصار الشـريعة فـي أبين جلال بلعيدي المرقشـي (المكنى بـ«حمزة الزنجباري»)، بعلاقة مباشرة بأمير القاعدة أبو بصير ناصر الوحيشي، ويمتثل لأوامره، فأنصار الشـريعة في اليمن على صلة مباشرة بتنظيم «القاعدة في جزيرة العرب»[23].

أصبحت الجماعة طرفًا محليًا رئيسًا في جنوب اليمن، وكانت قد استولت على أجزاء مـن المحافظات اليمنية الجنوبية - أبين وشـبوة - في أواخر ربيع 2011، بل لم تتخل عن إمارتها في حزيران/ يونيو 2012 إلّا بعد هجوم مضاد شـنّته عليها الحكومة اليمنية والميليشـيات المحلية المدعومة بهجمات جوية أميركية. وتفاخر «أنصار الشـريعة في اليمن» بما وفّره مـن كهرباء ومياه وأمن وعدالة وتعليم من خلال نشراته وعبر سلسلة من الفيديوات التي عرضها بعنوان «عيون على الأحداث» وأصدرها عبر «وكالة مدد الإخبارية» التابعة له[24].

ظهرت جماعة «أنصار الشـريعة» فـي تونس، بعد إطاحـة الرئيس زين

---

(22) انظر: مراد بطل الشيشـاني، «مـن هم «أنصار الشـريعة» في اليمن،» موقع بي بي سـي، 7/ 3/ 2012، <http://www.bbc.co.uk/arabic/middleeast/2012/03/120305_ansar_yemen.shtml>.

(23) انظر: حوار مع أمير أنصار الشريعة في زنجبار بأبين، جريدة الطريق، 17/ 7/ 2011.

(24) انظر: شريط عيون على الأحداث على الرابط: <http://www.youtube.com/watch?gl=UG&feature=related&hl=en-GB&v=TKoVexA505s>.

العابديـــن بن علي، ففي آذار/ مـــارس 2011، أُفرج عـــن مجموعة متنوعة من المســاجين السياســيين وآخرين مدانين بتهـــم الإرهاب، بعفو مـــن الحكومة الانتقالية التونســية. وكان من بينهم ســيف الله بن حســين المكنى أبو عياض التونســي[25]، المشارك ســابقًا في تأســيس «الجماعة التونســية المقاتلة في أفغانســتان» التي ساعدت في تسهيل اغتيال أحمد شــاه مسعود قبل يومين من هجمات 11 أيلول/ سبتمبر. يلقّب بشيخ الجهاديين في تونس، وهو من مواليد عام 1970 ومن تلامذة الســلفي الجهــادي المعروف «أبو قتــادة»، عاش في بريطانيا ثم سافر لـ «الجهاد» في أفغانستان.

في عام 2000 نُصّب أبو عياض أميرًا على رأس «سرايا الدعوة والجهاد»، وهو هيكل مسلّح نظّمه مع مجموعة من العناصر السلفية التي كانت تعمل على إرساء نظام إســلامي في تونس. تنقّل بين دول عدة، وبقي مطلوبًا أعوامًا لدى حكومات عديدة (تونس وبريطانيا وتركيــا...) إلى حين القبض عليه في تركيا، ثم سلّم إلى السلطات التونسية التي حكمت عليه بـالسجن 43 عامًا.

نظّم أبو عياض عقب إطلاقه من الســجن أول مـــا يُعتبر الآن أنه المؤتمر السنوي الذي أسس «أنصار الشريعة في تونس» في نيسان/ أبريل 2011، حيث زاد حضور المؤتمر علـــى بضع مئات في عام 2011 ليصل إلى عشـــرة آلاف شخص في عام 2012، وهو ما أكد تزايد شعبية التنظيم.

تحمـــل أيديولوجية «أنصار الشـــريعة في تونس» منذ تأسيســـها التباسًـــا واضحًا؛ فهي تدعو الناس إلى التزام الإسلام «القويم» في الداخل التونسي من جهة، وتحرض الأفراد على الانضمام إلى الجهاد في الخارج من جهة أخرى. وعلى الرغم من نفي الجماعة مســؤوليتها عن الهجمات على السفارة في 14 من أيلول/ سبتمبر 2012 على خلفيات عرض الفيلم المسيء إلى الإسلام، فإن الكثير من أعضاء التنظيم كان مشاركًا في الاحتجاجات.

تورط «أنصار الشريعة في تونس» في بعض التصرفات العدوانية على مدار

---

(25) لمزيد من التفاصيل عن أبو عياض التونســي، انظر: «أبو عياض التونسي،» موقع السكينة، <http://www.assakina.com/center/parties/18219.html#ixzz27iMuOux6>.

العام ونصف العام الماضي (2012 - 2013)، ومن ذلك «يوم الغضب» الذي جاء عقب قرار قناة محلية بث فيلم «برسيبوليس». كما تورط بعض أعضائه في هجمات ضد السفارة الأميركية في تونس ومدرسة أميركية في جوارها[26].

أصبح أبو عياض، زعيم «أنصار الشـريعة في تونس»، العدو الأول للدولة بعد اتهامه بالتحريض على تظاهرات سُيّرت يوم الجمعة أمام السفارة الأميركية في تونس ثم تحوّلت إلى أعمال شـغب وأسـفرت عن مقتل أربعة أشـخاص وجرح العشـرات، وإحراق نحو 60 سـيارة في حرم السـفارة، وإنزال العلم الأميركي ورفع علم الخلافة.

أقام «أنصار الشـريعة في تونس»، مع ظهور «ملتقى أنصار الشـريعة»[27]، سجالات ونقاشـات إعلامية وسياسـية حضرها أبو عياض التونسي والخطيب الإدريسي، وكانت دفاعًا عن وجهة نظرهم. وهيأوا استقبالًا لوجدي غنيم، الداعية المصري المعروف في تونس، على الرغم ممّا حدث بينه وبين أبو منذر الشنقيطي.

يؤكّد أبو عياض في مقابلاته وأحاديثه التزام حماية الأمن ورفض الفوضى، ويرفض المراجعات السلفية المغربية (بالتخلي عن أفكار التيار الأساسية).

عقب سقوط نظام القذافي في ليبيا، برزت جماعات سلفية عديدة تستخدم اسـم «أنصار الشـريعة». وثمة جماعة هي من أبرز الجماعات وتدعى «كتيبة أنصار الشـريعة» في بنغازي، ويُنظر إليها على أنها المشتبه الرئيس في الهجوم الأخير على القنصلية الأميركية في بنغازي، ومقتل السـفير الأميركي كريستوفر ستيفنز وثلاثة دبلوماسيين آخرين، عقب التظاهرات الغاضبة بعد عرض مقاطع من الفيلم المسيء إلى الإسـلام. ونفى كلٌّ من محمد الزهاوي والشيخ ناصر الطرشاني، وهما من كبار المسـؤولين عن «أنصار الشريعة» في ليبيا، أي علاقة لتنظيمهما بالقاعدة، مع الإقرار بالعلاقة الأيديولوجيـة، وقالا إن كتيبة «أنصار

(26) هارون ي. زيلين، «تعرف على أنصار الشريعة في بلدك،» فورين بوليسي، 21 أيلول/ سبتمبر 2012، <http://www.washingtoninstitute.org/ar/policy-analysis/view/know-your-ansar-al-sharia>.

(27) انظر: ملتقى أنصار الشـريعة بتونس على الفيس بوك: <http://www.facebook.com/media/set/?set=a.201901356520222.49250.140178846025807>.

الإسلام» وقاعدتها في بنغازي تشكلتا مطلع عام 2012 من 250 عنصرًا قاتلوا في الصفوف الأمامية خلال العام المنصـــرم، وقد توزع هؤلاء على كتائب عدة بينها كتيبة 17 فبراير، أهم الوحدات المقاتلة في بنغازي.

ووفقًا للزهاوي، قررت مجموعة من هؤلاء تشـــكيل كتيبة منفصلة حملت اسم «أنصار الشريعة»، وهدفها جعل الشـــريعة مرجعًا في الحياة الليبية. ويشدد الزهاوي والطرشـــاني على أن لا أحد من أفراد المجموعة شـــارك في الهجوم على القنصلية الأميركية، وليس بين الموقوفين الخمسين واحد منهم[28].

بعد أيام، قُتل عشرة أشـــخاص على الأقل في مدينة بنغازي الليبية بعد أن تمكنت قوات الأمن ومحتجون من طرد عناصر الميليشيا التي يشتبه في وقوفها وراء مقتل السفير الأميركي. ونجح المتظاهرون وقوات الأمن في السيطرة على المقر الرئيس لجماعة أنصار الشـــريعة في بنغـــازي. إلّا أن الجماعة قالت في بيان إنها تخلـــت عن قواعدها في المدينة من أجل حفظ الأمن. وقال يوســـف جيهاني، الناطق باســـم الجماعة، إن قائدها أصدر أوامره إلى الأعضاء بإخلاء مقارهم وتسليمها إلى سكان بنغازي.

ثمة جماعة أخرى في ليبيا أقـــل بروزًا وهي «أنصار الشـــريعة في درنة»، بقيادة سجين غوانتانامو الســـابق أبو سفيان بن قومو. وأعلنت «أنصار الشريعة» في بنغازي عن نفسها أول مرة في شباط/ فبراير 2012، بقيادة محمد الزهاوي الذي كان من قبل معتقلًا في سجن «أبو سليم» السيئ السمعة في زمن القذافي. واســـتضافت الجماعة ما تمنّت أن يكون أول مؤتمر سنوي في حزيران/ يونيو حضره ما يقرب من ألف شخص، من بينهم عدد من أفراد الميليشيات الأصغر، وكلهم يدعون الدولـــة الليبية إلى تطبيق الشـــريعة. والأرجـــح أن بضع مئات من أولئك المشاركين كانوا من أعضاء «أنصار الشريعة في بنغازي».

تعود جذور الســـلفية الجهادية فـــي ليبيا إلى «الجماعة الإســـلامية الليبية

---

(28) انظر: «تنظيم «أنصار الشـــريعة» في ليبيا وتونس،» المركز اللبناني للأبحاث والاستشارات، 20/ 9/ 2012، نقلًا عن جريدة النهار. <http://www.center-lcrc.com/index.php?s=13&id=6246>.

المقاتلة» التي أجـرت مراجعات فقهية لنهجها العنفي قبل سـقوط النظام، ثم انشقّت إلى فصيلين سياسيين تنافسـا في الانتخابات التشريعية في تموز/ يوليو 2012: حزب الوطن المعتدل ذو القاعدة الواسعة الذي انضم إليه عبد الحكيم بلحاج، الأمير السابق للمقاتلة وقائد كتيبة طرابلس، وحزب الأمّة الوسط الأكثر تشددًا، وانضم إليه معظم أعضاء الجماعة الإسـلامية الليبية المقاتلة الآخرين تحت قيادة الشـخصية البارزة سـامي السـاعدي. ولم يفز حزب الوطن بأي مقاعد، فيما نال حزب الأمّة الوسـط مقعدًا واحدًا تـم تخصيصه لعبد الوهاب قايد، شقيق الراحل أبو يحيى الليبي، الشخصية القيادية في القاعدة[29].

اعتمد «أنصار الشريعة في ليبيا» على الأساليب نفسها، من تقديم خدمات اجتماعيـة، وتنظيف طرق وإصلاحهـا، ودفع صدقات خلال شـهر رمضان. وأخذوا مؤخرًا يسـاعدون في توفير الأمن في مستشـفى بنغازي. وعلى الرغم من أن الجماعة تقر بأنها هدمت الضرائح والمقابـر الصوفية في بنغازي، فإنها حاولت أن تصوغ لنفسـها توصيفًا محليًا مفاده أنها مدافعة عن تفسـير صارم للإسلام مع المساعدة في الوقت ذاته على توفير الحاجات الأساسية للمجتمع، وهي تشـكل إحراجًا في المرحلة القادمة عبر سياسات الضغط لتطبيق الشريعة ورفع الهيمنة.

تجلى أحد ارتدادات الحالـة الليبية بظهور حركة «أنصار الدين» شـمال مالي بزعامة القيادي البارز في الطوارق أزواد إياد غالي الذي قرر تأسيس حركة جهادية شعبية في أزواد تحت اسم «حركة أنصار الدين». وكان إياد غالي الذي يشغل منصب القنصل العامل لجمهورية مالي في السعودية، قد عاد مؤخرًا إلى شمال مالي، والتف حوله المئات من المقاتلين، بينهم جنود وضباط من الجيش المالي ينتمون إلى الطوارق، ومقاتلون آخرون عادوا حديثًا من ليبيا. ولجأ إلى بعض الجبال القريبة من مدينة كيدال، وأعلن من هناك تأسـيس حركة «أنصار الدين» التي ترفع من بين مطالبها تطبيق الشريعة الإسلامية، وإعادة الاعتبار إلى

---

(29) انظـر: هـارون ي. زيلين، «محاولة فهـم الحضور الجهـادي في ليبيا،» موقع السـكينة، 2012/7/23، <http://www.assakina.com/center/parties/18220.html#ixzz27iaZsm6R>.

مكانة علماء الدِّين، فضلًا عن مطالب محلية تتعلق بالحرية والحقوق لسكان أزواد[30].

جاء إعلان الحركة الجديدة بالتزامن مع إعلان عناصر من تنظيم «القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي» تأسيس حركة جديدة تحمل اسم «جماعة التوحيد والجهاد في غرب أفريقيا».

ينحدر إياد غالي من أسرة زعامة تقليدية في قبائل «الفوغاس» الطوارقية في أزواد، وقاد في بداية تسعينيات القرن الماضي «الحركة الشعبية لتحرير أزواد»، وهي من أبرز فصائل الطوارق في شمال مالي خلال انتفاضة بداية التسعينيات، قبل أن يوقع اتفاق سلام مع مالي بوساطة جزائرية، قادت إلى تعيينه قنصلًا عامًا في جدة وإدماج العشرات من مقاتلي حركته في الجيش المالي. كما شارك في بعض الوساطات التي أدت إلى إفراج «تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي» عن عدد من الرهائن الغربيين الذين اختطفهم[31].

على خلاف الجماعات في اليمن وتونس وليبيا، لم تعلن «أنصار الشريعة في مصر» نفسها جماعةً منظمة على الأرض، بينما تم إنشاء تنظيم سلفي مغربي، يوم 7 أيلول/ سبتمبر 2012، وأصدر «ورقة مذهبية» تكون الإطار المرجعي لتجميع عناصر هذا التيار وتأطيرهم ضمن هيئة سياسية/ دعوية تحمل اسم «تنسيقية أنصار الشريعة في المغرب». ولا تزال «أنصار الشريعة في المغرب» تنظيمًا وليدًا يهتم بالنشاط الدعوي فحسب. وذكرت في البيان الأول والوحيد لها حتى الآن أنها غير مرتبطة بالجماعات في اليمن أو تونس أو ليبيا أو مصر. والعبرة من وجود «أنصار الشريعة في المغرب» هي نشر كلمة الله وشريعته، وتوفير الخدمات الاجتماعية والاقتصادية للمحرومين، وتعرية انحطاط الغرب

(30) انظر: «الإعلان عن ميلاد حركة «أنصار الدين» في شمال مالي بزعامة إياد غالي،» وكالة نواكشوط للأنباء، 15/ 12/ 2011، <http://www.ani.mr/?menuLink=9bf31c7ff062936a96d3c8bd1f8f2ff3&idNews=16230>.

(31) انظر: أنوار بوخرص، «الجزائر والصراع في مالي،» مؤسسة كارنيغي للسلام الدولي، 23 تشرين الأول/ أكتوبر 2012، <http://arabic.carnegieendowment.org/publications/?fa=49765#>.

وتحرير المجتمع من قبضته. وعلى الرغم من حداثة ظاهرة «أنصار الشـــريعة»، فإنها اســـتطاعت أن تخطف الأضـــواء وتمكنت من إثبـــات حضورها، وربما ستكون خلال الأعوام المقبلة محط الأنظار في المنطقة[32].

استخدمت جماعة «أنصار الشريعة في مصر» التسمية على الإنترنت فحسب، عندما قدّمت بيانات لـ «مؤسسة البيان الإعلامية» المرتبطة بالمُنظّر الجهادي الشيخ أحمد عشوش الذي أصدر مؤخرًا فتوى تدعو إلى قتل أولئك المتورطين في إنتاج فيلم «براءة المســـلمين». وعشـــوش ذو تاريخ طويل في الحركة الجهادية وفي الجهاد ضد السوفيات في الثمانينيات، وهو عضو في «جماعة الجهاد الإسلامية المصرية». وكان ممّن قُبض عليهم في أوائل التسعينيات في حملة ضد الإرهاب شـــنتها الحكومة ضد 150 عضوًا في «جماعة الجهاد الإســـلامية المصرية»، ثم أُفرج عنه بعد سقوط نظام مبارك[33]. وبناء على أدلة معروفة، سيكون من السابق لأوانه اعتبار «أنصار الشريعة في مصر» جماعة مكتملة الأركان.

أمّا فـــي الأردن فاتخذ تيار الســـلفية الجهادية خطوات في اتجاه ســـلمية الدعوة على الأراضي الأردنية، وشارك في مسيرات وتظاهرات تطالب بالإفراج عن معتقلي التيار وبتطبيق الشـــريعة الإســـلامية. وخرج قادة التيار إلى العلن، واتجهوا أكثر نحو العمل المنظّم. وأشـــاروا إلى وجود تفكير لتغيير اسم التيار ليكون «أنصار الشـــريعة». ومن الواضح من خطاباتهـــم وأفكارهم ومن وجود مقالات الشنقيطي على موقع شيخهم المقدسي (منبر التوحيد والجهاد)، أنهم يرفضون مراجعات الجماعات الإســـلامية المســـلّحة، ويرفضون التحول نحو العمل الحزبي والقبول باللعبة الديمقراطية، ويصـــرون على المفاهيم الحاكمة للتيار (الحاكمية والجهاد) في الأردن.

---

(32) انظر: نص الورقة على الرابط: <http://elhasnaoui.blogspot.com/2012/09/blog-post_7.html>.

(33) انظر: هاني نســـيرة، «فرص القاعدة ودول الربيع العربي»، <http://www.islamyun.net/index.php?option=com_k2&view=item&id=1206>.

القسم الثالث

المتغيرات الجديدة في الوطن العربي
وجهة نظر تركية وإيرانية



الفصل الثاني عشر

التطوّرات الأخيرة والمشهد الجيوسياسي
وجهة نظر تركية

سليمان سينسوي

ملخّص

إن الشرق الأوسط منطقة مرشّحة لأن تكون في القرن الحادي والعشرين مركز قوة يحتضن تناقضات عميقة وفرصًا وتهديدات. فإذا أمكن إدارة هذه التناقضات بصورة جيدة، يغدو النجاح ممكنًا أكثر. أمّا إذا جرى التلاعب بهذه التناقضات والاختلافات بتنافس لا طائل فيه بين الأجانب والإقليميين، فقد تواجه المنطقة نتائج غير متوقّعة. ومن وجهة نظري، ينبغي أن تتبنّى تركيا ودول الشرق الأوسط اتّجاهات أكثر براغماتية وعمقًا ضمن فهم عام ندعوه «المخاطر النسبية والاعتماد المتبادَل» عوضًا عن التوجّهات الانفعالية. وبالفعل، إذا أمكننا أن نفهم هذه التطورات في العالم والمنطقة، يمكننا عندئذ أن نصبح أقوى - كدول صديقة وشقيقة - ويُتاح لنا تحويل التطوّرات التي تشهدها منطقتنا إلى فرص.

أولًا: خلفية تاريخية

لا يمكن أن تتحوّل الثورات العربية إلى ربيع إلّا إذا وضعنا «الحاضر في مكانه الصحيح بين الماضي والمستقبل». وما انفكّت الأطراف في المنطقة

تبدّل، في وقت بقي ميزان القوى وعلاقات المصالح على حالها من دون تغيير. ومن الواضح أن المنطقة التي تدعى «الشـرق الأوسط» تشـهد تكرارًا جديدًا لحركات المدّ والجزر؛ فالصعود الإسـلامي الذي شـهدته عرّضها لهجومين شنّتهما قوّتان كبيرتان بفاصل قرون عديدة. ففي القرن الحادي عشر، اجتاحت الجيوش الصليبية، تلبيةً للدعوة البيزنطية، المنطقة، آتية من الغرب، وتسـبّبت بعدد كبير من المشـكلات والاضطرابات والقلاقل، وأغرقت البلاد بحمّامات الدم. بعد ذلك، تعرّضت المنطقة في القرن الثالث عشـر للغزو المغولي القادم من الشرق، لتعيش فصلًا آخر من التدمير وعدم الاستقرار.

وعانت الجغرافيا المتضرّرة من الغزوات الصليبية اضطرابًا جديدًا سـبّبه الغزو المغولي الذي شُن من الجهة المقابلة، حين كان يُعتقد أن زمن الهجمات ولّى. وبات المسيحيون - كالأرمن مثلًا - أقرب إلى هؤلاء الغزاة في أثناء تلك الحوادث، وفقًا لمنظورهم التاريخي.

لم يتردّد الحشّاشـون، وهم فرقـة دينية ظاهريًا، لكنّهـا قائمة، في حقيقة أمرها، على الإرهاب، في مدّ الصلات بجماعات شتّى، فتحالفوا مع الصليبيين تارة، ووقفوا ضدّهم تارة أخرى. وضمن ممارسـة هذه البنى للعبة التوازنات، حاولت، مثلها مثل أي قوة لا تسـتطيع أن تنشئ مركز قوة خاصًا بها ولا يقبلها أهل منطقتها التي تعيش فيها، أن تبني تحالفات سلبية في غير مكان، ضد القوى الإقليمية التي سعت إلى لجم سلطتها. ونشأت في تلك الأثناء حركات مناهضة أطلقتها قوى إقليمية، كالأيوبيين، في وجه هـذه الغزوات، ونجحت في بعض الأحيـان في صدّها وفي توجيه ضربـة قاصمة نهائية إلـى الوجودين المغولي والصليبـي. وهكذا، نجـت المنطقة من محاولـة إقصائها عن مسـار التاريخ وسـلبها، فتمكّنت من البقاء على مسـرح التاريخ بهويتها الخاصة. وتشكّلت في العصر الحديـث مراكز وموازين قوى جديـدة نتيجة التغيّرات السياسـية والاقتصادية والتكنولوجية التي طرأت على المستويَيْن الإقليمي والعالمي.

وإذا أسـقطنا تقويم هذا الماضي على الحاضر، يمكننا القول إن المنطقة تشـهد محاولة لدفعها إلى خارج التاريخ، وهي لـم تتمكّن من إثبات وجودها

بسبب التهديدات من الغرب والشرق في الفترات التي تُعرف بالأزمنة الحديثة؛ إذ وقعت المنطقة تحت سيطرة النفوذ البريطاني الذي اكتسب بُعدًا رأسماليًا إمبرياليًا جديدًا بفضل الثورة الصناعية، مبشرةً بمفهوم «الغرب» في بداية القرن التاسع عشر عبر تنفيذ مخطّطات لهذه المنطقة ولغيرها من المناطق. ووجدت المملكة المتحدة التي بالكاد سبقت فرنسا، موقعًا قويًا في المنطقة وفرصة سانحة لتسريع خطواتها والمضي قُدُمًا.

بناء عليه، ليست علاقات الصداقة والعداء في «الشرق الأوسط» جديدة ولا عابرة. وما العناصر الانفصالية سوى انعكاسات مماثلة لتحالفات نشأت في أثناء الحملات الصليبية والحوادث المريرة التي شهدتها المنطقة في أثناء الغزو المغولي. وليس من المفاجئ أن نرى اليوم الوجوه والمشاريع القديمة ذاتها تتكرّر لدى البحث وراء كواليس الصراعات الراهنة عن الفاعلين الساعين إلى تغيير ميزان القوى. وإذا سئلنا «بمَ يختلف الأمس عن اليوم؟» فالجواب ببساطة هو: ليس هناك اليوم دول قوية في المنطقة. في «الأمس»، كان هناك قوى يمكنها التدخّل في مسار الحوادث بهويتها واقتصادها وثرواتها، أمّا «اليوم» فنلمس مشهدًا سياسيًا لا يتيح التدخّل في حوادث المنطقة إلّا من خلال بوابة التحالف مع الخارج. وبات مكتوبًا على السياسات المبنية على التطورات الراهنة وحدها أن تتلقّى ضربة قاصمة من الروابط والجذور التاريخية العميقة، ما لم يُنظر جيدًا إلى قوة المنطقة وضعفها تاريخيًا، مع الأخذ بالرموز التاريخية والثقافية في الاعتبار.

ثانيًا: الشرق الأوسط اليوم

كان القرن التاسع عشر حقبة أوروبية، في حين أن القرن العشرين حقبة أميركية بامتياز. أمّا القرن الحادي والعشرون فسيكون حقبة آسيوية إذا نظرنا إليه عمومًا. يمثل هذا التوصيف أساس عالم اليوم، خصوصًا في العشر الأخيرة؛ حيث بدأ عالم اليوم يتشكّل وتجتمع شروطه عندما نهضت في آسيا منذ بداية القرن الحالي جميع القوى المرشّحة لمواجهة أوروبا الغربية والكتلة الغربية المتمحورة حول الولايات المتحدة الأميركية.

غيّر ظهور هذا العدد من المرشّحين الأقوياء على المستويَيْن الإقليمي والدولي في آسيا، النموذجَ العالمي الأساس، وهيّأ الشروط لنموذج عالمي متعدّد الأقطاب يلي النظام العالمي الثنائي القطبية ونظام القطب الواحد. وبطبيعة الحال، حتى لو لم يكن في الإمكان مشاهدة الأدوار بوضوح كافٍ، فإنّنا نلحظ اليوم دخول العالم نظامًا جديدًا متعدّد الأقطاب. وشهد العالم من قبل حقبًا متعدّدة الأقطاب، لكنّه لم يعرف هذا العدد من «القوى» التي تتمتّع بهيمنة متشابهة من ناحية التكنولوجيا والبنى التحتية في عصر سمته الأساسية التكنولوجيا المتقدّمة. ووفّر هذا الوضع فرصًا كثيرة وتسبّب بمخاطر وتهديدات مهمّة، ما أوجد، على الأقل، لصنّاع السياسات والمنظّمات الدولية والدول الكبرى وأي طرف آخر، صعوبة في عملية إنتاج السياسات وتنفيذها، لأن الأطراف التي كانت ترسم السياسات وفقًا لمعادلات بمتغيّر واحد أو اثنين، باتت تواجه أزمة عميقة في وضع الأولويات وفق ترتيبها الصحيح في ظلّ عالم متعدّد القطبية.

تمخّض النظام العالمي المتعدّد الأقطاب عن متغيرّات جديدة عديدة بالنسبة إلى جميع الأطراف، ترتبط ثلاثة منها ارتباطًا وثيقًا بآسيا خصوصًا. وفي وسعنا أن نرى المتغيّرات الرئيسة تتشكّل من جديد وتتمأسس في بيئة من المنافسة بين أقطاب متعدّدين.

إن أحد هذه المتغيّرات هو «الاندماج»؛ فبعد الإمبراطورية الرومانية، يُعدّ الاتحاد الأوروبي أبرز محاولة اندماج شهدها التاريخ. وعملية الاندماج الأوروبي هي إحدى محاولات الاندماج المعاصرة الأكثر أهمية. وحذت حذوها محاولات عديدة في أنحاء متفرّقة من العالم. مثلًا، يصبّ تجمّع 33 دولة في أميركا اللاتينية تحت مظلّة واحدة جامعة والعديد من محاولات التجمّع ما دون الإقليمية في الاتّجاه نفسه. وينطبق الأمر ذاته على القارة الأفريقية. وفي الحقيقة، أصبح الاندماج بالنسبة إلى الدول الصغيرة والمتوسطة ممرًّا إجباريًا في عالم تزداد فيه حدّة المنافسة، وباتت قدرة هذه الدول على المنافسة في ظل النظام الدولي تتوقّف على الموقع الذي تشغله ضمن المنظّمات الإقليمية المختلفة.

أمّا المتغيّر الأساس الثاني الناشـئ فهو مفهوم يتناقض مع الاندماج، لكنّه يعمل بالتزامن معه، إنّه «القومية الصُّغرى»؛ فثمّـة تكهّنات تقول إن هناك دولًا جديدة بعدد الـدول الموجودة في الأمم المتحدة سـتنضمّ إلى النظام العالمي خلال الأعوام الخمسـة عشـر الآتية، وأن الشـروط اللازمة في هذا الشـأن توافرت. ويؤكّد عدد كبير من المعطيات والتطورات هذه التكهّنات. فإذا أخذنا في الحسـبان الحوادث التي شـهدها الربيع العربي، يتبين أن الدول الآسيوية، والشـرق الأوسـطية خصوصًا، تنطوي على الخطر الأكبر. وفي وسعنا القول إن موجة «القومية الصغرى» ستشـمل معظم الدول الآسيوية عمومًا، والشرق الأوسـطية خصوصًا، نتيجةً لتركيبتهـا الإثنية وضعف تجربتهـا الديمقراطية، والتفاوت الهائل في مستوى الدخل، والتناقض بين متغيّرات كثيرة.

ثمّة متغير أسـاس جديد آخر يتمثّل في انتهاء عصـر التقديرات (البيانات العلمية الحسابية) ونشـوء عصر جديد لا مجال فيه سـوى لمقاربة الحوادث المسـتقبلية، لتعذّر الوصول إلى تكهّنات دقيقة في ظل بيئة تشـهد منافسة بين أقطـاب عدة، وما نتج من نمـاذج جديدة. وبالفعل، عدّل حلـف الناتو وثيقته الأمنية وفق منظور أسـاس هو «التحول من التكهّن إلـى التوقّع». وهذا يعني، للعالـم أجمع، حكم الدول ضمـن إدارة أزمات لا نهاية لهـا. وأكّدت الأزمة المالية العالمية في عام 2008 صحّة تلك المقولة. وهكذا تصبح إدارة الأزمات المسـتمرّة شـأنًا عالميًا. أمّا المثال الأبرز لهذا التحوّل من التكهّن إلى التوقّع فيكمن في الربيع العربي الذي انطلق في أواخـر عام 2010، ولا يزال يفرض تأثيره على دول مختلفة وبطرائق متباينة. وبدأ أصدقاؤنا، في الولايات المتحدة الأميركية على نحو خاص، استخدام اسم «الصحوة العربية».

إذا نظرنا إلى سـورية، يتبيّن لنـا بوضوح ارتدادات تعـدّد الأقطاب على التنافس بين الشـرق والغرب، ولا سيما بين آسـيا والدول الغربية ومحاولاتها للتجمّع وتشكيل التكتّلات. وأعتقد شخصيًا أن الدول الغربية تسعى إلى تحقيق ثلاثة أهداف رئيسة من وراء هذه العملية: أولًا إنشاء حزام اقتصادي يضمّ شمال أفريقيا والشرق الأوسـط وجنوب آسـيا لإيجاد مخرج لاقتصاداتها المتعثّرة؛

ثانيًا سعي الدول الغربية إلى إنشاء حزام أمني جديد مرتبط بالحزام الاقتصادي المذكور، ولا سيما بالنسبة إلى جنوب أوروبا؛ أمّا الهدف الثالث، وهو شامل في جوهره، فيسعى، على ما يبدو، إلى عزل روسيا والصين، لجني مكسب نهائي من تحقيق الهدفين الأوّلين. ويمكن إيراد الكثير من الأسباب الثانوية الأخرى. وبهذا المعنى، ربما نلحظ أن المنطقة أيضًا، ونحن منها، على موعد مع اضطرابات وتهديدات عديدة في الفترات التالية.

إن النمط الأساس هو «تعدّدية الأقطاب». وشرحنا المتغيّرات الجديدة بوصفها حقبة الاندماج والقوميات الصغرى والتكهّن. وثمّة تصوّرات ثانوية وتغيرات جديدة أيضًا تتعلّق بالقارّة الآسيوية وبالعالم، تشمل التهديدات الأمنية الجديدة، لأن «الأمن» هو الميدان الأساس لجميع المتغيّرات المذكورة، ولا سيما الاندماج والرفاه والتنمية. بالفعل، يعلم الجميع أن تعريف «الأمن» كمفهوم قد تطوّر كثيرًا وتحوّل إلى «الأمن المتعدّد الأبعاد» الذي بات محور الجدل الدائر بوصفه المتغيّر المهمّ الرابع.

كان تفسير الأمن مقتصرًا على المجال العسكري في السابق، وتحوّل إلى عملية شملت في الأعوام العشرين الأخيرة جوانب الحياة كافة، وبات يُعرّف بوصفه يشمل عناصر القوة الناعمة. بناء عليه، ولدى عرض تعاريف التهديد الجديد، تجدر الإشارة أولًا إلى تغيّر طرأ على الرأي الذي كان يرى في الإرهاب تهديدًا ضمنيًا. ثانيًا، المخاوف المتعلّقة بالأمن النووي وهي التي تتجسّد في الملف النووي الإيراني. وثالثًا هناك التهديدات المتصوَّرة بشأن أمن الحدود والمتعلّقة بأهداف ضبط موجات الهجرة. ورابعًا تأتي جوانب الحياة كافة، مثل قضية الأمن الإلكتروني. أمّا خامسًا فيمكن القول إنها العناصر التي تتضمّن التطوّرات المتعلّقة بالتغيرات البيئية والمناخية.

كمثال لذلك، قيل إن المملكة العربية السعودية تخطّط لحظر الصادرات الغذائية نتيجةَ نقص المياه، ما أدّى إلى إثارة قلق الدول المستوردة الأغذية من السعودية. وعلينا أن نتوقّع احتمال أن تتّخذ دول أخرى مصدِّرة للأغذية إجراءات مماثلة، ما يمثل خطرًا كبيرًا على الأمن الغذائي. علاوة على ذلك،

ثمّة تهديدات ثانوية أُخرى متصوّرة تتمثّل في الأمراض الوبائية والمشـكلات السـكانية. ترى القوى التقليدية النموّ السـكاني العالمي تهديـدًا كبيرًا؛ إذ إنّ آسيا تضمّ أكثر من نصف سـكّان العالم، و67 في المئة من سكّانها لا تتجاوز أعمارهم 25 عامًا. وفـي الحقيقة، هناك تهديد كامن للجميع بسـبب الموارد المحـدودة. فمثلًا، يتعيّـن على الصين والهنـد وحدهما تأميـن فرص عمل لأربعين مليون نسمة سنويًا. لذلك عند النظر إلى موارد العالم وضخامة النظام الاقتصادي، يمكننا التكهّن بما قد تسفر عنه هذه العملية من نتائج.

من التهديـدات المتوقّعـة الأخرى أيضًا، التشـكيلات مـن غير الدول وتهديداتها. وفي هـذا الإطار يمكن أن نـرى تنظيمات مختلفـة - كمحاولة الانقلاب في مالي - منظّمة جزئيًا، بيد أنها لم تكتسـب تعريفًا مكتملًا، ويعتقد أنها تهديد جديد. وهناك نوع آخر من التهديـدات الأمنية يجري صوغه حاليًا، وهو «الأمن الفضائي».

يؤكّد جميع هـذه العوامل إدارة الأزمات بوصفها متغيّرًا خامسًـا: «حكم الدول ضمـن إدارة دائمة للأزمـات». إن الفرص المتاحة فعـلًا لوقف إهدار الوقت وإصـلاح الأخطاء محدودة جدًا. ففي قضايا الـدول قد يتعذّر تعويض عملية تبديد لأربع وعشرين ساعة.

في وسـعنا أيضًا إضافة متغيّر سـادس هو «العلاقات بيـن القيم والرفاه وأنماط الاستهلاك في العالم». ونحن جميعًا نواجه المشكلة ذاتها؛ ففي القرنين الأخيرين على وجه الخصوص، أدّت القيم الحضارية وأنماط الاسـتهلاك التي أنتجها الغرب في معظمها إلى مشكلات خطرةٍ في الفضاءين البيئي والأخلاقي. طبعًا، ساهمنا جميعًا في هذه المشكلة بطريقةٍ أو بأخرى، لكن الحضارة الغربية التي تحدّد القيم الأساسية هي التي تتحمّل المسؤولية الكبرى. واليوم ينبغي أن تتغيّر أنماط الاسـتهلاك الحالية باتّجاه نمط جديد، لأنه حتى لو أجّلنا وحاولنا كسـب الوقت، لن يعود في مقـدور العالم التغلّب على الأزمـات الاقتصادية والاجتماعيـة والأخلاقية ما لم تتغيّر أنماط الاسـتهلاك. وبهـذا المعنى، ثمّة

ضرورة لوجود روّاد نحذو حذوهم، يبتكرون «رؤية مستقبلية» جديدة ويعبّرون عن ذلك بأنماط حياتهم ونظمهم المؤسسية.

في هذا المناخ الاستثنائي الناشئ من تضافر جميع هذه العوامل، إضافة إلى بيئة تنافسية على أكثر من مستوى، نعتقد أن دول شمال أفريقيا والشرق الأوسط ما انفكّت تشهد تحولات اجتماعية لن تلبث أن تنتقل إلى شمال آسيا. ونحن نواجه عددًا من الدول الشرق الأوسطية التي أهدرتْ فرصتين نشأتا بعد تفكّك الاتحاد السوفياتي وحوادث 11 أيلول/ سبتمبر. ولم تستفد هذه الدول من هاتين الفرصتين المهمّتين الضروريتين للتغيير الاجتماعي والتحوّل الديمقراطي.

ثالثًا: العلاقات التركية - الأميركية والشرق الأوسط

عندما ننظر إلى محيط تركيا المباشر نرى القوقاز والبلقان والشرق الأوسط وشمال أفريقيا وآسيا الوسطى وجزءًا من جنوب آسيا، وباختصار نرى جوار تركيا التاريخي. وجميع هذه المناطق مراكز مهمّة يُتوقّع أن تشهد مفاجآت وتغييرات، وهي المسرح الأساس للمنافسة بين القوى الجديدة. لذلك، فإن تركيا شريك أساس مهمّ من الناحية الاستراتيجية لأي قوّة - وفي طليعتها الولايات المتحدة الأميركية - تريد أن يكون لها تأثير في هذه المناطق وأن تستفيد من التحوّلات من دون أن تؤدّي إلى الفوضى، وبطريقة تساهم في تحقيق الرفاه الاقتصادي. غير أن العلاقات المتكاملة يجب أن تُبنى بطريقة صحية لأن لتركيا مخاوفها الخاصة ورؤيتها للتهديدات التي تحيط بها.

وكِلا الجانبين يتّسم بخصائص متكاملة جدًّا، إلّا أن العلاقات بين تركيا والولايات المتحدة تمرّ بمرحلة صعبة، في زمن بات معه التعاون أمرًا ضروريًا. وإذا أردنا اختصار هذه المشكلات بعناوين رئيسة، نجد أن هناك ثلاث مشكلات هي الأهمّ: المشكلة مع إسرائيل؛ والقضية الأرمينية؛ والمشكلات مع إيران بخصوص برنامجها النووي.

من الواضح أن الاتفاق المتبادل والشـراكة بين الولايات المتحدة وتركيا سيساهمان في اكتشـاف طاقات هائلة في المناطق الأخرى. وتجدر الملاحظة أن القضيتين الإسـرائيلية والأرمينية غير محصورتين في هـذه الدول، بل هي مشـكلات كبيرة لدى الجوالي التي لها امتدادات فـي الولايات المتحدة وفي العالم. ونفّذ كلّ من اللوبي اليهودي الإسـرائيلي والجاليـة الأرمينية واللوبي الأرميني أعمالًا كثيرة للإضـرار بمصالح تركيا في الولايات المتحدة، وحاولوا التأثير في رجالات الدولة فيها. وهناك أيضًا قضايا معروفة سلفًا تنجم باستمرار عن الأجندات الخاصة للبلدين. وعلى الرغم مـن أن القرار النهائي يبقى حتمًا في يد صنّاع القرار والسياسيين والسلطات الرسمية، يبقى من الممكن القول إن الاتفاق القائم على الثقة والمصالح المتبادلة بيـن تركيا - التي تمثل مركزًا في وسط مناطق متغيرة - والولايات المتحدة سيؤدّي دورًا رئيسًا في تحوّل العالم برمّته.

أمّا القلـق البنيوي الأهمّ لتركيـا اليوم فيكمن في القضيـة الكردية، وهي شـأن حاسـم لدى الولايات المتحدة، واختبار للعلاقات التركية - الأميركية. وتُعدّ التطوّرات في المسـألة الكردية حاسمة لحُسن التعاون في جميع المناطق الجغرافية ذات الصلة، ولو أن أيًا من الجانبين لا يوجّه اتّهامًا رسميًا إلى الآخر.

لعل قائلًا يقول إن العلاقات بالولايات المتحدة سـتصبح أفضل ممّا هي عليه اليوم إذا ما شـعرت تركيا بأنها في مأمن من خطر انفصال الأكراد. وأظهر استطلاع في تركيا بشأن التعاطف مع الولايات المتحدة، نتائج سلبية جدًا.

من وجهـة النظر التركيـة، من المفيـد مبدئيًا تعزيز هذيـن الموضوعين ومأسستهما: «الخطر النسـبي والاعتماد المتبادل»؛ إذ يتعيّن على تركيا أن تُقْدِم على مخاطر تتناسـب وقوّتها، وأن تـوازن بين خطابها ونفوذهـا، وتُقْدِم على مخاطر نسـبية في جميع علاقاتها، ولا سـيما في علاقاتها بالولايات المتحدة وفي جميع الميادين التي ترغب في أن تكون فيها مؤثّرة، لأن المخاطر النسـبية تتطلّب أيضًا تحديد خيارات السياسة الخارجية بصورة صحيحة.

تقوم السياســة التقليدية للدولة التركية على المنظور الغربي، وتسعى إلى الانضمام إلى الاتحــاد الأوروبي بـ «عضوية كاملة» من خــلال المفاوضات. لذلك تتعيّــن إدارة عملية الانضمــام بوضعها علــى رأس الأولويات، ووضع القضايا الأخرى وفــق الترتيب الصحيح بعدها، وهــذا يتضمّن أيضًا التخطيط للمخاطر النسبية.

رابعًا: سياسة الهوية ومستقبل الشرق الأوسط

عبّــرت عقلية الدولة العثمانية عن نفســها تاريخيًا بربــط العناصر القائمة الخاضعة لســيطرتها بالدولة، بدلًا مــن بناء هويات جديــدة للأقاليم المحتلّة، في حين حاولت الدول الغربية فرض ســيطرتها بصورة دائمة على الدول التي تقاســمتْها ضمن مناطق نفوذها - خصوصًــا بعد الحــرب العالمية الأولى - وبالإكراه، عبــر إبراز بعض العناصر الأقــل ارتباطًا بالهوية فــي الدولة وإيلاء الأهمية للمستويات الحكومية.

من أبــرز الأمثلة لذلك، مســاعدة القوى الاســتعمارية الأقلية العلوية - البالغة نســبتها 9 في المئة في سورية - للوصول إلى السلطة، في مقابل أكثرية ســنّية تقارب الـ 80 في المئة من مجموع السكان في ســورية. كما ساعدت الأقلية الســنّية في العراق أيضًا، حيث يشكّل الشــيعة أكثر من نصف سكّانه، لتسلّم الســلطة. وتاليًا، ســعت كلّ من المملكة المتحدة وفرنســا إلى إنشاء حكومات تتمتّع بشــرعية ضعيفة جدًّا، ولا يمكنها الاســتمرار إلّا بمســاعدة القوى الخارجية.

عزّزت هذه السياسات بعد ذلك بزوغ حركات قومية، كالتي هي في جميع دول العالم الثالث في فترة الخمســينيات والســتينيات. وباتت القومية العربية حركة مهمة جدًّا في العالم العربي، وبــدأت تهدّد وجود القوى الغربية في هذه الدول. وحلّت الحكومات القومية محــلّ الملَكيات، كما في مصر عام 1952 والعراق عام 1958. وفي العراق تحوّلت سياسات الحكومات القومية الرامية إلى بناء ما يُعــرف بالهوية القومية العربيــة العلمانية، في نهايــة المطاف، إلى

تقديم السنّة على الأغلبية الشيعية، وفرض التعريب على الأكراد. وقاد الضغط المتزايد في زمن حكم صدّام حسين إلى عزل الشيعة والأكراد وإقصائهم عن المركز. وتعاونت الولايات المتحدة الأميركية بعد إطاحة صدام حسين مع الشيعة والأكراد المغبونين لتوفير بيئة مؤيدة للحكومة الموقّتة أولًا، ولبناء عراقٍ ضعيف فقد وحدته الوطنية ثانيًا. ونفذت الولايات المتحدة عددًا من السياسات لجعل الشيعة والأكراد يشغلون موقع الصدارة، ما تسبّب بردات فعل في جميع دول الجوار التي تبنّت بصورة أو بأخرى مقاربات ستكون مناوئة للأميركيين عاجلًا أم آجلًا.

هكذا نجم عن السياسات التي طبّقتها الولايات المتحدة في العراق وضع أضرّ تدريجًا، وعلى نحوٍ متزايد، بجميع الأطراف.

يمكننا في مجال سياسات الولايات المتحدة أن نتحدّث عن نقطتين مهمّتين: نسج الشيعة علاقات وثيقة مع إيران، وهم الذين يمثلون الأغلبية العظمى من الشعب العراقي. وساهم عدم استقرار العراق بتشويه سمعة الولايات المتحدة المتضرّرة أصلًا بفعل السياسات الإسرائيلية. وتتطلع الولايات المتحدة حاليًا إلى تخفيف حدّة التوتّرات بين الشيعة والسنّة، وبين الجماعات العربية والأكراد.

يمكن إيجاز الوضع الراهن للأطراف السياسية في المنطقة على النحو التالي:

ينتاب الشيعةَ شعورٌ بالدهشة الممزوجة بالزهو والإباء لوصولهم إلى السلطة أول مرة منذ زمن بعيد. وعمّق هذه الدهشة أن تدخُّل أميركا والدول الكبرى الأخرى ودول الجوار وبعض المنظّمات كشف مدى صعوبة حكم العراق.

لا شك في أن إيران كانت هي الدولة الأهمّ المؤهّلة للاستفادة من هذه الهويات. غير أن الاستفادة من الهوية الشيعية في العراق عرّضت إيران لأخطار جسيمة. ويتجسّد الخطر الأكبر في إمكان التجزئة القومية الفارسية – العربية،

وما ينجم عنها من صراع على أســاس الهويات في إيران؛ إذ إن إثارة الهويات في إيــران قد تعزّز الانفصال بين الســكّان الفرس والعــرب المتمركزين حول حقول نفط عبدان. ويمكن أن تنقل قوى خارجية هذه السياســات التمييزية إلى الشمال الذي يضم مناطق تتمتّع بكثافة سكّانية أذرية. لذلك، على إيران أن تعي هذا الوضع، وأن تكون إحــدى الدول التي تدعم على الدوام ســلامة أراضي العراق. ومع أن أيران ترغب في التأثير في البلاد من خلال الشيعة، فهي لا تريد وجود عناصر قد تناصبها العداء فتتسبّب بالاضطراب بعد أي تجزئة محتمَلة.

فضّلت الولايات المتحدة الاســتفادة من الشــيعة لإطاحة صدّام حســين وإنشاء عراق ضعيف تستطيع التدخّل في شؤونه.

حتى وإن كانــت تركيا في البداية قد نأت بنفســها عن شــؤون العراق، واقتصر الحوار الذي أطلقته على السُــنّة فحســب، فهي أول بلد يدرك الضّرر الناجم عن بناء علاقات مع بعض الجماعات في العراق دون غيرها، عبر تقسيم الشعب على أساس الهويات. كما كانت تركيا أول دولة تتّخذ موقفًا حاسمًا من الولايات المتحدة في معارضتها تقسيم العراق.

تمثل الأغلبية الشــيعية مصدر خوف لدول الخليج التــي تبدي تحفّظًا تجاه العراق، لكن ذلــك لا يغيّر حقيقة أن أكثر من نصف الشــعب العراقي هو من الشــيعة، وأن دول الخليج، خصوصًا السعودية والكويت، هي الأكثر انزعاجًا من بروز العناصر الشيعية؛ إذ تواجه تلك البلدان صعوبات في نسج علاقات مع شــيعة العراق لأســباب عدة، منها الموقف الراديكالي للسلفية من الشــيعة، والتبعية للولايات المتحدة لدى صوغ السياســات، إضافة إلى صعوبــات أخرى. كما أنها تــدرك خضوع العراق لإيــران؛ إذ عمّق انبعاث الشــيعة في العراق مخــاوف دول الخليج من إيران التــي أصبحت مصدر الخوف الأكبر لها منذ زمن الخميني، ما جعل الولايات المتحدة ترفع وتيرة تدخّلها في المنطقة عبر بوّابة المخــاوف الخليجية. إلّا أن دول الخليج هي التي دفعت ثمن تزايد خوفها من إيران، فهي عزّزت إنفاقها العسكري، مثيرة بدورها قلق العناصر الشــيعية في دول الخليج التي لا تحتمل مواجهة خطر

التقسيم. وهذا أيضًا حال دون أن ترسم دول الخليج سياسات صحية على المدى البعيد.

من اللافت اليوم في المنطقة تعميق الانقسام الإثني في العراق، الذي من شأنه إثارة الاضطرابات لا في تركيا فحسب، وإنّما في دول أخرى من المنطقة أيضًا. وستكون إسرائيل المستفيد الوحيد من هذا الاضطراب.

من الممكن كشف تداعيات العلاقات الدينية السياسية على عملية تفتيت العراق على أسس الهوية والإثنية؛ فأغلبية الشيعة تعمل في الزراعة في المناطق الريفية. وهي، تاريخيًا، لم تكن يومًا في سدّة الحكم، بل كانت من المنشقّين في العراق. غير أن الشيعة انخرطوا في العمل السياسي منذ بداية القرن العشرين، ومع تبلور الطبقات الوسطى. لكن ينبغي ألّا ننسى أن الشيعة والسنّة عاشوا معًا بسلامٍ على مرّ التاريخ، وعملوا معًا في مناسبات كثيرة ضد أعداء مشتركين.

في صراع الهويات يدفع الطرفان مباشرة الثمن الأكبر، بيد أن مشكلة الشيعة تمخّضت عن تحدٍّ هائل واجهته كلّ من تركيا في المقام الأول – بسبب القضية الكردية – ومن ثمّ إيران ودول الخليج. أمّا السبب الرئيس الذي حال دون انتقال الصراع إلى دول الخليج فيكمن في كون الولايات المتحدة والمجتمع الدولي منعا ذلك بسبب القلق على أمن منابع النفط.

تتمتّع المنطقة بأهمية استراتيجية واقتصادية بالنسبة إلى الغرب؛ إذ حاولت الولايات المتحدة قبل عهد الخميني أن تُبقي على وجودها في المنطقة والتعامل مع إيران بوصفها بلدًا صديقًا، من خلال ممارسة «القوّة الناعمة». لكنّها لم تنجح في ذلك، فلجأت في النهاية إلى السيطرة على المنطقة بالقوة العسكرية. أمّا إذا سادت الفوضى في العراق، فلن يعود في استطاعة المجتمع الدولي والدول المجاورة تحمّل ذلك، لأن الأزمة في العراق تؤذي شرعية الولايات المتحدة.

في المنطقة عدد كبير من الأطراف السياسية بأجندات مختلفة. وستنبثق، عاجلًا أو آجلًا، «أجندة مُشتَركة» من هذه الأجندات المختلفة. لكن المهمّ ألّا

يُهدر المزيد من الدماء، وألّا ينجم مزيد من الخسـائر الاقتصادية للوصول إلى هذه الأجندة المشتركة.

بُنيتْ التركيبة السياسية القائمة في العراق لتعزيز الانقسامات الإثنية والطائفية، ولا بدّ من تصحيح هذا الوضع فورًا. ويتعيّن تفعيل مؤسّسات الدولة فيها؛ فالسياسات الطائفية دفعت العراق باتّجاه «اللبننة». أمّا الاعتقاد أن إسرائيل تستفيد من الصراع الطائفي في هذا البلد وتشجّع على تقسيمه فتعزّز بقوة متنامية.

في التحليل الأخير، تبقى وحدة العراق في أيدي العراقيين. وما لم ينشب الصراع السُنّي - الشيعي، وما دام أن هذين الطرفين لم يسعيا إلى تقسيم العراق، فليس ثمة تقسيم متوقّع. وإذا لم يتولّ العراق مقاليده بيديه، فسيأتي طرف ما لاحتلال الحيّز السياسي. من الطبيعي أن تتدخّل الدول المجاورة وأطراف خارجية أخرى وتركيا في هذا الشأن.

ليس الصراع السنّي - الشيعي أو الصراع الكردي - العربي أو غيرهما من الصراعات أمرًا حتميًا. فصورة «الذات» وصورة «الآخر» في الأذهان فحسب. ولا يقاتِل إلّا منْ يعتقد أنّ هذا القتال ضروري. فمن السهل جعل الناس يحاربون، لكن ليس من السهل إقناعهم بالسلام. وعلى أي حال، لم يتحقّق السلام بعدُ.

ستدافع الهويات عن وجودها حتمًا في الشرق الأوسط، لكن استغلالها لمصالح خاصّة أو التلاعب بها أو تشكيلها وتحديد المصالح وفقًا لها، كل ذلك سيؤذي جميع الأطراف، ولا سيما مواطني دولة مثل العراق. كما أن التلاعب بالهويات والترويج للصراع بينها سيصبّان في مصلحة إسرائيل وحدها وعلى المدى القصير فحسب. أمّا على المدى البعيد، فينطوي ذلك على أخطار جسيمة تهدّد السلم الإقليمي والعالمي عمومًا.

يكمُن جوهر المشكلة في أن القوى العالمية ترى في الشرق الأوسط عمومًا، وفي دول الخليج خصوصًا، وفيها العراق وإيران على وجه التحديد، «منطقةً لا يمكن تركها وحدها». وكردٍّ على تقارب القوى العالمية في موقفها

من المنطقة، نشأت فيها أنظمة استبدادية حاولت سحق العناصر المحلية التي اعتُقِدَ أنها أدوات لهذه القوى العالمية. وفي المقابل لجأت القوى الخارجية إلى استغلال هذه الفئات المقهورة لتحقيق مآربها.

إذًا، لا بدّ من كسر هذه الحلقة المفرغة. وما دامت العناصر المحلية في المنطقة عاجزة عن اتّخاذ المبادرة، وما دام صنّاع القرار الفعليون يتحدّرون من خارج المكوّنات الإقليمية، سيكون من الصّعب ضمان الاستقرار الدائم فيها. ولا يعي زعماء دول المنطقة هذه الحقيقة، أو أنهم يتجنّبون الاعتراف بها كي لا يُضطرّوا إلى دفع ثمن الإقرار بها، ولا يتحلّون بالشجاعة الكافية لمواجهة الجمهور للاعتراف بأن الهويات القائمة لا تمنع العيش بوئام مع الآخرين في العالم المعاصر. وعندما تُصاغ السياسة على أساس هويات كالشيعة أو السنّة أو الأكراد، يغدو من الصعب، بل من المستحيل، التشارك في الفضاءات السياسية والاجتماعية بما يُرضي جميع الأطراف.

خامسًا: الوضع الراهن في أوروبا وارتداداته المحتملة على المنطقة

لم تكن أوروبا في منأى عن المشكلات الخطِرة نتيجةَ الأزمة الاقتصادية التي اندلعت في الولايات المتحدة الأميركية في عام 2008، وانتشرت إلى أوروبا وأثّرت في كثير من دول العالم - باستثناء الدول ذات الاقتصاد الشديد الانغلاق.

بات من الواضح أن الاتحاد الأوروبي يعاني مشكلات بنيوية عديدة لأن في الوضع الراهن إخفاقًا في النجاح، بمعنى أن مشروع الاتحاد الأوروبي هو عملية مَأسسة هائلة وتجربة ديمقراطية عميقة وبناءُ اقتصاد ضخم وهيكلة محورها الإنسان. إلّا أن هذه المعايير كافة أمست غير مستدامة ولا يمكن تمويلها في ظل بيئة تزداد عليها شراسة المنافسة، ولا سيما مع انتقال الحصّة الكبرى من الاقتصاد بسرعة من الغرب إلى الشرق. وتُظهر المعطيات ذات الصلة أن هذه العملية ستُواصل سيرها في الاتّجاه ذاته. ويبدو أن الدول القوية

بالتكنولوجيا والموارد البشرية، مثل ألمانيا، ستقاوم هذه العملية التي بدأت في اليونان وانتقلت إلى دول وأخرى ستتوسّع أكثر فأكثر.

تواجهنا عند هذه النقطة مشـكلتان، **أولًا**: لُوحِـظ أن دول البلقان وبعض الدول الأضعف التي انضمّت بسـرعة إلى الاتحـاد الأوروبي تواجه صعوبات في المنافسـة، وأن الموارد الاقتصادية تنتقل في معظمها إلى الدول الواقعة في أوروبا الغربية، وأن القطاعات تعاني الانعـزال، وأن الدول الكبرى في أوروبا الغربية تتمتّع بأثر تفريغي، خصوصًا في الحقل الاقتصادي والنظام المصرفي في المقام الأول. ويشير أحد أهمّ المؤشّـرات بشأن هذه الفرضية إلى زيادة الطاقة الرأسمالية في ألمانيا بمقدار تريليونيْ يورو، بعد توسيع الاتحاد الأوروبي. أمّا المشكلة الثانية فتتعلّق بما سـيؤول إليه الوضع في الدول الأعضاء والمرشّحة لعضوية الاتحاد والتي شهدت انتقالًا نسبيًا للمُلْكيات كلما طرأت على الاتحاد الأوروبي أي أزمة سياسية.

في أغلب الظن أن الاتحاد الأوروبي سيتمكّن من تجاوز هذه الأزمة بفضل المسـافة التي قطعها، وخبرته الطويلة على الرغم مـن أن العديد من المحلّلين الاستراتيجيين يرون أنه لن يتمكن من تجاوز الأزمة، ويتوقعون تفككه. لكن لا بدّ من بعض النقاط في الحسبان عند حصول السيناريو السيىء وانعكاساته على تركيا ودول الشرق الأوسط.

خلاصة

عند النظر إلى هذه المتغيرات كلّها، يتبين أن دول الشـرق الأوسط تواجه مشكلة مشتَرَكة، تتجسّد في أهمّ جوانبها في مدى قدرة هذه الدول وغيرها على تغيير نوعية الموارد البشـرية. فإذا تمكنتْ من تغيير هـذه النوعية ومن تحقيق التحوّلات في جميع القطاعات، فسـيكون في وسـع هذه الدول تحقيق الرفاه وإنتاج الحضارة والتكنولوجيـا وصونها لجيلين أو ثلاثة علـى الأقل. ولا بدّ من التشـديد مرّة أخرى على ضرورة تحويل موارد مالية كبيرة إلى المقاربات

وخطط الاستثمار المتمحورة حول الإنسان بدلًا من الاستثمار في بنًى تحتية لم تكتمل دراسات جدواها.

بات الشـرق الأوسـط مركز التغييرات والتحوّلات في الأعوام العشـرة الأولى من القرن الحادي والعشـرين، وكان ذلك تمامًا منذ مئة عام. وتوسّعت العملية التي انطلقت في شـمال أفريقيا والشرق الأوسـط بسرعة، وما انفكّت تتوسّـع. وإنّنا نتوقّع، إذا أمكن تحقيق الاستقرار في هذه المنطقة من العالم، أن تعمّ موجة الاستقرار هذه بعض دول جنوب آسيا في الأشهر والأعوام المقبلة. وهذه الدول إسـلامية في أغلبيتها. ويتعيّن تاليًا على دول الشرق الأوسط إبداء المزيد من التضامن والتكافل إذا أرادت لها دورها فـي هذه العملية على نحوٍ حي، وأن تتجاوز التغيّرات والتحوّلات بطريقة صحّية من دون إعطاء أي فرصةٍ لسـيناريوات قد تقود إلى فوضى مؤلمـة، أو إلى حـروب وصراعات أهلية. وبهذا المعنى، على هذه الدول أن تتعاون بدرجة أعلى وتسـتفيد من الخبرات المتراكمة لدى دول مثل تركيا.

في ظل هذه المتغيّرات جميعها، على مراكز الدراسات والأبحاث في دول الشـرق الأوسـط أن تمارس دورًا إيجابيًا فاعلًا في تطوير بلدانها، وأن يشمل تأثيرها جوانب الحياة كافة بدلًا من أن يقتصر على السياسة الخارجية والقضايا الأمنية. فمثلًا، توصّل مشروع بحثي في الولايات المتحدة إلى أن في الولايات المتحدة 1770 مركز أبحاث ودراسـات، يدرس نصفها السياسـة الخارجية، وهي مراكز معروفة على نطاق واسـع بين الناس، بينما تدرس المراكز الأخرى السياسات القطاعية، وهي غير معروفة خارج القطاعات التي تعمل فيها. وتاليًا، هناك فـي كلّ مجال حاجـة كبيرة إلى مراكـز أبحاث ودراسـات لتأخذ زمام المبادرة وتقدّم الآراء والنماذج والمشاريع الجديدة لصنّاع القرار.

أودّ القول أخيرًا إن المتغيّر الوحيد بالنسـبة إلى الشـرق الأوسط ليس أن يكون قويًا فحسب، بل أن يتقدّم مسار الحضارة أيضًا على أساس القوة والعدل، لأننا نتحمّل في ذلك مسـؤولية أخلاقية ومؤسّسـية. وليس لدينا الخيار بتقويم الحوادث من جانب واحد وبرؤية مادية.

خلاصة القول، إن الشــرق الأوســط منطقة جغرافيــة تحتضن تناقضات هائلــة وفرصًا وتهديدات عديدة. وهو مرشّــح أيضًا لأن يصبــح مركز قوة في القرن الحادي والعشــرين. فإذا أُديــرت هذه التناقضات بصــورة جيدة، كانت فرص النجاح كبيــرة جدًّا. أمّــا إذا تلاعبت أطراف خارجية بهــذه التناقضات والاختلافــات، أو خضعت لتنافــس لا معنى له بين الأطــراف الإقليمية، فقد تواجه المنطقة نتائج غير متوقّعة. وأنا أرى أن على تركيا ودول الشرق الأوسط أن تعتمــدا مقاربات أكثــر براغماتية وعمقًــا ضمن مفهوم «المخاطر النســبية والاعتماد المتبادل» كما أســلفنا، بدلًا من التوجّهات الانفعالية. وإذا اســتطعنا قراءة التطورات في العالم وفي منطقتنا بصورة صحيحة، أمكننا كدول شــقيقة وصديقة أن نغدو أقوى بعضنا مع بعض ونحظى بإمكان تحويل التطوّرات إلى فرص لنا.

علّمتنا التجارب التاريخيــة أن «طاحونة الماء لا تعمل بمــاء منقول»[1]، وينطبق الأمر ذاته على السياسة التي لا يمكن تنفيذها بآراء ومعلومات وأسلحة واقتصادات مستوردة. ما من شكٍّ في أن بوسعنا أن نكون أقوياء بقدر ما نتمكّن من تحويل تجاربنا إلى حكمة، والحكمة إلى قوّة إرادة، وقوة الإرادة إلى فعل. وبهذا المعنــى، تنطوي التطــوّرات الراهنة في المنطقة، إضافــة إلى الأطراف والحوادث والظواهر الإقليمية والعالمية، على مؤشّرات مهمّة إلى ما نحن عليه وكيف سنصبح في المستقبل.

(1) مَثَل تركي يعني أنه لا طائل في تأســيس عمل ما إذا لم يكن هناك من مورد مســتدام، أو أنه لا يمكن الحفاظ على مستوى معيّن من الحياة بأموال مقترضة.

تعقيب

طارق عبد الجليل

تناولت الدراسة بالتحليل المشهد الجيوسياسي لمنطقة «الشرق الأوسط» في إطار التطوّرات الجارية على الساحة العالمية والإقليمية، ولا سيما في فترة الثورات العربية التي تعيشها المنطقة العربية حاليًا. وانطلقت في تحليلها من فرضية أن «الشرق الأوسط يشهد تكرارًا جديدًا لحركات المدّ والجزر»، وأن «الصعود الإسلامي» في المنطقة على مدار التاريخ كان السبب في تعرّضها لهجمات القوى الخارجية مثل الجيوش الصليبية والغزو المغولي، وأنها أضحت في العصر الحديث مطمعًا للقوى الاستعمارية. وهي الآن أيضًا «تشهد محاولة لدفعها خارج التاريخ». وتعزو الدراسة الوضع الانهزامي الذي تعيشه المنطقة الآن إلى أنه «ليست هناك دول قوية في المنطقة اليوم»، وأن «المشهد السياسي الحالي لا يتيح التدخّل في حوادثها إلّا من خلال بوابة التحالف مع الخارج».

قد نتّفق مع الدراسة في بعض ما ذهبت إليه من تشخيص للوضع الراهن لمنطقة الشرق الأوسط، غير أن ثمّة ملاحظات مفاهيمية وتاريخية ينبغي تأكيدها كركائز بوصفها أساسية لتحليل الواقع. فالمنطقة الجيوسياسية التي ضمّت - على مدار التاريخ - الدول الإسلامية عمومًا والعربية خصوصًا تمتلك مخزونًا حضاريًا عميقًا في قلب القارة الأم الأفرو - أوراسية. وعبّرت هذه المنطقة على مدار التاريخ عن مركز إشعاع حضاري متوحّد قوي في ظل تعددية - لم

تعرفها كيانات سياسية أخرى - بما اشـتملت عليه من أعراق ولغات وديانات مختلفة. ومن ثمّ، فإن هذه المنطقة أسبق على ما أطلق عليه الآن منطقة «الشرق الأوسط»، بما يتضمّنه ذلك المصطلح من مقاصد سياسية ورؤية غربية للمنطقة تستهدف أمن إسرائيل في المقام الأول والمصالح الغربية في المقام الثاني.

يمكن القـول إن منطقتنا بما تحملـه من إرث حضـاري وطاقات كامنة على المستويات الجيوسياسـية والجيواقتصادية والجيوثقافية قادرة على تجاوز أزمتها الراهنة، إذا ما استطاعت اسـتدعاء مقومات النهضة، واستغلال الفرص السياسية الحالية التي جاء بها مناخ الثورات العربية لتعيد هيكلة نظمها السياسية والاقتصادية وعلاقاتهـا الخارجية، على نحو يحقّق لها التكافؤ والاتّسـاق مع المتغيّرات.

أولًا: الشرق الأوسط في نظام عالمي جديد

قدّمت الدراسـة توصيفًا للمتغيّرات الرئيسة التي تمثل عناصر معادلة نظام عالمي متعـدّد الأقطاب. وهي ثلاثة: «الاندمـاج» و«القومية الصغرى» وانتهاء عصر التقديرات أو ما يمكن تسميته «التحوّل من التكهّن إلى التوقّع».

منذ انتهاء الحـرب الباردة وسـقوط «الثنائية القطبية» لم يتشـكّل النظام العالمي الجديد بعدُ؛ إذ تتبلور منذ ذلك الحين كيانات سياسية جديدة في آسيا وأوروبا تسـعى لأن تصبح قطبًا في الفضاء العالمي الجديد، وإن اسـتندت - بحسب ما أشـار إليه صاحب الدراسـة - إلى أدوات قوة مختلفة، كقوة التقنية والمعلوماتية، فضلًا عـن القوة الاقتصاديـة مثل الاتحـاد الأوروبي والصين والهند.

عالجت الدراسة هذه المتغيّرات الرئيسة الثلاثة على نحوٍ ساهم إيجابيًا في تشخيص حالة مخاض النظام العالمي الجديد المتعدّد الأقطاب. وثمّة نقاط قد يكون من المفيد الإشارة إليها في هذا الصدد:

في حالة «الاندماج»، يُعد الاتحاد الأوروبي «أبرز محاولة اندماج شهدها

التاريــخ المعاصر». ولــم تكن الشــروط الموضوعية وفـرص التحالف التي توافرت للاتحاد الأوروبي أقل ممّا هو متاح للدول الإســلامية عمومًا والدول العربيــة خصوصًا، من أجــل التحالــف والاندماج. غيــر أن الإرث التاريخي والسياسي القريب لدى هذه الدول يمثّل عائقًا سيكولوجيًا أمام إقامة مثل ذلك التحالف القوي؛ فمنظّمة المؤتمر الإسلامي وجامعة الدول العربية... وغيرهما من الكيانات العربية والإســلامية - على الرغم من الجهد علــى مدار العقود الماضية - لم تتمكّن من التطوّر نحو إقامة اتحاد عربي أو إســلامي على شاكلة الاتحاد الأوروبي.

مع هذا، ليس من المســتبعد أن تؤدّي الثورات العربية - إذا بلغت مرحلة النضج والرشد السياســيين اللذيْن تتطلّبهما اللحظة - إلى تشكّل كيان سياسي جديد يحمل من عوامل الاتحاد أكثر ممّا يحمل من عوامل الفرقة، شريطة القيام على معادلات براغماتية واقعية تستهدف المصالح المشتركة لجميع الأطراف، من دون إهمال المصالح الخاصة لكلّ طرف على حدة.

أمّا المتغيّــر الثانــي، «القومية الصغرى» فســاق صاحب الدراســة في غير موضــع العديد من الأمثلة علــى مدى الخطر الكامن فــي فكرة «القومية الصغرى» والمهدِّد للتطوّرات الجارية في المنطقة، ولا ســيما الســيولة التي أفرزتها مرحلة الثورات العربية حاليًا. فما من شــكّ فــي أن محاولات إقامة تحالفات وتأســيس كيانات على أســاس إثني أو طائفي ســيعيد رسم خريطة المنطقة سياســيًا وســكانيًا على نحوٍ متشــرذم يفتقد الاســتقرار ما بين سنّي وشيعي وكردي وعربي وعلوي.

ارتباطًا بهذه الفكرة، أودّ أن أضيف متغيّرًا جديدًا آخذًا في التبلور، ويُنذِر بمخاطر أشــدّ تأثيرًا في وحدة المنطقة وســلامة مجتمعاتها، وهو «الانقســام المجتمعي بين الإسلاميين والليبراليين». فما إن نجحت مؤخّرًا بعض الثورات الشعبية في العالم العربي في إزالة رؤوس الأنظمة الحاكمة السلطوية، وشرعت في بلورة نظم جديدة تعتمد على الآليــات الديمقراطية والحريات، بعد عقود من القهر والاســتبداد، حتى استطاعت قوى تيار الإســلام السياسي، مستنفرةً

خلفها التيارات السلفية، أن تفوز بالأغلبية في المقاعد البرلمانية وبانتخابات الرئاسة في مصر، ما عكس المزاج السياسي العام لدى هذه الشعوب، ورغبتها في نظام حكم إسلامي استدعى لديها أدبيات «الخلافة الراشدة». غير أن مرحلة التحوّل السياسي في البلدان العربية ترتكز حاليًا على مقوّمات وبنى النظام السابق ذواتها، بسبب أن هذا التحوّل السياسي الجاري لم يأت بعد ثورات «مكتملة»، وأن الفواعل السياسية التي تمثّل تيار الإسلامي السياسي، ولا سيما جماعة الإخوان المسلمين، هي جماعة إصلاحية في الأساس. وبإضافة عامل «حداثة التجربة الإسلامية في العمل السياسي»، نجد صراعًا حادًا بين «إسلاميين» في السلطة بآلية ديمقراطية أو في طريقهم إلى ذلك، وقوى سياسية ثورية تبغي النهج الثوري في التحوّل السياسي، وبين عناصر «الدولة العميقة» التي تمثّل الحفاظ على مكتسبات النظام القديم وأصحاب المصالح. وليست قوة من هذه القوى الثلاث أقل تأثيرًا وثقلًا، بل حدّةً، من غيرها.

لعلّ أبرز الشواهد على ظهور حالة «الانقسام المجتمعي بين الإسلاميين والليبراليين» هو ما يحدث الآن من استقطاب حادّ وحشد أيديولوجي لقوى التيار الإسلامي بأطيافه المختلفة، أي الإخوان المسلمين والسلفيين والجماعة الإسلامية في مصر، وتقسيم المجتمع إلى إسلاميين وليبراليين، وما يحدث في تونس من انقسام بين إسلاميين وليبراليين من جهة، وقوى الإسلام السياسي والتيار السلفي من جهة أخرى، وذلك الانقسام الحادّ بين قوى التيار الإسلام السياسي والتيار الليبرالي في ليبيا.

ربما تحتاج الدول وشعوب ذات الثورات العربية إلى مزيد من الوقت من أجل الوصول إلى حالة الاتّزان السياسي، بيد أن أكثر ما تحتاج إليه هو القدرة على المفاضلة بين الأولويات، بين مخاطر وتهديدات الداخل والخارج؛ وإدارة المرحلة الانتقالية على نحوٍ يجنّب المنطقة المزيد من الاحتقانات والصدامات، خصوصًا لأنها تمتلك مقوّمات الاستقرار والتعايش السلمي، وينقصها تحفيز هذه المقوّمات وتوظيفها فحسب.

ثانيًا: العلاقات التركية - الأميركية

أكّدت الدراسة أن محيط تركيا المباشر، المتمثّل في دول القوقاز والبلقان والشرق الأوسط وشمال أفريقيا وجزء من جنوب آسيا، يضم مراكز مهمّة مرشّحة لأن تشهد مفاجآت وتغيّرات، ولا سيما أنها تمثّل المسرح الأساس للمنافسة بين القوى الجديدة. ومن ثمّ، فإن وضعية تركيا الجيوسياسية تجعلها شريكًا أساسيًا من الناحية الاستراتيجية لأي قوة - وفي طليعتها الولايات المتحدة الأميركية - تريد أن يكون لها تأثير في هذه المناطق، وتستفيد من التحوّلات من دون أن تؤدّي إلى الفوضى.

ما أكّدته الدراسة في هذا الصدد يمثّل حقيقة تاريخية ترسم طبيعة العلاقة بين الولايات المتحدة الأميركية والجمهورية التركية. وكانت تركيا دولة طرفية في أقصى شرق منظومة دفاع حلف الناتو ضد تهديدات الاتحاد السوفياتي خلال الحرب الباردة. ثمّ تراجعت أهمية تركيا لدى الدول الغربية عمومًا والولايات المتحدة خصوصًا بعد انتهاء تلك الحرب.

لم يكن التقدّم والتطوّر في العلاقات التركية - الأميركية منذ بداية الألفية الجديدة مرتبطين بتجدّد السياسة الأميركية وتغيّرها تجاه الشرق الأوسط بعد حوادث 11 أيلول/ سبتمبر وحاجتها - بحسب زعمها - إلى سياسة أمنية ودبلوماسية جديدة قادرة على التصدّي لتهديدات الراديكالية ذات المرجعية الإسلامية فحسب، بل كانت المراجعات السياسية والفكرية التي قامت بها معظم قوى التيار الإسلامي في تركيا، بتأثير انقلاب 28 شباط/ فبراير 1997 وأحداث 11 أيلول/ سبتمبر ذات دلالات واضحة على تبلور تيار سياسي جديد يمثّل خطًا وسطًا بين مكوّنات النظام العلماني التركي وأدبيات الحركة الإسلامية التركية التقليدية، وهو ما يمكن التعبير عنه بالموجة الثالثة من موجات الحركة الإسلامية في تركيا تحت مسمّى «التيار الأردوغاني».

من ثمّ، وجدت الولايات المتحدة في ذلك التيار الجديد وروّاده «النموذج»

الذي يمكن أن يمثّل «الإســلام المعتدل» في دولة علمانية. وإن استنساخ هذا النموذج أو نقل خبراته إلى دول الشرق الأوسط يتيح للولايات المتحدة تطبيق استراتيجياتها الأمنية والدبلوماسية الجديدة في المنطقة بأقل قدر من المخاطرة والخسائر، أو بتعبير آخر من خلال وكالة غير مباشرة.

لا شــكّ في أن حزب العدالة والتنمية صاغ لنفسه منذ نشأته نسقًا سياسيًا جديدًا منقطع الصلة عن «التيار الأربكاني»، وعقد العزم على تحوّل ديمقراطي غربي بكامل هياكله وتشــريعاته. إذ تبنّى الحزب سياســة اقتصادية تقوم على اندماج تركيا التام في الاقتصاد العالمي، والارتباط بقوى الرأســمالية الغربية من دون أي مســاحة للاســتقلال أو المناورة. أمّا على المســتوى السياسي، فدخلت تركيا في أوثق تحالف مع الولايات المتحدة، وقبلت بدعم مشــروع الشرق الأوسط الكبير وبأن تكون أحد عناصره الفاعلة في المنطقة.

الحقيقة أنه ليس في اســتطاعة تركيا تبنّي سياســات اقتصادية مستقلّة عن المنظومة الرأســمالية الغربية بأجهزتها وتجمّعاتها المختلفــة. كما أن المعادلة الدولية الحالية لا تســمح لتركيا أو غيرها بتبنّي سياسات مستقلّة عن الولايات المتحدة. ومــن ثمّ يمكن فهــم التحركات التركيــة على المســتويين الدولي والإقليمي بوصفها جهدًا إيجابيًا غايته استعادة الهيبة والثقل والتأثير في الدوائر الإقليميــة والدولية، بما يحقّق لهــا أكبر قدر من المصالــح الوطنية، خصوصًا أن ثمّة عــددًا من القضايا الأمنية والسياســية التي تهدّد الأمــن القومي التركي تحتاج دائمًا إلى الدعم الأميركــي، ومنها القضية الأرمينية ومشــكلة الأكراد، وقضايا أخرى تتطلّب التشاور والتنسيق مع أميركا، مثل الملفّ النووي الإيراني والعلاقات مع إسرائيل.

ثالثًا: تركيا والشرق الأوسط وسياسة الهوية

أشارت الدراســة إلى أن «عقلية الدولة العثمانية عبّرت عن نفسها تاريخيًا بربط العناصر الخاضعة لسيطرتها بالدولة، بدلًا من بناء هويات جديدة». وتمثّل هذه الإشــارة مدخلًا إيجابيًا للتدليل على أهمية الــدور التركي بما يمتلكه من

مخزون جيوثقافي في تجسير الهوّة بين أطراف الصراعات القائمة على الهوية الإثنية أو الطائفية.

بعد انهيار الدولة العثمانية، واحتلال القوى الاستعمارية معظم أراضيها، استحالت قضايا الهوية نقاط احتقان سياسي لدى الأنظمة الحاكمة الاستعمارية في ظل انعدام الدول المستقلّة والبحث عن الاستقلال. وبعد قيام الدول القومية عقب نجاح الحركات التحررية، ازداد ذلك الاحتقان السياسي، ولجأ أصحاب الهويات الإثنية والطائفية - بدعوة من القوى الغربية - إلى تدويل القضايا والمشكلات ضد أنظمة الحكم السلطوية في العالم العربي.

بهذه الكيفية - وكما يقول صاحب الدراسة - «لجأت القوى الخارجية إلى استغلال هذه الفئات المقهورة لتحقيق مآربها»، فتلاعبت القوى الخارجية خلال القرن العشرين، ولا تزال، بقضايا الهوية ووجّهتها نحو «تشكيل حكومات ضعيفة» قصيرة المدى، وسمَت المنطقة دومًا بعدم الاستقرار وبالانقسام الإثني والمذهبي.

فما حدث في لبنان والعراق ولا يزال، وما يخطّط له في إيران وسورية يؤكّدان عمق الأزمة التي تمرّ بها المنطقة من صراعات وصدامات باتت دامية بين النسيج المجتمعي لشعوبها بين سنّة وشيعة وأكراد وعرب وعلويين وأتراك، وهو انقسام تصل أخطاره وعواقبه الوخيمة إلى دول وشعوب المنطقة كافة من دون تمييز.

على الرغم من «حداثة العودة التركية إلى الشرق»، أو لنقُل التقارب التركي - العربي، فإن تركيا استطاعت في ظل سياستها الخارجية الجديدة، ولا سيما الشرق الأوسطية منها، أن تبذل جهدًا واضحًا من أجل إقرار السلام والأمن في المنطقة. غير أن هذا الجهد يحتاج إلى مشاركة الأطراف كافة، وإلى رغبة صادقة في وقف هذا الانقسام الإثني والطائفي الذي يصبّ أساسًا في مصلحة إسرائيل.

رابعًا: المراكز البحثية

أعتقد أن الأزمات الخطِرة في الشـرق الأوسـط حاليًا تفرض علينا مزيدًا من الاستماع إلى صوت العقل وإعماله، وهو ما ينقلنا إلى نقطة أشارت إليها الدراسة، أراها من أهمّ النقاط التي ينبغي الاهتمام بها وتدارسها بغية الوصول إلى خطوات عملية نحو تحقيق السلام في المنطقة من خلال تبادل المعرفة والخبرات بين عقولها ومؤسّساتها، وهي ضرورة الاهتمام بالمراكز البحثية المختلفة الاهتمامات في دولها.

أودّ هنا أن أؤكّد أن قلّة المراكز البحثية في المنطقة، مقارنة بمثيلاتها في الولايات المتحدة وأوروبا، نقطة ضعف أساسية في مقومات التعاون وتبادل الخبرات بين الدول والشعوب، ولا سيما إذا كنّا نتحدّث عن تقارب تركي - عربي؛ فضعف المعرفة وإدراك الآخر لدى الأتراك والعرب على حدّ سواء ناتج من نحو ثمانين عامًا من القطيعة التاريخية والسياسية، وهو الضعف الذي بدت آثاره واضحة في سياسات الاقتراب التركي من العالم العربي مع وصول حزب العدالة والتنمية إلى تركيا؛ إذ أخذت تركيا زمام المبادرة بالانفتاح على العالم العربي انفتاحًا اقتصاديًا، ثم أخذ يتطوّر نحو الانفتاح السياسي قبل أن تتوافر لدى الساسة والدبلوماسيين في تركيا البيانات المعرفية وخبرات الاتصال والتواصل اللازمة للتفاعل والتأثير في سياسات الدول العربية ومجتمعاتها، أكانت في حالتها الساكنة أم في حالتها المتحرّكة بعد الثورات العربية.

وكذا العالم العربي، فعندما انبهر الفاعلون السياسيون فيه، ولا سيما قادة الحركات الإسلامية، بالنموذج التركي ونجاحاته، لم يكن يعي جيدًا مقومات هذا النموذج وعناصره ومضامينه وطبيعة البيئة السياسية والمجتمعية التي نجح فيها، بل انزلق إلى «منهج القياس الظاهري» الثابت، دونما إدراك المتغيّرات وخصوصيات الأطراف المختلفة.

لا شــكّ في أن إهمال عامل اللغــة وأهميتها في الحفــاظ على التواصل المجتمعي وتهيئة البنية التحتية للتقارب والتعاون السياسي والاقتصادي من كلا الطرفين كان له أثر بالغ في تكوين صور نمطية سلبية وعوائق سيكولوجية حالت دون إقامة جســور التعاون والتحالف التي افترضتها أوضاع سياســية ومخاطر أمنية أخذت في التبلــور منذ انتهاء الحرب الباردة. وكشــفت الأعوام الأخيرة عن الجوانب السلبية لإهمال العرب تعلُّم اللغة التركية وثقافتها، ولإهمال تركيا تعلّم «العربية الحديثة» وثقافة الشعوب العربية المعاصرة.

بناء عليه، من الأهمية بمــكان أن يزيد الاهتمام بالمراكز البحثية في العالم العربي وتركيا، على المســتويين الكمي والكيفي، لقراءة الماضي والواقع بعين مباشرة بلا وســاطة، ولصوغ رؤى مســتقبلية مشــتركة واقعية تراعي مصلحة الجميع.

الفصل الثالث عشر

إيران والمتغيرات الجيوستراتيجية في الوطن العربي وجهة نظر إيرانية

محمد صالح صدقيان

مقدّمة

منذ انتصار الثورة الإسلامية في إيران في عام 1979 تنظر القيادة الإيرانية بعينين اثنتيـــن: تنظر بإحداهما إلى الداخل الإيراني وبنـــاء الدولة وآلية مواجهة المخاطر، وتنظر بالأخرى إلى الأنظمة السياسية العربية وكيف يمكن الشعوب العربية ممارسة التّغيير في هذه الأنظمة للخروج من الدائرة الغربية، كما فعلت مع نظام الشّاه محمد رضا بهلوي.

إذا كان صحيحًـــا أن القيادة الإيرانيـــة أرادت تصدير ثورتهـــا إلى الدول العربية، خصوصًا تلك المحيطة بها عشية انطلاق ثورتها الإسلامية في شباط/ فبراير 1979، فالصحيح أيضًا أنها انكفأت عـــن تلك الأفكار بعد الاصطفاف السياســـي الذي خلّفته الحرب العراقيـــة - الإيرانية، ووقوف النظام الرســـمي العربي إلى جانب النظام العراقي آنذاك في مواجهته إيران. إلّا أن ذلك لم يمنع هذه القيادة من الاســـتمرار في طموحاتها لرؤية رياح التّغيير تهبّ على الأنظمة العربية الموالية للسياسة الغربية.

كان من الطبيعي أن تقف القيـادة الإيرانية إلى جانـب الثورات العربية بشـكل مبكر بعدما وصفتها بـ «الصّحوة الإسلامية». وأعربت عن استعدادها دعم الشـعوب المنتفضة من أجل بناء أنظمة سياسية بديلة، تستند إلى الإرادة الشـعبية الوطنية في مواجهة التدخّلات الأجنبية، للحيلولة دون مصادرة هذه الثّورات.

رأى مرشد الجمهورية الإسـلامية آية الله علي خامنئي أن «ما يحصل في هذه المنطقـة ليس حادثًا عابرًا، هذه المنطقة ليسـت مـن المناطق العادية في العالم، هذه المنطقة تمثّل قلب العالم، مركز التقاء القارّات الثّلاث، مهمّة نفطيًا ومهمّة على صعيد السياسة الاسـتعمارية الغربية المتّصلة بالوجود الصهيوني. إنّها منطقة اسـتثنائية. تطـوّرات هذه المنطقـة تهمّ العالم. ليـس صحيحًا أن نتصوّر أن حادثًا عابرًا جرى في أربع دول كانت لها مشـكلات معيّنة. هذا غير صحيح. هذه المنطقة قلب العالم»[1]. فالمرشـد الإيراني يعتقد أن ذلك سوف يغيّر وجه العالم، على اعتبار أن منطقة الشـرق الأوسـط هي قلب العالم، لأن «هذه التطوّرات الكبيـرة التي تحدث في العالم الإسـلامي، بدأت من تونس، وتوّجت في مصر، وبعدها انتقلت إلى الـدول الأخرى. هذه التطوّرات عجيبة في توقيتهـا، ليس لها مثيـل في تاريخنا المعاصر، وليسـت حـوادث عادية، وتسـتطيع أن تغيّر وجه العالم. تسـتطيع أن تضع حدًّا لتسلّط الاستكبار الظالم والصهيونية على العالم الإسـلامي الذي اسـتمرّ سـنوات طوالًا، تستطيع أن تعيد صوغ الأمّة الإسلامية بشرط اسـتمرارها»[2]. وعبّرت القيادة الإيرانية عن دعم الجمهورية الإسـلامية الإيرانية لهذه التطوّرات التي تبعد شـعوب العالم الإسلامي عن المخطّطات الغربية، ورأت «أن أي مسافة ستأخذها الدول الثائرة من النماذج التقليدية السـائدة في الشرق الأوسـط، والتي هي في الأساس من صلب الاستراتيجيا الأميركية في الشرق الأوسط ستؤول بالضرورة إلى تقارب

(1) من خطاب له في 13/ 6/ 2012، انظر: همشـهري ديبلوماتيـك، العدد 62 (حزيران/ يونيو 2012).

(2) خطاب له في 11/ 7/ 2012.

واضح مع إيران في المـــدى المنظور»[3]. لذلك، فإن «الجمهورية الإســـلامية تقف إلى جانب أشـــقّائها المســـلمين من أي مذهب كانوا، من الشّيعة والسنّة، تقف إلى جانب جميع المذاهب الإســـلامية، حيث توجد الحركة الإســـلامية، وعندما تكون هنـــاك ضرورة للدّفاع عن الهوية الإســـلامية، تكون مهمّة الدفاع عن المظلوم. ولن تنجح أميركا والصهيونية والشـــبكة الفاســـدة من السياسيين المستكبرين في الوقوف أمام هذه الرغبة، ولن تستطيع ذلك»[4].

لكن لم يكـــن ضروريًا أن يندفـــع المشـــهد الإيراني بمكوّناتـــه وقراءاته المختلفة في تفســـير موحّد لما يحدث في بعض الـــدول العربية من تطوّرات سياســـية؛ فهناك من رأى في اختيار مصطلح «الربيع العربـــي» خطوة غاية في الحكمة، فيما ذهـــب بعض آخر إلى اعتبارها «صحوة إســـلامية» من صفحات التحرّك الإسلامي الذي بدأ بمحمد عبده وجمال الدين الأفغاني، مرورًا بالثورة الإســـلامية الإيرانية، إذ يبدو واضحًا أنّ كلا المصطلحين يســـتبطن قراءة معيّنة للحوادث والتطوّرات.

يرى علي أكبر ولايتي، مستشار مرشد الجمهورية الإسلامية علي خامنئي للشؤون الدولية، أن «الصّحوة الإســـلامية الحالية هي امتداد لتاريخ يزيد على 150 عامًا»، معتبرًا أن «التاريخ المعاصر شـــهد ثلاث ثورات: الثورة الفرنسية التي بشّرت بالحرّية، والثورة الروسية التي نادت بالعدالة الاجتماعية، والثورة الإسلامية الإيرانية التي حملت راية العودة إلى القيم والتعاليم الإسلامية»[5]، لافتًا إلـــى أن إيران تعدّ مركز الاســـتنهاض للثورات الشـــعبية التي تشـــهدها المنطقة.

يذهب المرجع الديني حســـين نوري همداني في الاتّجاه ذاته، إذ يرى أن

---

(3) انظر: حســـين موســـوي، «الثورات العربية وإيران: نحو نظام إقليمي،» فصلية إيران والعرب، العدد 27 (ربيع 2011).

(4) من خطاب له في 11/ 7/ 2012، مجلة ديبلماتيك، العدد 62 (آب/ أغسطس 2012).

(5) كلمـــة ألقيت في الندوة الدولية الأولـــى التي أقيمت في طهران فـــي 29/ 1/ 2012، تحت عنوان «الشباب والصحوة الإسلامية،» وكالة الجمهورية الإسلامية للأنباء.

«الصحوة الإسـلامية في العالم هي إحدى نتائج الثورة الإسلامية الإيرانية التي أدّت إلى إسـقاط الدكتاتوريات في دول مثل مصر وتونـس»، معتبرًا أن «هذه الصحـوة تخطّت حدود أفريقيا وآسـيا لتعبر إلى أوروبا وأميركا حيث تشـهد مدنهما المختلفة حركة وول سـتريت التي هزّت النظام الرأسـمالي في أميركا وأوروبا»[6].

أمّا الجنرال قاسم سـليماني، قائد قوات القدس التابعة للحرس الثوري، فأعرب عن اعتقاده «أن المنطقة تشـهد ولادة نماذج من إيران الكبرى، وأن ما يحدث في ليبيا واليمـن والبحرين هو الصورة الأخرى لإيـران»، لافتًا إلى أن «الشعب المصري هو صورة أخرى للشعب الإيراني، سواء قبلنا ذلك أو لا»[7].

إلّا أن الأكاديمي ناصر هاديان يرى أنه لم يسـتطع إلى الآن تفسـير ما في المنطقة من حوادث، وهل هي حركة أم ثورة، لأن الحركة تمتلك عوامل خاصّة لا توجد في الدول التي شهدت الحراك السياسـي. كما أن الثورة تعني سقوط الأنظمة السياسية، لكنها لم تسقط لا في مصر ولا في تونس، «وما حدث اقتصر على تبديل الوجوه من دون المساس بقواعد اللعبة، إضافة إلى أن الثورات عادة ترافقها عمليات عنف لم نلمسها بوضوح في هذه البلدان».

يعتقد هاديان أن الإحباط السياسي والاقتصادي والاجتماعي من الأسباب المهمّة في هـذه الحـوادث، وأن «الكرامة الإنسـانية» والتطلّع إلـى الحرّية والديمقراطية كانا المحرّكين الأساسـيين لجمهور الشـبان الذي ملأ الميادين والساحات العامّة.

ويرى أيضًا أن «القول إن الشعوب تريد تحقيق أهدافها ومطالبها في إطار من الأعراف والقضايا الدينيـة أو أنها تطالب بحكومـات ديمقراطية، لا يعني بأي حال من الأحوال أنها تطالب بتشكيل الحكومة الدينية، وعلى الأقل، فإنّي

---

(6) كلمة ألقيت فـي المركز الثقافـي الإيراني في موسـكو فـي 22/11/2011، وكالة أنباء إيران.

(7) وكالة أنباء فارس، 12/5/2012.

لم ألمس أن هذه الشعوب تريد تحقيق الحكومة الدينية على الرغم من أنهم يريدون نوعًا من الإسلام».

ويعتقد هاديان أن تأطير الحوادث بصحوات إسلامية يحدّ من تحرّكها، ويفقد الأطراف كافة القدرة على المناورة، داعيًا إلى إضافة المطالب الإنسانية إلى الصّحوة الإسلامية «لتكون نظرتنا أكثر شمولية إلى الأحداث والتطوّرات».

ويرى أن هذه الحوادث والتطوّرات تصبّ في مصلحة إيران، «لأنّ أي نظام جديد يطبّق في هذه الدول كمصر على المثال، إن لم يكن صديقًا لإيران سيكون أقلّ عداوة لها»[8]. وهذا ما يتعارض مع ما يطرحه الكاتب حسين كجوئيان الذي عنده أن الدول الغربية تحاول التقليل من أهمّية الدوافع الإسلامية وراء هذه الحوادث «لأن التطوّرات تثبت يومًا بعد آخر هوية هذه الحوادث الدينية التي تريد تحدّي الاستكبار العالمي»، متّهمًا الدول الغربية بممارسة سياسة «الإسلاموفوبيا»، للتأثير في قدرة تحرّك الصحوة الإسلامية.

يعتقد عدد من الكتّاب الإيرانيين أن المشكلات والتراكمات الاقتصادية لدى شعوب دول المنطقة كانت المحرّك الأساس لهذه الحوادث؛ إذ يرى الكاتب والمحلّل السياسي محمد علي قوهستاني أن شعوب المنطقة، وتحديدًا في مصر وليبيا وتونس، تتطلّع إلى أحوال معيشية أفضل، وأن هذه الشعوب فرضت على الزعماء الجدد مطالبات اقتصادية جعلت الزعيم الإسلامي راشد الغنّوشي ينظر إلى الواقع السياحي في بلده [تونس] نظرة واقعية عندما «قبل بإبقاء الحانات مفتوحة وأماكن اللّهو مشرعة أمام حركة السّياحة»[9].

أمّا الكاتب والأكاديمي حسن بهشتي بور فيقول إن «النظرة المطلقة والأحادية إلى هذه الحوادث خطأ يقع فيه كثير من المتابعين، فلا هي مستقلّة كامل الاستقلال وبعيدة عن المؤثّرات الخارجية، كما أنها ليست بفعل وإيعاز من الولايات المتحدة التي يرى البعض أنها المحرّك الأساس لها».

(8) جريدة شرق (إيران)، 22/ 6/ 2011.

(9) جريدة ملت (إيران)، 23/ 8/ 2011.

ويضيف: «بنــاءً على نظرية خلط الأوراق، نســتطيع التوصّــل إلى نتيجة مفادها أن الحــوادث والتطــوّرات الجارية هي تحرّك شــعبي مســتقلّ، يتأثّر بالظروف الدولية والإقليمية، لكنّه لا يلتــزم الإرادة الأميركية التي تريد تحقيق النظام الديمقراطي التابع للمفهوم الغربي. هذه الفوضى تسير باتّجاه نظام جديد لا يخضع لإدارة المسؤولين الأميركيين، وإنما للزعماء المحلّيين الذين يقودون الدور المهمّ الذي يقوم به الشارع».

ينتهي بهشــتي بور إلى القول «إن الــدرس الكبير الــذي أثبتته التطوّرات الأخيــرة للدكتاتوريات والحكومــات المرتبطة بالغرب كافّة، هو أن الشــعب يســتطيع تعبئة إمكاناته كلها من أجل إثبات استقلاليته والعيش بحرّية بعيدًا عن التبعية للقوى الكبرى في الساحة الدولية»[10].

يعتقــد الكاتب والأكاديمي محمد كاظم ســجاد بــور «أن الأزمة الحالية نقطة تحوّل في السياســة الإقليمية والدولية، وسوف تترك نتائجها الاستراتيجية على الأجواء العربية»؛ فهو يشير إلى دور الولايات المتحدة في هذه التطوّرات باعتبارها الطرف المهمّ الذي يستطيع أن يغيّر المعادلة، و«أن الولايات المتحدة كانت على الدوام تخيّر نفسها بين دعوة الأنظمة العربية إلى الانفتاح السياسي، وبين مصالحها الاســتراتيجية، بحيث كانــت دائمًا ترجّح هــذه المصالح في تعاطيها مع الشأن العربي»[11].

تبقى الإشــارة إلى أن طهران نظرت إلى الحوادث والتطوّرات في سورية بشــكل يختلف عمّا حدث ويحدث في بقية دول الربيــع العربي، لأنها تصنّف النظام السياســي في ســورية بأنه يقع في إطار محور الممانعــة الذي يقف في مواجهة الولايات المتحدة وإســرائيل، وتصنّف بقية الأنظمة السياسية بأنها في دائرة المحور الأميركي.

لا يعتقد الكاتــب والمحلّل السياســي محمد صادق الحســيني أن ذلك

---

(10) موقع خبر أون لاين، 2/ 9/ 2011، <http://www.khabaronline.com/>.

(11) مركز الدراسات الاستراتيجية التابع للرئاسة الإيرانية، 20/ 3/ 2011.

يوقع الموقف الإيراني في تناقض «لأن إيران التي دافعت عن مقاومة الشعبين العراقي والأفغاني في مواجهة الاحتلال والإرهاب، لا يمكن لها أن تقف مع الإرهابيين الذين يقتلون المدنيين في سورية، ونحن لا نعتقد أن ثورة شعبية تحدث في سورية حتى تقف إيران معها»[12].

استنادًا إلى الاصطفاف السياسي في الداخل الإيراني، هناك العديد من الكتّاب والمحلّلين السياسيين الذين لا ينسجمون مع هذه الرّؤية حيال سورية، فهم يؤمنون بضرورة الوقوف مع مطالب الشعب السوري الذي ينادي بالحرّية والديمقراطية اللتين حُرم منهما طوال حكم حزب البعث في هذا البلد خلال العقود الأربعة الماضية. إلّا أن تطوّرات الحوادث في سورية دفعت الجمهورية الإسلامية الإيرانية إلى إعلان موقفها الواضح من الأزمة السورية وهو أنها مع مطالبات الشعب السوري الذي نادى بالإصلاح السياسي وتبادل السلطة وانتهاج الطرائق الديمقراطية، من أجل رسم مرحلة جديدة من حياته. وكان وزير الخارجية الإيراني علي أكبر صالحي واضحًا عندما دافع عن حقّ الشعب السوري في الديمقراطية والإصلاح السياسي[13]، وعن «حقّ الشعب السوري في التمتّع بالحقوق المدنية الأساسية كالانتخابات الحرّة والحرّية والديمقراطية والاستقلال، بعيدًا عن أنواع الفساد الإداري والمالي»[14].

من خلال مواقف إيرانية معلنة لا تمانع إجراء التغيير في السلطة السورية عبر مرحلة انتقالية تقودها الحكومة الحالية بضمانات إقليمية ودولية، بعد إعادة الهدوء والاستقرار إلى البلاد، ترى طهران ضرورة وضع خطوط حمر أمام تطوّر الحوادث في سورية، ومن أهمّ هذه الخطوط عدم السّماح بتدخّل القوى الغربية في الشأن السوري، وعدم السماح بتكرار التجربة الليبية، لأن مثل هذه الخطوة من شأنها فتح المجال أمام تقسيم الأراضي السورية وخلق كانتونات سياسية

(12) موقع مشرق الإيراني، 23/ 4/ 2012.

(13) تصريحات وزير الخارجية الإيراني علي أكبر صالحي في المؤتمر الصحافي الذي عقده في طهران في 10/ 7/ 2012 مع المبعوث الدولي كوفي أنان.

(14) تصريحات وزير الخارجية الإيراني علي أكبر صالحي في المؤتمر الصحافي الذي عقده في طهران في 10/ 7/ 2012 مع المبعوث الدولي كوفي أنان.

قومية طائفية لا تخدم المستقبل السوري، وإنما تخدم الأطماع الإسرائيلية التي تسعى إلى «تقسيم المقسّم وتجزئة المجزّأ» في الدول الإسلامية. لذلك، دعت الأطراف كلها إلى التفكير في مستقبل الشعب السوري، وعدم السماح بتدخّل القوى الخارجية، والحفاظ على وحدة الأراضي السورية واستقلاليتها.

أولًا: سياسة إيران الخارجية حيال التطوّرات العربية

تأثّرت سياسة الجمهورية الإسلامية الإيرانية الخارجية بمواقف القيادة الإيرانية التي انعكست على أداء وزارة الخارجية الإيرانية وبقية الجهات المعنية بهذه السياسة، وهو ما أعطى انطباعًا بازدواجية المواقف حيال التطوّرات العربية. إذ تأثّرت هذه السياسة بموقفين:

الموقف الأول اتّخذه مرشد الجمهورية الإسلامية آية الله علي خامنئي، وقوامه أن في هذه التطوّرات انعكاسًا للثورة الإسلامية التي حدثت في إيران في عام 1979، وتحمل في طياتها دوافع التغيير الديني والإسلامي، على الرغم من الدعوات الاقتصادية والاجتماعية التي نادت بها الجماهير العربية. وبناءً على ذلك، يجب دعم هذه التطوّرات ودعم الحركات الشعبية[15]. وظهر واضحًا انسجام هذا الموقف مع مواقف أركان النظام في الجهاز القضائي، ومجلس المحافظة على الدستور، ومجلس خبراء القيادة، والقيادة العامة للقوات المسلّحة، إذ أكّدت هذه المواقف جملة من القضايا المحورية في التطوّرات العربية:

- إسلامية التطوّرات في المنطقة «الصحوة الإسلامية».

- عفوية التحرّك الشعبي، واستبعاد نظرية وقوف قوى محرّكة من خارج المنطقة.

(15) راجع خطاب المرشد في 31/ 8/ 2011 خلال لقائه كبار المسؤولين الإيرانيين وسفراء الدول الإسلامية المنشور في موقع: <http://www.leader.ir>.
وكلمته في المؤتمر الخامس لدعم الانتفاضة الفلسطينية في 1/ 10/ 2012 المنشورة في الموقع نفسه.

- تأثّر هذه التطوّرات بالثورة الإســلامية، ورغبة المنتفضين في وضع حدٍّ لمرحلة التخلّف والتبعية التي عاشتها هذه الشعوب.

- دخول المنطقة مرحلة جديدة من التحرّك السياســي المرشّــح لإجراء تغييرات سياسية واجتماعية كبيرة فيها.

- الدعــوة إلى عدم الاعتمــاد على الولايــات المتحدة وحلف شــمال الأطلسي (الناتو)، والاعتماد على القدرات الذاتية والأصالة الفكرية[16].

الموقف الثانــي اتّخذته الرئاســة الإيرانية، وتحديدًا مــن جانب الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجــاد، وقوامه أن هذه التطوّرات هــي نتيجة مؤامرة إسرائيلية - أميركية تهدف إلى إضعاف العالم الإسلامي وتقسيمه إلى دويلات على أســس قومية وطائفية ومذهبية. وهذا ما يدفع إلى ضرورة تعزيز العلاقات الإقليمية من أجل المحافظة على السلام والاستقرار، ودعم النظم السياسية من أجل استيعاب آثار هذه التطوّرات، وتميز هذا الموقف بـ:

- تأكيد «الصحوة الإنسانية»[17].

- تحذير شــعوب المنطقة من عمق المؤامرة التــي تقودها الدول الغربية الكبرى[18].

- الدعوة إلى الوقوف أمــام المؤامرات من خلال الســلام والتفاهم بين شعوب المنطقة[19].

- اتهــام الولايات المتحدة الأميركية بســعيها إلى إيجاد شــرق أوســط جديد يحقّق أهداف الكيان الإســرائيلي ويعمّق التسلّط الأميركي على المنطقة وشعوبها[20].

---

(16) خطاب مرشد الجمهورية الإسلامية في: المؤتمر الدولي الأوّل للصحوة الإسلامية، طهران، المنعقد في 20 ايلول/ سبتمبر 2011، وكالة أنباء الجمهورية الإسلامية.

(17) خطاب له في 20/ 9/ 2011، وكالة الجمهورية الإسلامية للأنباء.

(18) كلمة موجهة للشعب المصري في 11/ 10/ 2011، انظر: <http://www.president.ir>.

(19) خلال لقائه وزير الخارجية السوري، انظر: <http://www.president.ir>.

(20) كلمة له في 14/ 4/ 2011، <http://www.president.ir>.

- اتهام الدول الكبرى وإسرائيل بتقسيم الأردن وقيام الدولة الفلسطينية على أجزاء من الأراضي الأردنية[21].

- محاولة الولايات المتحدة وبقية الدول الغربية التركيز على الخطورة المزعومة التي تمثّلها إيران من أجل بثّ الخلاف والفرقة بين الدول الإسلامية[22].

- الدعوة إلى مصالحة الشعوب مع الحكومات من أجل تنفيذ الإصلاحات وتبديد الخلافات الموجودة لتفادي إراقة الدماء[23].

انعكس هذان الموقفان على آلية تعاطي وزارة الخارجية مع التطوّرات العربية؛ فالمرشد وصفها بالصحوة الإسلامية، والرئيس الإيراني عبّر عنها بالصحوة الإنسانية، في وقت تعاطت وزارة الخارجية مع التطوّرات باعتبارها مؤامرة أميركية تريد تشكيل شرق أوسط جديد.

تأسيسًا على ذلك، عقدت إيران مؤتمرات تحت شعار «الصحوة الإسلامية»، وشكّلت أمانة عامّة لها لدعم التطوّرات الشعبية التي حدثت في العالم العربي. أمّا وزارة الخارجية التي انحازت إلى موقف الرئاسة الإيرانية، فإنّها دعمت العمل الدبلوماسي المشترك مع الأنظمة السياسية. وعلى سبيل المثال، فإن لجنة الأمن القومي والسياسة الخارجية في مجلس الشورى الإسلامي أكّدت من خلال بيانين دعم الحراك البحريني، داعيةً إلى خروج القوات السعودية من البحرين، بينما عملت وزارة الخارجية على ترطيب العلاقات مع البحرين وبقية دول مجلس التعاون في إطار العلاقات الدبلوماسية بين الأنظمة[24].

---

(21) كلمة له في 14/ 4/ 2011، <http://www.president.ir>.

(22) مؤتمر صحافي للمتحدّث الرسمي باسم وزارة الخارجية الإيرانية، انظر: <http://www.dolat.ir>.

(23) كلمة للرئيس أحمدي نجاد، وكالة الأنباء الطلابية، 15/ 5/ 2011.

(24) للمزيد من التفاصيل، انظر: أمير محمد حاجي يوسفي، «إيران وثورات 2011 الشرق أوسطية،» 10/ 1/ 2012.

ثانيًا: الأمن القومي الإيراني والتطوّرات العربية

شـــهدت المنطقة العربية، بعد التطوّرات في بعـــض بلدانها، ردّات أفعال متباينة عبّرت عنها الدول الإقليمية المتمثّلـــة في إيران وتركيا والمملكة العربية السعودية، ولربّما قطر، من جهة، والدول الكبرى التي مثّلتها الولايات المتحدة وروســـيا والصين من جهة أخـــرى. إذ جـــاءت ردات الأفعال هـــذه بناءً على المصالح التي تريد هذه البلدان تحقيقها خدمـــةً لأمنها القومي، ورأت في هذه التطوّرات فرصة لتعميم ثقافتها الرّامية إلى المزيد من المكاسب.

قد تتعارض مصالح هذه القوى الإقليمية والدولية في هذه الدولة أو تلك، في حين قد تنسجم بعض التفصيلات من أجل تحقيق أهداف الأطراف المعنية بالتطوّرات الحاصلة.

لا يمكن فصل المصالح الإيرانية عـــن المصالح الإقليمية والدولية للدول الفاعلة والمؤثّرة في التطوّرات السياسية ها هنا، لأن إيران، كغيرها من الدول، تسعى إلى تطبيق النظام الشرق الأوسطي الجديد الذي يؤمّن مصالحها وأهدافها وفق رؤية سياسية أمنية في المديَيْن القصير والبعيد.

استنادًا إلى ذلك، فإن الأمن القومي الإيراني في المنطقة يتحرّك في إطار المصالـــح الإقليمية والدولية الأخرى فيها، أكان في تقاطعه أم في انســـجامه. وأفرزت الحوادث والتطوّرات في المنطقة العربية محورين بناءً على رؤيتهما للحـــوادث والتطلّعات؛ **الأول** تقـــوده الولايات المتحدة ومعهـــا تركيا، وإلى حدٍّ ما الســـعودية وبعض الدول العربية، فيما تقف روسيا وإيران والصين في **المحور الثاني**. ومن الصعوبة بمكان تســـمية الأول المحور الأميركي والثاني المحور الروســـي، لعدم تطابق أهداف الدول المنضويـــة داخل هذا المحور أو ذاك. كمـــا من الصعب أيضًا تســـميتهما على أســـاس الممانعة والمقاومة، وســـنعرض أهداف دول المحوريـــن بناءً علـــى أهدافها ومصالحهـــا وأمنها القومي.

1 - الولايات المتحدة وتركيا

أتاحت التطوّرات في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا فرصة ذهبية للولايات المتحدة وتركيا من أجل صوغ نظام سياسي فيها يخدم مصالحهما؛ فهما لم تتأخّرا عن دعمها في مصر وتونس على الرغم من المصالح الاقتصادية والسياسية التي كانت تربط هذه الدول في ما بينها قبل عام 2011، وتحديدًا قبل وقوع التطوّرات. ومارست الولايات المتحدة ضغطًا على المؤسّستين السياسية والعسكرية في مصر وتونس من أجل إزاحة الرئيسين حسني مبارك وزين العابدين بن علي. وعملت على تقديم المساعدة لإزاحة معمّر القذافي من ليبيا. وتعمل في الوقت الحاضر على إطاحة الرئيس السوري بشار الأسد.

عملت الولايات المتحدة وتركيا على دعم قرارين صادرين عن مجلس الأمن الدولي من أجل التدخّل في ليبيا لإسقاط القذّافي وتحقيق «مصالح الأسرة الدولية». ويعمل البلَدان حاليًا من أجل إسقاط النظام السياسي في سورية؛ إذ تدعم تركيا مطالب المعارضة السورية بمساندة من الولايات المتحدة الأميركية، التي هي الإصلاحات السياسية، واحتضان مؤتمرات المعارضة، وإقامة مخيمات اللاجئين المبكرة، وانتهاءً بتمويل الجماعات المعارضة بالسّلاح وتأمين دخولها إلى الأراضي السورية.

على خلاف ذلك، فإن الولايات المتحدة وتركيا اللتين وقفتا إلى جانب مطالبات الشعوب في مصر وتونس وليبيا وسورية، لم تقفا مع الشعب البحريني في مطالبه السياسية السلمية غير المسلّحة، الذي يبدو واضحًا أنّها تعكس المصالح المشتركة لكلا البلدين، لأن الولايات المتحدة تعلم جيدًا أن أي تغيير في البحرين سيؤدّي إلى تطوّرات سياسية في منطقة الخليج لا تخدم مصالحها. وبناء عليه، فإن هاتين الدولتين (أميركا وتركيا) عملتا على توجيه الانتقاد إلى الحكومة البحرينية بشأن الحرّية والديمقراطية، لكنّهما في الحقيقة تدعمان النظام السياسي في البحرين. وبعبارة أخرى، رأت هاتان الدولتان أن أي تغيير في البحرين يمكن أن يخلّ بتوازن القوى لمصلحة الجمهورية الإسلامية

الإيرانية، وهذا ما يؤدّي إلى تصدّع النظام السياسي والأمني في المنطقة.

تسعى الولايات المتحدة وتركيا إلى تحقيق النظام السياسي الجديد ها هنا من خلال الديمقراطية التي ترسم الولايات المتحدة ملامحها. وعندها أن النموذج التركي الذي يقرن الإسلام بالديمقراطية يعدّ النموذج الأفضل لتسويقه في الدول العربية، لأنه لا يخدم الأهداف والمصالح الأميركية فحسب، وإنّما يخدم أيضًا التطلّعات والطموحات التركية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا[25].

2 - المملكة العربية السعودية

دعمت المملكة العربية السعودية التطوّرات في بعض الدول العربية، لكن لا ضرورة لدعم مثلها في جميع الدول العربية، وهو ما يجعلها تختلف في مواقفها عن الولايات المتحدة وتركيا، لأن النظام السياسي في السعودية لا يرتكز على آليات ديمقراطية، ويعدّ من الأنظمة السياسية المحافظة التي لا تتوافر فيها الحقوق والحرّيات السياسية والاجتماعية. وشيوع حالة الديمقراطية بإطارها التركي، أو إطارها الإسلامي السلفي والأصولي، لا يخدم النظام السياسي الحالي في المملكة العربية السعودية التي ترى أنها عامل ضغط على الحكومة والنظام، وأنه يدعم الاعتراضات الشعبية في الداخل السعودي.

تعتقد أوساط إيرانية عدة أن المواقف السعودية من التطوّرات كانت نحو الحفاظ على توازن القوى مع الجمهورية الإسلامية الإيرانية، أو ألّا تتّجه التطوّرات نحو تحقيق الأهداف الإيرانية، أو أن تتّجه إلى الإضرار بالمصالح الإيرانية. ويمكن ملاحظة ذلك بوضوح حيال الموقف من التطوّرات في البحرين والتطوّرات في سورية؛ إذ يعتقد المسؤولون السعوديون أن سورية هي الدولة العربية الوحيدة التي تقف إلى جانب إيران، وأصبحت الجسر الذي عبرت من خلاله إيران إلى بلاد الشام (لبنان والأردن وفلسطين). كما أن سورية

(25) قاسم ترابي، «الدور الأمريكي التركي المزدوج في تطورات العالم العربي،» مركز الأبحاث العلمية والدراسات الاستراتيجية للشرق الأوسط، تشرين الثاني/ نوفمبر 2011.

مثّلت المعبـر المهمّ للمسـاعدات الإيرانية إلى «حزب اللـه» اللبناني وحركة «حماس» الفلسـطينية، إضافة إلى أن التّحالف الإيراني - السـوري مثّل ضربة للمواقف العربية التي ترعاها المملكة العربية السعودية.

في التوقّعات، تعتقد المملكة العربية السعودية أن إجراء التغيير في سورية من خلال إطاحة نظام الرئيس بشار الأسـد وقيام حكومة تسيطر عليها الطائفة السـنّية يمكن أن يخدم الأهداف والمصالح السعودية من خلال تقليص النّفوذ الإيراني في المنطقة، وترجيـح كفّة التوازن الاسـتراتيجي لمصلحة الأهداف السـعودية. واتّخذت المملكة إجراءات فـي هذا الاتّجاه، ابتداءً من سـحب سفيرها في دمشـق وانتهاءً بالمواقف التي اتّخذتها في الجامعة العربية[26]. وفي المقابل، فإن موقف السعودية كان حاسـمًا حيال البحرين لأن التغيير البحريني يخلّ بميزان القوى في المنطقة لفائدة المصالح الإيرانية.

3 - روسيا

انعكست الخلافات الاسـتراتيجية بين الولايات المتحدة وروسيا بشكل واضح علـى التطـوّرات العربية، وأصبحـت المنطقة العربية سـاحة للصّراع الأميركي - الروسي الذي لم يكن بعيدًا عن المشكلات التي تعترض العلاقات الثنائية بين البلدين، كنصب الدّرع الصاروخية في تركيا وأوروبا الشرقية. فروسيا تعتقد أن التطوّرات في بعض الدول العربية تخدم مصلحة النفوذ الأميركي في المنطقة، من خلال تسـويق النظم الأميركية التي تسـتند إلى مزاوجة الإسلام المعتدل مع الديمقراطية. وتعمل روسيا على إجهاض الإجراءات الأميركية أو عرقلتها، ابتداءً من معارضتها هذه السياسـة في مجلس الأمن الدولي، وانتهاءً بوقوفها أمام تدخّل حلف شـمال الأطلسي في الشؤون السـورية. وبناءً عليه، رفضت الحكومة الروسية دعوات المعارضة السورية إلى وقف الدعم للحكومة السـورية، بل قامت بتزويد هذه الحكومة أسلحة وتجهيزات عسكرية لمواجهة

---

(26) كامـران كرمي، «أهـداف العربية السـعودية من اتّخـاذ نهج هجومي في سـوريا،» مركز الأبحاث العلمية والدراسات الاستراتيجية للشرق الأوسط، تشرين الأول/ أكتوبر 2011.

التطـوّرات المحتملة، والوقوف أمـام أي تنفيذ لتهديـدات الولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي. وبشـكل عام، إن الخلاف الروسـي - الأميركي في المنطقة يجب أن يؤخذ في إطار المنافسـة التاريخية التي مارسها البلدان على منطقة الشرق الأوسط، خصوصًا أن رئاسـة الرئيس فلاديمير بوتين تطمح إلى تعزيز الدور الروسـي وتحقيق التوزان الاسـتراتيجي مع الولايـات المتحدة الأميركية في هذه المنطقة[27].

4 - الصين

كانت المواقف الصينية حيال التطـوّرات العربية أكثر مرونةً من المواقف الروسـية، تحدوها رغبتها فـي الحدّ من النفـوذ الأميركي. لكـن المصالح الاقتصاديـة الصينية في الولايـات المتحدة، ورغبة بيجين فـي اتّخاذ مواقف مرنـة حيال النفـوذ الأميركـي فـي المنطقة انعكسـت على مواقفهـا حيال التطـوّرات في البلـدان العربية، وحيـال المواقف الأميركية، بالشّـكل الذي جعل الأهداف الصينية تختلف عن الأهداف الروسـية فـي معارضتها النفوذ الأميركي والتطوّرات العربية؛ فالصين تعـدّ البلد الثاني بعد الولايات المتحدة في استهلاك النفط في العالم؛ إذ تحدّث آخر الإحصاءات عن استهلاك الصين 9 ملايين برميل من النفط يوميًا خلال عام 2011، وهي تسـتورد نصف هذه الكمّية من الخارج، وتحديدًا من منطقة الشـرق الأوسـط، لذلك هي إحدى الدول الكبرى المسـتهلكة للنفط على خلاف روسـيا التي تعدّ إحدى الدول المصدّرة له[28]، وتاليًا تعدّ منطقة الشرق الأوسـط من المناطق المهمّة لتأمين الطاقة للصين، إضافة إلى أنها تعدّ من المناطق الأساسـية لاستهلاك البضائع والمنتجات الصينية، ومنها التجهيزات العسـكرية. من هنـا، تنظر الصين إلى المنطقة نظرة اقتصادية، على خلاف النظرة الروسـية التي تستند إلى المصالح

---

(27) للمزيـد، انظـر: <http://csis.org/files/publication/110912_Zikibayeva_ArabSpring_Web.pdf>.

(28) قاسـم ترابي، «المقارنة الاسـتراتيجية للطاقة بيـن الصين والولايات المتحـدة،» فصلية البحوث الإقليمية، العدد 3 (ربيع 2011).

الأمنية والسياسـية. والأمر انعكـس على المواقف الصينية التـي جعلتها أكثر هدوءًا، ولـم تكن هجومية قياسًـا بالمواقف الروسية. وعلاوة على ذلك، هناك حساسـية الموقف الصيني من أميركا في التيبت وتايـوان أكثر منها في منطقة الشرق الأوسط.

5 – إيران

كانت إيران تدعم التطوّرات في المنطقة، كما أشرنا، لاعتقادها أن الأنظمة السياسية ها هنا لا تعكس الحالة الشـعبية، وإنما أنظمة تتبع الولايات المتحدة الأميركيـة والدول الغربيـة، وتعمل علـى توفير الأجـواء الملائمة لاحتضان الأهداف الأميركية، وتحقيق المصالح الأميركية. كما أن هذه الأنظمة لا تملك الشـرعية الدسـتورية الوطنية، بقدر ما تفعل للسـيطرة على ثروات الشعوب لإدامة بقائها في السلطة على حسـاب حقوق شعوبها. لذلك عملت على دعم التطوّرات والتغييرات السياسـية، رغبةً منها في إبدال الأنظمة السياسية فيها من أنظمة إسلامية معادية للغرب.

عملت إيران، شأنها شأن بقية الأطراف، على اتخاذ مواقف مختلفة حيال التطوّرات في الدول العربية بما ينسـجم مع مصالحها، ومع الفرص المتوافرة والمخاطر المحتملة، بناءً على ظروف كلّ بلد، وبما يحقّق الحفاظ على توازن القوى فـي المنطقة. فهي تدعم التغييرات في البلدان التي كانت تعدّ سياسـتها في إطار السياسـة الأميركية، من خلال القوى التي تحرّك الشارع، وهي القوى الإسـلامية والوطنية، اعتقادًا منهـا أن وصول هذه القوى إلى الحكم سـوف يقلّص المسـاحة التي تتحرّك فيها السياسـة الأميركية، أو على الأقل لن تجد الأجواء التي كانت في عهد حسـني مبارك أو زين العابديـن بن علي. بمعنى أنه مهما تكن الأوضاع السياسـية الجديدة، فإنها لن تكون على شاكلة الأنظمة السابقة في علاقتها بالولايات المتحدة والدول الغربية. وبناءً على ذلك، يمكن دراسـة الموقف الإيراني من التطوّرات فـي مصر وتونس وليبيا والسـعودية واليمن والبحرين؛ إذ إن إيران تعتقد أن الأنظمة في هذه البلدان موالية للولايات

المتحدة، وأن من شأن التطوّرات الحاصلة أن تساهم في صعود التيار الإسلامي الذي يملك أهدافًا مغايرة لها. وتجسّـــدت السياسة الإيرانية بوضوح في تحقيق ذلك فـــي البحرين، وكانت إيران مـــن البلدان المدافعة عن مطالبات الشـــعب البحريني، لأن سقوط النظام السياســـي هنا يعني سقوط أحد الأنظمة السياسية المتحالفة مع الولايات المتحدة في منطقة الخليج لحســـاب المصالح الإيرانية في هذه المنطقة الحيوية. لذلك كانت البحرين من أهمّ نقاط الحراك بين إيران من جهة والولايات المتحدة والســـعودية من جهة أخرى. وعلى خلاف ذلك، وقفت إيران أمام أي تغيير في سورية التي تعدّ الحليف الكبير والقوي في العالم العربي والجســـر الحيوي للارتباط بالقوى الثورية المقاومـــة في جنوب لبنان والأراضي الفلســـطينية المحتلّة. ويعني التغيير في ســـورية المعادية للولايات المتحدة ســـيطرة قوى متحالفة مع الســـعودية والدول الغربية، وفي المحصّلة فقدان حليـــف إقليمي مهمّ، والأهـــمّ تخلخل ميزان القـــوى الحالي لمصلحة القوى المعادية لقوى المقاومة والممانعة.

عملت السياســـة الإيرانية على دعم الحقوق الأساسية للشعب السوري. وأعلنت أيضًا دعمها الإصلاحات السياســـية في ســـورية، لكنّهـــا وقفت دون تغييرات أمنية تخـــدم مصلحة الولايـــات المتحدة والســـعودية. وعمدت إلى الحفاظ على توازن القوى في المنطقة من خلال رؤيتها للتطوّرات العربية، ومن خلال زيادة حلفائها هنا، والتقليل من انحســـار وجودها ونفوذها فيها، وهذا ما مثّل اختلافًا في نظرتها إلى التغيّرات؛ إذ كانت تهدف إلى إيجاد أنظمة إسلامية معادية للدول الغربية وتمثّل نواة لسياسة إقليمية على مستوى المنطقة[29].

ثالثًا: تأثير التطوّرات العربية في الأمن القومي الإيراني

من الصعب دراســـة تأثير التطوّرات العربية في الأمن القومي الإيراني في هذه المرحلة، لأنّها لم تصل إلى نهاياتها. كما أن القوى الشـــعبية والجماهيرية

---

(29) كيهان برزكـــر، «إيران وتطوّرات العالم العربي: المصالـــح والقيم،» مركز الأبحاث العلمية والدراسات الاستراتيجية للشرق الأوسط، 14 أيار/ مايو 2011.

لم تستكمل قدراتها في رسم سياسة واضحة لتحرّكها التغييري، إضافة إلى أن الدول الأخرى المعنية لا تزال تحاول تحقيق أهدافها، ولا تزال الأنظمة الجديدة في مرحلة البناء وكتابة الدستور ورسم سياساتها في شتى المجالات. وبعبارة أخرى، إن الشعوب في مصر وليبيا وتونس نجحت في إسقاط الأنظمة السابقة، لكنّها لا تزال في بداية الطريق لرسم أسس سياساتها في المجالات المنشودة. ولا يعني ذلك عدم القدرة على تشخيص الملامح الأولية للتأثيرات الجيوستراتيجية في الأمن القومي الإيراني، إذ يمكن تحديدها كما يلي:

- زيادة الخلافات الإقليمية، ويمكن تصوّرها من خلال ما برز بين إيران وتركيا والمملكة العربية السعودية، فهي تؤثّر في المصالح الإيرانية في المنطقة، إذ إن تركيا - على سبيل المثال - تسعى إلى تنفيذ السياسة الأميركية في إطار الشرق الأوسط الجديد، عبر تسويق الديمقراطية الغربية عن طريق النموذج التركي، ما دفع الجمهورية الإسلامية الإيرانية إلى معارضة هذا السلوك باعتبار أنه يعزّز النفوذ الأميركي[30]. وانعكس هذا الخلاف على التطوّرات في الساحة السورية، إذ مارست تركيا مختلف وسائل الضغط على حكومة الرئيس بشار الأسد لإضعافها، ومن ثمّ تفكيكها عبر إجراء تغيير يخدم مصالحها ومصالح الدول الغربية التي تحاول تشديد الخناق على المصالح الإيرانية. وانسحب هذا الأمر أيضًا على موقف البلدين من التطوّرات البحرينية، في وقت اختلفت إيران في مواقفها مع المواقف السعودية التي تريد إنهاء الوجود الإيراني وتمدده في لبنان وفلسطين. كما عارضت أي تغيير في الوضع السياسي في البحرين. ومن شأن هذه الخلافات زيادة الاحتقان السياسي والجماهيري بحيث لا يخدم التصوّرات والبرامج الإيرانية التي تساهم في استنهاض العواطف والمشاعر الطائفية والمذهبية لتؤثّر في الأهداف الأساسية التي تفكّر فيها الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

- مضاعفة فرص وجود حلف شمال الأطلسي؛ حيث ساهمت التطوّرات في العالم العربي في توفير الأجواء له في منطقة الشرق الأوسط وشمال

(30) قاسم ترابي، «الدور الأمريكي التركي».

أفريقيا من خلال «المســاعدات الإنســانية» لهذا البلد أو ذاك. إذ عمل الحلف على تقديم تفســير للقرار رقم 1973 الصادر عن مجلس الأمن الدولي، مكّنه من التدخّل في التطوّرات الليبية في إطــار نموذج جديد، ما دفع بعض الخبراء الغربيين إلى التفكير بجدّية في اســتخدام النموذج الليبي للتدخّل في ســورية ودعم المجموعات المســلّحة، عبر إيجاد مناطق، آمنة ومنع الطّيران السوري، تمهيدًا لضرب أهداف حكومية تســاهم في سيطرة المجموعات المسلّحة على مقاليد الأمور، وإنهاء ســيطرة الرئيس بشار الأسد على ســورية. وهذا بطبيعة الحــال لا يخدم المصالح الإيرانيــة، بل يؤثّر في الأمن القومــي الإيراني وفي العوامل الجيوستراتيجية التي تهمّ إيران.

– تغيير موازين القوى في المنطقة؛ فالأهداف المشتركة لكلٍّ من الولايات المتحدة وتركيا والســعودية تســعى إلى قيــادة التطوّرات بما يخــدم أهدافها ومصالحهــا، وترجيح ميزان القوى لفائدتها، إذ تقف هذه الدول بشــكل كامل على الأهمية الاســتراتيجية التي تمثّلها ســورية بالنســبة إلى إيران والمصالح الإيرانية في بلاد الشّام، وســقوط النظام السوري يعني تغييرًا جذريًا في موازين القوى في المنطقة لمصلحة الولايات المتحدة والأنظمة المتحالفة معها.

بناءً على ذلك، تســعى إيران من خلال التطوّرات فــي العالم العربي إلى هدفين رئيســين؛ الأوّل: منْحها قدرة المحافظة على توازن القوى في المنطقة، والثاني: تأهيلها للقيام بدور محوري فــي أي نظام أمني إقليمي يراد تنفيذه لها، إذ ربطت الأمر بالمحادثات التي تجريها مع المجموعة الغربية السداســية على خلفية ملفّها النووي، ومن خــلال المقترحات التي طرحتهــا، والّتي تضمّنت المساهمة في الترتيبات الأمنية والسياسية في المنطقة.

يســود الاعتقاد أن تمسّــك القيادة الإيرانية بســقف عالٍ من الشروط في ملفّهــا النووي، يجعلها قادرة علــى القيام بدور أكثر فاعلية في المســاهمة في رســم النظام الأمني والسياســي ها هنا، لأنها تدرك أن الفراغ الذي تركه انتهاء الحرب الباردة بعد سقوط الاتحاد السوفياتي يسير باتّجاه صوغ خريطة جديدة لهذه المنطقة، وأن التفكير في هذا الصوغ بدأ منذ مطلع التســعينيات من القرن

الماضي، لذلك لا تريد إيران أن تكون مســتبعدة عنه، أو إنها في الحقيقة تريد أن تكون من المســاهمين فيه. لذلــك تقدّمت بمقترحات موازيــة للرزمة التي تقدّمت بها الدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الأمن الدولي، الولايات المتحدة وروسيا وبريطانيا وفرنسا والصين، إضافة إلى ألمانيا، في عام 2007، وأكّدت فيها النظام الأمني والسياســي في المنطقة، لا مــن أجل إنهاء الملف النووي، وإنّما من أجل رسم إطار للتّعامل الأمني والسياسي في المنطقة يأخذ الدور الإيراني بالاعتبار.

تعتقد إيران أن الوجود الإسرائيلي هو من آليات الحرب الباردة التي انتهت في عام 1990 بســقوط الاتحاد الســوفياتي، لذا، وجب تغيير الآليات بأخرى جديدة تحقّق مصالح جميع الأطراف المعنية في الشرق الأوسط.

سعى المســؤولون الإيرانيون خلال المناســبات المختلفة إلى التأكيد أن الدّعم الأميركي المطلق لإســرائيل هو الســبب الرئيس في فشــل السياسات الأميركية المختلفة في الشــرق الأوسط. واستمرار هذا الدعم يعرّض المصالح الغربية، والأميركية على وجه التحديد، للخطر. كما أن الوجود الإســرائيلي في المنطقة يكلّف الدول الغربية، والولايات المتحدة تحديدًا، كثرة من المشكلات والمخاطر. وبناء عليه، ترى إيران أن الاعتماد على دول المنطقة يمكن أن يخدم المصالح الغربية التي تنظر إلى اعتباراتها الجيوســتراتيجية، بعيدًا عن الاعتماد المطلق على إسرائيل التي تمثّل عبئًا أمنيًا وسياسيًا لا يمكن أن يخدم مصالحها في المجالات المختلفة.

رابعًا: حقيقة الهلال الشيعي وتأثيراته الجيوستراتيجية في إيران

مثّل ســقوط نظام صدّام حســين في العراق في عام 2003 مرحلة مهمّة من مراحل النظام الرســمي العربي الذي كان مرتكزًا أساسيًا له، والذي نيطت به مهمّة الدفاع عن البوّابة الشرقية في وجه إيران. ومن الطبيعي أن تعمل إيران على اســتغلال هذا الســقوط بما يحقّق مصالحها ويخدم أمنهــا القومي. لكن اللافت أن النظام الرســمي العربي، أو ما تبقّى منه بعد سقوط النظام العراقي،

تعاطى مع الحدث في بُعـده الطائفي، في وقت تعاملت إيـران معه في أبعاده الأمنية والسياسية، الأمر الذي أعطى إيران مسـاحة أوسع للتحرّك في الساحة العراقية وفي إطار القوميات والمذاهب والطوائف، وسـاهم في جعل التوازن يميل إلى مصلحة الجانب الإيراني على حساب النظام العربي.

يخطئ من يعتقد أن إيران تعاملت مع النظام السياسـي الجديد في العراق على أسـاس طائفي بحت، وإنّما على أسـاس أنه نظام سياسـي يخلف نظامًا سياسـيًا امتلك مشـروعًا ودورًا معينًا يتعارض مع الأمـن القومي والمصالح الإيرانية فـي المنطقة. أمّا قضية الدعم الإيراني للشـيعة في العراق أو غيره من البلدان العربية، فإن ذلك - إن وجِد - ليس بسبب الاستراتيجيا الإيرانية، وإنما هو نتاج هذه الاستراتيجيا.

بناءً على نظرة ما تبقّى من النظام الرسـمي العربي حيـال التطوّرات التي حدثت في العـراق، وصف العاهل الأردني الملك عبـد الله الثاني، في كانون الأول/ ديسـمبر 2004، ما يحدث في المنطقة، أي بعد نحو عام من سـقوط نظام صدّام حسين، بأنه بداية لتشكيل «الهلال الشيعي» الذي يمتدّ من إيران إلى لبنان مرورًا بالعراق وسورية. وفي أيلول/ سبتمبر 2005 أعرب وزير الخارجية السعودي الأمير سـعود الفيصل خلال زيارته الولايات المتحدة عن قلقه حيال ما سـمّاه تسـليم الولايات المتحدة العراق إلى إيران في إثر الهجوم الأميركي على هذا البلد. ودعم الرئيس المصري آنذاك حسـني مبـارك هذه التوجّهات، عندما زعم في نيسان/ أبريل 2006 خلال مقابلة تلفزيونية، أن ولاء الشيعة في البلدان العربية لإيران أكثر من ولائهم لبلدانهم، مدّعيًا أن شيعة العراق يعيشون تحت النفوذ الإيراني.

لا أريد هنا أن أتحدّث عن خطورة هذه المواقف على موقف الشـيعة في البلدان العربية وتأثيرها في عواطفهم وولاءاتهم الوطنية والقومية واصطفافاتهم السياسـية. لكن أقول إنها لم تستطع تشخيص المرحلة بشـكل دقيق، كما إنّها أخفقت في تصوير الموقف لدى الشـيعة العرب، لأن إيران لم تكن تتحرّك في هذا الاتّجاه، ولم تكن تشـعر بأهمّية الدخول في الجدل الطائفي. غير أن ذيول

هذه المواقف انسحبت لتسجّل مواقف وطنية لدى الشيعة، أكان في العراق أم في غيره من الدول.

لم تخطئ الدوائر العربية أو الغربية المختلفة عندما قالت إن إيران حقّقت المصلحة الكبرى من سقوط نظام صدّام حسين، وإن هذه المصلحة على حساب المصالح الأميركية في المنطقة، كما أضرّت بالأمن القومي الإسرائيلي، إضافة إلى النظام الرسمي العربي.

يسود اعتقاد أن العامل الوطني والقومي في دول المنطقة يقوم بدور بارز على صعيد التنسيق والتعاون، أكثر ممّا تقوم به العوامل المذهبية والدينية. وعندما حارب الشيعة العرب العراقيون إيران، في الحرب العراقية - الإيرانية تحت راية صدّام حسين، فإنّهم كانوا ينطلقون من هذا المنطلق، لا من خلال المنطق الطائفي المذهبي، و«إن النظرة الواقعية إلى مستقبل الأمور لا تشير إلى وجود تحالف أيديولوجي شيعي بين المجتمعين العربي والإيراني»[31].

في قراءة معمّقة لقضية الهلال الشيعي، وللمزاعم بشأن رغبة إيران في خلق حالة شيعية في المنطقة، يبدو أن النّخب السياسية العربية التي فشلت في قيادة الحياة السياسية خلال العقود الخمسة الماضية في الدول العربية هي التي تعمل على تسويق مثل هذه المفاهيم، للتغطية على السياسات المنتهجة في الإقليم، وهي السياسات التي كانت لها اليد الطولى في تنفيذها، مثل الوجود الأجنبي في المنطقة، أو تبرير الدعم الذي تقدّمه الولايات المتحدة إلى الأنظمة والأحزاب القومية العربية. إضافة إلى تبرير ذلك الاصطفاف إلى جانب رئيس النظام العراقي الأسبق صدّام حسين في الحرب العبثية التي قادها مدة ثمانية أعوام ضد إيران، والتي لم يستفد منها العراقيون ولم تخلّف إلّا المزيد من الخراب والقتل، بل خلقت الأرضية التي مهّدت في ما بعد لاحتلال العراق في عام 2003. وممّا يسجّل على النظام العربي الرسمي، أو ما تبقّى منه، أنه لم

(31) كيهان برزكر، «إيران والهلال الشيعي: الحقيقة والخيال،» مركز الأبحاث العلمية والدراسات الاستراتيجية للشرق الأوسط.

يقدّم أي اعتذار للشـــعب العراقي عندما دفعه إلى دخـــول حرب عبثية مجنونة، لكنّه تخلّى عنه خلال أعوام الحصار والاحتلال.

انتهجت إيـــران بعد انتهاء الحرب العراقية - الإيرانيـــة، وتحديدًا بعد عام 1990، اســـتراتيجيا تســـتند إلى العلاقات المتوازنة مع الدول العربية لتحقيق مصالح أمنها القومي، في إطـــار «تعزيز الثقة» و«إزالـــة التوتّر». لكن الأزمات والحروب لم تســـمح لإيران بالتقدّم في هذه السياسة، إضافة إلى وجود بعض الآراء والمواقف المتطرّفة لدى الجانبين حال دونها.

يعتقد الإيرانيون أن النزاع «الشيعي - السنّي»، أو «العربي - الإيراني» في المنطقة ليس نزاعًا أيديولوجيًا بين العرب والإيرانيين بقدر ما هو على الســـلطة داخل العالم العربـــي، وأن الوجود الإيراني في المنطقة هـــو من أجل مصالح الأمن القومي الإيراني أكثـــر ممّا هو عامل أيديولوجـــي[32]، وأن تقارب إيران مع الشـــيعة العرب يأتي في إطار النظرة الواقعية والعملية والدفاعية إلى الأمن القومـــي الإيراني، أكثر منه إلى سياســـة التمدّد في الـــدول العربية. إن إيران لا تهدف من خلال علاقاتها بالشيعة العرب إلى دعمهم في بلدانهم، وإنّما تحاول إيجاد بيئة آمنة على حدودها أوّلًا، والعمل على خلق مناخات اقتصادية وصولًا إلى أهداف التّنمية المستدامة التي وضعتها للخمسين عامًا المقبلة.

ليس خافيًـــا أن إيران تعتقـــد أنها دولة كبيـــرة في المنطقـــة، لها مصالح اســـتراتيجية، وأن فكرة «الهلال الشيعي» لا تنســـجم مع تلك التي وضعتها في تعاطيها مع دول المنطقة وشـــعوبها، ولا يمكن أن تحقّق مصالح الأمن القومي الإيراني.

(32) برزكر، «إيران والهلال الشيعي».

تعقيب

رشيد يلوح

يروم هذا التعقيب تقديم مجموعة من الملاحظات المنهجية والموضوعية على الدراسة المقدّمة.

عرض الباحث في مستهل دراسته موقف النظام الإيراني من الثورات العربية عمومًا، وهو الموقف الذي يجعل النظام الإيراني خارج منطق التحوّلات الجارية الآن، باعتباره جاء نتيجة ثورة شعبية، ووقف في وجه قوى الاستكبار العالمي، وناصر قضايا المستضعفين في العالم. وعلى هذا الأساس، يرى هذا الطرح أن الثورة الإسلامية في عام 1979 في إيران كانت منطلق هذه التحوّلات ومركزها، وربّما مآلها النهائي عند البعض.

أولًا: جاهل مواقف المعارضة الإيرانية

اكتفى الباحث في معرض توضيح الموقف الإيراني بعرض وجهة النظر الرسمية ومن يدعمها، في مقابل إشارة بسيطة وعابرة إلى الرأي المخالف. ونحن نعلم أن المعارضين عمومًا للنظام في إيران وخارجها لهم رؤى ومواقف مخالفة للموقف الرسمي؛ إذ استنكر معظمهم الموقف الرسمي الإيراني من الثورات العربية، وعدُّوه ازدواجية في الخطاب، خصوصًا عندما قارنوا موقف النظام من الاحتجاجات المليونية التي عرفتها إيران في عام 2009 وموقفه من الثورات العربية. يرى الزعيم الإصلاحي المحاصر مير حسين موسوي أن هناك

تشابهًا كبيرًا بين احتجاجات الشـعب الإيراني واحتجاجات الشعوب العربية، فالأسباب والدوافع برأيه واحدة في الحالتين[33].

أمّا عضو منظّمة مجاهدي الثورة الإسلامية المعتقل في إيران سيد مصطفى تاج زادة، فرأى أن المشترك الأســاس بين الحركة الخضراء وحركات شعوب المنطقة العربية هو مواجهة الاســتبداد. كما أن هذه الحــركات لا تنفي التزام الشعوب بالإســلام، لكنّها لا تســعى إلى تطبيق النموذج الإيراني، لأنها تريد نظامًا ديمقراطيًا عادلًا وكريمًا. وقال: «حتى هذه اللحظة لم يقبل أي بلد عربي بالنموذج الذي يروّجه المحافظون، بل حتى الشعوب القريبة منّا والتي لنا معها مشتركات كثيرة لم تقبل بهذا النموذج»[34].

تعليقًا على الازدواجية المذكورة، قال الدبلوماســي الإصلاحي الســابق محمد صدر: «عندما يدعم الرئيس أحمدي نجاد مطالب الشعب الليبي ويدين وصف القذافي لخصومه بالجرذان والحشّاشين، ينبغي له في المقابل ألّا يصف خصومه بالحثالة»[35].

ثانيًا: التباس الموقف الإيراني من الثورات العربية

أعتقد أن الموقف الرســمي الإيراني يحمل في طياته التباسًــا كبيرًا، ولا يمكننا كشف هذا الالتباس إلّا إذا قمنا بفرز منهجي، وهو ما نفصّله بين عنوانين رئيسين:

- العنوان **الأول** هو النظام الإيراني المســتقل والمواجه لأميركا وإسرائيل والداعم لمشاريع المقاومة الإسلامية والعربية في لبنان وفلسطين.

---

(33) ضمن بيان له نشــر على موقــع دانشــجو نيــوز، <http://www.daneshjoonews.com/news/politics/5497-1389-11-09-14-21-33.html>.

(34) «الحركة القومية الإيرانية الخضراء وانتفاضات المنطقة» (جنبش ملى ســبز ايران و خيزش هاى منطقه)، موقع كلمه، 3/ 3/ 2011، <http://www.kaleme.com/1389/12/12/klm-50285>.

(35) «محمد صدر: من غير المقبول أن يدافعوا عن حرية الشــعبين التونسي والمصري» (محمد صدر: نمى‌شود از آزادى مردم تونس و مصر دفاع كنند، ولى در داخل رفتار ديگرى داشته باشند)، موقع كلمه، 10/ 3/ 2011، <http://www.kaleme.com/1389/12/19/klm-51191>.

- العنوان الثاني هو النظام الإيراني المتورّط داخليًا في الاستبداد والفساد، وخارجيًا في التمزيق الطائفي.

إذا استطعنا أن نميّز بين هذين العنصرين نكون قد خطونا خطوة مهمّة في تفكيك الطرح الرسمي الإيراني، والخروج من الالتباس، وربّما التردّد الذي قد نسقط فيه.

إن جوهر الثورات العربية، وما يعرفه العالم العربي من تحوّلات، هو تطلّع الشعوب إلى ثلاثة عناوين أساسـية: العدل والحرّية والكرامة، بكلّ ما تستدعيه هذه العناوين من أهداف كلية وجزئية، ومن مسارات وتفاصيل مطلبية.

فـإذا كانت الشـعوب العربية ترى رفاهيتهـا وحرّيتهـا وكرامتها مطالب مندمجة ضمن مطلبها القومي والحضاري في الاسـتقلال، والوقوف في وجه جميع قوى الاسـتكبار والإلحاق العالمية، فإن هذه الشعوب تؤمن بأن مقدّمة هذا المطلب الحيوي وشـرطه هما تحرّرها من الاسـتبداد والفسـاد. فكيف يمكن للنظام الإيراني الحاكم ذلـك، وهو الذي تحوّل في الأعوام الأخيرة إلى نموذج فريد في الاستبداد وتحييد خصومه السياسيين، ومصادرة حقوق الشعب الإيراني في التفكير والتعبير والعيش الكريم، وإلى نظام تنخره مافيات الفسـاد المالي والاقتصادي؟ هذا بشواهد وإثباتات من شركائه في الحكم.

سـنحتاج إلى كثير من الاتّزان والموضوعية حتى نميّز بين وجهي النظام هذين، وجه النظام الديني الأخلاقي المقاوم، ووجه النظام المسـتبدّ والفاسـد والداعم لمشـاريع التمزيق الطائفي. نسـتحضر هنا نموذجين مشـابهين لهذا النظام، وهما النظام السوري والنظام العراقي السابق. إنه نموذج غريب يصادر حقوق شـعبه، ويبرّر فسـاده واسـتبداده بمواقفه المناهضة لأميركا وإسرائيل، ويرى أن استمرار قيم الحق والعدل في العالم متوقّف على استمراره واستحكام أركانه ولو كان الثمن شـقاء شـعبه، والدوس على جميع الشـعارات التي قام عليها، وفي المقابل يعدّ أي إدانة وفضح لفسـاده واستبداده استهدافًا لمشروعه المقاوم للاسـتكبار العالمي، ويعتبر كلّ من ينتقده أو يجادله في انحرافه عميلًا ومِغولًا في يد الأعداء.

من حقّ النظام الإيراني أن يفتخر بتاريخــه ومنجزاته، ونحن أيضًا لا ننكر الأثر البالغ والأســاس للثورة الإيرانية في خدمة قضايا النضــال العالمي ضد الاســتعمار العالمي الجديد، كما لا ننكر ما لهذه الثــورة من منجزات في دعم قضايا المقاومة والتحرّر العربي في لبنان وفلسطين، لكن من حقّنا أيضًا ألّا نقبل بتمرير المغالطات التاريخية وتزوير الوقائع والحقائق تحت هذا الغطاء.

إن ثورة 1979 لم تكن يومًا منطلق نضالات الشعوب العربية، لأننا نعرف جميعًا أن نضال هذه الشعوب وســعيها إلى التحرّر سبقا هذا التاريخ بكثير، بل كان هناك نضال وتنسيق مشترك بين قوى التغيير في الضفّتين العربية والإيرانية. وهنا نذكر تنســيق التعاون الــذي كان قائمًا بين الإخوان المســلمين في مصر وقوى التحرّر في إيران منذ أربعينيات القرن العشــرين، ويندرج في هذا السياق اللقاء التنســيقي الذي جمع بين حسن البنا وآية الله كاشــاني في موسم الحجّ في عام 1948[36]. ثمّ زيارة المقاوم الإيراني ومؤسّس منظّمة «فدائيان إسلام» نواب صفوي (1924– 1955) إلى القاهرة في عام 1954 وتنسيقه هو الآخر مع الإخوان المسلمين، وكانت فلسطين محور ذلك اللقاء[37].

كانت علاقة الزعيم القومي الإيراني محمــد مصدق بنظيره العربي جمال عبد الناصر تتويجًا للتعــاون الإيراني - العربي، إذ كان عبد الناصر متحمّسًــا لتقديم الدعم لقوى التغيير في إيران، خصوصًا قادة الثورة الإســلامية منذ بداية ستينيات القرن الماضي[38].

أرادت الثورة الإيرانية أن تكون قاعدةَ الانطلاق لقوى التحرّر، وبتعبير آخر أراد قادتها ثورتهم كنموذج لدى باقــي قوى التغيير في العالم العربي. وحاولوا

---

(36) عبد المتعالي محمد الجبري، لماذا اغتيل الشــهيد حســن البنا؟ (القاهــرة: دار الاعتصام، 1977)، ص 32.

(37) فتــحي يكن، «مع نواب صفوي،» مجلة المســلمون، الســنة 5، العدد 1 (نيســان/ أبريل 1956)، ص 73.

(38) فتحــي الديب، عبــد الناصر وثورة إيــران (القاهرة: مركز الأهرام للدراســات السياســية والاستراتيجية، 2000)، ص 23-119.

ذلك، لكن للأسف كانت معوّقات الثورة الإسلامية الذاتية هي المانع الأساس أمامها. تخلّصت الثورة من الشـــاه، لكنّها لم تســتطع الفكاك من قيود التاريخ وسلطة العوامّ، ولا أقول المذهب، لأن العقائد والقناعات الدينية حين تتخلّص من وطأة التاريخ والانحراف البشري، تكون متعالية ومُعزِّزة للجوهر الإنساني. يقول عالِم الاجتماع الإيراني محمد برقعي في هذا الإطار: «تَعَمَّق لدينا الشعور بالقهر والغربة منذ تشـيّعنا في عهد الدولة الصفوية، عندما أسّس رجال الدين لعلاقــة عدائية مع العــرب، على الرغم مــن أن النجف مَثّلت باســتمرار أكبر حوزة علمية شــيعية (...) إن الحداثيين والجامعيين منّا يُعبِّرون عن هذا العداء بدرجات أكبر، وذلك عندما يدَّعون أن عِرقنا الآري هو الأفضل»[39].

مــن الملاحظات العجيبة أن عالِــم الاجتماع الإيراني علي شــريعتي تنبّأ لمــآل الثورة الإســلامية، على الرغم من أنه لم يشــهد لحظــة انتصارها، هذا الرجل الذي نال لقب «معلم الثورة الإسلامية»، كرّس جهده الفكري والعلمي أعوامًا، مُنبِّهًا إلى ضرورة تجاوز العائق الثقافي في إيران، وعدّه شــرطًا أساسًا لأي تحوّل عميق في إيران. وفي هذا السّياق، شدَّد على فصل «الإسلام الذاتي» عن «الإسلام التاريخي»، ضمن مشروع شامل سمّاه «البروتستانتية الإسلامية». يقول هاشم أغاجري: «لخّص شريعتي كل جهده وبرامجه ومؤلّفاته في مشروع واحد، هو مشروع البروتستانتية الإســلامية، وبالطبع يختلف هذا المشروع مع البروتستانتية المســيحية في كثير من العناصر، فهو يشتمل على خصائصه وفي الوقت نفسه هو احتجاج على الدين الرســمي، إذ كرّس شريعتي كلّ جهده في نقد هذا الدين الانحطاطي»[40].

من المفارقــات العجيبة أن تتعرّض أفــكار شــريعتي وتلامذته من دعاة مشــروع التحوّل الثقافي إلى المحاربة والتضييق من جانــب نظام الجمهورية

---

(39) محمد برقعي، «لماذا انتشــرت حركة مصر، ولم تنتشــر حركة إيران؟» (چرا جنبش مصر فراگير شد وانقلاب ايران نشد)، 27/ 02/ 2011، <http://www.rahesabz.net/story/33341>.

(40) هاشــم آغاجري، الدين، الســلطة والمال (دين، قدرت وثروت) (طهران، مؤسّســه نشــر وتحقيقات ذكر، 2004)، ص 65.

الإســـلامية، وذلك لما يمثّله من تهديد للـ «الإســـلام التاريخـــي» الذي تتبنّاه المؤسّسة الدينية اليوم في إيران.

إن الاســـتبداد لا يســـتهدف وجود منافسيه فحسب، بل يســـعى أيضًا إلى اجتياح معنوياتهم ومفاهيمهم، لذلك شـــاهدنا أنظمة الاستبداد العربي تحاول بعناء ارتـــداء حلّة الربيع العربي، فصـــار كلّ منها يدّعي الفضـــل في بروز هذا التحوّل التاريخي. فهي تريد أن تبقى بعيدة عن منطق تلك الثورات وارتداداتها، حتـــى أن بعضها جنح به الخيال فروّج لنفســـه كاســـتثناء تاريخـــي، وكنموذج ديمقراطي، كما فعلـــت الأنظمة مثلًا في المغرب والجزائـــر والعراق. في هذا الإطار يمكننا درج خطاب النظام الإيراني.

باقي ملاحظاتي على دراسة الباحث أُجملها في العناوين التالية:

– سورية

لم يخـــرج الباحث في تناوله الموقـــف الإيراني من الثورة الســـورية عن منهجه السابق؛ فهو يعرض للموقف الرســـمي الداعم لنظام بشار الأسد، وهو موقف عمّق درجة الانحراف الإيراني عن شـــعارات ثورة 1979، وأفقد إيران تاليًا كثيرًا من المؤيدين في العالم العربي.

بحسب اطّلاعي، أجد أن هناك ما يشبه نظرية قائمة بحالها تبرّر الاستبداد عند القيادة الإيرانية، ويمكن ملاحظتها مثلًا في فهم هؤلاء للمبادئ الثلاثة التي انطلقت على أساســـها ثورة 1979، أي: استقلال. جمهورية إسلامية. حرّة؛ إذ يعدّون الجمهورية الإســـلامية مقدّمة على الحرّية، ومن أجل ضمان استمرارها يبيحون اســـتخدام الوســـائل كلها، ما عزّز لدى كثير من أبناء الثـــورة وجيلها الأول حقيقة انحراف الثورة عن مشـــروعها التحرّري الأول، لتعيد إنتاج جوهر الاستبداد الملكي تحت شـــعارات وأقنعة جديدة. وحاول محسن آرمين[41] أن

(41) عضو مؤســـس في منظمة مجاهدي الثورة الإســـلامية، يقضي حاليًا عقوبة بالســـجن لمدة ســـتة أعوام مع الحرمان من الحقوق السياسية والمدنية لمدة خمســـة أعوام بتهمة المسّ بالأمن القومي، والترويج لأفكار معادية للنظام الإيراني.

يشـــرح هذا الوضع قائلًا: «تعدّ الطبقية والجمود والعنف بالنســـبة إلى أي نظام سياسي، خصوصًا إذا كان دينيًا، علامات خطِرة وسرطانًا مهلكًا، وفقدانًا للمناعة أمام الأمـــراض كلها. إن العجز عن إعـــادة إنتاج الأيديولوجيـــة الحاكمة على مستوى المجتمع، والعجز أمام عزوف المجتمع عن سياسات الثورة ومناهجها وأصولها، هي أعراض يجب أخذها بجدّ والســـعي لتجاوزها، أمّا استمرار هذه الأعراض، فإنه تدريجًا سيُفرغ الثورة من مضمونها الأصلي، وسيجعل الإبداع والقوّة والحركة والانفتاح والحياة الفكرية صمتًا وركودًا مميتًا، وسيبدل المباني والحقائق صورًا وأطلالًا منسية، كما سيحلّ الفروع مكان الأصول»[42].

لذلك ليس غريبًا أن تتعاطف القيادة الإيرانية مع استبداد نظام بشار الأسد، وأن ترى في مطالب الشعب السوري المشـــروعة مؤامرة لضرب ممانعة النظام واستقلاله. الثورة الإيرانية لم تستطع إبداع رؤية تعترف للشعب بحقّه في اختيار النظام والحياة التي يريدها، وفي الوقت ذاته تواصل التعاون معه في تمتين خطّ المواجهة والممانعة.

نريد أن نشـــير هنا إلى أن الدور الإيراني في ســـورية لا يقف عند الدعم السياسي للنظام، بل يتعدّاه إلى الانخراط الكامل مع نظام بشّار الأسد في حربه على شـــعبه. من الدعم المالي إلى الاستخباراتي والعســـكري كما يؤكّد ذلك الواقع والتقارير في سورية.

- البحرين

عن الموقف الإيراني من الحركة الاحتجاجية في البحرين، يقول الباحث: «... حيث كانت إيران مـــن البلدان المدافعة عن مطالبات الشـــعب البحريني، لأن سقوط النظام السياســـي في البحرين يعني ســـقوط أحد الأنظمة السياسية المتحالفـــة مع الولايـــات المتحدة فـــي المنطقة الخليجية لحســـاب المصالح الإيرانية في هذه المنطقة الحيوية، ولذلك كانت البحرين من أهمّ نقاط الحراك بين إيران من جهـــة، والولايات المتحدة والســـعودية من جهـــة أخرى». وأنا

(42) آغاجري، ص 3.

أتّفق معه من حيث مُوجِّه الموقف الإيراني الذي ليس في الحقيقة إلّا تحقيقًا للمصالح والتوازنات، ومبدئيًا ليس لأحد أن ينكر على الإيرانيين البحث عن مصالحهم القومية، لكن المرفوض هو أن يكون ذلك على حساب مصالح الشعوب الأخرى.

هذا يقودنا إلى الحديث عن موضوع «المصالح القومية» عند الإيرانيين، أين تبدأ؟ وأين تنتهي؟ وأين تلتقي مع الشعارات التي ترفعها الثورة الإسلامية؟ وهل من علاقة بين دفاع إيران عن مصالحها القومية، وتوظيفها الورقة الطائفية في المنطقة؟

- العراق

يقول الباحث: «ويخطئ من يعتقد أن إيران تعاملت مع النظام السياسي الجديد في العراق على أساس طائفي بحت، وإنّما تعاملت معه على أنه نظام سياسي يخلف نظامًا سياسيًا امتلك مشروعًا ودورًا معينًا يتعارض مع الأمن القومي والمصالح الإيرانية في المنطقة، أمّا قضية الدعم الإيراني للشيعة في العراق أو غيره من البلدان العربية، فإن ذلك - إن وجِد - ليس بسبب الاستراتيجيا الإيرانية وإنما هو نتاج لهذه الاستراتيجيا».

من الغريب جدًّا أن يتجاهل الباحث كلّ الدور الطائفي الإيراني الذي نراه بوضوح منذ أعوام في العراق، والذي قاد البلاد إلى التمزّق والدمار. كيف نستطيع غضّ الطرف عن هذا الدور؟ ولا أعرف حقيقة الفارق بين أن تكون الطائفية سببًا للاستراتيجيا الإيرانية في العراق أو نتيجة لها؟ ماذا يقصد الكاتب بهذه المعادلة؟ والحقيقة أن الباحث ينقض هنا مقدّمته التي نفى فيها دور الإيرانيين الطائفي.

أمّا ما يعدّه الباحث انتصارًا لإيران في الموضوع العراقي فهو في نظر كثير من الباحثين العرب ليس سوى منحة أميركية. يقول عبد الوهاب القصاب: «ولعلّ من الأمور المثيرة للانتباه هو السكوت الأميركي، أو القبول على مضض بتنامي هذا النفوذ في العراق تحت أنظار قواتها وحضورها الدبلوماسي القوي

فــي العراق. يثير هذا الأمر شــبهة وجــود صفقة بين الطرفيــن، وإن تكن غير مباشرة خلاصتها إطلاق يد إيران في الداخل العراقي في مقابل إبقاء الخيارات الاستراتيجية (وربما الاقتصادية) للعراق بيد الولايات المتحدة الأميركية. هناك جملة متغيرات وشواهد على الساحة تدعم هذه القناعة منها:

1 - غضّ الطرف عن التغلغل الواســع للمليشــيات الإيرانية السلاح في العراق، بل وغضّ النظر عن كون مسالكها للحركة بين العراق وإيران مفتوحة.

2 - الانصياع للرغبة الإيرانية في تعيين نوري المالكي رئيسًا للوزراء على حساب القائمة الفائزة بالأغلبية البرلمانية.

3 - المناورات البحرية الإيرانية على نطاق واسع في مضيق هرمز.

4 - حركة جماعات محســوبة على إيران في بعض دول مجلس التعاون الخليجي وتأييد إيران لها على حساب دولها»[43].

إن هذا التحليل يقترب كثيرًا من مشــروع «التــوازن الطائفي في المنطق» حيث هناك من يعتقد أن الأميركيين يقفــون وراءه، ما يُرجّح بقوّة وجود تقاطع مصالح استراتيجية بين النظام الإيراني والأميركيين على حساب دول المنطقة. ولمّح الباحث إلى هذا الأمر في أثناء حديثه عن صراع المصالح بين القوى في المنطقة.

ثم يقول في دراســته: «إن تقارب إيران مع الشــيعة العرب يأتي في إطار النظرة الواقعية والعملية والدفاعية للأمن القومي الإيراني، أكثر منه إلى سياســة التمدّد في الدول العربية. إن إيران لا تهدف من خلال علاقاتها بالشيعة العرب إلى دعم هؤلاء الشــيعة في بلدانهم، وإنّما تحاول إيجاد بيئة آمنة على حدودها

(43) عبــد الوهاب القصاب، «صــراع المصالح والأيديولوجيا في جيوبوليتيــكا الخليج العربي وتداعياته: الصراع الغربي/ الإســرائيلي/ الإيراني نموذجًا،» ورقة قدمت إلى: نــدوة «العلاقات العربية الإيرانية في منطقة الخليج» التي أقامها منتدى العلاقات العربية والدولية، الدوحة، 29-30 تشرين الثاني 2012، ص 18.

أولًا، والعمل علـــى خلق مناخات اقتصادية لتحقيق أهداف التنمية المســـتدامة التي وضعتها للخمسين عامًا المقبلة».

يجتمع في هذا الكلام التناقض والمغالطة، لا أعرف كيف يمكن أن يكون هناك تقارب وإيجاد بيئة آمنة في علاقة إيران بالشـــيعة العرب، من دون التمدّد في الدول العربيـــة؟ أليس التدخّل في شـــؤون الدول المجـــاورة أقرب طريق إلى التمدّد؟ ثمّ ما هي هذه «النظرة الواقعيـــة والعملية والدفاعية للأمن القومي الإيراني» التي تجعل إيران تتقارب مع الشيعة العرب في بلدانهم؟

هذه الســـطور - باعتقادي - تكشـــف وتنسف؛ تكشـــف حقيقة ما يقصد الإيرانيون بـ«المصالح القومية»، وتنســـف ما حاول الباحـــث أن يقنعنا به في الصفحات السابقة.

إن الطائفية في حقيقتها ليســـت ســـوى وســـيلة لتحقيق أهداف ومصالح أخرى، ويبدو هذا واضحًا عندما ننظر إلـــى أوضاع الأقلّيات المذهبية والعرقية داخل إيـــران، خصوصًا العـــرب، فهؤلاء علـــى الرغم من كونهم شـــيعة مثل بقية الشـــيعة العرب في المنطقـــة، فإنهم يعانون الكثير جرّاء سياســـة العنصرية والتهميش في نظام الجمهورية الإســـلامية. أليس من حقّنا أن نتساءل: إذا كان هدف النظام الإيراني من التدخّل في شؤون الشـــيعة العرب هو دعم مطالبهم، فلماذا لا يستجيب مطالب إخوانهم في جنوب إيران؟

لا يتّســـع المقام للحديث عن الشواهد والوثائق، لكن يكفي الاطّلاع على أخبار الأحواز وما يجري فيها للتأكّد ممّا أقوله. وأحيل هنا إلى الوثيقة المسرّبة في عهد حكومة خاتمي التي كشـــفت مخطّطًا سريًا للتّلاعب بالتركيبة السكّانية في المنطقة.

إذا كانت إيران ناجحة في توظيف الورقة الطائفية، فإن بعض دول المنطقة أيضًا متورّطة بشـــكل أو بآخر في هذا التوظيف، إذ تعتقد أن المضي في تأجيج هذا الصراع العقيم والخطِر هو الحلّ الأمثل للردّ على الحملات الإيرانية. وهذا بالطبع خطأ له تبعات مدمّرة على المنطقة ومستقبلها.

فهرس عام

- ح -

- غ -

هذا الكتاب

غيّرت الثورات العربية التي راحت تندلع منذ شتاء 2011 صورة العالم العربي إلى حد كبير، مع أن مشهد العالم العربي لم يستقر على قوام محدد حتى الآن. وأطلقت هذه الثورات في الفضاء العربي عاملاً جديدًا سيكون له الأثر الكبير في تقرير مصائره، هو الرأي العام. ومع أن تغيرات مهمة طرأت على الموقع الاستراتيجي للمنطقة العربية، كتمزيق السودان وتهديد منابع النيل وعودة روسيا من البوابة السورية، إلا أن من المؤكد أن هذه الثورات ليست مجرد ثورات احتجاجية أو سياسية فحسب، إنما هي ثورات يتداخل فيها الاجتماعي والسياسي، وتتفاعل في سياقها الأفكار والعقائد والأيديولوجيات والأبعاد الاستراتيجية، فتؤثر كلها معًا في رسم الاتجاهات التي سلكتها أو ستسلكها هذه الثورات. وهذا الكتاب الذي شارك في كتابة بحوثه أربعة وعشرون كاتبًا هو محصلة تفكير جماعي وفردي في مصير هذه الثورات في هذه المنطقة وفي تأثيرها معًا.

المؤلفون المساهمون

أحمد سعيد نوفل
أسامة أبو إرشيد
بشارة خضر
حسن أبو هنية
خطار أبو دياب
رشيد يلوح
سليمان سينسُوي
سمير صالحة
طارق عبد الجليل
طلال عتريسي
الطيب محمد
عبد الوهاب القصاب
محجوب الزويري
محسن صالح
محمد جواد علي
محمد السيد سليم
محمد صالح صدقيان
محمد فايز فرحات
محمود محارب
مروان بشارة
مروان قبلان
نورهان الشيخ
هاني المصري
وليد عبد الحي

السعر: 22 دولارًا

ISBN 978-9953-0-2932-0
9 789953 029320

